الدكتور صلاح الدين الهادي

اتجاهات الشعر في العصر الأموي

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

اتجاهات الشعر في العصر الأموي

تأليف

الدكتور صلاح الدين الهادى
أستاذ الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم
جامعة القاهرة

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويرى

مكتبة الخانجى

ص . ب ١٣٧٥ القاهرة

الطبعة الأولى

١٤٠٧ هـ = ١٩٨٦ م

مطبعة المدنى المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة ت : ٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـديـم

أحمد الله حمد الشاكرين ، وأصلى وأسلم على عبد الله ورسوله محمد ، وعلى آله أجمعين .

وبعد

فقد وجدت الباحثين فى حياة الشعر فى العصر الأموى ، قد تفاوتت بينهم المناهج فى النظر إلى هذا الشعر ، ورصد قضاياه ، وتعليل ظواهره ، والإلمام بنواحى نشاطه ، ومختلف اتجاهاته .

منهم من اكتفى بتتبع تيار واحد من التيارات الشعرية ، التى زخر بها حقل الشعر فى هذا العصر ، غير ملتفت إلى مسارات الحركة الشعرية الأخرى ، ومابينها من صلات ، فنية ، وبيئية ، تجعل من هذا النتاج الفنى كُلاً متلاحما ، تتداخل ظروف تكوينه ، ومقوماته ، وبواعثه ، بحيث يكون من التعسف الفصل بين مكوناته ، وقطع اتجاهاته بعضها عن بعض .

كما يتعذر الوقوف على دقائق الصلة بين موضوعاته ، ودراسة حقائق ملامحه ، إلا من خلال نظرة شاملة ، ترعى مابينها من روابط ، فنية ، وسياسية واجتماعية ، وحضارية .

وفى العصر الأموى بخاصة ، حيث تصارعت الأهواء ، واهتزت وحدة الأمة الإسلامية ، وعادت إلى الحياة نزعات جاهلية ، مع بزوغ فجر نهضة أخذت تتطلع إلى تراث الأمم ، التى سبقت أمة العرب إلى ميادين الحضارة ، والفكر والفن ....

نقول : فى هذا العصر لايستطيع باحث أن يتجاهل تداخل المؤثرات والروابط فى إنحاء الحياة الأدبية بعامة ، والتأثير فى الحركة الشعرية وتوجيهها بخاصة .

فالواقع السياسى الذى عاشه العصر الأموى ــ مثلا ــ لم يثمر شعرا سياسيا

يعبر عن الحزبية السياسية ، المتصارعة فى هذا العصر فحسب ، وإنما كان له تأثيره أيضا فى دفع ألوان أخرى من النتاج الشعرى ، إلى البروز والتطور أو الذيوع والانتشار .

وكثيرا ماتضافرت عوامل سياسية ، واجتماعية ، وثقافية ، فى توجيه الشعر إلى موضوع أو أكثر ، أو اتجاه أو أكثر ، من اتجاهات الشعر ، التى تحركت فى هذه الفترة الهامة من حياة الدولة الإسلامية .

على أن من الباحثين من وقف جهده فى دراسة الشعر الأموى عند حد النظر فيما أصاب هذا الشعر من ملامح التطور أو التجديد ، واقتضاه منهج بحثه أن يعرض عن ألوان من شعر العصر ، لم يَرَ فيها ـــ حسب مقاييسه التى ارتضاها للحكم بالتطور أو التجديد ـــ موضوعا لدراسته ، مع أن هذه الفنون ، أو الألوان ، تتمتع بقيمة تاريخية ، وأدبية ، ولغوية ، لاتقل أهمية ، عن قضايا التطور والتجديد فى الشعر الأموى .

فالشعر القبلى ـــ مثلا ـــ ازدهر ، وهو يشغل جزءا ضخما من ديوان الشعر الأموى ، وسجل كثيرا من أوجه الحياة الاجتماعية والقبلية فى عصر بنى أمية ، ومع ذلك ، فليس موضوعا للدراسة ، عند الباحثين عن مظاهر التطور والتجديد فى الشعر الأموى .

ولست بهذا أتجاهل قيمة هذه الدراسات ، التى نهض بها أساتذة فضلاء محققون ، لهم مقام الأستاذية والريادة فى مجال الدراسات الأدبية ، فيعلم الله أننى ما إلى هذا قصدت ، فدراساتهم وأبحاثهم فى دراسة شعر العصر الأموى سدت نقصاً ، وخدمت مجالا هاما فى دراسة الأدب الأموى بعامة والشعر منه بخاصة .

غاية الأمر أن اختلاف مناهجهم فى دراسة الشعر الأموى ، والنظر إليه ، هى التى أوحت إلى بإعادة النظر فى ديوان الشعر الأموى باتجاهاته المتعددة تصنيفا ، المؤتلفة روحا وباعثا ، وغاية ، على ضوء منهج يعالج هذا الشعر باعتباره صدى للنشاط المتكامل للحياة فى هذا العصر ، وكُلًّا فنيا ، تتعدد موضوعاته ، ولكنها تتآزر ، وتتلاقى ، لتعكس هذا النشاط .

ومع أننى حرصت الحرص كله على أن يقوم منهج دراستى هذه ، على استنطاق نصوص هذا الشعر ، وذلك بالعناية بالناحية التحليلية لهذه النصوص ، فلست أنكر أننى أفدت كثيرا ، من الجهود التى فاض بها علم الأساتذة ، الذين وجهوا عنايتهم إلى دراسة جوانب من شعر هذا العصر الأدبى الهام .

فإلى هؤلاء الأساتذة العلماء أدين بالشكر والعرفان .

والله أسأل أن يجعل عملى هذا نافعا ، خالصا لوجهه الكريم ، فهو القصد ، ومنه التوفيق والعون .

صلاح الدين الهادى
منيل الروضة : ١١ من شوال ١٤٠٢ هـ
٣١ من يوليو ١٩٨٢ م

الفصل الأول

أبرزُ العوامل التى وجَّهَتْ الشعرَ
فى العصر الأُمويّ

تقديم

أول مايلفت نظر الباحث فى أدب اللسان العربى بعامة ، مابينه وبين أحداث التاريخ وظروف البيئة من تجاوب عميق ، وارتباط وثيق ، فعلى ضوء الدراسة التاريخية للحياة العربية فى بيئاتها وعصورها المختلفة ، يمكن تفسير أكثر المفاهيم التى أداها هذا الأدب ، والاتجاهات التى اندفع إليها ، كما يتأتى إدراك غير قليل من خصائصه الفنية .

ومن مظاهر هذه الصلة القوية بين الأدب والتاريخ ، خضوع الشعر العربى فى مختلف أدوار حياته لتطور حياة الأمة العربية ، فى النواحى : السياسية ، والاجتماعية والثقافية ، والحضارية ، والاقتصادية أيضا ، فهذه النواحى هى التى فرضت عليه ماشاءت من التغيرات ، وهى التى رسمت له مجراه واتجاهاته ، ومن هنا تعددت أطواره ، وتبدلت موضوعاته وصوره ، وألفاظه ، وأساليبه ، وكثيرا ماارتاد حقولا جديدة من المعانى ، أو غلبت عليه صياغات لم تكن مألوفة ، وكلما كانت التحولات فى هذه النواحى بارزة ، مؤثرة فى مسار الحياة ، كان خطر التغيرات التى تحدث فى تطور الشعر ، والأدب بعامة .

وإذن ، فعلى المؤرخ لحياة الشعر فى العصر الأموى ، أن يتصدى لرصد التطورات الهامة التى وجدت فى الحياة العربية الإسلامية فى هذا العصر ، وأن ينظر فيها نظرا يؤدى إلى الكشف عن الملامح الهامة لنواحى هذه الحياة ، ويوضح أهميتها فى توجيه شعر العصر .

تغير وجه الحياة كثيرا فى الدولة الإسلامية خلال حكم الأمويين ، عما كان عليه فى عصر النبوة والراشدين ؛ لتعدد أوجه الخلاف بين العصرين ، وتوفر دواعيه ، فى السياسة ، والفكر والثقافة ، والحضارة ، ونظم الاجتماع .

فالثابت أن أسس الحكم التى سار عليها النبى ﷺ والراشدون من بعده ، تختلف عن نظم الحكم الملكى فى ظل دولة الأمويين ، التى تشبه فى مظهرها ونظامها نظم الحكم الملكى فى دولتى الفرس والروم ، وإن انضوت تحت لواء الإسلام .

كما أن الخلاف بين المسلمين ، فكريا ومذهبيا وسياسيا ، لم يعرف فى العصر السابق على الصورة الحادة التى نراها فى عصر بنى أمية [١] ، فقد كان الناس يعيشون حياة مثالية تُسَاسُ بالقانون الشرعى ، الذى يفرض الواجبات ، ويعطى الحقوق ، لم يكثر بينهم الخلاف فى الآراء ، ولم يتأولوا فى الدين بما يخرجه عن حقيقته ، التى تدعو الناس إلى التآلف والعدل والمرحمة ، أو كما يقول الجاحظ : « كانوا على التوحيد الصحيح والإخلاص المخلص مع الألفة ، واجتماع الكلمة على الكتاب والسُّنة ، وليس هناك عمل قبيح ولابدعة فاحشة ، ولانزع يدٍ من طاعة ولاحسد ولاغلّ ولا تأوّل » [٢] أما فى العهد الأموى ، فقد انقلب المسلمون أمة مختلفة الأهواء ، متعددة المنازع ، ضاربة فى غمار الفتن السياسية ، والدينية والعصبية ، مما يسوِّغ لنا القول بأن « انتقال الدولة الإسلامية إلى بنى أمية بعد انقلابا عظيما فى تاريخ الإسلام [٣] ، ونقله خطيرة فى حياة المسلمين » .

— ١ —

لعل من أهم مايبرز فى الحياة السياسية فى العصر الأموى ، ذلك الصدع الخطير الذى ألم بحياة الجماعة الإسلامية ، وأثر تأثيرا بعيدا فى تطور الأحداث فيها ، وخلفها أحزابا متناحرة ، وشيعا متنافرة .

وتضرب جذور هذا الصدع — فى صورته المنذرة بالشر — إلى السنوات الأخيرة للخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان .

---

(١) انظر : الأدب فى عصر النبوة والراشدين (للمؤلف) ص ٦ .

(٢) انظر : رسائل الجاحظ ٢ / ٧ .

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية : جورجى زيدان ١ / ١٩٢ .

فقد كانت سياسته تجرى وفق ماعرف به ـــ فى جاهليته وإسلامه ـــ من الحياء واللين ، حتى قال النبى ﷺ فى حقه : « وكيف لاأستحى ممن تستحى منه الملائكة » (١) ، لذا كان كثير التغاضى عما يكره ، حياء وإيثاراً للتسامح ، حتى مع من يناله منهم أذى فى نفسه (٢) ، وهذا وإن حسن عند الحكماء ، فإنه لايحسن أبدا فى سياسة الرعية ، إذ لابد لمقام الخلافة من هيبة فى القلوب ، تقف الناس عند الحد اللائق بهم ؛ ولعل هذا هو الذى دفع عمر بن الخطاب إلى أن يعلو سعد بن أبى وقاص بالدِّرة ، حين زاحم الجموع المحيطة به ، ووصل إليه مُدلاً بمركزه ، قائلا له : « إنك أقبلت لاتهاب سلطان الله فى الأرض ، فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لن يهابك (٣) ، وكان عمر يقول : إن هذا الأمر لايصلح له إلا الليِّن فى غير ضعف ، والقوى فى غير عنف (٤) .

كما أن ميل عثمان إلى اللين والتسامح ، قد حال بينه وبين اتخاذ أى تدبير لمعاقبة الساعين فى الفتنة ، الذين رُفعوا إليه ، وثبت أنهم على رأس مروجى الشر ضده فى الأمصار ، مع اجتماع كلمة عماله ، حينما التقوا به فى الموسم ، على ضرورة أخذ هؤلاء المفسدين بالشدة ، ومنهم عمرو بن العاص ، الذى قال له : « إنك قد لنت لهم ، وتراخيت عنهم ... وأرى أن تلزم طريقة صاحبيك ، فتشتد فى موضع الشدة ، وتلين فى موضع اللين ، إن الشدة ينبغى لمن لايألوا الناس شرا ، واللين لمن يخلف الناس بالنصح ، وقد فرشتهما جميعا اللين » (٥) .

غير أن عثمان لم يعبأ بما قالوا ، وآثر اللين ، لئلا يكون فاتح باب الفتنة ، التى كان يخافها ، ويقول : طوبى لعثمان إن مات ولم يحركها (٦) .

---

(١) المختصر فى أخبار البشر ١ / ١٧٠

(٢) انظر فى بعض ذلك : الكامل : لابن الأثير ٣ / ٦٥ (المطبعة الأميرية) وتاريخ الطبرى ٥ / ١١٤

(٣) تاريخ الطبرى ٥ / ٤٥

(٤) عيون الأخبار : لابن قتيبة ١ / ٩

(٥) الطبرى ٥ / ٩٩ والكامل لابن الأثير ٣ / ٦٠

(٦) الكامل لابن الأثير ٣ / ٦٠ والطبرى ٥ / ٩٤ وانظر أيضا : تاريخ الأمم الإسلامية : الشيخ محمد الخضرى ٢ / ٤٣ ومابعدها

ثم إن عثمان اتهم بانحيازه إلى أهل بيته الأمويين ، وإغداق الأموال عليهم ، وتقريبهم ، وإيثار بعضهم بولاية الأعمال ، على حداثة سنهم (١) لمجرد قرابته منهم ، ودون نظر إلى مكانتهم فى الإسلام ، أو تمكن الدين والورع فى نفوسهم .

فقد عفا عن عمه الحكم بن أبى العاص بن أمية ، وسمح له بدخول المدينة ، وأعطاه مائة ألف ، وكان الرسول ﷺ قد طرده إلى الطائف ، فما زال بها طريد رسول الله وأبى بكر وعمر ، حتى استخلف عثمان فرده (٢) .

كما قرب مروان بن الحكم ، وأقطعه فدك ، وهى صدقة رسول الله ﷺ التى طلبتها فاطمة ميراثا ، فأبى أبو بكر استنادا على ماوراه عن رسول الله ﷺ : نحن معاشر الأنبياء لانورث ، ماتركناه صدقة . وقد انتزعها الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز الأموى من آل مروان ، وردها صدقة (٣) .

ولما فتح عبد الله بن سعد بن أبى سرح إفريقية ، وبعث بالخمس إلى عثمان ، اشتراه مروان بخمسمائة ألف دينار ، فوضعها عنه عثمان (٤) .

وقد عبر الشعر عن بعض مانقم الناس من عثمان ، فقال عبد الرحمن الكندى : (٥)

سأحلف بالله جهد اليميـــ ـــن ماترك الله أمراً سُدًى
ولكن خُلقت لنا فتنةً لكى نُبتلى بك أو تُبتلى
فإن الأمينين قد بينا منار الطريق عليه الهدى
فما أخذا درهما غيلة وما جعلا درهما فى الهوى
دعوت اللعين فأدنيته خلافا لسنة من قد مضى
وأعطيت مروان خمس العبا د ظلما لهم وحميت الحمى

---

(١) عزل عثمان أبا موسى الأشعرى عن ولاية البصرة ، وولاها عبد الله بن عامر — ابن خاله — وهو يومئذ ابن خمس وعشرين سنة انظر : الطبرى ٥ / ٥٤ ، والكامل لابن الأثير ٣ / ٣٧

(٢) العبر فى خبر من غبر : أبو عبد الله محمد بن أحمد الحافظ الذهبى ١ / ٣٢ ، والمختصر ١ / ١٦٩ ، وانظر : الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ٣ / ١٦٤ ، ومروج الذهب للمسعودى ٢ / ٣٤٣ مطبعة السعادة ١٩٥٨

(٣) المتخصر ١ / ١٦٩

(٤) الكامل لابن الأثير ٣ / ٣٥ ، والمختصر ١ / ١٦٧

(٥) المتخصر ١ / ١٦٩

وهكذا نقم الناس ، وفيهم كثير من المهاجرين والصحابة ، أمورا فى سياسة عثمان « بعضها يتصل بمسائل دينية ، وبعضها بمسائل سياسية ، وإدارية ، واجتماعية ، ومالية ، وأكثر بعضهم من نصحه ، وأغلظ بعضهم فى نصحه ، لكن عثمان لم يستجب للنصح الرفيق ، ولم يستمع للنصح الجاد الحازم ، فتفاقم الخطب ، واتسعت الهوة [١] » .

شاعت الفتنة فى الأقاليم الإسلامية ، وكثرت القالة فى سياسة عثمان وعماله فى كل من الحجاز والعراق والشام ومصر ، وقد تجاهلها الخليفة حينا ، وحذر منها باللين أحيانا ، وأعوزه الحزم كثيرا ، مما شجع بعض ذوى الهوى على إحياء الدعوى التى نبتت عقب وفاة الرسول ، القائلة بأن عليا أولى بخلافة الرسول ؛ لأنه أقرب أهله وعشيرته إليه ، ونهض بهذا الأمر عبد الله بن سبأ ، فبث دعاته يذيعون فى الأمصار أن لكل نبى وصيا ، وعلىّ وصىّ محمد ، فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ، وأن عثمان أخذها بغير حق ، وأوصاهم أن يبدءوا بالطعن على أمرائهم ، وإظهار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ليستميلوا الناس إليهم ، وسارت كتبه إلى الناقمين فى كل مصر ، كما سارت كتبهم إليه ، وقرئت كتب الطعن على عمال عثمان فى الأمصار [٢] ، مما زاد الأمر سوءا ، وحرك الناس إلى ثورة ، أخذت بوادرها تتجمع ، حتى أعلنت عن نفسها بخروج جموع من مصر والبصرة والكوفة إلى المدينة ، وحاصرت عثمان أربعين يوما [٣] ، وقيل : أكثر [٤] ، تمنعه من الصلاة فى المسجد ، ومن الماء أيضا [٥] ، ثم تسور جماعة من الثوار داره وقتلوه ، على صورة وحشية ، لاتتفق مع أصول الإسلام الذى انتسبوا إليه .

كان مقتل عثمان على يد جماعة الثوار هو مفتاح باب الشر ، الذى ولجت منه الجماعة الإسلامية إلى ميدان العداوة والفرقة ، حيث التف أهل الشام ، ومن تبعهم حول معاوية ، يفضلونه على أنفسهم ، ويرونه أليق للإمارة ، ولايرون لغيره بيعة عليهم توجب

---

(١) أدب السياسة فى العصر الأموى : د . أحمد الحوف ٣٠ .

(٢) لمزيد من التفصيل راجع : الطبرى ٥ / ٨٨ ، والكامل لابن الأثير ٣ / ٥٩ ، وتاريخ الأمم الإسلامية ٢ / ٣٥

(٣) المختصر ١ / ١٦٩

(٤) الطبرى ٥ / ١٢٢

(٥) الكامل لابن الأثير ٣ / ٦٧

الطاعة [١] وبذا كان معاوية فى قوة ومنعة ، وهو فوق هذا من أهل بيت الخليفة المقتول ، الذى يحمل علىٌّ ــ فى نظره ــ بعض وزر مقتله ، ويأوى تحت لوائه قتلته [٢] ؛ ومن ثم عقد العزم على رفض الاعتراف بخلافة آل البيت الهاشمى ممثلة فى على بن أبى طالب ، فلما وجه إليه علىّ جرير بن عبد الله البجلى ، ليأخذه بالبيعة له [٣] ماطله ، واستنظره ، حتى قال له جرير : إن المنافق لايصلى حتى لايجد من الصلاة بُدّ ، ولاأحسبك تبايع ، حتى لاتجد من البيعة بدّ ، فقال له معاوية : إنها ليست بخُدعة الصبى عن اللبن (أى ليست أمرا هينا يتجوز فيه) ، إنه أمر له مابعده ، فأبلعنى ريقى (يعنى أمهلنى) ، ثم استدعى عمرو بن العاص ــ الذى كان بفلسطين آنذاك ــ واستشاره ، فأشار عليه أن يرسل إلى وجوه الشام ، ويلزم عليا دم عثمان ، ويقاتله بهم [٤] ، وكتب لعمرو بولاية مصر طعمة ، وكتب عليه : ولاينقض شرط طاعة ، فقال عمرو : ياغلام اكتب ، ولاتنقض طاعة شرطا [٥] .

ولما استوثق معاوية من طاعة شيوخ اليمنية من عرب الشام ، واجتمع له أمره ، رفع عقيرته ، ينشد ، ليُسمع جريرا [٦]:

تطاول ليلى واعترتنى وساوسى ... لآت أتى بالتُّرهَّات البَسابس

أتانى جريـــر والحوادث جمةٌ ... بتلك التى فيها اجتداع المعاطس

أكابده والسيف بينى وبينه ... ولست لأثواب الدنىّ بلابس

إن الشام أعطت طاعة يمنية ... تواصفها أشياخها فى المجالس

فإن يفعلوا أصدم عليا بجبهة ... تفت عليه كل رطب ويابس

وإنى لأرجو خير مانال نائلٌ ... وماأنا من مُلك العراق بيائس

---

(١) بلغ من أمر أهل الشام فى طاعة معاوية أن جعلوا لعن على بن أبى طالب سنة ينشأ عليها الصغير ويهلك عليها الكبير . (المسعودى ٣ / ٧٢ البهية)

(٢) الطبرى ٥ / ٢٣٥ ، وتاريخ الأمم الإسلامية ٢ / ٥٢

(٣) انظر : مروج الذهب السعودى ٢ / ٣٨١ (السعادة)

(٤) الطبرى ٥ / ٢٣٥ ، وانظر : البداية والنهاية : لابن كثير ٨ / ١٢٨

(٥) الكامل فى اللغة والأدب : المبرد ١ : ٢٩ ، ومروج الذهب ٢ / ٣٦٣

(٦) المصدر السابق ــ الترهات : جمع ترهة (بتشديد الراء) وهى الباطل ، والبسابس بمعناها ، الجبهة : جماعة الخيل .

وأعلن رأيه فى رسالة بعث بها إلى على ، يقول فيها : ... أما بعد ، فلعمرى لو بايعك القوم الذين بايعوك ، وأنت برىء من دم عثمان ، كنت كأبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، رضى الله عنهم أجمعين ، ولكن أغريت بعثمان المهاجرين ، وخذّلت عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل ، وقوى بك الضعيف .

وقد أبى أهل الشام إلا قتالك ، حتى تدفع إليهم قتلة عثمان ، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين .

ولعمرى ماحجتك علىَّ كحجتك على طلحة والزبير ؛ لأنهما بايعاك ، ولم أبايعك ، وماحجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة ؛ لأن أهل البصرة أطاعوك ، ولم يطعك أهل الشام ... [١] .

وأغلب الظن أن ماذكره معاوية فى هذه الرسالة من اتهام لعلىّ ، ماهو إلا تعلة لإثارة الشبهة حول نوايا على فى قيامه بالأمر بعد صاحبه ، وأنه أعان عليه خصومه ، أو تخاذل عن نصرته ليحل محله ، انتصاراً للهاشمية على الأموية ، بإعادة الأمر إلى آل البيت ، والحق « أن التاريخ المنصف يبرىء عليا من التحريض على الثورة ، ويبرئه من التقصير فى حماية عثمان ، ويبرئه من السرور بمقتله [٢] » .

والتاريخ المنصف أيضا ، يشهد بأن فى سياسة عثمان مايبرر نقمة بعض الناقمين عليه ، وما اقتضى لومه من بعض كبار الصحابه ، حتى كتب بعضهم إلى بعض بالقدوم إلى المدينة لمجاهدة عثمان [٣] ، مما دفع عليًا بن أبى طالب إلى أن يكلمه ناصحاً ، محذرا فكان مما قال له : « ... إن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وضُلّ به ، فأمات سنة معلومة ، وأحيا بدعة متروكة ... وإنى أحذرك الله ، وأحذرك سطوته ونقماته ، فإن عذابه شديد أليم ، وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول ... [٤] ، وأخذ عليه ضعفه مع أقربائه ، وقطعهم بالأمر دونه ، لايرضاه الناس ، وهو يعلم فلا يغيره .

---

(١) الكامل للمبرد ١ / ٢٣٠

(٢) أدب السياسة : د . الحوفى ١٩ ، وانظر أيضا المرجع نفسه ٣١ ــ ٣٢

(٣) الطبرى ٥ / ٩٦

(٤) المصدر نفسه ٥ / ٩٧ ، والكامل لابن الأثير ٣ / ٥٨

وكانت أم المؤمنين عائشة تنكر على عثمان مع من ينكر عليه ، وكانت تخرج قميص رسول الله ﷺ وشعره ، وتقول : هذا قميصه وشعره لم يبل ، وقد بلى دينه [١] ، ثم قامت تطالب بدمه ، وتعلن أنه قتل مظلوما ، لما علمت أن البيعة تمت بالمدينة لعلىّ [٢] .

ونذكر كلمة لأم المؤمنين أم سلمة ، وجهتها لعثمان فى قالب النصيحة ، نفهم منها أنها تأخذ عليه أشياء ، وأن اختلاف الناس حول سياسته ، فيه مايدل على صواب اتهامه ، « قالت أم سلمة لعثمان رحمهما الله ، وهى تعظه : يابنى ، مالى أرى رعيتك عنك نافرين ، ومن جنبك مزورّين ، لاتُعف طريقا كان النبى ﷺ لحبها ، ولاتقدح زندا كان أكباها ، توخّ حيث توخ صاحباك ، فإنهما ثكما الأمر ثكماً ، لم يظلما أحدا فتيلا ، ولانقيرا ، ولايُختلف إلا فى ظنّين ، هذه حق بنوتى ، قضيتها إليك ، ولى عليك حق الطاعة » [٣] .

نخلص من هذا كله إلى أن عثمان ـــ رحمه الله ـــ لم يكن يشتد على ولاته ويحاسبهم اشتداد عمر وحسابه فأمن الولاة جانبه واستلانوه ، ويعترف عثمان بذلك ، ويعلله بأنه لين العريكة ، سهل الخلق ، مأمون الجانب ، فكان يتهيب لوقاره وحيائه وشيخوخته أن يشتد

---

(١) المختصر ١ / ١٧٢

(٢) الطبرى ٥ / ١٧٢ ، والكامل لابن الأثير ٣ / ٨٠ يرى بعض المؤرخين أن أم المؤمنين عائشة إنما وقفت هذا الموقف من الإمام على ، لأنه كان ممن ألحوا على النبى ﷺ فى طلاقها أيام حديث الإفك .

انظر : تاريخ الشعوب الإسلامية : كارل بروكلمان ٦٣ ، ١٣٨ .

وهناك أبيات لرجل يدعى عبيد بن أبى سلمة (ابن أم كلاب) يذكر فيها هذين الموقفين لأم المؤمنين المتغايرين ، ويذكرها بما كان منها أيام عثمان (قولها : اقتلوا نعثلا فقد كفر) فى أسلوب عتاب يبدو منه أن هوى الشاعر مع الإمام على ، من هذه الأبيات :

منك البداءُ ومنك الغيرَ ... ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإما ... م وقلت لنا إنه قد كفر
فهبنا أطعناك فى قتله ... وقاتله عندنا مَنْ أمر .. الخ

انظر : الطبرى ٥ / ١٧٣ والكامل لابن الأثير ٣ / ٨٠ ويروى البيتان الأولان لعمار بن ياسر قالهما يوم الجمل مع بعض الخلاف فى الرواية انظر : مروج الذهب ٢ / ٣٧١ (السعادة) .

(٣) أمالى الزجاجى ١٢٧ (السعادة) . لاتعف : لاتمح ، لحبها : أوضحها . توخ : اقصد . ثكما الأمر : لزما الحق ولم ينحرفا عن الحجة . الظنين : المتهم .

على الولاة . وكان لبعض أقربائه مطامع وكان ببعضهم حاجة ، فكان ذوو المطامع منهم يحتالون عليه ، وذوو الحاجة يرققونه عليهم باحتياجهم ، وهو لايرى أن فى مواساة هؤلاء وأولئك ـــ بإسناد عمل من أعمال الدولة إليهم ـــ إثما ولاحرجا ؛ لأنه لم يكن يسىء الظن بهم . شأن الرجل الصالح ، الذى يظن أن كل الناس على شاكلته ، ومن هنا وقع ماوقع له من البلاء .

وأيا كانت النظرة فى سياسة عثمان رضى الله عنه ونتائجها فإن مايعنينا فى هذا المقام ، أن معاوية اهتبل الفرصة ، وأخذ ينادى فى الناس بأن عليا يحمل وِزْرَ مقتل عثمان . وينشر قميص عثمان الملطخ بالدماء على منبره بمسجد دمشق ، ونصَّب نفسه مطالبا بدم الخليفة المظلوم (١) .

وعبر عن هذه الدعوى شعراً الوليد بن عقبة بن أبى معيط ـــ أخو عثمان من الرضاع ـــ فقال ، مخاطبا بنى هاشم (٢) :

بنى هاشم إنا وماكان بيننا ... كصدع الصفّا مايومض الدهر شاعبُهْ
بنى هاشم كيف الهوادة بيننا ... وعند علىّ درعهُ ونجائبُهْ
بنى هاشم ردوا سلاح ابن أختكم ... ولاتنهبوه لاتحلّ مناهبُهْ
غدرتُم به كيما تكونوا مكانه ... كما غدرت يوماً بكسرى مرازبُهْ

فهو يردد دعوى الأمويين القائله بمسئولية علىّ عن مقتل عثمان ، وأن الهاشميين قد غدروا به ليمكنوا زعيمهم علياً من اغتصاب منصب الخلافة من بعده .

ولم يسع الهاشميون أن يتغاضوا عن هذا الادعاء الباطل ، فنشطوا للرد عليه وإبطاله . ذاهبين إلى أن عليا لم يكن فى حاجة إلى قتل عثمان ليثب على الخلافة ، فحقه فيها ثابت من قبل أن يتولى عثمان .

وقد هب أحد الهاشميين وهو الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب . ليرد على شعر الوليد بن عقبة ، معبرا عن رأى آل البيت فيما ادعاه هذا الأموى قائلا (٣):

---

(١) لمزيد من التفصيل راجع : البداية والنهاية لابن كثير ٨ / ٢١ ، وأدب السياسة ص ١٧

(٢) الكامل للمبرد ٢ / ٢٥٦ (الأزهرية) ، والأغانى ٥ / ١٢٢ ، ومروج الذهب ٢ / ٣٥٦ (السعادة)

(٣) مروج الذهب ١ / ٣٥٧ (السعادة) .

فلا تسألونا سيْفكم إن سيفكم أُضيع وألقاه لدى لروْع صاحُبْه
سلوا أهل مصر عن سلاح ابن أختنا فهم سلبوه سيفه وحرائبُهْ
وكان ولى الأمر بعد محمدٍ علىّ وفى كل المواطن صاحبُهْ
علىٌّ ولىّ الله أظهر دينه وأنت مع الأشْقَيْن فيما تحاربُهْ

استنفر معاوية فى هذه الخصومة عرب الشام ، فاستجابوا له والتفوا حوله — كما قدمنا — أما أهل العراق ، فقد بايعوا عليا ، وبخاصة أهل الكوفة ، التى اتخذها على عاصمة لخلافته ، ومركزا لتجمع أنصاره ، يقول المسعودى (١) : « كانت الكوفة أسرع الأمصار إجابة إلى بيعة على » .

بهذا أتيحت الفرصة لإحياء المنافسة القديمة بين عرب الشام ، الذين كانوا يحاربون غالبا فى صفوف الروم ، وعرب العراق ، الذين انضووا تحت لواء الفرس ضد الروم ، قبل الإسلام (٢) .

ولعل مما يصور هذه المنافسة ، التى أحياها هذا الصراع بين الإقليمين ، قول كعب بن جُعيْل التغلبى (٣) ، الذى كان هواه وهوى قومه تغلب فى معاوية (٤) :

أرى الشام تكرهُ ملْك العراق وأهل العراق لهم كارهينا
وكلّا لصاحبه مُبغضاً يرى كل ماكان من ذاك دينا
إذا ما رمونا رميناهمُ ودِناهمُ مثل مايُقرضونا
فقالوا : علىٌّ إمام لنا فقلنا رضينا ابن هندٍ رضينا
وقالوا : نرى أن تدينوا له فقلنا : ألا لانرى أن نَدينا
ومن دون ذلك خَرْطُ القتاد وضربٌ وطعنٌ يقرّ العيوناَ

---

(١) مروج الذهب ٢ / ٣٦٢ (السعادة) وانظر : حياة الشعر فى الكوفة للدكتور يوسف خليف ٥٢

(٢) انظر : التطور والتجديد للدكتور شوقى ضيف ٣٩ ، وأدب السياسة ٣٧ والخوارج والشيعة ١٤٧

(٣) من بنى عمر وبن عنم بن تغلب ، شاعر مفلق قديم فى أول الإسلام ، جعله ابن سلام فى الطبقة الثالثة من فحول الإسلام ، وقال عنه أبو الفرج الأصفهانى : كان شاعر تغلب لايأتى منهم قوما إلا أكرموه ، وضربوا له قبة ، وله مهاجاة مع الأخطل . انظر فى أخباره : طبقات فحول الشعراء ٤٨٥ والأغانى ٧ / ١٦٢ والشعر والشعراء ٢٤٧

(٤) الكامل للمبرد ١ / ٢٣٠ (الأزهرية) . الخرط : قشر الورق عن الشجرة اجتذابا باليد ، القتاد : شجر له شوك أمثال الإبر ، وهذا مثل يضرب للأمر دونه مانع صعب ، يحول بينك وبينه .

كما يصورها من الجانب الآخر النجاشيّ [١] صاحب عليّ وشاعره [٢] :

دَعاً يامعاوى مالن يكونا فقد حقق الله ماتحذرونا
أتاكم على بأهل العراق وأهل الحجاز فما تصنعونا ؟!

ومما زاد من حدة هذا الصراع ، وأدى إلى تطوره تطورا سريعا إلى صراع حربى ، إصرار عليّ على خلع معاوية من ولاية الشام ، وعدم قبوله أساليب السياسة والمداهنة فى هذا الأمر ، ورفضه القاطع لكل نصح قدم إليه ليعالج أمر معاوية بالحيلة ، فقد أشار عليه المغيرة بن شعبة بإقرار معاوية وعبد الله بن عامر ، وسائر العمال ، على أعمالهم حتى تأتيه طاعتهم ، وطاعت جندهم ، ثم يستبدل بعد ذلك أو يترك ، ولكن عليا رفض قائلا : والله لا أداهن فى دينى ، ولا أعطى الرياء فى أمرى ، فأشار عليه المغيرة أن يعزل من شاء من العمال على أن يبقى على معاوية ، لأن لمعاوية جراءة ، وهو فى أهل الشام مسموع منه ، وذكر له أن عنده الحجة فى إثباته ، فإن عمر ولاه الشام كلها ، غير أن عليا أجابه بقوله : لا والله لاأستعمل معاوية يومين أبدا [٣]

كما غضب عليّ حين تقدم إليه ابن عمه عبد الله بن العباس بمثل هذه النصيحة قائلا : ياأمير المؤمنين ، أنت رجل شجاع ، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول : الحرب خُدعة ؟ ومع ذلك فقد أبى على إلا أن يجعل السيف بينه وبين معاوية [٤] .

لم يكن بد إذن من أن يحشد معاوية أنصاره للقتال ، وأن يفعل عليّ مثل ذلك ، وهنا يبدو الانقسام واضحا فى صفوف الأمة الإسلامية ، وتبلور هذا الانقسام فى صورة حزبين : حزب على ، وحزب معاوية ، أو فلنقل : شيعة على ، وشيعة معاوية [٥] .

---

(١) أبو الحارث قيس بن عمرو بن مالك ، أحد بنى الحارث بن كعب ، شاعر من أشراف العرب ، إلا أنه كان فاسقاً ، أتى به على بن أبى طالب وهو سكران فى رمضان ، فضربه حد الخمر ، وزاده لجرأته على الله وشربه الخمر فى رمضان ، وله هجاء فى أهل الكوفة بسبب هذا الحد ، كما هاجى عبد الرحمن بن حسان بن ثابت فغلبه عبد الرحمن وأفحمه ، وهجا بنى العجلان ، فشكوه إلى عمر بن الخطاب فهدده بقطع لسانه ، انظر فى أخباره وشعره : سمط اللآلى ٢ / ٨٩٠ ، وخزانة الأدب ٤ / ٣٦٨ (بولاق) ، والعمدة ١ / ٦٨ ، والشعر والشعراء ١١٦ ، وديوان المعانى ١/١٧٦

(٢) الكامل للمبرد ١ / ٢٣٣ (الأزهرية) .

(٣) راجع تفصيل هذه الأخبار فى مروج الذهب ٢ / ٣٦٤ (السعادة) .

(٤) المصدر السابق .

(٥) لفظ (الحزب) يطلق عليه فى العربية أيضا اسم الشيعة ، لكن لما تولى معاوية الملك فى دولة الإسلام كلها ، ولم يعد مجرد رئيس حزب ، أُصبح استعمال لفظ (شيعة) مقصورا على أتباع عليّ . انظر : الخوارج والشيعة ١٤٦

والتقى الفريقان فى وقعة صفين الشهيرة ، التى كان من نتائجها البارزة انتصار الشام يمثله معاوية على العراق ممثلا فى علىّ .

وليس من همنا هنا تفصيل الحديث عن أحداث هذه المعركة ، وتطوراتها ونتائجها ، لأن هذا كله مبسوط فى مصادر التاريخ الإسلامى التى تعالج هذه الفترة من حياة الأمة الإسلامية .

ومع ذلك فنحن مضطرون إلى الوقوف عند نتيجة من نتائج حرب صفين ، لما لها من أهمية بالغة فى ميلاد حزب إسلامى ثالث ، زاد من تصدع وَحْدة الإسلام والمسلمين فى العصر الأمورى .

لقد تمخضت هذه الحرب عن ظهور حزب جديد ، هو حزب الخوارج الثورى ، وكان السبب المباشر لمولد هذا الحزب مسألة التحكيم فى إبان معركة صفين .

فحين لاح خطر هزيمة جند معاوية فى آخر أيام صفين ، أشار عمرو بن العاص على معاوية أن يأمر أهل الشام برفع المصاحف على أسنة رماحهم ، فكثر فى الجيش رفع المصاحف ، ونادى جند الشام : كتاب الله بيننا وبينكم ، وفى ذلك يقول النجاشى [1] :

فأصبح أهل الشام قد رفعوا القنا عليها كتاب الله خير قُرانِ
ونادوا علياً يابن عم محمدٍ أما تتقى أن يهلك الثقلان

وسرعان ماأحدث هذا السلوك الأثر المطلوب فى كثير من أهل العراق ، خصوصا فى القراء منهم ، إذ قالوا : نجيب إلى كتاب الله ، وكان علىّ يدرك أن مافعله جند معاوية ماهو إلا حيلة قصدوا من ورائها النجاة من الهزيمة التى توشك أن تفسد عليهم أمرهم ، بيد أنه لم يستطع أن يقاوم تأثيرها فى نفوس أكثر جنده ، بل هُدِّد شخصيا لما أراد ذلك ، بأن يُصنْعَ به ماصنُع بعثمان ، مما اضطره إلى أن يقبل التحيكم على مضض ، وأن يستدعى قائده الأشتر النخعى ، الذى كان من النصر قاب قوسين أو أدنى ؛ حتى لا يواصل القتال ، فأستجاب الأشتر للأمر رغما عنه طاعة لعلىّ .

وسعى الأشعث بن قيسَ ـــ زعيم كندة بالكوفة وأحد أصحاب علىّ البارزين ـــ بالوساطة بين الفريقين ، فذهب إلى معاوية ، وتلقى اقتراحه بالتحكيم ، واختيار عمرو بن

---

(١) مروج الذهب ٢ / ٤٠٠ .

العاص ليكون أحد الحكمين عن أهل الشام ، وأكره علىّ على قبول أبى موسى الأشعرى حكما عن أهل العراق ، ووُضع صلح مكتوب بين الفريقين على أساس هذا الاقتراح .

وماإن قرىء مضمون الاتفاق فى معسكر أهل العراق ، حتى أعلن قوم أكثرهم من بنى تميم رفضهم التحكيم ؛ لأنه يجعل مصير خلافة المسلمين بين أيدى رجلين ؛ ولأن حكم الله فى الأمر واضح جلى ، فقد أمر بقتال الفئة الباغية حتى تعود إلى الطاعة وتدخل فى الجماعة [١] ؛ ولأن التحكيم على هذا النحو يعنى « شك كل فريق من المحاربين أيهما المحق ، وليس يصح هذا الشك ، لأنهم وقتلاهم إنما حاربوا وهم مؤمنون ــ بلا شك ــ أن الحق فى جانبهم [٢] » .

وقد عبر عروة بن أُدَيّة الحنظلى التميمى عن هذه المعانى التى اختلجت فى نفسه ونفوس الرافضين فى جملة « لا حكم إلا الله [٣] » .

وصاروا يطاردون عليا رضى الله عنه بهذه العبارة فى المسجد ، وفى الطريق ، حتى ضايقوه ، مطالبين إياه أن يقر بخطئه فى قبول التحكيم ، بل رموه بالكفر لإهماله أمر الله ، وإقراره مسألة الحكمين .

ولما يئست هذه الجماعة الرافضة للتحكيم من رجوع على عما أبرم من اتفاق مع معاوية ، اجتمعوا ، وتداعوا إلى الخروج من جند على ، ومغادرة الكوفة ــ التى كان جيش على قد عاد إليها بعد الاتفاق على التحكيم ــ إعلانا عن استنكارهم بدعة التحكيم المضلة ، رافعين شعار « لاحكم إلا الله » ولذا سموا بالمحكمة ، وقصدوا قرية قرب الكوفة تسمى حروراء فسموا أيضا بالحرورية ، وهما اسمان كثيرا مايطلقان على الخوارج ، وأمروا عليهم رجلا منهم سموه « أمير المؤمنين » وهو عبد الله بن وهب الراسبى .

يتضح من ظروف مولد حزب الخوارج ، أنه لم ينشأ عن عصبية للعروبة ، بل عن عصبية للإسلام ؛ إذ كان هدفه تقرير الأمور العامة للمسلمين ــ كمسألة الخلافة ، وقتال البغاة ــ وفقا لأوامر الله ونواهيه ، وهذا الحزب الجديد كان خارجا على المسلمين من

---

(١) راجع الآية ٩ من سورة الحجرات .
(٢) فجر الإسلام ١ / ٣٠٠
(٣) تاريخ الطبرى ٦ / ٣١

الفريقين ، يعد دارهم دار حرب (١) ، ولذا تجب مجاهدتهم ، واستمر هذا الجهاد طوال عصر بني أمية .

فى هذه الفترة كان شعور كثير من المسلمين متعاطفا مع علىّ ، مؤيداً لأمره ، وهؤلاء هم الذين كانوا يرون أن تكون الخلافة فى بيت النبى ﷺ ، وأقرب الناس إليه حينئذ عمه العبّاس بن عبد المطلب ، وابن عمه علىّ بن أبى طالب ، ولكن العباس لم يكن من السابقين إلى الإسلام ، فقد حضر غزوة بدر مع المشركين ، ولم يسلم إلا آخراً ، فأولى الناس من قرابة النبى ﷺ علىّ بن أبى طالب ، وهو أول الناس إسلاما ، وزوج فاطمة بنت النبى ﷺ ، وجهاده وفضله وعلمه لاينكر (٢) .

وكان من بني هؤلاء عدد غير قليل من الصحابة ، من المهاجرين والأنصار ، نذكر منهم سلمان الفارسى ، وأباذر الغفارى ، والمقداد بن الأسود ، وعمار بن ياسر ، وأبا التيهان ، والفضل بن العباس ، وأخاه الحبر عبد الله بن العباس ، وأبا أيوب الأنصارى ... وغيرهم (٣) .

وهؤلاء وأمثالهم ، ممن التفوا حول علىّ ، وآزروا أمره ، ضد معاوية ، الذى كانوا يرونه جائرا ، منحرفا عن الحق ، طامعا فيما لايستحق ، لأنه لم يعتنق الإسلام إلا بعد الفتح .

نقول : هؤلاء يمكن أن نعدهم نواة التشيع ، بمعناه العاطفى والسياسى ، لا بمفهومه المذهبى العقدى .

---

(١) لم يلبث الخوارج أن انقلبوا يحاربون عليا ، حيث قاتلوه فى وقعة النهروان سنة ٣٨ أو ٣٩ هـ ولكنه هزمهم شر هزيمة ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، مما زاد فى إمعان الخوارج فى كرهه ودفعهم إلى تدبير مكيدة قتله ، على يد عبد الرحمن بن ملجم الخارجى ، وكان زوجا ــ أو خاطبا ــ لامرأة قتل كثير من أفراد أسرتها فى هذه الموقعة ، انظر : العبر للذهبى ١ / ٤٤ ، ومروج الذهب (البهية) ٢ / ١٤٠ ، وتاريخ الطبرى ٦ / ٣٣ ومابعدها ، وانظر تفصيل خبر خروج الخوارج ، وصدامهم مع على ، وأسماء زعمائهم فى : الخوارج والشيعة ٣ ومابعدها ، ومروج الذهب ٢ / ٤١٥ ــ ٤١٧ (السعادة) ، وتاريخ الشعوب الإسلامية ١٤٣ .

(٢) فجر الإسلام ١ / ٢٩٧ ، وانظر : الشيعة فى التاريخ ص ١٣٠ ، والشيعة فى الميزان ٢٤ ومابعدها.

(٣) انظر : أصل الشيعة وأصولها ٨٦ ، والإصابة ، والاستيعاب ، فى مواضع متفرقة .

بيد أن هذا التشيع العاطفى ، لم يلبث أن تطور بعد مقتل على (سنة ٤٠ هـ) [١] ، إلى عقيدة مذهبية دينية وسياسية ، تدور حول إمامة المسلمين ، وحق آل البيت فيها ؛ بحيث صارت دعوى هذا الحق شعاراً لحزب يقوم على أسس مذهبية دينية وسياسية محددة ، أخذ ينشرها ، ويجمع الأنصار حولها ، ويجاهد الأمويين ، وغيرهم ممن يخالف الشيعة على أساسها .

بعد مقتل علىّ ، لم تبق أمام معاوية ، لكى يستتب له الأمر ، إلا مناوشات يسيرة مع الحسن الابن الأكبر لعلى ، الذى أدرك بعد تجربة يسيرة فى محاولة مجاهدة معاوية بالقوة ، تخاذل أنصاره ، واستهانتهم بأمره ، مما اضطره إلى المهادنة ، التى انتهت بقبول الصلح ، والتنازل عن الأمر لمعاوية ، حقنا للدماء ، وجمعا لكلمة الأمة [٢] .

بعد أن استقرت الخلافة لمعاوية ، أخذ يفكر فيما يكون عليه أمر الخلافة الأموية من بعده ، واهتدى إلى تقرير مبدأ الوارثة فى الحكم ، بالعهد لابنه يزيد ، ومن ثم أخذ يمهد لهذه البيعة بذكاء ، وصبر ، وفطنة ، وحنكة سياسية واعية [٣] ، ففضلا عن ثقته بتأييد عرب اليمنية ــ أخوال يزيد ــ لهذا الاتجاه ، استطاع بهباته السخية ، ودهائه ومرونته ، أن يستميل كثيرا من خصومه ، ومنهم بعض بنى هاشم [٤] ، أما رءوس البيت الأموى ، فقد عاملهم بحذر متبصر حكيم ؛ خشية أن يصبحوا خطرا عليه وعلى ابنه ، وكان يتمتع بمقدرة فائقة على أن يفيد مما كان لشعراء عصره من تأثير عظيم فى الرأى العام ، واستغلال هذا التأثير فى تحقيق مصالحه .

---

(١) قتل علىّ ليلة الجمعة فى السابع عشر من رمضان على يد ابن ملجم ، ثم قتل قاتله وأحرق . العبر للذهبى ١ / ٤٦ .

(٢) قيل : لما صالح الحسن معاوية ، قام فخطب فى أهل الكوفة ، وقال : أيها الناس ، إن الله هداكم بأولنا ، وحقن دماءكم بآخرنا .. ياأهل الكوفة لم تذهب نفسى عنكم إلا لثلاث خصال ، مقتلكم لأبى ، وسلبكم ثقلى ، وطعنكم فى بطنى . وكانوا قد نهبوا سرادقه ، ورحله ، وطعنوا بالخنجر فى جوفه ؛ ولذا انقاد إلى الصلح ، انظر : مروج الذهب (البهية) ٢ / ٥٣

(٣) قال أبو على القالى : كان معاوية مجربا ، قد حنكته الأيام ، واسع الصدر ، حليما ، وكان يقول عن نفسه :

قد عشت فى الدهر ألوانا على خُلق شتى وقاسيت فيه اللين والطبعا
لايملأ الأمر صدرى قبل مصدره ولاأضيق به ذرعا إذا وقعا

انظر : الأمالى ٢ / ٣٠٨

(٤) انظر تاريخ الشعوب الإسلامية ١ / ١٤٨

فقد أوعز إلى رجل من الأزد يقال له ذو الكُلاع أن يواجه وفود الأمصار فى مجلسه بطلب البيعة ليزيد ، ولما كان هذا المجلس ، قام الرجل فقال : هذا أمير المؤمنين ، وأشار بيده إلى معاوية ، فإن مات فهذا ، وأشار إلى يزيد ، فمن أبى فهذا ، وأشار إلى السيف ، ثم قال : (١) :

معاوية الخليفة لا نُمارى فإن يهلك فسائسنا يزيد
فمن غلب الشقاء عليه جهلًا تحكَّم فى مفارقه الحديدُ

وكان اتجاه معاوية إلى هذا النظام الوراثى فى الحكم ، نقلة خطيرة فى حياة المسلمين ، الذين ألفو البيعة والشورى ، والنظم الأولى فى الإسلام ، وهم بعد قريبو عهد بها ، فقد صدم كثير منهم بتحول الإمامة إلى ملك كسروى ، والخلافة إلى غضبٍ قيصرى — كما يقول الجاحظ (٢) .

وإلى هذا التحول يشير عبد الله بن همام السلولى فى قوله (٣) :

فإن تأتوا برملة أو بهندٍ نبايعها أميرة مؤمنينا
إذا مامات كسرى قام كسرى نعد ثلاثة متناسقيَنا

لهذا أحس كبار رجال الأمة ، وبخاصة فى الحجاز — مهد الدعوة الأول — وعلى الأخص فى مكة والمدينة ، بالسخط الشديد على هذا الاتجاه .

وكان لشخصية يزيد بن معاوية أثر كبير فى شيوع هذا السخط بين المسلمين (٤) ، إذ كان — فيما يقول ابن جرير الطبرى — « متهما برقة الدين ، وشرب

---

(١) العمدة ١ / ٢١٢ ، وانظر أمالى القالى ١ ° ١٦٢

(٢) رسائل الجاحظ ٢ / ١١

(٣) الشعر فى مروج الذهب (البهية) ٢ / ٧٠ ، والشاعر : هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن همام السلولى من بنى مرة بن صعصعة ، أخى عمر بن صعصعة ، وبنو مرة يعرفون ببنى سلول ، وسلول أمهم ، غلبت عليهم ، وهو شاعر إسلامى قديم ، أدرك معاوية ، وبقى إلى أيام سليمان بن عبد الملك ، أو بعده ، وكان مكينا عند بنى أمية ، حظيا فيهم ، وعده ابن سلا فى الطبقة الخامسة من فحول الشعراء الإسلاميين . انظر : معاهد التنصيص ١ / ٩٦ ، والشعر والشعراء ٢٤٨ ، وسمط اللآلى ٢ / ٦٨٣ ، وطبقات فحول الشعراء ٥٢٢ ، وشرح الحماسة للمرزوقى ٣ / ١١٣٩

(٤) بويع يزيد وليا للعهد سنة ٥٦ هـ ، وبويع بالخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٦٠ هـ . تاريخ الطبرى ٦ / ١٦٨ ، ١٨٨

الخمر ، والإقبال على اللهو ، ومجالس الغناء ، ومنادمة الفساق [١] » ويطلق عليه الجاحظ « الخليع [٢] » .

وقد خلع هذه الأوصاف أيضا على يزيد جماعة من أشراف المدينة ، كانوا قد وفدوا عليه فأكرمهم « وأعظم جوائزهم ، فلما عادوا إلى المدينة ، أخذوا يسبونه ، قائلين : « إنا قادمون من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويعزف بالطنابير ، ويضرب عنده القيان ، ويلعب بالكلاب ، ويسامر الخُرّاب والفتيان ... » [٣]

وفيه يقول موسى شهوات [٤] :

لست منا وليس خالك منا — يامضيع الصلاة بالشهوات

وليس ببعيد أن تكون هذه الأخبار من الروايات المعادية لبنى أمية [٥] ، فرواية الطبرى التى تتحدث عن جماعة أشراف المدينة « تضيف : وكان من أشد هؤلاء تحاملا على يزيد المنذرُ بن الزبير « وكان يزيد قد أجازه بمائة ألف درهم ، فلما بلغه ماقال عنه ، قال : اللهم إنى آثرته وأكرمته ، ففعل ماقد رأيت ، فاذكره بالكذب والقطيعة [٦].

كما أن أبا حيان يروى مايفيد أن يزيد لم يكن يشرب الخمر ، فقد أورد قول خالد ابن يزيد بن معاوية للحجاج بن يوسف : إلى متى تقتل أهل العراق ياأبا محمد ؟ فقال الحجاج : إلى أن يكفوا عن قولهم فى أبيك ، إنه كان يشرب الخمر [٧] .

على أية حال لم يكد يزيد يتولى الخلافة حتى شاع السخط ، وغلا الغضب فى صدور الغالبية من أهل الحجاز والعراق ، واتجهت أنظار الساخطين الغاضبين إلى زعيم آل البيت آنذاك ، الحسين بن على ، وكان الحسين قد رفض أن يجيب معاوية إلى بيعة يزيد

---

(١) تاريخ الطبرى ٧ / ٤ ، وانظر : أمالى الزجاجى ٦٩ (المدنى)

(٢) رسائل الجاحظ ٢ / ١١

(٣) تاريخ الطبرى ٧ / « ، وابن الأثير (بيروت) « / ١٠٢ ــ ١٠٤ « وانظر خبرا عن منادمة يزيد للفساق فى : أمالى الزجاجى (المدنى) ٦٩ .

(٤) هو أبو محمد موسى بن يسار مولى بنى سهم القرشيين ، وهو أخو اسماعيل بن يسار الشاعر الأموى المعروف ، وشهوات لقب له ، وتفسير لقبه ، وماورويناه من شعره فى : سمط اللآلى ٢ / ٨٠٧ ، والأغانى ٣ / ١١٤ ، والأعلام للزركلى ٨ / ٢٨٧ .

(٥) انظر هذه الروايات فى : تاريخ الشعوب الإسلامية ١ / ١٨٣

(٦) تاريخ الطبرى ٧ / «

(٧) الإمتاع والمؤانسة ٣ / ١٧٨ ، وانظر الكامل لابن الأثير ٤ / ٥٠ .

بولاية العهد ، حين قدم معاوية إلى المدينة ، ورفضها معه جماعة من كبار أبناء الصحابة ، منهم عبد الرحمن بن أبى بكر ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير [١] .. وغيرهم .

ولما مات معاوية أبى الحسين أيضا أن يبايع يزيد بالخلافة (سنة ٦٠ هـ) ، وحتى يخلص من سلطان يزيد فر من المدينة ، والتجأ إلى مكة ، فدعاه أهل الكوفة ليخرج بهم على يزيد ، وبعثوا إليه بالرسائل ، متوسلين أن يجيبهم إلى الثورة ، وأن يقدم عليهم ، باذلين له الوعود والعهود بالالتفاف حوله ونصرته ، وأكثر هذه الرسائل جاءته من رجال القبائل البارزين بالكوفة ، ومن اليمانية منهم على وجه التخصيص ، وكانت اليمانية أكبر القبائل عددا وأهمية فى الكوفة [٢] .

مالت نفس الحسين إلى تلبية هذه الدعوة الملحة ، ولكنه آثر أن يبعث أولا بابن عمه مسلم بن عقيل ، ليعد الناس لمقدمه ، ويأخذ عليهم العهد ، فنزل مسلم الكوفة سرًّا ، وتوافد الناس عليه ، معلنين بيعة الحسين ، فأرسل مسلم كتابا إلى الحسين يخبره بهذه البيعة ، ويدعوه إلى القدوم .

تأهب الحسين للخروج من مكة فى ذى الحجة سنة ٦٠ هـ ، فتقدم إليه المخلصون ينصحونه بالعدول ، منهم : عبد الله بن عباس ، الذى قال له : ياابن عم بلغنى أنك تريد العراق ، وإنهم أهل غدر .. فلا تعجل ، وإن أبيت إلا محاربة هذا الجبار .. فاشخص إلى اليمن فإنها فى عزله ولك فيها أنصار وإخوان ، فأقم بها وبث دعاتك ، واكتب إلى أهل الكوفة ، وأنصارك بالعراق ، فيخرجوا أميرهم ، فإن قووا على ذلك .. ولم يكن بها أحد يعاديك أتيتهم ، وماأنا بغدرهم بآمن .. كما نصحه أبو بكر بن الحارث بن هشام الأموى بنحو من ذلك ، ولكنه الحسين احتج بأن مسلما كتب إليه باجتماع أهل المصر (الكوفة) على بيعته ونصْرته ، وأنه عازم على المسير إليهم [٣] .

لما علم يزيد بخروج الحسين ، عزل النعمان بن بشير الأنصارى من ولاية الكوفة ، وولى مكانه واليا أقل ورعاً وتحفظا ، وحرصاً على الدين وهو عبيد الله بن زياد ، الذى

---

(١) راجع تفصيل هذا الخبر فى : النوادر للقالى ١٧٧ - ١٧٩ ، وتاريخ الطبرى ٦ / ١٧٠

(٢) الخوارج والشيعة ١٦٠ ، وتاريخ الطبرى ٦ / ١٩٧

(٣) مروج الذهب (البهية) ٢ / ٨٦ - ٨٧ ، والخوارج والشيعة ١٦٠ ومابعدها .

أسرع إلى الكوفة ، وقضى على مسلم بن عقيل ، بعد أن انفض عنه أهل الكوفة خوفا من عبيد الله ، الذى هدد كل من يأويه أو ينصره .

خرج الحسين متوجها إلى الكوفة ، وهو يعتقد أنه سيستقبل فيها استقبالا حافلا ، ولم يكن يعلم شيئا عن نهاية مسلم بن عقيل الأليمة ، وقبل بلوغه الكوفة جاءته الأنباء بمقتل مسلم ، وأن أهل الكوفة خلوا بينه وبين ابن زياد ، فقال من معه : « أتانا خبر فظيع ، قتل مسلم بن عقيل ، وهانىء بن عروة .. وقد خذلتنا شيعتنا ، فمن أحب منكم الأنصراف فلينصرف ، ليس عليه منا ذِمام .. فتفرق الناس عنه .. فأخذوا يمينا وشمالا حتى بقى فى أصحابه الذين جاءوا معه من المدينة » ، (١) وخاصة أهله وأبناء عمومته من آل أبى طالب .

سار الحسين حتى لقى خيل عبيد الله بن زياد عليها عمرو بن سعد بن أبى وقاص ، فعدل إلى كربلاء قريبا من الفرات ، وقام عمرو بن سعيد بينه وبين الماء ثلاثة أيام حتى أخذ العطش منه وممن معه .

وفى العاشر من المحرم (سنة ٦١ هـ) استعد الفريقان للقتال ، ومع الحسين اثنان وثلاثون فارساً ، وأربعون راجلًا ، بينهم ثمانية عشر من أبناء عمومته ، وودع أصحاب الحسين صاحبهم على موعد لقاء فى الجنة ، قبل أن يدخل كل منهم المعركة الواحدة بعد الآخر ، وكذا فعل أبناء عمومته حتى قتلوا جميعا ، واستطاع شمر بن ذى الجوش ومعه فرقة من الجند ، أن يبعدوا الحسين عن معسكر النساء والأطفال ، ثم انقضوا عليه طعنا وضربا حتى أصابوه بثلاث وثلاثين طعنة وأربع وثلاثين ضربة ، وسلبوه سراويله وقطيفته ، ونعليه وسيفه .. ثم مالوا على نساء الحسين ومتاعه حتى كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه (٢) .

قتل الحسين ، ووطأت الخيل جثمانه ، واحتز رأسه ، وحمل إلى ابن زياد ، الذى أمر أن يدار به فى الكوفة ، ثم أرسله مع نساء آل البيت وأطفالهم إلى يزيد بدمشق ، فلما وضع الرأس بين يديه ، أخذ بنكثه بقضيب كان بيده ، ويقول :

يُفَلِّقْن هاماً من رجالٍ أعـزّة　　علينا وهم كانوا أعق وأظلما

---

(١) تاريخ الطبرى ٦ / ٢٢٦ ، وابن الأثير ٤ / ٤٣ (بيروت) وفيه « من مكة » .

(٢) تاريخ الطبرى ٦ / ٢٦٠

وكان فى حضرته أبو بُردة الأسلمى الصحابى ، فقال له : « ارفع قضيبك ، فطال والله مارأيت رسول الله ﷺ يضع فمه على فمه يلثمه » (١) .

ويقال : إن يزيد لما قتل الحسين ، تمثل بقول عبد الله بن الزِّبعرى متشفيا فى قتلى المسلمين بأحد :

ليت أشياخى ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
لاستطاروا واستهلوا فرحا ثم قالوا : يايزيد لاتَسَلْ

والبيت الثانى من صنعة يزيد ، لا من قول ابن الزبعرى (٢) .

ويقال أيضا : إن يزيد حين علم بمقتل الحسين دمعت عيناه ، وقال : كنا أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين ، لعن الله ابن سميه (عبيد الله بن زياد) ، أما والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه ، فرحم الله الحسن » (٣) .

وقالوا : وكان جميع من حضر مقتل الحسين من العساكر ، ومحاربيه ، وتولَّى قتله من أهل الكوفة خاصة ، لم يحضرهم شامىّ (٤) .

وكان مقتل الحسين مع جماعة كبيرة من أهل بيته ، على يد جند يزيد ، وعلى هذه الصورة التى ذكرنا ، جريمة بشعة ، ومأساة مروعة صدمت عواطف المسلمين على اختلاف طوائفهم وأمصارهم ، فلم يكن أحد يتصور أن تبلغ الجرأة بالأمويين إلى حد عدم مراعاة حرمة الرسل فى آل بيته ، بل إن الحسين نفسه لم يمكن يتصور هذه الجرأة ، فقد اعترضه الحرّ بن يزيد التميمى فى ألف فارس من جند ابن زياد ، وناشده ألا يعرض نفسه وآل بيته للقتل ، قاولا : « إنى أذكرك الله فى نفسك ، فإنى أشهد لئن قاتلت لتقتلنّ » فقال له الحسين : « وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلونى ؟! » (٥) .

لقد ألهبت مأساة الحسين وآل بيته ، عواطف المسلمين وضمائرهم ، فهبوا من

---

(١) مقالات الإسلاميين ١ / ١٤٢ ، ومروج الذهب (البهية) ٢ / ٩٠ ، والكامل لابن الأثير ٤ / ٨٥ (بيروت ١٩٦٥ م) وفيه « أبو برزة » .

(٢) رسائل الجاحظ ٢ / ١٤

(٣) ابن الأثير (بيروت) ٤ / ٨٤ ، وانظر : تاريخ الطبرى ٦ / ٢٦٤

(٤) مروج الذهب (البهية) ٢ : ٩١ ، وانظر : الخوارج والشيعة ١٨٣

(٥) ابن الأثير ٤ / ٨٤ .

كل صقع يستنكرون هذه المذبحة المروعة ، التى راح ضحيتها حفيد الرسول ﷺ وشباب آل بيته ، وعلت الأصوات تندد بالأمويين السفاحين القتلة ، وتهافت الناس ينضوون تحت لواء آل البيت ، ويتشيعون لهم ، ويهددون بطلب ثأر الحسين ، فتعاظم أمر حزب الشيعة ، وازداد خطره ، واكتسب أنصارا جددا ، ممن كانوا يتخذون موقف الحياد من الأحزاب السياسية المتطاحنة ، إلى جانب كثير من الموالى ، وخاصة بالعراق ، وعلى الأخص بالكوفة ، حيث كان الموالى يؤلفون أكثر من نصف سكانها [١] .

ولعل ثورة المختار بن أبى عبيد الثقفى ، خير مثل يعكس مدى مابلغه التشيع لآل البيت من ازدهار وقوة ، وكثرة أنصار ، عقب مقتل الحسين ، وكان شعار هذه الثورة « يالثارات الحسين » [٢] .

وكان الموالى يمثلون كثرة عظيمة بين أنصار هذه الثورة ، وكان المختار يوليهم معظم ثقته ، ويقربهم إليه كل القرب [٣] ، وتحمس الموالى لإظهار تشيعهم ، فقد حانت الفرصة لأن ينتعش أملهم فى التخلص من الولاء من ناحية ، وللنجاة من عنت الأمويين واضطهادهم من ناحية أخرى ؛ اذ كان الأمويون يرون كبح جماح هذه الأجناس غير العربية ، وتذكيرهم دائما بنفوذ الدولة العربية وسيطرتها ، حتى يتطامنوا ، ويخضعوا لها ، ولاتحدثهم نفوسهم بالخروج عليها .

ولأدل على ذلك من قول معاوية بن أبى سفيان : « إنى رأيت هذه الحمراء (يعنى الموالى) قد كثرت ، وكأنى أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان ، فقد رأيت أن أقتل شطراً ، وأدع شطرا لإقامة السوق ، وعمارة الطريق ، ولكنه عدل عن ذلك [٤] » .

على أنه ينبغى لنا أن نتحفظ بالنسبة لإقبال الموالى على التشيع ، حتى لانقع فى وهم إخلاص هؤلاء الموالى جميعا لعقيدة الشيعة وآرائهم ونظرياتهم وأهدافهم السياسية .

---

(١) الخوارج والشيعة ٢١١ ، وانظر : تيارات ثقافية بين العرب والفرس ١٤٣ ، وأصل الشيعة وأصولها ١١٨ — ١١٩

(٢) ابن الأثير (بيروت ٤ / ٢١٨ ، وانظر خبر ثورة المختار ، وتعاظم أمر الشيعة فى المصدر نفسه ٤ / ٢١١ ومابعدها .

(٣) انظر : الخوارج والشيعة ٢١٢

(٤) العقد الفريد ٢ / ٩٠

حقا قد يكون من بينهم من اعتنق التشيع عن اعتقاد بصوابه ، واقتناع بحق آل البيت فى خلافة الرسول باعتبارهم ورثته الشرعيين ، وبحكم الحق الإلهى ، الذى كان الفرس يؤمنون به فى عهد الملوك الساسانية ، وبمقتضاه كان ملوك الفرس « يزعمون أنهم وحدهم أصحاب الحق فى لبس التاج ، بما يجرى فى عروقهم من دم إلهى [١] » .

غير أننا لانشك فى أن كثرة منهم كانت تتشيع ، إما نكاية فى بنى أمية ، الذين كانوا يبغضونهم أشد البغض ، ومن ثم فهم على استعداد للانضمام إلى كل حركة تناوىء الأمويين ، وإما تسترا بالتشيع لعلى وبنيه « لاعن موالاة خالصة للعلوية ، ولا عن حمية للحق المسلوب ، بل لبث الفرقة والانقسام ، وتقويض الوحدة ، وزلزلة القوة ؛ ليكون هذا وسيلة لاسترجاع الحكم الفارسى ، والخلاص من الحكم العربى [٢] » .

كان هذا فى العراق ، أما الحجاز فقد عبر عن سخطه على الأمويين قتلة الحسين ، بخروج عبد الله بن الزبير على يزيد بن معاوية (سنة ٦٣ هـ) بمكة ، وسرعان ماخلعت المدينة طاعة يزيد ، وأخرجوا عامله عليها ، وحصروا بنى أمية ومواليهم فى دار مروان بن الحكم ، حتى كتبوا إلى يزيد يستغيثون به ، فوجه إليهم مسلم بن عقبة المرى [٣] فى اثنى عشر ألفا من جند الشام ، لقتال أهل المدينة أتباع ابن الزبير ، فأوقع بهم فى موقعة الحَرَّة بالمدينة ، وقتل منهم مقتلة عظيمة [٤] ، وأباح المدينة لجنده ثلاثا يقتلون الناس ، ويأخذون المتاع والأموال [٥] .

ثم أخذ البيعة من الناس على أنهم خول ليزيد ، يحكم فى دمائهم وأموالهم وأهليهم مَنْ شاء ، فمن امتنع من ذلك قتله [٦] .

---

(١) تيارات ثقافية بين العرب والفرس ٨٦ ، وانظره : ١٤٦

(٢) المصدر السابق ٢٢٥

(٣) يقال : إنه قدم المدينة و شهد وقعة الحرة وهو شيخ مريض فى محفة ، ثم توفى بعد قليل فى أوائل سنة ٦٤ هـ : العبر للذهبى ١ / ٦٦

(٤) كانت وقعة الحرة لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ٦٣ هـ ، وفيها قتل من أبناء المهاجرين والأنصار ثلثمائة وستة ، وعدد من الصحابة ، وقيل : بل ثلاثة آلاف من قريش والأنصار ، وانظر : العبر للذهبى ١ / ٦٧ ، وتيارات ثقافية ١٤٣ ، وانظر فى أخبار هذا اليوم أيضا : أيام الرعب فى الإسلام ٤٠٩ — ٤٢١

(٥) ابن الأثير ٤ / ١١٧

(٦) مروج الذهب ٢ / ٩٥ (البهية) وابن الأثير ٤ / ١١٨

بعد موقعة الحرة اتجه مسلم بن عقبة إلى قتال ابن الزبير بمكة ، فلما بلغ قديداً مات ، واستخلف على الجيش الحصين بن نُمير ، فسار الحصين حتى أتى مكة وحاصرها ، ولما لاذا بن الزبير بالكعبة ، ضربها بالمجانيق والعرادات ، وحرق أستارها [١]

فى خلال ذلك مات يزيد بن معاوية (بعد بضع وسبعين يوما من موقعة الحرة فى منتصف ربيع الأول سنة ٦٤ هـ) فعاد جيشه إلى الشام ، ونصبّ عبد الله بن الزبير خليفة ، وأطلق على نفسه « العائذ بالبيت والمستجير بالرب [٢] » .
واستوثق الأمر لابن الزبير ، وانتشرت دعوته فى كثير من الأمصار الإسلامية ، حتى كادت الأمة تجتمع عليه [٣] ، فقد أخذت له البيعة بالشام ، وخطب له على سائر منابر الإسلام ، إلا منبر طبرية من بلاد الأردن [٤] .

ومع ذلك كانت دعوة ابن الزبير ، أو فلنقل : حزبه ، من أقصر الدعوات والأحزاب عمرا ، فى عصر بنى أمية ، فقد ظهر هذا الحزب حين أعلن ابن الزبير نفسه خليفة بعد مقتل الحسين بن على (سنة ٢٦ هـ) ، وبعد وفاة يزيد بن معاوية اجتمعت على دعونه أقطار : الحجاز ، والعراق ، واليمن ، ومصر ، وبعض بلدان الشام ، بل يقال : إنه غلب على دمشق عاصمة الأمويين [٥] .

ولكن مروان بن الحكم سرعان مااستخلص الشام من أيدى ابن الزبير بعد موقعة « مرج راهط » [٦] ، التى قتل فيها الضحاك بن قيس الفهرى زعيم القيسية ، ووالى ابن الزبير على دمشق ، بفضل انضواء اليمانية وبواديها ـــ المعادية للقيسية والموالية للأمويين منذ أيام معاوية ، الذى تزوج منهم ميسون بنت بحدل الكلبية أم يزيد ولده ـــ تحت لوائه ، وهُزمت القيسية ، وقتل منها مقتلة عظيمة ، لم يرمثلها قط ، وفى ذلك يقول مروان بن الحكم [٧] :

---

(١) ابن الأثير ، / ١٢٤ ومروج الذهب ٢ / ٩٧ ، وانظر : تاريخ الشعوب الإسلامية ١ / ٥٥
(٢) مروج الذهب ٢ / ٩٩
(٣) العبر للذهبى ١ / ٧٠
(٤) ابن الأثير (بيروت) ٤ / ١٤٤ ، ومروج الذهب (البهية) ٢ / ١٠٤
(٥) انظر : العبر للذهبى ١ / ٧٠ ، وتاريخ الشعوب الإسلامية ، ١ / ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧
(٦) موضع على أميال من دمشق ، وكانت هذه الوقعة فى المحرم سنة ٦٥ هـ ، وقيل : فى آخر سنة ٦٤ هـ ، وانظر : ابن الأثير (بيروت) ٤ / ١٥٠
(٧) مروج الذهب (البهية) ٢ / ١٠٧

لما رأيت الناس صاروا حزبا
والمال لايؤخذ إلا غصبا
دعوت غسَّانا لهم وكلبا
والسَّكسكيِّين رجالا غُلبا
والقين تمشى فى الحديد نكبا
والأعوجيات يثبن وثبا
يحملن سروات ودينا صُلبا

ثم لم يلبث ابنه عبد الملك بن مروان أن قضى على دعوة ابن الزبير فى العراق ، بقتل أخيه مصعب بن الزبير ، واليه على العراق [١] ، بعد أن تخلى أهل العراق عن مصعب ، وغدروا به ، كما فعلوا من قبل بعلى بن أبى طالب وابنيه الحسين والحسن .

وإلى هذا تشير سكينة بنت الحسين وزوج مصعب ، حين خرجت من الكوفة تريد المدينة بعد مقتل مصعب ، فأطاف بها أهل الكوفة فقالوا : أحسن الله صحابتك يابنت رسول الله ، فقالت : والله لقد قتلتم جدى وأبى وعمى وزوجى مصعبا ، أيتمتمونى صغيرة ، وأرملتمونى كبيرة ، فلا عافاكم الله من أهل بلد .

كما قضى الحجاج بن يوسف الثقفى قائد عبد الملك بن مروان ، على ابن الزبير ودعوته بالحجاز ، بعد أن حاصر مكة ، وضرب الكعبة بالمنجنيقات ، حينما لاذ بها ابن الزبير فاحترقت ، وانتهت بذلك دعوة ابن الزبير (سنة ٧٢ هـ) [٢] .

وقد ارتكب ابن الزبير عدة أخطاء ، كانت سببا فى القضاء على دعوته ، وتقصير عمر حزبه ، بل واغتيال حياته ، من أهمها ، إخفاق سياسته فى مصانعة المختار بن عبيد الثقفى ، مما جعل المختار يخلع طاعته ، ويجحد بيعته بالعراق ، ويرتمى فى أحضان الطالبيين وأيضا اضطهاده للهاشميين ، واشتداد وطأته عليهم ، مما أفقده عطف المحبين

---

(١) كان مقتله سنة ٧٢ هـ لثلاث عشرة خلت من جمادى الأولى .

(٢) قيل : بايع أهل الحرمين ابن الزبير سنة ٦٤ هـ ، وقتل بمكة سنة ٧٣ هـ . وانظر : العبر للذهبى ١ / ٧٠ ، ٨٢ وفى انتهاء أمر مصعب وابن الزبير ، انظر : ابن الأثير (بيروت) ٤ / ٣٢٣ — ٣٢٨ — ٣٥٧ ، ومروج الذهب (البهية) ٢ / ١١٨ — ١٢٥

لآل البيت ، فقد عمد إلى من بمكة من بنى هاشم فحصرهم فى الشعب ، وجمع لهم حطبا عظيما .. ومنهم محمد بن على بن أبى طالب ، المعروف بمحمد بن الحنفية ، إرهابا لهم ليدخلوا فى طاعته (١) .

يضاف إلى هذا ماعرف به ابن الزبير من البخل ، والإعراض عن استمالة القلوب بالمال ، والشح بالدنيا على سائر الناس ، مماصرف قلوب المؤلفة قلوبهم عنه ، وعلى الأخص قلوب الشعراء وألسنتهم ، وإلى هذا يشير أبو حرة مولى الزبير (٢) :

إن الموالى أمست وهى عاتبة على الخليفة تشكو الجوع والحربا
ماذا علينا وماذا كان يرزؤنا أى الملوك على ماحولنا غلبا

وهكذا لم تمض سنوات قليلة من حكم الأمويين ، حتى اجتمع فى الحجاز ، والعراق أحزاب ثلاثة ، كانت تعارض دولة بنى أمية ، وتعمل جاهدة على تقويض ملكهم ، وإزالة دولتهم ، وهى : الشيعة ، والخوارج ، والزبيريون ، فإذا أضيف إليهم حزب بنى أمية ، اتضح لنا مدى التصدع الخطير الذى أصاب وحدة الأمة الإسلامية فى هذا العصر .

ولئن كان هذا الانقسام والتصدع نقمة خطرة على وحدة الأمة الإسلامية ، فإنه من جهة أخرى ، كان نعمة وبركة على الحياة الأدبية بعامة ، والشعرية بخاصة ، فى العصر الأموى ؛ حيث تنافست الأحزاب فى اصطناع الشعراء ، واتخاذ الشعر سلاحا قويا لنشر دعوة الحزب ، وآرائه ، والإشادة بسياسته ، وإظهار تأييده ونصرته ، ومناهضة خصومه ، فتوزع الشعراء على الأحزاب ، وأخذوا ينظمون شعرهم معبرين عن نظريات سياسية جديدة ، وأفكار ومبادىء موروثة ومستحدثه ، فأثروا فى الشعر العربى من هذه الناحية ، تأثيراً كبيرا ؛ إذ وجهوه ناحية الحزبية والنشاط السياسى .

وأستأثر الحزب الأموى بأكثر هذا الشعر ، كما فاز باجتذاب أكبر عدد من شعراء العصر ؛ لسخاء بنى أمية ، وضخامة عطائهم ، وطمع الشعراء فى جوائزهم .

---

(١) مروج الذهب (البهية) ٢ / ٩٧ — ١٠٠ والخوارج والشيعة ٢١٦

(٢) مروج الذهب (البهية) ٢ / ٩٩

بذلك تراخت قبضة ولاة الأمور على الشعر والشعراء ، بعد أن كان الراشدون يتعقبونهم ، ويشددون النكير عليهم ، بخاصة عمر بن الخطاب ، الذى تقدم إلى الشعراء أن لا يشبِّب أحد منهم بامرأة إلا جلده (١) ، كما حبس الحطيئة ، وهدده بقطع لسانه لما هجا الزبرقان بن بدر ، حتى ضج الحطيئة ، واعتذر إلى عمر ، فخلى سبيله ، وأخذ عليه العهد ، أن لايهجو أحدا ، وجعل له ثلاثة آلاف درهم ، على أن يكف عن تناول أعراض المسلمين فى شعره (٢) .

كما أخذ النجاشى بمثل هذه الشدة لما هجا بنى العجلان ، بقوله (٣) :

وماسُمّى العجلان إلا لقيلهم   خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

ولما هجا الشماخ بن ضرار الذبيانى (٤) بنى سليم ، ونال من أعراضهم ، بقوله مخاطبا امرأة منهم ، تدعى أسماء (٥) :

وإنك من قوم تحن نساؤهم   إلى الجانب الأقصى حنين المنائح

استدعاه الخليفة الراشد عثمان بن عفان من البادية ، وهدده ، لولا أن أقسم الشماخ يمينا مغلظة على منبر رسول الله أنه ما هجاهم .

بعد هذه المراقبة الشديدة للشعر والشعراء فى عصر الراشدين ، صار الخلفاء ، وزعماء الأحزاب فى العصر الأموى يتملقون الشعراء ، ويقربونهم ، ويجزلون العطاء لهم ؛ رغبة فيما يقومون به من دعاية لمذاهبهم ، ودفاع عن وجهات نظرهم ، فانفتح باب هذا اللون من الشعر ، أمام الشعراء ، على مصراعيه ، وتدفقت الدماء فى شرايين الشعر بعد أن كادت تجف ، فى عصر الراشدين ، وعاود الشعراء شياطينُهم ، فنهض الشعر من عقاله ، ونفض عن مناكبه غبار الزمن ، وصدأ الإهمال .

ولما كان هذا الشعر السياسى معبرًا عن آراء الأحزاب ، التى يتحدث باسمها ، ومتأثرا بمذاهبها الدينية والسياسية ، فإنه ينبغى علينا أن نخص كل حزب منها بعرض

---

(١) الأغانى ٤ / ٩٧

(٢) ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى ١ / ٣٨ — ٣٩

(٣) المصدر السابق ١ / ١٧٦ — ١٧٧

(٤) انظر خبر وشعره فى كتابنا : الشماخ بن ضرار الذبيانى حياته وشعره .

(٥) ديوان الشماخ بتحقيقنا ١٠٨ ، وانظر : الشماخ بن ضرار حياته وشعره ٩٣ — ٩٤

موجز ، يلم بالسمات العامة لأصول سياسته ومبادئه ، ودعائم مذهبه ؛ حتى يتسنى لنا فهم نصوص الشعر التى دارت مضموناتها حول هذه الأحزاب ، ولنقف على ماتعكسه هذه النصوص من عناصر متطورة أو جديدة فى حقل الفن الشعر لهذا العصر ، ثم لنتبين مدى نجاح هذا اللون من الشعر ، أو قصوره فى خدمة السياسة الحزبية التى دار فى فلكها .

أ ــ حزب الشيعة :

قلنا : إن التشيع لعلى فى حياته كان تشيعاً عاطفيا [١] ، لُحمتُه وسَدَاهُ حب آل بيت رسول الله ﷺ ، وأنه ظل كذلك إلى أخريات أيام علىّ ، حيث نادى عبد الله بن سبأ ــ الذى كان يهوديا ثم أسلم [٢] ــ بأن عليا فيه طبيعة إلهية .

ومن الجلى أن هذا الغلو فى علىّ ليس إسلاميا ، ولا يقره الإسلام ، وإنما هو دخيل على العقيدة الإسلامية ، متسرب من بعض الديانات السابقة على الإسلام ، ولعلها المسيحية ، فما ذهب إليه ابن سبأ فى علىّ ، يشبه ماذهبت إليه بعض الطوائف المسيحية فى الشرق ، قبيل الإسلام ، وعلى الأخص من أتباع الكنيسة الملكانية ، من أن للمسيح طبيعتين : إحداهما إلهية ، والأخرى بشرية (أو لاهوتية وناسوتية) [٣] .

ولما وصلت مقالة ابن سبأ إلى مسامع على أنكرها أشد الإنكار ، وغضب على ابن سبأ غضبا جعله ينفيه إلى ساباط المدائن [٤] ، واستتاب بعض أتباعه من غواة

---

(١) راجع ص ٩ ، ١٢ من هذا البحث ويذهب بعض الشيعة إلى أن التشيع لعلى يرجع فى نشأته إلى أيام النبى ﷺ وأنه ﷺ هو واضع بذرة التشيع فى حقل الإسلام ، مع بذرة الإسلام جنبا وأنه ظل يتعهدها بالعناية حتى نمت وازدهرت فى حياته ثم أثمرت بعد وفاته ويستشهدون بأقوال يروونها عن النبى ﷺ وآيات قرآنية يتأولونها ، وعلى هذا فالتشيع لعلى كان موجوداً فى حياة النبى ﷺ وشيعة على آنذاك هم الذين لازموه ، وجعلوه إماما كمبلغ عن الرسول ، وشارح ومفسر لتعاليمه ، وأسرار حكمه وأحكامه . انظر أصل الشيعة وأصولها ١٠٩ ومابعدها ، ١١٢

(٢) انظر : الفرق بين الفرق ٢٢٥

(٣) انظر : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ١٥ ــ ١٦ ، وعقيدة الشيعة ٥٩

(٤) الملل والنحل ٢ / ١١ ، وانظر : الفرق بين الفرق ١٥

الكوفة ، ولكنهم لم يتوبوا فأحرقهم فى حفرتين ، وفى ذلك يقول أحد الشعراء : [(١)]

لِترمِ بِىَ الحوادثُ حيث شاءت إذا لم ترمِ بى فى الحفـــرتين

وبعد مقتل علىّ نادى ابن سبأ برجعته ، وأنه لم يمت ، إلى غير ذلك من العقائد المتطرفة المتأثرة بديانته القديمة ، فكان بذلك رأس فرقة عرفت فى تاريخ التشيع بالسبئية ، نسبة إليه ، كانت آراؤها من الأسس التى قامت عليها بعض الفرق الغالية [(٢)] من الشيعة كالكَيْسَانّية [(٣)] أتباع محمد بن الحنفية [(٤)] « التى تنسب بعلى وذريته علما لدُنّياً فوق الطبيعة البشرية ، به تنكشف بواطن الوحى الإلهى [(٥)] » .

وعمدة مقالة الكيسانية ، أن الدين طاعة رجل ، يعتقدون فيه الإحاطة بالعلوم كلها ، ومعرفة الأسرار ، من علم التأويل والباطن وغيرهما [(٦)] .

وإلى جانب هاتين الفرقتين الغاليتين ، قامت فوق أخرى معتدلة فى تشيعها لعلى وآل بيته ، من أشهرها ، فرقة الزيدية ، أتباع زيد بن على بن الحسين بن على .

وأكثرية فرق الزيدية ، المعاصرين للدولة الأموية ، لايجبون تسلسل الإمامة من أب إلى ابن بطريق الوارثة المباشرة ، فى أبناء على والحسن ، والحسين ، وابن الحنفية ، وإنما يعترفون بإمامة كل علوىّ ــــ دون مراعاة لانتسابه لواحد من أبناء على الثلاثة ــــ له من الاستعداد الروحى للرياسة الدينية ، مايعنيه على إظهار مواهبه فى نضاله من أجل الغاية المقدسة ، وهى إرجاع الحق لآل البيت العلوى ، فيكون بذلك أهلا لطاعة الجماعة إياه وانضوائها تحت لوائه .

---

(١) الفرق بين الفرق ٢٣٣

(٢) راجع فى هذا : الملل والنحل ٢ / ١١

(٣) هم أصحاب كَيْسان ، مولى على بن أبى طالب ، وقيل : بل تلميذ بن الحنفية ، أو مولى له ، وقيل : إنما سموا بالكيسانية لإضافتهم إلى المختار بن أبى عبيد الثقفى ، وكان اسمه كيسان ، ويكنى أبا عمرة . انظر : مقالات الإسلاميين ١ / ٨٩ ــ ٩٠ والملل والنحل ١ / ١٩٦ ، والفرق بين الفرق ٢٧ ، وشرح رسالة الحور العين ١٨٢ ، ومزيد تفصيل فى : تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى ١٥١ ، ويذهب فلهوزن فى كتابه الخوارج والشيعة ٢٣٩ إلى أن السبئية يسمون أيضا الكيسانية ، ولعله يعنى أن الفرقتين اندمجتا فى فرقة واحدة سميت بهذا الاسم أو ذاك .

(٤) هو أبو القاسم محمد بن على بن أبى طالب ، وكانت أمه من بنى حنيفة فنسب إليها ، وكانت شيعته تلقبه بالمهدى ، وتزعم أنه لم يمت ، وأنه مختف بجبل رضوى ، توفى عن تسعة وستين عاما سنة ٨١ هـ

(٥) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٥

(٦) الملل والنحل ١ / ١٩٦

وهم لايقولون أيضا بعقيدة العلم الباطنى عند الأئمة ، وإن مالوا إلى القول بامتياز الأئمة فى فقه الدين ، والمعرفة بالله ، لأخذهم عن جدهم النبى ﷺ الآخذ عن الله .

كما أنهم لم يضفوا على الأئمة من صفات التقديس ماأضفاه غيرهم من الشيعة الغالية على أئمتهم ، فإمامهم يأخذ صورة واقعية للإمام ، الذى يعمل فى الحياة ، فى نضال مكشوف ، ويكون على رأس الجماعة الإسلامية حاكما وفقيها ؛ ومن ثم لو يؤمن هذا الفريق من الشيعة بالتقية ، أو العمل السرى .

هذا فضلا عن استمساكهم برأى مؤسس مذهبهم الإمام زيد بن على فى حكمه على خلافة أبى بكر وعمر وعثمان ، فلم يشاركوا غيرهم من الشيعة المتطرفة فى لعنهم والبراءة منهم ، ومن سائر الصحابة الذى بايعوهم ، وتركوا عليا ، ولكنهم يأخذون عليهم عدم إدراكهم للمواهب الفذة ، التى امتاز بها على ، وجعلته يفضُل هؤلاء جميعا ، دون أن يحملوهم وزر هذا الخطأ فى التقدير ، بإقامة المفضول إماما ، مع وجود الفاضل ؛ ولذا لانجدهم ينظرون إلى الخلفاء الثلاثة الأول نظرة القاهرين الغاصبين [١] .

من أجل هذا وغيره ، يمكن أن يعد الشيعة الزيدية ، الفرقة الشيعية المعتدلة حيال أهل السنة .

لعله قد اتضح لنا مما تقدم أن التشيع لعلى وآل بيته لم يأخذ طابع المذهبية ، القائمة على أسس ، ومبادىء ، وعقائد إلا بعد وفاة على بن أبى طالب .

ولسنا هنا فى مقام عقائد الشيعة فى العصر الأموى ، وإنما يعنينا منها ماترك تأثيرا فى الشعر الشيعى ، أو انبعث عنه هذا الشعر ، أو كان له انعكاس فيه ، وجملة ذلك تلك العقائد والنظريات الدينية والسياسية ، التى تكاد تجمع عليها فرق الشيعة عدا أكثرية الزيدية ، وأهمها مايلى :

١ ـــ يتفق الشيعة مع أبى حنيفة ، وأكثر المرجئة فى أن الإمامة [٢] لاتجوز إلا فى

---

(١) انظر فى عقائد فرق الزيدية المتعدلة : مقالات الإسلاميين ١ / ١٣٧ ، والعقيدة والشريعة فى الإسلام ٢١١ .

(٢) لايميل الشيعة إلى لقب الخليفة والخلافة ، ويفضلون أن يلقبوا من يدينون له بالطاعة من آل البيت فى كل عصر بالإمام ؛ لأن هذا اللقب يدل فى معناه على مقام دينى ، ومكانة دينية ملحوظة ، لاتوجد فى غيره من الألقاب . انظر : العقيدة والشريعة ١٧٥

قريش ؛ لقول النبى ﷺ : « الإمامة فى قريش » [١] وقوله : « قدموا قريشا ، ولاتَقَدَّموها » وأدلة أخرى عديدة ، يوردونها من النص والعقل [٢] ، ثم يخالفون كل الفرق والمذاهب فى الإمامة ــ عدا ماذكرنا ــ على النحو التالى :

٢ ــ الإمامة ليست من المصالح العامة ، التى يوكل الأمر فيها للمسلمين ليختاروا من يسوسهم وفق أحكام الله ، وإنما هى ركن من أركان الإسلام ، لايجوز للرسول ﷺ إغفاله ، وإهماله ، ولاتفويضه إلى العامة [٣] ؛ لأنها منصب إلهى كالنبوة ، فكما أن الله سبحانه يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة ، فكذلك يختار للإمامة من يشاء ، ويأمر نبيه بالنص عليه ، إماماً للناس من بعده ، للقيام بالوظائف التى كان على النبى أن يقوم بها ، غير أن الإمام لايوحى إليه كالنبى [٤] .

فالإمامة إذن ، ركن من أركان الإسلام ، ولاتكون إلا بالنص ، من ا ﷺ ورسوله على عين الإمام ، واسمه ، وصفاته ، وفى سائر الأعصار لاتخلو الناس من حجة الله فيهم (الإمام) ظاهرا وباطنا ، على حسب استعماله التقية ، والخوف على نفسه .

والذى يبدو أن الشيعة إنما قالوا بالنص من الله ورسوله على الإمام ؛ لأنهم ماكان لهم أن يعتمدوا فى القول بإمامة على وأبنائه على حق القرابة والإرث وحدهما ؛ لأنهما لاينهضان بهذا الحق ، وإلالكان العباس عم النبى ﷺ صاحب الحق وحده ــ بعد النبى ــ لأنه عمه ، وعلى ابن عم ، وهو محجوب الإرث فى حالة وجود العم ، وفاطمة بنت النبى ﷺ لاحق لها كذلك ؛ لأن الولاية لاتكون للنساء فى الإسلام ، وولداها (الحسن والحسين) من بنى البنات ، وهم لايرثون مع العم ، لكل هذا قال الشيعة بالنص على الإمام من الله ورسوله ، على اسم الإمام وذاته ، وإن قال بعضهم : يكفى فى النص ، الإشارة ، وذكر صفات لاتوجد إلا فيه .

٣ــ إمامة علىّ بن أبى طالب نص عليها الرسول ﷺ ، وأوصى له بها فعلىٌّ هو صاحب الحق فى الإمامة بالنص والوصية .

---

(١) روى ذلك عن أبى بكر عن النبى ﷺ . انظر الفرق بين الفرق ١٣

(٢) انظرها : فى مروج الذهب (البهية) ٢ / ١٩٢

(٣) الملل والنحل ١ / ١٩٥

(٤) أصل الشيعة وأصولها ١٢٨ ، وانظر : عقائد الإمامية ٧١ ، وعقيدة الشيعة ٢٦

والشيعة يستندون فى دعوى النص هذه على مايروى من أن النبى ﷺ قال لعلى فى عزوة تبوك : « أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبى بعدى » ، وأنه أخذ البيعة له بإمرأة المؤمنين يوم « غدير خُمّ » فقال : « ألا من كنت مولاه فهذا على مولاه » اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار » بل إن النبى ﷺ نص على إمامة على حينما دعا أقرباءه الأدنين ، وعشيرته الأقربين بمكة فى أول الدعوة ، فقال : « هذا أخى ووصيى ، وخليفتى من بعدى » فاسمعوا له وأطيعوا » وعلى يومئذ صبى لم يبلغ الحلم ... إلى غير ذلك من الأقوال المنسوبة إلى الرسول ﷺ والآيات المؤولة على النحو الذى يرتضون [١] .

ويعتقد الشيعة أن عليا أوصى بالإمامة إلى ولده الحسن ، ونص عليه بعد أن طعنه ابن ملجم ، وأن الحسن أوصى للحسين ، ويقال : بل أن عليا نص عليهما ، لأنهما شريكاه فى آية التطهير [٢] .

٤ ـــ الإمامة فى ذرية على من بعده ، تتسلسل منهم بنص الإمام السابق على لاحقه ، ووصيته له ، ولاتخرج عنهم إلى سواهم ، وإن كانت فرق الشيعة قد اختلفت فى تعيين الأئمة من ذرية علىّ ، أهم من نسل الحسن ؟ أم الحسين ؟ أم هى بعدهما فى أخيهما لأبيهما محمد بن الحنفية ؟

٥ ـــ يجب على المسلمين أن يولوا عليهم صاحب النص والوصية فى كل عصر ، وكل من يمنعه حقه » فى الإمامة مخطىء عند معتدلى الشيعة ـــ كالزيدية ـــ وكافر عند الغلاة منهم ، يتبرءون منه ؛ ولذا حكم غُلاة الشيعة بكفر الصحابة جميعا ؛ لأنهم بايعوا أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وتركوا عليا ، صاحب الحق المنصوص عليه ، والموصى له من قبل النبى ﷺ ، كما كفروا بنى أمية وأنصارهم ، لاغتصابهم الإمامة من ذريه علىّ .

٦ ـــ الإمام فى كل عصر هو المصدر الشرعى الوحيد للتوجيه والإشارد الدينى فى الجماعة الإسلامية لأنه وحده ـــ بمقتضى الاختيار الإلهى ، وصفة العصمة التى وهبه الله إياها ـــ قد خول له ووكل إليه تعليم جماعة المسلمين ، وتوجيههم ، فى كافة شئونهم

---

(١) انظر : عقائد الإمامية ٧٨ ومروج الذهب (البهية) ٢ / ٤٩ ، ٦١ ، وأصل الشيعة وأصولها ١١٣

(٢) أصل الشيعة وأصولها ١٣٦ ، وانظر : مروج الذهب (السعادة) ٢ / ٤٢٥ ، وعقيدة الشيعة ١٠٠

الدينية ، وهذه نتيجة ضرورية ترتبت عن العدالة الإلهية ، التى اقتضت أن لايحرم أى جيل من هذا التوجيه والارشاد .

وإذن ، فوجود إمام لكل عصر أمر ضرورى لاغنى عنه ؛ لأن الغاية من التشريع السماوى ، والتوجيه الإلهى ، لاتتحقق دون إمام حائز لمثل هذه الهداية ، وهذه العلوم الربانية ، فالإمامة نظام واجب ، كما يجب أن يكون الإمام أعلم الخلق ؛ لأنه يقيم حدود الله ، وإلا وضع أحكام الله فى غير مواضعها (١) .

وعلم الإمام يتلقاه من طريق النبى أو الإمام من قبله ، وإذا استجد شىء لابد أن يعلمه من طريق الإلهام بالقوة القدسية التى أودعها الله تعالى فيه ، فإن توجه إلى شىء ، وشاء أن يعلمه علمه على وجهه الحقيقى ، لايخطىء فيه ، ولايشتبه ، ولايحتاج فى كل ذلك إلى البراهين العقلية ، ولا إلى تلقينات المعلمين ، فقوة الإلهام عند الإمام قوة قدسية ، تبلغ الكمال فى أعلى درجاته ، وغلاة الشيعة يثبتون العلم للإمام إرثا ، بغير حاجة إلى تعلم ، ومنهم من زعم أن النبى ﷺ بث عليا علوما ، كان يخفيها عن جمهور صحابته ؛ لأنهم لم يكونوا أهلًا لها ، وقد توارث العلويون هذه العلوم (٢) .

٧ ــ الأئمة كالأنبياء معصومون وجوبا من الكبائر والصغائر ، ومن الفواحش ماظهر منها ومابطن ، من سنّ الطفولة إلى الموت ، عمدا ، أو سهوا ، كما أنهم معصومون من السهو والخطأ والنسيان ، لأن الأئمة حفظة الشرع ، والقوامون عليه ، حالهم فى ذلك حال النبى (٣) ؛ ولأن الإمام لو لم يكن معصوما ، لم يأمن أن يدخل فيما يدخل فيه غيره من الذنوب ، فيحتاج إلى أن يقام عليه الحد ، كما يقيمه هو على غيره ، فيحتاج الإمام إلى إمام ... وهكذا إلى غير نهاية ، ولم يؤمن عليه كذلك أن يكون فاسقا فاجراً فى الباطن (٤) ، والفسق غير جائز عليه ظاهرا وباطنا ، كما لايجوز على النبى .

٨ ــ التقية : وهى فى مفهومها العام تعنى : الحيطة والحذر ، وعند الشيعة :

---

(١) العقيدة والشريعة ١٧٦ ، ومروج الذهب ٢ / ٩٢

(٢) عقائد الإمامية ٧٣ ، والعقيدة والشريعة ١٧٥ ، ومقالات الإسلاميين ١ / ١١٧ ، وأصل الشيعة وأصولها ١٤٦

(٣) عقائد الإمامية ٧٣ ، وعقيدة الشيعة ٣١٥

(٤) مقالات الإسلاميين ١ / ١١٦ ، ومروج الذهب (البهية) ٢ / ١٩٢ ، وانظر : الملل والنحل ١ / ١٩٥ ، وأمالى المرتضى ٢ / ٣٤٨

مكاتمة المخالفين لهم ، وترك مظاهرتهم ، وستر اعتقاداتهم ، وأعمالهم المختصة بهم عنهم [١] . وهذا يعنى أن للشيعى أن يظهر الولاء والموافقة لذوى السلطان . المخالفين لعقيدتهم ، وستر مايؤمنون به عنهم ، حفاظا على سلامة الحياة والمال والعرض ، من بطش أعدائهم والتقية من هذا الجانب ، تكتسب مشروعيتها من حق كل إنسان فى حماية نفسه وماله وعرضه إذا أحس بالخطر عليها ، أو على شىء منها ، بسبب إظهار معتقده ، أو التظاهر به ، حينئذ يجب عليه أن يحتمى بالتقية ، ولذا كانت هذه العقيدة مبدءا من مبادىء الشيعة — عدا الزيدية — وعقيدة من عقائدهم الأساسية ، وواجبا ضروريا ، يجب على كل متشيع أن يراعيه من أجل حماية نفسه ، وحماية الجماعة التى ينتمى إليها .

والحق أن المخاطر التى كانت تتهدد دائما الأئمة وشيعتهم فى العصر الأموى ، هى التى هدتهم إلى القول بهذه العقيدة ، ذات الصبغة الأخلاقية ، التى ترتدى ثياب المصانعة ، والمداجاة ، وبمقتضى عقيدة التقية ، لم يكن الشيعى ، يستطيع فحسب أن يخفى مذهبه ، وأن يتكتم عقيدته ، بل يجب عليه أن يفعل ذلك ، وأن يبالغ فى الإخفاء والكتمان ، وعليه فى البلد التى يسودها خصومه أن يتكلم وأن يعمل كما لو كان واحدا منهم ؛ حتى لايجلب الخطر ، والاضطهاد لأصحابه [٢] » ، وخاصة فى عصر كان يكفى فيه أن يقال : هذا شيعى ليلاقى حتفه ، على يد أعداء آل البيت من الأمويين .

على أن لعقيدة التقية جانبا آخر ، تفرضه ظروف السياسة ، ويقتضيه حرص الشيعة على حق الأئمة ، وتمكينهم من هذا الحق ، بالعمل على تقويض دولة الغاصبين ، وتقوم التقية بدور هام فى هذا المجال ، حيث تمكن الشيعة من العمل فى الخفاء ضد أعدائهم ، فتكون بذلك ضربا من التعمية على أصحاب السلطان ، إلى أن تواتى الفرصة للوثوب عليهم ، والشيعة بهذا الاعتبار يأخذون طابع الجماعات السرية ، ولكنهم ينفون عن أنفسهم أن يكون هذا الطابع بقصد الهدم والتخريب ، وإشاعة الفوضى ، وإنما يرون فيه نصرة للدين ، وتمكينا للحق ، وخدمة للإسلام ؛ لأن تمكين صاحب الحق من إمامة المسلمين ، فيه استصلاح لحالهم ، وجمع لكلمتهم ، ولم لشعثهم ، وإقامة لدينهم [٣]

---

(١) عقيدة الإمامية ٨٧

(٢) العقيدة والشريعة ١٨٠

(٣) عقيدة الإمامية ٨٦ — ٨٧

وعلى أساس من هذه العقيدة ، حملوا بيعة علىّ بن أبى طالب ، لأبى بكر وعمر وعثمان .

٩ــ المهدية ، والرجعة : المهدية والرجعة عقيدتان من العقائد الجوهرية فى نظرية الإمامة لدى الغالبية العظمى لفرق الشيعة ، ولاتختلف هذه الفرق إلا فى هوية الإمام الخفي ، الذى قدرت له العودة ، كما تختلف فى قائمة الأئمة ، التى يؤلف الإمام المختفى واحداً منها .

والمهدية : نسبة إلى عقيدة المهدى المنتظر ، ويطلق عليه أحيانا ، قائم الزمان ، أو إمام الوقت [١] ،وهو الإمام الذى يظهر ، أو يعود ، فيقوض ملك الظالمين ، ويملأ الأرض عدلا ، كما ملئت جورا ، وهو عند بعض الشيعة إمام من آل البيت حىّ لم يمت ، ولكنه اختفى من وجة الظلم ، ويظل مختفيا إلى أن تتاح له الفرصة للظهور واسترداد الحق ، وإقامة العدل [٢] ، وعند بعضهم أنه إمام يبعثه الله بعد فترة من موته فى الدنيا ، ليملأ الأرض عدلا ، ويخلصها من الغاصبين الظالمين وهم يقولون : أى غرابة واستحالة فى العقول أن سيحيى الله سبحانه هذا الإمام بعد موته ؟ ولهم حجج وأدلة من النقل والعقل على جواز ذلك [٣] .

وكان زعماء الشيعة يشيعون دائما أن هذا المهدى المنقذ سيأتى ليخلص الناس مما هم فيه من ظلم وعذاب .

وتختلف فرق الشيعة فى تعيين هذا المهدى ، فالسبئية ترى أنه الإمام علىّ ،وأنه سيرجع ؛ لأنه حى لم يمت [٤] ، ولن يموت حتى يملأ الأرض عدلا .

والكيسانية تعتقد أن محمد بن على (ابن الحنفية) هو المهدى ، فهو حى مقيم بجبل رضوى ، وسيرجع إلى الدنيا فيملؤها عدلا [٥] .

---

(١) العقيدة والشريعة ١٩٦ ، ١٩٧

(٢) عقيدة الإمامية ٨٢

(٣) انظر : أصل الشيعة وأصولها ١٠٠ ، ١٣٧ ــ ١٤١ ، وعقيدة الإمامية ٩ ، ٨٣

(٤) راجع : مقالات الإسلاميين ١ / ٨٥

(٥) الحق أن الكيسانية اختلفوا فى موت ابن الحنفية ، فمنهم من قطع بموته ، وقال برجعته ، ومنهم من ذهب إلى أنه لم يمت ،وأنه حى مختف بجبل رضوى ، دخل إلى شعب فيه ، ومعه جماعة من أصحابه ، فلم يعرف لهم خبر ، ولكنه سيظهر مهديامصلحا . انظر :مروج الذهب (البهية) ٢ / ١٠١

ومما تجدر الإشارة إليه أن فكرة الرجعة هذه ، ليست من وضع الشيعة ، أو من عقائدهم التى اختصوا بها ، وإنما هى من الأفكار الدينية التى تسربت إلى الإسلام من الديانيتن السابقتين عليه ، نعنى اليهودية والمسيحية ، فعند اليهود والنصارى أن النبى إيليا قد رفع إلى السماء ، وأنه لابد أن يعود إلى الأرض آخر الزمان ؛ لإقامة دعائم الحق والعدل ، ولاشك أن إيليا هو الأنموذج الأول لأئمة الشيعة المختفين الغائبين ، الذين يحيون « لايراهم أحد ، والذين سيعودون يوما مهديين منقذين للعالم » [١] .

وقد كثر الحديث فى عقيدة المهدية ، وطال نقاش المسلمين فيها ، ورويت عن النبى ﷺ أخبار تتحدث عن هذا المهدى المنتظر من آل البيت ، وتصور صفاته على وجه الدقة [٢] ، هذه الأخبار والروايات ، لم تجد لها مكانا فى مصنفات الحديث المتشددة فى ضبط الرواية ، وإنما أخرجتها الكتب الأخرى ، التى كانت أقل تشددا فى صحة تخريج هذه الأحاديث [٣] .

وإيا ماكان الأمر فى عقيدة المهدية عند الشيعة ، وغيرهم ، فقد شاعت هذه العقيدة فى الشعر الشيعى ، صفة لكل ممدوح من أئمة آل البيت .

ومن الطريف أن بريق هذه العقيدة قد دفع بعض أنصار البيت السفيانى من الأمويين إلى القول بمهدى من بنى أبى سفيان بن حرب بن أمية .

فقد أورد أبو الفرج الأصفهانى رواية تذهب إلى أن خالد بن يزيد بن معاوية ــ وكان يوصف بالعلم ــ هو الذى وضع خبر السفيانى ، وكبره ، وأراد أن يكون للناس فيه طمع ، حين غلبه مروان بن الحكم على الملك ، وتزوج أمه ؛ إمعانا فى إذلاله .

---

(١) العقيدة والشريعة ١٩٢

(٢) أفرد ابن ماجة فى سننه بابا خاصا فى خروج المهدى ، وأنه من أهل البيت ٢ / ١٣٦٦ ، وكذلك فعل أبو داود فى سننه ٤ / ١٠٦ حيث خصص بابا للأخبار الواردة فيه . وكذا فعل الترمذى فى جامعه ، حيث خصص بابا لما جاء فيه. انظر تحفه الأحوذى بشرح جامع الترمذى ٦ / ٤٨٤ .

(٣) تولى ابن خلدون الرد على فكرة المهدية ، والأخبار المروية فيها .انظر : مقدمة ابن خلدون ٣١١ ــ ٣٣٠ وانظر تعليق رونلدسن على عقيدة المهدية عند الشيعة فى كتابه : عقيدة الشيعة ٢٣٠ ومابعدها

ويعلق أبو الفرج على هذه الرواية بأنها وَهَمٌ ؛ لأن السفيانى قد رواه غير واحد ، وتتابعت فيه رواية الخاصة والعامة [١] . أى أن أبا الفرج يميل إلى أن فكرة السفيانى حقيقة تتحدث عنها الروايات ، وليس اختراعا من وضع خالد بن يزيد .

وهذه الفكرة ، على القول برواجها أيام الأمويين ، كانت خاصة بالدعوة إلى إعادة البيت السفيانى إلى الحكم ،الذى انتزعه منه بنو مروان الأمويين .

على أن هذه الفكرة لم يلبث أن ظهرت بعد سقوط الدولة الأموية ، فقد ظهر من يدعى أبو محمد السفيانى (ابن عبد الله بن يزيد بن معاوية) ،وهو الذى خرج على أبى العباس السفاح ، الخليفة العباس الأول ، فى جمع من أربعين ألفا ، بنواحى قنسرين وحمص فى ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ ، فقاتلهم عمه عبد الله بن على ، وهزمهم ، وفر السفيانى هائما على وجهه ، مضيعا ومشتتا ، حتى لحق بأرض الحجاز أيام أبى جعفر المنصور ، فأخذه عامل المنصور وقتله ،وبعث برأسه إليه ،وقد أبى أتباعه أن يصدقوا وفاته ، وظلوا يترقبون عودته ، ليجدد أيام دولة بنى أمية ، ويعيد عز السلطان للأمويين [٢] .

وهكذا ظهرت الحاجة إلى مهدى سفيانى ، بعد أن ثُلّ عرش بنى أمية أيضا ، إحياء للأمل فى استعادة السلطان للبيت الأموى ، من يد العباسيين ، وظلت هذه الفكرة تتراءى من حين لآخر ، فيقال : إنه فى عهد المأمون تعرض له رجل من الشام ، وقال له : ياأمير انظر لعرب الشام ، كما نظرت إلى عجم أهل خراسان ، فكان مما أجابه به المأمون ، مبينا اتجاهات الولاء عند قبائل العرب بالنسبة له : « وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفيانى وخروجه فتكون من أشياعه [٣] » .

من هذا نرى أن عقيدة المهدية كان لها بريق سياسى أخاذ ، ساعد على انتشارها عند الشيعة ، وعند خصومهم أيضا ، إن حقا ، وإن باطلا ، وإلى هذا يشير أستاذنا

---

(١) الأغانى ١٦ / ٨٥ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٠ / ٥٢ ، وانظر : تاريخ الشعوب ١ / ٢٠٦

(٣) تولى ابن خلدون الرد على فكرة المهدية ، والأخبار المروية فيها .انظر : مقدمة ابن خلدون ٣١١ — ٣٣٠وانظر تعليق رونلدسن على عقيدة المهدية عند الشيعة فى كتابه : عقيدة الشيعة ٢٣٠ ومابعدها

الدكتور أحمد الحوفى فى قوله [١] : « ويظهر أن بنى مروان خشوا العقيدة فى المهدى ، لأنه من الشيعة وسيعيد الحكم إليهم » وتخوفوا العقيدة فى السفيانى ؛ لأنه من بنى سفيان ، وسيرجع الحكم إليهم ، فجعل بعض شعرائهم يدعون أن القائم بالحكم من بنى مروان هو المهدى الذى ينتظره الناس ؛ ليقضوا بالواقع على الأمل فى مهدى أو سفيانى » .

ولقد كان لعقيدة المهدى صدى قوى فى شعر الشيعة ، وفى شعر الأمويين ــ تأثرا ببريق هذه العقيدة الشيعية ــ كما نرى ، إن شاء الله .

ب ــ الحزب الأموى :

من خلال العرض السابق لأهم عقائد الشيعة ، يلاحظ أن الشيعة حرصوا على إقامة حق آل (البيت السياسى على أسس دينية ، تجعل من هذا الحق ضرورة ، تمليها حاجة الدعوة إلى استمرار الهدى والارشاد الإلهى ، وتقتضيها العدالة الإلهية ؛ حتى ليبدو الجانب الدينى ،أو الصبغة الدينية فى عقائدهم ، غالبة على الجانب السياسى ، متقدمة عليه ، وإن كان الغرض السياسى هو همهم الأكبر من وراء كل هذا ؛ ولذا أحاطوه بهذه القواعد ، التى أجهدوا أنفسهم فى إقامة الأدلة على صوابها » من نصوص القرآن ، التى تأولوها ، أو من الأخبار ، والآثار المروية عن الرسول ، التى فهموها فهما خاصا ، أو قاموا بوضعها ، وأسباغ صفة الشرعية عليها .

ولئن كان المتشيعون لآل البيت ، قد أعانتهم قرابة الأئمة من الرسول ﷺ على محاولة صبغ دعاواهم بهذه الصبغة الدينية الشرعية ،فإن بنى أمية لم تيهيىء لهم ، أن يقيموا دعوى خلفائهم فى حق الخلافة على أدلة تستند إلى نص من شرع ، أو رأى من دين ، أو منطق من عقل ،فدعاواهم السياسية ، لم تقم على شىء من هذا فى الواقع ، على خلاف مارأينا عند الشيعة ، وماسنرى عند الخوارج أيضا ؛ لذا كان الأمويون « يضعون نصب أعينهم المصلحة الدنيويه للحكومة الإسلامية ، ويجعلونها فى المحل الأول » [٢] ؛ ولذا غلب على حكومتهم الطابع الملكى ، لا الدينى .

---

(١) أدب السياسة فى العصر الأموس ٧٢ .

(٢) العقيدة والشريعة ١٧٦ .

خلاصة هذا ، أن بنى أمية اغتصبوا الخلافة لأنفسهم « ضد شرعيه آل على ، فى نظر الشيعة ، وضد شرعية الإمام المختار من كل الجماعة الإسلامية ، على مذهب الخوارج ، إذ الحكم الأموى ، لايستند إلى شرعية الوراثة فى الملك ، ولا إلى ديموقراطية الانتخاب العام ، بإجماع الأمة لأصلح الناس للإمامة ، وإنما هو حكم القوة الباطشة الماكرة معا ، الخُلْوُ من كل سبب ، أو سند ، يعترف به العقل ، أو تدعو إليه التقاليد والعرف » [١] .

أى أن الخلافة الأموية قامت على : الغصب ، والحيلة ، والقهر . ومع ذلك فقد أبى أنصار بنى أمية ، والمروجون لدعاواهم فى حق الخلافة إلا أن يضفوا على خلافتهم صيبة دينية ، رددها كثير من شعرائهم ، وتتخلص هذه الصيغة ، فيما يلى :

١ ــ أنهم خلفاء الله ورسوله فى الأرض ، اختارهم الله ، واصطفاهم لولاية أمر المسلمين ، وليس بعد اختيار الله اختيار ، ولافوق إرادته إرادة ، فهم يتخذون من واقع أمرهم ، ويقين سيطرتهم على الخلافة دليلا على حقهم فيها ، يستمد شرعيته من إرادة الله العادلة ، وقضائه الذى لايرد ، إذ لايقع فى ملك الله إلا مايريد ، فهو احتجاج بالقضاء والقدر ، كما نرى .

ولأن الله قيض الخلافة لهم ، واختارهم لها ، فقد وفق الأمة إلى أن تبسط يدها إليهم بالبيعة ، رغبة فيهم ، وهوى إليهم ، كما وفقهم إلى القتال عليها بحقها ، فأدركوها [٢] .

وليس من العسير مناقشة هذه الحجة ، وبيان زيفها ، وتهافتها ، بالأدلة الشرعية ، والعقلية أيضا ، ويكفينا فى هذا المقام أن نقول : إن كل جبار ظالم ، يملك القوة ، وتتاح له وسائل القهر ، يستطيع أن يدعى ــ بالباطل ــ الاحتماء بقضاء الله وقدره .

٢ ــ وإذا كانت خلافتهم تستند إلى إرادة الله ، فهذا يعنى أن طاعتهم واجبة ونصرتهم مفروضة على الأمة ؛ لأن طاعتهم من طاعة الله الذى اختارهم ، واصطفاهم لولاية الأمر ، عملا بقوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم ﴾ [٣] ، وطاعة خصومهم من طاعة الشيطان .

---

(١) مقدمه المترجم لكتاب : الخوارج والشيعة ص (يب).

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة ١ / ٥

(٣) سورة النساء ٤ / ٥٩

٣ـــ الخارجون عليهم ، النابذون لطاعتهم عصاة ، منشقون على الجماعة ، بغاة ، تجب مجاهدتهم ، ويحل قتالهم وقتلهم ، بل قد يحكمون بكفرهم .

٤ـــ وقد يضيفون إلى هذه الدعاوى ذات الصبغة الدينية ، دعوى حقهم فى وراثة الخليفة عثمان بن عفان الأموى ،لمحل قرابتهم منه .

ولئن كانت حجج الأمويين فى دعوى الخلافة ضعيفة ، فإن دعواهم وراثة الخلافة عن عثمان لهى أوهى حججهم جيمعا ؛ ذلك أنهم تصدوا لآل البيت ، منكرين عليهم أن قرابتهم من الرسول توجب لهم حق إرث الخلافة عنه .

فقد ناظر معاوية بن أبى سفيان ، عبد الله بن عباس ، حول دعوى آل البيت هذا الحق ، فقال [١] : يابنى هاشم ، ألا تحدثونى عن ادعائكم الخلافة دون قريش ، بم تكون لكم ؟ أبالرضا بكم ؟ أم بالاجتماع عليكم دون القرابة ؟ أم بالقرابة دون الجماعة ؟ أم بهما جميعا ؟ فإن كان هذا الأمر بالرضا والجماعة دون القرابة ، فلا أرى القرابة أثبتت حقا ، ولا أسست ملكا ، وإن كان بالقرابة ، دون الجماعة والرضا ، فما منع العباس عم النبى ﷺ وارث النبى ﷺ وساق الحجيج ، وضامن الأيتام ، أن يطلبها ؟ وقد ضمن له أبو سفيان بنى عبد مناف ،وإن كانت الخلافة بالرضا والجماعة والقرابة جميعا ، فإن القرابة خصلة من خصال الإمامة ، لاتكون الإمامة بها وحدها ، وأنتم تدعونها بها وحدها [٢] .

ولكنا نقول : أحق قريش بها من بسط الناس أيديهم إليه بالبيعة عليها ، ونقلوا أقدامهم إليه للرغبة ، وطارت إليه أهواؤهم للثقة ، وقاتل عليها بحقها فأدركها من وجهها ... انظروا ، فإن كان القوم أخذوا حقكم فاطلبوهم ، وإن كانوا أخذوا حقهم فسلموا إليهم ، فإنه لاينفعكم أن تروا الأنفسكم مالايراه الناس لكم .

فقال ابن عباس : ندعى هذا الأمر بحق من لولاحقه لم تقعد مقعدك هذا ، ونقول : كان ترك الناس أن يرضوا بنا ، ويجتمعوا علينا ، حقا ضيعوه ، وحظاً حرموه ... فإما الذى منعنا من طلب هذا الأمر بعد رسول الله ﷺ فعهد منه إلينا ، قبلنا فيه قوله ،

---

(١) عيون الأخبار ١ / ٥ ـــ ٦

(٢) سبق أن ذكرنا أنه من أجل هذا قال الشيعة بالنص والوصية . راجع ص ٢٥ من هذه الدارسة .

ودنا بتأويله ، ولو أمرنا أن نأخذه ، على الوجه الذى نهانا عنه لأخذناه ، أو أعذرنا فيه ، ولايُعاب أحد على ترك حقه . إنما المعيب من يطلب ماليس له ، فأما القرابة فقد نفعت المشرك ، وهى للمؤمن أنفع ، قال رسول الله ﷺ للعباس : أنت عمى ، وصنو أبى ، ومن أبغض العباس فقد أبغضنى ، وهجرتك آخر الهجرة ، كما أن نبوتى آخر النبوة ، وقال لعمه أبى طالب عند موته : ياعم ، قل لا إله إلا الله ، أشفع لك بها غدا ، وليس ذلك لأحد من الناس .

ج : حزب الخواج. [١]:

يلتقى حزب الخوارج مع حزب الشيعة فى الأهمية ؛ من حيث أنهما أقدم الفرق الدينية والسياسية فى تاريخ الإسلام ، ومن حيث تأثيرهما البارز فى أحداث هذا التاريخ ، بخاصة فى العصر الأموى، الذى نؤرخ لحياة الشعر فيه .

على أن هناك آصرة أخرى تربط بينهما فى تاريخ نشأة كل منهما . إذ كان مؤسسوا حزب الخوارج ورجاله الأول من بين أنصار على بن أبى طالب . إمام الشيعة الأول .

وقد أشرنا من قبل إلى ظروف مولد هذا الحزب [٢] ، ونضيف هنا أن الخوارج ظهروا فى شكل حزب قائم على مبادىء سياسية ودينية واضحة ، تتعارض تماما مع قواعد حزب الشيعة ، ومبادئه . بل ومع سائر المذاهب الإسلامية الأخرى .

وكان جماع أمر الخوارج : العودة إلى الكلمة الأصيلة للدين ، كما يعبر عنها ، دستوره الأول ، وكتابه المقدس ، وهو القرآن الكريم ، دون تأويل أو ترخص بل بتشدد فى الفهم لايقبل المساومة والالتواء ، فهم دعاة الطاعة العمياء لكل ماجاء به القرآن ، وعبر عنه ، ومأأتى به بنى الإسلام من قواعد وأحكام ، وطرائق سلوك ، أى أنهم يتمسكون

---

(١) قيل : سموا بذلك ؛ لخروجهم على إمامهم علىّ الذى بايعوه ، وقيل : بل لخروجهم على الجماعة ، لتكفيرهم من سواهم من فرق المسلمين ، واعتبار دارهم دار حرب ،وذهب الشهرستانى فى : الملل والنحل (١ / ١٥٥) إلى أن هذه التسمية تطلق على كل من خرج على الإمام الحق . الذى اتفقت الجماعة عليه فى كل زمان. وانظر : مقالات الإسلاميين ١ / ٦٤ ، وهم يطلقون على أنفسهم اسم (الشُراة) أى الذين باعوا أرواحهم دفاعا عن دين الله . أخذوه من قوله تعالى فى سورة البقرة (٢ / ٢٠٧) : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله » أى يبيع . ويسمون أيضا (الحرورية) نسبة إلى قرية حروراء القريبة من الكوفة ، والتى خرجوا إليها عقب مفارقتهم جيش علىّ . كما سموا (المحكمة) لما كان شعارهم عند خروجهم . (لاحكم الا لله) . انظر : مقالات الإسلاميين ١ / ١٩١ والخوارج والشيعة ٦

(٢) راجع ص ١٠ — ١١ من هذه الدراسة .

بعمود الدين ضد جميع التيارات ، والفرق والأحزاب ، التى تبدو لهم ، قد انحرفت عنه ، أو تأولت ، أو ابتدعت فيه ، ولذا كان مذهب الخوارج مغايراً لكل المذاهب الأخرى ، كما ذكرنا من قبل .

ولعل مما يميز الخوارج فى العصر الأموى ، عن غيرهم من الأحزاب ، كثرة تفرقهم واختلافهم ؛ ولذا تعددت فرقهم ، فبلغوا نحوا من عشرين فرقة ـــ فيما يقال [١] .

وفى العصر الأموى اشتهر من الخوارج فرعان [٢] :

فرع بالعراق وماحولها ، كان أهم مركز لهم (البطائح) بالقرب من البصرة ، وهؤلاء استولوا على كرمان وبلاد فارس ، وهددوا البصرة ، وتولى قتالهم المهلب بن أبى صفرة ـــ القائد الأموى المشهور ـــ وعانى فى قتالهم الشدائد والأهوال سنين طوال ، وأشهر زعمائهم : نافع بن الأزرق ، وقطرىّ بن الفجُاءة .

وفرع بالجزيرة العربية ، استولوا على اليمامة ، وحضر موت ، واليمن ، والطائف ، ومن اشهر زعمائهم : أبو طالوت ، ونجدة بن عامر الحنفى ، وأبو فديك .

أما فرقهم فى هذا العصر الذى نتحدث عنه ، فأشهرها أربع : [٣] .

الأزارقة :أتباع نافع بن الأزرق ، وهؤلاء أكثر فرق الخوارج تشددا ، إذ يكفرون من عداهم ، فلا يقبل منه إلا الإسلام (أى القول بمقالتهم) أو السيف ، كما يستحلون قتل نساء مخالفهم وأطفالهم ، ويبيحون الغدر بأعدائهم ، ويكفرون القعدة [٤] عن القتال مع قدرتهم عليه .

الصُّفْرية :أتباع زياد بن الأصفر ، وهم أقل غلوا وتشددوا فى عقائدهم وآرائهم من الأزارقة ، وإن اتفقوا معهم فى كثير من آرائهم المتطرفة .

---

(١) انظر الفرق بين الفرق ١٥ ، ١٧

(٢) انظر : فجر الإسلام ١ / ٣٠٢

(٣) انظر فى هذه الفرق ، وعقائد كل فرقة : الملل والنحل ١ / ١٥٤ ومابعدها ، ومقالات الإسلاميين ١ / ١٥٦ ومابعدها ، والفرق بين الفرق ٥٦ ومابعدها ، والخوارج والشيعة ٧٢ ، ٧٥ ، ١٣٧ـــ ١٣٨ ، وانظر فى فرق الخوارج أيضا وأهم زعمائهم : الكامل للمبرد (الأزهرية) ٣ / ١٦٣ ومابعدها .

(٤) القعدة : جمع قاعد ، وهو عندالخوارج : كل خارجىّ يقعد عن قتال المخالفين مع قدرته عليه .

النجدات :أتباع نجدة بن عامر الحنفى ، وهم معتدلون فى آرائهم ، يعذرون المجتهد المخطىء ، وإن استحل محرما ، أو أحل حراما ، خلافا لغيرهم من فرق الخوارج .

الأباضية :أتباع عبد الله بن يحيى بن أباض التيميمى ، وهؤلاء لايغالون فى الحكم على مخاليفهم كالأزارقة .

فالفرقتان الأوليان متطرفتان متشددتان فى عقائدهما وأفكارهما ، ومواقفهما من المخالفين ، والأخريان معتدلتان فى كل ذلك .

وهذه الفرق الأربع هى الأصل الذى تفرعت منه كل فرق الخوارج فيما بعد .

وكانت لهذه الفرق جولات حامية ، ولقاءات دموية مع كل من العلويين والزبيريين كما دوخوا جيوش بنى أمية ، وظلوا شوكة فى جنب الدولة الأموية ، حتى أوشكوا أن يقوضوا أركان ملك بنى أمية .

أهم نظرياتهم السياسية والدينية :

١ ــ تذهب جميع فرق الخوارج إلى أن الخلافة ليست حقا مقصورا على قريش ، ولا على العرب ، وإنما هى اختيار من الأمة ، وحق لكل مسلم ،يتولاها من المسلمين خيرهم ، تقوى ،وورعا ،وعلما ، وزهدا ...

ذلك أن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه ، فاختيار الخليفة مفوض إلى الأمة ،تختار أصلحها لهذا المنصب ،سواء أكان قرشيا أم غيره ، من أهل الملة ،وأهل العدالة والإيمان ، دون مراعاة لنسب أو غيره ، وواجب على أهل كل عصر أن يختاروا من بينهم من يلى أمرهم ، ينفذ فيهم وبينهم أحكام الله ، ويذهب النجدات منهم خاصة إلى عدم وجوب الخلافة ، أو الإمامة ،وأن الأمة إن عدلت ولم يكن فيها فاسق ، لم تحتج إلى إمام [١] .

ونظرية الخوارج فى الخلافة تخالف ــ كما نرى ــ نظرية الشيعة القائلة بانحصار الإمامة فى بيت النبى ، علىٍّ وآله ، كما تخالف مذهب أهل السنة القائل بقصرها على قريش [٢].

---

(١) انظر مزيدا من التفصيل فى : العقيدة والشريعة ١٧١ ، ومقالات الإسلاميين ١ / ١٨٩

(٢) راجع مقالات الإسلاميين ١ / ٢٤ ، والفرق بين الفرق ١٣

٢ـــ وجوب الخروج على السلطان الجائر وعزله ، فإن امتنع جاز قتاله وقتله ، ومن هنا تميز الخوارج فى العصر الأموى بنزعة حربية ،جعلتهم فى صراع دائم ، وجهاد يكاد يكون مستمرا مع بنى أمية طوال عصر حكمهم .

٣ـــ الخليفة الشرعى هو الذى يختاره المسلمون عن طريق الشورى ، والاختيار الحر ، أيا كانت أسرته ، أو قبيلته ، أو جنسه .

٤ـــ ليس للخليفة الذى يختاره المسلمون ، أن يتنازل عن الخلافة لأحد ، وله أن يعتزل بعد اختياره إن قام له عذر يقتضى ذلك ، دون أن يعهد لأحد ، أو يتنازل له عنها .

٥ـــ الخوارج جميعا يثبتون خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ويؤمنون بشرعيتها ، كما يصححون خلافة عثمان رضى الله عنه فى السنوات الست الأولى من خلافته ، ويكفرونه بعدها (١) ؛ للأحداث التى أحدثها ، وخالف بها سيرة أبى بكر وعمر ، ويقولون بإمامة على قبل قبوله التحكيم ، ويحكمون بكفره ،وكفر أتباعه بعد التحكيم ؛ لقبولهم تحكيم الناس ، وإلقاء السلاح ، وحكم الله يقضى بمجالدة الفئة الباغية (معاوية وأتباعه) حتى تفىء إلى أمر الله .

أما معاوية وأنصاره فهم كفار عندهم ؛ لأنهم بغاة ، يجب قتالهم ، ويحل قتلهم ، أى أنهم ذهبوا إلى تكفير من عداهم من المسلمين ، لقبولهم التحكيم ،سواء على وأنصاره ومعاوية وأتباعه ، فهم جيمعا مشركون « السيرة فيهم ، السيرة فى أهل حرب رسول الله ﷺ الذين حاربوه من المشركين (٢) » .

وكل ماتقدم من آراء ومبادىء تغلب عليها الصبغة السياسية ، بيد أن الخوارج لم يلبثوا ـــ منذ أيام عبد الملك بن مروان (تولى عبد الملك الخلافة فى رمضان سنة ٦٥ هـ) ـــ أن مزجوا تعاليمهم السياسية هذه بأفكار وآراء دينية ، واكتسب مذهبهم منذ ذلك الحين الطابع السياسى الدينى ، ومن مظاهر هذا الامتزاج قولهم:

---

(١) انظر : رسائل الجاحظ ٢/ ٧

(٢) مقالات الإسلاميين ١ / ١٦٩

٦ــ العمل جزء من الإيمان ، فالذى ينطق بالشهادتين ، ثم لايؤدى فرائض الإسلام كافر ، وقد تركت هذه العقيدة أثرها القوى على سلوك الخوارج ، فكانت « العلامة المميزة لهم كل التمييز ، هى الترجمة عن إيمانهم بالأفعال ، وامتشاق السيف فى سبيل إقرارها ، كلما اجتمع اثنان من رأى واحد [١] » .

٧ــ تجمع فرق الخوارج على كفر مرتكب الكبيرة ، وإن لم يصر عليها ، إلا النجدات منهم [٢].

٨ــ التشدد فى الاستمساك بظاهر النص القرآنى ، والعمل بأحكامه ؛ ولذا تجمع فرق الخوارج على عدم جواز الاجتهاد بالرأى ، إلا النجدات منهم فإنهم يجيزونه [٣] .

هذه هى أبرز الأفكار والآراء ، التى تكاد تجمع عليها فرق الخوارج فى العصر الأموى ، ثم خالفت كل فرقة منهم الأخرى فى بعض الآراء والتعاليم الأخرى مما لاداعى لذكره هنا ؛ إذ لاحاجة إليه .

وقد تأثر سلوك الخوارج بمبادئهم ،وحرصهم عليها ، وتفانيهم فى الذود عنها ، وكانت أبرز صفاتهم : الإخلاص للعقيدة ، والتعصب لها ، والشجاعة الفائقة فى الدفاع عنها ، والتقوى ، التى يحفها الخوف الشديد من عذاب الآخرة والتطلع والحنين الدائم إلى نعيم الجنة ؛ ولذا كانوا أهل عبادة وورع .

دــ حزب الزبيريين :

من حديثنا السابق عن نشأة هذا الحزب ،والأحداث التى مرت به ، والأخطاء التى تردى فيها زعيمه عبد الله بن الزبير ، والتى أدت فى النهاية إلى القضاء عليه ، وعلى حزبه ، الذى ارتبطت حياته بحياة زعيمه ، وانتهت بانتهائها ،ندرك مدى قصر الفترة التى عاشها هذا الحزب ، وازدحام هذه الفترة ــ على قصرها ــ بالعديد من الاشتباكات الشرسة ، بين أنصار ابن الزبير ومناهضيه .

---

(١) الخوارج والشيعة ٣٨

(٢) مقالات الإسلاميين ١ / ١٥٧ ، ١٥٩

(٣) المصدر السابق ١ / ١٩٠

وبالطبع لم تتح مدت السنوات التسع التى تمثل عمر هذا الحزب ،فرصة كافية لزعيمه ، أو مؤيديه ، ليكونوا نظرية سياسية واضحة المعالم ، يستطيع أتباعه أن يسيروا على هديها ، ويطوروها ، ويديروا حولها الآراء ، ويقيموا على أساسها الأسس التى تمكن الحزب من الاستمرار ، والنضال فى سبيل البقاء ، ومعاودة النشاط للوثوب على السلطة ، حتى بعد أن يسقط زعيم الحزب ــ كما فعل الشيعة مثلا .

من أجل هذا لم يجد الشعراء الذين التفوا حول دعوة ابن الزبير ــ على قلتهم ــ أفكارا محددة واضحة يتمثلونها ، وتتغلغل فى عواطفهم وضمائرهم ، فيدينون بها ، ويدافعون عنها ، فحامت أشعارهم حول بعض الآراء العامة ، التى لا تنهض للاستدلال السياسى أو الدينى القوى ، على حق آل الزبير فى الخلافة ؛ إذ وصفوه بالعدل ، والتقوى ، والورع ، وأنه أكفأ القرشيين المعاصرين له ، بعد موت معاوية ، وقتل الحسين بن على ، ثم لصلته بالرسول ﷺ فأبوه ابن عمة النبى ﷺ صفية بنت عبد المطلب ، وابن أخى خديجة زوج الرسول ﷺ ، وعبد الله ابن أسماء بنت أبى بكر ، أخت عائشة أم المؤمنين .. إلى غير ذلك مما يشاركه فيه كثير من القرشيين ، فضلا عما يمتاز به أهل البيت من أئمة الشيعة .

ولذا كان تأثير هذا الحزب فى الحياة الأدبية فى العصر الأموى ، كتأثيره فى أحداث التاريخ الإسلامى لهذه الفترة ، محدود الأثر ، سريع التوهج والانطفاء ، ماإن بدأ حتى انتهى ، فلم يحتل هذا الحزب فى التاريخ ، الأدبى والسياسى إلا حيزا ضيقا يمكن إغفاله دون خطر كبير .

* * *

ولقد كان لهذه الأحزاب الإسلامية ،ولما اشتجر بينها من حروب وصراع تأثير قوى فى نهضة الشعر ، وتشجيع الشعراء فى هذا العصر ، حتى بلغ شعراء الحزب الأموى وحده ،من الكثرة حدا ، يصعب معه الإلمام بشعرهم ، أو محاولة إحصاء عددهم .

وليس من قبيل المبالغة أن نقول : إن الشعر السياسى الذى دار فى فلك هذه الأحزاب ، كان أكثر التقاج الشعرى فى عصر بنى أمية .

ــ ٢ ــ

وهناك جانب آخر من الحياة السياسية والاجتماعية ، أعان بعض فنون الشعر ، على الذيوع والقوة والازدهار ، بعد فترة من الخمول والانكماش .

نعنى بهذا الجانب السياسى الاجتماعى ، صحوة العصبيات القبلية ، انطلاقها من كل قيد ، بعد أن كان مضيَّقاً عليها فى العصر السابق ، عصر صدر الإسلام ، حيث عهد النبوة والراشدين .

وقد تدخلت عوامل سياسية واجتماعية فى إحياء هذه العصبيات التى عملت بدورها على إذكاء فنون الشعر ، التى تدور حول العصبية القبلية ، وتعبر عنها ، وتنفخ فى نارها ، كالهاء ، والفخر ، والحماسة .

فقد شاءت ظروف السياسة الأموية ، أن تتعصب للقبائل القحطانية (اليمنية الأصل) ضد أكثر القبائل العدنانية (القيسية أو المضرية) ؛ ذلك أن أكثر عرب الشام ، الذين قامت الدولة الأموية على أكتافهم ، يمنيون ، نزحت قبائلهم إلى الشام ، مهاجرة من جنوب الجزيرة العربية باليمن قبل الإسلام ، لأسباب اقتصادية ، أو بيئية مختلفة ، ليس من شأننا الحديث عنها هنا .

فكان يسكن الشام منهم عند الفتح الإسلامى قبائل ، أشهرها : غسان ، وجذام وقضاعة ،وكلب [1] . وكانوا فى القسم الجنوبى من الشام أكثر منهم فى القسم الشمالى ، بحكم قرب جنوب الشام من بلادهم التى نزحوا منها.

ولقد عمل معاوية بن أبى سفيان منذ وضع قدمه بالشام واليا عليها من قبل عمر ابن الخطاب ، على أن يستميل عرب الشام هؤلاء ، وكان من سياسته فى ذلك أن عقد مصاهرة مع قبيلة من كبريات القبائل اليمنية بالشام وأقواها وهى قبيلة كلب ، حيث تزوج ميسون بنت بَحْدَل الكلبية ، ومنها أنجب ولى عهده ، وخليفته من بعده يزيد .

ومن سياسته فى احتواء عرب الشام ، وضمان ولائهم ، أن يحرص على تقريبهم منه ، وإيثارهم بخيرات الإقليم ،ورعاية مصالحهم فيه ، حتى بلغ من تعصبه لهم ، أن ظل حينا من الدهر ، لايفرض عطاء من بيت المال لغيرهم .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن أكثر عرب العراق ، الذين ناصروا الشيعة والزبيريين والخوارج ، كانوا من القيسية ، أدركنا سر تعصب بنى أمية لعرب اليمنية ، هذا التعصب الذى أثار غضب القيسية وحقدهم على بنى أمية ، فلم يدعوا فرصته إلا اغتنموها ؛ لمناهضية الأمويين ، وإضعاف شوكتهم .

وقد ذكرنا من قبل ماكان من انضمام القيسية لابن الزبير ، والنهوض بدعوته فى

---

(١) فجر الإسلام ١ / ١٠١

العراق والشام بقيادة زعيمهم الضحّاك بن قيس [١] ، فى حربه مع مروان بن الحكم ومن معه من اليمنية ، ومعهم تميم المضرية ، وتغلبُ العدنانية .

وقد أعقبت موقعة مرج راهط مواقع كثيرة ، وغارات متبادلة ، وثارات عديدة ، بين القيسية من جانب ، واليمنية ومعهم تميم وتغلب من جانب آخر .

وهكذا عملت سياسة بنى أمية مرة أخرى على تصدع الوحدة العربية الإسلامية ، التى ظلت المظهر العام للحياة فى صدر الإسلام .

كانت تميم المضرية ، وتغلب العدنانية ، وكلب وغيرها من القبائل اليمنية تمثل حزب الدولة الرسمى ، كما كانت قيس تقف ، بحكم عدائها للأمويين فى الصفوف المعارضة لهم ، وورث العصر الأموى ، بسبب هذه الخصومة القبلية ، أياماً كثيرة ، وأشعارا كثيرة أيضا ، نظمها شعراء كل قبيلة فى الانتصار لقبيلتهم ، خلال تلك الحروب [٢] ، التى أججتها العصبية القبلية ، بتشجيع من سياسة بنى أمية .

وكان للعراق فى هذا العصر النصيب الأوفر من تلك الخصومات القبلية ،ونتاجها الشعرى ، كما كان له النصيب الأوفر من الخصومات السياسية ، وماقيل فيها من شعر ؛ إذ كان أكبر الأقاليم الإسلامية ميدانا للفتن السياسية ، والحروف القبلية ، فى عهد الدولة الأموية .

ويعد من أبرز العوامل ،التى ساعدت على ارتفاع صوت العصبية القبلية بالعراق ، وغزارة الأشعار التى خلفتها ، طبيعة الاجتماع العمرانى ، الذى كانت عليه مدينتا العراق الكبريان : البصرة والكوفة ،فقد خططت كل منهما تخطيطا قبليا [٣] منذ إنشائهما أيام عمر بن الخطاب .

فيقال : إن وفود جند المسلمين قدمت على عمر من جلولاء ، وحلوان ، وتكريت ، والموصل ،وغيرها ، من مدن العراق ، يذكرون له الفتح والغنائم ، فلاحظ أن جو هذه المدن قد أضر بصحة جند المسلمين ،وكان حذيفة بن اليمان قد كتب إلى عمر فى ذلك ، فأرسل عمر إلى سعد بن أبى وقاص : إن العرب لايوافقها إلا ماوافق إبلها ، من البلدان ، وأمره أن يختار لهم منزلا بريا بحريا ، لايجعل بينه وبينهم بحرا ولا جسراً ، فاختار سعد موضع الكوفة على

---

(١) راجع ص ١٩ من هذه الدراسة .

(٢) التطور والتجديد فى الشعر الأموى ٣٧ .

(٣) انظر فى بعض القبائل التى نزلت الكوفة بعد تخطيطها : رسائل الجاحظ ٢ / ١١٧ وتاريخ الطبرى ١ / ١٩١ ــ ١٩٢ وفجر الإسلام ١ / ٢١٢ ــ ٢١٣ .

مقربة من الحيرة ، وهى مثلها تقع على الفرات ، غير بعيد من الصحراء فاختارت كل قبيلة مكانا نزلته وجعلت به خيامها ، ثم اتخذوا بيوتهم من البوص ، فلما وقع فيها الحريق اتخذوها من اللبن ، وكان ذلك سنة ١٥ هـ [١] .

ولمثل هذا الغرض مُصرت البصرة (سنة ١٦ أو ١٧ أو ١٨ هـ [٢]) ، وفقد وجه عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان إلى اختيار مكان لجنده قائلا له : « انطلق أنت ومن معك ، حتى إذا كنتم فى أقصى أرض العرب ، وأدنى العجم فأقيموا » [٤] ، فنزل البصرة ، على مقربة من الأُبلّة فى دلتا النهرين ، واتخذ عتبة ومن معه دار الجند المسليمن ، يسكنون فيها إذا انصرفوا من غزواتهم .

ولم تلبث القبائل أن نزحت إلى هاتين المدينتين من شتى أنحاء الجزيرة العربية ، فهاجرت قبائل من اليمن وماجاورها إلى الكوفة ، ونزحت قبائل من الأنصار بالمدينة ، ومن قبائل شمال الجزيرة إلى البصرة ، حتى امتلأتا بالقبائل اليمنية والنزارية ، التماسا لسعة العيش فى هاتين المدينتين العامرتين ، دون أن يبتعدوا كثيرا عن البادية ، فهما على الحدود بين بواديهم ، وحضر العراق ، ومن ثم « فهم يستطيعون أن يشموا منهما هواء الصحراء ، ويتجنبوا بهما وخم المدن » [٤] .

والأمر الذى لاشك فيه ، ولاخلاف حوله هو أن الجيوش الإسلامية ، التى خطط لها هذان المصران ، لتنزل فيهما خلال الفترات التى تفصل بين وقائع الفتوح إنما نزلتهما قبائل ، فهى لم تفقد إحساسها القبلى ، إلا ريثما تعود إلى مصرها ، فلاتكاد تستقر ، وينقشع عنها غبار الحرب ، حتى يأخذ استقرارها صورة قبلية ، يرتفع فيها الإحساس بالقبيلة ، والتعصب لها ، مما يبيح لنا القول بأن الحياة فى البصرة والكوفة ارتبطت بالنزعة القبلية منذ نشأتها [٤].

---

(١) انظر : مروج الذهب (السعادة) ٢ / ٣٢٩ ، وتاريخ الطبرى ٤ / ١٥٣ ، وانظره أيضا ١ / ١٨٨ ومابعدها .

(٢) راجع تاريخ الطبرى ٤ / ١٤٨ ، ١٤٩ ، وعيون الأخبار ١ / ٢١٧ ، ومروج الذهب (السعادة ٢ / ٣٢٨ .

(٣) تاريخ الطبرى٤ / ١٤٩

(٤) فجر الإسلام ١ / ١٠٠ ، وانظر : تاريخ آداب اللغة (زيدان) ١ / ٢٠٠

(٥) للاستزادة راجع : حياة الشعر فى الكوفة ١٧٩ — ١٨١

وكانت القبائل التى أقامت بكل من هذين البلدين تتنافس ، ويفاخر بعضها بعضا ، ذلك أن روح القبلية الأصيلة بينهم حفزهم إلى هذا التفافس .

غير أن هذا التنافس لم يكن له أثر يخشى مغبته فى عهد عمر ، إذ كانوا يدعون من حين لآخر إلى ميادين القتال ، فيسكن التنافس ، ويشغل أهلوهم بالتطلع إلى أخبارهم ، ثم إن عمر كان حازما ،فلم تدع شدته وحزمه فرصة لفتنة تثور .

ثم أخذ الزمام ينفلت شيئا فشيئا منذ ظهور الفتنة الكبرى أيام عثمان ، وطوال عهد على يذكر صاحب شرح نهج البلاغة (١) ، أن أهل الكوفة فى آخر عهد على كانوا قبائل ، فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته ، فيمر بمنازل قبيلة أخرى ، فينادى باسم قبيلته ، ياللنَّخْع ، أو يالكندة ، فيتألب عليه فتيان القبيلة التى مر بها ، فينادون بالتميم ، أو يالربيعة ، ويقبلون إلى ذلك الصائح فيضر بونه ، فيمضى إلى قبيلته ، فيستصرخها ،فتسل السيوف ، وتثور الفتنة ،وهذا نص قوى الدلالة على تحكم الروح القبلى ، والعصبية القبيلية فى نفوس أهل الكوفة فى عصرها الأموى .

تجاورت القبائل إذن فى مدينتى العراق ، البصرة والكوفة ، لكل قبيلة ،منازلها المتجاورة فى خطة مستقلة ، بحيث ضمت كل منها قبائل قحطانية ،وقبائل عدنانية (٢) .

وساعد هذا التخطيط على احتدام العصبيات بين القبائل فى العصر الأموى ، فما إن أحيت سياسة بنى أمية العصبيات بين اليمنية والقيسية ، على نحو مامر ، حتى أصحبت كل من البصرة والكوفة مسرحا لهذه العصبيات ، يدلى كل شاعر فيها بدلوه ، ثناء على قبيلته ،وافتخارا بها ، وطعنا على خصومها ، وثلباً لشرفها وأمجادها ، برميهم بكل مايستطيع من سهام الهجاء ، وأصبح لكل قبيلة شاعرها ، أو شعراؤها ، الذين يتنغنون بمآثرها فى الجاهلية ، وماكان لها من أيام وحروب ،وأمجاد ، كما يصبون جام غضبهم على القبائل المعادية ، ويحاولون أن يطعنوها فى صميم شرفها ، وحسبها ، شأنهم فى ذلك شأن

---

(١) ٣ / ٤٧٦

(٢) تعدلت خطط الكوفة والبصرة عدة تعديلات فى أيام عمر وعلى وأيام الحجاج (سنة ٥٠ هـ) فمثلا كان التخطيط القبلى للكوفة أيام بنى أميه على أساس تقسيم رباعى : فالربع الأول لأهل العالية من بدو نجد ، والثانى تميم المضرية وهمدان اليمنية ، والثالث لبكر وربيعة العدنانية ، وكندة اليمنية ، والرابع لمذ حج اليمنية وأسد المضرية فامتزجت القبائل اليمنية والنزارية فى عمران الكوفة . انظر : حياة الشعر فى الكوفة ٢٨ ومابعدها

آبائهم وأجدادهم من شعراء الجاهلية ، بل ازداد شعراء القبائل الأمويون فى هذا الهجاء حدة على نظرائهم الجاهليين — كما سنرى .

وإذن ، فقد اشتعلت نار العصبيات القبيلية فى العراق ، وسرعان ماأخذت شكل فخر وهجاء وحماسة ، فى ظل ظروف لم تتح للعصبيات فى العصر الجاهلى نفسه ؛ فقد فقد كان شعراء القبائل فى الجاهلية يتفاخرون ، ويتهاجون ، ويحمسون ،ومنازلهم بعيدة ، أما فى هذا العصر فهم مصطفون ، بعضهم أمام بعض ، وكل قبيل تسحتث شعراءها ؛ ليرموا خصومها بسهام الهجاء اللاذع .

بهذا أخذ الهجاء فى العصر الأموى شكلا أعنف من شكله فى العصر الجاهلى ؛ حيث كانت كل قبيلة تحاول أن تستخرج من شاعرها ، أو شعرائها ، أحدَّ مافى جعبتهم من سهام تصيب بها القبائل التى عادتها قديما ، ولاتزال تعاديها حديثاً .

ولم تقف العصبية القبلية عند حد العداء بين فرعَىْ العرب الكبيرين : القيسية واليمنية ، بل انتقلت عدواها إلى القبائل والبطون ذات الأصل الواحد ، فتطاحنت هذه القبائل والبطون ، تطاحنا قويا عنيفا ، فى حرب لسانية ، أُشرعت فيها أسنة الشعر ، وترامى فيها الشعراء من كل جانب بالنبال والسهام .

— ٣ —

وكأنما أغرى إقبال الناس فى العراق — بخاصة فى مدينتيه : البصرة والكوفة — على هذا اللون من الشعر ، الذى يذكى نار الخصومة بين القبائل ، نقول : أغرى بعض الشعراء على الدخول فى نوع من الهجاء والفخر ، يشغل فيه الشاعر بنفسه ، وبمنافسة من الشعراء ، أكثر مما يشغل بقبيلته ، ومن نافسها من القبائل والبطون .

وأشهر من نفد من هذا الباب جرير والفرزدق والأخطل ، نفذوا إلى أهاج كانت تلقى على مسرح المِرْبَد بالبصرة ، ويتحلق الناس للاستماع إليها ، كما كانوا يتحلقون فى الكناسة بالكوفة ؛ للإستماع إلى شعراء القبائل ، وهم يصفرون ، أو يصفقون لهذا ، أو ذاك ، وكانت حصيلة هذه الخصومة الأدبية ، (أو الفردية) ماعرف فى تاريخ الشعر العربى بنقائض جرير والفرزدق من جهة ، ونقائض جرير والأخطل من جهة أخرى [١] .

---

(١) سيأتى مزيد تفصيل عن عوامل ازدهار فن النقائض الشعرية فى العصر الأموى عند دراسته .

— ٤ —

فإذا ماتركنا العراق ، واتجهنا جنوبا إلى الحجاز بخاصة ، والبادية العربية بعامة ، وجدنا هذه البيئات ، يسودها نوع آخر من الحياة ، موزعا بن الحضر والبادية ، تخف فيه حدة الصراع ، وتخفت أصوات الخصومات كثيرا ، عما كان يسود وجه الحياة فى العراق .

أما حضر الحجاز (نعنى به : مكة والمدينة والطائف بخاصة) فقد شاع فيه لون من الحياة الهادئة — إلى حد ما — قوامها : الثراء ، والترف ، والفراغ ، ينعم بها ، أبناء الصحابة من المهاجرين والأنصار ، وغيرهم ، من سكان بيئة الحضر فى الحجاز ، لم تلبث أن انزلفت بهم ، أو فلنقل : بكثرة من بينهم ، إلى حياة عابثة حينا ، لاهية فى أكثر الأحيان .

أما الثراء والترف : فقد توفر لهم بفضل الأموال « التى تدفقت على الحجاز من الأقاليم ، والأمصار الداخلة فى الإسلام ، منذ أيام الفتوح الإسلامية فى عهد الخليفتين الراشدين ، عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان .

فقد بلغ من وفرة هذه الأموال « المتدفقة فى بيت المسلمين ، أن قال عمر بن الخطاب — فى خلافة — : « لقد هممت أن أجعل العطاء أربعة آلاف ألفا يجعلها الرجل فى أهله ، وألفا يزودها معه ، وألفا يتجهز بها ، وألفا يترفق بها » (١) .

ونظرة واحدة فيما أورده الطبرى وغيره ، من نظام الفروض فى عهد عمر « تدلنا على مدى ماكان عليه جند المسلمين ، وأهل الحضر من حال ميسرة كافلة .

ومن صور اكتظاظ بين مال المسلمين بالأموال أيام الخليفة عثمان ، والتوسعة على المسلمين ، بتفريقها فيهم ، ماأورده الذهبى فى خبر الفتوح الإسلامية فى عهده ، قال (٢) : « ولما كثرت الفتوح فى هذا العام (٣٠ هـ) وأتى الخراج من كل ناحية ، اتخذ عثمان له الخزائن ، ثم قسمها « وكان يأمر للرجل بمائة ألف » .

وروى أن سعد بن أبى وقاص عزل الخمس من فيىء القادسية وغنائمها ، وبقى مال عظيم ، حتى بلغ نصيب الفارس ستة آلاف ، والراجل ألفين ،وبقى مال كثير ، فأمر عمر برده على حملة القرآن (٣) .

---

(١) تاريخ الطبرى ٤ / ١٦٢ وانظر : كتابنا : الأدب فى عصر النبوة والراشدين ٣٢ .

(٢) العبر ١ / ٣١ .

(٣) معاهد التنصيص ١ / ٢٢٣

ويذهل الإنسان حين يقرأ ماصار إليه الصحابة (وبخاصة المهاجرون والأنصار) من ثراء عريض ، وعلى الأخص كبارهم .

ولئن كان مافاء الله به على المسلمين من الفتوح ، وما أنعم عليهم به من خراج الأمصار ، قد فاض على المسلمين بعامة ، والمجاهدين منهم بخاصة ، فمما لاشك فيه ، وأن إقليم الحجاز قد فاز بأوفى نصيب من هذه النعم ، باعتباره مهد الدعوة الأول ، ومركز السلطة الإسلامية ، وفيه أكبر تجمع من صحابة رسول الله ، وأولى الفضل والسابقة والجهاد ، وعليه تتدفق هذه الأموال ، ومنه تخرج للتوسعة على أهله ، وعلى المسلمين غيرهم .

إذن ، فقد سار الثراء فى حجور الحجازيين ، من أهل الحضر بخاصة ، فتبعة تبدل فى حياتهم وحياة أبنائهم .

ومن دلائل ذلك ماروى ، أن عمرو بن العاص لما توفى (٤٣ هـ) خلف من الذهب ثلثمائة وخمسة وعشرين ألف دينار ، ومن الفضة ألفىْ درهم ، وضيعته المعروفة بالهط ، قيمتها عشرة آلاف درهم [١] ، وهناك العديد من الأمثلة ، ذات الدلالة الواضحة على مابلغه الصحابة من ثراء واسع [٢] .

ومن دلائله أيضا اتخاذهم القصور المبنية بالآخر والجص والساج ، المحلاة بالشرفات ، يحضرون لها البنائين ، من الفرس ، لتقدمهم فى فن العمارة .

ففى عهد عثمان بن عفان ، بنيت الدور والقصور ، وشيدت بالكس ، وجعلت أبوابها من الساج ، واقتنى كثير من الصحابة الأموال والجنان والعيون ، كالزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، والمقدار بن الأسود ... وغيرهم [٣] .

---

(١) مروج الذهب(البهية) ٢ / ٦٧

(٢) راجع أمثلة لذلك فى : طبقات ابن سعد ٣ / ق ١ ص ٧٧ ، ١٥٨ ، ومروج الذهب (السعادة) ٢ / ٣٤١ — ٣٤٢

(٣) فجر الإسلام ١ / ١٦٨

وفاق أبناء الصحابة آباءهم ، فى التحضر ، والثراء [١] والترف ، فقد عاشوا فى عصر جديد ، عصر الفتوح والثراء .

وأعانت سياسة بنى أمية ــ إلى حد كبير ــ تجاه أبناء الصحابة بالحجاز على ازدياد ثرائهم وترفهم ، حتى طعم وشرب بعضهم فى أوانى الذهب والفضة ، ولبسوا الخز ، والديباج ، والحلل الموشاة ، وغالوا فى ذلك .

ففى حضر الحجاز حشد الأمويون عظماء قريش ، وأبناء الأنصار ، ومنعوهم من التجول فى أنحاء الدولة ، أو الاتصال برجالاتها ، من ذوى الأقدار والخطر ، فى البلاد المفتوحة ، وأغدقوا عليهم الأموال والنعم إغداقا ، ونثروا لهم المال نثرا ؛ ليلهوهم بذلك عن التفكير فى سياستهم ، أو محاولة الخروج عليهم ، والمطالبة بحقوقهم فى حكم الدولة ، فتوفر لهم بذلك الثراء والترف ، كما توفر لهم الفراغ .

وأما اللهو والعبث : فقد تم لهم نتيجة لما أحسوّه ــ بخاصة الشباب منهم ــ من يأس وتشاؤم ، وهم يرون بنى أمية يستأثرون بالأمر ، وينعمون بالسلطان دونهم ، ويحطمون كل مقاومة ، أو حركة معارضة ، تنهض لمجالدتهم ، حتى الكعبة لم تسلم من عدوانهم ــ كما رأينا ــ بينما هم عاجزون ، معزولون عن سياسة الدولة ، والتصرف فى أمورها ، أو العمل فى أداراتها .

فماذا يفعل هذا الشباب الفارغ الثائر اليائس ، إلا أن يلتفت إلى اللهو يغرق فيه يأسه ، ويقتل وقت فراغه ، ويلتمس فيه السلوى عن ماضيه الضائع ، وحاضره القلق ، ومستقبله الملبد بالغيوم .

سار كثرة من شباب حضر الحجاز فى طريق اللهو ، والمرح ، والاستماع إلى الغناء ، وترتيل أناشيد الحب ، بما فيه من عبث ودعابة ، ومغامرة ، وظفر ، ولقاء وهجران ، وسعادة وشقاء .

---

(١) بلغ من ثراء مصعب بن الزبير ــ مثلا ــ أنه أصدق كلاً من : سكينة بنت الحسين بن على ، وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله التيمية ، مائة ألف دينار (العبر للذهبى ١ / ١٢٣ ، وعيون الأخبار ١ / ٢٥٨) وقيل : خمسائة ألف درهم ، وجهز كلاً منهما بمثلها ، وأن عبد الله بن عباس كان يرتدى رداء بألف (عيون الأخبار ١ / ٢٩٨ وأن عبد الله بن عمر أصدق صفية بنت أبى عبيد بن مسعود الثقفى أخت المختار عشرة آلاف درهم . (عيون الأخبار ٢ / ٧١) .

وهناك عامل آخر ساعد على تهيئة مجالات اللهو والعبث أمام هذا الشباب الفارغ اليائس . ومدها بوسائل الترفية ، وحاجات مجالس اللهو ، من غناء وموسيقى ، وهو إغراق مدن الحجاز بالقيان [١] والجوارى .

ومن المعلوم أن الاسترقاق من الأمم التى غلبها الإسلام ، قد كَثُر كثرة هائلة ، بكثرة الفتوح الإسلامية ، وكان هؤلاء الرقيق يوزعون على الفاتحين ، حتى صارت الدور تعج بالرقيق والجوارى الفارسيات والروميات وغيرهن ، فيروى : أن الزبير بن العوام كان له ألف عبد ،وألف أمة [٢] .

وليس من شك فى أن من بين هذا الرقيق ، وهؤلاء الإماء ، من كان يجيد فن الغناء ، أو فن الموسيقى ، أوهما معا ، وهؤلاء وأولئك ، كانوا وكن عماد مجالس الغناء ، التى كثرت فى مدن حضر الحجاز ، وأقبل عليها كثير من أهله ، وكان ذلك مما يسعد الأمويين، إذ يحقق لهم مايرمون إليه ، من انشغال شباب هذا الحضر ، بهذه المجالس ، عن التفكير فى أمور الدولة ، أو تدبير المؤامرات والحركات الثورية للانقضاض عليها ، يروى المسعودى [٣] : أنه فى أيام يزيد بن معاوية ظهر الغناء بمكة والمدينة ، واستعملت الملاهى ، وأظهر الناس شرب الشراب .

وفضلا عن تأثير انتشار مجالس الغناء والموسيقى فى حضر الحجاز فى إشاعة اللهو والعبث ، فقد كان لها أيضا فعلها الواضح فى ترقيق الذوق المترف ، وانعكاسه رقة فى الشعور ، ورقة فى الحِسّ ، وتفتحاً على مجالى جديدة من الحسن والجمال ، لم يكن لأهل حضر الحجاز عهد بها من قبل على هذا النحو المتاح ، وأثمر هذا كله لونا من الإقبال والرضا ، والاستمتاع بالموسيقى والغناء ، اللذين ارتقيا فى هذه البيئة ، على أيدى كثير من الموالى ، رجالا ونساء ، بحيث صارت مكة والمدينة مركزين هامين لهذين الفنين ، يتولاهمافيهما موسيقيون ومغنون مشهورون ،وموسيقيات ومغنيات لمعت أسماؤهن فى سماء

---

(١) القيان : جمع قَيْنه : وهى الأمة المغنية ، وقيل : القينة : هى الأمة مغنية أو غير مغنية ، والمغنية تسمى قينة : إذا كان الغناء صناعة لها ، وذلك من عمل الإماء ، لا الحرائر (اللسان ــــ قين)

(٢) فجر الإسلام ١ / ١٠٥

(٣) مروج الذهب (البهية) ٢ / ٩٤ ، وانظر فى كثرة الجوارى بمكة خاصة رسائل الجاحظ ٢ / ١٥٨

هذين الفنين فى عصر بنى أمية ، وفى بيئة حضر الحجاز خاصة ، من أمثال : ابن سريج ، وطُويس ، وسائب خاثر ، ومعبد ، وابن عائشة ، ونافع بن طُنْبورة ،وسلّامة القَسّ ، وعزّة الميلاء ، وحَبابَة ، وبُلبلة ، وجميلة ، وغيرهم وغيرهن [١] .

وطبيعى أن يكون لون الشعر الملائم لهذه البيئة ، بظروفها التى ذكرنا ، هو فن الغزل ؛ إذ هو لون يتلاءم مع رقة الحس والشعور ،كما يتجاوب مع فنى الغناء والموسيقى الجديدين .

فليس غريبا إذن ، أن يكون أكثر شعراء حضر الحجاز ــ فى هذا العصر ــ شعراء حب وغزل ، من أمثال : أبى الخطاب عمر بن أبى ربيعة ، وتلميذه العَرْجى (عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان) وعبيد الله بن قيس الرقيات ، وخالد بن الحارث المخزومى ، وأبى دَهْبَل الجُمحى ،وكلهم من شعراء مكة ،والأحوص بن محمد ، وعبد الله بن حسان بن ثابت ، من شعراء المدينة .

وهكذا كان حضر الحجاز فى العصر الأموى مسرحاً لشعر غنائى ،يقوم على حكاية قصة الحب من جهة ، وعلى الصلة الحميمة القوية بالغناء وألحانه من جهة أخرى .

أما طابع الحياة فى البادية ، فيختلف عن هذه الصورة التى رأيناها فى الحضر ، فالقوم هناك يعيشون حياة يغلب عليها الشظف والحرمان ، فى ظل ظروف بيئية صعبة ، وتقاليد بدوية صارمة ، يشق معها الاتصال بين الرجل والمرأة ، اتصال هوى وحب ، كما يقل حظها من وسائل الترفية ،التى تنتشر بالحضر ، كمجالس الغناء ، التى تتاح فيها كثير من فرص اللقاء بين الرجل والمرأة ، فيستمع إلى غنائها ، ويستمتع بمحادثتها ، ومجالستها ، دون حرج أوتضييق .

فى ظل هذه الحياة البدوية ، التى تحكمها ظروفها الخاصة ، فيما يتصل بحرية اللقاء بين الرجل والمرأة ، لم يكن بد من شيوع نوع من الغزل الباكى الحزين ، اصطلح على تسميته « الغزل العذرى » أو « الغزل العفيف » .

---

(١) لمعرفة المزيد عن تأثير هؤلاء فى فنى الغناء والموسيقى بحضرالحجاز ، راجع : فجر الإسلام ١ / ٢٠٧ ــ ٢٠٨

ويميل بعض الباحثين [١] إلى إدخال عامل دينى فى بواعث هذا اللون من الغزل ، ذاهبا إلى أن الإسلام هو الذى صفَّى نفوس الشعراء العذريين بالبادية ، وأحال الحب فيها إلى براءة وطهر ، وسمو ، ونبل ، وعفة ، مما أثر فى غزلهم ، فارتفع به عن الحس والمادة فى كثير من جوانبه .

بيد أننا نرى ، أن عامل الإسلام فى هذا الغزل ـــ إن وجد ـــ ضعيف الأثر ، ونميل إلى أن أهم بواعث الغزل العذرى فى البادية ، ترجع إلى ظروف البيئة البدوية ، التى أشرنا إليها منذ قليل ، وأبرزها القيود العنيفة الصارمة ، على حرية اتصال المحبين بالبادية ؛ مما يحيل المحب فى ظل الحرمان ، إلى شخص يتسم سلوكه ، وتعبيره عن حبه بالطابع العاطفى الوجدانى ، لا الطابع العملى ، فيقضى الحياة على أبواب معبد الحب ، حائرا ، تنقصه الجرأة على سلوك إيجابى للوصول إلى محبوبته ولقائها ، مكتفيا بترتيل أناشيد الشوق والهيام ، وإراقة الدموع ، ممزوجة بالآلام ، مشبعة بالأنات والزفرات . وللحديث هنا بقية ، تأتى عند دراسة هذا اللون من الغزل [٢] .

ـــ ٥ ـــ

إذا كان الغزل اللاهى العابث ، الذى امتازت به بيئة حضر الحجاز ، يعد ثورة متواضعة على الروح الإسلامية ، وتحررا مهذبا ـــ إلى حد ما ـــ مما جاءت به ، ودعت إليه ، من عفة ،وورع ، واستقامة خلق ، فإن العصر الأموى قد شهد لونا آخر من الشعر ، يمثل ثورة عارمة ، وتحررا صارخا ، لا من الروح الإسلامية فحسب ، بل من التقاليد العربية ،وقيم الأخلاق العربية أيضا ، هذا الضرب من الشعر، هو الذى يعكس من المجون والتهتك ، والاستهتار بوصف الخمر ومجالسها ، ومايحدث بين ندمائها ، مايجرح الفضيلة ، وينافى قيم الدين ، الذى يستظل أهل العصر برايته .

لقد ذهب شعراء المجون والخمر فى شعرهم مذاهب لم يألفها الشعر العربى من قبل، وأسرفوا فيه إسرافا شديداً ، حتى قصر بعضهم شعره على وصف الخمر ، ومايصاحب مجالسها ، من خلاعة ومجون ، وكل مايدور حولها ، أو يتصل بها . كما سنرى إن شاء الله .

---

(١) انظر :التطور والتجديد فى الشعر الأموى ٣٨ ، ١١٥

(٢) سنعود إلى دراسة العوامل المؤثرة فى هذا الغزل بمزيد من التفصيل فى مقدمة دراسة الغزل العذرى فى البادية إن شاء الله .

وكان من ثمرة هذا الاتجاه الشعرى ، أن انزلق بعض الشعراء إلى معان قبيحة ، يندى لها جبين الفضيلة ، ويأبى الخلق المستقيم إثارتها ، والعبارة عنها ، وزاد هؤلاء الشعراء إمعانا فى الإسفاف والرذيلة ،فعبروا عن هذه المعانى بعبارات وأساليب أقرب إلى الكشف منها إلى التكنية ، وإلى التصريح منها إلى التلميح ، فدفعوا إلى الحياة الشعرية بلون جديد من الشعر ، هو الذى عرف منذ هذا العصر بـ « الأدب المكشوف » .

وموطن هذا الشعر العراق ، بل الكوفة منه على الأخص ، حيث نشطت بها طائفة من الشعراء اتجهوا بشعرهم إلى اللهو والمجون ، يتخذون من حديثهم عن الخمر مجالا لإعلان استهتارهم بالدين ، واستخفافهم بعقائده [١] ، فكانوا بذلك طليعة للشعراء الزنادقة ، الذين ظهروا ، واستحكم أمرهم ، فيما بعد بالبصرة وبغداد ، فى العصر العباسى.

وكان على رأس هؤلاء الشاعر الكوفى الأُقَيْشر الأسدى [٢] ، وهو الذى وضع الأسس الأولى لتقاليد مدرسة اللهو والمجون الفنية بالكوفة فى بداية العصر الأموى ، ثم تابعه من بعده شعراء كوفيون آخرون فى أواخر هذا العصر ، منهم : أبو دُلامة ، ويحيى بن زياد ، وآدم بن عبد العزيز .. وغيرهم من شعراء الكوفة ، الذين ألف اللهو بينهم ،وربط المجون بين أسبابهم ، كلهم فاسق ،وكلهم خليع ، وكلهم سكّير ، وكلهم متهم فى دينه [٣] .

ويكفى هنا أن نعجل بنموذج من شعر الأقيشر ، أستاذ هذه المدرسة ، لنرى إلى أى مدى بلغ شعراء مدرسة اللهو والمجون بالكوفة ، من الاستهتار بالدين ومقدساته ، والسخرية من واجباته ، يقول الأقيشر [٤] :

---

(١) حياة الشعر فى الكوفة ٧٧٣

(٢) شاعر كوفى معمرٌ ذكره أبو الفرج (الأغانى ١٠ / ٨٠ ومابعدها) ووصفه بأنه أحد المعمرين ، قيل : ولد فى الجاهلية ، وعمر حتى أدرك عهد عبد الملك بن مروان ، ومات فى أيامه ، وكان صاحب شراب وندامى ، وذكره ابن سلام فى طبقاته (ص ٦٩٤) وقال عنه : كان كوفيا خليعا ماجنا مدمنا لشرب الخمر.

(٣) راجع الأغانى ١٦ / ١٤٣

(٤) الأغانى ١٠ / ٩٧ هرها : كرهها وردها . السمادير : مايتراءى للإنسان من خيالات عند السكر . الحقه من النوق : الداخلة فى السنة الرابعة من عمرها .

رب نَدْمـــان كريم ماجـــد　　سيد الجدين من فرعى مُضر
قد سقيت الكأس حتى هرها　　لم يخالط صفوها منه كدرْ
قلت : قم صلِّ فصلى قاعداً　　تتــغشاه سماديــر السَّكَـــرْ
قرن الظهـر مع الــعصر كما　　تُقرن الحقه بالحق الذكـــر
ترك الفجـر فمـــا يقرؤها　　وقرا الكوثر من بين السُّور

وهاكم نموذجا آخر لأحد تلامذة هذه المدرسة فى أواخر العصر الأموى وهو أبو دلامة ، الذى كثر فى شعره التعبير عن ضيقه بالشعائر الدينية ، وله أبيات يتحدث فيها عن الصلاة ، وأنها تصده عن المسجد الذى يستلذ فيه الصلاة للكئوس والأوتار ، وهولا يؤديها إلا كارها ، وهو يعجب من أولئك الذين يأمرونه بالصلاة لتحط عنه آثامه ، فهو راض بحمل هذه الآثار ، بل هو راض بأن يحمل على ظهره ذنوب العالمين جميعا [1] :

ألم تريـــا أن الخليفـــة لَزَّنى　　بمسجده والقصر مالى وللقصر
فقد صدنى عن مسجد استلذه　　أُعلَّل فيـه بالسمـاع وبالخمـر
وكلفنى الأولى جميعا وعصرها　　فويلى من الأولى وعَوْلى من العصر
أصلِّيها بالكره فى غير مسجدى　　فمالى من الأولى ولا العصر من أجر
لقد كان فى قومى مساجد جمّة　　ولم ينشرح يوما لغشيانها صدرى
ووالله مالى نيـة فى صلاتـــه　　ولا البر والإحسان والخير من أمرى
وماضره —والله يغفر ذنبـه —　　لو ان ذنوب العالمين على ظهرى

ولهما ولغيرهما من شعراء مدرسته بالكوفة فى العصر الأموى ، مايفوق هذا الاستهتار بالدين ، توقحا وجرأة ،وسخرية ، وفساد دين وخلق . كما سنرى عند دراستنا لهذا اللون من الشعر ، فى الجزء الثانى من كتابنا هذا .

وهنا نتساءل ، لماذا كانت الكوفة خاصة بيئة لشعر المجون واللهو ، من دون بيئات الشعر فى العصر الأموى ؟ أو بعبارة أخرى ،ماالعوامل التى جعلت منها مرتعا لهذا الضرب من الشعر ؟

يأتى فى مقدمة العوامل التى أمدت الكوفة بأسباب اللهو والمجون ، ومقوماتهما ، قربها من الحيرة ، التى كانت على ثلاثة أميال منها [2] ، ومن المعروف أن الحيرة كانت

---

(١) الأغانى ١٠ / ٢٤٦ (دار الكتب) .
(٢) تيارات ثقافية ١١

بيئة نصرانية ومركزا حضاريا ، غنيا بأماكن اللهو وأسبابه ، تنتشر فيها الحانات ؛ إذ كانت الخمر مباحة عند النصارى ، بل هى تدخل عندهم فى أسرار القربان المقدس ، كما تكثر فيها الأديرة التى أقامها بعض أفراد الأسرة المالكة فى الحيرة قبل الإسلام ، أو طائفة العباد المسيحيين .

وهذه الأديرة كانت تهيىء لروادها فرصة الشراب ، كما كان مولدوها ومولداتها بعد الإسلام يقدمون لهؤلاء الرواد ألوانا من المتع واللهو [١] .

ونظرة فيما أورده ابن فضل الله العمرى عن حانات الحيرة وأديرتها قبل الإسلام وبعده ، وأخبارها ، وروادها ، وماكان يقدم فيها ، تطلعنا على الدور الهام الذى قامت به هذه البيئة من مدِّ الكوفة القريبة منها بتيارات متلاحقة من اللهو ، وصنوف عديدة من بضاعته الفاسدة المفسدة [٢] .

فضلا عن أن الحيرة اشتهرت بالغناء ، وظهر فيها ـــ أوائل هذا العصر ـــ مغن نصرانى شاعر برع فى الغناء ، وبلغ منه مبلغا كبيرا [٣] ، وهو حنين الحيرى [٤] ، الذى لفت إليه أنظار بشر بن مروان ، أيام ولايته على الكوفة فى خلافة عبد الملك ، فاستقدمه واستمع إلى غنائه وفتح له أبواب قصره [٥] ، كما فتحه لأمثاله من المغنين ، الذين كانوا يفدون إلى حنينَ بالحيرة ليتمتعوا بطيبها ، وجودة خمرها ، وحسن غنائه ، مثل ابن سريج الذى قدم من مكة ، ونزل عنده بالحيرة ، حيث أكرمه ، ثم قدمه إلى بشر بن مروان ، فسمعه وأجزل جائزته، وقد أشاع حنين هذا فى مجالس غنائه جوا من اللهو والشراب ، جعل خالد بن عبد الله القسرى والى الكوفة لهشام بن عبد الملك (١٠٥ ـــ ١٢٠ هـ) يحرم الغناء بالعراق ؛ لأن مجالسه كانت مباءة للفسوق ، ولما سمع لحنا فى الزهد ، غناه حنين عاد فأباحه ، على أن لايحضر مجالسه سفيه أو عربيد ، أو امرأة عربية [٦] .

---

(١) راجع خبرا يرويه أبو الفرج يلقى ضوء اعلى ماذكرنا فى : الأغانى ٢ / ٣٥١
(٢) انظر فى حانات الحيرة : مسالك الأبصار ١ / ٣٨٩ ومابعدها ، وفى أديرتها ١ / ٣١١
(٣) الأغانى ٢ / ١٢٠
(٤) انظر أخباره فى الأغانى ٢ / ١١٦ ومابعدها .
(٥) انظر الأغانى ٢ / ٣٤٩ (دار الكتب) .
(٦) تيارات ثقافية ٢٨

وأخيرا ، فقد كانت الحيرة مجمعا لأديان فارسية شتى فى الجاهلية ، كالزرادشتية ، والمزدكية ، والمانوية [١] ، وظلت المانوية (نسبة إلى مانى صاحب هذه النحلة) والمزدكية إلى مابعد الإسلام بالحيرة ، كما ظهرتا فى الكوفة ، وطارد خالد بن عبد الله القسرى أتباعهما ، وبعض هذه الأديان كان يدعو للإباحة كالمزدكية ، وبعضها يدعو إلى الخمول والكسل وترك الزواج والتناسل حتى يفنى العالم المادى ويعود النور إلى موطنه كالمانوية [٢] .

كما كانت الحيرة جسراً حضاريا بين الفرس والعرب ، عبرته ألوان من المعارف والثقافات الفارسية كما عبرته جاليات كثيرة فارسية إلى الكوفة ، فكثر فيها هذا الجنس ، وأثر فى مختلف جوانب حياتها ، ومنها حياة اللهو والمجون ، والاستهتار بالقيم الروحية والأخلاقية .

ورثت الكوفة عن الحيرة كل هذا ، بعد أن نازعتها فيه فغلبتها ، وأخملت شأنها ، بحيث صارت الكوفة فى أواخر العصر الأموى مركز اللهو والمجون فى المجتمع الإسلامى ، ومنها خرج هذا التيار ليغزو بيئات إسلامية أخرى فى العراق والشام ، قبيل حكم العباسسين ، وفى أيامهم .

ثم يأتى العامل السياسى ، ليسهم بدوره فى إنماء موجة اللهو والمجون بالكوفة ، ويمد تيار شعرهما بمقومات وجوده .

فمن المعروف أن الكوفة مرت بفترات سياسية مضطربة فى العصر الأموى ، جعلتها هدفا لبطش السلطة الأموية الحاكمة ، وعرضتها لسخطهم المتواصل ، فمنها خرج على لقتال معاوية ، ومنها ، توالت الرسائل لدعوة الحسين للثورة على بنى أمية ، وفيها تمركزت معارضة شيعية قوية ، للحكم الأموى ، طالما أقلقت الأمويين ، وطيرت الأعاصير فى سماء دولتهم .

---

(١) راجع فى مبادىء هذه الأديان : تيارات ثقافية ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٦ وفجر الإسلام ١ / ١٢٥ ومابعدها ، وانظر : تاريخ الطبرى ٢ / ٨٨

(٢) تيارات ثقافية ٢٨

هذه الحياة السياسية المضطربة ، غرست القلق فى نفوس الكوفيين ، وأفقدتهم الإحساس بالطمأنينة والأمان ، ومن ثم وقفوا من الحياة موقفين : « فجماعة نفضوا أيديهم منها ، واتجهوا إلى الآخرة ، وهم الزهاد ، وجماعة اندفعوا خلفها ، يعبون من كئوسها مااستطاعوا ، قبل أن يدركها النضوب والجفاف ، وهم اللاهون والمجان .

وكلا الفريقين نتيجة طبيعية لهذه الحياة ،فإذا كان الفريق الأول دفعهم اليأس من الحياة إلى وضع أملهم كله فى الآخرة ، فإن الفريق الآخر لم يدفعهم اليأس من الحياة إلى الوقوف منها ذلك الموقف السلبى ، وإنما دفعهم إلى اتخاذ موقف إيجابى منها ، يريدون به أن يفوضوا أنفسهم عليها ، وإذا كان الزهاد طلقوا الدنيا إلى غير رجعة ، فإن هؤلاء اللاهين والمجان تزوجوها إلى غير طلاق ، ولكنهم لم يتزوجوا الحياة الجادة العاملة ، التى صدوا عنها وصدت عنهم ،وإنما تزوجوا الحياة اللاهية العابثة الماجنة ، التى استطاعت أن تغريهم ،وتغويهم ، فأقبلوا عليها ، لينسوا بين أحضانها ذلك القلق ، الذى كان يسيطر على نفوسهم [١] » .

وأكثر هؤلاء ، الذين انصرفوا إلى الحياة الماجنة اللاهية ، كانوا من الموالى والشيعة ، الذين تعرضوا لصنوف الاضطهاد والعسف والقسوة والقهر على يد عمال الأمويين على الكوفة .

والنفوس تتفاوت فى التسلى عن الهموم ، وقد وجد بعض هؤلاء ــ منهم شعراء ــ سلواهم فى الإقبال على الخمر ، يشربونها ، ويدمنون شربها ، ويغرقون همومهم فى كئوسها ، ودنانها ، إذ رأوها مسكنا سريعا لآلامهم ، وقلق حياتهم ، وساعدهم على هذا انتشار الأديرة النصرانية فى منطقة الكوفة وفى ظاهرها [٢] ، وبالحيرة القريبة منها ، حيث يتاحة للنازلين بها حظ كبير من الحرية واللهو ، والشراب والسماع ، وأيضا العبث بالجوارى والقيان ، وكان الرهبان فى هذه الأديرة يبالغون فى العناية بكرومها ، واتخاذ المعاصر لها ، ولهذا كان شراب الخمر من المسلمين يجدون فى هذه الأديرة مكانا صالحا للشراب ، كما

---

(١) حياة الشعر فى الكوفة ٢١٤

(٢) راجع : مسالك الأبصار ١ / ٣٩٢ ، ومعجم البلدان٧ / ٢٢٩

كانوا يقصدون إليها ليمتاروا من خمرها ، وكان من أثر الإقبال على خمرها أن تخذت حانات لها تباعه فيها ؛ لتظل لأماكن العبادة حرمتها ، وكانت هذه الحانات تقام ــ غالبا ــ بينحدائق هذه الأديرة (١) ولعل هذا الإقبال على الخمر والشراب ، مما يفسر تقديم أهل الكوفة شعر الأعشى على شعر غيره من الشعراء الجاهلتين ، لإجادته وصف الخمر فى شعره (٢) .

ومع ذلك فإن هناك طائفة من شعراء الخمر والمجون فى الكوفة ، لم يكن الباعث عندهم التسلى عن الهموم ، وإنما أقبلوا على هذا اللون من الحياة ، وعبروا عنه ، تأثرا بعناصر من الحضارة الفارسية الوافدة من الحيرة ــ واسطة الحضارة الفارسية بين الفرس والعرب كما قدمنا ــ على بيئة الكوفة أولا ، لقربها منها .

ولما كان الفرس قد سبقوا العرب فى مضمار الحضارة ، فقد كان من بعض جوانب هذه الحضارة الميل الى الترف واللهو ، والتفنن فى وسائلهما ، وبذا حملت الحضارة الفارسية بعض الأفكار الهدامة ، كما حملت كثيرا من العادات المنحرفة ، التى انعكس تأثيرها على هؤلاء الشعراء ، ثوره على العرف ؛ والتقاليد ، وجميع القيم الدينية والمورثة .

والحق أننا لانستطيع أن نسقط من حسابنا تأثير العناصر الفارسية ، فى تدعيم تيار المجون بالكوفة ، ومده بأسباب القوة والحياة .

ففى عصر انحطاط الدولة الفارسية اهتمت الطبقات المترفة من الفرس باللذائذ والشهوات ، فاستكثروا من الغلمان فى قصورهم ودورهم ، يستخدمونهم فى أغراض شتى ، ويزينونهم بما تتزين به الإناث (٣) ؛ كما غصت بيوتهم بالقيان ، والخليعات من الجوارى ، والأرقاء الفاسدين المفسدين ، كما كان السُّكْر رذيلة شائعة بين كل الطبقات (٤) ،وانتقل كل ذلك إلى حياة الكوفة على يد بعض العناصر الفارسية ، التى انتشرت فى المجتمع الكوفى منذ أيام الفتوح الإسلامية ، وكثرت كثرة هائلة فى العصر الأموى ، يقول فلهوزن : إن أكثر من نصف سكان الكوفة كانوا من الموالى ، وأكثر هؤلاء

---

(١) حياة الشعر فى الكوفة ٢٢٣

(٢) العمدة لابن رشيق ١ / ٦٢

(٣) تيارات ثقافية ١٢٥

(٤) قصة الحضارة الفارسية ٢ / ٤٥٤

من الفرس [١]، وقد عاشت هذه العناصر فى المجتمع الكوفى ، وهى تحمل معها تقاليدها وحياتها الاجتماعية الأجنبية ، ثم أخذت تؤثر فى مجاوريها ومخالطيها من سكان الكوفة العرب ، ومن بينهم بعض الشعراء .

هذا فضلا عن أن ميل الحياة الفارسية إلى اللذات ، قد أثمر نوعا من الأدب الفارسى المكشوف ، ترجمه المترجمون الفرس أو العرب [٢] ـــ أو ترجموا بعضه على الأقل ـــ فى العصر الأموى ، فكان بمثابة القدوة المرشدة لطلاب اللهو والمجون فى المجتمع الإسلامى بالكوفة .

وإلى جانب ماتقدم من عوامل ظهور شعر اللهو والمجون بالكوفة ، ينبغى أن لا نغفل عاملا آخر ، كان له تأثيره القوى فى انتشار اللهو والمجون والتهتك بمجتمع الكوفة وظهور آثارها فى الشعر الكوفى ، نعنى انتشار موجة الغناء والموسيقى ، فالصلة حميمة بين هاتين الظاهرتين ، ذلك أن الغناء اقتضى كثرة القيان ، واختصاصهن ببيوت سميت (دور القيان) ، وبعض هذه الدور كان مرتعا لرواد العبث والمجون والخلاعة ، يتعوا فدون عليها ، ليستمتعوا باللذات ، « متأثرين بالآراء الإباحية التى تزين التحلل من سلطان الدين ، والجرأة على حرماته [٣]» .

على أنه كان لبعض غلاة الشيعة أثر واضح فى الاتجاه إلى هذا اللون الماجن من الحياة بالكوفة ؛ إذ جنح بعضهم إلى الحض على الإباحة ، والإغراق فى اللذات ، متأثرين ببعض رواسب ديانات الفرس القديمة ، وخاصة المزدكية ـــ دين الإباحة والشيوع فى الاء ـــ [٤]فساعدوا بذلك تيار المجون على الانتشار فى بيئة الكوفة ، التى كانت موطن نشاطهم الهدام ابتداء من هذا العصر .

نهض هذا التيار الماجن بالكوفة نتيجة لكل العوامل التى أوجزناها ، ثم لم يلبث أن أخذ طريقه إلى الشام فى أخريات العصر الأموى ، على يد الخليفة الأموى الشاب ، الوليد ابن يزيد ، الذى أفسدته بيئة الترف واللهو المحيطة به ، فى عهد أبيه ، الذى كان صباً

(١) الخوارج والشيعة ٢١١

(٢) من المعروف أن الترجمة من الفارسية إلى العربية بدأت فى العصر الأموى ، على يد من أتقنوا اللسان العربى من الفرس ، أو الذين اتقنوا اللسان الفارسى من العرب . انظر : تيارات ثقافية ١٨٢

(٣) المصدر السابق ١٢٣ ـــ ١٢٤

(٤) تاريخ الطبرى ٢ / ٨٨ وتيارات ثقافية ٣٠

أيضاً باللهو والترف ، فأسبغ فنونهما على ابنه ، فشب عليهما ، وأولع بهما ، ولم يتخل عنهما حتى بعد أنْنُصِّب خليفة للمسلمين ، وإماما لهم !!

وفيه يقول الطبرى ، « ظهر من الوليد بن يزيد مجون وشرب الشراب » ويقول : « ظهر للناس منه تهاون بالدين ، واستخفاف به [١] » .

أما المسعودى فإنه يلقى أضواء أكثر على شخصية الوليد فيقول [٢] : « كان الوليد بن يزيد صاحب شراب ولهو وطرب ، وسماع للغناء ، وهو أول من حمل المغنين من البلدان إليه ، وجالس الملهين ، وأظهر الشراب والملاهى والعزف ... وغلبت عليه شهوة الغناء فى أيامه ، وعلى العام والخاص ، واتخذ القيان ، وكان متهتكا ، ماجنا ، خليعا» وقال : « والوليد يدعى خليع بنى مروان » [٣] .

فلا بدع إذن أن يتطلع الوليد إلى المجان وأصحاب الخمر من شعراء الكوفة ، وأن يستقدمهم إليه ويسمع منهم ويُسمعهم ، ويتخذ منهم ندماءه ، وخاصّة مجالسه الماجنة [٤] .

وكان الوليد شاعرا ، فجاهر فى شعره باللذة ، وارتكاب المحرمات ، دون مواربة أو تحشم .

يقول ابن جرير الطبرى [٥] « وتمادى الوليد فى الشراب ، وطلب اللذات فأفرط ، فقال له هشام (عمه) : ويحك ياوليد ، والله ماأدرى على الإسلام أنت ، أم لا ، ماتدع شيئا من المنكر إلا أتيته ، غير متحاشٍ ، ولا مستتر به ، فكتب إليه الوليد :

يأيها السائل عن ديننا نحن على دين أبى شاكر
نشربُها صرفاً وممزوجة بالسُّخْن أحيانا وبالفاتر

---

(١) انظر مثلا : سمط اللآلى ١ / ١٤٣ ، وتاريخ الطبرى ٨ / ٢٨٨
(٢) مروج الذهب (البهية) ٢ / ١٨٥
(٣) المصدر السابق ٢ / ١٨٧
(٤) لمزيد من المعرفة راجع حياة الشعر فى الكوفة ٢٠٩
(٥) تاريخ الطبرى ٢٨٩/٨ .

فغضب هشام على ابنه مسلمة ، وكان يكنى أبا شاكر ، وقال له : يعيرنى لك الوليد ... » من أجل هذا عدّ بعض الباحثين الوليد بن يزيد من أئمة المجّان فى العصر الأموى ، بل فى القرن الثانى كله [١] .

— ٦ —

ولعلنا بعد هذا لانغفل تأثيرا الثقافة الدينية فى وجدان بعض شعراء العصر الأموى ، وفى فنهم أيضا ، وخاصة فى العراق .

فقد نزح كثير من صحابة رسول الله ﷺ إلى هذا الإقليم منذ الأيام الأولى للفتح الإسلامى للعراق ، واستقروا فى مدينتيه ، البصرة والكوفة ، ثم توالى وفود أعداد أخرى من الصحابة والتابعين ، والتف حولهم جمهور كبير من أهل المصرين ، يسمعون منهم فقه الدين ، ويأخذون عنهم أحكامه ،ويجلسون إليهم فى حلقات دروسهم فى المساجد أحيانا ، وفى دورهم أحيانا أخرى ، وبالطبع كانت المادة التى تدور فى هذه الحلقات دينية خالصة ، من تفسير لكتاب الله ، أو رواية للحديث الشريف ، أو وعظ وهداية ، وإرشاد مستمد من هذين الأصلين ، فتكونت بذلك مدارس دينية بالعراق ، « فقد كان لكل صحابى مدرسة من التابعين ، تأخذ عنه ، وتلتف حوله ، كما كان لكل تابعى مدرسة من تابعيه ، تأخذ عنه أيضا وتلتف حوله » [٢] .

كانت هذه الظاهرة الطيبة عاملا من أهم العوامل فى بث روح التدين الصادق العميق فى العراق ، هذا التدين الذى اتخذ فى أبرز طابع موجة قوية واسعة المدى من الزهد ، كان هؤلاء الصحابة ، ومن تبعهم ممن صدق إيمانهم ، رواه وباعثى نهضته .

نعم ، انتشر الزهد فى العراق ، وبلغ من المدى حدًّا لم يبلغه فى بيئة أخرى من البيئات الإسلامية ، « فكل من يدرس هذه الموجة من الزهد ، ويتعقبها فى الأقاليم الإسلامية ، أثناء عصر بنى أمية ، يستطيع أن يلاحظ فى وضوح ، أن أهم إقليم انتشرت

---

(١) اتجاهات الشعر (هدارة) ٢٠٩ ،وانظر : التطور والتجديد ٣٣٣

(٢) حياة الشعرفى الكوفة ١٨٧

فيه هذه الموجة ، هو أقليم العراق [١] « فقد ظهرت فيه هذه النزعة إلى رفض زخرف الحياة الدنيا ، وإيثار التقشف ، فى وقت مبكر ، بعيد الفتح الإسلامى وأوائل الدولة الأموية ، كما يقول جولد تسهير [٢] .

ولمعت فى سماء العراق جماعات من الزهاد ، ارتقت إلى طبقات عالية من التجرد والروحانية الخالصة فى العصر الأموى ، من بينهم : قتادة المحدث الزاهد المشهور » والشعبى المحدث والعابد ، وعلقمة بن قيس ، والحسن البصرى ، والربيع بن خُثيم ، زاهد الكوفة الأكبر ، الذى يراه جولد تسهير المثل الكامل لحياة الزهد ، سواء فى آرائه ومواعظه ، وفى أسلوبحياته [٣] ، فقد لخص الزهد فى تسعة من ألوان السلوك « ينبغى للزاهد أن يلزمها » ولا يغفل عنها » فقال : « أقلل الكلام إلا من تسع : تكبير وتهليل ، وتسبيح ، وتحميد ، وسؤالك الخير ، وتعوذك من الشر ، وأمرك بالمعروف ، ونهيك عن المنكر ، وقراءتك القرآن [٤] » .

ومن مشاهير زهاد الكوفة ، أُويس القرنى ، وهو من كبار التابعين ، تحدث عنه ابن سعد فى الطبقات الكبرى » قال : جاء رجل من مراد إلى أويس القرنى ... فقال له : كيف الزمان عليكم ؟ فقال أويس : « ماتسأل رجلا إذا أمسى لم ير أنه يصبح ، وإذا أصبح لم ير أنه يمسى ، ياأخامراد ، إن الموت لم يبق لمؤمن فرحا [٥] » .

ولايتسع المقام للإفاضة فى ذكر زهاد العراق ، ومناقبهم ، وصور زهادتهم ، فقد كفانا ، ابن سعد فى طبقاته مؤونة كل هذا ، فليرجع إليها من شاء [٦] ، ونكتفى بما حدثنا به من أنه كان فى بنى ثور (حى من أحياء الكوفة) ثلاثون رجلا ، مامنهم رجل دون الربيع بن خيثم [٧] .

---

(١) التطور والتجديد ٣٦
(٢) العقيدة والشريعة ١٣٠
(٣) المصدر السابق
(٤) طبقات ابن سعد ٦ / ٢٩
(٥) المصدر السابق ٦ / ١١٦
(٦) نحيل على الجزء السادس من الطبقات
(٧) طبقات ابن سعد ٦ / ١٣٣

ليس غريبا إذن أن يعمر العرق بألوان من الزهد ، وطبقات من الزهاد ساروا على الدرب الذى اختطه لهم الرواد الأول من الصحابة والتابعين ، اقتداء بهم ، وطلبا لحسنى العقبى مثلهم .

ولاننسى ماسبقت الإشارة إليه فى حديث اللهو والمجون بالكوفة ، من أن حياة الاضطراب ، والقلق السياسى ، التى ألقت بظلها القاتم على حياة الناس فى الكوفة قد دفعت فريقا من الناس إلى لانصراف عن دنيا الناس ، التى يتطاحنون على حطامها ، وخلفوها وراء ظهورهم ، وزهدوا فى متعها ولذائذها ، وولوا قلوبهم وآمالهم ، إلى الدار الآخرة الباقية ، مؤمنين بأن ما عند الناس ينفد ، وماعند الله باق ، وأن الباقيات الصالحات خير عند الله ثوابا ، وخيرا أملا ، قد آثروا التقشف والزهد.

ولعل هؤلاء هم الذين عناهم جولدتسهير ، فيما ذهب إليه من أن الميل إلى الزهد كان مرتبطا بالثورة على السلطان القائم ، وأن كثيرا من المسلمين لجئوا إلى حياة الاعتكاف والزهد احتجاجا على ماينكرون من النظام السياسى ، وشاطروهم الفرار من الدنيا (١) ، ولا أدل على صواب هذا الرأى من قول أويس القرنى : « الوحدة أحب إلى (٢) » ، فربما عنى أن الاعتكاف والانقطاع إلى العبادة ، والزهد فى الدنيا أحب إليه من الالتفات إلى الحياة القلقة فى مجتمع عصره .

نستطيع بعد هذه النظرة فى مقومات حياة الزهد بالعراق ، فى العصر الأموى أن نقول : إن الحياة فى مجتمع تشع فيه نفحات الزهد ، وتتردد فى جنباته أنغامه الروحانية ، لابد أن تترك أثرها فى ضمائر جمهور من الناس ، وعقولهم ، أو على الأقل فى أسماعهم .

وبالطبع كان من بين هذا الجمهور عدد من شعراء العراق ، تفاوتت استجابتهم ، لما يشاهدون من حياة الزهد ، ومايسمعون فى مجالس الزهاد ، وحلقات دروسهم ، إذ لانستطيع أن يتصور أن كل شعراء العراق كانوا بمعزل عن هذه الحياة الزاهدة ، أو « أن ماديتهم كانت (مادة عازلة) تحول دون وصول هذا التيار الروحانى إلى نفوسهم (٣) » .

المعقول أن يكون شعراء العراق ، الذين احتكوا بهذه العناصر الزاهدة ، أو عاشوا على مقربة منهم ، يشهدون مجالسهم ، أو يشاهدون أحوالهم ، قد تأثروا بتيار الزهد ،

---

(١) العقيدة والشريعة ١٣٠

(٢) طبقات ابن سعد ٦ / ١١٤

(٣) حياة الشعر فى الكوفة ٥٠٣

والمعقول أيضا أن يكون لهذا التأثر صداه فى أشعارهم ، مادام الشعر ، كما هو معروف ، مرآه لنفس مبدعه .

وسوف نلمح نماذج من هذا التأثر فى شعر كل من : الفرزدق ، وجرير ، والطِرِمّاح بن حكيم ، ووضّاح اليمن ، وعُروة بن أذينه فقيه المدينة وزاهدها ، وذى الرُّمة ، وأعشى همدان وغيرهم .

— ٧ —

وبالمثل لانستطيع — فى مقام الحديث عن الظروف والعوامل التى وجهت الشعر فى العصر الأموى — أن نغفل تأثير الحركة العقلية والفكرية والثقافية فى توجيه بعض النتاج الشعرى لهذا العصر ، وتغذية عقول شعرائه بألوان من الفكر والثقافة ، كان له صدى غير قليل فى أشعارهم .

لقد بدأ نشاط هذه الحركة ممثلا أولا فى الحلقات الدينية التعليمية ، التى انتشرت فى مكة والمدينة ، والكوفة والبصرة ، ودمشق .. وغيرها من الأمصار الإسلامية ، التى نزلها ، أو استوطنها عدد من أصحاب رسول الله ﷺ ، أو بعض تلاميذهم من كبار التابعين .

وقد انصبت عناية هذه الحركة الدينية التعليمية على تفسير كتاب الله ، ورواية حديث رسول الله ﷺ ومدارسته ، واستنباط الأحكام الفقهية ، والتشريعية منهما ، وكانت هذه الحركة أكبر الحركات العلمية ، فى العصر الأموى ، وأوسعها نشاطا .

وعنها ، وتحت تأثيرها صدرت ألوان من الشعر ، متأثرة بالنظر الدينى ، والعاطفة الدينية ، كالشعر الذى عبر عن حياة الزهاد ، وأفكارهم ، وضروب أخرى ونماذج أخرى من الشعر عكست بعض المضامين الدينية ، أو رددت ألفاظا ، وعبارات ومصطلحات دينية ، إلى غير ذلك ، مما يمكن أن نسلكه فيما أسميناه سابقا بالشعر الدينى .

ثم لم تلبث الحركة العقلية والثقافية ، أن اتخذت مسارا ، أميل إلى التفكير العقلى والفلسفى ، القائم على البحث والنظر ، والحوار والجدل والمناظرة .

عرف أصحاب هذا اللون من الثقافة الفكرية العقلية بالمتكلمين ، وتمثل فى المذاهب الكلامية ، التى عرفت فى هذا العصر ، والتى اتخذت من العراق خاصة مركز إشعاع لثقافتها وأفكارها ، وميدانا لحلقات دروسها ، ومجالس مناقشاتها ومناظراتها ، وجدالها فيما بينها .

عرف العصر الأموى من هذه المذاهب الكلامية : الشيعة ، والمرجئة ، والمعتزلة ، والجبرية والقدرية ... وغيرها .

وقد اقترنت نشأة أكثر هذه الفرق فى العصر الأموى ، بظروف سياسية ،

وأهواء سياسية ، كانت القاعدة الأساسية التى انطلقت منها ، وقامت أفكارها المبكرة على هدى منها .

وقد رأينا من قبل كيف نشأ التشيع لعلى وآل بيته على أساس نظرية سياسية تقول بحق آل البيت فى خلافة الرسول ﷺ وإمامة المسلمين ، وكثرة من عقائد الشيعة تدور حول هذه النظرية السياسية ، أو تنبثق منها .

ولو تتبعنا نشأة المرجئة ، لوجدناها ترتبط ارتباطا وثيقا بالسياسة ، فقد وجد بعض الصحابة فى أيام النزاع الحربى بن علىّ ومعاوية ، أن كلا من الفريقين يستحل دم الفريق الآخر ويرميه بالبغى والكفر ، فتحيروا ، وغمّ عليهم وجه الحق ، ومن ثم آثروا اعتزال الفريقين ، وتوقفوا عن الحكم عليهما .

فى هذا الجو السياسى المضطرب المتخاصم ظهرت المرجئة ، مذهبا سياسيا مسالما ، يعلن للجميع ، أن الشيعة والخوارج والأمويين مؤمنون ، وليسوا كفارا ، بعضهم مخطىء وبعضهم مصيب ، ولكننا لانستطيع أن نعين ، أيهم المخطىء ، وأيهم المصيب .

وعلى أساس من هذه الظروف السياسية ، قامت أراؤهم فى الإيمان ، ومدلوله ، فما داموا لايكفرون أحدا من المسلمين المتحاربين ، فمن الطبيعى أن يحددوا معنى الإيمان ، فمن قائل منهم ، بأنه التصديق بالقلب ، فيكفى أن يكون الإنسان مؤمن القلب بأن الله واحد وأن محمدا رسوله ، وأن ماجاء هو الحق ؛ ليكون مؤمنا ، ولايشترط مع ذلك الإقرار باللسان ، ومنهم من ذهب إلى أن الإيمان إقرار بالقلب وتصديق اللسان ، وكلهم على أن العمل (أى أداء الطاعات كالصلاة والصوم ... ونحوها) ليس جزءا من الإيمان [١] ، ثم تفرعت المسائل ، وتجددت القضايا ، واتخذت أفكار المرجئة صبغة دينية ، وبذا تطورت إلى مذهب دينى ، وصار أنصارها فرقة من فرق المتكلمين [٢] .

وقد لايكون من لوازم هذا البحث ، أن نتتبع هذه المذاهب والفرق ، فى نشأتها وتطورها ، وأن نعرض لمبادئها وآرائها ، فقد أفاضت كتب الفرق والعقائد فى عرضها ومناقشتها ، ومايهمناهنا أن نذكر أن آراء هذه الفرق ،ونظرياتها ، كانت تمثل نشأة الحركة الفلسفية الحقيقية فى الإسلام ، التى اتخذت من المسائل الاعتقادية موضوعا للبحث والنظر والجدل [٣].

---

(١) الملل والنحل ١ / ٢٦٠ ، ٢٦٣

(٢) راجع فيما ذكرناه عن المرجئة : مقالات الإسلاميين ١ / ١٩٧ ومابعدها ، والفرق بين الفرق ١٩٠ ومابعدها ، وانظر : فجر الإسلام ١ / ٣٤٢ ، وضحى الإسلام ٣ / ٣١٦ ــ ٣١٨ ، والعقيدة والشريعة ٧٥

(٣) انظر : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ، هامش ص ٤٨ ، ٥٠ ، وفجر الإسلام ١ / ٣٥١ ــ ٣٥٢

وليس من شك فى أن ماكان يدور بين هذه الفرق من حوار وجدل ، أثر فى العقلية العربية حينئذ ؛ فإن الناس ومعهم الشعراء كانوا يستمعون إلى مايدور فى مجالس هذه الفرق ، من نقاش وجدل ومناظرة .

من ذلك مثلا : أن رجلا جاء إلى الحسن البصرى ، وعنده الفرزدق الشاعر ، فقال : ياأبا سعيد ، إنا نكون فى هذه البعوث والسرايا ، فنصيب المرأة من العدو ، وهى ذات زوج ، أفتحل لنا من قبل أن يطلقها زوجها ؟ فقال الفرزدق : قد قلت أنا مثل هذا فى شعرى ، فقال الحسن : وماقلت ؟ قال قلت :

وذات حليل أنكحتنا رماحنا حلا لا لمن يبنى بها لم تطلق

فقال الحسن : صدق (١) .

وجاء آخر ، فقال : ياأبا سعيد ، الرجل يقول : لا والله ، ولم والله ، فى كلامه ، لايريد اليمين ، فقال الفرزدق : أو ماسمعت ماقلت فى ذلك ؟ لقد قلت :

ولستَ بمأخوذ بلغو تقوله إذا لم تعَمَّدْ عاقدات العزائم (٢)

ولئن كان هذا الشعر متأثرا بثقافة ، تأخذ طابعا فقهيا دينيا ، فهناك أشعار أخرى ، تردد بعض مقولات علم الكلام ، أو الثقافة الفكرية لفرق المتكلمين .

يقول عون بن عبد الله ــ من مرجئة الكوفة ــ معبرا عن تراجعه عن الإرجاء : (٣) :

وأول ماأفارق غير شك أفارق مايقول المرجئونا

وقالوا : مؤمنٌ من آل جور وليس المؤمنون بجائرينا

وقالوا : مؤمنٌ دمه حلال وقد حرمت دماء المؤمنينا

فهو يعجب ، كيف يعد المرجئة أهل الجور مؤمنين ؟ ، وكيف يحكمون على المتقاتلين من المسلمين بالإيمان ، سواء منهم القاتل والمقتول ؟ مع أن دماء المؤمنين محرمة ، وقد عرفنا منذ قليل أنهم لايرون العمل جزءاً من الإيمان .

وهذا مرجىء آخر ، يتمسك بمقولة مذهبه بعدم الحكم على علىّ ومعاوية والحرب بينهما ، كما يعبر عن رأى فرقته فى معنى الإيمان ، وهو محارب بن دثار الذهلى : (٤)

---

(١) العمدة ١ / ٣٠ ، وانظر : الأغانى ١٩ / ١٤

(٢) المصدر السابق

(٣) الأغانى ٩ / ١٣٩

(٤) الأغانى ٧ / ٢٤٨ (دار الكتب)

يعيب على أقـوامٌ سَفَاهًـا بأن أُرجى أبا حسنٍ عليا
وإرجائى أبـا حسنٍ صوابٌ عن العُمَرَيْن بَراً أو شقيـاّ
فإن قدمتُ قومـا قال قوم أسأتَ وكنت كذاباً رَدِياً
إذا أيقـــنت أن الله ربى وأرسل أحمداً حقـا نبيـاّ
وأن الـرسْل قد بعثـوا بحق وأن الله كان لهم وليـاّ
فليس على فى الإرجاء بأس ولا لبس ولست أخاف شياً

وأشباه لهذه المعانى تعكس بعض مقولات المذاهب الكلامية فى العصر الأموى ، خاصة أشعار الشعراء الذين عرف من تاريخهم أنهم كانوا كثيرى التردد على مجالس المتكلمين ، أو لازموا رأسا من رءوسهم ، كالفرزدق ، الذى يقال أنه لزم حلقات دروس الحسن البصرى [١] ، وجرير ، الذى لزم حلقة ابن سيرين [٢] .

كما خطت الحركة العقلية خطوات أخر ، مع بدايات النظر فى العلوم الدخيلة ونقصد بها تلك المعارف ، التى أخذ بعض المثقفين من المسلمين ـــ العرب وغير العرب ـــ ينقلها إلى اللسان العربى ، من ألسنتها الأصلية ، ويدخل فيها معارف وعلوم وثقافات لأمم اليونان ، والفرس ، والهند ، والسريان ، وغيرهم .

وقد ظهرت بواكير هذه المعارف المترجمة فى العصر الأموى ، وبخاصة فى حياة الأمير الأموى خالد بن يزيد بن معاوية (توفى سنة ٨٥ هـ) . الذى كان يلقب بالحكيم ، لانصرافه لاكتساب العلا بالعلم ، فقد استقدم جماعة من علماء مدرسة الإسكندرية ، ووكل إلى بعضهم ترجمة بعض آثار اليونان ، فى علوم الطب ، والكيمياء ، والفلك ، كما ترجمت آثار يونانية طبية أخرى أيام مروان بن الحكم ، وفى أيام هشام بن عبد الملك

---

(١) أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن البصرى ، مولى زيد بن ثابت ، وهو إمام أهل البصرة ، وحبر زمانه ، يعده الصوفية أحدهم ، ويضعه المعتزلة على رأس فرقتهم ، كما يعد من سادة القصاصين ، وأصدقهم ، ولد سنة ٢١ هـ وتوفى سنة ١١٠ هـ . انظر : طبقات ابن سعد ٧ / ١٤٠

(٢) أبو محمد بن سيرين ،مولى أنس بن مالك ، محدث ثقة ، وفقيه عالم ، اشتهر بتفسير الأحلام ، وهو والحسن البصرى سيدا أهل البصرة علما وتقوى وورعا . توفى سنة ١١٠ هـ انظر : طبقات ابن سعد ٧ / ١٤٢ ، وانظر فى ملازمة الفرزدق حلقة الحسن البصرى ، وملازمة جرير حلقة ابن سيرين : العقد الفريد ٣ / ١٦٩ ، وطبقات ابن سلام ٢٨٣ ـــ ٢٨٥ والعمدة ١ / ٣٠

ترجمت رسائل أرسطو إلى الإسكندر [١] ... فكان هذا إيذانا ببدء نهضة عقلية ، لم تلبث أن زكت وازدهرت فى العصر العباسى ، غير أن هذه الخطوة فى الحركة العقلية ، لم تترك أثرا واضحا فى شعر هذا العصر ، ربما لتأخر ظهورها ، أو لقلة نتاجها ، ولأن الأمويين ــ بعامةً ــ لم يشجعوا كثيرا هذه الألوان والمعارف العلمية ، بقدر تشجيعهم للحركة الأدبية ، والقصص الرسمى ؛ إذ فتحوا أبوابهم للشعراء والخطباء ، وعينوا القصاص فى المساجد ، ولم يفعلوا مثل ذلك مع العلماء والفلاسفة ، فحاجتهم إلى الشعراء والقصاص كانت أشد ، فهم الذين يبشرون بهم ، ويشيدون بذكرهم [٢] .

وبعد :

فقد كان همنا فى هذا الفصل أن نوجز الملامح العامة والبارزة ، للتغيرات السياسية ، والاجتماعية ، والحضارية ، والثقافية ، التى طرأت على حياة المجتمعات الإسلامية فى العصر الأموى ، ومانتج عنها من اتجاهات ، وأغراض ، وألوان شعرية عامة ، فى هذا العصر .

ولعله قد اتضح لنا أن أهم هذه الاتجاهات ، أو الألوان مايلى :

١ــ الشعر السياسى .

٢ــ شعر الخصومات القبيلية .

٣ــ شعر الخصومات الأدبية ، أو الفردية (النقائض)

٤ــ الغزل اللاهى العابث

٥ــ الغزل العفيف ، أو العذرى

٦ــ الشعر الدينى (الزهد)

٧ــ الشعر المتأثر بالحركة الفكرية والعقلية .

وسنعالج بالدراسة فى هذا الجزء الأول الألوان الخمس الأولى منها على أن نخصص للونين الأخيرين ، الجزء الثانى من كتابنا هذا ، إن شاء الله ، فهو المستعان .

* * *

---

(١) راجع تفصيل هذه الحركة العقلية فى : تاريخ آداب اللغة العربية (زيدان) ١ / ٢١٧ ــ ٢١٨ وفجر الإسلام ١ / ١٥٧ ــ ١٥٨ ، ١٩٢ ــ ١٩٤

(٢) انظر : فجر الإسلام ١ / ١٩٣

الفصل الثاني

شعرُ الخُصومة السِّياسِيَّة

تقديم

مفهوم السياسة من وجهة النظر الإسلامية يعنى : تدبير شئون الأمة حسب التعاليم الإسلامية ، التى تتناول الجوانب الدينية والدنيوية معا ؛ ذلك أن الإسلام ـــ كما فهمه المسلمون الأولون ـــ دين وسياسة ، عقيدة ونظام ،فالدين والسياسة متلازمان فى الشريعة الإسلامية .

من هنا كانت الخلافة أول مسألة احتدم حولها الخلاف بين المسلمين ، وتشعبت فيها آراؤهم ، وتكونت حولها أهم الفرق الإسلامية فى العصر الأموى ، ومن هنا أيضا كان مفهوم الخلافة ـــ كما يقول ابن خلدون (١) : حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ؛ إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة ، خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين ، وسياسة الدنيا به .

والارتباط بين النزعات السياسية ، ومنصب الخلافة أو الإمامة ، أقدم من العصر الأموى ؛ إذ يرجع إلى الفترة التى تلت وفاة الرسول ﷺ .

فقد ووجه المسلمون بمشكلة اختيار خليفة للرسول ﷺ يتولى قيادة الأمة ، ويقوم على مصالحها الدينية والدنيوية ، وزاد من صعوبة الاختيار أن النبى ﷺ توفى ، ولم يعرف المسلمون ـــ معرفة يقينية ، لايتطرق إليها الشك ـــ رأيه فى ولاية أمر جماعة المسلمين من بعده (٢) .

لذا قفزت هذه المشكلة ؛ لتحتل المقام الأول من اهتمام المسلمين ، بحيث صارت المهمة الشاغلة لأذهانهم هى الفصل فى مسألة الخلافة .

وظهرت اتجاهات مختلفة ، أرادت أن توجه المسلمين فى اختيار الخليفة ، فالأنصار يرون أن تكون الخلافة فيهم ؛ فهم الذين آووا ونصروا ؛ والمهاجرون القرشيون يدفعونهم عنها ، ويفندون حجتهم ، على نحو ماهو معروف فى خبر السقية المشهور .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١٩١ .

(٢) انظر : العقيدة والشريعة ١٦٩ .

ولئن كان أهل السقيفة قد وفقوا ــ بعد جدال قصير ــ إلى اختيار أبى بكر القرشى المهاجرى الصحابى الصدِّيق ، فأذعنت الأمة لهذا الاختيار ، فإن نفراً من كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار أبدوا نقمتهم على إهمال القرابة من الرسول ،باعتبارها من أهم الأسس ــ فى نظرهم ــ التى كان يجب مراعاتها فيمن يخلف الرسول ﷺ .

وكان على بن أبى طالب ، فى نظرهؤلاء ، جامعا للأسس التى ارتضتها الجماعة ، من حيث الأصل القرشى ، والسبق إلى الإسلام ،وصدق الصحبة والجهاد ، وفوق هذا كله قرابته القريبة من صاحب الدعوة .

غير أن هؤلاء النفر لم يجدوا فرصة مواتية أمام إجماع الجمهور الأعظم من المسلمين على أبى بكر ، ثم عمر من بعده ، ثم عثمان فى سنواته الأولى ؛ ليرفعوا أصواتهم عالية لتحقيق ماارتأوا .

وقد أتيحت هذه الفرصة بعد أن اختلف الناس على عثمان ، اختلافا أدى إلى مصرعه ، فتجددت مشكلة الخلافة مرة أخرى ، فالخليفة السابق لم يعين خلفا له ، كما فعل أبو بكر ، ولم يحصر الخلافة فى عدد محدود ، يختار المسلمون من بينهم من يرتضونه ، كما آثر عمر أن يفعل ، فاحتدم الصراع منذ ذلك التاريخ حول منصب الخلافة .

حول هذه الخلافة ، ولمن تكون ؟ ومايتعلق بها من حقوق وواجبات ، والأسس التى يقوم عليها اختيار الخليفة ، حول هذا كله قامت دعوات ، وآراء ، سياسية ودينية ، تميزت بصراع عنيف فيما بينها ، فى العصر الأموى ، واعتمد هذا الصراع على السيف أحيانا ، وعلى اللسان أحيانا ، وعليهما معا ، يظاهر كل منهما الآخر ، أحيانا أخرى .

وفن القول الشعرى ، الذى صاحب هذه الدعوات والآراء ، تأييداً ودعماً ومساندة ، أو تفنيدا ودفعا وإبطالا وتزييفا ، هو مانعنيه هنا بالشعر السياسى .

والشعر السياسى ــ بهذا المفهوم ــ قد سلك ، فى العصر الأموى ، طرقا شتى فى تناوله لأمور السياسة ، التى دار حولها صراع الأحزاب .

فمنه ماآثر أسلوب البرهنة والاحتجاج ، على صدق دعاوى الحزب الذى يظاهره ، ونقض دعاوى الأحزاب الأخرى المناوئة له وتفنيدها فى أسلوب شعرى ، لايلتزم

دائما القواعد والأشكال المقررة لأساليب الجدل والبرهنة والاحتجاج ــ على نحو مايفعل فن النثر ــ وعلى القارىء ،أو السامع ، أن يرتب المقدمات والنتائج ، بردها إلى مواضعها من الكلام ، ثم عليه بعد ذلك أن يستخلص بنفسه الحقائق ، أو النتائج ، التى لم يصرح بها الشاعر .

وقد يقف الشعر مؤيدا لمذهب سياسي ، مستخدما فى ذلك أساليب أخرى ، ليس من بينها أسلوب البرهنة والاحتجاج ، كأن يعمل على نشر مبادىء الحزب والتنويه بها ، ويشيد بزعمائه ورجالاته وانتصاراته ، ويرثى من قضى من قادته وشهدائه ، ويتهجم على غيره من الأحزاب المعارضة ،ويهجو سادتها ورجالها ، ويصمهم بها ينفر المسلمين منهم ، ويصرف الناس عن مذهبهم ، كل ذلك على أساس من العقيدة السياسية المذهبية التى يدين بها صاحب هذا الضرب من الشعر .

وقد يكون من الشعر السياسى مايمدح قادة مذهب منوهاً بهم ، مشيدا بخصالهم وسياستهم ،أو يرثى قتلاهم الذين سقطوا شهداء الصراع الدموى مع خصومهم ، أو يعجب بمآثرهم ، مع أن قائله لايعتنق مبادىء هذاالحزب وآراءه ،وإنما يكون ذلك منه طمعا فى دنيا يصيبها ، أو تخلصا من إيذاء واقع عليه ، أو دفعا لضرر متوقع يخشى نزوله به .

فالكميت [١] شاعر الشيعة المتعصب مَدح عبد الملك بن مروان ، وهشام بن عبد الملك مضطرا ، بعد أن جَدَّ الأول فى طلبه ، وحبسه الثانى .

ومن قوله فى مدح بنى أمية ، من قصيدة أنشدها بين يدى هشام بن عبد الملك [٢] .

أبنــــى أُميّـــــةَ إنكـــــمْ   أهـــلُ الوسائــــل والأوامـــــر
ثِقتـــى لكـــــلِّ مُلِمَّـــــةٍ   وعشيرتى دون العشائـــــــــر
أنتم معـــــادنُ للخِلافـــــةِ   كابِراً من بعد كابـر .. إلخ

---

(١)أبو عمارة ــ أو أبو المستهلّ ــ الكميت بن زيد الأسدى القرشى ، شاعر مقدم عالم بلغات العرب ، خبير بأيامها ، فصيح خطيب ، عاش بالكوفة ، وتعصب لمضر ، واشتهر بالتشيع لبنى هاشم ، وكانت بينه وبين الطرماح شاعر الخوارج خلطة ومودة ، على اختلاف مذهبيهما ، وكانت ولادته أيام مقتل الحسين بن على سنة ٦٠ هـ ، ووفاته فى أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ١٢٦ هـ . انظر : الموشح ١٧٢ ، ١٩١ والأغانى ١٥ / ١٠٨ والشعر والشعراء ٢٣٧ وطبقات ابن سلام ٦٣١ ومعاهد التنصيص ٢ / ٢٦ ومابعدها ، ورسائل الجاحظ ٢ / ١٣٦ والعبر للذهبى ١ / ١٦٣ ومجالس العلماء ٢١٦ .

(٢) الأغانى ١٥ / ١١٣ ، ومعاهد التنصيص ٢ / ٢٩

وعُبيد الله بن قيس الرقيات [١] ، الذى كان يتشيع لابن الزبير ، مدح عبد الملك ابن مروان بعد أن ظل هائما على وجهه ، مختفيا من بنى أمية عاما بعد وفاة مُصْعَب بن الزُّبير ، ملتمسا منه العفو ، حتى عفا عنه ، واستمع إلى مدائحه ، ومنها قوله فيه وفى قومه :

مانقِمُوا من أُميــة إلاّ أنهم يَحْلُمون إن غضبوا
وأنهم سادةُ الملـوك فلا تصلحُ إلاّ عليهمُ العربُ
إن الأغرّ الذى أبوه أبو الْـ ـعاصى عليه الوقار والحُجُبُ
يعتـدل التـاج فوق مَفْرِقـه على جبينٍ كأنـه الـذّهب
خليفـةُ الله فى رعيَّتـه جَفَّتْ بذاك الأقلامُ والكتبُ [٢]

وروح التكلف فى ماء هذا الشعر واضحة ، ونرى ، أن الشاعر أساء فيه إلى بنى أمية ، أكثر مما أحسن ، ألا نراه قد جعلهم ملوكا ، بل سادة الملوك ؟ والملك بدعة ، لاتتفق مع نظام الحكم فى الإسلام ، كما أن الشاعر أوحى من طرف خفى بأنهم جبابرة ، لايُصلح العرب إلا شدة سطوتهم ، ثم إنه لما لم يجد مايؤيد به دعواهم فى الخلافة ، من حق يؤيده الشرع ، أو منطق يُقِرُّ به العقل ، ردّها إلى القضاء والقدر ، كما يفهم من البيت الأخير .

ولقد أدرك الخليفة عبد الملك بن مروان ـــ الممدوح بهذا الشعر ـــ مافى هذا النظم من تكلف ، ومايفتقر إليه من صدق الانفعال ، وربما فهم منه مافهمنا ، فلام الشاعر قائلا [٣] : أتقول لمصعب بن الزبير :

إنّما مُصعَبٌ شهاب من الله تجلَّتْ عن وجهه الظَّلْماءُ

وتقول لى :

يعتـدلُ التـاج فوق مفرقـة على جبينٍ كأنه الذهب ؟!

---

(١) أبو هاشم ، أو أبو هشام ، عبيد الله بن قيس بن شريح ، قرشى الأب والأم ، والرقيات لقب له ، قيل : لأنه كان يشبب بثلاث نسوة ، اسم كل واحدة منهن رقية ، وقيل غير ذلك ، كان يتشيع لابن الزبير ، وله غزل جيد ، توفى سنة ٨٥ هـ ، انظر : الأغانى ٤ / ١٥٧ ، والشعر والشعراء ٣٤٤ ، وطبقات ابن سلام ٥٢٩ ، وخزانة الأدب ٣ / ٢٦٨ ، وسمط اللآلى ١ / ٢٩٤ ، والموشح ١٨٧

(٢) الأغانى ٤ / ١٥٧ ، ١٥٩ ، وطبقات ابن سلام ٥٣٣

(٣) الكامل للمبرد (الأزهرية) ١ / ٢٠٧ ، وسمط اللآلى ١ / ٢٩٥ ، والموشح ١٨٦

وبنحو هذا مدح أيمنُ بن خُريْم الشاعر الشيعى [١] ، بشربن مروان ، فقال : [٢]

كأن التـاجَ تاجَ بنـى هِرَقْـل   جَلَـوْه لأعظـم الأعيـاد عيـداً

يصافح خد بشْرٍ حين يُمسى   إذا الظلمـاء باشرت الخدودا

فالشاعر صريح فى رؤياه لخلافة بنى أمية وحكمهم ، وأنه ملك ، وهم ملوك ، بل ملوك هرقلية ، لاخلفاء دولة إسلامية !!

ولعل مما يلقى الضوء على مافى هذا الشعر من صنعة وتكلف ـــ فوق ماذكرنا ـــ مايروى من أن محمد بن على الطالبى ، قال لأيمن بن خريم : « تزعم أنك من شيعتنا ، وتمدح آل مروان ؟! فقال : إنما أسخر منهم ، فأجعلهم حيات وعقارب ، وآخذ أموالهم [٣]».

والحق ، أن الأمويين ، لما جعلوا من الخلافة الإسلامية ملكا متوارثا ، كما اعترف بذلك مؤسس دولتهم ، معاوية بن أبى سفيان ، قائلا فى فخر : « أنا أول الملوك » ، لم يكن لهم أن يلوموا الشعراء إن مدحوهم بما يمدح به الملوك ، من قوة السلطان ، وشدة البأس على الأعداء ، وعظيم الهيبة ، وأبهة الملك ،واعتدال التاج فوق رءوسهم ... وماإلى ذلك ، مما هو أليق بمدح الملوك منه بمدح الخلفاء ، الذين يستند حقهم فى الخلافة إلى أسس شرعية دينية .

وكان معروفا من سياسة بنى أمية مع الشعراء ، أنهم يحرصون على تأليف قلوبهم ، بالجوائز السنية ، والعطايا السخية ، فلا غرابة أن هفت قلوب كثير من شعراء الفرق الأخرى إلى أموالهم ، وإن جفتهم قلوبهم .

وأوضح مثل لهؤلاء الشعراء ، أيمن بن خريم ، المتشيع لآل البيت بعامة ، وكُثيِّر

---

(١) أيمن بن خريم بن فاتك الأسدى ، شاعر فارس متشيع ، اعتزل الجمل وصفين ، ومابعدهما من الأحداث ولأبيه صحبة ، انظر : الأغانى ٢١ / ٥ ، وسمط اللآلى ١ / ٢٦٢ ، وحماسة الظرفاء ١ / ٨٢

(٢) العمدة ١ / ٢٠٨

(٣) الموشح ١٤٤ ، وانظر فيما أشار إليه من تشبيههم بالحيات والعقارب شعرا له فى المصدر نفسه ١٤٤ ـــ ١٤٥

عَزَّة [١] ، شاعر الشيعة الكيسانية ، والطِّرِمّاح بن حكيم [٢] ، الخارجى المذهب .

أما أيمن بن خريم ، فقد مدح عبد الملك بن مروان ، وأخويه : عبد العزيز ، وبشر ، وغيرهم من بنى أمية طمعا فى عطائهم لاغير ، ولاأدل على ذلك من قوله فى مدح بشر بن مروان [٣] :

ولو أعطاك بشرٌ ألفَ ألْفٍ ... رأى حقاً عليه أنْ يَزيدا
أميرَ المؤمنين أقِمْ ببشْرٍ ... عَمُودَ الدين إن له عَمُودا
ودعْ بشراً يُقوِّمُهم ويُحدثْ ... لأهل الشرك إسلاماً جديداً

ولعمرى لقد حدد الشاعر بضاعته بنفسه صراحة ، ولابأس من أن يساوم على المزيد !! .

وأما كثير عزة ، فله قصيدة طويلة جيدة فى مدح عبد الملك بن مروان ، نظر فيها إلى ماعرف عن عبد الملك من بصره بالشعر ، وتقديره للشعراء ، وإجزال العطاء لهم ، وهى طويلته التى مطلعها [٤] :

---

(١) أبو صخر الخزاعى المدنى ، عبد الرحمن بن أبى جمعة الأسود بن عامر بن عويمر ، لقب كثيرا؛ لأنه كان شديد القصر — على سبيل السخرية — وتشيع على مذهب الكيسانية ، وكان عمر بن عبد العزيز يقول : إنى لأعرف صالح بنى هاشم من فاسدهم ، بحبّ كثير ، من أحبه منهم فهو فاسد ، ومن أبغضه فهو صالح ، وكان عبد الملك بن مروان يعجب بشعره ، ويقول : أراه يسبق السحر ، ويغلب الشعر ، وتعشق عزة بنت جميل بن حفص من بنى حاجب ابن غفار ، وكنيتها أم عمرو الضمرية ، نسبة إلى قبيلة ضمرة ، وكثيرا مايطلق عليها الحاجبية نسبة إلى جدها الأعلى ، ولكنه كان متهما فى صدق عشقه ، وروى ابن سلام ، وأبو عبيدة أخبارا فى تأييد كذب صبابته ، وكانت وفاته بالمدينة سنة ١٠٥ هـ . انظر : الأغانى ٨ / ٢٥ ومابعدها ، وأيضا ٨ / ١٨٩ومعاهد التنصيص ١ / ١٨٢ ومابعدها ، والعبر للذهبى ١ / ١٣٢ وفيه أنه مات سنة ١٠٧ هـ . وابن خلكان ١ / ٥٤٧ ، وتزيين الأسواق ٣٩ ، وخزانة الأدب ٢ / ٣٨١ ، وفيها « كثير بن عبد الرحمن » .

(٢) أبو نفر الطرماح بن حكيم الطائى من فحول الشعراء فى العصر الأموى ، نشأ بالشام ثم عاش بالكوفة صديقا للكميت بن زيد ، وكان هو والكميت يعلمان الصبية بالكوفة . توفى سنة ١٠٠ هـ ، انظر : الأغانى ١٠ / ١٤٨ ومعاهد التنصيص ٢ / ٢٦ والشعر والشعراء ٢٢٨ والمؤتلف والمختلف ١٤٨ والاشتقاق لابن دريد ٣٩٢ وشرح الحماسة للمرزوقى ٢٢٧

(٣) الأغانى ١ / ١٢٧ ، ٢١ / ٨ ورسائل الجاحظ ٢ / ٢٧٧

(٤) انظرها فى طبقات ابن سلام ٤٥٨ ، ٤٦٠ . الدلاص : الدرع البراقة الملساء . المسدى : الناسج ، الذى عمل سداها ولحمتها . سردها: نسجها . أذالها : جعل لها ذيولا.

على ابن أبي العاصي دِلاصٌ حصينة　　أجاد المُسَدِّى سَرْدَها وأذالها

وخص يزيد بن عبد الملك بعدة قصائد جياد مشهورة ، أثابه يزيد على إحداها بمائة ألف درهم .

وكثير نفسه يصرح بأنه مامدح بنى أمية إلا طمعا فى جوائزهم ، فقد قال لأبى جعفر محمد بن على العلوى ، لما لامه فى هذا المديح [١] : « لم أقل .. ياإمام الهدى ، إنما قلت : ياشجاع ، والشجاع حية ، ويأسد ، والأسد كلب ، وياغيث ، والغيث موات ، فتبسم أبو جعفر » .

أى أنه كان يمدحهم بمعان تقليدية جوفاء ، لاتعنى تفضيلا لهم على آل البيت . والطرماح بن حكيم ، مدح بعض ولاة بنى أمية ، طامعا فيما بأيديهم من مال ، فقد دخل على خالد بن عبد الله القسرى ، فى ولايته بالكوفة ، وقال [٢] .

وشيَّبنى أن لاأزال مناهضاً　　بغير غِنىً أسْمُوا به وأبُوعُ
وأن رجال المال أضحْوْا ومالُهم　　لَهم عند أبواب الملوك شفيع
أمُخْتَرِمى ريبُ المنون ولم أنَلْ　　من المال ماأعصى به وأطيع

فأمر له بعشرين ألفا ، وقال له : « اعصِ بها الآن وأطع إذا شئت » .

فالطرماح كسابقيْه ، طامع فى العطية ، بل ربما كان أكثر صراحة منهما ، إذ اقتصر على الطلب ، ولم يقدم له بضاعة من مديح .

وغير هؤلاء كثير ، ممن نوهوا ببنى أمية ، وهم يعتنقون مذاهب أخرى ، تتفاوت أشعارهم جودة وضعفا ، ولكنها تقبل منهم ، ويشجعون عليها من بنى أمية بالعطايا والتكريم ، أو بغفران خطاياهم ، أو برفع الأذى والضر عنهم ، اصطناعا منهم للشعراء ، حتى يكثر قاصدوهم ، والمشيدون بذكرهم ، مادام فى ذلك بعدٌ لصيتهم ، وقوة لنفوذهم ومكانتهم [٣] ، ولعلمهم بما لقول الشاعر من تأثير فى نفوس عشيرته ، لأنه لسان حالها .

---

(١) أمالى المرتضى ١ / ٢٨٧
(٢) ديوان المعانى ٢ / ٢٣٨ ، وانظر أمثلة أخرى فى الأغانى ١٠ / ١٥٢
(٣) انظر : تاريخ الشعر السياسى (الشايب) ١٠

من ثم اصطنع بنو أمية الشعراء ، واستعانوا بهم على اختلاف قبائلهم وبطونهم ومنازعهم ، « فازداد الشعراء بذلك نفوذا وتقربا من الخلفاء أو الأمراء ، وكان الخليفة يعد مدح الشاعر له دليلا على رضى قبيلته عن أغراضه ... والقبيلة تعد إكرام الخليفة لشاعرها إكراماً لها [١] » .

وقد تجتمع كل هذه الألوان من الشعر السياسى فى شعر حزب أو أكثر ، وقد يختفى بعضها ، على نحو ماسنرى فى دراستنا التالية ، لشعر كل فرقة أو حزب على حدة .

— ١ —

شعر الشيعة:

يرتبط نشاط الشيعة السياسى بنشاطهم الشعرى ، فكل منهما صدى لعقيدة أساسية ، تنادى بأن خلافة الرسول ﷺ وإمامة المسلمين حق لآل البيت وحدهم ، وهذا الحق عدا عليه بنو أمية واغتصبوه ، بالغدر والظلم والقهر والتآمر .

كما يرتبطان فى الباعث ، لأن كلا منهما منبعث عن شعور السخط المتأجج فى صدور الشيعة على هؤلاء الغاصبين .

وكانت سياسة بنى أمية إزاء زعماء آل البيت وشيعتهم عاملا هاما فى تنمية هذا السخط وتلهبه ، فقد أخذوا كل حركة شيعية قامت لنصرة الأئمة ، واستعادة حقهم بالشدة والعنف ، وتتبعوا آل البيت أنفسهم بالقتل ، والتشريد ، والتعذيب ، والاضطهاد ، فقتلوا الحسين بن على بكربلاء ، فيما يشبه أن يكون مذبحة ، سفكت فيها دماء كل من مع الحسين من آل بيته وأبناء عمومته ، ولم ينج منها إلا النساء والأطفال ، واشتد وقعها فى نفوس المسلمين بعامة ، وألهبت مشاعرهم ومشاعر الشيعة وشعرائهم ، إلى جانب كثير من شعراء المسلمين الآخرين ، فهبوا ينددون فى كل مكان بهذه الجريمة البشعة فى حق أبناء البنى ﷺ ، ويصورون نكر هذه المذبحة ، ويحمِّلون ضمير المسلمين وِزْر خذلان آل البيت .

كما قتلوا زيد بن على بن الحسين (سنة ١٢٢ هـ) ، الذى خرج على هشام بن عبد الملك [٢] بالكوفة ، وبعثوا برأسه إلى هشام بدمشق ، ثم أرسلت إلى المدينة ، أما جثمانه

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية (زيدان) ١ / ٢٢٠

(٢) انظر فى خروج زيد بن على وقتله : تاريخ الشعوب ١ / ١٩٠ ومروج الذهب (البهية) ٢ / ١٨١ — ١٨٢ والخوارج والشيعة ٢٥٩ ، ومقالات الإسلاميين ١ / ١٣٠ ، ١٤٤ والعبر للذهبى ١ / ١٥٤

فصلبوه عريانا مدة ثم حرقوه فى الرياح ، ويقال : إنه ظل مصلوبا حتى توفى هشام سنة ١٢٥ هـ .

ولما خرج ابنه يحيى على الوليد بن يزيد بنواحى خراسان ، أخذ وقتل (سنة ١٢٤ هـ) وأحرق جثمانه ، وألقى برمادة فى الفرات ، وقيل : ظل مصلوبا إلى أن خرج أبو مسلم الخرسانى صاحب الدعوة العباسية ، فأنزله وصلى عليه ، ودفنه بالجوزجان من بلاد خراسان [١] ، وكان قتل زيد وابنه يحيى على هذا النحو من أسباب زيادة البغض للأمويين [٢] .

امتزج سخط الشيعة على بنى أمية بالحزن على أئمتهم المغصوبين ، المضطهدين ، المشردين ، الذين لايملكون قوة مادية كالتى يملكها خصومهم ، ولايجترءون على الحق ، كما اجترءوا .

وانعكس ذلك كله فى أشعار شعرائهم ، محبة لآل البيت ، وحزنا على ماأصابهم ، وتمجيدا وإشادة بأئمتهم ومذهبهم ، واحتجاجا وبرهنة على صواب حقهم فى الخلافة ، وهجاء وتنديدا بأعدائهم ، وحول هذه الموضوعات دار أكثر شعر الشيعة السياسى .

أ ــ إظهار المحبة لآل البيت :

من الواضح أن القلوب التى هفت إلى آل البيت ، والتفت حولهم ، ونبضت بحبهم وإجلالهم ، كانت تنبعث فى هذا كله ، أساسا عن محبة الرسول ﷺ وإجلاله ، والوفاء بحقوقه على الأمة ، وأولى هذه الحقوق بالرعاية مودة آل بيته عملا بقوله تعالى : [٥]

---

(١) انظر خروج يحيى بن زيد ومقتله فى : مروج الذهب (البهية) ٢ / ١٨٥ ، والخوارج والشيعة ٢٦٠

(٢) انظر : ضحى الإسلام ٣ / ٢٧٣

(٣) المصدر السابق . قالوا: مات الحجاج وقد بلغ من قتله صبرا (من الشيعة وغيرهم) مائة وعشرين ألفا ، وكان فى حبسه عند موته خمسون ألف رجل ، وثلاثون ألف امرأة ، منهن ستة عشر ألفا مجردة ، وكان يحبس النساء والرجال فى موضع واحد ، ولم يكن للحبس ستريستر الناس من الشمس والمطر . مروج الذهب (البهية) ٢ / ١٥٧

(٤) فجر الإسلام ١ / ٣٢٢

(٥) سورة الشورى ٤٢ / ٢٣

« قل لاأسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى » .

وليست محبة آل البيت قاصرة على من تشيعوا لهم ، ووقفوا عواطفهم عليهم دون غيرهم ، فهذه المحبة شركة شائعة بين قلوب المسلمين ، من تشيع منهم لحق آل البيت ، ومن لم يتشيع .

غاية الأمر أن الشعراء من غير الشيعة لم يفيضوا فى التعبير عن هذه المحبة إفاضة شعراء الشيعة ، ولم يفتنوا افتنانهم ، ولم يطرقوا من المعانى فى هذا المجال ، كثرة وجدة ، مثل ماطرق شعراء الشيعة .

فكثير عزة يردّ على من يعاتبه فى حب آل البيت ، ويعد ذلك من مساوئه ، ذاكرا أن من يحب النبى ﷺ وعلياً وأبناءه ، والحسن والحسين ، ومحمد بن الحنفية ، لاينبغى أن يعاتب ؛ لأن حبهم ليس ذنبا ، وإنما هو قربى ، يتقرب بها إلى الله ، راجيا أن تكفر سيئاته ، وتمحو ذنوبه : (١)

إن امرءاً كانت مساوئه ... حبَّ النبى لغيرُ ذى عَتْب

وبنى أبى حسنٍ ووالدهم ... من طاب فى الأرحام والصُّلْب

أترونْ ذنباً أن نحبَّهم ... بل حبهُّم كفارة الذنب

ويتجه شاعر شيعى آخر إلى أسلوب آخر يؤكد به مكين حب آل البيت فى قلبه ، واستغناءه به عما سواه ، يقول حربُ بن المنذر بن الجارود (٢) :

فحسبْى من الدنيا كفافٌ يُقيمنى ... وأثوابُ كَتَّان أزورُ بها قَبْرى

وحُبىِّ ذوى قُربى النبىِّ محمدٍ ... فما سَالنا إلا المودَّة مِن أجْر

فهذا الشاعر يقف حياته كلها على حب آل بيت النبى ، ويجعل حبهم همة ووُكْده ، وزاده للآخرة ؛ ومِن ثمَّ فهولا يطمع أن يصيب من حاجات الدنيا إلا الزاد القليل ، الذى يقيم أوده ؛ ليواصل هذا الحب ، والكفن الذى يستره فى رقدة القبر .

وواضح أن الشاعر ينظر فى البيت الثانى إلى قوله تعالى : « قل لاأسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القُربى » .

---

(١) ديوانه ٤٩٤

(٢) لم أعثر على ترجمة له ، والشعر فى البيان والتبيين ٣ / ٣٦٥

وأبوا الأسود الدؤلى (١) ، شاعر محب لآل البيت ، يرى حبهم من فيض حبه لله ، وهذا الحب متمكن من قلبه ، لن يحيد عنه ، يحيا عليه ، ويبعث يوم القيامة عليه .

وأبو الأسود ممن تعرضوا للأذى فى سبيل هذا الحب ، إذ كان ينزل فى بنى قُشَيْر ، وهم يخالفونه فى المذهب ، فكانوا يؤذونه كثيرا ؛ لتشيعه لعلى وآل بيته ، وكثيرا ماكانوا يقذفونه بالحجارة ليلا ، فإذا أصبح شكا ذلك ، فشكا مرة ، فقالوا : مانحن نرميك ، ولكن الله يرميك ، فقال : كذبتم ، لو كان الله يرمينى ماأخطأ (٢) .

ويبدو أنهم لاموه فى تشيعه لآل البيت ، فهو يرد عليهم بأنه مصيب فى حبهم ، سواء أكان هذا الحب رُشداً أو غياّ فى نظرهم (٣) :

أحبُّ محمداً حباّ شديدا ... وعبّاساً وحمزة والوصيّا
وجعفر إن جعفر خير سبط ... شهيداً فى الجنان مُهاجريّا
يقول الأرذلون بنو قُسيْر ... طوال الدهر ماتنسى علياّ
بنو عم النبى وأقربوه ... أحبُّ الناس كلهم إلياّ
فإن يكُ حبُّهم رُشداً أُصبهْ ... وفيهم أسوةٌ إن كان غياّ
أحبهم لحبِّ الله حتىّ ... أجىء إذا بُعثت على هَوَياّ
هَوًى أُعطيتُه منذ استدارت ... رَحَى الإسلام لم يَعْدل سَوياّ

فحبه كما نرى ، نبع من حب الله ورسوله ، وينبغى أن لانخدع بظاهر قوله :

فإن يك حبهم رشدا .... (البيت) ، فنفهم أنه لم يكن على يقين من رشده أو غيه فى حبه آل البيت ، يقول أبو عبيد البكرى : « لم يشك أبو الأسود فى أنه رشد ،

---

(١) ظالم بن عمرو بن جندل بن سفيان ، من بنى الدُّؤل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، شاعر إسلامى فارس ، أدرك عليا بن أبى طالب وصحبه ، وروى عنه ، وتشيع له ، وهو أول من وضع كتابا فى النحو ، لما كثر اللحن ، ويعد أبو الأسود من التابعين ، والمحدثين ، والنحويين ، والقضاة ، والمعلمين ، كما أنه أحد البخلاء ، والمفاليج والعرج .

مات بالطاعون سنة ٦٩ هـ . انظر: الأغانى ١١ / ١٠١ وسمط اللآلى ١ / ٦٦ ، ٢ / ٦٤٢ والشعر والشعراء ٢٨٠ والمؤلف ١٥١ والإمتاع والمؤانسة ٣ / ٣٣ ، وابن خلكان ١ / ٣٠١ ، وفى نوادر بخله انظر : عيون الأخبار ٢ / ٣١ . قالوا: وبنو الدؤل من كنانة ، وبنو الدُول ــ غير مهموز ــ من حنيفة ، وبنو الدِّيل من عبد القيس ، انظر : سمط اللآلى ١ / ٦٦

(٢) أمالى المرتضى ١ / ٢٩٣

(٣) ديوانه ٧٣ وانظر : سمط الآلى ٢ / ٦٤٣ وأمالى المرتضى ١ / ٢٩٣ والكامل للمبرد (الأزهرية) ٣ / ١١٩ – ١٢٠ . السبط : ولد الولد . لم يعدل سويا : مستوى ، لم ينحرف . هويا : مأأهوى ،وهو حب آل البيت .

وهو على تأويل قول الله عز وجل [١] : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين [٢] » .

هذا الشعر وغيره ،وقف عند حد التعبير عن محبة آل البيت ، وإظهار محبتهم المتغلغلة فى قلوب شعرائه ، وهى عاطفة سامية حقا ، غير أن آل البيت ــ فى ظل ظروف الاضطهاد ، التى كانوا واقعين تحت نيرها ، وحقهم السليب ،وعجزهم عن استرداده ــ كانوا يحتاجون من شعراء مذهبهم إلى أكثر من مجرد إظهار الحب لهم ، كانوا فى حاجة ــ مع هذا ــ إلى شعر يقف إلى جانب حقهم ،يؤيده ، ويبصر الناس به ، ويقنعهم بصوابه ، أويدعو إلى إبراز شخصيتهم المتميزة فى تدينها وتقواها ، وحسن بصيرتها بالدين ، وسياسة المسلمين ، فيجذب القلوب إليهم ، ويعطفها نحوهم ، أو يدعو لعقيدتهم ، ويقنع بها العقول ، ويحببها إلى القلوب ، ونحو ذلك مما من شأنه أن ينهض بالدعاية لهم ، ولحقهم ، ومذهبهم ، ويجمع الأنصار حولهم .

ولقد نهضت ألوان أخرى من الشعر الشيعى لأداء هذا الواجب ، وتحقيق هذه الأغراض ، فكانت أكثر إيجابية فى خدمة أئمة آل البيت ، وقضاياهم ، ومذاهبهم ، كما سنرى فى المباحث التالية :

ب ــ الاحتجاج لحق الأئمة فى الخلافة :

قلنا إن الشعر الشيعى ينبعث ــ أساسا ــ عن عواطف المحبة لآل البيت ، التى هى نبع محبتهم لله ورسوله ، وهذه المحبة كانت تأخذ ــ أحيانا ــ فى شعر الشيعة طابعا أكثر فاعلية ، فى خدمة المذهب الشيعى ، فلا يكتفى الشاعر بمجرد إظهار هذه العاطفة على نحو مارأينا فى النماذج السابقة ، بل إن الشاعر الشيعى قد يدفعه حبه لآل البيت ، وتحمسه لحقهم الضائع ، إلى أن يجعل من شعره منبراً للاحتجاج لقضيتهم ،وتقرير دعواهم فى حق الإمامة ، تقريرا مدعوما بالأدلة والبراهين ، مصحوبا بالجدل ، ومناقشة الخصوم .

---

(١) سورة سبأ ٣٤ / ٢٤

(٢) سمط اللآلى ٢ / ٦٤٣

ويعد الكميت بن زيد ــ المتشيع للهاشمية بعامة ، المتمذهب بمذهب الزيدية منهم بخاصة [١] ــ أول من مهد هذا الاتجاه فى الشعر الشيعى ، وفتح لشعرائه باب الاحتجاج لمذهبهم ، ودلهم على طرق هذا الاحتجاج .

ومنهج الكميت فى ذلك لايقوم على الإقناع العاطفى فحسب ، وإنما يعتمد ــ أولا وقبل كل شىء ــ على الإقناع العقلى ، الذى يتخذ لتحقيقه أساليب ثابتة لايحيد عنها ، أى أن شعر الكميت المتشيع يتغيًّا إقناع العقول ، قبل التأثير فى القلوب .

فالكميت يستعين فى شعره هذا بالنظر العقلى ، كما يستعين بالاستدلال النقلى ، مستغلا بعض آيات القرآن العظيم ، التى يراها تقرر حق الأئمة .

والواقع أن ثقافة الكميت العقلية ، هى التى هدته إلى هذا الاتجاه ، وهيأت له هذه السبيل ، فقد كان على صلة وثيقة بالفكر المعتزلى ، عن طريق علاقته الوطيدة بإمامه زيد بن على ، الذى كان حجة فى مقولة المعتزلة [٢] ــ من ناحية ــ وصلته بواصل بن عطاء ــ رأس المعتزلة ــ من ناحية أخرى .

وكانت محصلة هذا الاتصال تأثر الكميت بمنهج الاعتزال ، الذى ينهض على جناحَىْ : الاستدلال العقلى ، والاحتجاج بآى القرآن العظيم ، فى تقرير مسائل الاعتزال .

ويرى بعض الباحثين المحدثين [٣] أنه « من الممكن أن نلاحظ أيضا أن اتصال الكميت بالفقه الحنفى ، كان عاملا آخر من عوامل هذا الاتجاه العقلى ، وهل كان من الممكن أن يتصل الكميت بأبى حنيفة ومدرسته ، دون أن يتأثر بطريقتهم فى القياس ، وبمذهبهم العقلى فى مناقشة المسائل والوصول إلى الفروع من الأصول ؟ » [٤] .

حقا لم يكن الكميت رجلا من عامة الناس ، وإنما كان فقيها ومعلمًا ، فلم يكن من المعقول ، أن يتنكر لثقافته الفقهية حين ينظم شعره المتشيع ، ولم يكن له بد من أن

---

(١) لاستيضاح هذا الاتجاه فى تشيع الكميت ، انظر : حياة الشعر فى الكوفة ٧١١

(٢) انظر : التطور والتجديد ٢٤١ ، ٢٤٢

(٣) هو الدكتور يوسف خليف فى كتابه : حياة الشعر فى الكوفة.

(٤) حياة الشعر فى الكوفة ٧١٢

يصوغ شعره صياغة العالم الفقيه ، الذى يعرف كيف يناقش المسائل ، ويثبتها بالأدلة والبراهين .

بهذا « لم يعد الشعر عند الكميت يعبر عن الشعور فحسب ، بل أصبح يعبر أيضا عن الفكر ،وأصبح يُشفع بكل ماوصل إليه العقل العربى فى هذا العصر من قدرة على الجدال والإقناع [١] » ، فكان شعره نموذجا واضحا فى هذا المنهج ، أمام غيره من شعراء الشيعة ، يهديهم ، ويفتح عيونهم ، على ماينبغى أن يكون عليه الشعر ، الذى يجعل من حق الأئمة ، وقضايا مذاهبهم موضوعا له .

وللكميت شعر كثير فى هذا الباب ، يؤلف مجموعة من القصائد والمقطّعات ، اشتهرت باسم « هاشميات الكميت » هى من جيد شعره ومختاره ، كما يقول العباسى [٢] .

هذه المجموعة تضم أربع قصائد طوال ، تتراوح مابين مائة وأربعين بيتا ، ومائة وثلاثين بيتا ، وقصيدتين قصيرتين ، إحداهما مجموع أبياتها ثلاثة وثلاثون ، والأخرى عشرون ، ومُقطعتين أبيات كل منهما سبعة ، ثم ثلاث مقطعّات قصيرة ، عدة كل منها بيتان .

هذا من حيث كَمِّها ، وعدد قصائدها ومُقطعاتها ، أما من حيث مضامينها ، فإنها ــ فى مجموعها ــ دفاع عن حق الها شميين فى الإمامة ، ضد الأمويين غاصبى هذا الحق .

ويحقق الكميت هذا المضمون العام من خلال ثلاثة موضوعات هى : ١ــ مدح بنى هاشم ٢ــ هجاء بنى أمية ٣ــ الموازنة بين عدل الأئمةوجور الخلفاء الأمويين ، وبين شخصيات الأئمة ذات السمت المتدين التقى الورع ، وشخصيات الأمويين ذات الطابع الملكى المترف ، الظالم ، المحرِّف لكتاب الله وسنة رسوله ، المبتدع فى الدين ماليس منه .

---

(١) التطور والتجديد ٢٤١

(٢) صاحب كتاب معاهد التنصيص . انظره : ٢ / ٢٦

ويلاحظ أن الكميت لايعالج هذه الموضوعات ، باعتبار كل منها فنا مستقلا بذاته يقصد إليه قصدا ، وإنما يتناولها باعتبارها أساليب ، وطرقاً منوعة لخدمة المضمون العام الذى أشرنا إليه منذ قليل ، فهو لايقصد من مدح آل البيت الهاشميين إنشاء قصائد فى المدح ، ولايريد من هجاء الأمويين نظم قصائد فى الهجاء ، وإنما همه من وراء كل هذا إثبات حق الأئمة الهاشميين فى الإمامة ، والبرهنة على أن بنى أمية اغتصبوا هذا الحق منهم .

يتضح من هذا العرض الموجز لمضامين هاشميات الكميت ، أنها لم تكن تعبيرا عن مذهب الزيدية ـــ الذى يدين به الكميت ـــ وحده ، وإنما كانت تعبيرا عن العقيدة الشيعية « فى صورتها العامة ، ممثلة فى شعارها الأساسى ، وعقيدتها الأصيلة فى حق آل البيت » وبهذا الاعتبار يكون الكميت شاعر الشيعة الأكبر « فى تلك الفترة المبكرة من تاريخ التشيع ، وهاشمياته ـــ بهذا الاعتبار ـــ أيضا تعد « ثورة نظرية يشنها هو نيابة عن بنى هاشم عامة » ضد الأمويين ، الذين غصبوهم حقهم فى الخلافة » [١] .

ومن دلائل هذه العمومية فى تشيع الهاشميات للهاشميين ، أنها تضم مصطلحات شيعية ، بعضها مما يتفق فيه الشيعة ، وبعضها لاتقول به فرقة الزيدية التى ينتمى إليها الكميت .

فمما تتفق فيه فرق الشيعة ، الحديث عن علىّ بن أبى طالب بأنه « الوصى » أو «الوصى الولى» وعن الحسن بأنه « وصى الوصى » ، وعن أئمة الشيعة بعامة بأنهم «المهتدون» ، والحديث عن ولاية على يوم غدير خُمّ .. إلى غير ذلك مما تقول به فرق الشيعة بعامة .

ومما لاتقول به الزيدية « اختفاء محمد بن الحنفية ـــ إمام الكسانية ـــ فى شعب رضوى ، نرى إشارة إلى هذا المعنى فى إحدى هاشميات الكميت [٢] ، وهذا إنما يقول به الكيسانية من الشيعة خاصة ، وعقيدة « التقية » ترد فى الهاشميات [٣] « مع أنها ليست من عقائد الزيدية .

---

(١) حياة الشعر فى الكوفة ٧٢٥

(٢) ص ٢١

(٣) انظر ص ٣٨ ، ١٤٢

وليس معنى هذا أن الكميت لم يتحدث بعقائد الشيعة الزيدية فى هاشمياته ، فنحن واجدون فيها طائفة من عقائد مذهبه الزيدى ، باعتبارها جزءا من العقيدة الشيعية فى صورتها المعتدلة .

هكذا نحا الكميت فى هاشمياته ، يناظر فيها عن الشيعة ، ويقرر نظريتهم ، مجادلا ، محاورا ، دافعا حجج الخصوم ، مثبتا مكانها حججا قوية ، من شأنها أن لايجد الخصم مناصا من التسليم بها ؛ لأنها قائمة على قضايا ومقدمات صحيحة ، تارة تستمد من القرآن العظيم ، وأخرى تعتمد على التفكير العقلى المنطقى .

ولنبدأ بهذا النموذج من الهاشميات :

يقول الكميت [١] :

نَفَى عن عينْك الأرَقُ الهُجُوعا ... وهَمٌّ يَمْتَرِى منها الدّموعا

لِفُقْدان الخضارم من قرَيْشٍ ... وخيرُ الشافعين معا شفيعا

لدى الرَّحْمن يصدعُ بالمثانى ... وكانَ له أبو حسن قَريعا

حطوطا فى مَسَرَّته ومَوْلىً ... إلى مَرْضَاةِ خالقه سريَعا

وأَصْفاه النبىُّ على اختيارٍ ... بما أعْيا الرَّفوضَ له المذيعا

ويوم الدَّوْحَ دوح غديرخُمٍّ ... أبان له الولاية أو أطيعا

ولكن الرجال تَبَايَعُوها ... فلم أر مِثْلَها خطراً مَبيعا

فلم أبلغْ بها لعْناً ولكنْ ... أساءَ بذاك أولُهم صَنيعَا

فصار بذاك أقربُهم لعدلٍ ... إلى جورٍ وأحفظهم مُضيعا

أضاعوا أمر قائدهم فضلوا ... وأقومهم لدى الحَدَثانِ رِيعَا

تناسوْا حقَّه وبَغَوْا عليه ... بلا تِرةٍ وكان لهم قريعا

---

(١) هاشميات الكميت ٨١ ـ ٨٢ . يمترى : يحلب ، استعاره من مَرْى ضرع الناقة ليدر لبنها . الخضارم : جمع خضرم (بكسر الخاء والراء) : السادة الكثيرو العطاء ، يقال : بئر خضرم : كثير الماء . يصدع : من الصدع ، ومن الشق ، والمراد : يشق عصا الكفر بالقرآن ، أو يفرق به بين الحق والباطل . المثانى : القرآن ، أو ماتكرر من آياته مرة بعد مرة (انظر : القاموس المحيط ، مادة : ثنى) القريع فى البيت الثالث : المقروع ، أى المختار ، وفى البيت الأخير : السيد . الحطوط : السريع . غديرخم : موضع بين مكة والمدينة .
الريع : الطريق والمنهج .

هنا يحتج الكميت لحق على فى الخلافة ، وهو يبدأ هذه الأبيات بالتعبير عما أصابه من سهد وهم ؛ لوفاة الرسول ﷺ ومن مضى على إثره من أئمة آل البيت .

ثم يأخذ فى الاحتجاج لحق على ، ويؤيد هذا الحق ، بأن عليا ابن عم النبى ﷺ ، والمقرب إليه ، الحريص على مرضاته ، ومرضاه الله ، ومع هذا فإن النبى ﷺ اختاره ليخلفه فى الأمة ، بعد أن اختبره ، ولمس فضائله ، التى يصعب إنكارها على من يكتم ذكرها أو يذيعه .

وقد ثبت هذا الاختيار بنص الرسول ﷺ على ولاية علىّ يوم غديرخم ، وينتقد الكميت موقف الصحابة ، الذين منعوا عليا حقه فى الولاية ، وأهملوا ماأمر به الرسول ﷺ من الولاية له ، فكانوا بذلك بين ظالم للحق ، باغ عليه ، ومضيع لأمر الرسول القائد .

ويستمد الكميت من مذهبه ، مذهب الزيدية المعتدل ، قاعدة يؤمن بها كل زيدى ، تقول بجواز إمامة المفضول مع وجود الفاضل ، ويستند عليها ، فيرفض أن يلعن أبابكر وعمر وعثمان ، والصحابة الذين بايعوهم ، ورضوا بإمامتهم ، ويرى أنهم أخطأوا فحسب ؛ لأنهم قدموا المفضول على الفاضل .

ويردد الكميت هذه الأفكار ــ تقريبا ــ فى هاشمية أخرى ــ يقول فيها [(١)] :

أهْوَى علياً أميرَ المؤمنين ولا ... أرضى بشتم أبى بكرٍ ولا عُمرَا
ولاأقول وإن لم يعطيا فَدَكاً ... بنت الرسول ولا ميراثَه كفَرَا
الله يعلــم ماذا يأتيــان به ... يوم القيامة منْ عُذر إذا اعتذرا
إن الرسولَ رسولَ الله قال لنا ... إن الولــيَّ علىٌّ غير ماهجرا
فى موقف أوقف اللهُ البنىَّ به ... لم يعطه قبلهُ من خلقه بَشَرا
هو الإمــام إمــام الحق نعرفــه ... لا كاللذيْن استذلاَّنا بما ائتمرا

---

(١) ص ١٥٦ . فدك قرية بالحجاز ، أفاء الله بها على رسوله ﷺ وطالبت بها ابنته فاطمة بعد وفاته فأبى أبو بكر ، وروى خبرا عن رسول الله ﷺ أن الأنبياء لايورثون (انظر : اللسان : فدك) وانظر : عقيدة الشيعة ٣٦ ، وفى العقد الفريد ٣ / ١٧١ أن فدكاً كانت مما أفاء الله على رسوله فسألتها فاطمة رسول الله فقال لها : مالك أن تسأليني ، ولالى أن أعطيك . ثم توارثها بنو أمية حتى ردها عمر بن عبد العزيز إلى بيت مال المسلمين .

فهو يدور حول القاعدة التى يستمدها من مذهبه ، وهى التى أشرنا إليها من قبل ، فيصحح خلافة أبى بكر وعمر ، مع قيام علىّ ، وهو أفضل عند الزيدية ، ويثير مسألة ميراث فدك ورفض أبى بكر وعمر أن يعطياه لفاطمة ، أو الاعتراف بحقها فيه ، ويصف عليا بأنه الإمام ، ويبنى هذا الوصف على أساس ماصرح به الرسول ﷺ يوم غديرخم « بأنه مولاه ، وعلى الرغم من أن أبا بكر وعمر حرما فاطمة بنت الرسول ﷺ حقها فى نظره فإنه لايقبل بشتمهما ، ولايقول بكفرهما ، بل يفوض الأمر فيهما لله « فهو وحده الذى يعلم بماذا يعتذران بين يديه، يوم الحساب ، عن موقفهما هذا .

والكميت فى هاتين الهاشمتين يقتصر على بعض البراهين المستمدة من عقائد المذهب الزيدى ، وعقيدة الشيعة بعامة فى ولاية علىّ بن أبى طالب ، إلى جانب بعض البراهين القائمة على صلة القرابة القريبة ، التى تربط بين النبى وعلى ، كما يعتمد على ماهو معروف من مناقب علىّ وفضله « وكلها براهين وحجج تعكس بدقة منهجه فى الاستدلال الذى أشرنا إليه فى صدر الحديث عن هاشمياته .

على أن هذا المنهج نراه بوضوح فى هاشمية أخرى مشهورة ، يناقش فيها مسألة ميراث النبى « ومن أحق به ، ويسوق من حجج النقل والعقل مايؤيد به حق آل البيت فى إرث النبى ــ ومنه الخلافة ــ نعنى الهاشمية التى مطلعها :

طَرِبتُ وماشوقاً إلى البيض أطربُ ولالَعِباًمِنىِّ وذو الشيب يلعبُ

والتى يقول فيها :

ومالى إلا آل أحمد شيعة ومالى إلا مذهب الحق مذهب

وأبياتها التى تعكس منهجه فى الجدل والبرهنة ، هى التى يقول فيها [1] :

---

(١) الهاشميات ٤٠ ــ ٤١ . آل حاميم : السور القرآنية المبدوءة ب(حم) وهى سبع سور ، غافر ، وفُصِّلت ، والشورى « والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، والأحقاف ، والآية المشار إليها فى البيت ، هى قوله تعالى ، فى سورة الشوى : « قل لاأسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » لكم نصب : النصب لهنا : الرايه المنصوبة الواضحة ، أى إن وضوح دلالتها على حق آل البيت متعب لذى الشك ، ويجوز أن يكون النصب هنا : الغاية ، أى لكم غاية فى تأويلها يابنى أمية على غير وجهها ، ولكن هذا التأويل سوف يعنيكم ويتعبكم الوصول إليه ، الفذ : الفرد ، والمقصود هنا أول خلفاء بنى أمية معاوية . الرديفين : يقصد من جاء بعده من الخلفاء الأمويين . نعتب : من أعتب : إذا أزال سبب العتاب . نعتب (بالبناء للمجهول) : من العتاب « وهو اللوم . بكيل وأرحب « وكل القبائل المذكورة بعدهما من عرب القحطانية ، سوى بكر وتغلب ، فهما عدنانيتان ، والمقصود : العرب جميعا . رائموها : يعنى أحبوها ، وقبلوها من غير إكراه . غيرظئر : أى دون أن يظأروا عليها ، أى دون أن يكرهوا على اعتناقها ، ورعايتها . أشبلوا : عطفوا ، يقال : أشبلت المرأة على أولادها بعد وفاة زوجها : إذا عطفت عليهم ، فلم تتزوج من أجلهم . تحدبوا : تآزروا على نصرتها .

بِخَاتَمِكُم غصباً تجوزُ أمُورهم ... فلم أرَغَصْباً مثله يُتَغَصَّبُ
وَجدْنا لكم فى آل حاميم آيةً ... تأوَّلها مناً تقىٌّ ومُعْربُ
وفى غيرها آياً وآياً تتابعتْ ... لكم نَصَبٌ فيها الذى الشكُّ مُنْصِبُ
بحقكُمُ أمستْ قريشٌ تقودُنا ... وبالفَذِّ منها والرَّدِيفيْن نُركَبُ
وقالوا: ورثْنَاها أبانا وأُمَّنا ... وماورَّثتْهم ذاك أُمٌّ ولا أبُ
يَرَوْن لهم فضلاً على الناس واجباً ... سَفَاهاً وحقُّ الهاشميين أوْجبُ
ولكنْ مواريثُ ابن آمنةَ الذى ... به دانَ شرقىٌّ لكم ومُغَرِّبُ
وتستخلف الأموات غَيْرَك كلهُّم ... ونُعْتِبُ لو كنا على الحق نُعْتَبُ
يقولون: لم يُورث ولولا تراثه ... لقد شركتْ فيه بَكيلٌ وأَرْحبُ
وعَكٌ ولَخْمٌ والسّكُون وحِمْيرٌ ... وكندةُ والحيَّان : بكرٌ وتغلبُ
وماكانت الأنصار فيها أذلةً ... ولاغُيَّباً عنها إذ الناسُ غُيَّبُ
همُ شهدوا بدْراً وخيبْر بعدها ... ويومَ حُنَيْنٍ والدِماءُ تَصبَّبُ
وهم رائموها غير ظِئرٍ وأشبلوا ... عليها بأطرافِ القَنَا وتَحدَّبوا
فإن هى لم تصلحْ لقومٍ سواهمُ ... فإنّ ذوى القُربَى أحقُّ وأقربُ

فى هذه الأبيات يتجلى التفكير العقلى فى تأليف الأقيسه ، واختيار المقدمات واستخلاص النتائج .

والكميت يبدؤها بتقرير القضية ، التى سيقيم عليها الأدلة ، ويدير حولها النقاش :

بخَاتمكم غَصباً تجوز أمورهم ... فلم أرغصبا مثله يتغصبٌ

فيقرر أن خاتم النبى ـــ وهو خاتم الخلافة ـــ اغتصبه الأُمويون من الهاشميين أصحابه الحقيقيين ، وبه تنفذ أمورهم ظلما ، وهو اغتصاب لا نظير له فى دنيا الظلم والاعتداء على حقوق الآخرين .

بعد هذا يأخذ فى سوق الأدلة على أن الخلافة ومايترتب عليها من أنفاذ الأمور حق لأهل البيت ، ويعجل بالدليل النقلى ، فسيتدل بآية من القرآن العظيم فى سورة حاميم (الشورى) وغيرها [1] .

---

(١) أما آية الشورى ، فقوله تعالى « قل لاأسألكم عليه أجرا » وأما غيرها ، فمن مثل قوله تعالى فى سورة الإسراء (١٧ / ٢٦) : « وآت ذا القربى حقه » وقوله فى سورة الأحزاب (٣٣ ـــ ٢٣) « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » وقوله فى سورة الشعراء : « وسيعلم الذين ظلموا أى متقلب ينقلبون » ، يفسرها الشيعة بأن المقصود بنو أمية الذى ظلموا أهل البيت باغتصاب حقهم فى الخلافة .

وهى آيات تأمر بتمكين أهل البيت من حقهم ، أو تفضلهم بالإشادة بهم ، أو تقرر نظام التوريث فى الإسلام ، الذى يجعل الهاشميين أصحاب الحق فى وراثة ولاية المسلمين عن الرسول ، ويراها الكميت واضحة الدلالة ــ حسب تأويل الشيعة لها ــ على هذا الحق ، بحيث تعيى بنى أمية وتعذبهم ؛ إذ لايستطيعون تأويلها على غير هذا الوجه ، ولاصرفها عنه .

والنتيجة ، أن الخلافة حق لبنى هاشم بحكم القرآن العظيم نفسه ، وقد اغتصب بنو أمية منهم هذا الحق ، واستبدوا بولاية المسلمين ، بدأ بذلك معاوية ، ثم سار على دربه كل من جاء بعده من خلفاء بنى أمية .

ثم يناقش الكميت مسألة الوراثة ، التى اتخذها بنو أمية مبدأ ،ساروا عليه فى تنصيب خلفائهم .

فيذكر أنهم يحتجون بأنهم ورثوها عن آبائهم (عن الخليفة الأموى عثمان بن عفان) وهو احتجاج مردود ؛ لأن الولاية ، لاتورث عن عثمان ، وإنما تورث عن الرسول ﷺ صاحب الدعوة ، والإمام الأول للمسلمين ، فهو الذى تورث عنه الخلافة ، وآله الأقربون ، وهم بنو هاشم ، أولى بميراثه من غيرهم .

ويكشف زيف حجة بنى أمية ، ومافيها من ضلال وتناقض ، بمنطق آخر ، فهم يدعون ميراث الخلافة ، وفى الوقت نفسه يقولون : إن النبى لايورث [١] .

ويفند دعواهم هذه بأن النبى لو لم يورث ، لكانت الخلافة حقا لجميع المسلمين وليست قاصرة على قريش [٢] ، ولطلبتها القبائل العربية المختلفة من عدنانية وقحطانية ، بل كان للأنصار فيها الحظ الأوفر ، فهم الذين آووا ونصروا .

---

(١) روى أبو بكر عن الرسول ﷺ « نحن معاشر الأنبياء لانورث ... » انظر : الفرق بين الفرق ١٣

(٢) يرى الشيعة أن الإمامة فى قريش ثم فى أهل البيت منهم خاصة . راجع ص ٢٧ من هذا البحث .

النتيجة : أن الخلافة ميراث ، بدليل اختصاص قريش بها [١] ، ومادامت كذلك فلنتبع قانون الإسلام فى التوريث ، الذى يجعلها حقا لأهل بيت الرسول المورّث ؛ لأنهم أقرب الناس إليه ، ولنستردها من أيدى بنى أمية الغاصبين ، الذين يعطون أنفسهم حق الاستخلاف ، ولايعطون للرسول ﷺ هذا الحق ، وهو أولى به .

ويلخص الكميت هذه النتيجة التى انتهى إليها فى البيت الأخير :

فإن هى لم تصلح لقومٍ سواهم فإن ذوى القُربى أحق وأقرب

والأبيات بعد هذا تعكس أيضا تفكيرا فقهيا ، ويرجع ذلك إلى طبيعة المسألة ، موضوع النقاش ؛ فهى تتضمن بحثا فقهيا فى مسألة الميراث ، التى يختلف فيها المذهب الشيعى مع المذهب السُنِّى [٢] .

ونقاش الكميت لهذه المسألة يقوم ـــ بالطبع ـــ على أساس الفقة الشيعى ، الذى يقدم القرابة على العصبة فى الميراث ، ولذا فابن العم الشقيق مقدم على العم لأب عند الشيعة ،وعند الشيعة أن الأنبياء يورثون .

وعلى أساس من هذه القواعد الفقهية الشيعية ، راح الكميت يناقش مسألة إرث النبى ﷺ ، ويختار مقدمات براهينه على النحو التالى :

الأنبياء يورثون ، ومحمد نبى ، وإذن محمد ﷺ يورث ، والقرابة مقدمة على العصبة فى الإرث ، وفاطمة أقرب للنبى ﷺ فهى مقدمة على من سواها ، وعلىّ ابن العم الشقيق ، مقدم على العم لأب ، فعلى وفاطمة هما أحق آل البيت بميراث النبى .

---

(١) يروى فى ذلك ، أن بشر بن سعد الأنصارى قام يوم السقيفة ، فقال مؤيدا حق المهاجرين ، حسما للنزاع : « ألا إن محمد ﷺ من قريش ، وقومه أحق به وأولى ، وأيم الله لايرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبدا ، فاتقوا الله ، ولاتخالفوهم ، ولاتنازعوهم » (تاريخ الطبرى ٣ / ٢٠٩) وبهذا أيضا احت. أبو بكر لحق المهاجرين يوم السقيفة (المصدر نفسه ٢٠٨ ـــ ٢٠٩) .

ونقول الأشعرى : « واحتج عليهم (يعنى أبا بكر) بقول النبى ﷺ : الإمامة فى قريش ، فأذعنوا لذلك منقادين » (مقالات الإسلامين ١ / ٢٤) . وروى أن على بن أبى طالب سأل عما حدث فى سقيفة بنى ساعدة ، قائلا : ماذا قالت قريش ؟ فقالوا : احتجت بأنها شجرة الرسول ﷺ فقال : احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة . (شرح نهج البلاغة ٢ / ١٧٠) يعنى بالثمرة أهل البيت .

(٢) راجع : ضحى الإسلام ٣ / ٢٦٠

والخلافة إرث عن النبى ﷺ لقريش (وهذا ما احتج به الأمويون وسائر القرشيين ، ومنهم المهاجرون يوم السقيفة) وعلى وفاطمة أحق قريش بميراث النبى ، ويترتب على هذا أن أبناءهما أحق قريش بالخلافة .

فإذا قال الأمويون : إن النبى لايورث ، كانت الخلافة حقا لكل عربى مهما كانت قبيلته ، وحينئذ ليس من حق الأميين قصرها عليهم .

هكذا نرى الكميت يؤلف من هذه القضايا الفقهية ، أقيسة عقلية ، راح يعتمد عليها فى استخلاص النتيجة الوحيدة ، التى تؤدى إليها ، وهى أن آل بيت النبى (على وأبناؤه) هم أصحاب الحق فى خلافة النبى ، وهذه نتيجة صريحة ، يلزم منها عقلا أن الأمويين مغتصبون لهذا الحق ، وهذا ماقصد إليه الكميت من هذا الشعر .

وهكذا كان الكميت يمضى فى جدله واحتجاجه ، مستعينا بالقرآن العظيم مرة ، وبالنظر الفقهى والعقلى مرة أخرى ، فى أسلوب من الشعر لانعرفه لشاعر قبله ؛ لأنه لايعبر ، فقط ، عن الشعور والعواطف ، وإنما يعبر عن الفكر أيضا ، فكان بذلك أول من فتح باب الجدل والتقرير والاحتجاج فى الشعر العربى .

حـ : إبراز الجوانب الدينية والإنسانية فى شخصية الأئمة (المدح السياسى):

كثيرا مايأخذ الشعر الشيعى مساراً آخر ، فى التعبير عن حب آل البيت ،والولاء لهم ، والدعوة إلى الالتفاف حولهم ، بجذب القلوب إليهم ، فيقدم لهم صوراً مثالية ، تجعل منهم مثلا عليا دينية وإنسانية ، فى صفاتهم الذاتية والأخلاقية ، وسلوكهم الدينى والإنسانى .

وعنصر الدعاية فى مثل هذا الشعر واضح ، لايغيب عن البصر المتأمل ، فليس من شك فى أن تقديم الأئمة فى صور دينية وإنسانية على هذا النحو من المثالية ، يحببهم إلى القلوب ، ويقربهم من النفوس ، فقد كان المسلمون فى هذا العصر قريبى عهد بعصر الروحانية الدينية ، والمثالية الأخلاقية ، عصر النبوة والراشدين ، ومازال فى القوم غير قليل من الصحابة ، وبينهم كثرة من كبار التابعين ، الذين أخذوا عنهم هذه الروحانية والمثالية ، وتمسكوا بها ، وأعلوا شأنها فى دروسهم ومجالسهم .

ثم إن منصب الخلافة ، يقتضى أن يكون خليفة المسلمين قدوة للرعية دينا وخلقا وسلوكا ؛ لأنه القائم على رعاية أمورهم الدينية والدنيوية ــ كامر [١] ــ وإبراز أئمة آل البيت فى سمت دينى وإنسانى ، يجعلهم معقد أمل المسلمين الحريصين على صلاح حال الدين ، واستقامة أمور المسلمين ، وهذا لايتحقق إلا إذا تولى أمر الإسلام أمثال هذه النماذج فى دينها وتقواها وعدلها ؛ فترعى الحق ، وتعلى القدوة .

من هذا المنطلق أخذ شعراء الشيعة يضفون على أئمتهم من الصفات مايجعل منهم الأمل ، الذى يتطلع إليه المسلمون للخلاص من حكم ملكى ، لايحرص كثيرا على الأسس الدينية والسياسية والإنسانية ، التى وضعها الإسلام لنظام الحكم فى الدولة الإسلامية .

ويختلف الشعر الشيعى فيما يقدم من هذه الصور ، من حيث شمول الصورة المقدمة لأئمة آل البيت بعامة ، أو اختصاصها بإمام منهم بعينه ، والمؤدى واحد على الحالين ، وهو تحقيق الغرض الذى ذكرنا .

فمن الشعراء الشيعيين من يجمع بين الأئمة جميعا ، ويقدم لهم صورة عامة ، لايخص منهم أحداً بعينه ، وكأنما يوحى بأن خطوط هذه الصورة وملامحها ، وظلالها ، محققة دائما فى كل إمام من أئمة آل البيت ، لافرق بينهم فيها .

من هؤلاء الشعراء أيمن بن خرُيم ، الذى يقول فى الهاشميين [٢] :

نَهارُكُمُ مُكابَدةٌ وصومٌ ... ولَيْلُكُمُ صلاةٌ واقْتِراءُ
وَلِيتُم بالقُرَانِ وبالتزكِّى ... فأسرعَ فيكُمُ ذاكَ البلاءُ
بكى نَجْدٌ غداةَ غدٍ عليكمْ ... ومكةُ والمدينةُ والجِوَاءُ
وحُقَّ لكلِّ أرضٍ فارقوها ... عليكم ــ لأأبالكم ــ البكاءُ
أأجْعلكمْ وأقواماً سواءً ... وبيْنكُمُ وبينهُمُ الهواءُ
وهمْ أرضٌ لأرجلكم وأنتم ... لأرؤسهم وأعينهم سَمَاءُ

---

(١) راجع مفهوم الخلافة فى الإسلام ص ٦٢ من هذه الدارسة .
(٢) الأغانى ٢١ / ٦ . الجواء : موضع بالصمّان من رمل عالج .

هكذا يرى الشاعر الهاشميين ، ويُريهم للناس ، حريصين على الطاعات ، ينفقون نهارهم وليلهم فى عبادة متصلة ، وتقرب دائم إلى الله ، يكابدون الصوم نهارا ، ويقطعون الليل سهارى ، بين صلاة وابتهال ، وترتيل لكلام ذى الجلال ، حتى غدوا ولاهم لهم إلا هذا النسك ، شغلوا به فشغلهم عن السعى لإدراك حقهم ،والتصدى لغاصبيه ، ومقاومة مايبتلونهم به من صنوف الظلم والقهر والاستبداد .

إنها لخسارة فادحة أن يتساقط الأئمة الهاشميون واحدا إثر واحد ، فتحرم الدنيا من هذه المصابيح المضيئة ، والمثل الورعة التقية ، وتضج أركان الأرض الطاهرة بالبكاء عليهم لحرمانها من فضلهم وعدلهم وهدايتهم .

ولايفوت الشاعر أن يوحى لكل ذى عقل واع ، وبصيرة مستنيرة ، أن يوازن بين من هذه صفاتهم ، وبين خصوم لهم ، هم أدنى منهم منزلة ومقاما — وهو بالقطع يقصد بنى أميه ، الذين تحدث عما ينزلونه بالأئمة من بلاء — وحينئذ سيدرك ماأدركه الشاعر من أن فرق مابينهم وبين هؤلاء ، هو فرق مابين السماء والأرض .

ويقدم الكميت بن زيد صورة أخرى لآل البيت الهاشميين بعامة ، ينزع فيها منزعا آخر ، فيقول (١) :

بَلْ هَوَاىَ الذَّى أُجِنُّ وأُبْدِى	لبنـى هاشِم فُروع الأنـام
لِلْقَريـبين منْ ندًى والبعيدِيـ	ـن من الجوْرِ فى عُرَى الأحكام
والمُصيبين بابَ ماأخطأ النَّا	سُ ومُـرْسِى قواعـدَ الإسلام
والغيوثُ الذين إنْ أَمْحَلَ النآ	سُ فمـأْوَى حواضن الأيتـام
رَاجحِى الوزن كامِلِى العدلِ فى السِّير	، طَبِّين بالأمـور العظـام
غالبِيِّين هاشميِّين فى العِلْـ	ـم رَبَوْا من عَطِيّة العـلّام
وهمُ الآخذون من ثقةِ الأمْـ	ـرِ بتقوْاهم عُرًى لاانفِصام ..

---

(١) الهاشميات ٢٢ . أمحل الناس : أصابهم الجدب . الحواضن : الأمهات . طبين: حاذقين . ربوا : زادوا ، يريد : خصوا بالعلم منحة من الله ؛ لأنهم أقرب الناس إلى النبى صاحب الوحى ، وفى هذا إشارة إلى عقيدة الشيعة فى علم الأئمة . راجع ص ٢٦ من هذه الراسة .

ألم نقل : إن الشعر الشيعى حرص على أن يضفى على الأئمة الكمالين : الدينى ، والإنسانى ؟! فإذا كان أيمن بن خريم قد قصد إلى إسباغ الكمال الأول عليهم ، فإن الكميت هنا ، يجمع لهم أطراف الكمال الثانى ، دون أن يحرم صورته من بعض اللمحات الدينية أيضا .

وهل تكون المثالية الإنسانية إلا جماعا لخصال : الكرم ، والعدل فى الفصل بين الناس ،والعلم ، والمرورة ، والبر بالضعيف ، ورجاحة العقل ، ونفاذ البصيرة والاستقامة فى القول والفعل ، والحذق والمهارة فى سياسة الأمور العظام ، وعلو الكعب فى الأصل والشرف ؟

فإذا حفت هذه الخصال بالتقوى الصادقة ، والغَيْرة على الدين ، والحرص على إرساء قواعده ، والثقة بالله ، وبحسن العقبى عنده ، حق للشاعر أن يجعل هوى قلبه فيهم ، سراً وعلانية ، وحق لكل من يراهم على هذه الصورة أن ينزع هواه إليهم ، ويربط أسبابه بأسبابهم ، وما إلى غير هذا قصد الشاعر بما قال .

وقد ينظر الشاعر الشيعى إلى إمام بعينه ، ويثبت له مايؤيد الصورة العامة عن أئمة آل البيت ، ممثلة فيه ، أو يركز أضواء شعره على إمامه ، فيبرزمن الصفات والدلائل مايعكس اعتقاده فيه .

ويغلب أن يستعين الشاعر فى مثل هذه الصورة بعناصر دينية عقدية ، يستمدها من عقائد المذهب الذى يدين به .

فالسيد الحميرى ـــ وهو شيعى على مذهب الكيسانية ـــ يرى إمامه محمد بن على (ابن الحنفية) مهدى هذه الأمة ، بهذا بشر البنى ﷺ ، حتى قبل أن يولد إمامه ، فقد أنهى النبى إلى أمين سره ، وخازن علمه علىّ بن أبى طالب (هكذا يعتقد الشيعة) بأن سيكون من ولده ، من يحمل اسمه وكنيته (أبو القاسم محمد) ، وأن من صفات هذا الولد رجاحة العقل ، والتبحر فى العلم ، وسلامة الطبع ، واستقامة الخلق ، فيكون المهدى من بعده ، يغيب عن الأنظار ، مختفيا من الأخطار ، يتخذ من جبل رضوى دار لغيبته المؤقتة ، حتى يظن الناس أنه مات ، ودفن بمكة .

يصوغ السيد الحميرى هذه الصورة شعرا ، فيقول [١] :

أَلَمْ يَبْلُغْكَ والأنباءُ تنْمِي ... مقالُ محمدٍ فيما يُؤدِى

إلى ذى علمه الهادى علىٍّ ... وخَوْلَةُ خادمٌ فى البيت تَرْدِى

أَلَمْ تَرَ أن خولة سَوف تأتى ... بِوَارِى الزَّنْد صافى الخَيْم نَجد

يفوزُ بكنيتى واسمى لأنى ... نَحلتُهما هو المهدى بعدِى

يغيَّب عنهم حتى يقولوا ... تضمَّنه بطيبة بطنُ لَحد

سنين وأشهراً ويُرى برضْوى ... بشعب بين أنمار وأُسْدَ

والطابع المذهبى هو الغالب فى شعر السيد الحميرى هذا ، فهو ينظم بعض عقائد الشيعةِ الكيسانية فى إمامهم محمد بن الحنفية .

ويتحدث كثير عزة ــ شاعر الكيسانية أيضا ــ عن إمامه ابن الحنفية ، ويرى أن إمامته ثابتة بالنص والوصية ، ولكنه لايسترسَل فى هذه المعانى المذهبية ، كما فَعل السيد الحميرى ، فسرعان مايلجأ إلى صبغ صورة أمامه ، بصبغة أخرى ، تعتمد على بعض الفضائل الدينية والإنسانية العامة ، فيقول : [٢]

وصيُّ النبى المصطفى وابن عمِّه ... وفكّاكُ أغْلال وقاضى مَغَارم

أَبَىَ فهو لايَشْرِى هُدىً بضلالة ... ولايَتَّقِى فى الله لَوْمَةَ لائم

فابن الحنفية انتهت إليه الإمامة عن طريق النص والوصية من النبى على أبيه علىّ ، ثم من علىّ على ابنه محمد ، ولذا فقد اجتمعت له من خصائل الأئمة صفات المروءة ، وإغاثة المكروب ، والعطف على الضعفاء ، والورع والتقوى ، والشجاعة فى الحق ، لايخشى فيه لومة لائم .

---

(١) الأغانى ٧ / ٥ . خولة : أم محمد بن على ، من بنى حنيفة . تردى : تضرب الأرض برجليها مسرعة فى العدو ، والمراد أنها كانت ماتزال فى بيت أهلها تروح وتغدو مسرعة فى العمل . الخيم : السجية والطبيعة . طيبة : اسم من أسماء مكة المكرمة (انظر : كتابنا: أمراء الشعر فى العصر الجاهلى ص ٥٤ هامش ٤) أنمار وأسد : نمور وأسود ، يقصد أنه يعيش بين هذه الوحوش بشعب رضوى .

(٢) ديوانه ٢٢٥ والكامل للمبرد (الأزهرية) ٣ / ١١٩ . وابن عمه : يعنى : ووصى ابن عمه علىّ بن أبى طالب . يشرى : المعنى هنا : يبيع ، على حد قوله تعالى : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله » أى يبيع . (سورة البقرة ٢ / ٢٠٧) .

وله من قصيدة أخرى ، يخلع فيها صفة المهدية على ابن الحنفية ، ويشير إلى أنه مذكور بها فى كتب الأولين منذ قديم الزمان ، يتحدث بها العلماء بهذه الكتب ، ثم يعبر عن حنو إمامه وعطفه على أتباعه ، ورعايته لهم ، وسؤاله عنهم وعن أحوالهم تكرماً وفضلا ، وإن الشاعر بحب إمامه له ، وعطفه عليه لسعيد ، قرير العين [1] :

هُوَ المهـديُّ خَبَّرنـــاه كعبٌ   أخو الأَحْبَارِ فى الحُقب الخوَالى
أَقَـرَّ اللهُ عينـى إذْ دعـــانى   أمينُ اللهِ يَلْطُـف فى السؤال
وأَثْنَـــى فى هَوَاىَ علىّ خيراً   وساءَلَ عن بَنِىَّ وكيفَ حالى

فإمام كثير هو المهدى ، الذى يرجع ليملأ الأرض عدلًا بعد أن ملئت جوراً ، وهو أمين الله على ولاية أمر عباده .

على هذا النحو مضى الشعر الشيعى يمجد الأئمة ، ويشيد بخصالهم ، ويخلع عليهم من الفضائل الذاتية ، والأخلاقية والدينية ، مايعقد القلوب على محبتهم ، والنفوس على هواهم .

ح : إظهار الحزن والتفجع على الشهداء من الأئمة (الرثاء السياسى) :

سبق أن تحدثنا عما تعرض له آل البيت من قهر واضطهاد على يد خصومهم بعامة ، ومافرض عليهم من صراع مع هؤلاء الخصوم ، دفعا للظلم عنهم ، أو سعيا وراء استرداد حقوقهم ، أو غيرة على الدين ، وثورة على العابثين بقواعده وقيمه ، والمحرفين لكتابه ، وسنة نبية .

وكان الأمويون ــ كما قدمنا ــ أشد هؤلاء الخصوم عنفا فى البطش بزعماء آل البيت وأنصارهم ، وإمعانا فى قسوة التنكيل بمن تحدثه نفسه منهم بالخروج على سلطانهم ، أو محاولة زعزعة أركان دولتهم .

---

(١) ديوانه ٢٣٢ ومروج الذهب للمسعودى (البهية) ٢ / ١٠١ . كعب أخو الأحبار : يقصد كعب الأحبار ، وهو أبو إسحاق كعب بن ماتع الحميرى ، والأحبار لقب وصف به ، كان من علماء اليهود باليمن فى الجاهلية ، ثم قدم المدينة فى خلافة عمر بن الخطاب ــ وقيل : فى خلافة أبى بكر ــ وأعلن إسلامه ، ثم نزح إلى الشام ، وتوفى بحمص سنة ٣٢ هـ وقيل ٣٤ هـ ، وعنه رويت إسرائيليات كثيرة فى كتب الأخبار والتفاسير ، وصنوه فى العلم بكتب الأولين وأخبار الأمم ، وقصصهم ، أبو عبد الله وهب بن منبه الصنعانى المتوفى سنة ١١٤ هـ . انظر فى ترجمة كعب الأحبار وأخباره : الإصابة ، / ٥٤٧ ، وحلية الأولياء ٥ / ٣٦٤ وطبقات ابن سعد ٧ / ١٥٦ والعبر للذهبى ١ / ٣٥ والكامل لابن الأثير ٣ / ٥٩ (الأميرية) .

وقد أدى هذا الصراع العنيف بين الشيعة وخصومهم إلى سقوط بعض أئمة آل البيت وزعمائهم صرعى الغدر حينا ، وسيوف الأعداء الباطشة أحيانا .

وقد نهض الشعر الشيعى برسالته نحو الوفاء للأئمة الشهداء ، الذى سقطوا ضحايا الظلم والبغى والعدوان ، فعبر فى العديد من نماذجه عن عواطف الشيعة الحزينة الملتاعة ، فى رثاء حار ، ينضح بالتفجع ، والنقمة على المعتدين الآثمين .

وصور رثاء الأئمة فى شعر الشيعة منوعة المعانى ، متعددة الاتجاهات والمرامى ، مما يضفى على هذا الفن من شعرهم طابع الحيوية ، ويكسبه الحرارة وقوة التأثير .

ويمكن رد الرثاء فى شعر الشيعة السياسى إلى ثلاثة ألوان عامة :

١ــ رثاء صابر محتسب ، تمتزج فيه عواطف الحزن على الأئمة الراحلين ، والنقمة والسخط على الطغاة الذين عدوا عليهم ، واجترءوا على الفتك بهم .

٢ــ رثاء ثائر غاضب ، يعكس معانى المرارة والحزن ، والتقريع واللوم ، لتقصير المسلمين فى حماية الأئمة والدفاع عنهم .

٣ــ رثاء يمزج بين معانى الحزن والسخط ، والتهديد جميعا .

وبالطبع ينبغى أن لانتصور أن هذا التقسيم يبلغ من الحدة والدقة ، بحيث تتمايز هذه الألوان تمايزا تاما ، وتبرأ كل البراءة من التداخل بين معانيها ، فما إلى هذا قصدنا ، ولاتعطينا النماذج التى سنسوقها حق ادعائه .

غاية الأمر أننا لاحظنا غلبة كل صبغة منها على طائفة من أشعار الشيعة فى هذا المجال .

ويمكن أن نعد من الاتجاه الأول قول أبى زُبيْد الطائى [١] يرثى علىّ بن أبى طالب [٢] :

---

(١) المنذر بن حرملة الطائى ، شاعر معمرّ ، عاش ــ فيما يقال ــ مائة وخمسين سنة ، وأدرك سلام ، ولكنه مات نصرانيا ، واشتهر بتعلقه بالخمر ، ونادم عليها الوليد بن عقبة والى الكوفة من قبل عثمان بن عفان ، وكان أبو زبيد يعيش بين أخواله من بنى تغلب . انظر : الأغانى ١١ / ٢٣ والشعر والشعراء ١٠١ ــ ١٠٣

(٢) الكامل للمبرد (الأزهرية) ٣ / ١١٨ . خاره : اختاده . أضغان الرجال : أسرار قلوبهم . الحبر : العالم . تنصلها : استخرجها ، يعنى روحه . حمت : حان أجله ، وقدرت وفاته .

إنَّ الكِرامَ عَلَى ماكان من خلُقٍ　　رَهْط امرىءٍ خَارَهُ للدِّين مُختار
طَبٌّ بصيرٍ بأضْغَانِ الرّجال ولم　　يُعْدَل بِحَبْرِ رسول الله أحبْارُ
وقَطرة قَطرتْ إذحان موعدها　　وكـلُّ شيءٍ له وقتٌ ومقـدارُ
حتى تنصَّلَها فى مسجدٍ طُهُر　　على إمام هُدىً إذ معشرٌ جاروا
حُمَّتْ ليدخل جناتٍ أبو حسنٍ　　وأُوجبتْ بعده للقاتـل النـارُ

فهذا رثاء صابر محتسب ، فيه التسليم بقضاء الله فى مقتل علىٍّ ، وفيه يبكى الشاعر الخصال التى حرص شعراء الشيعة على إثباتها لأئمتهم ، من كرم الخلق ، والحذق والمهارة والبصر بسياسة الرجال ، وتدبير الأمور ، وغزارة العلم ، والهداية والعدل ، وشرف الأرومة ، وأنه الإمام الذى اصطفاه الرسول ﷺ ليقود الأمة ، ويرعى الدين من بعده ، وفيه مع هذا النقمة والسخط على أعداء الإمام ، حيث يرميهم الشاعر بالظلم ؛ لتعديهم بمقتله ، ويتوعد القاتل ومحرضيه بانتقام الله وعذابه الأليم فى نار جهنم .

والكميت أيضا يرثى الإمام علياً ـــ رحمه الله ـــ فيتفجع ويتوجع ، ولكنه يعنى فى هذا الرثاء بإبراز مدى خسارة الإسلام ، والمسلمين بفقده .

إن الذين تآمروا به ، قتلوا بقتله أمل الأمة فى إقامة العدل ، والتمكين له بين الرعية ، وهل يستقيم أمر المسلمين بغير حاكم عادل ، يعرف كيف يقضى بينهم ، ويسوس أمورهم ، ويرعاهم ، بنفاذ بصيرته ، وحسن عفوه ، ورجاحة عقله ؟

ولاينسى الكميت أن يرثى برثائه الشجاعة ، والطهر ، ونبع الخير ، وأن يندد بأعدائه ، الذين أعانوا على قتله ، بتدبير مؤامرة اغتياله ، فيرميهم بالجرأة على الدين ، لأن فى قتل الإمام علىّ هدم لعرش الأمة الإسلامية ، ويصمهم بالظلم لفتكهم بالراعى العادل ، الذى تهلك بهلاكه الرعية .

يقول الكميت [١] :

---

(١) المصدر السابق . التجوبى : نسبة إلى تجوب ، قبيلة من حمير ، إليها ينسب ابن ملجم ، قاتل الإمام على . المعلم : الذى يضع على رأسه علامة فى الحرب ، إعرابا عن شجاعته وإقدامه . العجاج : الغبار المتكاثف المثار ، وهو هنا كناية عن المعارك . الكهام: الذى لاخير فيه ، وأصل الكهام : السحاب الأحمر الذى لامطر فيه .
مسجحا : حسن العفو . المُسيم : الراعى الذى يسوم الماشية . السوام : الإبل السائمة : أى التى أطلقت لترعى ، استعار الشاعر المسيم والسوام للحاكم والرعية .

والوَصىّ الذى أمال التجوُ بىُّ به عرشَ أمةٍ لا نْهدام
قتلوًا يوم ذاك إذ قتلوه حَكَماً لاكغابر الحكّام
الإمامَ الزكىَّ والفارسَ المُعْـ ـلَمَ تحت العَجاجَ غيرَ الكَهَامِ
راعياً كان مُسْجِحاً ففقدنا هُ وفقدُ المُسِيمِ هُلكُ السَّوامِ

أما أبو الأسود الدؤلى فيلحظ ماكان فى مقتل الإمام على من تآمر سياسى ، لايبرىء الأمويين منه ، وهو على يقين من أنهم فرحون شامتون ، فقد خلا لهم الميدان بمقتل الرجل الذى لاكفء له بينهم ، جهادا ، وشجاعة ، وحسبا ،وتقوى ، وتدينا ؛ ولذا فهو يوجه رسالة شعرية إلى معاوية والأمويين ، داعيا الله أن يحرمهم مما يؤملون من وراء تدبيرهم المجرم ، جزاء استهتارهم بالدين وحرماته ، وعدم مبالاتهم بإراقة الدماء فى شهر الصيام ، ودم من ؟ دم خير الناس طُرًّا أجمعين : [1]

أَلَا أبْلغْ معاوية بن حرْبٍ فلا قَرَّتْ عيونُ الشَّامتينا
أفى شهر الصِّيام فجعتُمونا بخير النّاس طُراًّ أَجْمعينا؟!
قَتلتُم خيرَ مَنْ ركِب المطايا وذَلَّلها ، ومَنْ ركب السفينا
ومن لبس النِّعالَ ومن حذاها ومن قرأ المَثانى والمُبِينا
لقدْ علمتْ قريشٌ حيث كانتْ بأنكَ خَيْرهم حَسَباً ودِينا

هذه النماذج ــ وأمثالها من الرثاء الشيعى ــ يجمعها طابع الاحتساب والصبر ، وتعديد مناقب المرثى ، لإثارة عواطف الحسرة لفقده ، والحزن واللوعة لحرمان الإسلام والمسلمين من هذه المناقب ، كما أنها لاتخلو من الإشارة إلى المعتدين ، والتنديد بهم ، أما أبو زبيد فيرميهم بالجور ، ويتوعدهم بعقاب الله الشديد ، وأما الكميت وأبو الأسود ، فيدمغانهم بالجرأة على الدين ، والاستهتار بحرماته .

وكثيرا مايتجاوز الشعر الشيعى فى الرثاء ، هذا الطابع الذى يميل إلى التعبير عن الحزن الصابر ، الهادىء ــ إلى حدما ــ والسخط المستنكر ، والمكتفى ــ غالبا ــ بمجرد إظهار الاستنكار ، يتجاوز هذا المستوى ، إلى رثاء معبر عن الغضب الهادر ، والثورة النفسية العارمة ، حتى ليكاد يقتصر فى معانيه على مايؤدى هذين الانفعالين ،

---

(١) مروج الذهب ٢ / ٤٢٨ (السعادة) .

وقلما يعرج على الحديث عن مناقب المرثى .

وأكثر رثاء الشيعة للحسين بن على يسلك هذا النهج ، المعبر عن الغضب الثائر العنيف ، فلقد كان مقتل الحسين ـــ على الصورة التى رأيناها آنفا ـــ جريمة بشعة ، زلزلت مشاعر المسلمين ، وجرحت عواطف الحب والوفاء لرسول الله ﷺ فى أبنائه لدى الأمة ،مما جعل موجة الغضب والحنق على بنى أمية تعم وتطم ، نقمَة على هؤلاء السفاحين ، قتلة ابن النبى .

فحين ردّ يزيد بن معاوية النساء والأطفال من آل البيت ، اللائى كن فى صحبة الحسين ، ردهن بعد مقتله من الشام إلى المدينة ، خرجت عَقِيلة [(١)] بنت عَقِيل بن أبى طالب فى نساء من بنى هاشم حواسر ، وهى تقول :[(٢)]

مَاذا تقولون إنْ قال النبيُّ لكم ... ماذا فعلتُم وأنتم آخرُ الأُمم
بعتْرتى وبأهْلى بعد مُفْتَقدى ... منهم أسَارَى وصَرْعَى ضُرِّجُوا بدَمِ
مَاكان هذا جزائى إذْ نصحتُ لكم ... أنْ تخلفونى بسوءٍ فى بنى رَحمى

قالوا : فما سمعها أحد إلا بكى .

فهذا تفجع أليم ، يهز القلوب ، ويفجر الدموع ، تسوقه الشاعرة من خلال أسلوب يفيض باللوم العنيف ، والتقريع الشديد ، والغضب البالغ ، والثورة النفسية العارمة ، وهى تتجه بهذا كله ، لا إلى بنى أمية وأعوانهم القتلة فحسب ، بل إلى أمة الإسلام بأسرها ؛ لقعود المسلمين عن نصرة الحسين وحمايته ، وسلبيتهم إزاء هذه الجريمة النكراء .

وكأن الشاعرة بهذا تستثير عواطف المسلمين ، وتوقظ ضمائرهم ، ليثوروا على هؤلاء السفاحين ، الذين أساءوا إلى النبى ﷺ فى أبنائه ، وجازوْا إحسانه إلى الأمة أسوأ الجزاء .

---

(١) كذا اسمها فى الموشح ١٦٠ ، واقتصرت مصادر شعرها الآتى على (ابنة عقيل) .

(٢) الموشح ١٦٠ وتاريخ الطبرى ٢ / ٢٦٨ وعيون الأخبار ١ / ٢١٢ والمختصر لأبى الفدا ١ / ١٩١ والكامل لابن الأثير ٤ / ٨٩ (بيروت) ـــ عترة الرجل : أبناؤه وعشيرته الأدنون.

وهذا شاعر تدفعه نفسه الثائرة ، إلى أن يستمطر اللعنات على قتلة الحسين من أهل السماء والأرض جميعا ، من ملائكة وأنبياء ، وكل قبيل من الناس ، ويسجل عليهم اللعنة والحرمان من رضوان الله ، فى كل الكتب المقدمة السابقة ، فى زبور داود ، وتوارة موسى وإنجيل عيسى ، كما تدفعه مرارة الإحساس بجريمة مقتل الحسين ، إلى أن يتهكم ويسخر ، فيبشرهم بغضب الله ، المفضى إلى العذاب الشديد ، والتنكيل المروِّع [١] :

أيُّها القاتلون جَهْلاً حُسَيْناً   أبشروا بالعذاب والتنكيل
كلُّ أهل السماءِ يَدْعو عليكم   من نَبِىٍّ ومَلك وقَبيل
قد لعنتم على لسان داو   د وموسى وحامل الإنجيل

وأغلب الظن أن هذه المعانى إنما كان يراد بها ــ فيما يراد ــ استثارة النفوس ، وتهييج العواطف ، ضد أعداء آل البيت ، الذين سولت لهم نفوسهم ارتكاب هذا الجرم البشع فى حق أبناء النبى .

ويظهر القصد إلى هذه الاستثارة ، فى قول شاعر آخر ، يصور مقتل الحسين وفجيعة آل البيت به : [٢]

ابْكِ حُسيناً ليوم مَصرعه   بالطَّفِّ بين الكتائب الخُرْس
أضحتْ بنات النبىِّ إذْ قُتِلُوا   فى مأتم والسِّباعُ فى عُرْس

فاختيار هذا الشاعر للكلمات : الكتائب الخرس ــ بنات النبى ، مأتم ، عرس ، يدل على القصد الذى ذكرنا .

وفى قول سليمان بن قَتَّة [٣] ، يرثى الحسين أيضا : [٤] :

---

(١) تاريخ الطبرى ٦ / ٢٦٩ ، والكامل لابن الأثير ٤ / ٩٠ (بيروت) وفيهما « سمع بعض أهل المدينة ليلة قُتل الحسين مناديا ينادى » .

(٢) عيون الأخبار ١ / ٢١٢ . الطف : ماء قرب كربلاء . الخرس هنا : جمع خرساء ، والكتيبة الخرساء : الصامتة من كثرة الدروع ،وقيل : هى التى لايسمع لها صوت من وقارهم فى (الحرب انظر : اللسان : خرس)

(٣) شاعر قرشى من بنى تيم بن مرة بن كعب بن لؤى ، كان منقطعا لبنى هاشم . انظر : الكامل للمبرد ١ / ١٣١ (الاستقامة) .

(٤) الكامل للمبرد ١ / ١٣١ ، ومروج الذهب ٢ / ٩٢ (البهية)،وتنسب الأبيات إلى أبى دهبل الجمحى فى معجم البلدان ٦ / ٥٢ ، وانظر : الكامل لابن الأثير ٤ / ٣٧ (الأميرية) ، وفى مقالات الإسلاميين ١ / ١٤٢ تنسب الى ابى رمح الخزاعى .

مررتُ على أبيـــاتِ آل محمـــدٍ فلم أَرهـــا أمثالَهـــا يومَ حُلَّتِ
فلا يبعدِ اللهُ الديَـــارَ وأهلَهـــا وإنْ أصبحتْ من أهلها قد تخلَّت
ألمْ تر أن الأرضَ أضحتْ مريضةً بقتـل حسيْـن والبـلادُ اقْشعـرَّتِ
وإن قتيلَ الطَّـفِّ من آل هاشمٍ أَذلَّ رقـــابَ المسلـــمين فذلَّت
وكانـوا رجـاءً ثم أضحـــوا رَزيّـــة لقد عظمتْ تلك الرزايا وجـلَّت

فانظر إلى هذه العبارات المهيجة : « الأرض مريضة » ، « البلاد اقشعرت » ، « أذل رقاب المسلمين » « كانوا رجاء ثم أضحوا رزية » ؟!

إن الشاعر بها وبغيرها مما تركنا ، يحاول إثارة مشاعر المسلمين ، حزنا على ماأصاب أهل البيت بمقتل الحسين.

فقد عم الحزن ديارهم ، ولبس المسلمون ثوب المذلة والعار ؛ لتخاذلهم عن نصرة الحسين ، وسكوتهم على جريمة قتله ، وهكذا تفقد الأمة هداتها وأئمتها ، واحدابعد واحد ، فتعم المصائب بفقدهم ، ويضيع الأمل الذى كان معقودا عليهم ، للخلاص من سيطرة الأمويين واستبدادهم .

أما الرثاء الشيعى ، الذى يمزج بين الحزن والسخط والثورة ، والتهديد ، فمثله قول الشاعر الهاشمى الفضل بن العباس [١] ، يرثى زيد بن على بن الحسين ـــ إمام الزيدية [٢] :

أَلَا ياعينُ لا تَرْقَـــىْ وجُـــودى بدمْعك ليس ذا حين الجُمـود
غداة ابـنُ النبىِّ أبـو حُسيْـــنٍ صَلـــيبٌ بالكُنـــاسة فوق عُود
يظـلُّ على عَمُودهُـــم ويُـــمسْى بنـــفسى أَعْظُـــمٌ فوقَ العمُـــود
تعـــدَّى الكافـــرُ الجبـــاَّرُ فيـــه فأخرجـــه من القبـــرْ اللَّحيـــد

(١) هو : ابو المطلب ، أو : أبو عتبة الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب ، وأبو لهب ، هو : عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم ، شيخ بنى هاشم وفصيحهم وشاعرهم فى وقته ، وأمه هاشمية أيضا ، فهى : آمنة بنت العباس ابن عبد المطلب توفى سنة ١٧٣ هـ تقريبا ، وفى سلسلة نسبه خلاف . انظر: سمط اللآلى ٢ / ٧٠٠ والموشح ٢٣ ومقاتل الطالبيين ١٤٩ والأغانى ١٥ / ٢ والتذكرة السعدية ٣٤٨ ورسائل الجاحظ ١ / ٢٠٨ وخزانة الأدب ١ / ٤٦٥

(٢) مقاتل الطالبيين ١٤٩ . الكافر الجبار : يعنى هشام بن عبد الملك الأموى . الدم الجسيد : الطرى الذى لم يجف بعد . لاترق : لاينقطع دمعك . اللحيد : الملحود : أى المحفور . حلق الحديد : الدروع . الكناسة : موضع بالكوفة ،تقام فيه السوق .

فظلوّا يَنْبِشُون أبـــا حُسْينٍ   وماقَدَرُوا على الرّوح الصَّعيـد

إلى أن يقول متوعداً بنى أمية ، ومن يواليهم من قبائل العرب :

وكيف تَضِنُّ بالعَبَرات عينـى   وتطمعُ بعد زَيْدٍ فى الهُجـود
وكيفَ لها الرُّقـادُ ولـمْ تَرَاءَى   جِيادُ الخيـل تعـدو بالأسود
تجمِّـع للقبائـــل من مَعَـــدٍّ   ومنْ قَحْطَانَ فى حَلَق الحديد
كتـائب كلمـا أُرْدَتْ قتيـلاً   تنادتْ : أنْ إلى الأعداء عِودى
نجازيكـــم بما أُوْلَيْتُمونـــا   قصاصاً أو نَزِيدُ على المزِيـد
ونترككمُ بأرض الشَّام صَرْعَى   وشتَّـى من قتيـلٍ أو طَرِيــد

فهذا رثاء باك حار ملتاع حزين لفقد هذا الإمام الهاشمى ، وهو غاضب ثائر أيضا ، ينحل القتلة صفات الكفر ، والفجور فى الاعتداء ، والاستهتار بدماء أبناء النبى ، والتمثيل المهين بأجسادهم الطاهرة ، وكل هذا مما ينفر المسلمين ، ويستثير حفائظهم على بنى أميه ، وهذا هو الوجه السياسى لهذا الرثاء وأمثاله .

كما أن روح التهديد والوعيد فى هذا الشعر أوضح من أن تحتاج إلى أن ندل عليها ، وأكثر من أن نحاول تعديدها .

حقا إن الفضل ليجعل من هذه المرثية قصة حزينة دامية ، تروى مأساة هذا الإمام ، الذى قتله بنو أمية ، ونكلوا بجثمانه أبشع تنكيل ، وهو يرويها بدموعه ، وزفرات قلبه ، التى تتصاعد ناراً محرقة ، تتوعد الأمويين وأنصارهم .

ويحض يحيى بن زيد بنى هاشم صراحة على النهوض بثأر أبيه ، ويستثير كوامن النخوة والعزة والإباء فيهم ، ليطلبوا بنى أمية بهذا الثأر [١] :

خَليلىَّ عَنـىِّ بالمَدينـة بَلِّغـاَ   بنى هاشم أهلَ النُهىَ والتجارِبِ
فحتىّ متى مرْوان يقتل منكمُ   خياركمُ والدهر جَمُّ العجائب

(١) مقالات الإسلاميين ١ / ١٣١ . مروان : يعنى بنى مروان . التحارب : الاشتباك فى الحرب ، وفى البيت الأخير إقواء .

وحتى متى ترضَوْن بالخَسْفِ منهمُ ... وكنتم أُباةَ الخَسف عند التَّجارب

لكـلِّ قتيـلٍ معشرٌ يطلبونــه ... ولـيس لزيْـدٍ بالعراقيـنْ طالب

والحق أن هذا الضرب من الشعر الشيعى تتجلى فيه العاطفة الحزينة الصادقة ، والسخط الشديد والمرارة ؛ ولذا كثيرا ماأثارت أشعار الشيعة فى رثاء أئمتهم نفوس المسلمين ومشاعرهم ضد بنى أمية .

د: التصدى لخصوم الشيعة (الهجاء السياسى) :

كما وقف شعراء الشيعة إلى جانب أئمة المذهب معبرين عن عواطف الحب والولاء والوفاء لهم ، أو مؤيدين حقهم ، مظهرين حجتهم ، هبوا كذلك للوقوف فى وجه خصومهم ، وأعداء مذهبهم ، وغاصبى ولايتهم ، ينقضون دعاواهم ، ويكشفون عن باطل زعمهم ، ويظهرون للمسلمين حقائق نواياهم ، وفساد سياستهم ، ويخلعون عليهم فى أثناء ذلك من الصفات مايصرف القلوب عنهم ، وينفرها منهم .

نعم استخدم شعراء الشيعة كلمتهم المنغومة سلاحا قويا ضد أعداء الشيعة والتشيع من أمويين وزبيريين وخوارج ، أما الأمويون ، فلأنهم عدوْا على حق آل البيت ، واضطهدوهم ، دون مبالاة بحرمة انتسابهم للرسول ﷺ ، وأما الزبيريون فلمنا هضتهم الشيعة ، وادعاء زعميهم حق الأئمة من آل البيت لنفسه ، وأما الخوارج فلعدم اعترافهم بتقديم الأئمة وفضلهم ، ثم لأنهم بغاة خارجون ، تنكروا لبيعة إمام الشيعة الأول علىّ بن أبى طالب ، وخرجوا عليه وقاتلوه .

وقصد شعراء الشيعة إلى تحقيق الغايات التى أشرنا إليها ، بشعرهم فى هجاء الخصوم ، وهو الذى يعطى هذا الشعر طابعه السياسى ؛ إذ كانت الغاية المرجوة من كل ذلك ، صرف القلوب والأهواء عن أعداء الشيعة ، وتوجيهها إلى الأئمة ، وكسب الأنصار لهم ولحقهم ولمذهبهم .

وقد يكشف شعراء الشيعة عن هذه الغاية السياسية فى شعرهم ، بجمعهم بين صورتين متقابلتين ، إحداهما بإبراز المثالية التى رأينا هؤلاء الشعراء يحرصون على إضفائها على أئمتهم ، بوجهيها الدينى والإنسانى ، والأخرى تجرد أعدائهم من كل مزية فى الدين أو الخلق أو السياسة ، وعلى القارىء والسامع أن يستخلص محصلة هذه المقارنة ، وهى لن تكون فى عين الإنصاف إلا كسبا لأولئك ، وخسراناً لهؤلاء .

حقيقة أخرى نرى أن نعجل بها هنا ، قبل أن نأخذ فى دراسة نماذج من الهجاء السياسى فى شعر الشيعة ، مؤداها أن بنى أمية قد خُصوا بأوفى نصيب من هذا الشعر ، على الرغم من تمعتهم بالسلطة الباطشة ، التى تقذف الرعب فى قلوب الشعراء إذا اجترءوا على مناهضتهم ، ومن سياستهم فى إغراء الشعراء بالعطايا والهبات وصنوف المغريات ، وإن لم يكونوا على رأيهم ، أو من المواكبين لهم .

ويمكن تعليل هذا بأمرين : أولهما : صدق الاعتقاد ، وإخلاص النية ، عند شعراء الشيعة ، وتجردهم من كل مطمع دنيوى ، واعتقادهم الراسخ أنهم بما يقولون فى نصرة أئمتهم ومذهبهم ، إنما ينتصرون للحق ، ويتقربون إلى الرب ، والآخر : أن الأمويين كانوا أكثر عداء للشيعة وظلما لهم ، وتنكيلا بحركاتهم الثورية ، ومناهضة لمذهبهم وأئمتهم ؛ ولذا حفل الشعر الشيعى بهجائهم ، والطعن عليهم ، والنيل منهم .

فالأمويون ملوك لايتمتعون بتوافر الشرائط التى يجب أن تجتمع لمن يخلف الرسول ﷺ فى ولاية الأمة ، ومع ذلك فهم ملوك سوء ، وملوك السوء إن طالت أيام حكمهم ، كانت نكبة وبلاء على رعاياهم ،فيتمنون الخلاص منهم ، ومن عناء حكمهم ، وشذوذ سياستهم .

والأمويون ، تبعا لهذا ــ لايحكمون الرعية المسلمة وفق ماأمر به الله ورسوله ، فقد عدلوا عن هدى كتاب الله وسنة نبيه ،وجاروا على حقوق المسلمين ، وانحرفوا عن جادة الدين ؛ ولذا فهم أهل أهواء وبدع وضلال ، يحلون ماحرّم الله ، ويحرمون ماأحل الله ، يحلون قتل المسلم ، ويحرمون أكل التمرة المتهدلة .

بهذه المعانى هجا الكميت بن زيد بنى أمية ، فى قوله [١] :

---

(١) الهاشميات ٦٩ ــ ٧٠

فتلكَ ملوكُ السُّوءِ قد طالَ ملكُهم   فحتَّامَ حتَّام العناءُ المطـوَّل
رَضَوْا بِفعَال السّوء منْ أمْر دينهم   فقد أيْتموا طوْراً عداءً وأثكلوا
لهم كلَّ عامٍ بدْعةٌ يُحدثونها   أزَلُّوا بها أتباعهم ثم أوْحلوا
كما ابْتدع الرَّهْبانُ مالم يجىءْ به   كتابٌ ولا وحىٌ من الله مُنْزَلُ
تحِلُّ دماءُ المسلمين لَدَيْهِمُ   ويَحْرُم طَلْعُ النّخلْةِ المُتَدلِّل
فياربِّ هل إلا بك النصرْ يُرتَجَى   عليهم وهلْ إلّا عليك المعوَّلُ

وحملة الكميت هذه على الأمويين ، بسلب كثير من الصفات الدينية ، التى يجب أن يتحلى بها كل مسلم ، فضلا عن حكام المسلمين ، إنما هى فى حقيقتها دعوة للثورة عليهم ؛ لأنهم خارجون على الدين ، محرفون لتعاليمه ؛ ولذا كان هذا الهجاء سياسيا بالمقام الأول .

ويتضح هذا الاتجاه السياسى فى الهجاء الشيعى ، من هذه المقارنة التى يمزج فيها الكميت بين مدحه لأهل البيت ، وسخطه على بنى أمية ، ويقارن بين سياسة هؤلاء وأولئك فى الرعية ، وسلوكها فى النظر إلى مصالح المسلمين ، مقارنة يروم من ورائها غرضا سياسيا ، هو تهييج جمهور الناس للثورة على الأمويين ، وتقويض دولتهم ، دولة الظلمة المثقلين بالآثام ، يقول الكميت [١] :

بل هَوايَ الذى أُجنّ وأُبدِى   لبنـى هاشم فُروع الأنـام
للقريبين من نَدًى والبعيديـ   ـن من الجوْر فى عُرَى الأحكام
راجحى الوزن كاملى العدْل فى السِّـ   ـيرة طبِّيـنَ بالأمـور العظـام
ساسةٌ لاكَمنْ يرى رعيّة النا   سِ سواءً ورعيَّـة الأنعـام
لاكعبْد المَليك أو كَوليدٍ   أو سليْمانَ بعدُ أو كهشَام
رأْيُه فيهم كرأْى ذوى الثُّلَّةِ   فى الثائجات جُنْح الظَّلام

---

(١) المصدر السابق ٢٣ ــ ٢٧ . طبين : حاذقين ماهرين . الثلة هنا : جماعة الغنم . الثائجات : جمع ثائجة ، وهى الصائحة من الضأن . جنح الظلام : وقت الظلام . ذو الخة : السمين : نعقا : أى ينعق نعقا ، والمعنى : يصيح بها . الدعدعة : دعاء الغنم . البهام : أولاد الضأن والمعز : الزوامل : جمع زاملة ، وهى الناقة التى يحمل عليها المتاع .

جَزٌّ ذى الصُّوفِ وانتقاءٌ لذى الـ ـمُخَّة نعْقًا ودعْدعًا بالبَهام
وهم الأوفوْن بالناس فى الرأ فَةِ والأحْلمون فى الأحلام
أخذوا القصْدَ واستقاموا عليه حين مالتْ زَوَامِلُ الآثام

هذه مقارنة صريحة ، يقرر فيها الكميت عدل أئمة الشيعة ، بنفى الجور والظلم عنهم ، بينما يصم بنى أمية بأنهم جائرون ظالمون ، يسوسون الرعية سياسة غاشمة ، تقوم على استخلاص كل مايملكون ويدخرون ، وكأن الرعية غنم لهم ، يجزون صوفها ، ويشربون ألبانها ، ويأكلون لحومها ، وفى الوقت نفسه لايرحمون ، حتى صغارها من قهرهم ، وزجرهم ، فهم الظلمة الغاشمون ، أما بنو هاشم فهم يبتغون الرحمة والعدل بين الناس ، وقد استقاموا على جادة الدين ، بينما حاد عنه بنو أمية ، وهم مثقلون بالخطايا والآثام .

ولاتختلف نظرة الشيعة إلى الخوارج كثيرا عن رأيهم فى بنى أمية ، غير أن الخوارج لم يثبوا على الخلافة ، ولم يغتصبوا حق أئمة الشيعة فى الولاية لأنفسهم ، كما فعل الأمويون ، ولم يبطشوا بالشيعة وأئمتهم بطش الأمويين ، ولكنهم بموقفهم المناهض لآل البيت ، الخارج على طاعتهم ، ورأيهم المصمم على أن عليا وذريته وأتباعهم كفار يحل قتالهم وقتلهم ، استحقوا أن يبادلهم الشيعة عداء بعداء ، وأن يرى الشيعة فيهم ، مايرونه هم فى الشيعة .

وترجم شعراء الشيعة هذه النظرة إلى الخوارج فى العديد من صور الهجاء ، التى تجردهم من شرف الانتماء إلى ملة الإسلام ، وتقدمهم إلى الناس بوصفهم طائفة مارقة ، أعماها ضلالها عن رؤية الحق ، واتباع سبيله ، طاغية باغية ، لاترعى لدين الله حرمة ، وليس بينها وبينه عهد ولاذمة .. إلى غير ذلك مما أغدقه شعر الشيعة على الخوارج إغداقا ، وأضافوهم به إلى أعدائهم الأمويين ، فكلهم سواء فى المروق من دين الله ، والعبث بحدوده .

فهذا عدى بن حاتم الطائى [١] ــ صاحب الإمام على وأحد من أخلصوا فى التشيع له ــ يتقدم ليقف بين يدى إمامه ، يوم أن خرج من الكوفة لقتال الخوارج بالنهروان واصفا هذه الطائفة [٢] بالطغيان ، والعمى عن الحق ، والمروق من الدين ، والعداء لله ورسوله وآل بيت نبيه ، قائلا :

---

(١) قتله معاوية بن أبى سفيان سنة ٥٣ هـ وهو أول من قتل صبرا فى الإسلام .
(٢) الفرق بين الفرق ٥٨ . كاع القوم : جبنوا ، ورجل كائع : جبان (اللسان ــ كيع) .

نسير إذا ماكاعَ قومٌ وبلَّدوا برايات صدقٍ كالنسُّور الخوافق
إلى شرِّ قومٍ من شُراةٍ تحزَّبوا وعادُوا إله النَّاس ربِّ المشارق
طغاةٍ عماةٍ مارقين عن الهُدَى وكلٌّ ينفى قولَهُ غير صادق
وفينا عليٌّ ذو المعالى يقودنا إليهم جِهاراً بالسّيوف البوارق

ولما كان عبد الله بن الزبير قد ادعى حق الخلافة لنفسه ، وجحد حق الهاشميين المعاصرين له فيها ، فقد صار بذلك — فى نظر الشيعة — غاصبا كالأمويين ، جديرا بلعنات الشيعة وغضبهم ، وزاد من حدة هذا الغضب سياسته العنيفة مع بنى هاشم [١] .

ومن ثم انطلقت ألسنة الشعراء الشيعيين فى ابن الزبير وأنصاره ، تصفه بادعاء ماليس له ، وتتهكم به ، وتسخر من ادعائه ، مما يخلعه على نفسه من ألقاب .

فحين قام ابن الزبير بمكة ، لقب نفسه (العائذ ببيت الله) ، وادعى الحفاظ على حرمة هذا البيت ، ثم إنه حاصر محمد بن الحنفية ، إمام الشيعة الكيسانية ، داخل الحرم ، فى الموسم (٦٦ هـ) ، ويقال إنه حبسه ومعه خمسة عشر رجلا من بنى هاشم ، وأراد حملهم على البيعة له ، وهددهم بالتحريق إن لم يفعلوا [٢] ، فقال كثيرٌ متوعدا ساخراً [٣] .

---

(١) راجع ص ٣٠ — ٣١ من هذه الدراسة .

(٢) هكذا يخلط بعض الرواة بين حادثتى الحبس والتهديد بالنار ، فيجعلونهما حادثا واحدا ، ضحيتهما معا ابن الحنفية ، والذى يظهر أن الحادثين منفصلين ، وأن الذى كان فى حبس ابن الزبير هو الحسن بن محمد بن الحنفية ، حبسه ابن الزبير فى سجن عارم — كما فى مروج الذهب ، وفيه « سجن غارم — بالغين » وهو حبس موحش مظلم ، وأراد قتله ، فعمل الحيلة حتى فر من السجن ، وتعسف الطريق على الجبال حتى أتى مِنىً ، وبها أبوه محمد بن الحنفية ، وأن شعر كثيرٍ الآتى إنما قاله فى هذه الحادثة (مروج الذهب ٢ / ١٠٠ — البهية —) أما حادث التهديد بالنار فقد وقع لابن الحنفية لما دخل الحرم فى موسم الحج سنة ٦٦ هـ ، محاصره ابن الزبير ، ولم يخلصه من الحصار إلا جند المختار الثقفى لما استنجد به ابن الحنفية (انظر : الشيعة والخوارج ٢١٦) .

(٣) ديوانه ٢٢٤ ومروج الذهب ٢ / ١٠٠ . خبيب وثابت وحمزة : أبناء عبد الله بن الزبير . الحداء : جمع حدأة ، وهى الطائر المعروف .

لك الويْلُ من عينىْ خُبَيب[١]وثابتٍ[٢]   وحمزة[٣] أشباه الحداءِ التَّوائم
تخبِّرٌ من لاقيتَ أنَّك عائذٌ   بل العائذُ المظلوم فى سجن عَارم
ومنْ يَرَ هذا الشيخ بالخَيْف من مِنىً   من الناس يعلمْ أنه غير ظالم
سَمِىُّ نَبىِّ الله وابن وصيّه   وفكّاك أغلالٍ وقاضى مغارم

فمن الجلىّ أن كُثيرًا يتهكم بابن الزبير ، الذى يدعى أنه معتز بالحرم ، بينما ينتهك حرمته ، بتهديد قصاده ، وتفز يعهم ، وهو الذى جعله الله مثابة للناس وأمناً ، وحرم أن يفزع طيره ، فضلا عن التهديد بإرهاق الأرواح فيه ؟!

كما يتهكم الشاعر بأبناء عبد الله بن الزبير ، خُبَيب ، وثابت ، وحمزة ، الذين تشبه عيونهم عيون الحدأ .

وبنحوٍ من هذا يتهكم السيد الحميرى بابن الزبير ، حينما مرت عليه بالأهواز أسماء بنت يعقوب ، من ولد عبد الله بن الزبير ، وقد زفت إلى إسماعيل بن عبد الله بن عباس ، فيرميه بأنه استحل حرمة الكعبة ، حتى استحق أن يلقَّب عند أهل الشام — (المُحِلّ) لتعريضه الكعبة للحروب ، لماّ أقام فيها [٤] :

مَرَّتْ تُزفّ على بغْلةٍ   وفوق رِحالتها قُبَّهْ
زُبيرَّيةٌ من بنات الذى   أحلَّ الحرام من الكعبهْ

غير أن دولة ابن الزبير لم تعمرٍّ طويلا — كما مر — فقل نصيبها من هجاء الشيعة ، وإن لم تحرم منه ، ومن لذعاته .

هـ : شعر الدعاية لعقائد الشيعة (الشعر المذهبى) :

كان للمذاهب الشيعية وعقائدها نصيب من الشعر الشيعى ؛ إذ لم ينس شعراء الشيعة ، أن يروِّجوا لمذهبهم ، وينطقوا أشعارهم بعقائده ، متحمسين لها ، معربين عن اعتقادهم الراسخ فيها .

---

(١) قال المسعودى : به كان أبوه يكنى (مروج الذهب — البهية — ٢ / ٩٥)

(٢) كان هو وخبيب من أم واحدة هى تماضر بنت منظور بن زبان ، ولما ماتت تزوج ابن الزبير أختها ، أم هاشم ، فولدت له : هاشما وحمزة وعباداً (الأغانى ٨ / ١٨٣) .

(٣) ولاه أبوه العراق سنة ٦٧ أو ٦٨ هـ ثم عزله وأعاد أخاه مصعبا لإمارته ، وللفرزدق شعر فى مدح حمزة . انظر : الأغانى ١٩ / ١٠ ، ١١ والعبر للذهبى ١ / ٧٦ ، ٧٧ وتزيين الأسواق ١٥٥ ، والاشتقاق ٩٤ والكامل لابن الأثير ٤ / ٢٧٨ (بيروت) .

(٤) رسائل الجاحظ ٢ / ٣٦١ والأغانى ٦ / ٣٠ ، ٧ / ١١

وهم بهذا يثرون الشعر العربى ، بلون جديد ، لم يظهر فيه ، قبل هذا العصر الأموى ، يمكن أن نطلق عليه (الشعر الدينى المذهبى) .

وقد يقال : إن الشعر الجاهلى لم يخل من الأفكار الدينية ، التى تكشف عن بعض المعتقدات ، التى كان الجاهليون يدينون بها ، سواء أكانت وثنية ، أم مسيحية ، أم يهودية [١] غير أن هذه الأفكار إنما كانت ترد فى أشعار الجاهليين عرضا ، لم يقصد إليها قصداً ، فما كانت الحياة الدينية الجاهلية عنصراً قوى التأثير فى الحياة الاجتماعية أو الاقتصادية للبيئة العربية فى العصر الجاهلى ، بحيث يمكننا القول بأن ظهور الناقة والفرس فى هذا الشعر العربى ، كان أقوى بكثير من ظهور الروح الدينية [٢] .

ثم أن هذه الأفكار الدينية فى الشعر الجاهلى ليست وليدة مذهبية دينية ، أو عقائد واضحة محددة ، بحيث تعد فى باب الدعاية المذهبية الدينية .

يضاف إلى هذا كله أن هذه الأفكار كانت خالية تماما من كل غرض سياسى ، بمعنى أنها لم تعن إطلاقا بالدعوة إلى مذهب دينى بعينه ، ومحاولة كسب الأنصار ، وتجميع القلوب حول عقيدة سياسية بذاتها .

ويقال مثل هذا فيما كان من شعر يحمل عناصر دينية فى صدر الإسلام ؛ إذ لم يكن الخلاف السياسى المذهبى قد ثار حول عقائد الدين ؛ ولذا لايمكن القول بأن الدعاية السياسية كانت غرضا من أغراض الشعر فى صدر الإسلام ، وإنما كان هذا كله من غرض الشعر المذهبى السياسى فى العصر الأموى ، لاقبله .

ومن جهة أخرى ، فإن هذا الشعر المذهبى يعكس قيمة فكرية ، لم تتح للشعر العربى من قبل ، فهو وليد نهضة فكرية ، قامت حول التفكير فى عقائد الدين الإسلامى ، وتأثرت بغير قليل من الآراء الدخيلة على العقيدة الإسلامية ، وقد تسربت هذه الآراء إليها على يد بعض من دخل فى الإسلام من أهل الديانات الأخرى ، ونقول : (بعض) ، حتى

---

(١) انظر فى تأثر الشعر الجاهلى بأفكار من هذه الديانات : كتابنا : أمراء الشعر فى العصر الجاهلى ص ٨٠ ـــ ٨٢ ، ٨٤ ـــ ٨٥ ، ٨٩ ـــ ٩٠ .

(٢) للاستزادة راجع : دراسات فى الشعر الجاهلى (د. أبو الأنوار) ٧٩ ـــ ٨٠

لانقع فى خطأ التعميم ، الذى ذهب إليه الأستاذ أحمد أمين ، فى قوله : « أتظن أن الفارسى ، أو السورى النصرانى ، أو الرومانى ، أو القبطى ، إذا دخل فى الإسلام انمحت منه كل العقائد التى ورثها من آبائه وأجداده قرونا ، وفهم الإسلام كما يريد الإسلام من تعاليمه ؟ كلا ، لايمكن أن يكون ذلك ، وعلم النفس يأباه كل الإباء ، فللفارسى صورة للإله ، غير صورة النصرانى الرومانى ، وهما غير صورة النصرانى المصرى ، وللألفاظ المستعملة فى الديانات (جهنم ، والجنة ، وإبليس ، والملائكة ، والآخرة ، والنبى ، ونحو ذلك) معان عند كل من هؤلاء ، تخالف المعانى التى يتصورها الآخر ، فلا تظن أن هؤلاء الذين دخلوا فى الإسلام ، من الأمم الأخرى فهموه بحذافيره ، كما فهمه العربى ، حتى المخلصون منهم فى اعتناقهم الإسلام ، إنما فهمه كل قوم مشوبا بكثير من تقاليدهم الدينية القديمة ... » [1] .

وهذا الرأى — كما نرى — لايخلو من تعميم غير دقيق ، وتجن غير قليل ، على من دخل فى الإسلام من أبناء الأمم ذات الديانات القديمة ، فالتاريخ الإسلامى يشهد لكثرة منهم بحسن إسلامهم ، واطراح عقائد آبائهم القديمة ، خارج عقولهم ووجدانهم ، حقا هناك قلة من مسلمى هذه الأمم ، هى التى يصدق عليها رأى الأستاذ أحمد أمين ، على أن هذا الذى يقول به ، ليس قاصرا على بعض أبناء الأمم غير العربية ، فمن العرب أيضا من ظل متأثرا ببعض عادات الديانة الوثينية وعقائدها .

وإذن ، فليس من قبيل الادعاء أو المبالغة ، أن نعد الشعر المعبر عن عقائد دينية مذهبية ، نغمةً حظيت بها قيثارة الشعر العربى ، تحت تأثير ظروف السياسة فى العصر الأموى .

ولنتقدم الآن لدراسة نماذج من هذا الشعر ، ليتضح ماذكرناه عنه .

مر بنا قول الكميت فى الأئمة الهاشميين :

بل هوايَ الذى أُجن وأبدى ... لبنى هاشم فروع الأنام

للقريبين من ندًى والبعيديـ ... ـن من الجور فى عرى الأحكام

والمُصيبين بابَ ماأخطأ النا ... سُ ومُرسى قواعد الإسلام

---

(١) فجر الإسلام ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١٣٢ — ١٣٣

والغَيوثَ الذينِ إن أَمْحَلَ النا سُ فمأوى حَوَاضن الأيتام
راجحى الوزن كاملى العدل فى السِّـ ـيرة طَيِّـن بالأمور العظام
غالبيين هاشميين فى العلـ ـم ربَوْا من عطية العلام

فهو يصفهم بكل ماتشترطه الشيعة الزيدية فى الإمام من عدل ، وعلم ، وزهد ، وتقوى ، وورع ، وشجاعة ، وبر ، ورحمة ... وغيرها ، وهذه الصفات تتردد كثيرا فى شعر الكميت يكررها ولا يملّ تكرارها ، حتى يثبَت عقائد المذهب فى نفوس أتباعه من جهة ، ونفوس غير الأتباع من جهة أخرى .

كما مر بنا قوله فى مقام الاحتجاج لحق علىّ بن أبى طالب فى الولاية :

ويوم الدوح دوح غدير خُمٍّ أبان له الولاية لو أطيعا
ولكن الرجال تبايعوها فلم أر مثلها خطراً مبيعا
فلم أبلغ بها لَعْناً ولكنْ أساء بذاك أولهم صنيعا
فصار بذاك أقربهم لعدلٍ إلى جَوْرٍ وأحفظهم مضيعا

فهو يصدر فيما يقول هنا ، عن عقيدة مذهبية تقول بها الشيعة الزيدية ، ترى جواز إمامة المفضول مع وجود الفاضل ؛ ولذا فهو يرفض أن يلعن أبا بكر وعمر وعثمان ، ومن بايعهم ، رعاية لهذه العقيدة ، فهم مخطئون مسيئون فقط .

كما أنه يشير إلى عقيدة أخرى تشارك فيها الزيدية غيرها من الفرق ، وهى القول بالوصية من الرسول ﷺ لعلىّ بالولاية ، يوم غديرخم .

ويردد الكميت هذه الأفكار ، فى قوله السابق :
أهوى عَليا أمير المؤمنين ولا أرضى بشتم أبى بكر ولا عمرا
ولاأقول وإن لم يعطيا فدكاً بنت الرسول ولا ميراثه كفرا
الله يعلم ماذا يأتيان به يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا

فهو يدور حول العقيدة التى يستمدها من مذهبه ، والتى أشرنا إليها منذ قليل ، وفى هاشميات الكميث ، شعر كثير يكاد ينظم عقائد الشيعة العامة ، وعقائد الشيعة الزيدية أيضا .

أما شعراء الكيسانية فيرددون فى أشعارهم عقائد مذهبهم ، التى لاتخلوا من عناصر دينية دخيلة على العقيدة الإسلامية .

وأكثر عقائدهم دورانا فى أشعارهم ، عقيدة رجعة إمامهم محمد بن الحنفية ، وأنه المهدى الذى سيظهر ليملأ الأرض عدلا ، بعد أن ملئت جوراً .

من ذلك قول كثير [١] :

ألا إن الأئمة من قريش … ولاة الحق أربعة سواءُ
علىٌّ والثلاثةُ من بنيه … هم الأسْبَاطُ ليس بهم خفاء
فسِبْطٌ سبطُ إيمان وبرٌّ … وسبطٌ غَيَّبْتَه كَرْبلاءُ
وسبطٌ لاتراه العينُ حتى … يقودَ الخيلَ يتبعُها اللواءُ
تغيَّب لايُرى عنهم زماناً … بِرضْوَى عنده عسلٌ وماءُ

وتتردد هذه العقيدة فى شعر السيد الحميرى [٢] — وهو من مخضرمى الدولتين — من ذلك قوله : [٣]

ألا قل للوصىِّ فدتك نفسى … أطلت بذلك الجبل المُقاما
أضرّ بمعشر والوْكَ منا … وسمّوْك الخليفة والإماما
وعادوْا فيك أهلَ الأرض طُراً … مَغِيبُك عنهم سبعين عاما
وماذاق ابنُ خولة [٤] طعم موت … ولاوارتْ له أرضٌ عظاما

---

(١) الأغانى ٨ / ٣١ وعيون الأخبار ٢ / ١٤٤ ومقالات الإسلاميين ١ / ٩١ ومروج الذهب ٢ / ١٠١ (البهية) .

(٢) أبو هاشم إسماعيل بن محمد بن يزيد بن مفرغ الحميرى ، والسيد لقب له ،وجده يزيد بن مفرغ الشاعر ، والسيد شاعر مجيد ، حسن الألفاظ ، ولولا مذهبه العقدى ، لتقدم بشعره عند العلماء بالشعر قديما ، يقول الأصمعى : « مأسلكه لطريق الفحول ، لولا مذهبه » ويقول أبو الفرج الأصفهانى عنه : « شاعر متقدم مطبوع ،يقال : إن أكثر الناس شعرا فى الجاهلية والإسلام ثلاثة : بشار ، وأبو العتاهية ، والسيد ، فإنه لايعلم أن أحدا قدر على تحصيل شعر أحد منهم أجمع ، وإنما مات ذكره ،وهجر الناس شعره ، لما كان يفرط فيه من سب أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه فى شعره » (الأغانى ٧ / ٢ ومابعدها) .

(٣) عيون الأخبار ٢ / ١٤٤ ومروج الذهب ٢ / ١٠١ (البهية) والفرق بين الفرق ٣٠ وفيه : « مقامك عندهم ستين عاما » .

(٤) أم محمد بن الحنفية ، اختلف فى نسبها ، فقيل إنها : خولة بنت إياس الحنفى ، وقيل : ابنة جعفر بن قيس بن مسلمة الحنفى (انظر : مروج الذهب ٢ / ٩٢ — البهية) .

لقد أمسى بمورق شِعب رضوى   تراجعه الملائكة الكلاما
وإن له لرزقـــاً من إدامٍ   وأشربة يُعَل بها الطعاما

إنها مناجاة من هذا الشاعر لإمامه ، لم يقصد بها إلا بث اعتقاده فيه ، وإيمانه بهذا الاعتقاد .

فأبيات السيد الحميرى هذه خالصة للتعبير عن هذه العقائد المذهبية ، فإمامه ثبتت له الولاية بالوصية ، وهو حى لم يمت ، متغيب عن الأنظار منذ سبعين عاما ، أو ستين عاما ، مختف بشعب جبل رضوى الخصيب ، والملائكة تهبط إليه وتبادله الكلام — ولست أدرى إن كان يعنى بهذا أن الوحى ينزل عليه هناك ؟! — ورزقة يجرى عليه من طعام وشراب .

وكل هذه العناصر المذهبية ، لاتمت إلى الإسلام بصلة ، ولكن الشاعر يعتقد صوابها ، وهو يريد أيضا أن يبثها فى عقول الآخرين ليؤمنوا بها ، كما آمن ، ومن هنا يكتسب هذا الضرب من الشعر لونه الدعائىّ المذهبى .

ولهذا الشاعر نفسه شعر يتشوق فيه لرجعة إمامه ابن الحنفية ، ويتعجل ظهوره ، ويؤكد أنه حى يرزق : [١]

ياشِعْب رضوَى مالِمنْ بك لايرى   وبِنَا إليه من الصبَّابة أوْلَق
حتى متى وإلى متى ومتى المدى   يابن الوصىّ وأنت حى ترزق

أرأيت كيف يلح الشاعر على هذه العقائد فى صور مختلفة من التعابير ، ليثبتها فى أذهان أتباع المذهب ، وغيرهم .

ويتولى كثير التعبير عن هذه العقيدة الغالية ، فيقول [٢] :

برئت إلى الإله من ابن أرْوَى[٣]   ومِـنْ ديـن الخوارج أجميعنـا
ومن عُمرٍ برئتُ ومـن عَتيـقٍ   غداةَ دُعــى أمير المؤمنينـــا

---

(١) مروج الذهب ٢ / ١٠٢ (البهية) وانظر : طبقات ابن المعتز ٣٣
(٢) الفرق بين الفرق ٢٩
(٣) ابن أروى هو : عثمان بن عفان ، نسبه الشاعر إلى أمه وينسب إليها كثيرا فى الشعر انظر مثلا : مروج الذهب ١ / ٣٥٦ عتيق : كنية لأبى بكر .

كما يجوز فى مذهبهم سب أزواج الرسول ﷺ والطعن عليهم . والسيد الحميرى يعبر عن هذه العقيدة فى قوله ـــ معرِّضا بالأمويين وبالسيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها :(١)

أين التطُّرف بالولاء وبالهوى ... أإلى الكواذب من بروق الخُلَّب
أإلى أميَّة أم إلى الشيِّع التى ... جاءت على الجمل الخِدَبِّ الشَوقب
تَهْوى من البلد الحرام فَنَبهَّتْ ... بعدَ الهُدُوِّ كلاب أهل الحوْأبِ (٢)

ولعلنا لاحظنا الأسلوب الساخر الذى يتحدث به الشاعر عن أم المؤمنين فى البيتين الأخيرين ، والتعبير غير اللائق . الذى جمع فيه بينها وبين بنى أمية . الكواذب من بروق الخلب . فى البيت الأول .

وللسيد الحميرى أيضا أبيات يسب فيها بعض الصحابة . وأبناءهم ممن قعدوا عن بيعة على ، ويرميهم بالصلف ، والحسد لعلىّ ، والجحود لحق الله ، والجهل ، والصدود عن صراط الله ، وأنهم أوغاد ؟! (٣)

* * *

بعد هذه المعايشة للشعر الشيعى السياسى فى مختلف أغراضه ومناحيه ، قد نستطيع القول . بأن هذا الشعر قد نهض برسالته نحو الأئمة ومذاهبهم ، والدفاع عنهم والدعاية لهم ، وأنه بلغ من ذلك كله ماأرادوا منه ، وأرضاهم به .

---

(١) طبقات ابن المعتز ٣٣ . الخدب الشوقب : البعير الشديد الطويل . الحوأب : ماء على طريق البصرة . الخلب : السحاب الذى لايمطر .

(٢) كانت عائشة رضى الله عنها ومن معها قد انتهوا ليلا ، فى طريقهم إلى البصرة على ماء لبنى كلاب يعرف بالحوأب عليه الناس من بنى كلاب . فعوت كلابهم على الركب ، فقالت : ماسم هذا الموضع ؟ فقال لها سائق جملها : الحوأب ، فتذكرت أن الرسول ﷺ قال لنسائه : « كأنى بإحداكن ، وقد نبحتها كلاب الحوأب » ثم قال لعائشة : « إياك أن تكونيها » فقالت : ردونى ، فأقسموا لها بالله ماهذا الحوأب . وأن السائق غلط ، وشهد على ذلك خمسون . فكانت هذه أول شهادة زور فى الإسلام . انظر : مروج الذهب ٢ / ٣٣٦ (السعادة) .

(٣) انظرها فى : مروج الذهب ٢ / ٦٢ (البهية) .

و ــ نظرات فنية فى شعر الشيعة السياسى :

من خلال ماقدمنا من نصوص شعر الشيعة السياسى ، ودراستها وتحليلها ، يمكن أن نقف على أهم الجوانب الفنية ، التى تميز بها هذا الشعر ، أو كانت ــ على الأقل ــ من الملامح البارزة فيه ، حتى نستبين قيمته الفنية ، بعد أن عرفنا مدى أهميته التاريخية ، ونضعه فى موضعه من حركة تطور الشعر العربى ، فى موكبه التاريخى الطويل .

ويمكن تلخيص ملامحه الفنية فى النقاط التالية :

١ ــ ظهور أسلوب الجدل والبرهنة ، واعتماده على الحجج القوية ، والأدلة البارعة ، وفاتق أكمام هذا الأسلوب الجديد فى الشعر العربى هو الكميت بن زيد ــ كما مر ــ [(١)] .

ونستطيع أن نلاحظ فى يسر أن قيمة هذا الشعر الفنية ، أقل من قيمته التاريخية والفكرية ؛ لعنايته بالاستدلال ، والوقائع ، والنظريات ، أكثر من التفاته إلى جودة التعبير ورقته ، أو جمال الأسلوب والأداء ، أو التأنق فى انتقاء الألفاظ ، وصوغ العبارات ، واختيار الصور .

ومن اليسير كذلك أن نرد هذه الظاهرة الفنية إلى علتها ، إذا عرفنا أن الكميت ابن زيد ــ مبتدع هذا الأسلوب الشعرى ــ كان يجمع بين القدرة على الشعر ، والقدرة على الخطابة كما يقول الجاحظ [(٢)] ، ولاشك أن التقاء الخطابة والشعر فى لسان الكميت ، طبع شعره ــ بخاصة فى هذا الأسلوب الجدلى ــ بطابع خطابى ملحوظ ؛ إذ يغلب عليه الأسلوب التقريرى ، الذى هو سمة من سمات الأسلوب النثرى ، كما جعل غايته الإقناع العقلى ، لا التأثير العاطفى غالبا ، وقد لفتت هذه السمة الفنية فى شعر الكميت الجدلى أنظار بعض قدامى العلماء بالشعر ونقدته ومبدعيه ، فيروى أن حماد الراوية قال للكميت : « إنما شعرك خطب [(٣)] » ، وأن الفرزدق الشاعر الأموى الفحل قال له ، فى معرض الحكم على شعره : « أنت خطيب » [(٤)] .

---

(١) راجع ص ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠١ من هذه الدراسة .
(٢) البيان والتبيين ١ / ١٣٤ ، ٤ / ٨٤
(٣) الموشح ١٩٦
(٤) أمالى المرتضى ١ / ٤٤

وقد نضيف إلى هذا أن طبيعة الموضوع الذى كان الكميت يعالجه فى شعر الاحتجاج والجدل ، لايتيح للشاعر كثيرا مجال التفنن ، ويمنحه السعة فى اصطياد الصور التخييلية ، والعبارات الأدبية ، لاشتغاله بالبحث عن الأدلة ، وتركيب الأقيسة ، ووضع المقدمات ، واستخلاص النتائج .

ومع ذلك يبقى للكميت فضل اعتساف هذا الأسلوب ، وإخضاعه للقوالب الشعرية ، حتى عد إضافة جديدة لأساليب الشعر وأغراضه .

٢ـــ حرارة العاطفة ، وصدق الباعث : ذلك أن شعراء الشيعة ، كانوا يصدرون فيما يقولون عن اقتناع صادق ، وعقيدة راسخة ، وحب مكين لأئمتهم ، وإخلاص تام لمذهبهم وعقائدهم .

وأشعارهم التى أوردناها خير شاهد على توفر هذه الظاهرة الفنية فى شعرهم ، فإن أردنا أن تظاهر الرواية التاريخية الشعر فى هذا المقام ، اكتفينا بماروى من قول الكميت بن زيد ، لأبى جعفر ، محمد بن على بن الحسين ، حين قدم له ألف دينار وكسوة ، جائزة على أشعاره فى آل البيت : « والله ماأحببتكم للدنيا ، ولو أردت الدنيا لأتيت من هى فى يديه (يعنى بنى أمية أصحاب السلطان والمال) ، ولكنى أحببتكم للآخرة ، فأما الثياب التى أصابت أجسامكم فأنا أقبلها ؛ لبركاتها ، وأما المال فلا أقبله ، فرده ، وقبل الثياب » (١) ، وقوله أيضا لعبد الله بن الحسن بن على ، وقد أجازه على شعر فى آل البيت بضيعة قيمتها أربعة آلاف دينار ، وسلمه كتابها : « بأبى أنت وأمى ، إنى كنت أقول الشعر فى غيركم أريد بذلك الدنيا والمال ، ولا والله ماقلت فيكم إلا لله ، وماكنت لآخذ على شىء جعلته لله مالا ولا ثمنا » (٢) .

يضاف إلى ذلك أن الاضطهاد الذى تحمله أهل البيت ، وتحمله معهم أنصارهم ، قد عمل على زيادة العنصر الوجدانى فى أشعارهم ، وبخاصة تلك التى تدور حول حب أهل البيت ، والولاء لهم ، والإشادة بمناقبهم ، أو التى تعبر عن سخطهم على

---

(١) الأغانى ١٥ / ١١٨ ومعاهد التنصيص ٢ / ٢٧

(٢) مروج الذهب ٢ / ١٩٥ (البهية) وانظر رواية أخرى لموقف آخر فى المصدر نفسه ٢ / ١٩٦

الأعداء الغاصبين ، أو تفيض باللوعة والبكاء على قتلاهم ، ويظهر هذا جليا فيما أوردنا من نماذج شعرهم ، فى هذه الأغراض .

٣ـ امتزاج العناصر السياسية بالعناصر الدينية فى شعرهم ، إذ كان محور مذهبهم نظريتهم فى الخلافة ، وهم يعتقدون أن منصب الخلافة ليس أمراً دنيويا ، ولكنه جزء لاينفصل من العقيدة الدينية نفسها ، فهى ركن من أركان الدين عندهم ، كما ذكرنا من قبل ؛ ولذا كثر فى شعرهم التعبير عن أن الخلافة حق شرعى لأئمتهم ، كما حرصوا فى إشادتهم بهؤلاء الأئمة على أن يسبغوا عليهم كثيرا من الصفات الدينية ، التى يرونها ضرورية للإمامة .

٤ـ تنوع الأسلوب بتنوع الموضوعات : فهو مرة أسلوب هادىء رزين ، حين يسلك سبيل التقرير والاحتجاج العقلى أو الدينى (أبيات الكميت) ومرة أسلوب ثائر قوى مهتاج ، حين يغضب على الخصوم ، وينقم منهم ظلمهم واغتصابهم ، وثالثة أسلوب حزين باك مكلوم إذا صور نكباتهم ، وتفجع على قتلاهم ، وتحسر على حق أئمتهم الضائع ، أما القوة والفخامة والتدفق ، فهى سمات لشعرهم فى الإشادة بأهل البيت وتمجيدهم .

٥ـ يعد شعر الشيعة بعامة أدبا جديدا ، فى كثير من موضوعاته ومعانيه ، فموضوعه سياسى مذهبى ، ومعانيه مستمدة من دعاوى الشيعة فى مذهبهم ، وبعض أساليبه تعتمد على القرآن ، ولعل هذا التجديد ، فى الموضوعات والمعانى ، هو الذى لفت نظر عبد الملك بن مروان ــ وكان بصيرا بالشعر ــ فقال لشعراء الأمويين المداحين [1] : يامعشر الشعراء تشبهوننا بالأسد ، والأسد أبخر ، وبالبحر ، والبحر أجاج ، وبالجبل والجبل أوعر ، ألا قلتم فينا ، كما قال أيمن بن خريم فى بنى هاشم :

نهاركـــمُ مكابـــــدةٌ وصومٌ   وليلكـــمُ صلاةٌ واقتـــراءُ ..

(الأبيات ، وقد مرت) .

وهذه لمحة ذكية من عبد الملك ، ففضلا عن جدة المدح بهذه المعانى ، فإنها أليق بمدح الخلفاء ، الذى كان يتوق إليه بنو أمية .

---

(١) ديوان المعانى ١/٢٦ ، وانظر : الأغانى ٢١/٦ .

— ٢ —

شعر الأمويين :

يلاحظ المتتبع لشعر الشيعة فى العصر الأموى ، أن الشعراء الذين انقطعوا لهم — أو كاودا — وأخلصوا الولاء لأئمتهم ومذاهبهم ، كانوا قليلين .

فإذا استثنينا كثير عزّة ، والسيد الحميرى ، شاعرىْ الكَيْسانيّة ، والكميت بن زيد ، المتشيع على مذهب الزيدية ، وأيمن بن خُرَيْم ، المحب لآل البيت بعامة ، لا نكاد نجد من الشعراء الفحول ، أو المعروفين ، من كان يخص آل البيت بولائه ، ويكثر القول فى تأييد حقهم ، أو التعبير عن محبتهم ، والإشادة بهم ، كما فعل هؤلاء .

ويمكن تفسير ذلك بأن حظ آل البيت من الثروة والسلطان ، كان محدودا فى هذا العصر ، مما قعد بهم عن اصطناع الشعراء ، الذين تستهويهم العطايا ، ويحرك لسانهم الأمل والرغبة فى دنيا يصيبونها ، ولا أدل على ذلك من قول أبى جعفر محمد بن على بن الحسين للكميت بن زيد [1] : « ياكميت لوكان عندنا لأعطيناك ، ولكن لك ماقال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت : لازلت مؤيداً بروح القدس ، ماذببت عنا أهل البيت » .

وها هوذا عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب يجمع مالا وحلياً من بعض رجال آل البيت ونسائهم للكميت ، ثم يقدمه له ، قائلا [2] : « ياأبا المستهلّ : أتيناك بجهد المُقِلّ ، ونحن فى دولة عدونا ... » .

حقا كان هناك من الشعراء من أسهم بقصيدتين ، أو قصيدة ، أو مُقَطَّعَة ، أو أبيات قليلة فى مدح آل البيت ، أو رثاء شهدائهم ، أو هجاء أعدائهم ، فى مناسبات قليلة هزت عواطفه بالإعجاب بهم ، أو الحزن على ماأصابهم ، ثم لم يلبث أن شغل عنهم بدنياه ، وطبيعى أن يكثر أمثال هؤلاء الشعراء لكثرة ماتعرض له أهل البيت من عسف الأمويين وتنكيلهم .

ومع ذلك فقد كان الشعراء المقبلون على بنى أمية ، القائلون فيهم وفى دولتهم

---

(١) مروج الذهب ٢ / ١٩٥ (البهية)

(٢) المصدر السابق ٢ / ١٩

مايرضيهم أكثر عددا ، وأبرز شخصية من شعراء أهل البيت ؛ لأن المال كثير فى خزائن الأمويين ، وهم يتصرفون فيه كما يَحْلُو لهم ، غير متأثمين ، أو متحرجين ، أو مراعين لقواعد الإسلام فى الإنفاق من بيت مال المسلمين (١) ، كما أن السلطة والسلطان فى أيديهم ، وقد سخوا بهذا وذاك على كل ناعق بفضلهم ، أو مؤيد لدولتهم .

والروايات التاريخية والأدبية تحدثنا عن كثير من صور سخاء بنى أمية وعمالهم ، فى عطايا الشعراء وهباتهم ، نجيزىء منها ببعضها :

روى أن أعرابيا من ضبةً وفد على عبد الملك بن مروان ،وأنشده (٢) :

والله مانـــدْرى إذا مافاتنـــا   طلبٌ إلَيك من الذى نتطلَّبُ

فلقدْ ضربْنا فى البلاد فلم نجِدْ   أحدا سواك إلى المكارم ينسبُ

فاصبرْ لعادتنـا التـى عوَّدْتنـا   أوْ لا فأرشدْنا إلى مَنْ نذهب

فقال عبد الملك : إلىّ إلىّ ، وأمر له بألف دينار ، ووفد عليه فى العام التالى ، فأعطاه ألف دينار ، وفى العام الثالث ، أعطاه ثلاثة آلاف دينار (٣) ،ومدحه آخر فأمر له بجائزة وقطيعة بالعراق (٤) .

ودخل الطرماح بن حكيم ، وهو من شعراء الخوارج ، على خالد بن عبد الله القسرى ــ عامل الأمويين على الكوفة ــ فأنشده أبياتا يعرض فيها بسوء حاله (٥) ، فأمر له بعشرين ألفا .

وكان الحجاج بن يوسف الثقفى يعطى الشعراء ، الذين كانوا يقصدونه بالعراق ، وفضل أحدهم مرة ، على الآخرين ، بألف درهم ؛ لأنه أعجب ببيت قاله (٦) .

---

(١) ينسب إلى معاوية بن أبى سفيان أنه قال : « الأرض لله ، وأنا خليفة الله فما آخذ من مال الله فهو لى ، وماتركت منه كان جائزاً لى » وكان صعصعة ابن صوحان العبدى حاضرا فى مجلس معاوية الذى قال فيه هذا الكلام ، فقال :

تُمنِّـيكَ نفسُك مالايكـــو   ن جهـلاً معـاوى لاتـأثم

انظر : مروج الذهب ٢ / ٧٩ (البهية) .

(٢) أمالى القالى ٢ / ٢٨٧

(٣) المصدر السابق .

(٤) هو أعشى ربيعة كما سيأتى . انظر :المصدر نفسه ٢ / ٢٧٠ ، وانظر : ديوان المعانى ١ / ٤٩

(٥) مرت ص ٨٦ من هذه الدراسة

(٦) أمالى القالى ٢ / ٢٦٦

لقد أغرى المال والجاه ، كثيرا من شعراء العصر ، فأقبلوا عليهم مخلصين أو متملقين طامعين ، لينتفعوا بمالهم وجاههم .

بخلاف شعراء أهل البيت ؛ إذ كانوا بميلهم إليهم إنما يرضون عواطفهم الدينية لاغير ، فضلا عن أنهم يتعرضون بذلك إلى سخط أصحاب السلطان ، ونقمتهم ، وما من شك فى أن الناس إلى نعيم الدنيا وزينتها أميل ، وعلى إيثار السلامة أحرص .

وينبغى أن لا نفهم من هذا ، أن حزب الأمويين قد خلت صفوفه ، وأقفر ميدانه من الشعراء المتحمسين له ، المخلصين فى تحمسهم وولائهم لمبادئه .

فالتاريخ الأدبى يمدنا بأسماء عدد من الشعراء ، الذى كانوا منقطعين ، أو كالمنقطعين لبنى أمية ، من أمثال : الأخطل التغلبى [١] ، وعبد الله بن الزَّبير الأسدى [٢] ، وأبى صخر الهذلى [٣] ، وأبى العباس الأعمى [٤] ونُصَيْب بن

---

(١) أبو مالك غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة ، يتصل نسبه بتغلب ، والأخطل لقب له ، أطلقه عليه كعب بن جعيل ، حين سمعه يهجو وهو غلام ، ومعناه : السفيه ، وهو نصرانى من أهل الجزيرة بالعراق ، فى الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين مع جرير والفرزدق ، وكان أسنّ من جرير ، وشعره يشبه شعر النابغة الذبيانى — فيما ذكر أبو عبيدة — لصحة شعره . وهو شاعر الأمويين لما مدحهم بقصيدته المشهورة (خف القطين فراحوا منك أبو بكروا) قال له عبد الملك بن مروان : أتريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشعر العرب ؟! وسماه : شاعر أمير المؤمنين ، وقال : لكل قوم شاعر ، وإن شاعر بنى أمية الأخطل ، وله فى الأمويين مدائح مروية ، وقال عنه جرير : هو أنعتنا للخمر والحمر الوحشية ، وفى رواية أن جريرا قال عنه : يجيد نعت الملوك ، وصيب صفة الخمر ، ويبدو من شعر قاله الأخطل ، عندما حضرته الوفاة ، أنه مات قبل جرير والفرزدق ، أيام عبد الملك بن مروان ، ولكننا لم نقف على سنة وفاته . انظر : الأغانى ٧ / ٦١ ومابعدها ، ١٠ / ٢ ، وطبقات ابن سلام ٢٥٠ ، ٣٨٦ ، ٤٢١ ، والاشتقاق ١٠٦ ، ٣٣٨ ، والشعر والشعراء ١٨٩ ، والمؤتلف ٢١

(٢) أبو كثير عبد الله بن الزَّبير ، يتصل نسبه ببنى أسد بن خزيمة ، فهو قرشى النسب ، شاعر كوفى المنشأ والمنزل ، من شيعة بنى أمية ، وذوى الهوى فيهم ، والعصبية لهم ، والنصرة على عدوهم ، أسره مصعب بن الزبير ، لما غلب على الكوفة ، ثم منّ عليه ووصله ، فمدحه ، وأكثر ، وانقطع إليه ، فلم يزل معه حتى قتل مصعب ، وأصيب ابن الزَّبير بالعمى فى آخر عمره ، ومات فى خلافة عبد الملك بن مروان . انظر : الأغانى ١٣ / ٣١ ، ومعاهد التنصيص ٢ / ١٠٨

(٣) أبو صخر عبد الله بن أسلم السَّهمى ، أحد بنى سهم بن مرة بن معاوية بن هذيل ، من شعراء الدولة الأموية ، كان شديد الولاء لبنى مروان ، مدح عبد الملك ، وعبد العزيز ابنى مروان بمدائح كثيرة ، وله موقف مع ابن الزبير صارحه فيه بعدائه ، فأخذه وحبسه بسجن عارم ، ثم استوهبته هذيل ، ومن له خؤولة من قريش فى هذيل ، فأطلقه بعد سنة . انظر : الأغانى ٢١ / ٩٤ ، وخزانة الأدب ١ / ٥٥٥ (السلفية) ، وسمط اللآلى ١ / ٣٩٩ ، والعينى على الخزانة ١ / ١٦٢ ، وشرح ديوان الحماسة ١ / ٣٢٧

(٤) هو السائب بن فروخ مولى بنى الدِّيل ، عربى بالولاء ، أصله من أذربيجان ، فهو من الشعراء الموالى ، ومن شعراء بنى أمية المعدودين ، كان يقيم فى مكة ، وله أشعار كثيرة فى الإشادة ببنى أمية ، وهجاء بنى الزبير ، حتى نفاه ابن الزبير إلى الطائف . انظر : الأغانى ١٥ / ٥٧

رَبَاح [١] ، موَلَى عبد العزيز بن مروان ،وعدى بن الرقاع [٢] ، وأعشى ربيعة [٣] .... وغيرهم .

ومن هؤلاء من اعتز بهم بنو أمية أشد الاعتزاز ، لإخلاصهم الشديد فى الموالاة لهم ، ونذكر فى هذا المقام قول عبد الملك بن مروان للأخطل ، لما مدح بنى أمية بقصيدته المعروفة (خف القطين فراحوا منك أو بكروا) والتى يقول فيها عن بنى أمية :

حُشْدٌ على الحق عُيّاف الخنا أنف   إذا ألَمّتْ بهم مكروهة صبروا
شُمْسُ العداوة حتى يُستقاد لهم   وأعظمُ النّاس أحْلاماً إذا قَدروا

« لكل قوم شاعر ، وإن شاعر بنى أمية الأخطل » ، وسماه : شاعر أمير المؤمنين .

وقوله لأعشى ربيعة ، لما دخل عليه وعنده ابناه الوليد وسليمان ، فقال له : ياأبا المغيرة ، مابقى من شعرك ؟ فقال : والله لقد ذهب أكثره ، وأنا الذى أقول :

وفضلّنى فى الشعر والعِلْم أننى   أقول على علمٍ وأعلمُ ماأعنى
فأصبحتُ إذ فَضَّلتُ مروان وابنه   على الناس قد فضلّت خيرَ أبٍ وابنِ

« من يلومنى على حب هذا ، وأمر له بجائزة وقطيعة بالعراق » [٤] .

---

(١) أبو محجن ، أو أبو الحجناء نصيب بن رباح الشهير بالشاعر الزنجى كان أولا مولى لرجل من كنانة يدعى راشد بن عبد العزى ثم لما اشتهر بالغزل ، خشى مولاه أن يشبب بنساء قومه فباعه ، واشتراه عبد العزيز بن مروان وأعتقه ، وهو شاعر أموى فحل مقدم فى المديح والنسيب ، وكان يتعفف فى غزله ، وهو القائل :

وبى كرم عن الفحشاء ناءٍ   كبُعد الأرض عن جو السماء

وله مهاجاة مع الفرزقّ مروية ، توفى سنة ١١١ ، أو ١١٣ هـ ، انظر : الأغانى ١ / ١٢٥ وأمالى الزجاجى ٣١ والموشح ١٨٩ وسمط اللآلى ١ / ٢٩١ .

(٢) أبو داود عدى بن زيد بن مالك بن عدى بن الرقاع العاملى ، من بنى الحارث (وهو عاملة) وعاملة حيّمن قضاعة ، شاعر محسن ، عده ابن سلام فى الطبقة السابعة من فحول الإسلاميين ، وهو من شعراء بنى أمية المقدمين عندهم ، واختص بمدح الوليد بن عبد الملك ، وكان ينزل بدمشق . انظر : الأغانى ٨ / ١٧٢ وطبقات ابن سلام ٥٥٨ والتذكرة السعدية ٣٥٩ والشعر والشعراء ٢٣٧ والمؤتلف ١١٦ ومعجم الشعراء ٢٥٣

(٣) ابو المغيرة عبد الله بن خارجة بن حبيب ، أحد بنى أبى ربيعة من شيبان ، ثم من بكر بن وائل ، شاعر أموى من ساكنى الكوفة ، شديد التعصب لبنى أمية ، مروانى المذهب توفى سنة ٨٥ هـ انظر : الأغانى ١٦ / ١٥٥ ، والحماسة لأبى تمام ٢ / ٣٨٩ (نشرة عبد الله عسيلان) .

(٤) أمالى القالى ٢/٢٧٠ .

وهؤلاء الشعراء لم يوقفوا شعرهم على السياسة ، فقد قالوه فى فنون شعرية أخرى ، فحين نقول بانقطاعهم إلى بنى أمية ، إنما نعنى إن ماكان من شعرهم متعلقا بالسياسة ، إنما جاء كله أو أكثره ، فى نصرة بنى أمية .

وقد يكون من المفيد أن ننبه إلى أن هؤلاء الشعراء لم تبرأ دوافعهم تماماً من الرغبة فى المال ، والتطلع إلى الاستفادة من سخاء الأمويين فى البذل لأنصارهم .

فقد أغرى ثراء الأمويين ، وحبهم للترف ، غالبية شعراء دولتهم بالإقبال على الدنيا ، والتمتع بنعيمها ، وأقرب السبل إلى ذلك ، وآكدها نجاحا ، الأرتماء فى أحضان الأمويين ، والتشيع لهم .

فأبوا العباس الأعمى ، الذى يقول عنه أبو الفرج الأصفهانى [١] : « وكان من شعراء بنى أمية المعدودين المقدمين فى مدحهم ، والتشيع لهم ، وانصباب الهوى إليهم » ، يقول حين كسا عبد الله بن الزُّبير بنى أسد بن عبد العزى — قومه — وأحلافهم ، ولم يَكْسِ أبا العباس ، وكان بمكة : [٢] .

كَسَتْ أسدٌ إخوانها ولَوَاننى ... ببلدة إخْوَانى إذنْ لكُسيتُ

فلم تَرَعينى مثلَ حىٍّ تحمّلوا ... إلى الشام مظلومين منذُ بُرِيتُ

فهو يعرِّض بطلب العطاء من بنى أمية ، إخوانه بالشام ، وما إن يسمع عبد الملك بن مروان بذلك حتى يوحى إلى الناس أن يخلعوا عليه ، ففعلوا ، واجتمع له من ذلك قدر ضخم ، ثم أمر له بمالٍ عظيم .

وعبد الله بن الزَّبير الأسدى ، وهو كسابقه من ذوى الهوى فى بنى أمية ، والتعصب لهم ، والنصرة على عدوهم ، كما يقول أبو الفرج [٣] ، يجذبه هو الآخر عطاء مصعب ابن الزُّبير ، حينما غلب على الكوفة لأخيه عبد الله [٤] فيمدحه ، وينقطع

---

(١) الأغانى ١٥ / ٥٧

(٢) المصدر السابق . بريت : بُرِئْتُ : أى خلقت .

(٣) الأغانى ١٣ / ٣١

(٤) يرى جورجى زيدان أن ابن الزَّبير من شعراء الأمويين الذين اضطروا لمدح آل الزبير ، لأنهم كانوا يقيمون بين أظهرهم ، ولأن أكثرهم كانوا يمدحون بعض أمراء بنى أمية وليس خلفاءهم ، ولو كانوا من شعراء الخلفاء ، ربما كانوا أثبت فى مدحهم (تاريخ آداب اللغة العربية ١ / ٢٥٤) ، وفى أخبار ابن الزَّبير مايدل على أن عطاء مصعب كان من أهم أسباب اجتذابه ، وانقطاعه لمدح الأمير الزُّبيرى .

إليه ، ولم يزل كذلك حتى قتل مصعب ، مع أنه كان كثير التهجم على عبد الله بن الزبير فى مديحه لبنى أمية .

أما نصيب بن رباح ، فقد أفل نجمه بعد وفاة عبد العزيز بن مرْوان ، الذى كان نصيب يكيل له الثناء ، فيجزل عبد العزيز له العطاء ، فلما قيل له : هَرِم شعرك ، قال : « لا والله ماهرم ، ولكن العطاء هرم [1] » ، وهو القائل لهشام بن عبد الملك ، حين أعجب بمدحه ، وقال له : « ياأسود بلغت غاية المدح فسلنى : فقال يدك بالعطية أجود ، وأبسط من لسانى بمسألتك [2] » فأجزل له العطية .

على أية حال ، فقد كان شعراء بنى أمية أكثر شعراء الأحزاب عددا ، لأنهم كانوا شعراء الدولة القائمة يلتفون حولها ، رغبة فى التكسب كثيرا ، وتأثرا بالعصبية القرشية ، أحيانا ، وكرها لسائر الأحزاب فى بعض الأحيان .

وأياما كان الدافع ، أو الدوافع ، وراء الشعر المنتصر للحزب الأموى ، فقد استطاع هذا الشعر أن يُرضى حاجة الأمويين تمجيد خلفائهم ، وتأييد خلافتهم ، ومناهضة أعدائهم ، والوقوف إلى جانب عمالهم وقوادهم ، فى كفاحهم ضد أعداء دولتهم ، وقد يعرِّج على قتلاهم ، فيرثى بعض من سقط فى ميادين نضالهم .

والصور التى يقدمها هذا الشعر يمكن تلخيصها فيما يلى :

صور يغلب عليها الطابع الأخلاقى ، وصور يغلب عليها الطابع الدينى ،وثالثة تجمع مزيجا من المعانى الأخلاقية ، والدينية ، والسياسية ، وقد تلوح فى ثنايا هذا كله بعض الدعاوى التى تحاول الاحتجاج لخلافة الأمويين .

أ : صور من الإشادة ببنى أمية والاحتجاج لخلافتهم (المدح السياسى) :

يلاحظ أننا نمزج بين هذين الموضوعين قصداً ؛ يدفعنا إلى هذا مانعلم من أن شعراء الأمويين ، لم يجدوا من الحق الشرعى ، أو الأسس الدينية ، أو المنطق العقلى ، مايستندون إليه فى دعوى استحقاق بنى أمية الخلافة .

وهذا أمر طبيعى ، مادامت الدولة الأموية قد قامت على التآمر والدهاء ، والخديعة ، والقوة ، والغصب ، وتأليف القلوب بالمال تارة ، وبالجاه تارة أخرى .

---

(١) الأغانى ١ / ١٤١

(٢) الأغانى ١ / ١٣١

ويعبر عن هذا صعصعة بن صوحان العبدى فى حديث له مع معاوية بن أبى سفيان ، وقد سأل معاوية مَنْ بمجلسه ؛ أىُّ الخلفاء رأيتمونى ؟ فقال صعصعة : « أنَّى يكونُ الخليفة مَنْ ملك الناس قهراً ، ودانهم كبْراً ، واستولى بأسباب الباطل كذبا ومكرا » [١] .

وقد أشرنا فى صدر هذا المبحث [٢] إلى مفهوم السياسة فى الإسلام ، غير أن بنى أمية لم يتزموا هذا المفهوم فى سياستهم للرعية ، فقد كان لهم مفهومهم الخاص بالنسبة للسياسة ، يعبر عنه عبد الملك بن مروان ، حين سأله ابنه الوليد قائلا : ياأبت ، ماالسياسة ؟ قال : « هيبة الخاصة ، مع صدق مودتها ، واقتيا دقلوب العامة بالإنصاف لها ، واحتمال هفوات الصنائع ، فإن شكرها أقربُ الأيادى إليها » [٣] .

لكل هذا لم يجد الشعراء الأمويون بداً من أن يلجأوا إلى بعض الدعاوى الدينية ، يضفونها على خلفائهم ، ويبثونها خلال مدائحهم فيهم وفى أنصارهم ، تدور فى معظمها حول اختيار الله لهم ، ونصرته إياهم ، وأنهم الحراس على دين الله ، القائمون على مصالح المسلمين بالعدل ، فضلا عن أنهم أفضل قريش وسادتها ، ومزجوا بين هذه المعانى وغيرها من الصفات الدينية ، والسياسية ، والأخلاقية ، فى مقام تمجيدهم ، والإعلاء من شأنهم .

أما الاحتجاج على النحو الذى رأيناه فى الشعر الشيعى ـــ وبخاصة فى شعر الكميت ـــ ذلك الاحتجاج القائم على الجدل ، والاستدلال بعناصر دينية ، أو أقيسة عقلية ، فلا نجد له نظيرا فى أشعار شعراء الحزب الأموى .

فهذا كعب بن جعيل التغلبى يحاول أن ينح خلافة معاوية بن أبى سفيان صبغة شرعية باعتباره أفضل القرشيين ، فيقول :[٤]

كأنَّ أبا موسى عشية أذْرحٍ ... يطوفُ بلقمانَ الحكيمِ يُواربه
ولما تَدَارَوْا فى تراث محمـــدٍ ... سمت بابن هندٍ فى قريش مضاربه

---

(١) مروج الذهب ٢ / ٧٨ (البهية) .

(٢) راجع ص ٨٠ من هذه الدراسة .

(٣) عيون الأخبار ١ / ١٠ وأمالى القالى ٢ / ٨٢ .

(٤) طبقات ابن سلام ٤٨٧ . تداروا : الأصل تدارءوا : تخاصمُوا وتنازعوا . أذرح : بلدة بجنب جرباء بالشام . يواربه : يداهيه ويخاتله . تراث محمد : يعنى الخلافة . المضارب : جمع مضرب (بكسر الراء) الأصل والمنصب . أبو موسى الأشعرى : أحد الحكمين بعد صفين . لقمان : المقصود هنا : عمرو بن العاص الحكم الآخر .

والحق أن الشاعر يغلو غلواً شديدا فى تفضيل معاوية على الإمام علىّ فى النسب ، وأنه بذلك كان أحق بالخلافة . فنحن لاننكر شرف بنى أمية فى الجاهلية ، ولكننا لانعلى هذا الشرف على بنى هاشم ، آل بيت النبى ﷺ ، فادعاء الشاعر تقديم هذا الأموى ، على علىٍّ الهاشمى ، ادعاء باطل ، وغلوٌ لايثبت حقا ، فضلا عن أنه لايقنع أحداً ، من المسلمين .

وأضعف من حجة كعب بن جعيل ، محاولة نابغة بنى شيبان [(١)] ، تأصيل الخلافة فى بنى أمية ، ونفى أى حق لغيرهم فيها ، فى قوله : [(٢)]

معشرٌ معدِنُ الخلافــة منهم   بَدْؤُهــا منهم وفيهم تَحــوُرُ
لايَرُومَــنّ ملكهــم آدمــىٌّ   إنّ مَنْ رام ملكهـم مغْروُرُ
رامهُ الناكثـون فاستْأصلوهـم   وولاة الشيطـانِ حتـى أُبِيـرُوا

فهذه معان عامة ، ودعاوى يعوزها الدليل على صوابها وصدقها ، وإلا ، فلماذا كان بدؤها واستمرارها فيهم ؟ ومادليل الشاعر على انفرادهم بها ، وأن منْ طلبها من غيرهم غواة من حزب الشيطان ؟ إن جعبة الشاعر تخلو من أى برهان مقنع على صدق ماادعى .

وطابع الادعاء ظاهرة بارزة فى أكثر ماخلع الشعراء الأمويون ، على بنى أمية من معان ، وبخاصة ماكان منها فى محاولة إظهارهم فى مظهر دينى ، على نحو مافعل شعراء الشيعة فى تصوير أئمتهم ، ومادام الغرض هو الدعاية للخلفاء ، فلا بأس أن ينزع شعراؤهم هذا المنزع ، وأن يخلعوا عليهم من الأردية الدينية ، ماقد ينخدع به البعيدون عن مشاهدة أحوالهم من المسلمين .

من هذا المنطلق ، يندفع جرير [(٣)] فى مدح عبد الملك بن مروان ، بصورة يجمع

---

(١) عبد الله بن مخارق بن سليم ، أحد بنى ذهل بن شيبان ، شاعر بدوى من شعراء الدولة الأموية ، كان يفد على خلفاء بنى أمية بالشام فيمدحهم ، ويجزلون عطاءه ، وكان فيما يبدو من شعره وخبره على دين النصرانية . انظر : الأغانى ٦ / ١٤٦ والمؤتلف ١٩٢ .

(٢) ديوانه ١٢٣

(٣) أبو حرزة جرير بن عطية بن الخطَفَى ، واسم الخطفى ، حذيفة بن بدر من بنى كليب بن يربوع ، ثم من بنى تميم ، وأمه كليبية أيضا ، كان لسن مضر وشاعرها ، يقدمه العلماء بالشعر كثيرا على صاحبه الفرزدق التميمى ، ولم يلحق به الأخطل التغلبى عند أكثرهم . قالوا : بيوت الشعر أربعة : فخر وهجاء ، ومديح ونسيب ، وفى كلها غلب جرير ، وقال عنه الأصمعى . كان ينهشه (أى يهجوه) ثلاثة وأربعون شاعرا فينبذهم وراء ظهره ، ويشبه أبو عمرو بن العلاء شعره بشعر الأعشى الكبير ، وله مدائح جياد فى بنى أمية . توفى بأرض اليمامة سنة ١١٠ أو ١١١ هـ بعد الفرزدق بستة أشهر ، وقيل بسنة ، وأخباره كثيرة ، انظر : الأغانى ٧ / ٣٥ ومعاهد التنصيص ١ / ٢٢٨ وابن خلكان ١ / ١٢٧ والشعر والشعراء ١٧٩ والمؤتلف ٧١ وغيرها كثير .

فيها بين صفات دينية ، ودعاوى تعسفية ، يزعم بها تفضيل بنى أمية على غيرهم فى حق الخلافة فيقول : (١)

لولا الخليفةُ والقرآنُ يقرؤه ماقام للناس أحكامٌ ولاجُمَعُ
أنت الأمينُ أمينُ الله لاسَرِفٌ فيما وَلِيتَ ولا هيابةٌ وَرَعُ
أنت المبارك يهدى الله شيعته إذا تفرقت الأهواءُ والشِّيَعُ
ياآل مروان إنّ الله فضلّكم فضْلاً عظيما على مَنْ دينُه البِدَعُ

فالمعانى الدينية هى الضبغة الواضحة فى هذا المديح ، الذى يصور الخليفة بأنه ركن الدين ، والقيم على أحكام الشريعة ، وإمام المسلمين الذى بدونه لاتنعقد صلوات الجمع ، وهو أمين الله على ولاية الأمر ، والمبارك الذى يهدى الله به عباده ، والذين يوفقهم إلى طاعته والالتفاف حول ولايته ، وقد هدى الله قومه (بنى أمية) إلى الصواب فى الدين ، والاستقامة على جادته ، وفضلهم بذلك على غيرهم (أعداء الأمويين) من أصحاب الدعاوى الضالة المضلة فاختارهم للخلافة .

ودعوى اختيار الله لبنى أمية هذه تتردد كثيرا فى أشعار شعرائهم ، باعتبارها حجة على ثبوت حقهم فى الخلافة ، وقد ناقشناها عند كلامنا على مبادىء الحزب الأموى .

وقريب من هذه الصورة الدينية للخليفة الأموى ، قول نابغة بنى شيبان ، فى يزيد بن عبد الملك (٢) :

وحباه المليكُ تقوى وبِرًّا وهو من سوس ناسكٍ وصالِ
يقطع الليل آهة وانتحاباً وابتهالاً لله أىَّ ابتهالِ
تارة راكعاً وطوراً سجوداً ذا دموعٍ تنهلُّ أىَّ انهلال
وله نَحْبةٌ إذا قام يتلو سُوَراً بعد سورة الأنفال
عادلٌ مقسطٌ وميزان حقٍّ لم يَحِفْ فى قضائه للمُوالي
موافياً بالعهود من خشية الله ومَنْ يَعْفُه يكن غير قالِ

(١) ديوانه ٣٥٥ . سرف : متجاوز للحد . ورع : جبان .

(٢) ديوانه ٦٨ . السوس : الأصل ، النحبة : الواحدة من النحيب ، وهو البكاء . مقسط : من أقسط : عدل . يحف : يجور . يعفه : يطلب عطاءه . قال : كاره ، والمعنى لايعطه عطاء قليلا فيغضب ، أو لايحرمه فيكرهه .

وتذكرنا هذه الصورة للخليفة الأموى ، بصورة الإمام الهاشمى ، التى وصف بها أيمن بن خريم الشيعى الأئمة بعامة ، وكأنما أراد شعراء بنى أميه أن يواجهوا بهذه المعانى الدينية ، التى تصور الخليفة الأموى ، حاكما تقيا ، هاديا مهديا ، ورعا ، عادلا ، مرضيا ، أن يقابلوا بها ، ماخلعه شعراء الشيعة على أئمتهم من سمت دينى ، فتكون دعاية أموية تقاوم دعاية شيعية .

وحول فكرة الاختيار التى أشرنا إليها منذ قليل ، يقول عدى بن الرقاع العاملى [١] مادحاً الوليد بن عبد الملك :

أو لا ترى أن البرِّيـةَ كلَّهـا ألقت خزائِمهَـا إليـه فقادهـا
ولقــد أراد الله إذْ ولاّكهــا من أمةٍ إصلاحهـا ورشادهـا
أَغْمَرْتَ أرضَ المسلمين فأقبلت وكففْتَ عنها مَنْ يرومُ فسادها
وأصبتَ فى أرض العدوِّ مصيبةً عمّتْ أقاصى غَوْرِها ونجادهـا

فقد جعل الله صلاح أمة ورشادها على يدى هذا الخليفة الأموى ، الذى اختاره الله للخلافة ، فقام على مصالحها خير قيام ، ودفع عن أمة الإسلام المفسدين ، وحمى دين الله ، ونصره على المتربصين به من أعدائه على الثغور .

ولايفوتنا أن نلاحظ هنا أن الشاعر خلط هذه المعانى والدعاوى الدينية ، بمعان سياسية ، تجعل من هذا الخليفة حاكما راشداً مصلحاً .

ويضيف الفرزدق [٢] إلى مسألة الاختيار ، كأساس شرعى ــ فى زعم بنى أمية ــ

---

(١) الأغانى ٨ / ١٧٧

(٢) أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة ، من بنى مجاشع بن دارم التميمى والفرزدق لقب غلب عليه ، ويكنى أيضا أبا الأخطل لولد كان له اسمه الأخطل وهو شاعر أيضا ، ووهم قوم فظنوه الأخطل التغلبى النصرانى ، وجعلوه أخا للفرزدق ، مع أن الفرزدق مسلم ، وأم الفرزدق ليلى بنت حابس أخت الأقرع بن حابس ، وللفرزدق رواية ، فقد روى عن على بن أبى طالب ، وأبى هريرة ، والحسين ، وابن عمر ، وأبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنهم ، ووفد مادحا على الوليد ابن عبد الملك وأخيه سليمان ، واختلف العلماء بالشعر فى الحكم بينه وبين جرير ، والأكثرون على تقديم جرير ، وهم جميعا لايسوون بين جرير والفرزدق وبين الأخطل ، ويرونه لم يلحق شأوهما ،ولا له مثل مالهما . ومات الفرزدق على الأرجح سنة ١١٠ ، وقيل : ١١٢ هـ ، وقيل ١١٤ هـ بالبصرة . وأخباره كثيرة كصاحبه جرير . انظر : الأغانى ١٩ / ٢ ، ٨ / ١٨٠ ، ومعاهد التنصيص ١ / ١٧ ، وابن خلكان ٢ / ٢٥٩ ، وأمالى المرتضى ٢ / ٢٨٤ ، والشعر والشعراء ١٨٣ ، ومعجم الشعراء ٤٨٦ ، والمؤتلف ١٦٦

للخلافة الأموية « حجة أخرى — سبق أن أشرنا إليها فى عرض مبادىء الحزب الأموى — وهى الوراثة ، زاعما أن الخلافة تراث عثمان الأموى ، وهم أولياؤه ، فيقول مادحاً عبد الملك بن مروان [١] :

فالأرضُ لله ولَّاهــا خليفتـــه   وصاحبُ الله فيها غير مغْلوب

تُراث عثمان كانوا الأوْليـاءَ له   سِرْبالُ مُلكٍ عليهم غير مَسْلُوب

والغريب أن يصف الفرزدق عبد الملك فى البيت الأول بأنه خليفة الله ، ثم ينقلب فى البيت الثانى فيجعله ملكا ، وبين الخلافة والملك بُعْد ؟! ولكنه ضعف الإيمان بما يقول هو الذى جعله يخلط فيه .

وتكثر المعانى الدينية فيما مدح به الشعراء الأمويون الخليفة العادل العابد عمر بن عبد العزيز الأموى ، حتى لتكاد تنفرد الصبغة الدينية بالمدائح التى قيلت فيه ، ويرجع هذا إلى ماأخذ به هذا الخليفة الأموى نفسه من تحرى العدل ، والزهد ، ورعاية أمور المسلمين الدينية ،ومصالحهم الدنيوية مهتديا بسنن الخلفاء الراشدين « وبخاصة عمر بن الخطاب ، الذى كان نسبه من جهة أمه يتصل به « فأمه بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، وكان عمر بن عبد العزيز يعتز بهذا الانتساب أشد الاعتزاز ويفخر به [٢] .

ولهذا كان الإمام الشافعى — رحمه الله — يعده خامس الخفاء الراشدين ويقول : « الخلفاء خمسة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وعمر بن عبد العزيز ، رضى الله عنهم » [٣] ، ولذا لم يكن ينظر إلى الخلافة نظرة غيره من الخلفاء الأمويين ، الذين جعلوا منها ملكا عضوضا .

فلننظر فيما مدحه به جرير [٤]:

---

(١) ديوانه ٢٥ — ٢٧

(٢) تاريخ الطبرى ٧ / ١٣٧ والمختصر لأبى الفدا ١ / ٢٠٠ وانظر تاريخ الشعوب الإسلامية ١ / ١٨٠ ومروج الذهب ٢ / ١٦٧ (البهية) .

وانظر صورا من تحريه العدل بين الرعية وسيرته فيهم ، ومنهجه فى الحكم : فى عيون الأخبار ٢ / ١١٥ وأمالى المرتضى ٢ / ٣١٢

(٣) آداب الشافعى ومناقبة (سوريا) ١٨٩

(٤) ديوانه ٥١٠ — ٥١١ والكامل للمبرد ٢ / ٢٠٩ (الأزهرية) . أبو حفص : كنيه عمر بن الخطاب خلعها الشاعر على عمر بن عبد العزيز لما جعله راشداً مثله .

أشبهت من عُمر الفاروق سيرتَه   قاد البرَّية وائتمتْ به الأمـمُ
تدعو قريشٌ وأنصارُ الرسول له   أنْ يُمْتَعُوا بأبى حفْصٍ وماظلموا

ولم يكذب جرير فيما قال عن اجتماع قريش والأنصار على الدعاء لهذا الخليفة ، والرضا به ، وبسياسته ، فقد أرضى معهم كل محبى العدل والإنصاف ، واستقامة السيرة من المسلمين ، وكثيراً ممن هواهم مع آل البيت ؛ إذ كان أول من أبطل سب علىّ بن أبى طالب على المنابر من الخلفاء الأمويين [١] ، فلم يُسبّ على بعد ذلك .

بهذا وغيره مدحه عبد الرحمن الخزاعى ، فقال [٢] :

وَلِيتَ فلم تَشتُم علياً ولم تُخِفْ   بَرِيًّا ولم تتبع سَجِيّة مُجرِمِ
وقلت فصدَّقتَ الذى قلتَ بالذى   فعَلتَ فأضحى راضيًا كل مُسلم

وناحية أخرى نحب أن نؤكد بها المغزى السياسى لهذا الشعر الذى قيل فى بنى أمية ، والقصد إلى الدعاية فيه ، فى مقابل الدعاية الشيعية فى شعر الشيعة للأئمة ، ونعنى بهذه الناحية ، ماتردد فى بعض أشعار الشعراء الأمويين من أن الخليفة الأموى هو مهدى هذه الأمة ، وهى الفكرة نفسها التى رددها شعراء الشيعة فى الإشادة بأئمتهم .

نجد هذا فى قول جرير يمدح سليمان بن عبد الملك [٣] :

سليمـانُ المبـارك قد علمتُـم   هو المهدىُّ قد وَضُح السبيلُ
أجرت من المظـالم كل نفسٍ   وأديتَ الـذى عَهـد الـرسولُ

يصفه بالعدل ، وأنه قائم فى الأمة بما عهد به النبى ، من الأخذ بكتاب الله وسنة نبيه ، وهو من أجل هذا مهدى هذه الأمة ، الذى ينشر العدل ، ويمحو الظلم .

وكثيرا ماأطلق شعراء بنى أمية اسم « المهدىّ » أو صفاته على بعض خلفاء بنى أمية [٤] ، تأثراً بعقيدة المهدية عند الشيعة ، ومقابلة لدعواهم بمثلها ، وحتى يوقعوا اليأس فى قلوب أتباع المذاهب الشيعية ، بأن الخليفة الأموى القائم هو المهدى ، كما أشرنا إلى

---

(١) مروج الذهب ٢ / ١٦٧ (البهية) .
(٢) المختصر لأبى الفدا ١ / ٢٠١
(٣) ديوانه ٤٣٢ . وفى أخبار سليمان بن عبد الملك أنه كان فصيحا فَهْماً ، محبا للعدل والغزو . انظر : العبر للذهبى ١ / ١١٨ .
(٤) انظر مثلا : ديوان جرير ٣٤ ، ٥٠٥ ، وديوان الفرزدق ٣٢٧

ذلك فى كلامنا على هذه العقيدة عند الشيعة [١] .

وإذا كان الشيعة ــ أو بعض فرقهم ــ قد بالغوا فى إضفاء صفات القداسة على أئمتهم ، فإن من الشعراء الموالين لبنى أمية من جاراهم فى مبالغاتهم ، فأسبغ على بعض الخلفاء الأمويين من الصفات مايرفعهم إلى مقامات ليسوا من أهلها ، تزيُّدا وتهويلا ، وإمعانا فى الدعاية لهم ، تبعا للرغبة العارمة فى إرضائهم ، وهز أريحيتهم للعطاء .

من ذلك قول الفرزدق يمدح يزيد بن عبد الملك [٢] :

ولو كان بعْد المُصْطفى من عباده نَبِيٌّ لهم منهم لأمْـر العــزائم
لكنتَ الّـذى يختـاره اللهُ بعـده لحمْلِ الأمانـات الثقـال العظـائم
ورِثْتُم خليـل الله كلَّ خِزانـــة وكـلَّ كتــابٍ بالنبـــوة قائم
بحُكْمِ الذى فوق السماوات عرشُه بما فى ثَرَى سبعٍ من الأرض عالم

وايمَ الله إنها لمبالغات سمجة ، ممجوجة ، يرفضها الضمير المسلم ، وتأباها كل شرائط المبالغة المستملحة فى الشعر ، ولكنه المال والرغبة فيه ، أعمت بصيرة هذا الشاعر ، فأنسته رعاية دينه ، وغيبت ضميره ، ولايشفع له أن صدر دعواه فى صلاحية يزيد للنبوة بلفظة «لو» ، فمن يكون يزيد بن عبد الملك ؟ وماذا كان فيه من خلق ودين ، ليصلح للنبوة ؟ بخاصة والفرزدق يرى أن العقبة الوحيدة فى طريقه ليكون نبيا ، أنه لانبى بعد المصطفى !!

والشعر كله مبالغات ، فقد بالغ الفرزدق فى دعوى بنى أمية أن الله اصطفاهم للخلافة ، وبالغ فجعل يزيد أهلا للنبوة ، وبالغ فخلع عليه صفة خص الله تعالى بها نبيه إبراهيم ، فزعم أن يزيد خليل الله ، وبالغ فى توريث بنى أمية علم الله ، وماستودعه كتب أنبيائه .

وأغلب الظن أن الفرزدق متأثر فى مبالغاته تلك بغلاة الشيعة ، الذين زعموا أن أئمتهم ورثة العلم الإلهى ، المعروف عندهم بعلم الباطن وقد يعزز هذا مايُرى من أن

---

(١) راجع ص ٤٣ من هذه الدراسة .
(٢) ديوانه ٨٢٩

الفرزدق كان يتشيع لآل البيت ، وإن لم يكن من غلاة الشيعة ، وله أبيات فى مدح سليمان بن عبد الملك ، يصفه فيها بمثل ماكان يمدح به الشيعة أئمتهم من صفات التقديس [١] .

هذه الصور والمعانى الدينية ، لم تكن دائما تمثل الصبغة الغالبة على هذا الضرب من الشعر السياسى الأموى ، فبجانبها قامت صور ومعان أخلاقية ، هى فى مجموعها من المثل العليا التى كان العربى يتمدح بها ، ويهتز طربا إذا مدح بها أيضا .

وقد تخلص نماذج أشعار الأمويين لهذه المثل ، وقد تمازجها بعض المعانى الدينية ، أو السياسية ، أو اللونان معا .

ولنضرب لذلك مثلا قول الأخطل التغلبى النصرانى ، شاعر الأمويين الأكبر ، يشيد ببنى أمية عامة [٢] :

حتى تَنَاهَى إلى القوم الذين هم   عِزُّ الملوك وأعلى سُوْرة الحسب
بِيضٌ مَصاليتُ لم يُعدل بهم أحَدٌ   بكل مُعْظَمةٍ من سادة العرب
الأكثرين حَصىً والأطيبين ثَرىً   والأحْمَدِين قِرىً فى شدّة اللَّزَبِ
ماإنْ كأحْلَامهم حِلْمٌ إذا قَدَروا   ولاكبَسْطَتهم بَسْطٌ لدى الغضبِ
وهم ذُرَى عبد شمسٍ فى أُرُومتها   وهم صَميمهمُ لَيْسُوا من الشَّذَبِ
وكان ذلك مقسوماً لأوّلهم   وِراثَةً ورِثوها عن أب فأبِ

فمدار الإشادة فى هذه الأبيات ، شرف النسب ، والشجاعة ، والحزم ، والعفو عند المقدرة وكثرة الأتباع ، وعزة السلطان ، والكرم ، وكأنما أحس الأخطل أن هذه الصفات غير كافية لتبرير انفرادهم بالسلطان ، فأضاف أن الملك كان قدراً مقسوما لأول خلفائهم ، ثم توارثه من جاء بعده ، ولعمرى ، إنها حجة واهية ، لاتؤيد دعوى ، ولاتقنع باستحقاق .

ولايقال : إنما مدح الأخطل بهذا المعانى ، واحتج بهذه الحجة الواهية ، لأنه كان نصرانيا ، فمن أين له المعانى الدينية ، والبراهين الشرعية ، فقد رأينا من قبل شعراء مسلمين عجزوا أيضا عما عجز عنه الأخطل فى باب الاحتجاج ، لانعدام البراهين

---

(١) انظر ديوانه ٣٢٧

(٢) ديوانه ١٨٨ — ١٨٩ . السورة : أعلى الشيء وحدته ومنتهاه : مصاليت : جمع مصلات : وهو الرجل الماضى فى الحوائج . اللزب : القحط . الشذب : الفروع الضعيفة من الشجرة تقطع لتفرقها وعدم فائدتها .

المقنعة أصلا على دعوى بنى أمية .

ثم إن الأخطل ليس وحده ، من حيث الميل إلى المثل الأخلاقية فى مديح بنى أمية فأبو العباس الأعمى يشيد برجاحة عقولهم ، وسعة صدورهم ، وشدة غضبتهم ، وسدادهم فى الملمات ... فى قوله : (١)

أبنـى أُميـة لاأرى لكـــمُ شَبَهاً إذا ما التفَّتِ الشيِّعُ
سعـةً وأحلامـاً إذا نزعـت أهل الحلوم فضرها النَّـزَعُ
وحفيظـــة فى كل نائبـــة شهبـاء لاينهى لها الرَّبــع
الله أعطاكمُ وإن رغـمتْ من ذاك أنف معاشرٍ رفعوا

وهو كأصحابه السابقين لايجد حجة قوية يدلى بها ، فيكتفى بأن الله أعطى ؟!

أما جرير فيمزج بين معان أخلاقية ، ومعان دينية فى مدح هشام بن عبد الملك (٢) :

وأنت إذا نظرت إلى هشامٍ عرفتَ نِجار مُنْتَجَب كريم
ولـىّ الحق حين يؤمّ حَجـاً صفوفاً بين زمـزم والحَــطيم
يرى للمسلمين عليه حقًّا كفِعل الوالـد الرَّؤُف الـرحيم
إذا بعضُ السنين تعرَّقتْنـــا كفى الأيتامَ فَقْـدَ أبى اليتيم
أميـــرُ المؤمـــنين على صراط إذا اعـــوجّ المواردُ مستـــقيم
أميـرَ المؤمـنين جمعت دينـــاً وحِلْمـاً فاضلاً لذوى الحلوم

هنا يمزج جرير بين المعانى الدينية والأخلاقية ، فالخليفة هشام شريف النسب ، كريم ، وهو أكثر مايكون كرما حينما يشتد القحط ، حيث يتولى رعاية الضعفاء ، والفقراء ،ومن لاعائل لهم ، كما أنه حليم عاقل ، فاق حلمه وعقله ذوى العقول .

أما العناصر الدينية فى هذه الصورة ، فنراها فى قوله :(ولى الحق) ، وقوله : (يرى

---

(١) الأغانى ١٥ / ٥٨

(٢) ديوانه ٥٠٧ ــ ٥٠٨ ، والكامل للمبرد ٢ / ١١٢ (الأزهرية) . النجار (بالكسر) : الأصل والمعدن . المنتجب : المختار . الحطيم : مابين الركن والباب . تعرقتنا : اجتاحت ماعندنا ، والمراد زمن الجدب .

للمسلمين عليه حقا) وقوله : (على صراط مستقيم) وقوله : (جمعت دينا) .

وقد يكون من تتمة الصورة للمديح السياسى فى شعر الحزب الأموى ، أن ننظر فى بعض ماخص به شعراء بنى أمية كبار رجال الدولة الأموية من أمراء الأقاليم ، وقادة الجند ، من إشادة نوهت بجهودهم فى تثبيت دعائم ملك بنى أمية ، وحمايته من أعدائه المتربصين به ، وحسن سياستهم فى تدبير أقاليمهم ،ورعاية أهلها .

والذى يبدو أن شخصية الحجاج بن يوسف الثقفى الأمير القائد الأموى المشهور ، وما كان لها من سمات قوية ، وهيبة عظيمة فى قلوب الناس ، ورهبة شديدة أيضا ،وماأداه من خدمات للدولة الأموية ، يبدو أن ذلك كله جذب أنظار كثير من شعراء بنى أمية ، فالتفتوا إليه ، وخصوه بغير قليل من مدائحهم ، ولم يحظ أمير أو قائد أموى من هؤلاء الشعراء بمثل ماحظى به الحجاج .

وعلى بعض ماقيل فيه من مدائح ، نقتصر ، باعتباره مثلا لما قيل فى غيره من العمال والقواد ؛ يعكس المعانى التى دارت حولها أشعار شعراء الحزب الأموى فى هذا الباب .

من ذلك قول ليلى الأخيلية [١]فى الحجاج [٢] :

أحجّاجُ لايفْلُل سلاحُك إنها الـ ـمنايا بكف الله حيث تراها
أحجاّج لاتُعطى العصاةَ مناهمُ ولا اللهُ يُعطى للعُصاة مناها
إذا هبط الحجاجُ أرضاً مريضةً تتبـع أقصى دائهـا فشفاهـــا

فهى تمدح شجاعته فى الضرب بقوة على يد العصاة ، أعداء الدولة وترى أن الله مؤيده وناصره ؛ ولذا فهو يقضى على الفتن ، ويتتبع العصاة أينما كانوا ، فيشفى الأرض منهم ، ويخلص الدولة من فسادهم .

---

(١) صاحبة توبة بن الحُميِّر الشاعر ، الذى اشتهر بحبها ، واشتهرت به ، وهى شاعرة مجيدة ، جمع شعرها ونشر فى العراق ، وأجود شعرها ماقالته فى رثاء صاحبها توبة ، وعمرت طويلا حتى ماتت ١٠١ هـ ، بقونس أو بحلوان ،وهى فى طريقها إلى قتيبة بن مسلم والى خراسان . انظر : الأغانى ١٠ / ٦٣ ، وأمالى القالى ١ / ٩٠ ، ومقدمة ديوانها .

(٢) ديوانها ١٢٢

وتبلغ بها المبالغة فى تصوير شخصية الحجاج إلى أن ترفعه إلى مقام عال ، ومنزلة عظيمة ، تلى فى السلطان والهيبة منزلة الخليفة ، وليس فوقه إلا الله والخليفة :

حجّاج أنت الذى مافوقه أحدٌ إلا الخليفة والمستغْفَر الصّمد

وجميل منها هذا الوصف لله فى هذا المقام ، وكأنها تستغفر الله من هذا المعنى !!

ومالها لاتبالغ فى مدح الحجاج ، والمبالغة أسلوب يكاد يطرد على ألسنة شعراء الأمويين ، فى مدح خلفائهم وعمالهم على السواء ؟!

وليبالغ أيضا العُدَيْل بن الفَرْخ (١) ، فى مدحه الحجاج ، كما نرى فى قوله (٢) :

بنى قُبَّةَ الإسلام حتى كأنما هَدَى الناس من بعد الضَّلال رسولُ
خليلُ أمير المؤمنين وسيفُه لكل إمامٍ صاحبٌ وخليل
به نصر الله الخليفة منهمُ وثبت ملكاً كاد عنه يزولُ
فأنت كسيف الله فى الأرض خالدٍ تصُول بعون الله حين تصول

أرأيت كيف يشبه الحجاج بالرسول فى الهداية بعد الضلال ؟! ويصفه بأنه خليل أمير المؤمنين وسيفه ، وهو سيف يصول بعون الله ، فيبنى قبه الاسلام سامقة تطاول عنان السماء ،ويثبت أركان الدولة ، وينصر الخليفة .

وهذا المزج بين المعانى الدينية وغير الدينية هو أيضا سمة رأيناها فى مديح الخلفاء ، ونراها فى قول أحد بنى سعد بن زيد مناة للحجاج (٣) :

قلتُ لعَنْسى وهى عَجْلَى تعتدى لانوم حتى تُحْسَرى وتُلْهَدِى
أو تَرِدِى حوضَ أبى محمدِ ليس الأمير بالشَحيح الملحدِ

---

(١) العُديل بن الفرخ العجلى ، أحد بنى الحارث بن ربيعة بن عجل ، ويلقب العَبَّاب ــ وهو اسم كلبه ــ شاعر فارسى ،هجا الحجاج فطلبه ، فهرب منه إلى قيصر الروم ، فبعث الحجاج يهدد قيصر ، فبعث به إلى الحجاج ، وجرى بينهما حديث انتهى بالعفو عنه . انظر : الأغانى ٢٠ / ١١ ،وخزانة الأدب ٢ /٣٦٨ (بولاق) ، والتذكرة السعدية ١٣٨ ، والاشتقاق ٣٤٥ ، والشعر الشعراء ١١٥

(٢) الأغانى ٢٠ / ١٤ ، والشعر والشعراء ١٥٥

(٣) سمط اللآلى ٢ / ٦٤٩ . تحسرى : تضعفى وينال منك الهزال . تلهدى : يقال لُهِدَ البعير : إذا عض الحمل غاربه وسنامه حتى يؤلمه .

وبمثل هذه المعانى مدح جرير [١] ، والفرزدق [٢] الحجاج ، ومدح حارثة بن زيد زيادَ بن أبيه [٣] .

ب: التصدى لأعداء بنى أمية ومناهضة خصومهم (الهجاء السياسى):

عانت دولة الأمويين منذ قيامها إلى آخر أيام حياتها ، من معارضة قوية نشطة ، حرمتها كثيرا من التمتع بالهدوء والاستقرار ، وجعلتها على أهبة ، تكاد تكون دائمة ، لمواجهة هذه المعارضة بالسيف واللسان يظاهر كل منهما الآخر .

لقد اجتمع على مناوأتها ، ومناهضة سياستها طوال فترة حكمها حزبان قويان : الشيعة ، والخوارج ، وأقلقها وهدد كيانها فترة من حياتها حزب ثالث ، هو حزب ابن الزبير ،أو فلنقل ثورة ابن الزبير ، التى لم يتح لها من العمر مايساعدها على استكمال مقومات الحزب .

وكان الشيعة أشد المعارضين لبنى أمية خطراً من الناحية السياسية والفكرية ، وأكثرهم تهديداً للأسس التى قامت عليها دولتهم ، ففضلا عن أنهم كانوا أكثر أحزاب المعارضة تنظيما ، وأوفرها حظاً من الجماهير المناصرة ، كانت أقواها حجة ، وأظهرها حقا ، وأخطرها فكراً ، بينما اقتصرت خطورة الحزبين الآخرين على الناحية الحربية ، لكثرة ماأشعلاه من وقائع وحروب ، شغلوا بها جند الأمويين ، وهددوا فى بعض هذه المعارك كيان دولتهم ووجودها ، حتى كادت تسقط فى يد الزبيريين حينا ، كما ظلت معارك الخوارج شوكة فى جنبها فى كل الأحيان .

فلم يكن بد من أن يجرد بنو أمية سلاح الشعر ، باعتباره أقوى وسائل الدعاية فى الحياة العربية آنذاك ، ليحاولوا إسكات دعاية خصومهم ، كما جردوا سيوف الحرب ، لتسكت حركات معارضيهم ، وثوراتهم .

ونهض شعراء بنى أمية يريشون سهام الشعر ، ويحددون أسنة القوافى ، ليجردوا

---

(١) ديوانه ٩٠

(٢) ديوانه ٦٩٥

(٣) تاريخ الطبرى ٦ / ١٢٦

أعداء الدولة وخصومها السياسيين من كل فضيلة ، ويدمغوهم بكل نقيصة فى الخلق والسيرة والدين .

وسنلاحظ من خلال دراستنا لنماذجهم فى هذا الاتجاه ، أن أكثر الدعاوى ترديدا فى هذا النوع من شعرهم ، هى التى تدور حول الرمى بالفسق والضلال والكفر ، والزيغ واتباع الهوى ، واعتناق البدع ، ومحاربة الله ورسوله ، والانحراف عن كتاب الله وسنة نبيه ، وهى المعانى نفسها التى أثارها الشعر الشيعى المناهض لأعداء الأئمة ومذاهبهم ، والتى سنراها بارزة أيضا فى شعر الخوارج والزبيريين فى هذا المقام .

وترجع غلبة الصبغة الدينية على شعراء الهجاء السياسى فى العصر الأموى بعامة ، إلى أن كل حزب من الأحزاب السياسية فى هذا العصر ، كان يحرص على أن يحوط فكره ، وسلوكه ، وأوجه نشاطه بسياج من الدين ، وأن يقدم نفسه للجماهير المسلمة على أنه حزب الله ، المؤيد بنصره ، الحارس على دينه ، المؤيد لتعاليم هذا الدين وقيمة ، وأن الدعاوى التى تناهضه ، والأحزاب التى تعارضه ، كلها ضالة مضلة فاسدة مفسدة ، تحالفت مع الشيطان ، فتنكبت طريق الله ، ووسيلة هذه الأحزاب جميعا الدعاية بلسان الشعر ، وغايتهم جميعا ، اجتذاب الأنظار ، وجمع القلوب المسلمة حول دعوتهم ، وصرفها عن دعاوى الخصوم ،وتنفيرها منهم .

ولايعنى ماذكرنا من غلبة الطابع الدينى على شعر الهجاء السياسى فى هذا العصر ، قلة العناصر غير الدينية فيه ، إذ كان من هم الدعاية السياسية للأحزاب تجريد الخصوم أيضا من القيم الأخلاقية والإنسانية ، تجتمع هذه العناصر وتمتزج ، أو تفترق وتنفرد فى هذا النموذج أو ذاك .

فعبد الله بن همام السلولى يصور أعداء الأمويين بعامة ، على أنهم أهل شغب وعصيان ، وفتن ، وأن السياسة التى تصلح لردعهم هى سياسة الشدة والبطش والعنف ، ولاينسى مع ذلك أن يوصى بنى أمية بالحرص على ملكهم ، ويحثهم على التمسك بالخلافة فيهم (١) :

---

(١) طبقات ابن سلام ٥٢٤ ، وانظر : مروج الذهب ٢ / ٨٥ (البهية) .عنابسة : جمع عَنْبسة ، وهو الأسد الكالح الوجه عند اللقاء . معاوى : يعنى معاوية بن يزيد . لاترموا بها الغرض البعيدا : يعنى لاتخرجوها من بيتكم إلى بيت بعيد النسب عنكم . أهلها : يعنى الرعية . ضجرت عليكم : شغبت ونفرت ، يعنى الرعية ، استعاره من ضجر الناقة عند الحلب ، وهو شغبها ورغاؤها . اعصبوها ...الخ : هذا مثل للشدة وقهر أهل العناد والخلاف ، من عصب الناقة : وهو شد فخذيها وأدنى منخريها بحبل حتى تحلب .

خِلافة ربكم كونوا عليها كما كنتُم عَنَابِسَةً أُسُودا
تلقَّفَها يزيدٌ عن أبيه وخُذْها يامعاوى عن يزيدا
أُديروها بنى حَرْب عليكم ولاتَرْموا بها الغرضَ البَعيدا
فإنْ دنياكمُ بكم اطمأنتْ فأولوا أهلها خلقا سديداً
وإن ضَجِرتْ عليكم فاعصبوها عصاباً تُسدَّر به شديدا

ويلاحظ أن الشاعر ــ وهو يرسم لبنى أمية السياسة التى ينبغى أن يسيروا عليها إزاء الرعية ــ يقيم نصائحه وإرشاداته على أساس أن دولتهم قامت بحق الاختيار الإلهى ، وقانون الإرث ، وهما الأساسان اللذان طالما تحدث بهما أنصار الأموية من الشعراء ، كما رأينا فى شعر المديح السياسى عند شعراء بنى أمية .

ويصم نابغة بنى شيبان خصوم الأمويين بعامة أيضا ، بالحقد والغدر ، والعمى عن الحق ، والإعراض عن سماع صوت العقل والضمير ، ويبالغ فيصفهم بأنهم مشركون نجس ، ويدعى أن الله قد توعدهم بما توعّد به المشركين النجس ، الذى حاربوا الله ورسوله : [١]

قَسراً عدوك إن الضِّغنَ قاتلُهم وإنهم إن أرادوا غدرة تعسُوا
لايبصرون وفى آذانهم صَمَمٌ إذا نَعَشْتَهمُ من فتنةٍ رَكَسُوا
همُ الذين سمعتُ الله أوعدهم المشركون ومنْ لم يَهْوَكُم نَجَسُ

ولما قتل زيد بن على بن الحسين ــ إمام الشيعة الزيدية ــ ونقلت رأسه إلى المدينة وصلبت هناك ، وقف أمامها شاعر من صنائع أمير الأمويين على المدينة ، وقال [٢] :

أَلَا ياناقِضَ الميثا قِ أبْشِر بالذى سَاكا
نقضتَ العهد والميثا قَ قِدْما كان قدماكا
لقد أخلف إبليسُ الـ ـذِى قَدْ كان مَنَّاكا

فهذا الإمام الشيعى خائن ، ناقض للعهد والميثاق ، الذى أخذه بنو أمية على الناس بالطاعة ، فخرج بذلك عن الجماعة ، ومن ثم لقى جزاء البغاة الخارجين ، فكانت

---

(١) ديوانه ٢٩ . ركسوا : عادوا إلى الفتنة .

(٢) تاريخ الطبرى ٨ / ٢٧٨ (بيروت) . قد : من القود وهو القصاص . قدماك : ماقدمت يداك .

عاقبته عاقبة كل من يسلم زمام قلبه وعقله لقيادة إبليس اللعين ، فيغويه ويضله ،ويوسوس له بالأماني ، ثم يتخلى عنه ، ويتركه ليلقى حتفه ، شأن كل من دان بطاعة إبليس .

وطابع المبالغة هو الغلاب على ماأورده هذا الراجز من معانٍ فى هذا الهجاء ، فليس مثل زيد بن الحسين من يهجى بأنه صاحب إبليس ، غوىٌ باغٍ ، ولذا استنكر من استمع إلى الراجز هذه المعانى ، وقال له : « ويلك ، أتقول هذا لمثل زيد ، فقال : الأمير غضبان ، فأردت أن أرضيه !! » [1] ، ثم لم يسكت عنه أنصار زيد ، فنهض أحد شعرائهم ، يرد على هذا الرجز ، قائلا [2] :

ألا ياشاعر السُّوءِ لقد أصبحتَ أفّاكا
أتَشْتم ابن رسول الله وترضى مَنْ تولاّكا
ألا صبحكَّ الله بخزيٍ ثم مسَّاكا
ويوم الحشر لاشكَّ بأن النار مثواكا

ألم نكن على حق فيما ذهبنا إليه من تعليل شيوع المبالغة غير المقبولة فى أشعار المعبرين عن الأموية ، بالرغبة فى إرضاء بنى أمية ، طمعا فيما وراء رضاهم من مال أوجاه ؟ ألم يصرح هذا الراجز بأنه قال ماقال فى الإمام زيد ، لاعن إيمان واعتقاد بما قال ، وإنما لإرضاء الأمير الأموى ؟ وهذا هو الفرق الجوهرى بين أمثال هذه المعانى فى شعر الأمويين السياسى ، وشعر الشيعة السياسى ، وكذا شعر الخوارج — كما سنرى فى دراسة شعرهم — هى هنا إدعاء زائف لاحقيقة له ولاصدى فى نفس قائله ، وهى هناك تعبير عما يؤمن به الشاعر ويعتقده حقا وصدقا .

ويتهكم بعض شعراء بنى أمية من اعتقاد الشيعة فى مهديهم ، قائلا حين قتل زيد ابن الحسين وصلب [3] :

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلةٍ ولم أر مهديًا على الجذع يُصلبُ

وقد غلط الشاعر ، فما قال أحد بمهدية زيد بن على بن الحسين ، وإنما ذهبت

---

(١) المصدر السابق

(٢) المصدر نفسه

(٣) مروج الذهب ٢ / ١٨٢ (البهية) .

إلى القول بالمهدية فرق الشيعة الأخرى غير الزيدية ، فإن كان هذا من قبيل التشنيع على الشيعة ، حتى المعتدلين منهم ، فلا بأس به فى مقام الدعاية السياسية !!

ومن قبل زيد بن على ، تهجم بعض شعراء بنى أمية على الحسين بن على فوصفه أحدهم — وهو كعب بن جابر الأزدى [(١)] — بأنه باغ ، خارج عن الملة ، يحل قتاله وقتله ، تشاركه فى كل هذا شيعته ؛ ولذا كان هذا الشاعر فى جملة من اجترءوا على الحسين يوم كربلاء ، وشاركوا فى سلبه ، وحكى ذلك فى ابيات ختمها بقوله :

فجرّدتُه فى عصبة ليس دينُهم بدينى وإنى بابن حربٍ لقانعُ

فقد أباح له — فى زعمه — تجريد سيفه على الحسين وشيعته ، أنهم يدينون دينا غير دين الإسلام الذى عليه بنو أمية وأتباعهم .

وفى أخبار المعارك التى كانت تدور بين الخوارج وبنى أمية شعر كثير من الفريقين ، يحكى هذه الوقائع ويشيد بالأبطال ، ويرثى القتلى ، كما يعبر عن تنديد كل منهما بالآخر ، وسخريته من رأيه واعتقاده ، وكثيرا مايتبادل شعراء الفريقين تهمة الكفر ، والجور ، والمروق من الدين ، وتحريف أصوله .

فعقب انتصار المهلب بن أبى صفرة على الخوارج فى إحدى معاركه معهم بنواحى كرمان ، نهض كعب الأشقرى [(٢)] ، يسجل هذا الانتصار ، ويعبر عن رأى الأمويين فى الخوارج قائلا [(٣)] :

لولا المهلَّبُ للجيش الذى وردُوا أنهار كِرْمان — بعد الله — ماصَدَروُا
إنا اعتصمْنا بحبل الله إذْ جحدوا بالمُحْكَمَات ،ولم نكفر كما كفروا
جاروا عن القصْد والإسلام واتبّعوا دِيناً يخالفُ ماجاءت به النُذُرُ

فهو يرى فى الخوارج ، مايراه الخوارج فيمن عداهم من المسلمين ، منحرفين عن

---

(١) لم أعثر على ترجمة له .

(٢) أبو مالك كعب بن معدان الأشقرى ، والأشاقرة قبيلة من الأزد ، فارس شاعر خطيب ، معدود فى جملة أصحاب المهلب ، ومذكور فى حروبه مع الأزارقة ،وهو من شعراء خراسان ، استفرغ شعره فى مدح المهلب . انظر : سمط اللآلى ١ / ٥٨٩ ، ومعجم الشعراء ٣٤٦ ، والأغانى ١٣ / ٥٤ .

(٣) تاريخ الطبرى ٨ / ٢٧١

سنن الدين ، يعتنقون عقائد وأفكارا لم يأت بها كتاب منزَّل ،ويجحدون آيات الله المحكمة فى كتابه ، التى تدعو إلى طاعة الله ورسوله وأولى الأمر من المسلمين ،ولذا فهم كافرون كفرا صريحا ، لاشبهة فيه .

ويتقرب الراعى النميرى [١]إلى عبد الملك بن مروان ، بقسم عظيم صادق ، يتبرأ فيه من الخوارج والزبيريين جميعا ، مؤكدا بذلك ولاءه للأمويين ، يعادى من يعادونه ويعتقد فى أعدائهم مايعتقدونه [٢] :

إنِّى حلفتُ على يمينٍ برَّةٍ   لاأكذبُ اليومَ الخليفة قيلا

ماإن أتيت أبا خُبَيب وافداً   يوماً أريد لبيعتى تبْديلا

ولاأتيت نُجيْدة بن عُويمرٍ   أبغى الهدى فيزيدنى تضليلا

فالشاعر يسخر من دعوى الخوارج بأنهم على الحق والهدى ، زاعما أنهم أهل ضلالة ، فهم ضالون مضلون ، إذا قصدهم ضال طالبا الاهتداء بما عندهم زادوه ضلالا بمقولاتهم .

وعلى الرغم من قصر الفترة التى عاشتها ثورة ابن الزبير ، فقد أثارت حولها وحول صاحبها عبد الله طائفة من شعر الهجاء ، أكثره موجه لابن الزبير ، يسخر من دعواه ، ومما أطلقه على نفسه من ألقاب ، ويحمله وزر تعريض الكعبة لانتهاك حرمتها ، وعدم مراعاته لهذه الحرمة ، فيما يرتكبه بالحرم من استهتار بدماء الناس وحرياتهم ... إلخ ماسنرى فى النماذج التالية :

---

(١) أبو جندل عبيد بن حصين بن معاوية ، من بنى نمير بن عامر بن صعصعة من هوازن ، شاعر فحل أكثر من وصف الإبل فلقب بالراعى ، وكان مقدما حتى هجا جريراً فهجاه وأخمل ذكره ، وعده ابن سلام من الطبقة الأولى فى الإسلام . انظر : الأغانى ٢٠ / ١٦٨ ، وطبقات ابن سلام ٤٣٤ ، والشعر والشعراء ١٥٦ ، والمؤتلف ١٢٢ .

(٢) الكامل للمبرد ٣ / ١٠٥ (الأزهرية) ، وطبقات ابن سلام ٤٣٩ . يمين برة : صادقة . أبو خبيب : كنية عبد الله بن الزبير . نجيدة : هو نجدة بن عويمر ، أو عامر ، الحنفى الحرورى ، كان رأسا من رءوس الخوارج ، ذا مقالة منفردة من مقالاتهم ، وإليه تنسب فرقة النجدية منهم ، وصغره الشاعر إظهارا لتحقيره والاستهانة بأمره ، قتل على يد أصحابه سنة ٦٩ هـ . انظر : العبر للذهبى ١ / ٧٧ ، والخوارج والشيعة ٨٣ ، وتاريخ الطبرى ٧ / ١٩٤ ، والكامل لابن الأثير ٤ / ٢٠١ (بيروت).

لما قتل عبد الله بن الزبير وصلب جثمانه بمكة ، قال عبد الله بن الزَّبير الأسدى ، يتشفى فى مقتله ، ويصفه ويصف أتباعه بالإلحاد : [١]

كأنى بعبد الله يركبُ درعَهُ   وفيه سِنانٌ زاعبىٌّ مُحَرَّبُ
وقد فَرَّ عنهُ الملحدون وحلّقتْ   به وبمن آساه عَنقَاء مُغرِبُ
تولوّا فخلّوْه فشال بِشِلْــوه   طويلٌ من الأجذاع عارٍ مشذّب

ولما بلغ ابن الزبير الأسدى أن ابن الزُّبير قتل بعض شيعة بنى أمية ، كانوا يتجسسون لعبد الملك بن مروان بمكة ، هجاه ، وسخر من ادعائه بأنه العائذ ببيت الله الحامى لحماه ، وهو يسفك الدماء فى الحرم ، ولايرعى له حرمة ، فقال [٢]:

أيهُّا العائذُ فى مكَــةَ كمْ   من دمٍ أجْريتَه فى غير دَمْ
أَيَــدٌ عائــذةٌ مُعْصِمــــةٌ   وَيَدٌ تقتُل من جاء الحرمْ؟

وهو يبطل حجة الزبيرية القائمة على الاعتزاز بالحرم ، وحمايته ، فيقول [٣] :

أيا راكباً إمّا عرضْتَ فبلّغَنْ   كبير بنى العوّام إن قيل مَنْ تعْنى
تحدِّث من لاقيْتَ أنك عائذٌ   وصرَّعتَ قتْلى بين زمزم والركن

وهذه النغمة الساخرة من لقب ابن الزُّبير بارزة ، كثيرة التردد فى الشعر الأموى الذى هجى به ، وغنى عن البيان أن هذا الشعر إنما قصد به إثارة غضب المسلمين على هذا الذى ينتهك حرمة الحرم ، ويتجاهل حكم الله فيه ، بأن من دخله كان آمناً ، وقد أجاد شعراء بنى أمية الضرب على هذا الوتر الحساس فى ضمائر المسلمين ، لينفروا قلوبهم من ابن الزبير ، ويصدوهم عن اتباعه ، والانتصار له ، وفى هذا مالايخفى من الدعاية السياسية ، التى تسلك هذا الشعر فى عقد السياسة الحزبية .

فأبو صخر الهذلى يشيد بعبد الملك لقتاله ابن الزبير ، وإنقاذ الحرم الشريف من عبثه وإفساده ، فيقول [٤]:

---

(١) ديوانه ٥٢ ومعاهد التنصيص ٢ / ١١٠ . يركب درعه : يقال للقتيل : ركب درعه ، إذا خر لوجهه على دمه . محرب : محدد . الزاعبى : الرمح الذى إذا هز تدافع كله ، شال بشلوه : رفع أشلاءه .

(٢) ديوانه ١٣٢ والأغانى ١٤ / ٢٥١ (دار الكتب) .

(٣) ديوانه ١٣٣ ـــ ١٣٤ والأغانى ١٣ / ٣٨ ومروج الذهب ٢ / ٩٩ (البهية) .

(٤) الأغانى ٢١ / ٩٥ . الجأواء : الكتيبة العظيمة من الجيش .

وإن أمير المؤمنين الذى رمى ... بجأواءَ جمهورٍ تسيلُ إكامُهَا
مِنَ ارْض قرى الزيتون مكة بعدما ... غَلَبْنَا عليها واستُحِلَّ حَرَامهـا
وإذ عاشَ فيها الناكثون وأفسدوا ... فخيف أقاصيها وطار حَمَامُها

فالفسق والإفساد فى الأرض ، وانتهاك حرمة البيت الحرام ، وإزعاج الآمنين ، من أهل الحرم وحمامه ، هى العناصر التى اعتمدها أبو صخر فى هذا الهجاء ، والغالب عليها الصبغة الدينية ، كما نرى .

وصفة الإلحاد ، من عناصر الهجاء ، التى تدور كثيرا ، فيما وجه من هجاء لابن الزبير وأصحابه ، وقد مر بنا قول ابن الزبير الأسدى الذى يشمت فيه بمقتل ابن الزبير ، ويرميه وأنصاره بالإلحاد .

ونضيف هنا قول جرير ، من قصيدته المشهورة فى مدح عبد الملك ، التى يقول فيها مادحا بنى أمية :

ألستم خير مَن ركب المطايا ... وأنْدَى العالمين بُطون راح

متهما ابن الزبير وأنصاره بالإلحاد (١) :

دعوتَ الملحدين أبا خُبيْب ... جِماحاً هل شفيتَ من الجماح؟

كما يروى أن يزيد بن معاوية ، استعرض جيش الشام الذى وجهه إلى المدينة ، لما دانت لابن الزبير ، ثم قال مندداً بابن الزبير ، متهكما ببخله فى العطاء ، واصما إياه بالخداع بالدين والإلحاد (٢) :

أبلغ أبا بكر إذا الليلُ سَرَى ... وهبط القومُ على وادى القرى
أجمع سكرانٍ من القوم تَرى ... أم جمعِ يقظان نفى عنه الكرَىَ
ياعجباً من ملحِدٍ ياعجبا ... مُخادعٍ بالدين يعفو بالعُرَى

---

(١) ديوانه ٩٩ وطبقات ابن سلام ٣٥٨

(٢) الكامل لابن الأثير ٤ / ١١٢ (بيروت) وانظر : مروج الذهب ٢ / ٩٥ (البهية) . أبو بكر : كنية أخرى لابن الزبير إلى جانب أبى خبيب . أجمع سكران : كان ابن الزبير يسمى يزيد ، السكران الخمير ، (انظر : مروج الذهب ٢ / ٩٥) يعفو بالعرى : يجود بالعطاء التافه ، وضرب العرى مثلا لذلك .

وبمثل هذا يعرِّض أحد بنى سعد بن زيد مناة ببخل ابن الزبير ـــ الذى اشتهر به ـــ ويصفه بالإلحاد فى ثنايا مديحه للحجاج بن يوسف (١) :

قلت لِعنسْي وهْى عَجْلَىَ تعتدى   لانوم حتى تُحسرى وتُلهـدَيِ
أو تردِى حوض أبِى محمـد   ليس الأمير بالشحيح الملحـد

وتلوح هذه المعانى الدينية أيضا من خلال ماوجهه شعراء بنى أمية إلى الزبيريين من تهديد لهم ، أو تحريض عليهم .

نرى هذا فى قول أعشى ربيعة ، يحرض عبد الملك على قتال ابن الزبير ويسخر من دعواه فى الخلافة (٢) :

آل الزُّبير من الخلافة كالتـى   عَجَل النتاجُ بِحَملْها فَأَحَالَها
أو كالضِّعاف من الحَمُولة حُمِّلت   مالا تَطيـق فضيِّـعتْ أحمالها
قومُـوا إليهم لاتنامـوا عنهم   كمْ للغُـواة أطلتُـم إمْهَالَهـا
أمْسَوْا على الخيرات قُفْلا مُغْلَقاً   فانهض بيُمْنك فافتتح أقفـالها

يعنى أن آل الزبير فى تعرضهم للخلافة دون صلاحية لها ، كناقة أريد لها أن تحمل وتلد ، قبل أن تنضج ، وتطيق الحمل ، فكان ذلك سببا فى إفساد أمرها ، أو كالناقة الضعيفة التى حملت فوق قدرة تحملها ، فألقت حملها وأفسدته ، وإنما جرأهم على هذا طول صبركم وإمهالكم يابنى أمية لهؤلاء الغاوين المفسدين الضالين ، البعيدين عن كل خير .

وقد يخلص الهجاء السياسى الأموى للمعانى الأخلاقية والاجتماعية ، ويعتمد عليها فى تشويه صورة المهجو أخلاقيا واجتماعيا ، بسلب كل صفة حميدة ، وكل سلوك اجتماعى طيب عنه ، ويقدم لنا أبو العباس الأعمى أبرز نموذج فى هذا الاتجاه .

قالوا: لما علم ابن الزبير أن أبا العباس الأعمى ، يكاتب بنى مروان بعوراته ، ويمدح عبد الملك ، ويتقبل صلاته ، أغلظ له ، وهم به ، ثم نفاه من مكة إلى الطائف ، فقال أبو

---

(١) فى الرواية أن الشاعر كان يعرض بابن الزبير فى هذا الشعر . انظر : سمط اللآلى ٢ / ٦٤٩

(٢) الأغانى ١٦ / ١٥٦ . أحالت الناقة : مضى عليها عام دون حمل . الحمولة : الناقة التى يُحمل عليها .

العباس ، يهجوه ويهجو قومه بنى أسد القرشيين (١) :

بنو أسد لاتذكروا الفخر إنكم ... متى تذكروه تُكذَّبوا وتُحَمَّقُوا
متى تُسألوا فضلاً تضنوا وتبخلوا ... ونيرانكم بالشرِّ فيها تُحرّق
إذا استبقت يوماً قريشٌ خرجتمُ ... بنى أسدٍ سُكْتاً وذو المجد يسبِقُ
تجيئون خلف القوم سوداً وجوهكم ... إذا ماقريشٌ للأضاميم أصفقُوا
وماذاك إلا أنّ للّؤم طابعا ... يلوحُ عليكم وسْمُهُ ليس يخلق

فالهجاء هنا بالبخل ،والدناءة ، وهوان الشأن بين القوم ، والضعف والصغار ، واللؤم المتأصل فى الطبع ، وكلها مما كان العرب ــ قبل هذا العصر ــ تهجو به ، وتسقط المروءة ، فيما بينها ، وكانوا يعدونه من الهجاء المقذع (٢) .

ولم يسلم مصعب بن الزبير ــ على جوده واصطناعه الشعراء بجزيل العطاء ــ من شرر نار هذا الهجاء ، التى أحدقت بأخيه عبد الله ، وماكان مصعب ليكون بمنأى عن هذه الحرب الكلامية ، مادام قد ارتضى أن يكون ساعداً لأخيه ، ومعينا له على أمره ، وعاملا على العراق من قبله .

وهذا شاعر من أهل الشام يراه منافقا لايريع إلا لصوت القوة ، ولايشفيه من نفاقه إلا حد السلاح فى حرب شديدة ضروس (٣) :

إذا مامنافق أهل العرا ... ق عُوتب يوما فلم يُعتِبِ
دلفْنا إليه لدى موقِفٍ ... قليل التفقُّد للغُيَّب

ويفخر شاعر أموى شامى آخر ، من اليمانية ، بيوم مَسْكِن (٤) ، الذى قتل فيه مصعب (سنة ٧١هـ) ، وابنٌ له يسمى عيسى (٥) ، ويتشفى فى المضرية أنصار ابن

---

(١) الأغانى ١٥ / ٦٠ . سكتا : جمع ساكت ، وهو من الخيل الذى يأتى آخراً . ليس يخلق : ليس يبلى .

(٢) انظر : العمدة ١ / ١٣٣

(٣) تاريخ الطبرى ٧ / ١٨١ ومروج الذهب ٢ / ١٢١ (البهية) . يعتب : يزيل سبب العتاب ، والمعنى يرجع عن نفاقه .

(٤) موضع على نهر دُجيل ، عند دير الجاثليق ، وهو دير قديم البناء ، غربى دِجْلة ، على الحدّ بين آخر سواد العراق وأول أرض تكريت . انظر : مسالك الأبصار ١ / ٣٠٨ ، وفى يوم مسكن راجع : العبر للذهبى ١ / ٨٠ وتاريخ الطبرى ٧ / ١٨٥ وأيام العرب فى الإسلام ٤٦١ .

(٥) قتل مع مصعب فى هذا اليوم ولداه : عيسى وعروة . انظر : العبر للذهبى ١ / ٨١ والكامل لابن الأثير ٤ / ٣٢٧ (بيروت) .

الزبير ، فيقول [١]:

نحن قتلنا مصعباً وعيسى
وابن الزبير البطل الرئيسا
عَمداً أذقْنا مُضرَ التبئيسا

هكذا كانت حملة شعراء بنى أمية عنيفة على خصومهم ، المناهضين لدولتهم ، وأبرز ماتسمت به هذه الحملة ، روح السخرية من ابن الزبير ، وسلب الصفات الدينية .

ج : تخليد ذكر من قضوا من زعماء الحزب وأبطاله (الرثاء السياسى) :

قل حظ الحزب الأموى من شعر الرثاء ، مع أنه كان أكثر الأحزاب شعراً و شعراء كما ذكرنا من قبل .

وليس هذا راجعا لقلة أبطال الحزب الذين جادوا بأرواحهم فى المعارك الحربية الكثيرة بين الأمويين وأحزاب المعارضة المعاصرة لهم ، ولاعن خلو صفوف هذا الحزب من الشخصيات القوية ، التى أدت خدمات جليلة فى الحفاظ على دولته من كيد أعدائه ، وخلفت وراءها ــ بعد موتها ــ صفحات من الكفاح المخلص ، تسجل مآثرهم فى نصرة زعمائه ، وتأييد سلطانهم ، ولا عن فقر فى نصيبه من الرجال ، ذوى الرأى والتدبير والحنكة ، الذين تولوا زعامته .

وإنما يرجع تأخر الرثاء ــ كما وكيفا ــ بين فنون الشعر السياسى للحزب الأموى إلى الشعراء المعبرين عن هذا الحزب ؛ إذ كانت كثرتهم من الشعراء الذين اجتذبهم عطاء بنى أمية ، وحركت ألسنتهم الرغبة فيما يصيبونه من مالهم وجاههم ، والرثاء فن يقال بدافع الوفاء للمرثى ، وبين الرجاء والوفاء بون بعيد ، كما قال العلماء بالشعر قديما [٢] .

وماوجدنا من أشعار قليلة فى الرثاء السياسى الأموى ، يأخذ اتجاهين :

أحدهما: رثاء الخلفاء : وفيه يعنى الشاعر بالنظر إلى المغزى السياسى ، الذى يمكن أن يوجه إليه هذا الفن ؛ ولذا نرى الشعراء يحرصون فى رثائهم على إبراز صورة مثلى للسياسة الأموية مجسمة فى الخليفة المرثى ، وغالبا ماتعتمد هذه الصورة على المبالغة والادعاء .

---

(١) الكامل للمبرد ٢ / ١٠٨ (الاستقامة) .

(٢) انظر : الشعر والشعراء ١٧

والآخر : رثاء القواد والفرسان : وهو رثاء يبكى فيهم البطولة والتضحية فى سبيل نصرة الحق ، وإقامة الدين ، وقوة دولة الإسلام ، والإبقاء على وحدة الجماعة الإسلامية ، ومن هنا يكثر أن يضفى عليهم الشعراء صفة الشهداء ، ويبشروهم بأجر الشهادة عند الله ؛ لأنهم قاتلوا وقتلوا فى سبيل إعلاء دين الله .

وقد يلتفتون إلى بعض مناقبهم ــ كالشجاعة ،وصدق القتال ، والصبر عليه ... ونحو ذلك ــ فيعددونها ، كما يصورون مدى خسارة الدين والدولة بفقدهم ، وعظم الرزء بهم .

فمن رثاء الخلفاء الأمويين قول عبد الله بن همام السلولىّ ، يرثى معاوية بن أبى سفيان (١) :

تَعَزَّوا يابنى حَرْبٍ بصبرٍ	فَمَنْ هذا الذى يرجو الخلودا؟!
لقد وارى قليبكُمُ بياناً	وحلْماً لاكفاء له وَجُودا
وجدناه بغيضا فى الأعادى	حَبيباً فى رعيته حَميدا
أمينا مؤمناً لم يقْضِ أمراً	فيوجد غِبُّهُ إلا رشيدَا
فقد أضحى العدوُّ رَخِىَّ بالٍ	وقد أمسى التقىُّ به عَميدا
فعاض الله أهل الدين منكم	وردّ لنا خلافتكم جديدَا

وأهم مايبرزه هذا الرثاء ، إحاطة السياسة الأموية ، ممثلة فى المرثى ، بهالة من الرشد ، وحسن الرعاية للرعية ، وصدق النكاية فى الأعداء ، حتى نالت رضا أهل التقوى والدين .

وهذا مايجعل من مثل هذا الرثاء رثاء سياسيا ، لامجرد تعبير عن عاطفة خاصة بين الشاعر والمرثى ؛ إذ لايفوتنا أيضا أن نلاحظ هذه المعانى الدينية التى خلعها الشاعر على هذه الشخصية السياسية ، فصفات الأمانة على حقوق الدين ، والإيمان ، والتقوى ، والرشد ، والاستقامة على طريق الهدى ، هى التى جعلت من فقد هذا الخليفة الأموى خسارة فادحة ، فرح بها الأعداء ، وأحزنت الأتقياء .

(١) طبقات ابن سلام ٥٢٢ . القليب : البئر القديمة ، والمراد هنا القبر ، لأنه يحفر كما يحفر القبر . لاكفاء له : لانظير له . غبه : الغب والمغبة هنا : العاقبة . عميد : شديد الحزن . عاض : من العوض ، يقال : عاضة وأعاضه : أعطاه بدل ماذهب منه .

ولعل فى البيت الأخير مايعبر بوضوح عن الغرض السياسى لهذا الرثاء ؛ حيث يدعو الشاعر لأهل الحق والدين ، أن يخلف الله عليهم ، من بنى أمية ، من يكون مثيلا لمعاوية ، فيحفظ خلافتهم على خير أمرها .

وقد أكثر شعراء الأمويين من رثاء الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز ، لما عرف عنه من العدل ، والزهد ، ورعاية حق الدين ، وأكثر مابأيدينا من الرثاء الذى قيل فى خلفاء بنى أمية ، قيل فى هذا الخليفة ، وربما كان ذلك لأنه يجسم بحق ماكان يدعيه الشعراء لغيره من الخلفاء الأمويين ، من المثالية السياسية للخليفة المسلم ، دون أن يكون له واقع حقيقى فى سياستهم ، أما رثاء عمر بن عبد العزيز ، فى ظل سياسته الرشيدة ، فإنه يفتح للشعراء أبوابا من القول ،ويتيح لهم ثروة من المعانى ، كفيلة بتحقيق الغرض السياسى ، الذين يسعون إليه من وراء هذا الفن ، لما توفره لشعرهم فى رثائه من عنصر الصدق ، وماتضمنه له من قوة التأثير .

ومن جيد مارثى به عمر بن عبد العزيز قول محارب بن دثار [١] :

كم من شريعة حقٍّ قد أقمتَ لهم ... كانت أُميتتْ وأخرى منك تُنتظر
يالهف نفسى ونفس الواجدين معى ... على النِجوم التى تغتالها الـحُضَرُ
ثلاثــــة مارأت عين لهم شبهاً ... يَضُمّ أَعْظُمَهم فى المسجد المدرُ
فأنت تتبعهــــم لم تَأْلُ مجتهداً ... سُقْياً لها سنناً بالحق تُقتفَـرُ
لو كنت أُمْلِكُ والأقدارُ غالبةٌ ... تأتى صباحاً وتَبْياناً وتَبتَكـرُ
صرفتُ عن عُمَرَ الخيراتِ مصرعَه ... بدير [٢] سِمْعَان لكن يغلبُ القَدر

فقد أحكم الشاعر ربطَ سياسة عمر بن عبد العزيز بسياسة الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول أبى بكر وعمر وعثمان ، وتجاهل رابعهم علىّ بن أبى طالب ؛ لعدم اعتراف الأمويين وأنصارهم بخلافته .

---

(١) مسالك الأبصار ١ / ٣٥٢ . المدر : قطع الطين اليابس الذى لارمل فيه . تقتفر : تتبع ، من قفر الأثر واقتفره ، إذا تتبعه .

(٢) دير سمعان ، من أعمال حمص مما يلى بلاد قنسرين (مروج الذهب ٢ / ١٦٧ (البهية) ، وقيل بغوطة دمشق على سفح جبل قيسون (الأغانى ٨ / ١٤٦ ومابعدها) ويرفض ابن فضل الله العمرى هذه الأقوال ، ويقول : إنما هو فى قرية يقال لها البقرة من قبلى معرة النعمان (مسالك الأبصار ١ / ٣٥١ ــ ٣٥٢) وكانت وفاة عمر بن عبد العزيز لخمس بقين من رجب سنة ١٠١ هـ ، وانظر : الاشتقاق ٣٥٦ والعبر للذهبى ١ / ١٢٠ ــ ١٢٢

فسياسته أحيت الحق ، وأماتت الباطل ، وأخذت الناس بما كانت عليه السياسة الإسلامية أيام العهد الدينى الزاهر ، عهد الراشدين ، الذى كان الخليفة يترسم خطاه ، ويجتهد فى السير على دربه ، ويعمل جاهداً على إحياء ماأهمل من تقاليده العادلة الصالحة .

من أجل هذا يلهف الشاعر نفسه ، ونفس أهل الحق والدين ، على فقد هذا الخليفة الذى تعادل الخسارة فيه ، الخسارة فيمن سبقوه من الثلاثة الراشدين ، الذين أشار إليهم ،ويتمنى — والمنى خدع — لو أعطى القدرة على دفع المنية عنه ، وأنى له هذا ؟! فالمنية قدر ، والله غالب على أمره .

هنا فقط — أعنى فى رثاء عمر بن عبد العزيز — تختفى ظاهرة المبالغة والادعاء ، وهما سمتان غالبتان على أكثر الرثاء فى شعر الحزب الأموى ، بل على أكثر شعرهم السياسى باتجاهاته المختلفة .

ونحسب أن هذا الرثاء كان قوى التأثير فى نفوس سامعيه من معاصرى الشاعر ، كما هو قوى التأثير فى نفوسنا الآن ، فنقول : رحم الله عمر بن عبد العزيز ، وأجزل ثوابه ، على ماجتهد فى رعاية دين الله ، وصلاح حال عباده .

وهذا شاعر آخر يبكى فى عمر بن عبد العزيز ، عدله ،وزهده فى متاع الدنيا ولهوها وزينتها ، وحرصه على سلامة الدين ونقائه (١) :

قد غَيَّبَ الدّافنون الَّلحْدَ إذْ دفنوا ... بديـر سِمعَـانَ قِسْطـاس الموازيـن
مَنْ لم يكنْ همُّه عَيْناً يُفجِّرها ... ولاالنخيـل ولا رَكَضَ البراذيـن
أقـولُ لما أتـانى ثَمَّ مهلكـه ... لايَبْعَـدَنَّ قِوامُ الحق والديـن

فهذه صورة مثلى أيضا ، لما ينبغى أن تكون عليه سياسة ولى الأمر فى الإسلام ، يراها الشاعر محققة فى هذا الخليفة العادل ، الزاهد ، القائم فى سياسة حكمه على الحق والدين .

---

(١) ينسب هذا الشعر للفرزدق مع بعض الاختلاف فى الرواية فى مروج الذهب ٢ / ١٧٤ (البهية) ويروى دون عزو ، فى الكامل للمبرد ٢ / ٢١٣ (الأستقامة) وتاريخ الطبرى ٨ / ١٤١ ، قسطاس الموازين : كناية عن وصفه بالعدل . لم يكن همه ... الخ : أراد أنه لم يكن مشغولا بالدنيا ، حريصا على متاعها ، وإنما كان همه الدين والآخرة . ركض البراذين : جمع برذون : الدابة ، كناية عن اللهو واللعب .

ومع أن شخصية عمر بن عبد العزيز وسياسته ، كانت ثرية رحبة فى جوانب الحق والخير ، والعدل ، بحيث لاتحوج القائل فيها إلى تزيد أو مبالغة ، فقد أبى بعض الشعراء إلا أن يطبع شعره فى رثاء هذا الخليفة بطابع شعر الأموية بعامة ، من المبالغة والتهويل والادعاء .

ومن عجب أن نجد هذه الظاهرة فى شعر لجرير ، يرثى الخليفة عمر بن عبد العزيز ، معَ أنه واجد ـــ مع أصالة فنه ، وتوهج موهبته ـــ من واقع شخصية المرثى وسياسته ، ماكان يرضى فنه ، ويبرز عبقريته الشعرية ، دون حاجة إلى التردى فى هوة المبالغة المرفوضة ، والادعاء الذى يجافى الحق والعقل والدين ؟!

يقول جرير (١) :

تنْعَى النعاة أمير المؤمنين لنا ... ياخيرَ من حجّ بيت الله واعْتمرَا
حمَلتَ أمرا جسيما فاصطَبرت له ... وقمت فيه بحق الله ياعُمَرا
فالشمسُ طالعةٌ ليست بكاسفةٍ ... تبكى عليك نجومَ الليل والقَمرَا

فهنا مبالغة غير مقبولة ، تبدو فى إطلاق المعنى فى الشطر الثانى من البيت الأول ، وفى ادعاء أن الشمس ـــ مع أنها طالعة ـــ لم يحجب ضياؤها الكواكب والقمر ، لأنها حزينة لفقد الخليفة ، ومن ثم فقد ذهب ضياؤها .

ويؤكد ماذكرنا من أن شخصية عمر بن عبد العزيز وسياسته ، كانتا عامرتين بالخير ، مما ينفى الحاجة إلى المبالغة فى الحديث عنها إشادة أو رثاء ، أن من أعداء بنى أمية ـــ بخاصة من الشيعة ـــ من بكى عمر بن عبد العزيز بعد وفاته ، وأثنى عليه وعلى سياسته ؛ لأنه كان بحق خير بنى أمية .

ففى رثائه يقول الشريف الرضى ـــ الشاعر العباسى : (٢)

ياابن عبد العزيز لو بكتْ العَيْـ ... ـنُ فتىً من أمية لبكيتُك
أنت نزّهتنا عن السبِّ والشتْـ ... ـمِ فلو يمكن الجَزا لجزيتُك
قَبْرَ سمعانَ لاعَدتْك الغَوادى ... خيرُ ميْتٍ من آل مروان مَيْتُك

---

(١) ديوانه ٣٠٤ والكامل للمبرد ٢ / ٢١٠ (الاستقامة) والعقد الفريد ٣ / ١٧٣ (الجمالية) .
(٢) مسالك الأبصار ١ / ٣٥٢

ومن رثاء عمال بنى أمية وقوادهم وأبطالهم : قول الفرزدق يرثى الحجاج [١] :

ليبكِ على الإسلام مَنْ كان باكيا ... على الدين أو شارٍ على الثغر واقفِ

إلى أن يقول :

وماذرفتْ عيناى بعد محمدٍ ... على مِثْله إلا نُفوسَ الخلائفِ

فالفرزدق يخشى على الإسلام بعد فقد الحجاج ، ويبدى من الجزع عليه ، مالم يبده على فقيد من غير الخلفاء .

والتكلف فى هذا الشعر واضح ، والشاعر يركب فيه مركبا صعبا ، إذ جرته المبالغة إلى أن يختار هذا المعنى ليرثى به الحجاج ، وهو من هو فى الجرأة على الدين،وانتهاك حرمة الكعبة،بضربها بالمجانيق ، وإحراق ستائرها ، فى حصاره لابن الزبير،فضلا عن استهتاره بسفك دماء المسلمين،والشاعر نفسه يشهد بأنه لم يكن صادقا فى هذا الرثاء، وإنما قاله إرضاء للخليفة الوليد بن عبد الملك،ولما عوتب فى ذلك من ابن عباس أظهر ندمه[٢].

ولما مات القائد والفارس الأموى أبو غسان مالك بن مِسْمعَ [٣] الشيبانى البكرى ، وكان من أبطال الأمويين فى حروبهم ضد مصعب ابن الزبير بالعراق ، رثاه جرير ، معتمدا هو الآخر أسلوب المبالغة والتهويل فى هذا الرثاء ، بقوله [٤] :

بَحَرىّ قومِى هَيجّى الأحْزانا ... واستعجِلنَّ بدمعك الأرنانَا

ولقد تواضَع مَنْ بحضرة مالكٍ ... مابين مصر إلى قصورِ عُمَانا

قالت ربيعةُ إذْ تُوفى مالكٌ ... لا رُزْءَ أكبر من أبى غسانًا

ولقد تركتَ بنى الزُّبير بمأزق ... لاطاعة تبعوا ولا سُلطانا

فجرير يستدر الدموع على هذا الفارس الفقيد ، ويصور الفجيعة فيه شديدة

---

(١) ديوانه ٥ والعقدالفريد ٣ / ٢٥٨ . محمد : يقصد أبا محمد ، وهى كنية الحجاج .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) ممن شهد صفّين مع معاوية ، وقاتل مصعب بن الزبير يوم الجفرة بالبصرة وأبلى بلاءً حسناً ، وفقد إحدى عينيه فى هذه المعركة ، ولما غلب مصعب على البصرة هدم داره ونهب متاعه . توفى سنة ٧٣ هـ . انظر : الكامل لابن الأثير ٤ / ٢٧٨ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٦٣ وتاريخ الطبرى ٧ / ١٨٢

(٤) ديوانه ٥٨٢ . بحرى : اسم امرأة . الأرنان : الصراخ والعويل . تواضع : المراد هنا : أطرق فى حزن خاشع .

حتى لقد استشعرها المسلمون فى أنحاء الدولة ، من مصر إلى عُمَان،فأطرقوا فى حزن أليم خاشع .

أما قومه بنو ربيعة ، فمصيبتهم فيه أعظم وأجل ، فقد فقدوا بموته بطلهم الشجاع ، الذى لاعوض له .

وأخيرا يقدم جرير صورة من صور بطولة المرثى ، وتفانيه فى خدمة الأموية،ومجالدة أعدائها بالعراق،فينوه ببلاء مالك«يوم الجُفْرة»[١]وهو يوم وثبت فيه المروانية على الزبيرية.

■ :نظرات فنية فى شعر الأموية السياسى :

نوجز هنا أبرز الملامح الفنية الهامة ، التى يمكن استخلاصها من الدراسة التحليلية السابقة ، لشعر الأموية السياسى ، بمختلف ألوانه ، مع ملاحظة أننا لم نستكثر من نماذج هذا الشعر ، لما وجدنا من اضطراد ظواهره الفنية ، فقليله يغنى عن كثيره .

١ــ امتزاج المعانى الدينية ، بالعناصر السياسية ، بخاصة فى الأشعار التى اتجهت إلى خلفائهم ، وكبار رجال دولتهم ، تشيد بهم ، وتصور سياستهم .

ففيها تكثر المعانى الدينية ، التى حرص الشعراء فى كل حزب على إضافتها إلى زعمائهم ، كما تترد كثير من المعانى السياسية العامة ، التى من شأنها أن تجعل من سياستهم نموذجا مثاليا للسياسة الإسلامية فى رعاية مصالح الرعية ، دينا ودنيا ، كحسن السياسة ، والسهر على مصالح الرعية ، والبراعة فى تدبير شئون الملك ، وإخماد الثورات والفتن ، والوقوف بالمرصاد لأعداء الإسلام على الثغور ، وتصوير عظمة ملكهم ، وقوة سلطانهم ، وكثرة أنصارهم ، واتساع دولتهم [٢] .

رأينا هذا فى مدح الأخطل لبنى أمية بعامة ، ومدح عدى بن الرقاع للوليد بن عبد الملك ، وإشادة أبى العباس الأعمى بمكارم بنى أمية ... وغيرها ، وقد مر بنا تعليل هذه الظاهرة فى صدر دراسة شعرهم .

---

(١) كان هذا اليوم سنة ٧٠ هـ . راجع فى خبره ، وبلاء مالك فيه : الكامل لابن الأثير ٤ / ٦ ٠ ٣ (بيروت) وتاريخ الطبرى ٧ / ١٨٢

(٢) اتسعت رقعة الدولة الإسلامية أيام حكم الأمويين ، وامتدت من المحيط الأطلسى إلى ماوراء حدود الهند والتركستان ، ومن المحيط الهندى إلى بلاد القوقاز . وإلى أسوار القسطنطينية ، وخاصة فى خلافة الوليد بن عبد الملك ، حيث غزت جيوشه قلب أوربا الغربية . انظر : دولة الأمويين (د. على حبيبة) ص ١١ ومابعدها .

٢ــ حاول بعض شعرائهم أن يصور الخليفة الأموى فى صورة أقرب إلى القداسة ، تشبه إلى حد كبير مايسمو إليه الشيعة بأئمتهم ، فقد استعاروا بعض صفات الأئمة فى الشعر الشيعى ، ونسبوها إلى بعض الخلفاء ، كالمهدية ، والحق الإلهى القائم على اختيار الله ، ووراثة علم الأنبياء ... وغير ذلك ، مما تأثروا فيه بالشيعة ، وأسبغوه على خلفائهم ومرت بعض نماذجه ، كمدح جرير لسليمان بن عبد الملك ، ومدح الفرزدق له،ولأخيه يزيد ، وقد فسرنا هذه الظاهرة فى ثنايا دراستنا لأشعارهم فى هذه الناحية .

٣ــ شيوع المعانى الدينية فى شعرهم المناهض للخصوم (الهجاء السياسى) ؛ إذ كانوا يدركون أن كل حزب من الأحزاب المعارضة ، يدعى لنفسه حقا شرعيا ، قائما على أسس دينية ، فالشيعة يدعون الحق بالإرث والوصية لعلىّ بن أبى طالب ــ رأس الأئمة ــ والنص عليه ، والخوارج يستندون إلى أن الإسلام يسوى بين المسلمين فى الحقوق والواجبات ، وأن الخلافة حق للمسلمين ، يتولاها منهم أصلحهم لها ، فهى ليست قاصرة على قريش ، أو أهل البيت منهم ، والزبيريون يرون أنهم أحق من بنى أمية القرشيين مثلهم ، الذين تحولوا بالخلافة إلى النظام الملكى ، بإقرارهم نظام ولاية العهد فى الأعقاب ، ثم إنهم استأثروا بأموال المسلمين ، وحقهم فى الفىء ، وفوق هذا ، فإن يزيد ابن معاوية الذى خرج عليه ابن الزبير فاسق ، لاتجوز ولايته ، وابن الزبير بتقواه وورعه ، وحرصه على مال المسلمين ومصالحهم أحق منه .

من هنا اهتم شعراء الأمويين بسلب هذه الأسس والمعانى الدينية فى مناهضتهم لزعماء هذه الأحزاب ، فكثر وصفهم بالكفر والضلال ، واستباحة المحرمات ، والانقياد للشيطان ، واتباع الهوى ، والابتداع فى الدين ... وغير ذلك مما ظهر فى نماذج شعرهم فى الهجاء .

ومع ذلك فهذا الاتجاه ليس سمة فنية يختص بها شعر الأمويين هذا ، فهو يكاد يكون اتجاها عاما فى الشعر السياسى ، الذى يتصدى للخصوم ، لدى الأحزاب جميعا .

٤ــ ضعف عنصر الصدق الانفعالى فى شعر الأمويين بعامة ؛ وذلك لكثرة الشعراء المتكسبين ، المدفوعين بالرغبة ، فى الاغتراف من عطاء بنى أمية ، فى صفوفهم . وآية هذا الضعف شيوع المبالغة والتهويل والادعاء ، وافتعال المواقف فى كثير من نماذجه ،

فطمع الشعراء فى أن يزيد ماينالونه على أشعارهم من منح الأمويين وهباتهم ، هو الذى دفعهم إلى استيحاء عقولهم ، ومهارتهم اللغوية ، أكثر من استيحاء عواطفهم ، فأجهدوا أنفسهم فى اختيار اللفظ ، وصنعة العبارة ، والجرى وراء الخيال ، والمبالغة فى المعانى .

وفيما عرضناه من نماذج شعرهم مايؤيد صدق هذه الملاحظة ، وقد تخرج المبالغة على لسان بعض شعرائهم إلى حد الغلو البعيد كل البعد عن تصور العقل ، ورعاية جانب الدين ، كما رأينا فى مدح الفرزدق ليزيد بن عبد الملك .

* * * *

— ٣ —

شعر الخوارج :

نذكِّر هنا بما سبق أن أشرنا إليه فى صدر حديثنا عن آراء الخوارج وعقائدهم [١] ، ونضيف إليه مايساعدنا على تفهم نفسية الخوارج وشخصيتهم ، التى عنها صدر أدبهم .

يعد حزب الخوارج من أعرق الفرق الإسلامية ، التى كانت تستمد أصول مقولتها من أفكار دينية ؛ لأنها إنما خرجت من أجل الدين ، دفاعا عن أوامره الصريحة التى انحرف عنها المسلمون — فى نظرهم — بقبولهم فكرة التحكيم ، بعد موقعة صفين ، ثم سرعان ماالصطبغت أفكارهم بنزعات وآراء ونظريات سياسية ، آمنوا بها ، واتخذوها جزءاً من عقيدتهم .

من أجل هذا اجتمع الخوارج ، بفرقهم المختلفة ، على تكفير على [٢] ومعاوية

---

(١) راجع ص ٤٦ — ٥٠ من هذه الدراسة .

(٢) كان مما ناقش فيه الخوارج علىّ بن أبى طالب — زاعمين خروجه على الدين فيه — أنه أباح لهم مافى عسكر أهل الجمل ، بعد هزيمتهم من الأموال ، ومنعهم من سبى النساء والذرارى ، قائلين : كيف استحللت مالهم دون النساء والذرية ؟ كما نقموا منه محو عبارة (أمير المؤمنين) قبل اسمه ، فى الكتاب الذى أرسله إلى معاوية بقبول التحكيم ، وأخذ عليه أنه شكك فى حقه ، حين قال للحكمين : إن كنتُ أهلا للخلافة فأثبتانى . قائلين : إن كنت فى شك من خلافتك ، فغيرك بالشك فيك أولى . كذلك قالوا له : لم حكمت الحكمين فى حق كان لك ؟ . وقد ناقشهم علىٌّ فى كل هذا ، ورد عليهم ، فى كلام طويل ، راجع فيه : الفرق بين الفرق ٥٨ — ٥٩ ، وانظر : مروج الذهب ٢ / ٤٠ (البهية) .

وأتباعهما ، وأكثرهم يؤمنون بوجوب الخروج على الإمام الجائر ، وأن الخلافة حق مشترك بين المسلمين ، يتولاه الصالح للنهوض به ، من أى جنس أو طبقة ، فليس بلازم أن يكون الخليفة عربيا ، ولا قرشيا ، كما يرى الزبيريون ، ولاها شميا ، كما يرى الشيعة ، ولا أمويا ، كما يحرص بنو آمية .

أى أنهم كانوا دعاة المساواة الإسلامية ؛ ولذا امتازوا فى شعرهم السياسى الدينى بشىء تفردوا به ، وامتازوا عن غيرهم فيه ، هو التفافهم حول المبادىء ، لاحول شخص ، أو جنس ، أو قبيلة ، أو عائلة [1].

وعلى هذا الأساس ، فالخوارج حزب ثورى ، جامح ، صريح العداء للدولة الأموية القائمة على وراثة الملك ، لاعلى ديموقراطية الانتخاب العام بإجماع الأمة ، لأصلح المسلمين للإمامة حسب نظرية الخوارج السياسية التى تدور حول الخلافة ، والتى تستند إلى أسس دينية ، محورها توجيه شئون المسلمين العامة ، وفقا لأوامر الله ونواهيه ، كما تبدو فى ظاهر النص القرآنى .

ومن هنا كان الخوارج من أشد الناس تمسكا بالقرآن ، وأكثرهم عكوفا على تلاوته وحفظه وتفهم ظاهر نصوصه ، فكان القرآن بهذا ، قوى التأثير فى حياتهم ، استشهدوا بآياته فى تأييد وجهة نظرهم ، كما تمثلوه ، وصدروا عنه فى حياتهم المختلفة .

ولما كان الخوارج هم الحزب الوحيد البرىء من مطامع الخلافة ، والمطالبة بها ، فقد تصوروا أنفسهم حماة الدين ، المجاهدين فى سبيله ، وتحمسوا لهذه العقيدة ـــ ولكل عقائدهم ـــ تحمسا شديدا ، وآمنوا بها إيمانا قويا ، يبعثه ويغذيه ، الشعور بأنهم ينتصرون لمبادىء ، منزهة عن الأغراض والأهواء ، فاندفعوا يحاربون عليها جهارا ، لايخفون شيئا ، ولايتقون من شىء ، ولايبطنون غير مايحاربون من أجله .

لهذا كان من مميزات شخصيتهم أيضا ، الصدق والصراحة ، وهما من مميزات سلوكهم [2] وأدبهم ، فجاء هذا الأدب قويا ، شديد التأثير فى النفوس ، سريع النفاذ إلى القلوب ، يزيد من قوته وتأثيره مايعكسه من شدة التلازم بين المذهب الأدبى (الصدق

---

(١) لمزيد تفصيل . انظر : أدب الخوارج ٤٤

(٢) انظر مزيد تفصيل لاتسام سلوك الخوراج بالصدق والصراحة : أدب الخوارج ٤٦

والصراحة فى القول) وواقع السلوك فى الحياة العملية ، فاجتمع فيه الصدقان : « الصدق الفنى والصدق الاجتماعى » [١] .

وملمح آخر من ملامح شخصية الخوارج ، التى انعكست فى أدبهم بعامة ، وشعرهم بخاصة ، نتلمسه من خلال حروبهم الكثيرة مع خصوم فرقتهم — بخاصة الأمويين — حيث نراهم يمتازون بالاندفاع والشجاعة والبطولة والحماس ، فاتخذت شخصيتهم طابعا فدائيا ، فكل منهم يقبل على الموت حريصا على الاستشهاد ، إقبال غيرهم على الحياة ، وحرصهم عليها ، فغدا الموت أمنية يحرص عليها الخارجى فى حروبه ، ويسعى وراءها ، « إذ لم يعد الموت (فى نظرهم) إلا دخول الجنة ، أو لقاء الإخوان والأحباب والأبرار الأتقياء ، الذين تقدموا على الطريق » [٢] .

وقد بلغ من شدة تحمسهم ، وإيمانهم بمذهبهم ونظريتهم ، وإقدامهم على الموت فى جرأة نادرة ، دفاعا عنهما ، وحبا فى الشهادة ، أن دوّخت فئات قليلة منهم ، جموعا غفيرة للأمويين ، وولاتهم بالعراق ، ويكفينا فى هذا المقام أن نذكر أن الحجاج بن يوسف وجه ثمانية من القواد لقتال شبيب بن يزيد الشيبانى الخارجى وأصحابه ، خلال سنتى ٧٦ ، ٧٧ هـ ، فهزمهم شبيب جميعا ، وقتل خمسة منهم ، مما اضطُرّ معه الحجاج إلى الخروج إليهم بنفسه ، وأكثر ماكان شبيب فى مائتى رجل من الخوارج ، ومع ذلك كانوا يهزمون الألوف [٣] .

وإذ كان التلازم قويا بين شخصيتهم السلوكية وأدبهم ، فقد جاء شعرهم ، الذى يتحدث عن معاركهم ، ويصور بطولاتهم تصديرا حماسيا جامحا ، مندفعا اندفاعهم فى حروبهم ، قويا قوة اقتحامهم الأهوال والمخاطر .

وتتضح شخصية الخوارج ، المتحمسة لمذهبها ، الواثقة من صواب بصيرتها فى الدين ، المؤمنة بضلال مَنْ عداهم ، المندفعة فى شجاعة إلى مناوأة أعدائها ، يتضح هذا كله من رسالة قَطَرِىّ بن الفُجاءة [٤] ، ردًّا على رسالة بعث بها الحجاج إليه ،

---

(١) شعر الخوارج ٣ .

(٢) المصدر السابق

(٣) راجع تفصيل ماأشرنا إليه ف : العبر للذهبى ١ / ٨٦ — ٨٨ ، وعيون الأخبار ١ / ١٢١ ، وتاريخ الطبرى ٧ / ٢٢٢ ومابعدها .

(٤) أبو محمد قطرى بن الفجاءة (واسم الفجاءة جَعْوَنة ، وقيل مازن) أحد بنى مازن بن مالك بن عمرو بن تميم ، ولقبه فى الحرب أبو نعامة ، وهو منسوب إلى قطر قرب البحرين ، قيل : اسمه جعونة ، وقيل هذا اسم أبيه الفجاءة ، من فحول شعراء الخوارج ، ورأس من رءوس الأزارقة ، تولى أمرهم فترة طويلة تقدر بعشرين سنة ، خرج أيام =

يقول فيها [١] :

«بسم الله الرحمن الرحيم : من الحجاج بن يوسف إلى قطرى بن الفجاءة .
سلام عليك .
المُوَحَّدُ الله ، والمُصَلَّى عليه محمد عليه السلام . أما بعد :
فإنك كنت أعرابيا بدويا ، تستطعم الكِسْرَة ، وتخف إلى التمرة ، ثم خرجت تحاول ماليس لك بحق ، واعترضت على كتاب الله ، ومرقت من سنة رسول الله ، ﷺ ، فارجع عما أنت عليه ، بما زُيِّن لك ، وادْعُنى ، فقد آن لك » .

فرد عليه قطرىّ بقوله :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من قطرى بن الفجاءة ، إلى الحجاج بن يوسف .
سلام على من اتبع الهدى .

ذكرت فى كتابك أنى كنت استطعم الكِسْرَة ، وأبْدُر إلى التمرة ، وبالله لقد قلت زُورا ، بل الله بصّرنى من دينه مآأعماك عنه ، إذ أنت سائح فى الضلالة ، غرق فى غمرات الكفر .

ذكرت أن الضرورة (الفقر) طالت بى ، فهلا برز لى من حزبك مَنْ نال الشِّبَعَ ، واتَّكأ فاتَّدع ، أما والله لئن أبرز الله صفحتك ، وأظهر لى صُلَعَتَك ، لتنكرنَّ شبعك ، ولتعلمنَّ أن مقارعة الأبطال ، ليست كتسطير الأمثال » .

والعلة التى عمت الخوراج بالنجدة والشجاعة والبطولة ، استواء حالاتهم فى الديانة ، واعتقادهم أن القتال دين ـــ كما يذكر الجاحظ [٢] .

وهذا مايعلل مانراه فى شعر الخوارج من ترديد المعانى حول استعذاب الموت فى سبيل العقيدة ، والاستخفاف بالمخاطر ، دفاعا عن حقوق الله والإسلام ، كما يعلل كثرة ذكرهم لأبطالهم وشهدائهم ، ومواقعهم .

= مصعب بن الزبير بالعراق وبقى ثلاث عشرة سنة يقاتل ، ويسلم عليه بإمارة المؤمنين ، وكان أيضا من مقدمى فرسان الخوارج ، حتى ليقال : مااستحى شجاع أن يفر من قطرى بن الفجاءة . قتل بالرى فى أواخر أيام الحجاج سنة ٧٨ هـ أو ٧٩ هـ . انظر : الطبرى ٧ / ٢٧٤ والعبر للذهبى ١ /٩٠ وعيون الأخبار ١ / ١٧٥ والاشتقاق ١٣٨ ، ٢٠٥ والتذكرة السعدية ٧٠ وذيل أمالى القالى ١٥ والخزانة ٣ / ٣٦١ وابن خلكان ١ / ٥٤٤ وزهر الآداب ٤ / ١٦٢

(١) الكامل للمبرد ١ / ٢٧٠ تخف إلى التمرة : تسرع ، يعنى أنه كان فقيرا معدما . أبدر : أسرع . فاتدع : من الدعة ، النعمة والترف .

(٢) رسائل الجاحظ ١ / ٥١

تلك أهم القسمات البارزة لشخصية الخوارج الدينية ، والنفسية ، والسلوكية ، وهى التى طبعت شخصيتهم الأدبية بطابعها ، فخلفت شعرا يعكس نفوسهم المؤمنة ، الثابتة على مبادئها ، كما يصور حياتهم ، ويعبر عما يجول فى رءوسهم ، وتهفو إليه قلوبهم ، من حب الشهادة فى سبيل الحق ، الذى خرجوا من أجله ، واستهانوا فى سبيله بما صادفهم من عقبات وصعاب ، حاكيا مع هذا بطولاتهم ، واستبسالهم فى حماسة دينية منقطعة النظير ، حفزتهم إلى الإقبال على حياض الموت ، دون خوف أو وجل ، بل فى رضاً وطمأنينة ، واستبشار برضوان الله ومغفرته ، كل منهم ينشد الموت شهيدا ، فى ساحة الجهاد الدينى ، الذى وهب نفسه له ، إيمانا منهم بأنهم وحدهم أهل الحق والهدى ، ومن عداهم جميعا على الكفر والضلال .

روى ابن قتيبة أن الفرزدق الشاعر مرّ يوما على أحد زعماء الخوارج بالبصرة ، ويدعى عاصم بن الحدثان ، فقال عاصم لابنه : أنشده ، فأنشده شعرا يمجد بطولة الخوارج ، ثم قال عاصم للفرزدق : يافرزدق : هذا شاعر المؤمنين (يعنى الخوارج) وأنت شاعر الكافرين (يعنى من عداهم) [١] .

لعلنا أدركنا من هذا الحديث عن شخصية الخوارج ، وطابع أدبهم ، المحاور الموضوعية التى دارت حولها أشعارهم ، مفرزة صورا عديدة لجوانب حياتهم الإنسانية والدينية والمذهبية ، وبطولاتهم فى معاركهم الحربية ، وآرائهم فى مخالفيهم ، وإعظامهم لأمر الشهادة فى سبيل الدفاع عن معتقدهم ، وإكبارهم لشهدائهم ، والتنويه بما أعد الله لهم من جنات عدن ، لهم فيها مستقر ومقام .

* * * *

يرسم شعر الخوارج صورا قوية الملامح ، لميولهم الدينية ، فينوه بتقواهم، وزهدهم فى الدنيا ومتاعها ، وحرصهم على أداء فرائض الدين ، وحنينهم الدائم لما وعد الله به عباده المتقين ، وخوفهم الشديد مما أوعد به الجاحدين والعاصين ، وخشوعهم المؤمن لله ،

---

(١) عيون الأخبار ١ / ١٢٤

وإقبالهم فى شغف ونهم على تلاوة القرآن ، تجرى به ألسنتهم ، وتتدبر معانيه عقولهم ، وتستوعب هديه قلوبهم ، كانوا يتعبدون به ، ويفكرون فيه آناء الليل ، وأطراف النهار .

نعم ، صور شعرهم هذا الجانب الدينى فى شخصيتهم ، على مثال ماوصفهم به واحد منهم فى نثره ، وهو أبو حمزة الشارى ، الذى يقول عنهم : شباب والله مكتهلون فى شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة ، وأطلاح سهر ، فنظر الله إليهم فى جوف الليل ، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مرَّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مرَّ بآية من ذكر النار شهق شهقة خوفا منها ، كأن زفير جهنم بين أذنيه ، موصول كلالهم بكلالهم ، كلال الليل ، بكلال النهار ، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم من كثرة السجود ، يستقلون ذلك فى جنب الله (١) .

كما يرسم شعرهم صورا لميولهم الثورية ، وشجاعتهم ، وبطولتهم ، واقتحامهم الأهوال ، واستهانتهم بالمخاطر ، وترحيبهم بالاستشهاد فى سبيل عقيدتهم .

أ : صور من شخصية الخوارج المذهبية :

يبث شعر الخوراج فى ثنايا تعبيره عن المعانى والصور التى ذكرناها ، غير قليل من عقائدهم ، ونظرياتهم المذهبية ، يرسلها شعراؤهم إرسالا ، ويقررونها كما آمنوا بها ، لايقصدون بذلك إثارة جدل حولها ، ولايهتمون بإقامة الحجج والبراهين على صوابها ، من نص منقول ، أو منطق معقول ـــ كما فعل الشيعة مثلا .

وهذا المنهج التقريرى يمكن أن يفسر ، بما ذكره بعض الباحثين (٢) ، من أن شعور الخوارج الدينى لم يكن شعور المفكرين المتفلسفين ، وإنما كان شعور أعراب سذج ، لم يدرسوا ، ولم يبحثوا ، أو يعللوا أو يحللوا ، فقد آمنوا بما آمنوا به إيمانا قويا متعصبا ؛ لأن فى طبعهم التعصب ، مندفعا ، لأن فى طبيعتهم الاندفاع ، ولهذا لانجد فى شعرهم الدينى المذهبى جدلا ، أو دفاعا بالحجج والبراهين ، وإنما نجد نغما دينيا مؤمنا ، قويا فى إيمانه ، ساذجا ، بسيطا ، يستمد جماله من هذه القوة والبساطة والسذاجة .

---

(١) البيان والتبيين ٣ / ١٢١

(٢) الدكتورة سهير القلماوى فى أدب الخوارج ٤١

وهذا الوصف للناحية المذهبية فى شعر الخوارج معقول إلى حد كبير ، إذا لاحظنا أن شعر الخوارج المذهبى إنما صدر عنهم ، ليصور إيمانهم بعقائدهم ، واستمساكهم بها ، وثباتهم عليها ، لاليقويها بالحجج والبراهين .

فلنأخذ مثلا ، قول الصّحارى بن شبيب [١] الصفْرى الخارجي : [٢]

إننـي شارٍ بنـفسى لِرَبـــىَّ   تاركٌ قيـــلاً لديهم وقـــالا
بائـعٌ أهلى ومالِى وأَرْجـــو   فى جِنان الخُلدْ أَهْلاً ومـالَا

فهو يشير إلى مبدأ الخوارج ، الذى لايحيدون عنه ، وهو الثورة ، والخروج على السلطان الجائر ، مضحين فى سبيل ذلك بالنفس والأهل والمال ، راجين أن ينالوا جزاءهم عند الله فى الآخرة .

والشاعر يقرر هذه العقيدة ، دون أدنى محاولة لإثبات صوابها بالبرهان ، بل إنه لايقبل جدلا (قيلا وقالا) من أحد حول هذا الاعتقاد .

ووقف جماعة من أسرى الخوارج بين يدى الحجاج ، فلما أمر بقتل رجل منهم ، قال الرجل له : « اسمع منى بيتين ، أختم بهما عملى ، ثم أنشأ يقول [٣] :

أَبْرَا إلى الله من عمرو وشيعته   ومن علىّ ومن أَصحاب صفّين
ومن معاوية الطاغى وشيعته   لابارك الله فى القوم الملاعين

هذا الخارجي يقرر اعتقاده فى كفر علىّ ومعاوية وعمرو بن العاص وشيعتهم جميعا، ويجعل النطق بهذا الاعتقاد قربى يتقرب بها إلى الله،وهو فى طريقه إلى رحابه،بعد أن يفرغ من إنشاده ، وتقريره هذه العقيدة ، وهو على أعتاب الموت ، دليل على يقين اعتقاده ، وهذا هو كل مايعنيه ، أما أن تكون هذه المقولة صوابا أو غير صواب

(١) فارس من فرسان الخوارج ، وابن قائد الخوارج الصفرية المشهور ، شبيب بن يزيد الشيبانى الذى خرج أيام عبد الملك بن مروان ، وقاد حملات كثيرة ضد الحجاج ودوخ جيوشه حتى قتل غرقا بنهر دجيل سنة ٧٧ هـ واستخلف على الجيش زوجته غزالة الخارجية أم الصحارى هذا ، أما الصحارى فقد خرج على خالد بن عبد الله القسرى والى العراق لهشام بن عبد الملك سنة ١١٩ هـ فهزمه خالد وقتله . انظر . تاريخ الطبرى ٨ / ٢٤٦ ، وانظر فى أخبار شبيب أبيه : عيون الأخبار ١ / ١٢٢ ، والفرق بين الفرق ٨٩ ــ ٩٢ ، وتاريخ الطبرى ٧ / ٢٢٢

(٢) الشعر فى تاريخ الطبرى ٨ / ٢٤٧ وشعر الخوارج ٧٣

(٣) الفرق بين الفرق ٩٢ وهما لأبى المصلك الطائى فى شعر الخوارج ٦٨

فى نظر غيره ، فهذا مالايعنيه .

أما الزُّهَيْن بن سهم المرادى الخارجى (١) فيذكر ماذكره الصحارى بن شبيب من عقيدة الخروج والتضحية فى سبيله ، ويضيف أنه يتمنى الموت حتى يدرك إخوانه الذين سبقوه إلى الفردوس ، وهو على يقين من أن هذا هو مصيرهم ؛ ولذا فهو يتعجل اللحاق بهم (٢) :

إنى لبائع مايَفْنَى لباقيةٍ ... إن لم يَعُقْنى رجاءُ العيش تربيصا
وأسأل الله بيع النفس مُحتسِباً ... حتى أُلاقِىَ فى الفردوس حرقوصا
و ابن المنيح ومِرْدَاساً وإخوته ... إذ فارقوا زهرة الدنيا مخاميصا
تخال صفهمُ فى كلِّ مُعتَركٍ ... للموت سوراً من البنيان مرصوصا

يعنى أنه اشترى الآخرة بالدنيا ، ولذا فهو يتمنى الشهادة ، طمعا فى الفردوس ، الذى أعده الله للشهداء من أبناء طائفته .

ويقول عِمْران بن حِطَّان (٣) يشيد بعبد الرحمن بن ملجم قاتل على بن أبى طالب ، مبشرا إياه بحسن المثوبة على هذا العمل عند الله (٤) :

---

(١) رجل من مراد ، كان لايرى القعود عن الحرب ، وكان فى الدهاء والعلم والشعر والفقة بمقولة الخوارج بمنزلة عمران بن حطان الآتى ذكره . انظر : الكامل للمبرد ٣ / ١٥٦

(٢) شعر الخوراج ٣٢ والكامل للمبرد ٣ / ١٥٦ وحرقوص المشار إليه فى البيت الثانى هو : حرقوص بن زهير البجلىّ المعروف بذى الثدية ، أحد فرسان الخوارج الذين قتلهم علىّ بن أبى طالب يوم النهروانا سنة ٣٧ هـ . انظر : الفرق بين الفرق ٥٧ ، ومروج الذهب ٢ / ٤١٧ ، (السعادة) والكامل للمبرد ٣ / ١٣٠ (الأزهرية) . تربيصا : انتظارا وتأخيرا .

(٣) أبو سماك (أو أبودلان) عمران بن حطان بن ظبيان السَّدُوسى من بنى ذهل بن ثعلبة ، من بكر بن وائل ، رأس القعدة من الخوارج الصفرية ، بعد أبى بلال مرداس بن أدية الآتى ذكره ، وخطيبهم ، ومفتيهم ، وشاعرهم ، أدرك جماعة من الصحابة وروى عنهم ، ثم لحق بالشراة فطلبه الحجاج فهرب إلى الشام ، ثم طلبه عبد الملك ففر إلى عمان ، ولما طال عمره قعد عن الحرب واكتفى بالتحريض ، والدعوة بشعره ، وله مسائل كثيرة من أبواب العلم فى القرآن والسنن والآثار وغيرها . توفى سنة ٨٤ وقيل ٨٩ هـ ، انظر : خزانة الأدب ٢ / ٤٣٦ والتذكرة السعدية ٣٨٤ وأمالى المرتضى ١ / ٦٣٥ والأغانى ١٦ / ١٤٦ وفى إيثاره العقود انظر : شعر الخوارج ١٠ — ١١

(٤) الأغانى ١٦ / ١٤٧ وشعر الخوارج ٢٦ ومروج الذهب ٢ / ٤٣ (البهية) والكامل للمبرد ٢ / ٩٥ (الأزهرية) .

ياضَرْبَـــةً من تقــــىٍّ ماأرادَبها   إلّا ليبلغ من ذى العرش رِضْوانا
إنى لأذكــره حينــاً فأحْسَبُــهَ   أوفى البريّــة عنـد الله ميزانـــا
لله دَرُّ المُرادىّ الذى سفكتْ   كفاّه مهجة شرِّ الخلْق إنسانا
أمْسَى عشيّـــة غشّاه بضربتـــه   مما جنـــاه من الآثام عُرْيانــــا

فهذا الخارجى يذكر أن ابن ملجم قتل عليا ابتغاء مرضاة الله ، وأن جزاءه لعظيم عنده الله ، بل هو أفضل الخلق عنده ، وأن هذا العمل قد غفر له ماتقدم من ذنوبه .

ولكن هل تكفى هذه الدعاوى حجة تبرر جريمته ؟! ولم يهتم بتعليل المنزلة التى ادعاها للقاتل ، هل لأن عليا شر الخلق ، كما يقول فى البيت الثالث ؟ ولماذا كان على شر الخلق ؟

لاشأن للشاعر بهذه التساؤلات ، إنه قرر مايؤمن به ، وبانطباقه على قواعد الدين فى اعتقاده ، دون أن يكلف نفسه مئونة الاحتجاج والبرهنة .

وقد كثر الرد على شعر عمران هذا ، من شعراء شيعيين وغيرهم ، محبة لآل البيت ، ونقضا لعقيدة هذا الخارجى :

من ذلك قول القاضى أبو الطيب ، طاهر بن عبد الله الشافعى [١] :

إنى لابــرأ مما أنت قائلـــه   عن ابن مُلجمٍ الملعون بُهتانا
ياضربةً من شقىّ ماأراد بها   إلا ليهدم للإسلام أركانــــا
إنى لأذكـره يومــاً فألعنـــه   ديناً وألعن عمران بن حِطّانا
عليه ثُمَّ عليه الدهرَ متصلاً   لعائــنُ الله إسراراً وإعلانــاً
فأنتما من كلاب النّار جاء به   نصُّ الشريعة برهانـاً وتبيانـاً
عليكما لعنةُ الجبار ماطلعت   شمسٌ وماأوقدُوا فى الكون نيرانا

كما نقض شعر عمران شاعر آخر يدعى محمد بن أحمد الطبيب ، فقال [٢] :

ياضربةً من غَدورٍ صار ضاربُها   أشْقى البريّة عند الله إنسانـا
إذا تَفكرّتُ فيه ظَلتُ ألعنـه   وألعنُ الكلبَ عِمْران بن حِطّانا

---

(١) مروج الذهب ٢ / ٤٣ (البهية). وانظر : الكامل للمبرد ٢ / ٩٥ (الأزهرية) .
(٢) الكامل للمبرد ٢ / ٩٥

والشاعران ينقضان اعتقاد عمران فى أبياته السابقة ، ويلعنان القاتل والشاعر معاً .

وقد ذكرنا فى عقائد الخوارج ، أنهم يؤمنون بالخروج لقتال المخالفين ، وأن أكثرهم يوجبونه ، ويكفرون القعدة عنه ، مع قدرتهم عليه [١] .

لذلك كتب قطرى بن الفجاءة — وهو من الأزارقة الذين يكفرون القعدة — إلى رجل خارجى أزرق ، يقال له : أبو خالد القِنانّى ، كان يتخلف عن القتال ، كتب إليه رسالة شعرية ، ضمنها حكم طائفته على قعوده ، قال فيها : [٢]

أبا خالدٍ إنفر فلستَ بخالدٍ ... وماجعل الرحمن عُذْرا لقاعد
أتزعم أن الخارجى على الهدى ... وأنت مقيم بين لصٍّ وجاحد ؟!

إنه يعبر عن وجوب الخروج للقتال ، الثابت بنص القرآن (فقاتلوا التى تبغى) ، وينذر هذا القاعد ، بأنه خرج عن ملة أهل الهدى (الخوارج) ، فهو واحد من اثنين : إما لص ، يقيم بعد خروج الرجال للقتال ، لينسل إلى البيوت ويسرقها ، وإما كافر بعقيدة الخوارج .

وقد رَدّ أبو خالد على رسالة قطرى هذه برسالة يعتذر فيها عن قعوده ، ويبرره بقوله [٣] :

لقد زاد الحياة إلى حُبًّا ... بناتى إنهنّ من الضِّعاف
مخافةَ أن يريْن الفقر بعدى ... وأنْ يشربْنَ رَنْقاً بعد صاف
وأن يَعْرَيْن إن كُسِىَ الجوارى ... فتنبو العينُ عن كرمٍ عِجَافِ
وأن يضطرهنّ الدهر بعدى ... إلى جِلْفٍ من الأعمام جافِ
فلولا ذاك قد سوَّمتُ مُهْرِى ... وفى الرحمن للضعفاء كاف

وأمر هذا الخارجىّ عجيب ، فما كان الخوارج يؤثرون شيئا على الخروج ، وطلب إحدى الحسنيين !! غير أن للقعدة عن الواجب ، فى كل زمان ، من الخوارج وغير

---

(١) راجع ص ٤٩ من هذه الدراسة .

(٢) شعر الخوارج ٤١ والأغانى ١٦ / ١٤٩ والكامل للمبرد ٣ / ٩٢

(٣) شعر الخوارج ١٣ منسوبة إلى عيسى بن عاتك الخطى ، والكامل للمبرد ٣ / ٩٢ وهى فيه لأبى خالد المذكور . الرنق : الكدر .سومت مهرى : أرسلته فى الأعداء .

الخوارج ، منطقهم يتعزون به عن التقصير ، ومنطق أبى خالد القنانى ، غلبة عاطفة الأبوة ، والشفقة على بناته الضعاف ، والخوف من أن تذهن الحاجة من بعده ، فيلجأن إلى أعمام غلاظ الأكباد ، أو يضعن بين أقدام الحياة ، فماله وللقتال إذن ، وها هى ذى ابنته ، تصرخ فيه كلما هم بالخروج :

أبانا مَنْ لنا إن غِبتَ عنا وصار الحَىُّ بعدك فى اختلاف؟!

والمتشددون من الخوارج يعتقدون أيضا أن مجرد مجالسة المخالفين ، الذين يراهم الخوارج ظالمين ، تعد ذنباً لايمحوه إلا التوبة النصوح ، ومعنى التوبة ومقتضاها عندهم ، أن يحرص على أن ينال الشهادة فى ميدان حروبهم الدينية ، فبها وحدها ، تكفَّر هذه السيئة ، ويُوضَع عنه إصرها .

ويبث قطرى بن الفجاءة هذه العقيدة فى رسالته إلى سُميرة بن الجعد الخارجى ، الذى جالس الحجاج بن يوسف الثقفى ، وكان قطرى إذ ذاك يحارب المهلب بن أبى صفرة بأمر الحجاج ، فيقول [(١)] :

لَشتاَّن مابين ابن جَعْدٍ وبيننا إذا نحن رُحْنا فى الحديد المُظاهر
نجاهد فرسانَ المهلب كُلُّنا صبورٌ على وقع السيوف البواتر
وراح يُجرُّ الخَزَّ عند أميره أميرٍ بتقوى ربِّه غير آمر
أبا الجعد أين العلم والحلم والنهى وميراث آباء كرام العناصر
ألم تر أن الموت لاشك نازل ولابد من بَعثْ الأُلى فى المقابر
فإن الذى قد نلتَ يفْنى وإنما حياتك فى الدنيا كوقعة طائر
فراجِعْ أبا جعدٍ ولاتكُ مغضياً على ظلمةٍ أعشتْ جميع النواظر
وتُبْ توبةً تُهدى إليك شهادة فإنك ذو ذنب ولست بكافر
وسِرْ نحوناتلْقَ الجهاد غنيمة تُفِدْك ابتياعا رابحاً غير خاسر
هى الغاية القُصوى الرغيبُ ثوابها إذا نال فى الدنيا الغنى كل تاجر

فبعد أن لام قطرى سميرة ، وعنّفه ، مبينا له أن فعلته خاطئة لاتليق من عالم عاقل

---

(١) شعر الخوارج ٤٧ ومروج الذهب ٢ / ١٣٨ (البهية) . وسميرة رجل من بنى شيبان من أصحاب قطرى ، كان عالما بأيام العرب وأخبارها ، ولذا اتخذه الحجاج سميرا له .

مثله ، بخاصة والحرب قائمة بين أبناء طائفته والحجاج الذى يسامره ، راح ينظم عقيدة الطائفة ، فى فعلة هذا الخارجى ، وقدم له الفتوى صريحة واضحة ، إنك ذو ذنب ولست بكافر ، ، فهو إذن عاص ، وعلى العاصى أن يتوب ، والتوبة تقتضيه ، أن يترك هذا الذنب ، ويتجه إلى أبناء الطائفة ليشاركهم فى قتال المخالفين ، وليكن حريصا على الشهادة ، فهى فى عقيدة الخوارج المطهرة للذنوب ، والغاية القصوى من خروجهم ، المرغوب فى ثوابها منهم .

وقد أحدثت هذه الفتوى أثرها المطلوب ، فسرعان مابكى سميرة عقب قراءتها ، وركب فرسه ، وأخذ سلاحه ولحق بقطرى ، وترك رسالة إلى الحجاج يقول فيها [(١)] :

فمَنْ مبلغُ الحجاج أن سميرة	قَلَا كل دينٍ غير دين الخوارج
رأى الناس ـــ إلا من رأى مثل رأيه ـــ	ملاعين تَرَّاكين قصد المخارج
فأقبلت نحو الله بالله واثقا	وماكربتى غير الإله بفارج
إلى عُصْبة أما النهار فإنهم	هم الأسد أسد الغيل عند التهايج
وأما إذا ماالليل جَنّ فإنهم	قيام بأنواح النساء النواشج
ينادون للتحكيم تالله إنهم	رأوا حكم عمرو كالرياح الهوائج
وحكم ابن قيس مثل ذاك فأعصموا	بحبل شديد المتن ليس بناهج

إنه يعتز بعقيدته أشد الاعتزاز ، ويرفض كل عقيدة غيرها ، وماعقيدته ؟ إنه يرسلها فى إيمان شديد بها ، أن كل من ليس على رأى الخوارج ملعون ، كلهم ضال تائه عن الحق ، تتقاذفه رياح الضلال الهائجة ، أما الخوارج فقد اعتصموا بحبل الله المتين ، بالقرآن العظيم ، يأتمرون بأمره ، وينتهون بنهيه .

إن تعبير الخوارج عن عقائدهم فى ثنايا أشعارهم يأخذ هذا الطابع دائما ، طابع البساطة والتلقائية ، الذى يبدو فى إرسالها واضحة صريحة ، تنبىء عن شدة اعتقادهم فيها،مهما بدت فى نظرنا ونظر غيرنا قابلة للمناقشة،مفتقرة إلى الحجة،بل شديدة الحاجة إلى البرهنة والاستدلال على صوابها،فحسبهم،مايقول شاعرهم[(٢)] فروة بن نوفل:

---

(١) مروج الذهب ٢ / ١٣٩ (البهية) ، وانظر : شعر الخوارج ٥٠ . ابن قيس : هو أبو موسى الأشعرى .

(٢) شعر الخوارج ٥

لقد علمتُ وخيرُ العلم أنفعُه أن السعيد الذى ينجو من النار

ولئن كان هذا الشاعر لم يهتم بأن يوضح كيفية ضمان هذه النجاة ، فإن أخاً له فى العقيدة ، يمدنا بالإيضاح ، هو الطِّرِمّاح بن حكيم ، حيث يقول [1] :

والنارُ لم ينْجُ من روعاتها أحدٌ إلا المُنِيب بقلب المخلص الشارى

فليس إلا الشراة التوابون المخلصون ، يكون سعيدا بالنجاة من النار .

ب : صور من شخصية الخوارج الدينية والبطولية (تمجيد الطائفة) :

يلح شعراء الخوارج على رصد سلوك أبناء طائفتهم الدينى ، ووصف مايبدو من أثر إدمانهم الطاعات ، والإكثار من التقرب إلى الله بالعبادات ، فى شفافية أرواحهم ، وهزال أجسامهم ، وتصوير حركاتهم النفسية ، خائفين من عقاب الله ، راغبين فى رضوانه.

وإذ كان الصدق من معالم شخصيتهم البارزة — كما ذكرنا من قبل — فإن مايقدمه شعرهم من صور فى تمجيد أبناء طائفتهم ، والتنويه بخصالهم الدينية ، تخلو من المبالغة والتهويل ، وتلتزم بما يشاهد من أحوالهم ، ومايراه الكافة من سلوك دينى واضح فى حياتهم ، لايكاد يختلف فيه خارجى عن أخيه فى العقيدة ، ولذا اتسم هذا الشعر أيضا ، بما يمكن أن نطلق عليه (وحدة الخصائص) أى مجموعة الصفات الدينية السامية ، التى تصلح أن تقال فى كل خارجى صادق العقيدة ، ولذا تشابهت صور أشعارهم فى هذا الجانب .

فالشعر المقول فى وصف حال الشارى الدينية ، لايميز إلا باختلاف الأسماء ، فالصور العامة واحدة ، وكل مايقال فى أحدهم ، يقال فى الآخرين ، لأن الخصائص الدينية لهذه الصور تتمثل فى كل فرد على حدة ، كما تتمثل فى مجموع أبناء الطائفة ، فهم دائما ، كما يقول عمر بن الحصين العنبرى الخارجى [2] :

---

(١) شعر الخوارج ٩٨

(٢) شرح نهج البلاغة ١ / ٤٦١ .وشعر الخوارج ٨٥

متأهّبــــون لكــــــل صالحة ناهـون من لاقَوْا عن النُّكْـــرِ
صمْتٌ إذا احتضروا مجالسهـم من غير ماعـــــىّ بهم يُزْرى
متأوهـــون كأنّ جَمـــر غَضاً للمـوت بين ضلوعهـــم يَسْرى
لاليلُهـــم ليــلٌ فيلبسهــــم فيـــه غواشى النـومِ بالسُّكْـرِ
إلّا كَرًى خَلْسا وآونـــــــة حذر العقـاب فهـم على ذُعْـرِ

وقوله [١] :

متـــأوهين كأن فى أجوافهـــم ناراً تسعِّرهـــا أكـــفُّ حواطب
تلقاهـــم فتراهـــم من راكـــع أو ساجـد متضرع أو ناحب
يتلـــو قوارعَ تمتـــرى عبراتـــه فيجودهـــا مَرْىَ المرىِّ الحالب

ويقول فى الواحد منهم [٢] :

كم من أخ لك قد فجعتَ به قوّامِ ليلتـــه إلى الفجــــــر
متأوهــــاً يتلـــو قوارعَ من آى الكتـاب مُقَـرّح الصَدر
ومبرأً من كل سيِّئـــــــة عف الهوى ذامِـــــرَّة شزْر

فالملاحظ أن مقومات الصورتين تتطابق تقريبا ، فى الجماعة ، والفرد ، فهم يتأوهون خوفا إذا قرءوا آيات العذاب فى القرآن ، كأن فى قلوبهم نارا ، والواحد منهم متأوه أيضا إذا قرأ آيات العذاب القوارع ، وهم قوامون الليل ، ساهرون على الطاعة والعبادة ، لايزور النوم عيونهم إلافترات قليلة تختلس اختلاسا ، وكل فرد منهم ، قوام ليلته إلى الفجر ، وهم فى الجملة متأهبون لكل صالحة ، وواحدهم مبرأ من كل سيئة .

ونجد هذا التطابق يطالعنا فى كل صور أشعارهم ــ غالبا ــ ماتناول منها جماعتهم كطائفة ، وماخص منها فردا منهم بعينه .

ويقول الطرماح بن حكيم جامعاً للخوارج من الصفات الدينية ، مايعكس شخصيتهم المؤمنة ، الصابرة على العبادة ، المتمسكة بعقيدتها [٣] :

(١) شعر الخوارج ٨٩ والأغانى ٢٠ / ١٢٠ .
(٢) شعر الخوارج ٨٥ والأغانى ٢٠ / ١١١ .
(٣) ديوانه (دمشق) ٥٧٨ . الطلا : جمع طلاة ، وهى العنق .

لله درُّ الشُّراة إنهمُ إذا الكرى مال بالطُّلا أرقوا
يرجِّعون الحنين آونةً وإن عَلَابهم ساعةً شهقوا
خوفاً تبيت القلوبُ واجفةً تكاد عنها الصدور تنفلقُ
قوم شحاحٌ على اعتقادهمُ بالفوز مما يخاف قد وثقوا

هذه صورة تعد مثلا لوحدة الخصائص الدينية لدى الخوراج جميعا ، كما تعد نموذجا يبرز مع النماذج السابقة ماسبقت الإشارة إليه ، من التشابه بين عناصر الصور الشعرية ، التى رسمها شعر الخوارج لطائفتهم ، جماعات وأفرادا .

إنها صورة تعبر عن تقوى الخوارج وورعهم ، وقوة إيمانهم بمذهبهم ، إذ يصورهم الطرماح ساهرين على تلاوة القرآن ، كلما مرّ بهم ذكر الجنة حنوا إليها ، فإذا تلوا آيات العذاب ووصف النار أنوُّا أنينا موجعا ، تكاد تنخلع منه قلوبهم ، وتنشق عنها صدورهم ؛ خوفا من عذاب الله ، وهم شديدو التمسك بعقيدتهم ، يسترخصون أرواحهم فى سبيلها ، واثقين من الفوز برضوان الله وجناته .

أما تأثير هذا النسك الدينى روحيا وجسمانيا ، فيوجزه أحد شعرائهم فى قوله [١] :

فتيةٌ تعرف التخشُّعَ فيهم كلُّهم حكّمَ القُرانَ غُلاما
قد برى لحمه التهجُّدُ حتى عاد جلداً مُصَفَّراً وعظاما

كما يعبر عنه خارجى آخر ، فيقول [٢] :

أُجاهد أعدائى إذا تَتابعُوا وأُدْعَى بإسْمِى للهدى فأجيب
معى كلُّ أوَّاهٍ برى الصومُ جسمَه ففى الجسم منه نَهْكةٌ وشحوبُ

فالخشوع سمة عامة فيهم ، من أثر خشية الله ، وإدمان طاعته ، كما أن أجسادهم مرهقة من مواصلة الليل بالنهار فى هذه الطاعة ، حتى غدت جلدا على عظم ، إذا رأيتهم خلت ماء الحياة قد فارق هذه الأجساد ، ألم يصفهم أبو حمزة الشارى بأنهم أنضاء عبادة وأطلاح سهر ؟

---

(١) شعر الخوارج ١١١ . القران : القرآن . برى لحمه : المراد أنحلت العبادة بدنه .
(٢) شعر الخوارج ٣٩ ومعجم الشعراء ٢٢٨ .

هذه الصور المؤمنة ، إنما هى انعكاس لما كان الخوارج يستشعرونه دائما من الثقة بأنهم وحدهم على الحق ، وأنهم وحدهم الفائزون بحسن العقبى عند الله ، ويترجم هذه الثقة ، شاعر الخوارج الأزراقة عيسى بن [1] عاتك الخَطّى ، لما خرج أبو بلال مرداس [2] بن أُدية فى أربعين من الخوارج (سنة ٦٠ هـ) بناحية الأهواز ، فوجه إليه عبيد الله بن زياد جيشا من ألفىْ رجل ، فثبت الأربعون ، وفر الألفان ، ويسجل عيسى بن عاتك هذه الحادثة ، ويفسر انتصار هذا العدد القليل من الخوارج على جند من ألفى رجل ، بإيمان الخوارج ، وشدة ثقتهم بعقيدتهم ، فيقول [3] :

فلما أصْبحوا صلُّوا وقاموا إلى الجُرْد العتاق مُسَوَّمينا
فلما استجمعوا حملوا عليهم فظل ذوو الجَعَائل يُقتلونَا
بقية يومهم حتى أتاهم بأن القوم ولَّوْا هاربينا
أألفا مؤمَنٍ — فيما زَعَمْتُم — ويقتلهم بآسك أربعونا
كذبتُم ليس ذاك كما زعمتُم ولكنّ الخوارجَ مؤمنونا
هُمُ الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصرونا
أطعتُم أمرَ جبارٍ عنيدٍ ومامن طاعةٍ للظالمينا

فالأبيات صورة من صور الشجاعة الفائقة ، وصدق القتال ، غير أن مايهمنا هنا، أنها تؤكد ثقة الخوارج بنصر الله ، وتعلل هذه الثقة بأنهم هم وحدهم المؤمنون ، ولذا أيدهم الله بنصره ، ونصر الله موعود بنص القرآن للمؤمنين ، فى قوله تعالى : « ياأيها النبى حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن

---

(١) أحد بنى وديعة من بنى تيم اللات بن ثعلبة ، كان من أصحاب نافع بن الأزرق ، قتل فى معارك الأزارقة بعد سنة ٦١ هـ . انظر : أنساب الأشراف ٤ / ٢ ، ٩٥ وتهذيب الكامل ١ / ١٠٥

(٢) حنظلى تميمى ، تولى زعامة الصفرية ، وهو أخو عروة بن أدية التميمى أول من نادى بشعار (لاحكم إلا لله) عقب قبول علىّ التحكيم بعد صفين ، وخرج أبو بلال فى أيام يزيد بن معاوية بناحية البصرة على عبيد الله بن زياد ، وهزم قائده زرعة بن مسلم العامرى ، فأرسل إليه عبيد الله قائده عباد بن أخضر التميمى الذى هزم أبا بلال وقتله سنة ٦١ هـ ، فاتخذت الصفرية عمران بن حطان زعيما لها من بعده . انظر : الكامل لابن الأثير ٤ / ٩٤ بيروت ، والفرق بين الفرق ٧١ والخوارج والشيعة ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٧

(٣) شعر الخوارج ١٤ وعيون الأخبار ١ / ١٦٣ وديوان المعانى ٢ / ٢٣٠ . الجعائل : جمع جعالة ، وهى شىء يدفعه الذى عليه الغزو لرجل آخر كى يغزو عنه ، يريد أنهم مأجورون للقتال ، فهم مدفوعون بحب الدنيا ، وكان الخوارج يرون فى هذا أبلغ ذم لأعدائهم . آسك : موضع بهمذان قرب أرّجان .

منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا [١] » ، وبالقياس على نص الآية الكريمة فإن الأربعين يغلبون الألفين ، لأنهم مؤمنون .

كما أن الشاعر فى البيت قبل الأخير ينظر إلى نص قول الله تعالى : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين [٢] » .

ولايفوتنا أن نلتفت إلى المعنى الآخر ، الذى يمكن أن نربط بينه وبين النصر العظيم الذى أحرزته هذه الفئة القليلة من طائفة الخوارج ، والذى أشار إليه الشاعر إشارة عابرة،فى قوله :« فظل ذوو الجعائل يقتلونا » ، ففيه تلميح إلى الفرق بين الخوارج وبين الآخرين،فجند الأمويين ـــ فى سبيل الرزق ـــ قد يحارب اليوم معهم ، وغدا مع غيرهم ، يدل على هذا قول بعض هذا الجند ، وقد دعوا لقتال الخوارج بناحية كَسْكر ، ومالنا لانقاتل الخوارج ؟ أليست أعطياتنا دَارّة ؟ ، وقد علق عمران بن حَطان على هذه الحال بقوله [٣]:

فلو بُعِـثَتْ بعضُ اليهود عليهمُ يؤمُهُـم أو بعض مَنْ قد تنصَّرا
لقالوا رضينـا إن أقمتَ عطاءنـا وأجريتَ ذاك الفرض من بُرِّ كَسْكرا

أما الخوارج فباعثهم إلى القتال إيمان قوى بما يرونه حق الإسلام عليهم ، ورغبة عارمة فى الفوز بإحدى الحسنيين ، النصر أو الشهادة ، لاعتقادهم أنهم حراس دين الله ، الخارجون من أجل نصرته .

* * *

وصور البطولة فى شعر الخوارج كثيرة منوعة ، حادة الملامح ، بارزة القسمات ، فاتصاف الخوارج بالشجاعة والإقدام والفدائية ، أتاح لشعرائهم أن يفتنوا فى التعبير عنها فى كثير من أشعارهم ، تمدهم معارك الخوارج الكثيرة مع خصومهم ، بخاصة الأمويين ، بالمعين الثَّر من الخطوط والألوان والظلال ، التى تتآلف فى أشكال ومعارض كثيرة ، لبطولة الخوراج فى حروبهم الدينية المقدسة .

---

(١) سورة الأنفال ٨ / ٦٥
(٢) سورة البقرة ٢ /٢٤٩
(٣) معجم البلدان (رسم : كسكر) وشعر الخوارج ٢٠

لهذا كان من أبرز خصائص شعرهم ، المعبر عن بطولتهم وأبطالهم ، كثرة الافتنان فى المعانى والصور ، التى تضفى على الخارجى شجاعة نادرة المثال .

من هذه الصور قول أحد الخوارج ، فى معرض الإشادة بضروب البسالة ، وآيات البطولة ، التى تميز أصحابه ، فى حومات القتال [١]:

وهـمُ الأسودُ لدى العرين بسالةً ... ومـن الخشوع كأنهم أحْبـارُ
يمضون قدَ كَسَرُوا الجفونَ إلى الوَغَى ... متـبسمين وفيهم استـبشار
فكـأنما أعداؤهُـم أحبابُهـم ... فرحـاً إذا خَطَـر القَنَـا الخَطَّـارُ
يردون حَوْمـات الحُمـام وإنها ... والله عنـد نفوسهـم لصَغَـارُ

وهل هناك من هو أكثر شجاعة وإقداما ممن يمضى إلى لقاء عدوه فى إصرار وفرحة ، كأنه ذاهب إلى لقاء حبيب ، مستهينا بحومات الوغى !!

وهل أدلّ على بطولة الخوارج من كثرة النساء المحاربات المتحمسات للقتال واقتحام المخاطر بين صفوفهن ، مما دفع عبيد الله بن زياد إلى عرض جثت القتلى منهن عاريات ؛ ليبرد من حماسة غيرهن من نساء الخوارج المقاتلات المتحمسات ، فذهبت جهوده فى هذا المجال عبثا ، من هؤلاء أمرأة اشتهرت بالقتال فى صفوف قطرى بن الفجاءة ، وبرغبتها الشديدة فى طلب الشهادة ، وهى أم حكيم ، التى ضاقت بحمل رأسها فوق كتفيها ، تكلفها العناية بشعرها ، فهى تتطلع إلى من يريحها من هذه الرأس فى مواطن القتال ، فى تحدٍّ واضح ، واستفزاز صريح للأبطال ، وهى تعرض علينا هذه الصورة الطريفة من صور البطولة ، فتقول [٢] :

أصحبُ رأساً قد سئمتُ حَمله
وقـد سئمت دهنَـه وغسلَـه
ألا فتىً يحملُ عنّى ثُقْلَـه ؟

أو من هذا الذى يستعذب الموت فى سبيل الذكر الطيب ، ويرى فى الموت راحة من الدنيا وطريقا إلى حسن العقبى [٣] :

---

(١) عيون الأخبار ١ / ١٢٤ وشرح نهج البلاغة ١ / ٣١٦ وشعر الخوارج ١١٦ . أحبار : جمع حبر ، والمراد هنا : العالم بالدين . كسروا الجفون : كناية عن التصميم والجد فى القتال .

(٢) شعر الخوارج ٤١وحماسة الظرفاء ١ / ٢٣ وانظر : الخوارج والشيعة ٦٤

(٣) المصدر السابق ١ / ٣٨

ومن يَخْشَ أظفارَ المنايا فإننا لَبِسْنَا لهنّ السابغات من الصَّبر
وإن كريه الموتِ عذبٌ مذاقه إذا مافرَجْناه بطيبٍ من الذكر
ومارزق الإنسانُ مثلَ منيةٍ أراحت من الدنيا ولم يخْزَ فى القبر

ويهمنا أن نلاحظ الباعث الدينى من وراء هذه البطولة ، وحرص الشعراء على الإشارة إليه فى ثنايا صورها ، فالاستهانة بحومات الوغى وعدم الخزاية فى القبر من ورائها باعث وغاية ، أما الباعث فاعتقاد الخوارج أنهم يقاتلون فى سبيل الحق الذى خرجوا من أجله ، وأما الغاية ، فالفوز بنصرة الدين والعقيدة ، أو الفوز بالشهادة ، الرغيب ثوابها .

ولقطرى بن الفجاءة صور تحكى واقعا ، يقدمها من خلال وصفه لشجاعة الخوارج ، واندفاعهم فى الحرب ، وصدقهم فى اللقاء ، وتنكيلهم بالأعداء ، فى معركة دولاب [١] (سنة ٦٥ هـ) بين الخوارج الأزارقة وأهل البصرة [٢] :

فياكَبدا من غير جوع ولاظَماً وواكَبدا مِنْ وجْد أمِّ حكيمِ[٣]
ولو شَهدتْنى يوم دولاب أبصرتْ طعان فتىً فى الحرب غير لئيم
غداةَ طفت عَلْمَاء بكرُ بن وائلٍ وآب عميدُ الأزد غير ذَميم
وكان لعبد القيس أول جدِّها وعُجْنا صدور الخيل نحو تميم

وقد تبدو هذه الصورة أشبه بالفخر فى شعر الحماسة القبلى منها بصور البطولة فى شعر الخوارج ، ففيها يفخر بالشجاعة وشدة النكاية فى الأعداء ، وهما معنيان يكثر دورانهما فى شعر الحماسة بعامة ، ونحن نعلم خصوصية صور البطولة فى شعر الخوارج ، من حيث ارتباطها بالحماسة الدينية ، ولم تشذ صورة قطرى عن هذه الخصوصية ، إذ يقول بعد هذه الأبيات :

---

(١) موضع من أرض الأهواز ، وفى موقعة دولاب قتل نافع بن الأزرق وجماعة من أصحابه ، وأبلى الخوارج بلاء حسنا ، فأوقعوا بأهل البصرة ،ومن معهم من جند الأمويين وقوادهم . راجع تفصيل أخبارها فى تاريخ الطبرى ٧ / ٨٥ والكامل لابن الأثير ٤ / ١٩٤ (بيروت) .

(٢) الكامل للمبرد ١ / ٢٧٠ (الأزهرية) . وشعر الخوارج ٤٤ وشرح نهج البلاغة ١ / ٤٥٥ والطبرى ٧ / ٨٦ . علْماء : يريد على الماء ، يعنى طفت على الماء جثث بكر بن وائل . الجد : الحظ والنصيب . عميد الأزد : سيدهم وزعيمهم وهو المهلب بن أبى صفرة .

(٣) هى التى أوردنا لها رجزا منذ قليل ، وتناظرها فى الحماسة والبطولة امرأة خارجية أخرى تسمى البجآء ، كانت تخطب خطبا نارية ضد عبيد الله بن زياد ، فأخذنا وقتلها فى سوق البصرة (انظر : الخوارج والشيعة ٦٦) وكان مقتلها سببا فى خروج أبى بلال مرداس بن أدية فى الأربعين خارجيا ، كما مر . وسيأتى الحديث عن أخرى فارسة مقاتلة قائدة تسمى غزالة الخارجية .

فلو شهدتْنا يوم ذاك وخيلنا ... تُبيح من الكفَّار كلَّ حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم

بمثل هذه الغايات الدينية السامية امتازت بطولة الخوارج فى قتالهم ضد مخالفيهم ، فكانت معاركهم نوعا من الجهاد المقدس ــ فى نظرهم ــ يخلصونه لوجه الله والدين ، وينزهونه عن مطامع الدنيا ، فما نظر يوماً خارجى إلى غنيمة أو سلب ، أو كسب من وراء هذه الحروب ، اللهم إلا كسب الآخرة ، المدخر لهم عند الله .

وإذا كان الأمر كذلك فمن الطبيعى أن يلوم يزيد بن حبناء [١] زوجه ، التى أرسلت إليه ــ وهو يقاتل بجهة سابور ــ تطلب هدايا وألطافا ، ويذكرها بأنها زوجة خارجى ، والخارجى لايخرج إلى القتال طلبا للمغانم [٢] :

دَعِ اللَّوْمَ إن العيش ليس بدائم ... ولاتعجَلى باللّوم ياأمَّ عاصم
فإن عجِلتْ منك الملامةُ فاسمعى ... مقالةَ مَعْنِىٍّ بحقك عالم
ولا تعذُلينا فى الهديّة إنما ... تكونُ الهدايا من فضول المغانم
فليس بِمُهْدٍ من يكونُ نهارُه ... جِلادٌ ويمْسى ليله غير نائم
يريد ثوابَ الله يوماً بطعنةٍ ... غَموسٍ كشِدْق العَنْبَرِىِّ بن سالم
أبيتُ وسِرْبَالِى دِلاصٌ حصينةٌ ... ومِغفرها والسيف فوقَ الحيازم

فيزيد ينكر على زوجه أن تتطلع إلى هدية منه ، أو مغنم دنيوى ، من وراء حرب الخوراج التى يخوضها ، ويلومها على هذه النظرة ، التى لاتليق بخارجية زوج خارجى ، ويفهمها أنه لم يغب عنه مالها عليه من حقوق الرعاية والإنفاق ، ولكنه رجل وهب نفسه لله ، وجعل همه الدفاع عن عقيدته ؛ ومن ثَمَّ فهو لايأبه بمغانم الحروب ، ولايحرص عليها ، وكيف ينظر إلى هذا العَرَض مَنْ كان مثله يقضى نهاره مجاهدا فى سبيل الحق ، وليله فى تبتل وعبادة ، دائم الضراعة إلى الله أن يرزقه الشهادة ؟!

والأبيات كما نرى ، تعكس صورة للخارجى المحارب الشجاع ، المؤمن بعقيدته ،

---

(١) حبناء أمه ، وكان له أخوان هواهما مع بنى أمية هما صخر والمغيرة ، ويزيد شاعر فارس من الأزارقة . انظر مصادر شعره الآتى .

(٢) الكامل للمبرد ١ /٢٤٨ وشعر الخوارج ٣٦ والمؤتلف ١٦ . طعنة غموس:واسعة محيطة . العنبرى : خارجى من الأزارقة يقال له:الأشدق ، لاتساع شدقة . الدلاص:الدرع اللينة البراقة . الحيازم:جمع حيزوم وهو الصدر.

المجاهد فى سبيلها ، فهو على استعداد دائم للقتال دونها ، لايضع سلاحه ساعة من ليل أو نهار ، لايبتغى من وراء ذلك مغنما ، ولاعرضا من أعراض الدنيا .

وإلى هذا المعنى ، نعنى اقتحام المعارك ، دفاعا عن العقيدة ، لاطلبا لمغنم دنيوى يشير قطرى بن الفجاءة أيضا ، فى قوله [١] :

ورُبَّ مصاليتٍ نِشَاطٍ إلى الوغى   سراعٍ إلى الداعى كرام المَقَادم
أَخضْتُهمُ بَحْرَ الحمام وخُضتُه   رجاءَ الثواب لارجاء الغنائم

* * *

وهكذا تعكس هذه الأشعار شخصية الخوارج الدينية ، الثابتة على إيمانها ، الواثقة بحسن المثوبة عند ربها ، المتعصبة لعقيدتها ، المندفعة فى سبيل نصرة هذه العقيدة ، اندفاعا حماسيا ، يصل إلى حد الفدائية .

ومن هنا تخطف الموت أرواح الخوارج من كل جانب ، وهم لايبالون ، وإنما يرون فى ذلك فضيلة انفردوا بها ، ووفاء بعهد قطعوه على أنفسهم حين باعوها ، ثمنا لرضوان الله ، وطمعا فى جناته ؛ ولذا يقول شاعرهم عُبيدة بن هلال اليشكرى [٢] فى رجل منهم سقط صريعا ، فى إحدى معاركهم [٣] :

ومُسَوَّمٍ للموت يركبُ درعَه   بين القَواضِبِ والقنا الخَطّار
يَهْوِى وترفعه الرماحُ كأنّه   شِلْوٌ تَنَشَّبَ فى مخالب ضارى
فثَوى صريعاً والرماحُ تنوشُه   إنَّ الشُّراة قصيرة الأعمارِ

وفى قوله : « إن الشراة قصيرة الأعمار » أبلغ تلخيص لما وصفنا من شجاعتهم ، وفدائيتهم .

---

(١) التذكرة السعدية ٢١٧ .

(٢) أبو مالك عبيدة بن هلال اليشكرى ، من بكر بن وائل ، شاعر فارس ، كان مع قطرى بن الفجاءة فى حروب الخوارج الأزارقة ، وولى أمرهم بعد قطرى ، قتل بناحية قومس سنة ٧٨ هـ ، انظر : الطبرى ٧ / ٢٧٥ . والاشتقاق ٣٤٣ . والمؤتلف ١٥٤ وكنى الشعراء ٢٩١ . والخوارج والشيعة ٦٧ ــ ٦٩ .

(٣) شعر الخوارج ٥٢ والكامل للمبرد ٢ / ٢٤٩ (الاستقامة) . يركب درعه : مجاز عن سقوطه مضرجا بدمه فوق درعه . القنا الخطار : الرماح الطويلة . الشلو هنا : العضو من أعضاء الجسم إذا بتر . تنوشه : تأخذه من كل جانب .

ب : نظرة الخوارج إلى مخالفيهم (هجاء الخصوم) :

كانت الصبغة الدينية هى الطابع الغالب على المعانى التى هجابها كل من الشيعة والأمويين خصُوم حزبهم ، تبين لنا هذا من خلال دراستنا لنصوص شعرهم الموجه إلى أعدائهم .

وسنرى هذا الطابع الدينى واضحا غلابا فى شعر الهجاء عند كل من الخوارج والزبيريين أيضا ، لأسباب سبق أن أشرنا إليها مرارا [١] ، غير أن هذه المعانى الدينية كانت تستند فى شعر الشيعة والخوارج إلى عقيدة راسخة ، أى أنهم كانوا يدينون عن يقين واعتقاد برأيهم فى خصومهم ، بينما هى عند الأمويين والزبيريين ، وليدة الرأى والهوى والادعاء .

كان الخوارج يعتقدون أنهم وحدهم حماة الدين ، يقاتلون من أجل الحفاظ عليه سليما نقيا من الانحراف ، ومن البدع والأهواء ، ومن ثَمَّ ذهبوا إلى اعتقاد وجوب قتال من يخالفونهم ، فقتالهم فرضٌ عليهم ؛ لمخالفتهم أوامر الدين ونواهيه .

ومن الطبيعى أن يقف شعرهم إلى جانب عقيدتهم فى أعداء طائفتهم ، وأن يرددها فيما يرمونهم به من سهام هجائهم ، فهم الكفرة الملحدون ، المنحرفون عن جادة الحق ، الباغون المفسدون فى الأرض ، المفشون للضلال ... إلى غير ذلك ، مما يجردهم من كل سمة للإسلام ، توصلا إلى الغاية المأمولة من الهجاء السياسى ، التى تعنى تشويه صورة الأعداء ، وتنفير القلوب منهم ، وصرفها عنهم ، وإيغارها عليهم .

وكما اهتم الهجاء عند الشيعة والأمويين بالجانب الأخلاقى والاجتماعى ، راعى الهجاءون الخوارج هذا الجانب أيضا ، فاهتموا بسلب الفضائل الأخلاقية والاجتماعية — التى كان كل عربى يعتز بها — عن خصومهم ، فهم يجبنون عن الحرب ، ويفرون عند اللقاء ، غادرون متجبرون ، ظلمة .... أى أنهم يجردونهم من كل فضيلة فى دين أو خلق .

---

(١) راجع مثلًا : ص ١٤٧ ، ١٦٣ ، من هذه الدراسة .

يقول فروة بن نوفل الخارجى [١] :

نُقاتـل من يُقاتلنـا ونـرضى بحكم الله لاحُكم الرِّجـال
وفارقنـا أبـا حسن عَليـاً فما من رجعة أخرى الليالى
فحكمَّ فى كتاب الله عَمْـراً وذاك الأشعـرى أخـا الضلال

فهو يتهكم بعلىّ بن أبى طالب ، الذى أعرض عن حكم كتاب الله ، ورضى حكم الناس ، ويذكر أنه فارقه من غير رجعة لضلال أصحابه .

أما ابن أبى ميّاس المرادى ، فيرمى علياً صراحة بالطغيان والتجبر ، ويفخر أن قومه قتلوه ، وثلوا عرش ملكه لذلك ، والمعروف أن قاتل علىٍّ من بنى مراد [٢] :

ونحن ضربْنا يالَكَ الخيرُ حَيْدرا أبـا حسنٍ مأمومـةً فتفطَّـرا
ونحن حَللْنـا ملكـه من نظامـه بضربـة سيفٍ إذْ علا وتجبَّـرا

على أننا لم نجد شعرا ذا بال للخوارج فى هجاء الشيعة وأئمتهم ، وربما كان ذلك لقلة اصطدامهم بالشيعة حربيا ، ولانشغالهم بالخروج على السلطان القائم ، مما جعل الغالبية العظمى من وقائعهم تدور مع الأمويين ، ثم إن الشيعة أنفسهم كانوا منصرفين — غالبا — إلى من اغتصبوا حق أئمتهم فى ولاية الأمر ، ولأن الأمويين كانوا يصبون نير اضطهادهم ، وجام غضبهم على الشيعة والخوارج معا .

فلا غرابة أن يرتبط شعر الخوارج فى هجاء أعدائهم ، بقدرماخاضوه من حروب معهم ، قلة وكثرة .

نخلص من هذا إلى أن أكثر مابين أيدينا من شعر الخوارج فى مناهضة خصومهم موجه إلى الأمويين أعدائهم الألداء .

على أية حال ، فإن جماع رأى الخوارج فيمن عداهم ، هو رفض عدهم من أهل

---

(١) شعر الخوارج ٦ وفروة بن نوفل من بنى أشجع ، ومن قدامى الخوارج ، وهو ممن اعتزل موقعة النهروان ، وحارب أهل الكوفة أيام معاوية ثم انقطعت أخباره ، انظر الخوارج والشيعة ٤٣ ومصادره .

(٢) شعر الخوارج ٧ . وشرح نهج البلاغة ٢ / ٤٤ . ولم أعثر على خبر لهذا الشاعر . حيدر : لقب لعلىّ بن أبى طالب .

الملة ، ويعبر عن هذه القاعدة شعر لإحدى نسائهم ، كانت قد أقامت فترة طويلة فى عسكر الضحاك ، ثم تركته [١] :

مُرُوا بنا نرجِعْ إلى ديننا فكلُّ دينٍ غيره باطلُ

يستوى فى نظرها ، ونظر طائفتها دين الأمويين والشيعة والزبيريين ، فالكل باطل ، ودينها هو الحق .

ويؤكد هذه النظرة قول أحد فرسانهم [٢] :

أضربُ قوماً حبطتْ أعمالهم الله مَوْلانا ولا مَوْلى لهم

فالله مولى الخوارج وحدهم ، لأنهم أهل طاعته ودينه ، المؤمنون به ، وهو لايتولى بنصره إلا المؤمنين .

أما بنو أمية فقد حدد الخوارج نصال الشعر ، وقذ فوهم بها ، كما أرهفوا سيوفهم فى قتالهم : شعارهم قول أبو الوازع الراسبى [٣] :

فجاهدْ أناساً حاربوا الله واصطبرْ عسى الله أن يخزى غَوِيّ بنى حَرْب

فما دام بنو حرب (الأمويون) يحاربون دين الله ، فالخوارج حرب عليهم ، حتى يخزيهم الله ، ويكشف ضلالهم للناس ، فينصرفوا عنهم ، ويناهضوهم .

وإذ كان بنو أمية فى اعتقاد الخوارج ضالين ، كفارا ، فديارهم ديار حرب ، وقتالهم واجب ، ودماؤهم مباحة مهدرة .

يصدر هذه الفتوى قائد الخوارج الأزارقة وشاعرهم وفقيههم قطرى بن الفجاءة ، من خلال وصفه لموقعة دولاب على نهر دُجيُل.

فقد اشتبك نافع بن الأزرق [٤] وأتباعه بأهل البصرة ، تظاهرهم جيوش الأمويين

---

(١) شعر الخوارج ١١٢ وبلاغات النساء ١٩١

(٢) شعر الخوارج ١١٦ .

(٣) شرح نهج البلاغة ١ / ٤٥٤ وشعر الخوارج ٣٣ ولانعرف عن أبى الوازع الراسبى ، إلا أنه كان شاعرا من مجتهدى الخوارج ، كثير التلوم لقعوده ، كثير التحضيض لأصحابه على الخروج .

(٤) أبو راشد نافع بن الأزرق ، من بنى حنيفة ، نسب أصحابه إليه ، فسموا بالأزارقة ، وكان مقدما فى فقه الخوارج ، فارسا شجاعا ، قتل فى موقعة دولاب هذه (سنة ٦٥ هـ) وأخباره كثيرة ، انظرها فى : الملل والنحل ١ / ١٦٢ والكامل للمبرد ٢ / ١١٩ والطبرى ٧ / ٨٥ ومروج الذهب ٢ / ١١٥ (البهية).

فى هذه الموقعة ، وكان الخوارج فى ألف رجل ، والبصريون فى عشرة آلاف ، ومع ذلك أحرز نافع وأصحابه نصرا باهرا ، وهربت جموع البصريين سابحين فى نهر دجيل ، وغرق منهم أثناء ذلك كثيرون ، فقال قطرى [(١)] ، مخاطبا أم حكيم السالفة الذكر ، من أبيات :

فلم أَرَ يوماً كان أكثر مقعصاً ... يمُجُّ دماً من فائظٍ وكليم
وضاربةٍ خدًّا كريما على فتىً ... أغرَّ نجيب الأمهات كريم
أُصيبَ بدولابٍ ولم تكُ موطنا ... له أرضُ دولابٍ وديرِ حميم
فلو شهدتنَا يومَ ذاك وخيلنا ... تُبيحُ من الكفار كل حَريِم
رأتْ فتيةً باعوا الإله نفوسهم ... بجنات عَدْنٍ عنده ونعيم

وقد مَرَّ بنا شعر لأحد الخوارج ، قاله بين يدى الحجاج ، وقد أمر بقتله ، يتقرب به إلى الله قبل أن يقتل ، ويقرر فيه أن من عدا الخوارج مطرودون من رحمة الله ، ملاعين ، « لا بارك الله فى القوم الملاعين » [(٢)] .

ويضيف عيسى بن عاتك الخطى إلى مامر ، أن المخالفين جائرون ، غادرون ، باغون ، ملحدون ، فى قوله [(٣)] :

أخافُ عقاب الله إنْ متُّ راضياً ... بحكم عُبيد الله ذى الجَوْر والغَدْر
وأحذرُ أن ألقى إلهى ولم أُرع ... ذوى البغْى والإلحاد فى جَحْفَلٍ مَجْرِ

وذهب الصحارى بن شبيب إلى خالد بن عبد الله القسرى [(٤)] ، يسأله حقه فى بيت المال فأبى خالد ، قائلا : ومايصنع ابن شبيب بالفريضة ، فخرج الصحارى غاضبا وركب حتى جاوز واسطا ، ثم عبر النهر ونزل على نفر من بنى تيم اللات بن ثعلبة من الخوراج ، فأخبرهم خبره مع خالد ، فقالوا : كنت لأن تخرج إلى ابن النصرانية

---

(١) الأغانى ٦ / ، والكامل للمبرد ١ / ١٨٣ وشعر الخوارج ٤٤ . القعص : الطعن بالرماح . الفائظ : من فاضت روحه . الكليم : الجريح .

(٢) راجع ص ١٧٠ من هذه الدراسة .

(٣) أنساب الأشراف ٤ / ٢ : ٩٥ وشعر الخوارج ١٢ . عبيد الله : هو عبيد الله بن زياد والى الأمويين على البصرة أيام يزيد بن معاوية . المجر : الكثير .

(٤) توفى فى المحرم ١٢٦ هـ وكان جوادا ممدحا خطيبا مفوها ، ولى العراق لهشام بن عبد الملك سنة ١٠٦ هـ انظر : العبر للذهبى ١ / ١٦٢ والطبرى ٨ / ١٨٧

فتضربه بسيفك أحرى ، فقال : إنى والله ماأردت الفريضة ، وما أردت إلا التوصل إليه لئلا ينكرنى (أى ليأنس إليه إن دخل عليه بعد ذلك) ثم أقتل ابن النصرانية غيلة ، ثم صاغ رأيه هذا شعراً فقال [١]:

لم أُرد منه الفريضةَ إلا طمعاً فى قتله أن أَنالا
فأُريح الأرض منه وممَّن عاث فيها وعن الحقِّ مَالا

وواضح أنه يعبر عن رأى الخوارج ، القائل بوجوب قتل المخالف ، وعلى كل خارجى أن يسعى لأدائه ، بكل السبل الممكنة ، ومنها الاغتيال ، فالدم المهدر ، لاحرمة له ، ولا كرامة ، وهذا ماكان يسعى إليه هذا الخارجى ؛ ليخلص الدنيا من فساد المخالف ، وميله عن الحق (عقيدة الخوارج) ، وتجبره ، وإفشائه الضلال .

ولأن الخوارج يعتقدون كفر المخالفين ، وإلحادهم ، فقد كثر تهافتهم على قتالهم ، وكل منهم يأمل أن يصاب على أيديهم بما يرزقه الشهادة ؛ ليفوز بما أعده الله للشهداء من كريم المنزلة .

وهذا مايفسر قول أم عِمران بن الحارث الراسبى ترثى ولدها ، الذى قتل يوم دولاب [٢] :

الله أيَّـد عِمْرانـاً وطهَّـره وكان عِمران يدعو الله فى السَّحَرَ
يدعـوه سرًّا وإعلانـاً ليرزقـه شهـادةً بيـدىْ مِلحـادةٍ غُدُرِ

وإذا عرفنا أن الملحادة ، هو المغالى فى كفره وإلحاده ، أدركنا رأى الخوارج فى مخالفيهم ، وحكمهم عليهم .

إلى جانب هذه المعانى الدينية ، التى أكثر منها شعراء الخوارج فى هجاء خصومهم ، حرص بعض شعرائهم على الهجاء بمعان أخلاقية ، تدمغ الخصوم بالخزى والعار ، فى مجتمع عربى ، كان أفراده يحرصون على التمدح بخصال الشرف ، وقيم المجد ، والمروءة .

ولنضرب مثلا لهذا الضرب من هجاء الخوارج بقول عمران بن حطان ، لما تحصّن

---

(١) الطبرى ٨ /٢٤٦ وشعر الخوارج ٧٢

(٢) الأغانى ٦ / ٤ وشعر الخوارج ٤٠

الحجاج بن يوسف بالكوفة ، وأغلق عليه قصره ، حين هاجمتها غزالة الخارجية [١] — وكان الحجاج يطلب عمران ويشتد فى طلبه [٢] :

أسدٌ علىَّ وفى الحروب نعامةٌ ... رِبْدَاء تَجْفِل من صفير الصافر
هلَّا برزت إلى غزالة فى الوغى ... بل كان قلبك فى جناحَىْ طائر
صدعتْ غزالة قلبَه بفوارسٍ ... تركتْ منابره كأمس الدابر
ألق السِّلاح وخذْ وشاحىْ مُعصِرٍ ... واعمِدْ لمنزلة الجبان الكافر

فالجبن ، وضعف الهمة ، وسقوط المروءة ، والعجز عن مقاومة الأبطال ، واضطهاد العُزَّل المسنين الضعفاء ، هى المثالب التى اقتصر عليها عمران بن حطان ، فى هجاء هذه الشخصية الأموية الهامة ، الحجاج بن يوسف الثقفى .

من هذا العرض لشعر الخوارج المؤيد لطائفتهم ، بالتصدى لأعدائها ، نستطيع أن نلاحظ أن طابع الحماسة الذى يميز شخصية الخوارج هو الظاهرة البارزة فى هذا الشعر ، وأن حماسة شعر الخوارج لم تنزلق بهم إلى اصطناع أسلوب المبالغة والتهويل فى الأداء ؛ لاستناد حماستهم إلى عقيدة راسخة ، هى المثير الأساسى لكل المعانى التى طرقوها ، كما أنها جعلتهم يربطون بين هذه المعانى ، وبين أملهم الأكبر ، فى الفوز بثواب الله ، محتسبين كل مايقولون عند الله ، قاصدين به نصرة دينه وإعزازه .

ج : تمجيد شهداء الخوارج (الرثاء) :

كان الخوارج يؤمنون بالخروج ، والجهاد فى سبيل عقيدتهم ، وكانت الحرب هى وسيلتهم فى الخروج والجهاد ؛ ولذا كثرت وقائعهم مع من يخالفهم فى عقيدتهم ، وبخاصة الأمويين ، كما ذكرنا من قبل .

حقا إنهم كانوا يناصبون العداء كل مَنْ يخالفهم فى العقيدة ، فالناس فى اعتقادهم

---

(١) فارسة خارجية ، كانت زوجة لشبيب الخارجى السالف الذكر ، وكان يضرب بشجاعتها المثل ، قتلت فى معركة بقيادة زوجها بينه وبين الحجاج سنة ٧٧ هـ . انظر : العبر للذهبى ٨٧/١ والطبرى ٢٢٢/٧ ومابعدها ، وفيها يقول أحد شعراء الخوارج :

غزالة ذات النذر منا حميدة ... لها فى سهام المسلمين نصيب

(شعر الخوارج ٦٤)

(٢) الأغانى ١٥٠/١٦ والكامل للمبرد ٣٨/٢ والعقيد الفريد ٢٥١/٣ . وانظر : مروج الذهب ١٥٣/٢ . فقد ورد البيتان الأولان فى ضمن خبر طريف بين الحجاج وأم البنين زوج الوليد عبد الملك . ربداء : سوداء فى حمرة . المعصر : الفتاة الشابة .

إما مؤمن مجاهد ، أو قاعد ، وهم الخوارج بفرقهم المختلفة ، وإما كافر ، وهم من عداهم ، وهؤلاء يطلقون عليهم المخالفين ، لافرق بين شيعة أو أموية ، أو زبيرية .

غير أن صراعهم الحربى إنما كثر مع الأمويين ، الذين طاردوهم ، ورموهم بالجيوش طوال أيام حكمهم .

وكان طبيعيا ، وهم المحاربون الفدائيون ، أن يكثر القتلى فى صفوفهم ، بخاصة أنهم كانوا حريصين على مايمكن أن نسميه تقصير المسافة بينهم وبين لقاء الله بالموت ، وهذا مايظهر فى كثير من أشعارهم ، التى تعبر عن استطالة الحياة ، ومحاولة التخلص منها ، استعجالا للقاء الله من ناحية ، وللحاق بإخوانهم وأصحابهم ، الذين سبقوهم إلى شرف الفوز بالشهادة من ناحية أخرى .

ومن المعلوم أن الخوارج كانوا هدفا دائما للاضطهاد والتشريد على يد بنى أمية ، مبغضين إلى جمهور غفير من معاصريهم ، فكان وضعهم سيِّئاً فى أغلب أحوالهم ، وفى حَدة الثورة على الوضع السيء يكمن الأمل فى التخلص من هذه الحياة عند الخوارج ، أى أن الموت عندهم هو (الغاية المنشودة) ؛ ولذلك كان الشاعر الخارجى فى صراع كبير مع الزمن ، وسبيله إلى الانتصار عليه هو الموت ، فإذا قارنا بين صراع الخوارج مع الزمن ، وصراع أتقياء أهل السنة له ، نجد أن الأخيرين يؤمنون بأن الصبر هو طريق النصر ، وإذا قارناه بصراع المتصوفة ، نجد أن هؤلاء يؤمنون بأن تقصير المسافة إنما يتم قبل الموت ، بالاتحاد والفناء ، أما الخوارج فيرون أن تقصير المسافة انتصار متوج بالموت [(١)] .

بسبب تهافت الخوارج على الموت ، تفشى فيهم القتل ، وقصرت أعمارهم ، كما قال شاعرهم : « إن الشراة قصيرة الأعمار » ، وبسببه أيضا تفشت فى أشعارهم تلك النغمة ، التى تتحدث عن تبرمهم بالحياة ، وعن شعورهم بأيامها وكأنها عناء مطول ملؤه السأم والملالة ، على حدقول أبى بلال مرداس بن أدية : [(٢)]

إلهى هبْ لى زلفــةً ووسيلـــةً   إليك فإنى قد سئمت من الدَّهر

وما الزلفى والوسيلة التى يتمناها أبو بلال إلا ما عبر عنه كعب بن عميرة [(٣)] الخارجى فى

---

(١) رجعنا فى هذه الفكرة إلى مقدمة شعر الخوارج ص ٧ .
(٢) شعر الخوارج ١١ .
(٣) أحد قدماء الخوارج ، أراد أن يشهد النهروان فحبسه أخوه . انظر معجم الشعراء ٣٤٥ .

قوله (١) :

ويارب هبْ لى ضربةً بُمهنَّدٍ   حسامٍ إذا لاقى الضريبة يَهْبُرُ

والحويرث الراسبى يمل الحياة كما ملها أبو بلال ، ويدخل فى صراع مع نفسه ، يحاورها ، ويزجرها عن التعلق بالحياة ، التى لاخير فيها ، ويحزم أمره على طلب الموت ، باقتحام مظانه (٢) :

أقولُ لنفسى فى الخلاء ألومها   هُبلتِ دعينى قد مللتُ من العمر

ومن عيشةٍ لاخير فيها دنيئةٍ   مُذَمَّمَةٍ عند الكرام ذوى الصبر

سأركب حَوْباء الأمور لعلنـى   ألاقى الذى لاقى المحرق فى القصر

إنها موجة من السخط على الحياة ، والتبرم من البقاء فيها ، وموقف معكوس عند المؤمنين بالحياة ، الراغبين فيها .

وهذا الهيام بالموت ترك فى أشعار الخوارج أيضا ، لونا حزينا ، ونغما حزينا ، ولكنه ليس حزن اليائسين المتخاذلين الضعفاء ، بل حزن الأقوياء ، لأن هذا الموت نفسه كان عند أصحاب ذلك الشعر نوعا من الأمل ؛ إذ لم يعد الموت — فى نظرهم — إلا دخول الجنة ، أو لقاء الإخوان والأحباب (٣) » .

بهذه النظرة إلى الموت ، اندفع الخوارج فى حروبهم ، يتهافتون على الموت تهافت الفراش على النار ، وفازوا من ذلك ماأملوا ، حيث حصدت الحروب أرواحهم حصداً .

ووقف الشعر يسجل مهرجان الشهادة ، الذى أقامة الخوارج ، باندفاعهم وفدائيتهم ، فى مراث قوية ، حافلة بمعانى القدوة والمثل ، تخلد الأبطال ، وتمجد فعالهم ، وتبشرهم بمنازل الشهداء عند ربهم .

ومن الجدير بالذكر أن رثاء الخوارج شهداءهم ، يختلف عن رثاء القتلى فى شعر الأحزاب الأخرى ؛ إذ يقل فيه الأنين والشكوى والعويل ، ويعمر بطلب المثوبة ، وتحقير أمر الدنيا ، وإعظام أمر المجاهدين ، المستشهدين ، وتمنى اللحاق بالشهداء .

فلننظر فى قول أم عمران بن الحارث الراسبى ، ترثيه (٤) :

---

(١) شعر الخوارج ، ومعجم الشعراء ٣٤٥ . الضريبة : اللحم .

(٢) شعر الخوارج ٦٠ .

(٣) شعر الخوارج (المقدمة ص ٣).

(٤) الأغانى ٦ / ٤ وشعر الخوارج ٤٠ . الهصر : الأسد القَتَّال .

اللهُ أيّـد عِمرانـا وطهـرّه | وكان عِمرانُ يدعو الله فى السَّحَر
يدعـوه سرّا وإعلاناًليرزقـة | شهادة بيدى مِلْحادةٍ غُدر
ولّى صحابتُه عن حُرِّ ملحمة | وشَدَّ عمران كالضرغامة الهَصِرِ

ويقول أبو بلال مرداس بن أُدية فى شهداء موقعة النهروان [١] من الخوارج [٢] :

أبعْدَ ابن وهب ذى النزاهة والتُّقى | ومن خاض فى تلك الحروب المهالكا
أحب بَقاءً أو أُرجِّي سلامةً | وقد قتلوا زيدَ بن حصِنٍ ومالكا
فيـاربِّ سلِّـم نيَّتـى وبصيرتى | وهبْ لى التُّقى حتى ألاق أولئكا

نعم ، الشاعر حزين على فقد هؤلاء الأعلام من شهداء الخوارج يوم النهروان ، ولكن حزنه أخذ طابعا يبعد عن الجزع والتوجع والخورَ ، بحيث يدفعه إلى تمنى اللحاق بهم ، وانتزاع حب البقاء والسلامة من نفسه ، فهو حزن الأقوياء الشجعان ، الذين يلحظون مافى هؤلاء من القدوة ، والتأسى بتقواهم ، وشجاعتهم ، وبطولتهم ، فيتمنون لقاءهم ، على ماكانوا عليه من صدق البصيرة ، وكمال التقوى .

وعلى أثر المعركة التى دارت بين الخوراج بقيادة بسطام اليشكرى الملقب بشوْذب [٣] والأمويين (سنة ١٠١ هـ) بالعراق ، رثى أبو ثعلبة أيوب بن خَوْلَى قتلى الخوارج ، وخص منهم هدبة اليشكرى ابن عم بسطام ، وأبا شبيل مقاتل بن شيبان ، فقال [٤] :

فياهدب للهَيْجا وياهدبُ للندى | وياهدبُ للخصم الألدِّ يحاربهُ
وياهدبُ كم من مُلْحَم قد أجبتَه | وقـد أسلمتْـه للرمـاح جَوالبُـه
وكان أبو شيْبانَ خير مقاتـلٍ | يُرجَّى ويَخْشى بأسَه من يُحاربُه
ففاز ولاقـى الله بالخير كلـه | وخَذّمه بالسيف فى الله ضاربُهُ

---

(١) تعد أولى معارك الخوارج مع خصومهم ، وكانت بينهم وبين علىٍّ وأنصاره فى صفر ٣٧ هـ قتل فيها أكثر من كان مع عبد الله بن وهب الراسبى . انظر: مروج الذهب ٢ / ٣٧ (البهية) .

(٢) شرح نهج البلاغة ١ / ٤٤٨ وشعر الخوارج ١٠

(٣) خرج أيام عمر بن عبد العزيز سنة ١٠٠ هـ فى ثمانين فارسا أكثرهم من ربيعة ، وقتل سنة ١٠١ هـ فى لقاء آخر مع جند مسلمة بن عبد الملك . انظر : الطبرى ٨ / ١٤٢

(٤) الطبرى ٨ / ١٤٣ وشعر الخوارج ٧١ . الملحم : الذى أسر وظفر به أعداؤه . جذمه : قطعه . الجوالب : الخيل المجلوبة للقتال .

فهو يعلى فيمن رثاهما الغناء فى الحرب ، ومقارعة الأعداء واقتحام الأهوال ،ونجدة الأسير ، ويغبطهما على الفوز بالشهادة ، ولقاء الله ، وبين أيديهما كل ماقدماه فى سبيل الله .

ولما سقط أبو بلال مرداس بن أدية (سنة ٦١ هـ) قتيلا ، رثاه عِمْران بن حطان ، فقال [١] :

لقد زادَ الحياةَ إلىّ بُغْضاً وحباً للخروج أبو بلال
أحاذرُ أن أموت على فِراشي وأرجو الموت تحتَ ذُرى العوالى
ولو أنى علمت بأن حتْفِى كحتْفِ أبى بلالٍ لم أُبال
فمن يكُ همُّه الدنيا فإنى لها والله رب البيت قالِ

إن هذا الرثاء يعد نموذجا لحزن الأقوياء ، غير المتخاذلين ؛ إذ يرى عمران فى هذا الخارجى ، الذى قتل دفاعاً عن عقيدته ، قدوة ومثلا ، فيتطلع إلى الفوز بما فاز به من شهادة ، تحبب إليه الخروج ، جهادا فى سبيل الله والعقيدة ، وتبغض إليه الحياة ، وتدفعه إلى أن يُلقى بنفسه فى غمار المعارك ؛ ليدرك صاحبه ، ويحظى بالشهادة مثله ، وهذا ماجعله يجأر بالضراعة إلى الله ، أن يلحقه بصاحبه [٢] :

ياعين بكّى لمرداسٍ ومصرعه يارَبِّ مِرْداسٍ الحقْنِى بمرداس

والتبشير بالجنة معنى بارز ، إلى جانب معنى القدوة ، وتمنى اللحاق ، فى رثاء الخوارج شهداءهم ، من ذلك قول شاعرهم ، يرثى من يدعى جَوَّازاً الضبى الخارجى [٣] :

لابارك الله فى قومٍ أجاز هم حكاّمهم أنْ أصابوا الحُرَّ جوّازا
إن يقتلوه فما فازوا بمقتله وقد أصاب الذى رَجَّى وقد فازا

وقد مر بنا قول أيوب بن خولى فى رثاء مقاتل الشيبانى :

ففاز ولاقى الله بالخير كله ....

---

(١) الكامل للمبرد ١ / ١٠٨ وخزانة الأدب ٢ / ٤٣٩ وشعر الخوارج ١٦
(٢) أمالى المرتضى ١ / ٣٣٦ . والكامل للمبرد ١ / ١٠٨ وانظر : الفرق بين الفرق ٧٢ .
(٣) شعر الخوارج ١١١

لقد غدا شهداء الخوارج الذين سقطوا فى موقعة النهروان كابن وهب وأصحابه ، أو من قتل منهم فى غيرها من حروبهم الكثيرة ، غدوا رمزا لمعانى التضحية والشهادة فى سبيل الحق ، ومنبعا لكثير من شعر الرثاء ، الذى تمتزج فيه عواطف الحزن والثورة والرغبة فى الشهادة ، ليلحقوا بمن سبقوهم إلى دار النعيم .

وفى هذا يقترب شعر الخوارج فى الرثاء من شعر الشيعة فيه ، فالشيعة أيضا اتخذوا من مقتل أئمتهم ، وبخاصة الحسن بن على ، شهيد كربلاء ، رمزا للتضحية فى سبيل الحق ، وباعثا على شعر كثير ، فيه الثورة ، وفيه الحزن ، وفيه الندم ... وإن ظل رثاء الخوارج يحتفظ بوجهه الإيجابى البرىء — غالبا — من التسليم والتخاذل ، وانهيار النفس أمام مصيبة الموت ، العامر بمعانى القدوة ، والاستمرار فى الحرب والرفض والمقاومة ، وبذا كان رثاء الشجعان الأقوياء ، لاالضعفاء المتخاذلين المنهارين .

نعم ، قد يربط الشاعر الخارجى رثاءه بالدموع ، وقد تغزر هذه الدموع ، ولكن سرعان مايفيق الشاعر ، فيكفكف دمعه ، ويعود إلى الطابع العام فى رثاء شهدائهم ، الذى يمجد البطولة ، ويرى فى البطل الشهيد قدوة ومثلا .

فقد بكى عمران بن حطان أبا بلال مرداس بن أدية ، واستذرف دمع عينه على مصرعه ، فى شطر بيت ، ثم عاد إلى التماسك فى الشطر الثانى ، داعيا الله أن يرزقه الشهادة التى رزقها أبا بلال :

ياعين بكـــىّ لمرداس ومصرعـــه يارب مرداس الحقنـــــى بمرداس

وقد يسترسل الشاعر الخارجى فى حزنه ودموعه أكثر ، ولكنه دائما ينحرف عن هذا المظهر من مظاهر الضعف ، إلى طابع رثاء الخوارج الذى ذكرنا.

ونذكر فى هذا المقام مارثى به حسان بن جعدة الخارجى [1] ، بسطاما اليشكرى

---

(١) لانعرف له إلا شعره الآتى وماحوله من خبر المعركة التى قتل فيها أصحابه الذين يرثيهم به . انظر : الطبرى ٨ / ١٤٣ — ١٤٤

وصحبه الذين قتلهم مسلمة بن عبد الملك [١] (سنة ١٠١ هـ) [٢] .

ياعين أذْرى دموعاً منك تَسْجامَا وابكى صحابة بَسْطامٍ وبسطاما
فلن ترىْ أبَدا ماعشتِ مثلَهم أنْقى وأكمل فى الأحلام أحلاما
بِسيِّهم قد تأسَّوْا عند شِدّتهم ولم يريدوا عن الأعداء إحْجاما
حتى مضوْا للذى كانوا له خَرجوا فأورثونا منارات وأعلاما
إنى لأعلم أنْ قد أُنزلوا غُرفاً من الجِنان ونالوا ثَمَّ خُدّاما

وقول الضحاك بن قيس الخارجى [٣] :

ياعَيْنُ أذْرى دموعاً منك تَهْتَانا وابكى لنا صحبةً بانوا وإخْوانا
خَلَّوْا لنا ظاهرَ الدنيا وباطنَها وأصبحوا فى جنان الخلد جيراناً

وقول الأَصَمّ الضبى [٤] يرثى إخوانه الذين قتلوا عند الجوْسق : [٥] :

قوماً إذا ذُكِّروا بالله أو ذكروا خَروّا من الخوف للأذقان والركب
ساروا إلى الله حتى أُنزلوا غُرفاً من الأرائك فى بيتٍ من الذهب

ففى هذا الرثاء حزن ولوعة ، ودموع غزيرة حقا ، ولكن فيه إلى جانب الحزن والعبرات طابع الخوارج فى رثائهم ، الذى يمكن أن نسميه رثاءً مذهبيا ، فيه تمجيد للبطولة والأبطال ، وعظمة القدوة ، والحرص على طلَب الشهادة ، والبشارة بحسن العقبى ، والثقة التامة بالجنَة ونعيمها — (إنى لأعلم) و (أصبحوا فى جنان) و(أنزلوا غرفا) — جزاء ومستقرا ومقاما .

* * *

(١) راجع ص ١٩٣ هامش رقم ٣ من هذا البحث . ومسلمة بن عبد الملك الأمير الأموى ، كان يلقب بالجرادة الصفراء ، موصوفا بالشجاعة والإقدام والرأى والدهاء ، ولى أرمينية وأذربيجان غير مرة ، كما تولى إمرة العراقين ، وتوفى سنة ١٢١ هـ . انظر : العبر للذهبى ١ / ١٥٤

(٢) الطبرى ٨ / ١٤٤ . وشعر الخوارج ٦٩ .

(٣) الطبرى ٨ / ٢٤٤

(٤) قيس بن عبد الله ، الملقب بالحسبى ، حارب مع عبيدة بن هلال ، وكان فى المستأمنة بعد مقتل عبيدة ، وعاش إلى أن كف بصره ، انظر مصدر شعره الآتى .

(٥) معجم البلدان (رسم — جوسق) وشعر الخوارج ٥٦ . وجوسق : موضع بظاهر الكوفة .

ى : نظرات فنية فى شعر الخوارج السياسى :

اقترن شعر الخوارج بعقيدتهم ، كما جاء انعكاساً لشخصيتهم الرافضة لكل الآراء والنظم السياسية القائمة حينذاك ، والمتمردة فى حماس وانفعال صادقين ، على كلتا القوتين العظميين ، اللتين كانتا تخوضان صراعا عنيفا حول الحكم فى الشام والعراق .

لقد اجتمع الخوارج على عقيدة واحدة ، هى أن أمور الحكم وسياسته لم تكن تسير وفق ماتقتضيه الشريعة الإسلامية ، ويدل عليه نص القرآن ، من قيام الحكم الإسلامى على التقوى ، والعدالة ، والمساواة ، وربما اختلفت فرق الخوارج وطوائفهم فيما ترى كل منها من وسائل الإصلاح ، وأساليب الرفض ، مابين معتقد فى وجوب الخروج والقتال ، ومواجهة الحكم القائم بالقوة ، أو جواز القعود مع الاستنكار والدعوة ضد هذا الحكم بأساليب أخرى غير القتال ، لكن تجمعهم جميعا نزعة دينية متحمسة أشد التحمس ، متطلعة فى إصرار إلى صورة من الحكم الإسلامى ، البرىء من شوائب المطامع الدنيوية ، التى تقود الحاكم إلى طريق ، غير طريق الحق والعدل والدين والخير .

ومن هنا جاء شعر الخوارج على اختلاف موضوعاته ، انعكاسا لحياتهم بجانبيها ، المذهبى والحربى ، فيه تمتزج روح التأمل والزهد بروح البطولة والتضحية والفداء والتهافت على الاستشهاد فى ساحات الجهاد الدينى ، وتظله سحابة من التبرم بالحياة ، والحزن لمصارع الأبطال والزعماء ، المغلف بقوة الإيمان ، وشبوبية الاندفاع والحماس .

هذا هو الإطار العام ، الذى تحرك بداخله شعر الخوارج ، محققا ذاته ، مبرزا شخصية ، فى النواحى الفنية التالية :

١ ـــ وضوح الطابع الدينى المذهبى : حيث تكثر المعانى الدينية العامة ، أو المنبعثة عن عقيدة الخوارج ومذهبهم فى الكثرة الغالبة من أشعارهم ، وفى كل غرض اتجه إليه هذا الشعر وعالجه ـــ غالبا ـــ والنماذج السالفة تبرز هذا الجانب الفنى فى شعرهم ، سواء فى تمجيد طائفتهم ، والتعبير عن إيمانهم الشديد بعقائدهم ، أو فى الإشادة بأبطالهم ، أو رثاء قتلاهم .

ويجدر بنا أن نفرق هنا بين المعانى الدينية ، المستوحاة من عقائد المذهب ، والمعانى

الدينية العامة غير المذهبية ، أى التى نجدها عندهم وعند غيرهم ، فالأولى بالطبع متفردة متميزة ، تفرد عقيدة الخوارج وتميزها عن عقائد الأحزاب والفرق الإسلامية الأخرى ، أما الأخرى ، فلا يكاد شعر الخوارج ينفرد فيها أو يتميز ، عن نظائرها فى شعر الأحزاب الأخرى ، وبخاصة فى مقام الإشادة بالطائفة وتمجيدها .

فالملاحظ أن أكثر الصور الدينية التى لهجت بها ألسنة شعرائهم فى هذا المقام ، تشبه فى كثير من عناصرها ، ماقدمه الشعر الشيعى من صور دينية للأئمة الشيعيين ، ونستطيع أن نذهب إلى أبعد من هذا ، فنرى هذه الصور تتنازعها الفرق الإسلامية جميعا ، سياسية كانت أو دينية ، باعتبارها المثل الذى تتحقق فيه صورة المؤمن الحق ، وإن لم تترجم دائما فى صورة شعرية عند الفرق الإسلامية كلها .

فالحسن البصرى يقدم لنا صورة المؤمن السنى نثرا ، فيقول : [١] « إن المؤمنين والله قوم ذُلل ، ذلت والله الأسماع والأبصار والجوارح ، حتى يحسبهم الجاهل مرضى ، وإنهم لأصحاء القلوب ، ولكن دخلهم من الخوف ، مالم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا عملهم بالآخرة ، فقالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، والله ماحزنهم حزن الدنيا ، ولا تعاظم فى أنفسهم ماطلبوا به الجنة ، أبكاهم الخوف من النار ، وأن من لايعتز بعز الله يقطع نفسه على الدنيا حسرات ، هذا نهارهم ، فكيف ليلهم ، خير ليل ، صفوا أقدامهم ، وأجروا دموعهم على خدودهم ، يطلبون إلى الله ــ جل ثناؤه ــ فكاك رقابهم » .

ألا تذكرنا هذه المعانى ، التى تدور حول الخشوع لله ، وتأثر الأبدان بكثرة العبادة ونحولها ، والبكاء خوفا من النار ، والزهد فى الدنيا ، والرغبة الشديدة فى ثواب الآخرة ... إلى آخر ماذكر الحسن البصرى ، ألا تذكرنا ، بقول عمر بن الحصين العنبرى الخارجى فى أبناء طائفته [٢] (السابق) :

متأهبــــون لكــــــل صالحة ناهون من لاقوْا عن النكْرِ

---

(١) جامع البيان (تفسير الطبرى) ١٩ / ٢٠ .

(٢) راجع ص ١٧٦ ــ ١٧٧ من هذه الدراسة ، فى هذه الأبيات والتى يليها من شعر الخوارج .

متأوهون كأن جمر غضا ... للموت بين ضُلوعهم يسرى
لاليلهم ليل فيلبسهم ... فيه غواشى النوم بالسّكر
إلا كَرًى خَلْسا وآونة ... حذر العقاب فهم على ذعر

وقوله (السابق فى أبيات) :

تلقاهم فتراهم من راكع ... أو ساجد متضرع أو ناحب

وقول الطرماح (السابق فى أبيات) :

لله در الشراة إنهم ... إذا الكرى مال بالطّلا أرقوا (الخ الأبيات)

كما تذكرنا بوصف أبى حمزة الشارى للخوارج نثراً ، وقد مرَّ [١] .

ولا نكاد نجد فرقا بين هذه وتلك (صورة المؤمن السنى ، والمؤمن الخارجى) وبين صورة المؤمن الشيعى ، ويكفى أن نذكر بقول أيمن بن خريم الشاعر المتشيع فى أئمة آل البيت ، وقد سبق [٢] :

نهاركم مكابـدة وصوم ... وليلكم صلاة واقتـراء
وليتم بالقـران وبالتزكّـى ... فأسرع فيكم ذاك البلاء...

ولا تختلف كثيرا صورة المؤمن المعتزلى عن هذه الصورة ، يقول شاعر معتزلى فى وصف أصحاب واصل بن عطاء ــ رأس المعتزلة [٣] :

تراهمْ كأن الطّيرَ فوق رءوسهم ... على عمّةٍ معروفةٍ فى المعاشر
وسيماهمُ معروفةٌ فى وجوههم ... وظاهر قول فى مثال الضمائر
وفى قصٍّ هداب وإحفاء شاربٍ ... وكورٍ عل شيْب يضىء النواظر

آية هذا كله : أن المعانى الدينية العامة فى شعر الخوارج ، لا تكاد تمتاز عن نظائرها فى شعر غيرهم ، أما ما كان من معانيهم الدينية الملونة بصبغة مذهبية عقدية ، فهى التى تعكس طابعهم المذهبى ، وشخصيتهم الدينية المذهبية .

ولسنا نقصد بالطابع المذهبى إيراد العقائد ، أو المعانى المستمدة من العقائد

---

(١) راجع ص ١٦٩ من هذه الدراسة .
(٢) راجع ص ١٠٢ من هذه الدراسة
(٣) الأغانى ٢٠ / ١١١

الخارجية ، مدعمة بالحجة والبرهان المقنع بصوابها ، أو التعليل لإيمان الخوارج بها ، فشعرهم يكاد يخلو من هذا .

وإنما نقصد تلك الصبغة الدينية المنبعثة من عقائدهم ، والتى تلون معانيهم ، أو فلنقل : ذلك الشعور الدينى الذى يتمثل فى شعرهم أكثر مما تتمثل عقائدهم نفسها .

٢ ــ صدق الباعث ، وحرارة العاطفة : فقد لاحظنا خلال دراستنا لنماذج شعر الخوارج السابقة ، فى مختلف ألوانه ، ومضامينه ، أنهم يصدرون فى كل مايقولون عن إيمان راسخ ، وحماسة مندفعة متوهجة ؛ ولذا لم يعتمد شعرهم فى أساليب أدائه على أسلوب المبالغة الصارخة ، والادعاء وافتعال المعانى أو المواقف ، ونحو ذلك مما يدل على ضعف الباعث ، والافتقار إلى الانفعال الصادق ، وماحاجتهم إلى ذلك ، وهم قوم لايؤمنون بالتقية فى شىء من أفعالهم وأقوالهم [١] ؛ ومن ثم اتسموا فيهما معا بالصراحة والصدق ، تبعا لإيمانهم الشديد بمبادئهم ، لايتحولون عنها ، ولايداورون فيها ، وإنما يضحون فى سبيلها بأرواحهم ، وينافحون عنها بسلاحهم .

من أجل هذا قصر شعراء الخوارج شعرهم ــ غالبا ــ على التعبير عن آرائهم ، ومايتصل بحياتهم من حروب وثورات ، وقلما عالجوا به أغراضا أخرى ، وبمقتضى هذا بعدوا بشعرهم عن الإطار التقليدى ، الذى كان يسير عليه الشعراء قبل عصرهم ومن معاصريهم فى قصائدهم ؛ إذ ليس فى حياتهم مجال لذلك الغزل التقليدى الذى يقع فى مفتتح القصائد ، وليس فى حياتهم ، مايدعو إلى الوقوف على الأطلال ، وبكاء الديار ، أو وصف الرحلة إلى الممدوح ، أو الحديث المفصل عن مآثر الآباء والأجداد ، والفخر بالأحساب والأنساب ، والتغنى بملاحم المجد والشرف التليد ، ماداموا يرفضون التفاضل

---

(١) قالت جمهرة الخوارج بعدم جواز التقية ؛ إذ لاقيمة للنفس والعرض والمال إذا انثلم الدين « فسلامة الدين مقدمة على سلامتها جميعا » حتى ليذهب بعضهم إلى أنه لايصح قطع الصلاة إذا جاء سارق ليسرق متاعه « وهو يصلى . ومذهب أهل السنة أن من خاف على نفسه أو ماله بسبب عقيدته ، وجب أن يهاجر من البلد الذى يخاف التعرض للأذى فيه « فإن لم يستطع أظهر التقية بقدر الضرورة » عملا بقوله تعالى : « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » (سورة النحل ١٦ / ١٠٦) ووجب عليه مع ذلك أن يسعى فى الخروج بدينه . (انظر : فجر الإسلام ١ / ٣٢١ والخوارج والشيعة ٣٠ ــ ٣١) ومعلوم أن التقية عقيدة من عقائد الشيعة « كما أسلفنا .

بالنسب ؛ لأن القرآن رفضه [١] .

حقا نجد فى شعر الخوارج حديثا عن المرأة ، ولكنه ليس من قبيل حديث غيرهم عن المرأة فى غزلهم ، إنه حديث يختلف عن الغزل العاطفى الذى يبث فيه الشاعر أشواقه ، ومعاناته فى الحب ، وحرمانه وافتتانه ، وإنما حديث عن المرأة رفيقة السلاح والكفاح ، التى تخوض المعارك ــ أحيانا ــ وتبلى فيها بلاء ، لايقل عن بلاء الرجال ، حديث كالذى رأيناه فى مناجاة قطرى بن الفجاءة زوجته الفارسة ، التى كانت تحارب معه جنبا إلى جنب ،وهى ترتجز برجزها السابق :

أحمل رأسا قد سئمت حمله
وقــد مللت دهنه وغسلــه
ألا فتًــى يحمل عنِّى ثُقْلَــه

فهو يقرن بين حبها وحب الشهادة فى سبيل الإيمان والمبدأ ، لاإدلالا بفروسيته المفردة ، على طريقة الشعراء الفرسان فى هذا المقام ، ولكن تصويرا لوجه آخر من الحب ، ينصرف فيه عن أهواء الدنيا ، ومتع النفس ، وإن كانت جميلة محببة ، كما رأينا فى قوله :

فيا كبدا من غير جوع ولاظما ... وواكبـدا من وجـد أم حكيم
ولو شهدتنى يوم دُولاب أبصرت ... طعان فتى فى الحرب غير لئيم

إلى أن يقول :

فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنـا ... تبيـح من الكفـار كل حَرِيم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم ... بجنـات عدن عنـده ونــعيم

ومن أجل هذا أيضا لم يتجهوا بشعرهم إلى غيرهم ، على خلاف مارأينا عند بعض شعراء الشيعة والأمويين والزبيريين ، من تذبذب طمعا فى كسب ، أو دفعا لضر ، فقد رفضوا مسلك أكثر شعراء عصرهم ، وبخاصة الفحول منهم ، فى الارتزاق بالشعر ،

---

(١) فى قوله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (سورة الحجرات ٤٩ / ١٣) .

والسير فى ركاب الخلفاء والولاة والقواد ، بل أدانوا هذا المسلك بمنطقهم الدينى ، الذى انطلقت منه آراؤهم وألوان سلوكهم ، ويلخص موقفهم من قضية التكسب بالشعر ، قول عِمران بن حطان ، يخاطب الفرزدق (١) :

أيها المادحُ العبادَ ليعطى ... إن لله مابأيدى العباد

فاسأل الله ماطلبتَ إليهم ... وارْجُ فضل المُقسِّم العوَّاد

لاتقلْ فى الجواد ماليس فيه ... وتسمى البخيل باسم الجواد

ولانكاد نستثنى من هذا الاتجاه فى شعر الخوارج إلا الطِّرِمّاح بن حكيم ، الذى رأيناه يتجه ببعض شعره ، مادحا بعض عمال بنى أمية طامعاً فى العطاء (٢) ؛ ولايمكننا أن نقارن بين الطرماح وغيره من شعراء الخوارج فى هذا السلوك ، فقد شارك الطرماح — على خلاف شعراء طائفته — فى المنازعات القبلية ، وأسرف فى العصبية للقبيلة ، كما أكثر من هجاء القبائل ، ومن الفخر بنفسه فكان كشعراء القبائل بالكوفة فى عصره ، ومن حين لآخر كانت تستيقظ فى صدره بعض المشاعر الزهدية ، وتتحرك فى قلبه نبضات مذهبية ، غير أن حرصه على المال وطلبه ، باعد بينه وبين تمثيل الروح الخارجية ، المندفعة فى تيار الزهد الدقيق .

يضاف إلى كل ماذكرنا من دلائل صدق الباعث ، وحرارة العاطفة فى شعر الخوارج ، أن أكثر شعرائهم كانوا من أبطال القتال ، وزعماء المذهب المتحمسين ، ومثل هؤلاء أبعد مايكونون عن الادعاء ، أو التكلف فى فعل أو قول ، مما يكسب شعرهم قوة فى التأثير ، وسرعة فى النفاذ إلى القلوب لصدوره عن عقيدة ،وعن إيمان بالغ بهذه العقيدة ، فقد آمن كل خارجى من هؤلاء بأنه يدافع عن حقوق الله والإسلام ، وأنه إن لم يخرج للدفاع عن عقيدته ، حقت عليه اللعنة ، بل حقت عليه النار ، يقول الطِّرِمّاح فى صحوة من صحوات التلوُّم (٣) :

---

(١) الأغانى ١٦ / ١٥١ وانظر خزانة الأدب ٢ / ٤٤٠ وشعر الخورج ٢٠

(٢) راجع ص ٨٦ من هذه الدراسة .

(٣) ديوانه ٢٥٣ والشعر والشعراء ٢٢٩ وشعر الخوارج ٩٨

لقد شقيتُ شقاءً لاانقطاع له　　إنْ لم أفُزْ فَوْزةً تُنجى من النّار
والنّارُ لم يَنجُ من روْعاتها أحدٌ　　إلا المُنيبُ بقلب المخلص الشّارى
أو الذى سبقتْ من قبل مولده　　له السعادةُ من خَلاَّقها البارى

فأمله فى النجاة من عذاب النار مرتبط بفوزه بهذه الهداية التى لدى الشراة (الخوارج) ، وكأنه يعتقد أن النار أعدت لمن لايخرج ، ويترك فئات المسلمين الضالة فى رأيه .

٤ــ استشعار روح الحزن : فالقارىء فى شعر الخوارج يحس بنغمة حزينة ، تلف هذا الشعر ، وتنبعث منه .

وبواعث هذه النغمة كثيرة فى أشعارهم ، فهم قوم أهل حرب ، والزهد عندهم قرين الحرب ، وهو زهد كثيرا مادفعهم إلى اقتحام أهوال الحروب طلبا للموت ، يسعى الواحد منهم إليه سعيا ، وتضيق نفسه إذا طالت به أيام الحياة ، ولم يرزق الشهادة فى وقعة من الوقائع .

ولعلنا مازلنا نذكر قول كعب بن عُميرة :

لقد فاز إخوانى فنالوا التى بها　　نَجَوْا من عذاب دائم لايُفَتَّرُ
أبى الله إلا أن أعيش خلافهم　　وفى الله لى عزٌّ وحرزٌ ومنْصَرُ
ويارب هبْ لى ضربةً بَمهنَّدٍ　　حسامٍ إذا لاقى الضريبة يَهْبرُ

وقول مرداس بن أدية:

إلهىَ هبْ لى زلفةً ووسيلة　　إليكْ فإنى قد سئمت من الدهر

وغير ذلك كثير ــ مما مرّ بنا بعضه .

وكثيرا مااتخذ شعراؤهم من طول العمر ، برغم المخاطر ،عظة يحضون بها القعدة عن القتال خشية القتل ، كذا فعل الحويرث الراسبى ، الذى يقول :

أقول لنفسى فى الخلاء ألومها　　هبلت دعينى قد مللتُ من العمر..

وحطّان الأعسر الخارجى ، فى قوله (١) :

---

(١) شعرالخوارج ٥٦ ، وانظر أمثلة أخرى ص ١٥٥ ــ ١٥٧ وشعر الخوارج ٤٣ ، ٤٥

بليتُ وأبْلانى الجهادُ وساقنى ... إلى الموت إخوانٌ لنا وأقاربُ
شَرِيتُ فلم أُقتَل ونازلتُ لم أُصَبْ ... كذاك صروف الدهر فينا عجائب

ولطالما انتهى شعراء الخوارج من حض أنفسهم على القتال وطلب الشهادة ، والاستهانة بأمر الحياة ، إلى مايشبه الزهد الخالص بعيداً عن معانى الحرب والفداء ، زهد المتأمل حال الدنيا ، ومصائر البشر ، ويسلمهم هذا التأمل إلى نوع من رفض الحياة ، وعرضها الزائل ، وإلى الإحساس بتفاهة حياة الإنسان ، التى لاتعدو أن تكون ظلا عابرا . فلا مناص إذن من الإعداد للحياة الباقية ، نجاء من شرور هذه الدنيا الفانية .

يقول عمران بن حطان (١) :

أرى أشقياء الناس لايسأمونها ... على أنهم فيها عراة وجُوّع ..

ويقول (٢) :

حتى متى تُسقى النفوسُ بكأْسها ... ريب المنون وأنت لاهٍ ترتع ...
فتَزودنَّ ليومِ فقرك دائباً ... واجمعْ لنفسك لا لغيرك تجمعُ

هكذا تشيع هذه الروح القلقة الحزينة فى جوانب أشعار الخوارج ، حتى شعرهم الذى يتحدث عن طائفتهم ويمجدها ، حيث تبدوالصورة متجهمة ، فيها الأجساد التى أنحلتها العبادة ، والبشر المصفر ، والنفوس التى انهكتها العبادة ، وقد سقنا طائفة من هذه الأشعار فلا نطيل بإعادتها هنا .

٤ ــ فصاحة العبارة ، وقوة الأسلوب : فأكثر الخوارج وعلى الأخص الشعراء منهم . كانت تغلب عليهم البداوة ، والبدو ــ كما نعلم ــ هم أرباب اللغة ، يمتازون بالفصاحة ، وذلاقة اللسان ، ومنهم كثرة المجيدين لفن الكلام .

وقد احتفظ الخوارج بطبعهم البدوى المهذب ، لم تفسده تقاليد الحضارة ، فبقى صافيا نقيا . فإذا أضيف إلى ذلك ، صدق الشعور ، والاغتراف من بلاغة

---

(١) خزانة الأدب ٢ / ٤٤٠ والعبر للذهبى ٣ / ٢٨٤ وشعر الخوارج ١٧
(٢) خزانة الأدب ٢ / ٤٤٠ والعبر للذهبى ٣ / ٢٨٤ وشعر الخوارج ١٧

القرآن ، الذى أدمنوا قراءته وحفظه وتدبره ، واتخذوه منهاجا لهم ، فى القول والعمل ، أدركنا مدى ماكان يتمتع به أسلوبهم ، من قوة تأثير ، شهد به فصحاء أعدائهم ، يقول عبيد الله بن زياد [١] : « لكلامُ هؤلاء (يعنى الخوارج) أسرع إلى قلوب الناس من النار إلى اليراع » ويقول عبد الملك بن مروان ـــ وكان بصيرا بفن القول [٢] ـــ عن خارجى بسط له مذهبه ، بلسان طلق ، وألفاظ بينة ، ومعان قريبة : « لقد كاد يوقع فى خاطرى أن الجنة خلقت لهم ...» [٣] .

٥ ـــ قلة شعر الخوارج : هو كذلك بالنسبة لشعر الشيعة أو الأمويين ، ومما يفسر هذا انشغالهم بحروبهم وثوراتهم ؛ إذ هى همهم ، وغرض حياتهم ، ومالشعر إلا وسيلة تعينهم فى غرضهم هذا ، فالخوارج لم يكونوا شعراء فى المقام الأول ، بل مناضلى سياسة وحرب ، تجيش نفس أحدهم بالشعر قبيل معركة ، أو أثنائها ، أو عقبها ، فينطلق لسانه بالأبيات ، يصور فيها بلاءه ، وبطولة أصحابه ، أو يعبر عن إحساسه إزاء من لقى حتفه منهم ، وقد يقف متأملا فى هذا المقام أو غيره ، يرصد أحوال الحياة بنظرته الزاهدة ، التى تقترب فى كثير من الأحيان إلى مايشبه التصوف ، وإن لم تفقد وجهها الإيجابى فى المقاومة والحرب والرفض .

وحتى هؤلاء الذين اتخذوا الشعر وسيلة للتعبير عن حياتهم تلك ، أتت حروب الخوارج الكثيرة على أرواح العديد منهم ، فضاع ماضاع من أشعارهم .

وأكثر شعر الخوارج جاء على صورة مقطعات لا قصائد ؛ لأن الشعر ـــ كما قلنا ـــ لم يكن عندهم حرفة تجوَّد ، وتصنع لذاتها ، بل كان أداة لخدمة أغراض حياتهم ،

---

(١) الكامل للمبرد ٣ / ١٤٧ (الأزهرية) . اليراع : الحطب الجاف .

(٢) روى الشعبى أنه كان مع عبد الملك على طعام ، فلما فرغوا منه ، اندفع الشعبى فى الحديث ، قال : فما ابتدأت بشىء من الحديث إلا استلبه منى عبد الملك فحدث الناس به ، وربما زاد فيه على ماعندى ، ولاأنشدته شعرا ، إلا فعل مثل ذلك ، فغمنى ذلك وانكسر بالى له ، فلما كان آخر الوقت ، التفت إلىّ وقال : ياشعبى قد والله تبينت الكراهية فى وجهك لما فعلت ، أتدرى أى شىء حملنى على ذلك ؟ قلت لا ياأمير المؤمنين ، قال : لئلا تقول : لئن فازوا بالملك أولا ، لقد فزنا نحن بالعلم ، فأردت أن أعرفك أنا فزنا بالملك ، وشاركناك فيما أنت فيه . (مجالس العلماء ٢٠٩) وانظر صورا من فصاحته وبصره بفن الكلمة الأديبة فى : أمالى القالى ٢ / ١٠٣ وذيل الأمالى ٣١ وديوان المعانى ١ / ٧٦ ، ٧٧ ، ١٥٢ ورسائل الجاحظ ١ / ٣٦٢ ، ومروج الذهب ٢ / ١٥٩

(٣) الكامل للمبرد ٣ / ١٣٧ (الأزهرية) .

ومذهبهم ، وثمرة لها ، ينشأ عند الحاجة إليه ، فكان لذلك مقطعات فى أغلب نماذجه ، أو قصائد قصيرة فى بعض التجارب .

٦ ـــ وحدة الخصائص الفنية : وهذا ثمرة ماأشرنا إليه فى مقدمة هذا الباب ، من وحدة الصفات التى يمكن أن تقال فى كل خارجى صادق العقيدة ، التى أدت إلى تشابه الخوارج فى صورتهم العامة الكبرى ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى اقتصار شعرهم فى قالبه على شكل المقطعات أو القصائد القصيرة ، ومن ثم تحققت فيه الوحدة الفنية .

فالتجربة التى يعبر عنها الشاعر الخارجى فى مقطعته واحدة ، والصور متشابهة حماسية ، ومن هنا تشابه شعرهم بعامة ، فى موضوعاته ، وأساليبه ومعانيه .

ولعل هذا يفسر لنا كثرة الاضطراب فى نسبة أشعار بعضهم إلى بعض ، فما دامت شخصياتهم الشعرية ، لاتتمايز كثيرا ، فما على الرواة من بأس إن نسبوا شعر أحدهم إلى الآخر .

٧ ـــ شدة التأثر بالقرآن الكريم : أما فى الأسلوب ، فظهر فى أساليبهم الرقيقة ، السلسلة الجزلة معا ، التى تعتمد كثيرا على القرآن فى صياغَتها ، وتراكيبها ، وأما فى المعانى ، فقد مر بنا قول عيسى بن عاتك الخطى فى وصف معركة الخوارج بآسك ، واستمداده لبعض معانى القرآن فى هذا الوصف ، فى قوله :

أألفا مؤمن فيما زعمتم ويقتلهم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصرونا

وقد بينا هناك مصادر هذه المعانى من آى القرآن العظيم [١] .

ومن ذلك قول الحسن بن عمرو الإباضى : [٢]

إذا ماخَلَوْتَ الدهر يوماً فلا تقلْ خلوتُ ولكن قلْ عَلَىَّ رقيبُ
ولاتحسبنَّ الله يغفل ساعة ولا أن مايخفى عليه يغيب

---

(١) راجع ص ١٧٩ من هذه الدراسة .
(٢)شعر الخوارج ٩١

وواضح أن الشاعر ينظر فى البيت الثانى إلى قوله تعالى : « ولاتحسبنَّ الله غافلا عما يفعل الظالمون » ومنه أيضا قول عمران بن حطان ، تعبيرا عن المساواة الإسلامية ،التى كانوا يدينون بها [١] :

فنحن بنو الإسلام والله واحدٌ   وأَوْلَى عباد الله بالله مَنْ شَكَرْ

فالمعنى فى الشطر الثانى من البيت مستمد من قول الله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

* * * *

— ٤ —

شعر الزُّبيريِّين :

ذكرنا فى مقدمة هذا البحث أن سلطان الزبيريين لم يدم طويلا ، إذ لم يعمِّر أكثر من تسع سنوات تقريبا (٦٣ — ٧٢ هـ) ، وحاولنا هناك أن نستكشف فلسفة سياسية أو دينية خاصة ، يمكن أن تكون أساسا لحزب سياسى بالمعنى الصحيح ، وانتهينا إلى أن دعوى الزبيريين ، لم تتح لها فرصة كافية ، لتكوين نظرية سياسية واضحة المعالم ، فقد ارتبطت نهاية هذه الدعوى بنهاية ابن الزبير نفسه ، وكان هذا قد قضى مدة دعوته فى تأسيس ملكه ، وصراع حربى مع الأحزاب الأخرى ، ومقاومة مؤامرات الشيعة عليه ، وبخاصة فى العراق ، حيث تصدى لدعوته هناك المختار بن أبى عبيد الثقفى [٢] ، وشغب الخوارج عليه بعد أن كانوا قد ناصروه بمكة ضد جيش الشام [٣] ، هذا فضلا عن الجيوش العديدة التى وجهها الأمويون للقضاء عليه وعلى دعوته بالمدينة (موقعة الحرة) ومكة ، وغيرهما .

لم يتسع الوقت إذن لابن الزبير ليبلور وجهة نظره فى الخلافة ، ويظهر بشكل عملى نواياه فى مسألة تسلسل الخلافة من بعده ، مما ربط دعوته بشخصه ، فماتت بموته ، ولم يفكر أحد من أتباعه فى استمرارها ، فهو لم يترك دعاة ينهضون بإقرار نظريته [٤] ، وتطويرها وإرسائها على أسس يدعمها الدين ، أو المنطق ، كما فعلت الأحزاب الأخرى .

---

(١) الأغانى ١٦ / ١٤٩ وشعر الخوارج ٢٥ .
(٢) انظر : مروج الذهب ٢ / ١١٤ (البهية) .
(٣) انظر الطبرى ٧ / ٥٥ ومابعدها .
(٤) تاريخ الشعر السياسى ١٧٦

ونتج عن ذلك ، سياسيا : أن أصبحت دعوته أشبه بثورة طارئة ، وأدبيا : أن ضعف تمثل الشعراء لدعوته ، فجاء تعبيرهم عنها فى صورة آراء عامة ، تختلط فيها الألوان الدينية ، والادعاءات السياسية ، بالعصبية القرشية .

والحق أن دعوى ابن الزبير إنما هى انعكاس للعصبية القرشية والإقليمية ، فلو تجاوزنا الأشخاص ، نعنى شخص ابن الزبير وآل بيته ، وتدبرنا أمر الدولة التى أقامتها ثورة ابن الزبير ، والتى لم تطل حياتها ، لأدركنا أنها لم تكن تمثل مجرد طموح شخصى ، وتطلع إلى الحكم عند الزبيريين ، بل كانت فى حقيقتها تطلعا من القرشيين ، وأهل الحجاز عامة ، لكى يستعيدوا ماسلبهم الأمويون ، الذين تنكروا لقرشيتهم وإقليمهم ، فانتقلوا إلى الشام ، وحرموا الحجاز ، إقليم الدعوة الأول ، من السلطة المركزية ، باتخاذهم دمشق عاصمة لدولتهم ، ثم إنهم استعانوا بالقبائل اليمينة ، متجاهلين أكثر عرب المضرية ، الذين تنتمى قريش إليهم .

ولعل هذا هو السر فى أننا لانجد من الشعراء من أخلص لحركة ابن الزبير ، وبرىء من الطمع والهوى ، إلا الشاعر القرشى عبيد الله بن قيس الرقيات ، الذى نشأ وعاش فى الحجاز ، فأحب موطنه ، وظهر اعتزازه بالقرشية فى شعره ، فكثر حديثه عن قريش ، ومأأصابها من محن وفرقة ، بتنكر بنى أمية لها ، كما ذكرنا ، ومن دلائل ذلك فى شعره قوله [١] :

حبذا العيشُ حين قومى جميعٌ   لم تُفَرِّق أمورَهــا الأهـــواءُ
قبل أن تطمع القبائل فى ملـ   ـك قريشٍ وتشمتُ الأعـداءُ
إنْ تودِّع من البـــلاد قريشٌ   لايكـنْ بعدهـم لحىٍّ بقـــاءُ
لو تُقَفِّ وتترك النـاس كانـوا   غنمَ الذئب غاب عنها الرعاءُ

وهذا الإخلاص الذى أبداه ابن قيس الرقيات للقرشية ممثلة فى دعوى ابن الزبير ، عرضه لنقمة بنى أمية وغضبهم ، لا مجرد إشادته بأبناء الزبير ، ومساندته لدعوتهم ، وإلا لما ظل بنو أمية يتربصون به ، حتى بعد أن أسقطوا دولة ابن الزبير ، فقد أرسلوا شرطتهم فى إثره ، مما اضطره إلى اللجوء إلى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، ليتشفع له عند عبد الملك بن مروان ، حتى عفا عنه فى قصة طريفة يرويها صاحب الأغانى [٢] .

---

(١) ديوانه ٩٤ وطبقات ابن سلام ٥٢٩ . تقفى : تذهب .
(٢) الأغانى ٤ / ١٥٨

ثم تحول إليهم يمدحهم بنفس الحرارة والإخلاص ، اللذين كان يمدح بهما الزبيريين من قبل ، دون أن يشعر بالحرج فى هذا التحول ، مما يؤكد ماسبق أن أشرنا إليه من أن ولاء ابن قيس الرقيات للزبيريين ، لم يكن مرتبطا بأشخاصهم ، وإنما كان لما يمثلونه من طموح إلى استعادة مافقدت قريش من سلطان ، ومن هنا لم يشعر بالتحرج فى التحول إلى بنى أمية ، فالأميون على أية حال ، قرشيون ، ومادام الأمر قد انتهى باجتماع كلمة قريش عليهم ، فليعتز بهم ممثلين للقرشية .

نعود إلى دعوى ابن الزبير فنضيف أنها كانت تمثل الخلافة كما تراها (الارستقراطية) العربية المضرية الحجازية أقوى تمثيل ، خلافة لايليق بها إلا فارس محارب عربى قرشى ، لايعْتَزّ باليمنية ، كما اعتز بنو أمية ، وإنما يعتز بقومه المضريين ، ولاينزح عن مركز القبيلة القرشية ، وموطنها الأصلى ، ومركز فخارها الدينى وهو الحجاز .

وقد صور هذا المثل للخليفة القرشى ابن قيس الرقيات فى مدحه الزبيريين ، بخاصة مصعب بن الزبير ــ الذى كان الشاعر قد لزمه ، واختصه بمدحه ، وأخلص الولاء له ــ حيث يصوره فارسا عربيا (ارستقراطيا) قرشيا ، يعطى فى سخاء ، ويحارب فى قوة المعتز بحقه [١] .

ويذكر الرواة انقطاع شاعرين آخرين لآل الزبير ، أحدهما : أبو وجزة السّعدى [٢] ، والآخر : إسماعيل بن يسار النسائى [٣] .

وأغلب الظن أن انقطاعهما لآل الزبير لم يكن عن اقتناع بدعواهم ، وحقهم الذى يزعمونه ، كما أنه لم يكن بريئا من الطمع أو الهوى .

فقد جذب أبا وجْزَةَ إلى آل الزبير ولاؤه لعبد الله بن عروة بن الزبير ، الذى كان

---

(١) انظر هذه الصورة فى ديوانه ٩٤ .

(٢) اسمه يزيد بن عبيد من بنى سعد بن بكر بن هوزان ، شاعر مجيد ، توفى بالمدينة ستة ١٣٠ هـ . انظر فى أخباره وأشعاره : الأغانى ١١ / ٧٥ والشعر والشعراء ٢٦٨

(٣) إسماعيل بن يسار مولى بنى تيم القرشيين ، شاعر أعجمى الأصل ، مليح الشعر ، اشتهر بشعوبيته ، وعدائه الشديد لبنى أمية ، وانقطاعه لآل الزبير ، وكان مقيما بمكة ، توفى سنة ١٣٠ هـ . انظر : الأغانى ٤ / ١١٨ ومابعدها ، والتذكرة السعدية ٥٤٥ ، وانظر مراجع أخرى فى هامشها .

يفضُل عليه ، ويقوم بأمره [١] ، يضاف إلى ذلك مايروى من أنه قال لأبى زيد الأسلمى ، الذى امتدح إبراهيم بن هشام المخزومى ، والى الأمويين على المدينة ، « هل لك فى أن أشاركك فيما أصيب من آل الزبير ، وتشاركنى فيما تصيب من إبراهيم ...؟ » [٢] مما يدل على أنه قصد الزبيريين للتكسب ، وأراد أن يعقد شركة مع زميله البدوى لاقتسام غنائم شعرهما !!

وأما اسماعيل بن يسار ، فقد كان من موالى قريش ، والموالى بعامة ، كانوا شديدى النقمة على بنى أمية فى هذا العصر ــ كما ذكرنا فى مقدمة هذه الدراسة ــ ؛ لذا كانوا يلتفون حول كل ناعق يبغى مناهضة الأمويين ، فهم فى العراق مع الشيعة ، وفى الحجاز مع الزبيريين .

ومما يصور نقمة إسماعيل بن يسار وأهله على بنى أمية ، ادعاؤه ــ وقد أراد أن يوجب حقا له على الأمويين ، بعد وفاة ابن الزبير ــ أنه وأباه من قبله مروانيان ، فلما سئل بعدُ « أى مروانية لك ، أو لأبيك ؟ قال : بغضنا إياهم » [٣] ، ثم أقسم بالطلاق أن أمه كانت تلعن مروان وآله كل يوم مكان التسبيح ، وأن أباه نطق بلعن مروان عند موته بدل الشهادتين !!

وهناك شعراء آخرون ، وفدوا على آل الزبير ، ولكن لم يكن أحد منهم معبرا عن رأى هذا الحزب ، تعبير المخلص المتحمس ؛ إذ كانوا مرتزقة ، أو ناقمين على بنى أمية ، راغبين فى النكاية بهم ، لأغراض شخصية أو قبلية ، أو عنصرية .

خلاصة ماتقدم أن افتقار دعوة ابن الزبير إلى الأفكار الواضحة ، والمبادىء المحددة ، كان من أهم العوامل ، التى أدت إلى قلة حظها من الشعر والشعراء .

وأكثر ماكان لها من أثر بارز فى حركة الشعر ، فى هذا العصر ، إنما يرجع إلى ماأزكته من نار العصبية القبيلة بين القيسية واليمنية فى الشعر ، على أثر موقعة ، مرج راهط ، بين عرب القيسية ، الموالين لابن الزبير ، وعرب اليمنية المؤيدين للأمويين ، يقول

---

(١) الأغانى ١١ / ٨١
(٢) الأغانى ١١ / ٧٧
(٣) الأغانى ٤ / ١١٩

الدكتور شوقى ضيف [١] : « وأكثر ماتكون حوله (يعنى الحزب الزبيرى) من شعر ، نجده فى حروب القيسية واليمنية فى الشام ... وهو ليس شعر حزب بالمعنى المفهوم ، وإنما هو هجاء وحماسة ، على نحو ماكان الشعر فى العصر الجاهلى » . أى أنه شعر قبلى ، لاشعر حزبى سياسى .

ومما يعلل به كذلك ، لقلة حظ حركة ابن الزبير من الشعر والشعراء ، أن زعيمها عبد الله ابن الزبير ، لم يحرص على اصطناع الشعراء ، وتأليف قلوبهم بالعطاء ، كما كان يفعل بنو أمية ؛ وحجته فى هذا حرصه على مال المسلمين ، وتأثمه من إنفاقه فى غير مصالحهم ، أو لأنه أراد أن يبدو فى صورة الزاهد المتعفف عن أن يكون له مال يعطى منه الشعراء . يقول المسعودى [٢] : « وأظهر ابن الزبير الزهد فى الدنيا والعبادة ، مع الحرص على الخلافة ، وقال إنما بطنى شبر فما عسى أن يسع ذلك من الدنيا . وأنا العائذ بالبيت ، والمستجير بالرب » .

ولم يكن الشعراء يفهمون هذا المنطق ، فرموه بالبخل الشديد ، ولولا مااشتهر به أخوه مصعب من سخاء وتسامح فى المال ، ورغبة فى استمالة ذوى الرأى والمكانة والخطر ، ومنهم الشعراء استمالتهم — اقتداء ببنى أمية — لولّى عن ابن الزبير أكثر من ناصره من الشعراء .

قال زفر بن الحارث الكلابى فى مجلس لعبد الملك بن مروان [٣] : « لو كان لعبد الله [بن الزبير] سخاء مصعب ، وكان لمصعب عبادة عبد الله ، لكانا ماشاء المتمنى » .

وقال عبد الملك بن مروان : [٤] « ماأعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر منى ، وإن ابن الزبير لطويل الصلاة ، كثير الصيام ، ولكنه لبخله لايصلح أن يكون سائساً » .

لقد أدرك عبد الملك وغيره من خلفاء بنى أمية — عدا عمر بن العزيز — قيمة ملاينة الناس ، وتأليف قلوبهم بالمعروف والبذل . فهفت إليهم قلوب ذوى المطامع ، والتف حولهم من يؤثرون العاجلة — وماأكثرهم — ورأوا حظ دنياهم مع بنى أمية .

---

(١) التطور والتجديد ٩٣
(٢) مروج الذهب ٢ / ٩٩ (البهية) .
(٣) الإمتاع والمؤانسة ٣ / ١٧٠
(٤) الطبرى ٨ / ٥٨

فانصرفوا إليهم ، وربطوا أهواءهم بهم ، ومن ثم وجدوا نصرة أغراضهم فى الانتصار للأمويين ، وبقاء نعمتهم مابقيت دولة الأمويين ، وهذه هى السياسة ، كما فهمها بنو أمية ، وعبر عنها عبد الملك ، حين سأله ابنه الوليد ماالسياسة ؟ فقال : [١] « هيبة الخاصة ، مع صدق مودتها ، واقتياد قلوب العامة بالإنصاف لها ، واحتمال هفوات الصنائع ، فإن شكرها أقرب الأيادى إليها » .

بهذا كان الأميون أقدر على سياسة الناس ، ومن أجل هذا قال عبد الملك : ماأعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر منى .

ولم يكن عبد الله بن الزبير يفهم السياسة على هذا النحو ، وإنما رآها كما كان يفهمها ويطبقها الخلفاء الراشدون من قبله ، وعمر بن عبد العزيز من بعده ، سياسة إسلامية ، يراعى فيها العدل والحق ، بحيث يكون الحاكم قدوة للرعية فى الحرص عل ماشرعه الإسلام فى سياسة الدين والدنيا .

أما مصعب أخوه ، فقد وعى الدرس من بنى أمية ، وفهم السياسة كما فهموها ، فتسامح كما تسامحوا ، وبذل كما بذلوا .

أما التسامح فنفهمه من مواقفه ممن كان يريد اصطناعهم ، فقد قدم عليه الأحنف ابن قيس ، وكلمه فى قوم حبسهم ، قائلا [٢] : « أصلح الله الأمير ، إن كانوا حبسوافى باطل فالحق يخرجهم ، وإن كانوا حبسوا فى حق ، فالعفو يسعهم ، فخلاهم » .

وأما البذل مع التسامح فندركه من هذه الرواية ، قيل [٣] : أخذ مصعب رجلا من أصحاب المختار بن أبى عبيد الثقفى ، فأمر بضرب عنقه ، فقال : أيها الأمير ماأقبح بك أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة [٤] ،ووجهك هذا الذى يستضاء به ،

---

(١) عيون الأخبار ١ / ١٠ وأمالى القالى ٢ / ٨٢ وانظر ص ١٣٥ من هذه الدراسة .

(٢) عيون الأخبار ١ / ١٠٢

(٣) العمدة ١ / ٤٢ . وعيون الأخبار ١ / ١٠٣

(٤) كان مصعب موصوفا بالجمال ، قال جميل الشاعر صاحب بثينة ، مارأيت مصعبا يختال بالبلاط ــ وهو موضع بالمدينة بسط بالحجارة ، بين مسجد الرسول ﷺ وسوق المدينة ــ إلا غرت على بثينة ، وبينهما ثلاثة أيام . (عيون الأخبار ٤ /٢١) .

فأتعلق بأطرافك ، وأقول : أى رب سل مصعبا فيم قتلنى !! فقال مصعب : أطلقوه ، قال الرجل : اجعل ماوهبت لى من حياتى فى خَفْضٍ ، قال : أعطوه مائة ألف ، قال : بأبى أنت وأمى ،أشهد الله أن لابن قيس الرقيات منها خمسين ألفا قال : ولم ؟ قال لقوله فيك :

إنما مصعبٌ شهابٌ من الله تجلّتْ عن وجهه الظَّلْماءُ ...

فضحك مصعب ، وقال : **أرى فيك موضعاً للصنيعة** ، وأمره بلزومه ، وأحسن إليه ، فلم يزل معه حتى قتل .

فأين هذا مما فعله أخوه عبد الله ، وقد دخل عليه أبو صخر الهذلى فى قومه ، طالبين عطاءهم ، وكان عبد الله يعرف أن هواه فى بنى أمية ، فمنعه عطاءه وقال : « عليك ببنى أميه ، فأطلب عندهم عطاءك [(١)] » ، فلم يحاول أن يصطنعه ويصطنع قومه بالعطاء ، مما جعل أبا صخر يرميه فى مواجهته ، بشدة البخل ويفضل عليه بنى أمية ، حتى ارتعدت فرائص عبد الله من الغضب ، ثم أمر به إلى سجن عارم ، فحبس به عاما .

وكان عبد الله بن الزَّبير الأسدى الشاعر مقيما بمكة ، وقد عرفناه أموى الهوى ، إلى أن اجتذبه عطاء مصعب بن الزبير فانقطع له ، وكان من الممكن أن يصطنع ابن الزُّبيرِ لسان هذا الشاعر الأموى ، أو على الأقل ، يفقد بنى أمية واحدا من شعرائهم المتحمسين ، لو أنه استجاب له عندما قصده طالبا العطاء ، ولكنه حرمه ، فقال له ابن الزَّبير : « لعن الله ناقة حملتنى إليك ، فقال له : إنّ وراكبها » [(٢)] .

ويبدو أن ابن الزبير نفسه كان يدرك هذا الفرق بين سياسته مع الناس والشعراء وسياسة أخيه مصعب معهم ، فقد جاءه وفد من العراق ، فسألهم عن مصعب ، فأثنوا عليه ، فقال : « أيها الناس : أنى سألت الوفد عن مصعب ، فأحسنوا الثناء عليه ... وإن مصعبا أطبى القلوب ، حتى ماتعدل به ، والأهواء حتى ماتحول عنه ، واستمال الألسن بثنائها ، والقلوب بنصحها ... فهو المحبوب فى خاصته ، المحمود فى عامته ، بما أطلق الله به لسانه من الخير ، وبسط يده من البذل » [(٣)] .

---

(١) الأغانى ٢١ / ٩٤ وانظر شعرا فى بخل ابن الزبير فى مروج الذهب ٢ / ٩٩

(٢) القاموس المحيط (مادة — زبر) ٢ / ٣٧

(٣) أمالى القالى ١ / ٢٨٦

هكذا كانت سياسة ابن الزبير ، بعيدة عن استهواء القلوب ، بخاصة قلوب الشعراء ، فلم يجدوا طلبتهم عنده ، فازوروا به ، كما ازورَّبهم ، وبذا قل حظ دعوته من لسان الشعر ، وكان حظ شخصه منه أقل ، والشعر ـــ كما هو معلوم ـــ كان لسان الدعاية الحزبية القوى فى هذا العصر .

والناظر فى هذا الشعر القليل ، الذى وقف إلى جوار حركة ابن الزبير ، يلاحظ أنه استفرغ مضمونه ـــ غالبا ـــ فى التعبير عن الإشادة بآل الزبير ، وأكثر ماكان من ذلك فى مصعب بخاصة ، وأقله فى عبد الله ، ولم يخل من القليل ، الذى يحاول فيه الشعراء مساندة حق آل الزبير فى الخلافة ، أو يواجه خصومهم برأيهم فيهم ، أو يرثى قتلى الزبيريين فى معاركهم .

أ : التنويه بآل الزبير ، ومحاولة تأييد خلافة زعيمهم :

على الرغم مما عرف به ابن الزبير من الورع ، والتقوى ، والزهد ، واستقامة الدين وسلامته ، فإننا لانجد هذه المعانى مرددة فيما خص به من شعر ، يمجده ، ويعلى من شأنه ، والذى يبدو أن الشعراء كانوا يريدونه على صورة أخرى ، تتفق ونظرتهم إلى حركته ، وما يتطلعون إليه من ورائها ، ومن ثم لم ينظروا إلى خصاله الشخصية ، بقدر مانظروا إلى النموذج الذى كان عليه أن يمثله ، وهو نموذج الخليفة القرشى ، الذى أشرنا إليه منذ قليل .

وتتكامل هذه الصورة ، أو هذا النموذج فى شعر الشعراء ، الذين أشادوا به ، يقدم كل منهم جانبا منها ، ويبرز بعض خطوطها ، ومن جملة ماقالوا تتضح كل معالمها وألوانها وظلالها ، فإذا بها صورة رجل عريق الحسب ، يحتل نسبه من قريش ذروتها ، كريم الفعال ، رفيع المكانة بين قومه ، شجاع من قوم شجعان ، كريم سخى من قوم كرماء أسخياء ، لايفاخره مفاخر ، ولايقوم لشرفه شرف .

نلمح بعض هذه الملامح فى قول عبيد الله بن قيس الرقيات ، مشيداً بعبد الله بن الزبير [١] :

وابن أسماء خيرُ من مسح الركْـ ... ـنَ فَعَـالاً وخيرُهـم بنْيانـاَ
وإذا قيـل مَنْ هجـانُ قريشٍ ... كنت أنت الفتى وكنتَ الهجانا

ويؤكد هذه الملامح ويضيف إليها بلال بن جرير ، فيقول [٢]:

---

(١) ديوان ١٥٧ (بيروت) . الهجان من كل شيء : خياره وخالصه .

(٢) الكامل للمبرد ١٠٨/٢ (الأزهرية) العيوق:نجم مرتفع. السموق :العلو. النفورة:المنافرة والمفاخرة.

مدَّ الزُّبَيْر عليكَ إذ يبنى العُلا كفَّيْه حتى نالتـا العيُوقـا
ولَوَ انَّ عبد الله فاخر من ترى فات البريَـة عزه وسُموقهـا
قوم إذا ماكان يوم نفـورةٍ جمعَ الـزبير عليك والصِّديقـا

وليس فى هذا الشعر مايصلح لتصوير ابن الزبير فى صورة خليفة رسول الله (ﷺ)القائم على أمر المسلمين بالعدل،الراعى لشئون الإسلام بما يرضاه الله،على النحو الذى رأيناه عند الشيعة فى تصوير أئمتهم،وحتى عند شعراء بنى أمية فى الإشادة بالخلفاء.

كما أن هذه المعانى ليس من شأنها أن تصلح دعاية تساند دعوى آل الزبير فى حق الخلافة ، وإنما هى معان عامة ، تشبه ، إلى حد بعيد ، ماكان يمدح به الشعراء شيوخ القبائل ورؤساء العشائر فى الجاهلية والإسلام ، من علو الشرف والمجد ، وارتفاع المقام عند المفاخرة وأصالة النسب وعراقته ، ولولا مافى هذا الشعر من ذكر أسماء : عبد الله ، والزبير ، والصديق (أبو بكر والد أسماء أم عبد الله) لما عرفنا أنه فى ابن الزبير .

والعجيب ، أن يتجاهل عبد الله ابن قيس الرقيات ، صفات ابن الزبير الدينية ، التى هى أنسب فى هذا المقام ، مقام مدح خليفة رسول الله (ﷺ) وأمير المؤمنين ، وأكثر واقعية وصدقا لما كان عليه ابن الزبير بالفعل ، نقول : من العجيب أن يتجاهل الشاعر هذا ، فى جانب عبد الله ويسبغه على مصعب أخيه ، فيقول فى الإشاده به [١] :

إنما مصعبٌ شهاب من اللـ ـه تجلّت عن وجهه الظَّلْماءُ
ملكهُ ملك رحمةٍ ليس فيه جبروت ولا له كبريـاءُ
يتقى الله فى الأمور وقد أفْـ ـلح من كان همُّه الاتقاءُ

فالتواضع للرعية ، والبعد عن الظلم والجبروت ، وإسباغ الرحمة ، طابعاً لسياسة مصعب ، واستشعار الخوف من الله فى سياسة أمور المسلمين ، كلها معان دينية ، أليق بمدح الخليفة وأجدى فى إظهاره بهذا السمت الدينى من مصعب أخيه .

أما أبو ليلى النابغة الجعدى [٢]فقد قصد عبد الله بن الزبير فى سنة شديدة

---

(١) ديوانه ٩٤ وسمط اللآلى ١ / ٢٩٤ وطبقات ابن سلام ٥٣٠ والكامل للمبرد ١ / ٣٩٩ (الاستقامة) .

(٢) قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة بن جعدة ، صحب النبى وروى عنه ومدحه وأنشده ، قيل : عاش ثلاثة أجيال ، والجيل ثمانون سنة ، وقال فى ذلك :

صحبت أناسا فأفنيتهم وأفنيت بعد أناس أناسا
ثلاثة أهلين أفنيتهم وكان الإله هو المستآسا

ويقال : إنه تحنف فى الجاهلية ، وهجر الأوثان ، وكان يصوم ويستغفر ، وتوفى بأصبهان : انظر : سمط اللآلى ١ / ٢٤٧ والأغانى ٤ / ١٢٧ والشعر والشعراء ٩٦

القحط ، ومدحه بقوله : (١)

حكيْتَ لنا الصِّديق لما وَليتنا وعثمان والفاروق فارتاح مُعدم
وسوَّيتَ بين الناس فى العدْل فاستووْا فعاد صباحاً حالكُ الليل مظلمُ
أتاك أبو ليلى يجوبُ به الدُّجى دُجى الليل جوَّاب الفلاة عَثَمْثَمُ
لتجبر منه جانباً زعزعتْ به صروف الليالى والزمان المصمِّمُ

فهذا شاعر لاشأن له بالقرشية ، والتعصب لها ، كما كان ابن قيس الرقيات ؛ ولذا اتجه مباشرة إلى شخصية ابن الزبير ، يرصد سماتها ، ويعلى خصائصها ، فنوه بتقواه ، وعدله فى الحكم ، والتسوية بين الرعية ، والبر بالمسلمين ، وترسمه خطى الخلفاء الراشدين ، حتى أعاد إلى الأذهان ذكرى حكمهم الصالح الرشيد .

ولو أكثر شعراء آل الزبير من هذا الاتجاه ، فى الإشادة بزعيمهم عبد الله ، لكان لشعرهم السياسى فى هذا الباب شأن آخر .

وأما أبو وجزة السعدى الشاعر البدوى ، فإنه لم ير فى ابن الزبير وآله ، إلا مايراه فى شيخ القبيلة وقومه فى البادية ، فهم أبناء حرة ، شجعان ، يشفون أعداءهم من داء الحقد عليهم بالسيوف ، أجواد غاية الجود ، فى السنة الشديدة الجدب ، لانعدام المطر فيها (٢) :

آل الزُّبيْر بنو حرةٍ مَروا بالسيوف صدوراً خِنافا
سلِ الجُرْدَ عنهم وأيامها إذا امتعطوا المرهفَات الخفافا
مطاعيم تحمدُ أبياتهم إذا قَنَع الشاهقات الطِّحافا

ويقول (٣) :

راحتْ قَلوصى رواحاً وهْى حامدةٌ آل الزّبير ولم تَعْدل بهم أحداً

---

(١) مجالس ثعلب ٣٢ والكامل للمبرد ٢ / ٩٧ ، ٣ / ٢٤٣ (الأزهرية) والأغانى ٤ / ١٣٧ . الجمل العثمثم : الشديد . المصمم هنا : المؤذى .

(٢) الأغانى ١١ / ٨١ . امتعطوا ...: سلوا السيوف الحادة . الطحاف : قطع السحاب العالية ، التى لامطر فيها .

(٣) الأغانى ١١ / ٧٧ . الوسق : ستون صاعا . السدد : الحمل المعتاد . الملوية الجدد : السوط الحديث الصنع .

راحت بستين وَسْقاً فى حقيبتها ماحُملَت حِمْلها الأدنى ولا السَّدَدا
ذاك القِرى لاقرى قومٍ رأيتهمُ يقرون ضيفهمُ الملويّة الجُدُدا

وهو يعرض فى البيت الأخير ببنى أمية ، إذ ضربه عاملهم فى الحجاز بالسوط ، لأمر كان منه .

ومدار الأبيات هو المدح بالكرم ، والشجاعة ، وشرف النسب ، وفى شعر ابن قيس الرقيات أمثال لهذه المعانى ، فى مدح عبد الله ، وأخيه مصعب ، فلا نستكثر بإيرادها (١) .

غير أنه من الضرورى أن نورد هنا أبياتا لابن قيس الرقيات ، لانحسبه أرادبها تمجيد ابن الزبير ، بقدر ماقصد إلى إرضاء نزعته القرشية ، فى محاولة لتدعيم هذه الدولة القرشية ، التى يرى فيها عز قريش ، واسترداد حق إقليم الحجاز ، موطن القبيلة ، ومهد الإسلام .

يقول عبيد الله بن قيس الرقيات ، يعنى عبد الله بن الزبير (٢) :

ذكرتْ قومها قريشاً فقالت رَابَ دَهْرى وأى دهرٍ يدومُ
لايَـريْبُكِ الـذى تَرَيْـن فإن الله طَبٌّ بما ترين عليمُ
إن يكَنْ للإله فى هذه م الأمة دعوى يَعُدْ عليك النعيمُ
وتَحُلِّـى محل آبـائك الأخيار بالحجر حيث يُلْفىَ الحطيمُ
بلدٌتأمن الحمامـة فيـه حيث عاذ الخليفة المظلـومُ

---

(١) راجع ديوانه ٩١ ــ ٩٤ ، ١٣١ ــ ١٣٢ والكامل للمبرد ١ / ٣٩٩ (الاستقامة) وطبقات ابن سلام ٦٥١ (المدنى) .

(٢) طبقات ابن سلام ٦٥٠ (المدنى) . وليس فى ديوانه إلا البيت الأخير منها ص ١٩٤ . الريب : صروف الدهر وحوادثه ، ورابه الدهر : أصابه بما يزعجه . طب : حاذق ماهر ، قال فى هامش الطبقات « وأساء ابن الرقيات فإن الله أعلى وأجل من أن يوصف بغير ماوصف به نفسه سبحانه ، وأراد (خبير) ، فأساء غاية الإساءة » ورجح أن يكون صواب قوله « بماترين » « بما يريب » أى يفجع من حوادث الدهر .دعوى : أراد الدعاء ، وأراد ابن قيس الرقيات : دعوة الحق فى قوله تعالى : « له دعوة الحق » (سورة الرعد ١٣ / ١٤) وهى شهادة الإسلام التى يدعى إليها أهل الملل الكافرة جميعا . الحجر : هو حجر الكعبة ، وهو ماتركت قريش فى بنائها من أساس إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . الحطيم : هو مابين الركن الأسود إلى الباب إلى مقام إبراهيم ، حيث يتحطم الناس (أى يزدحمون) للدعاء . عاذ الخليفة : كان ابن الزبير يلقب نفسه بالعائذ بالبيت ،كما قدمنا .

لقد جعل قريشا فى قلق وخوف مما فُعل بها ، من فرقة على يد بنى أمية ، وجعل أمانها وخلاصها مما فعله بها بنو أمية مرتبط بهذه الحركة وبزعيمها ابن الزبير ، الذى أراد الله — وهو الخبير العليم بما ينوب — أن يكون عز قريش ، ونعيمها على يديه ، وأن يكون خليفة لآبائه وأجداده ، الذين احتفظوا لقريش فى موطنها وبلدها بعز المكانة وراسخ السلطان ، وماموطن قريش إلا هذا البلد الحرام ، المؤيد بأمان الله ، الذى اتخذه ابن الزبير مركزا لخلافته ، وعاصمة لملكه .

ودلالة هذه المعانى على القصد إلى تأييد حركة ابن الزبير القرشية غير خافية ، غير أنها لاتخرج عن كونها مجرد دعاوى تصدق على ابن الزبير ، وعلى غيره من ذوى المكانة فى قريش ، المعاصرين لابن الزبير ، وفى مقدمتهم زعماء آل البيت .

وبمثل هذه الدعاوى مضى ابن قيس الرقيات فى محاولاته تأييد خلافة ابن الزبير ، فى أبيات أخرى له ، يذكر فيها انتساب ابن الزبير إلى أشراف القرشيين الذين سكنوا الحرم وخدموه ، وأنه أعدل القرشيين المعاصرين له حكما وقضاء ، وأرفعهم شأنا ومكانة ، وأعلمهم بما أصاب قريشاً من فرقة ، وأبرؤهم من هذه النكبات التى أصابتها ونحو ذلك ، مما نراه فى قوله [1] :

أنتَ ابنُ مُعْتَلِجِ البطاَ ... ح كُدِيِّها فكَدائِهـا
فَمحـلُّ أعلاهـا إلى ... عرفـاتها فحرائهـا
منَ سرِّهـا فيها ومعـ ... ـدِنِ برِّهـا ووفائهـا
أوْفَـى قريشٍ بالعـلا ... فى حُكمها وقضائهـا
ولأنتَ أعلمهـا بها ... وأصحُّهـا من دائهـا
وأتمُّهـا نسبـاً إذا ... نُسِبتْ إلى آبائهـا

فهذه الدعاوى خطابية ، لايسلك الشاعر فيها مسلك البرهنة والاحتجاج ، كما فعل الكميت مثلا فى تأييد حق الهاشميين ؛ ولذا يبدو ابن قيس الرقيات فى شعره هذا أشبه بالخطيب ، غير أن إخلاصه لفكرته ، وانفعاله بما يقول ، وحسن عرضه له ، قد

---

(١) ديوانه ١١٧ . معتلج البطاح : يعنى بطن مكة الذى يعتلج فيه الرمل والحصى ، أى يتراكم ، ويدخل بعضه فى بعض . كُدىّ : جبل بأسفل مكة ، كَداء : جبل بأعلاها .

أسبغ على هذا الشعر ، وعلى القضية التى يؤيدها لوناً من الجاذبية ، جديرا باهتمام السامعين ، وتعاطفهم ، وهذا ماجعل ابن قيس الرقيات شاعر الزبيريين ، وكسبا لحركتهم .

على ضوء مادرسنا من شعر الزبيريين فى الإشادة بابن الزبير وآله خاصة ، وماتركنا ــ مما لايختلف كثيرا عما ذكرنا ــ نحسب أن هذا الشعر قد قَصُر عن بلوغ الغاية ، التى ترتجى من الشعر السياسى ، فى هذا المجال ، للأسباب التى أشرنا إليها فى مقدمة الحديث عن شعر الزبيريين .

ب : التصدى لخصوم دعوى ابن الزبير :

كان الزبيريون ينقمون على بنى أمية سياستهم الجائرة ، واستئثارهم بأموال بيت مال المسلمين ، وإنفاقها على ملذاتهم وترفهم وصنائعهم ، وحرمان ذوى الحقوق من حقهم ، لالشىء ، إلا لأنهم لايؤيدون سياستهم الغاشمة الظالمة المستبدة .

والزبيريون يأخذون على بنى أمية أيضا تجريدهم الحجاز من عز الخلافة ، واعتزازهم باليمنية ، وعدائهم لقومهم المضريين .

أما الخوارج فالزبيريون يمقتون فيهم نزعتهم الجمهورية ، وإنكارهم على قريش حقها الثابت لها ، فى قصر الخلافة على أبنائها .

كما يأخذون على الشيعة ، مايذهبون إليه من قصر الخلافة ، على بنى هاشم من دون غيرهم من القرشيين ، وينقمون منهم ارتماءهم فى أحضان الموالى ، ومنهم من يكيد للإسلام ، ويدعو للكسروية .

من أجل هذا نجد شعراء آل الزبير ، يحملون على هؤلاء جميعا فى أشعارهم ، باعتبارهم منحرفين عن الحق ، مدعين بهتانا من الأمر وزورا .

ولما كانت دعوى الزبيريين قد قامت على التعصب للمضرية بعامة ، والقرشية بخاصة ؛ لتناهض تعصب بنى أمية لليمنية ، فابن قيس الرقيات يحمل على هذه السياسة الأموية ، مؤكدا أن قريشا ستظل عزيزة الجانب ، عالية المجد ، مرفوعة الهامة،فمنها النبى (ﷺ) القرشى،ومنها خلفاؤه الأتقياء الراشدون ، فليمت أعداؤها كمداً، ولتذهب

أنفسهم حسرات بأدواء الحقد عليها ، واشتهاء فنائها ، فأحقادهم لن تنال منها ؛ لأن البقاء والفناء بيد الله لا بأيديهم .

نرى هذا فى قوله ، مخاطبا عبد الملك بن مروان [١]:

أيها المشْتَهى فناءَ قريشٍ ... بيد الله عمرها والفناءُ
قد عَمَرْنا فَمتْ بدائك غيظاً ... لاتُميتنَّ غيرك الأدواءُ
إن منا النبىّ الأمىّ والصديـ ... ـقُ مِنَّا التقىّ والخلفاء

وقد أخذ شعر ابن قيس الرقيات طابع الثورة على الأمويين ، والتحريض على قتالهم ، والدعوة إلى القضاء على دولتهم بالشام ، معرباً عن عداء الشاعر الصريح لهؤلاء الذين يكيدون لقريش ، ضمنّ هذا قوله [٢] :

كيف نَوْمِى على الفراش ولَماَّ ... تَشْمَلِ الشامَ غارةٌ شعواءُ
تُذْهِل الشيخَ عن بنيه وتبدى ... عن براَها العَقِيلةُ العذراء
أنا عنكم بنى أمية مُزْوَرٌّ ... وأنتمْ فى نفسىَ الأعداءُ

إنها دعوة إلى ثورة عنيفة ، تقذف الرعب والهلع فى قلوب أهل الشام الأمويين ، حتى يلتمس الأب الهرب متخليا عن أبنائه ، وتنسى الفتيات العذراوات حياءهنّ ، فيكشفْنَ عن سيقانهن أثناء الهرب ، مشغولات بالنجاة بأنفسنّ من هول ماتنزله هذه الثورة بأهل الشام .

وبمثل هذه الثورة يهدِّد زُفَر بن الحارث الكلابى [٣] بنى أمية ، فيقول [٤] :

---

(١) ديوانه ٩٤ وطبقات ابن سلام ٥٣٠ . عمرنا : يقال : عمر الرجل : إذا عاش زمانا طويلا .

(٢) ديوانه ٩٥ والشعر والشعراء ٢١٣ . البرى : هى هنا الخلاخيل.

(٣) أبو الهذيل زفر بن الحارث ، من بنى يزيد بن عمرو بن الصعق ، ثم من بنى كلاب ، تابعى كان يقيم بالجزيرة أيامه مروان بن الحكم ، ساد قومه فى أيام ، شهد صفين مع معاوية ،وقاد القيسية مع الضحاك يوم مرج راهط ضد مروان وأهل الشام وهرب إلى قرقيسيا وبها مات سنة ٧٥ هـ . انظر الاشتقاق ٢٩٧ والمؤتلف ١٢٩ وخزانة الأدب ١ / ٣٩٣ ، والطبرى فى حوادث سنة ٦٥ هـ حول موقعة مرج راهط .

(٤) شرح الحماسة للمرزوقى ٢ / ٦٤٩ ـ ٦٥١ . ابن بحدل : هو حسان بن مالك بن بحدل الكلبى . وهو أخو ميسون بنت بحدل الكلبية التى تزوجها معاوية بن أبى سفيان ، وكان حسان زعيما لبنى كلب ، وحارب مع مروان بن الحكم فى موقعة مرج راهط . ترجل : ترتفع . ومعنى أفى الله ...الخ : أفى ذات الله ومرضى حكمه ، أى هل ممايرضى الله الحرص على حياة هذا البدوى حسان الكلبى بموالاته ، بينما يطلب ابن الزبير التقى الورع للقتل بمعاداته ؟!

أفى الله أمّا بَحْدَلٌ وابن بَحْدَلٍ فيحْيَا وأما ابن الزبير فيُقتل ؟!
كذبتُم وبيت الله لاتقتلونه ولما يكنْ يومٌ أغرُّ مُحَجَّلُ
ولّما يكنْ للمشرفية فوقكم شعاعٌ كقرن الشمس حين تَرَجَّلُ

إنه يوجه نقداً لاذعا لسياسة بنى أمية ، التى لاتراعى جانب الله والدين فيمن توالى ، وفيمن تعادى ، فهى توالى كل من يتعصب للأموية ، وإن لم يعرف بفضيلة فى الدين ، أو مزية فى نصرة الإسلام والمسلمين ، وتعادى الأتقياء الصالحين ، الذين يعرفون لله حقه ، ويعبدونه حق عبادته ، ويرعون مصالح عباده بما يرضيه ، ثم هو يهددهم بأنهم لن يتمكنوا من عبد الله بن الزبير ، وإنما سيواجهون حرباً شعواء ، تتحدث بهولها عليهم الأيام ، وتعلو فيها السيوف القاطعة هاماتهم ، فتخطف أرواحهم خطفا .

ولما تجرأ بنو أمية على حرمة المدينة ، وأوطأوا جيوشهم الشامية أرضها الطاهرة ، وأعملوا السيف فى رقاب أهلها الموالين لابن الزبير ، فى موقعة الحرة [١] ، قال عبد الله بن حنظلة المعروف بابن الغسيل [٢] ، يهجو بنى أمية ، وهو يقاتل ، مرتجزاً [٣] :

بُعْداً لمن رَامَ الفساد وطغَى
وجانَبَ الحقَّ وآيات الهُدى
لايُبْعد الرحمنُ إلا مَنْ عَصَى

ويذكرنا هذا الهجاء ، بالهجاء عند كل من الشيعة والأمويين والخوارج ، لقيامه على سلب بعض الصفات الدينية ، فالأمويون فى نظر ابن الغسيل طغاة ، مفسدون فى الأرض ، خارجون على الدين ، مجانبون للحق ، عصاة ، عليهم لعنة الله ، لانحرافهم عن هدى القرآن .

ولابن قيس الرقيات ضرب طريف من التهجم على بنى أمية ، اتخذ له قالب الغزل

---

(١) راجع فى خبر هذه الموقعة وعدد من قتل فيها من الصحابة وأبنائهم ومواليهم ، ص ٢٨ من هذه الدراسة .

(٢) عبد الله بن حنظلة (وحنظله هو الغسيل) الأنصارى ، كان على رأس جند الأنصار ، دفاعا عن المدينة يوم الحرة ، وفيها قتل أولاده جميعا . انظر : الطبرى ٧ / ٩ والكامل لابن الأثير ٤ / ١١٥ — ١١٧ (بيروت) .

(٣) الطبرى ٧ / ١٠ والكامل لابن الأثير ٤ / ١١٧ (بيروت) .

الذى أراد به النكاية فى بنى أمية ، وإغاظتهم ، وتجريحهم ، يطلق عليه الدكتور طه حسين « الغزل الهجائى » [١] ، ويمكن أن نطلق عليه أيضا « الغزل الكيدى » أو « الغزل السياسى »، وهو غزل لايصدر عن الشاعر تعبيرا عن عاطفة الحب ، بل قصداً إلى التشهير بأعراض الخصوم ، وإغاظتهم ، وتحقيرهم بين الناس .

من ذلك قوله يشبِّبُ بأم البنين ، زوج الوليد بن عبد الملك ، وابنة عمه عبد العزيز بن مروان [٢] :

أصحوتَ عن أم البنيـ ـن وذِكْرِها وعنائهــا
وهجرتها هجْـرَ امـرىءٍ لم يقْلُ صفْـو صفائها
زادتْ على البيض الحِسَا نِ بحسنها ونقائهــا
لولا هوى أمِّ البنيـ ـن وحاجتى للقائهــا
قَد قُربتْ لى بغلـةٌ محبـوسةٌ لنجائهــا

وله أبيات أخرى يدعى فيها أنها زارته فى المنام ، فقبلها ، وضاجعها ، وأعجبته وأعجبها ، ولاشك أن ابن قيس الرقيات قد بلغ من هذا الغزل ماأراد ، فقد ثارت ثائرة الأمويين ، وغلت صدورهم بالغضب والحقد عليه ، فتوعدوه ، وأهدروادمه ، والذى يهمنا هنا أن شاعر الزبيريين ، قد أظهر الاستخفاف ببنى أمية ، ونال من هيبتهم ، وتجاهل ولايتهم ، وسلطانهم ، ونحسبه ماقصد إلا إلى هذا .

بهذا الضرب من الغزل السياسى ، كان ابن قيس الرقيات أحد الشعراء المجددين فى فن الشعر السياسى فى العصر الأموى [٤] ، يقول الدكتور طه حسين :[٥]« هذا الغزل

---

(١) حديث الأربعاء ٢٤٧

(٢) ديوانه ١٧٥ ، وانظر فى بعض أخبار أم البنين وشخصيتها : عيون الأخبار ٢ / ٩٢ . وانظر هامشه ومروج الذهب ٢ / ١٥٣ (البهية) .

(٣) ديوانه ١٢٣

(٤) سُبق ابن قيس الرقيات إلى هذا النوع من الغزل ــ فى الإسلام ــ بعبد الرحمن بن حسان بن ثابت (انظر : الكامل للمبرد ١ / ٢٠٩ الأزهرية) وقال ابن سلام فى طبقاته ٢٨٢ (المدنى) عن كعب بن الأشرف اليهودى أنه كان يشبب بنساء رسول الله ﷺ ونساء المسلمين وأن الرسول ﷺ أمر بقتله لذلك ، فهذا غزل كيدى سابق لغزل عبد الرحمن بن حسان ، وابن قيس الرقيات . فدعوى طه حسين الآتية ليست على إطلاقها .

(٥) حديث الأربعاء ١ / ٢٤٧

الهجائى ، الذى يكاد ابن قيس الرقيات يكون مبتدعه ،خليق بالعناية ، فهو لون من الألوان الفنية الجديدة التى استحدثها الشعراء المسلمون » (ونضيف نحن) تحت تأثير السياسة فى العصر الأموى ، إلى جانب اللون الذى استحدثه الكميت بن زيد ، وهو شعر الجدل والاحتجاج والبرهنة .

وفى مجال التصدى للشيعة وأنصارهم ، لم يتجرأ الشعراء الزبيريون على مقام أئمة آل البيت أورجالاته ، كما فعل شعراء الأمويون ، وإنما اتجهوا بخصومتهم وهجائهم إلى بعض كبار أنصارهم ، يسخرون منهم ، ويرمونهم بالزيغ ، والتخليط ، والانحراف عن الحق ، والجرأة على الدين ... ونحو ذلك ، مما نجد له نظيرا فى شعر الهجاء السياسى لدى الأحزاب الأخرى .

ففى قتال الزبيريين المختار بن أبى عبيد الثقفى ، الذى أظهر التشيع ، وانحاز زمانا للشيعة الكيسانية بالكوفة (سنة ٦٦ هـ) ، أسر المختار سراقة بن مرداس البارقى [١] فاحتال عليه حتى أطلقه ، فلحق بمصعب بن الزبير ، وكان المختار يزعم أنه يوحى إليه ، ويخدع أتباعه ، ببعض الحيل ؛ ليوهمهم أنه مؤيد بها من قبل الله ، فقال سراقة يتهكم به ، ويتهدده ، ويعرض بكذبه ، وكفره [٢] ، وكان المختار يكنى أبا اسحاق :

ألا أُبلغْ أبا اسحاق أنـىِّ   رأيتُ البُلْقَ دُهْماً مُصْمتات
أُرِى عينـــىّ مالم تُبصراه   كلانـــا عالمٌ بالترُّهـــات
كفرت بوحْيكم وجعلتُ نذْراً   علىّ قتالكم حتى الممـاتِ
إذا قالوا أقـول لهم كذبتم   وإن خرجوا لبستُ لهم أَداتى

إنه يسخر من حمق أبى اسحاق المختار بن أبى عبيد ، وغفلته ؛ حيث صدق مااحتال به لينجو منه ، وكان سراقة زعم له أنه رأى الملائكة تنصره وتقاتل فى جيشه،وعبر عن ذلك بأنه يرى الأبيض أبيض،والأسود أسود،ولكنه ادعى أمام المختار خلاف ذلك،

---

(١) شاعر ظريف ، حلو الحديث ، مقرب للملوك ، قاتل المختار فأسره المختار ، ثم احتال حتى أطلقه ، ولحق بمصعب ، وقدم العراق مع بشر بن مروان ، وله مهاجاة مع جرير وخبر طريف معه أيضا . انظر: طبقات ابن سلام ٤٣٩ ــ ٤٤٤ (المدنى) والطبرى أحداث سنة ٦٦ هـ ص ١٢١ ومابعدها .

(٢) ديوانه ٧٨ والفرق بين الفرق ٣٥ وابن سلام ٤٤٠ (المدنى) والطبرى ٧ / ١٢٣ . البلق : البيض . مصمتات : شديدة السواد . الترهات : الحيل والأكاذيب .

واحتال بما لم تره عيناه ، مجاراة لهذا الأحمق ، كما يتهكم بما يدعيه المختار من الوحى ، ويتهدده إن عاد إلى قتال مصعب صاحبه ، بأنه سوف يكون على استعداد لقتاله .

ولم يبعد رأى الزبيريين فى الخوارج عن نظرتهم إلى الأمويين والشيعة ، فهم عندهم كفار ، مارقون ، مبعدون عن حظيرة الإسلام .

يعبر عن هذا ابن قيس الرقيات فى قوله : (١)

أَلَا طَرقتْ من أهل بَبَّةَ طارقة　　على أنها معشوقةُ الدَّلِّ عاشقه

تبيتُ وأرضُ السوس بينى وبينها　　وسُولافُ رُسْتَاقٍ حَمَتْهُ الأزارقه

إذا نحن شئنا صادفتْنا عصابةٌ　　حَرُورِيَّةٌ أضْحَتْ من الدين مارقه

وتحت المروق من الدين يمكن أن ترد كل المعانى الدينية التى حرص شعراء الأحزاب على إلصاقها بخصوم حزبهم ؛ ليجردوهم من كل مزية فى الدين ، وليخرجوهم من الملة ، فتنفر منهم قلوب المسلمين ، وتنفض عنهم جموعهم .

ج : رثاء قتلى الزبيريين :

على الرغم من قصر المدة التى عاشتها حركة ابن الزبير ، فإنها كانت مشحونة بالحروب والوقائع ، التى دارت بين أنصارها ، وأنصار الشيعة بالعراق ، وبينها وبين جيوش الدولة الأموية فى العراق والشام والحجاز خاصة .

فى هذه الحروب قتل كثير من رجال دولة ابن الزبير ، وبخاصة فى معارك مصعب مع الأمويين بالعراق ، التى انتهت بقتله ، وفى معركة الحَرَّة الشهيرة بالمدينة ــ كما قدمنا .

ومع ذلك لم نجد لشعراء الزبيريين فى رثاء هؤلاء القتلى إلا شعرا قليلا ، أكثره فى رثاء مصعب ، وقتلى الحرة ، وأجوده وأجدره بالرواية ، ماجاء على لسان شاعرهم الفحل ، عبيد الله بن قيس الرقيات .

---

(١) الكامل للمبرد ٣ / ١٠٧ ، ١٨٧ (الأزهرية) والكامل لابن الأثير ٤ / ١٩٧ (بيروت) . بَبَّة : قيل : هو لقب لعبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وقيل كانت أمه ترقصه وتقول ببة ، (انظر الطبرى ٧ / ٢٤ ، ٢٦) فهو لقب قرشى ، وقيل : قوم بمكة تعرف دارهم بدار ببة (انظر القاموس ١ / ٣٨) السوس : بلدة بالأهواز . سولاف : ناحية بخوز ستان . الرستاق : القرى .

وربما كانت قلة الرثاء فى شعرهم راجعة إلى ماسبق ذكره ، من أن أكثر شعراء دولة ابن الزبير كانوا من الشعراء ذوى الأهواء والمطامع المادية ، وهؤلاء إنما تتحقق مطامعهم ومكاسبهم بالمديح لا بالرثاء .

ومن أجود ماقال ابن قيس الرقيات فى رثاء مصعب بن الزبير ، الذى قتل سنة ٧١ أو ٧٢ هـ بالكوفة ، شعره الذى يندد فيه بقبائل مضر التى غدرت بمصعب ؛ وخلت بينه وبين جيوش عبد الملك بن مروان بموقعة مسكن — على نهر دجيل عند دير الجاثليق — قريبا من الكوفة ، وفيه يقول : (١)

إن الرزيَّـة يوم مَسْـ ـكِن والمصيبة والفجيعهْ
بابـن الحوارىّ الـذى لم يعْدُه أهـل الوقيعـهْ
غدرتْ به مضر العرا ق وأمكنت منه ربيعهْ
فأصبتِ وِتـرَك ياربيـ ـع وكنت سامعةً مطيعهْ
ياهف لو كانت له بالطفِّ يَوم الطفِّ شيعهُ
أوْ لَمْ يخونوا عهـده أهلُ العراق بنو اللكيعهْ
لوجـدتموهُ حين يغـ ـضَبُ لايُعرِّج بالمَضيعهْ

فهو يسجل قعود مضر عن نصرته على ربيعة ، التى قتلته لتنصر بنى أمية ، وتدرك ثاراتها القديمة عند مضر العراق ، كما يصف أهل العراق الذين خذلوه بالغدر والخيانة واللؤم .

ويدير هذه المعانى فى صور أخرى فى أبيات له ، يقول فيها (٢) :

لقد أورث المِصرْيْن خزيا وذلة قتيلٌ بدير الجاثليـق مقيم
فما نصحتْ لله بكرُ بن وائلٍ ولاصبرت عنـد اللقـاء تميم
ولو كان بكريًا تعطَّفَ حوله كتـائبُ يَغْلى حَمْيُهـا ويـدوم
ولكنه ضاع الذِّمام ولم يكـن بها مضِرىٌّ يوم ذاك كريم

---

(١) ديوانه ١٨٤ ، أهل الوقيعة : يشير إلى غدر أهل العراق ، اللكيعة : اللئيمة . لا يعرج بالمضيعة : لايقيم على الذل . وانظر فى خبر معركة مسكن التى قتل فيها مصعب : الطبرى ٧ / ١٨٤ والكامل لابن الأثير ٤ / ٣٢٣ ومابعدها (بيروت) والعبر للذهبى ١ / ٨٠ وأيام العرف فى الإسلام ٤٦١ — ٤٦٥ .

(٢) الطبرى ٧ / ١٨٧ . وانظر التعريف بدير الجاثليق فى ص ١٥٥ هامش ٤ من هذه الدراسة .

جزى الله كوفيًا هناك مَلامَه وبَصْرِيّهم إن المليم مُليم
فإن نَفْنَ لايبقوا أولئك بعدنا لدى حُرمة فى المسلمين حَرِيمُ

وروح العصبية القبلية تطل من هذا الرثاء ، وكأنه رثاء قبلى ، فابن قَيس الرقيات يلوم العصبية المضرية ، لأنها لم تقف فى وجه ربيعة ، وتنصر مصعب وتدافع عنه ، وتحميه من بطش الأمويين ، ويوبخ بكرا، ويؤنب تميماً ، ويرمى مضر باللؤم ، ويصب غضبه على أهل المصرين الكوفة والبصرة بعامة .

وهذا ليس بغريب من ابن قيس الرقيات ، فالقبلية باعثه الأساسى فى شعره الذى يناصر آل الزبير ، ويؤيد دولتهم ، لأنه فى الحقيقة انتصار لقريش ، وتأييد لحقها فى استرداد عزها ، وعز موطنها الحجاز ، والعصبية هى مادة حديثه فى رثائه أيضا .

أماموقعة الحرة ، فقد كانت شديدة الوقع على نفس ابن قيس الرقيات ؛ إذ كان له بين قتلاها إخوة ، وأهل وأحباب ، فكان رثاؤه حارا حزينا ، ممزوجا بالغيظ والحنق والوعيد ، نرى هذا فى قوله : (١)

كيف الرقادُ وكلما هجَعتْ عينى ألَمَّ خَيال إخْوَتِيهْ
تبكى لهم أسماءُ مُعْوِلَةً وتقول ليلى وَارَزِيَّتِيهْ
والله أبرحُ فى مقدمةٍ أهدى الجيوش علىَّ شِكَّتِيهْ
حتى أُفجِّعهم بِأخوتهم وأسوقُ نِسْوَتَهم بنسْوَتِيهْ

ولايمثل الموتورين من ظلم بنى أمية وعدوانهم ، مثلما تمثلهم أبيات ابن قيس الرقيات هذه ، بما فيها من وعيد ملتهب بنار الحزن والأسى ، وماتضمنته من ألفاظ سهلة وقافية لينة ممتدة (٢) ، وعاطفة قوية مغيظة ، تتفجر حسرة و ألما .

ى : نظرات فنية فى شعر الزبيريين السياسى :

١ ــ ضعف الاحتجاج والبرهنة على صواب دعوتهم ؛ إذ لم نجد من تصدى

---

(١) ديوانه ١٩٥ . الشكة : السلاح ، وفى موقعة الحرة قتل سعد وأسامة ابنا أخيه يزيد فرثاهما فى أبيات من هذه القصيدة . انظرها . فى ديوانه ، وسمط اللآلى ١ / ٣٢١

(٢) أنشد ابن قيس الرقيات هذه الأبيات فى مجلس عبد الملك ، فقال له : أحسنت ياابن قيس ، لولا أنك خنثت قوافيه ــ يقصد أن الهاء فى آخره جعلته رخوا ، كما يقول أبو عمرو بن العلاء ــ فقال : ياأمير المؤمنين ماعدوت قول الله تعالى : « مأأغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه » فقال له عبد الملك : أنت فى هذا أشعر منك فى شعرك . (مجالس العلماء للزجاجى ١٨٨) .

للتعبير عن آرائهم إلا ابن قيس الرقيات ، وهو مع ذلك لم يلجأ فى تأييد دعواهم إلى البراهين والحجج المقنعة ، المدعمة بالأدلة الشرعية أو العقلية ، وهو فى هذا يشبه إلى حد كبير منهج شعراء الأمويين فى الاحتجاج لهم ، إذ لم تخرج دعاوى هؤلاء وأولئك ، عن كونها دعاوى خطابية ، يعوزها التعليل والبرهان .

٢ــ قلة النتاج الشعرى ، الذى خلفه شعراؤهم ، إذا استثنينا مادار من شعر حول معركة مرج راهط ، وماتولد عنها من غارات ومعارك بين القيسية واليمنية ؛ لأن الغالبية العظمى من مادة هذا الشعر ، تنبعث عن العصبية القبلية ، وتصورها أكثر مما تصور ماقامت أساسا من أجله ، وهو حماية خلافة ابن الزبير ، والدفاع عنها ، والتمكين لها ، أى أنها لاتصلح موضوعا للدراسة فى مقام الحديث عن الشعر السياسى فى العصر الأموى .

٣ــ قلة المعانى الدينية فى أشعارهم ، فهى لاتتجاوز بعض الصفات الدينية ، التى تشيد بتقوى ابن الزبير ، وأخيه مصعب ، وصلاحهما ، وعدلهما ، وحراستهما لدين الله ، وحمايتهما للحرمين ، وبعض المعانى التى تسلب بعض الصفات الدينية عن خصومهم وبخاصة الأمويين ، وأكثر ماتدور معانيهم ، حول الكرم والشجاعة والاعتزاز بالحجاز ، والتعصب لقريش ومضر ، وشرف الانتساب إليهم فى مقام الإشادة ، ونقضها فى مقام التنديد ، وكل هذا يتضح من نماذجهم التى قدمناها فى هذه الأغراض .

٤ــ فى شعرهم قوة ، وجزالة تشبه فصاحة البادية ، إذ كان أكثر شعرائهم بدوا ، ويمتاز ابن قيس الرقيات فى شعره المناصر لهم ، بسهولة اللفظ والعبارة ، وحسن العرض ، ورشاقة الوزن ، وحرارة العاطفة ، ونماذجه السابقة فى المدح والتأييد والرثاء خير شاهد عن ماذكرنا .

٥ــ انفرد شعرهم فى التصدى لخصومهم بهذا الغزل السياسى ، أو الكيدى ، أو الهجائى ، الذى كاد ابن قيس الرقيات يكون مبتدعه ، كما يقول الدكتور طه حسين .

* * *

تعقيب على الشعر السياسى بعامة فى هذا العصر

لعلنا بعد هذه المعايشة لشعر الأحزاب السياسية فى العصر الأموى ، التى طالت

ـــ نوعا ما ـــ نستطيع أن نحدد أهم معالم التطور أو التجديد ، التى حظى بها الشعر العربى فى هذا العصر ، تحت تأثير السياسة الحزبية فيه .

ويمكن إيجاز هذه المعالم فى النقاط الآتية :

(١) لعل أول مايلفت النظر هذا الفيض الزاخر من الشعر ، الذى جعل من السياسة ـــ بمعناها فى هذا العصر ـــ محوره ومداره ، فالصراع بين الأحزاب ، وماثار بينها من خلاف سياسى ومذهبى ، ومااقتضته سياسة الأحزاب من اصطناع الشعراء لترويج دعاواهم ، كل ذلك وغيره ، مما أشرنا اليه فى المقدمة ، كان من أهم العوامل التى أَثْرَتْ الشعر وفجّرت ينابيعه ، وحرّكت شياطينَه ، فألهمتْ الشعراء بألوان وضروب من القول ، تعددت موضوعاتها ، وغَزُرَتْ معانيها ، وتنوعت أساليبها .

(٢) كثرة الشعراء الذين شاركوا بشعرهم فى ميدان السياسة ، حتى لايكاد يخلو شعر شاعر فى هذا العصر من هذه المشاركة ولو بأبيات ، بينما كان الشعراء الذين أسهموا بشعرهم فى الحياة الإسلامية العامة قبل هذا العصر محدودى العدد والنتاج ، إلى حد كبير ، بالقياس إلى شعراء العصر الأموى .

وكان التنافس بين زعماء الاحزاب ، فى الإغداق على الشعراء ذا أثر كبير فى إبراز مواهب كثير من الشعراء ، ارتقوا بفنهم إلى مرتبة الفحول فى هذا العصر ، بحيث لم يخل حزب من بعض هؤلاء الفحول .

ففى الحزب الشيعى نعرف الكميت بن زيد ، وكثير عزة ، والسيد الحميرى ، وفى الحزب الأموى يتربع الأخطل وجرير والفرزدق على قمة الفحولة ، لافى شعر العصر الأموى وحده ، بل فى الشعر العربى فى العصور الإسلامية القديمة بعامة ، وفى الخوارج تلمع أسماء قَطَرِىّ بن الفُجاءة ، والطِّرِمّاح بن حَكيم ، وعِمْران بن حِطان ، وفى الحزب الزبيرى يعترف الشعر العربى بالعبقرية والنبوغ لابن قيس الرقيات .

٣ـــ اختلاف ألوان الشعر السياسى تبعا لتعدد ألوان الأحزاب السياسة والدينية ، فكان الشعر عند شعراء بنى أمية حديثاً عن سعة سلطانهم ، وقوة ملكهم ، وتسلطهم ، وقوة جيوشهم ، ورجاحة عقولهم . أو تهديداً لأعدائهم ،وتهكما بهم ، فمثّل شعر (الاستقراطية) الملكية .

وعند شعراء الشيعة ، إستثارة لحماسة الجماهير الإسلامية ، واجتذابا لعواطفهم ، ونقمة على أعدائهم ، فهو شعر المضطهدين ، المنكوبين فى حياتهم وحقوقهم ، وعند شعراء آل الزبير ، تمجيدا لأصلهم القرشى ، وإذاعة لمسلكهم الدينى ،ولدعاواهم العريضة ، فهو شعر التعصب القبلى والإقليمى .

وعند شعراء الخوارج ، تصويراً لحياتهم ، وانعكاسا لشخصيتهم المتفردة بالحماس الدينى ، والبطولة الفدائية ، وتعبيرا عما يجول فى رءوسهم ، ويضطرم فى صدورهم من حب الشهادة ، فى سبيل الحق الذى خرجوا من أجله ، واستهانة بما يكابدونه فى سبيله من آلام وعقبات ، فهو شعر الحماسة الدينية والحربية .

٤ ــ التأثر بالأفكار والمعانى الدينية والمذهبية ، على صورة أوسع نطاقا ، مما نراه فى الشعر السابق على هذا العصر .

وهذا أمر طبيعى ، إذا تذكرنا ماسبق أن أشرنا إليه من المبادىء والآراء والنظريات والعقائد ، التى أخذت تتبلور ، لتكوِّن الأسس الهامة « التى تنبعث عنها الأحزاب السياسية فى العصر الأموى ، فى نشاطها السياسى والدينى والحربى ، وعلى الأخص حزبىْ الشيعة والخوارج « حيث تكثر البواعث الدينية فى المجالات المتعددة لنشاطهما « « والحق أن المسائل السياسية فى جماعة بنت كيانها على أساس دينى ، لابد أن تصطبغ بصبغة دينية ، وأن تتخذ المصالح الدينية مظهرا لها ــ على الأقل ــ مما يضفى على المنازعات السياسية طابعاً خاصاً » (١) .

نعم ، لقد رأت الأحزاب فى هذا العصر أنه من الضرورى ؛ لتكون مقبولة لدى جمهور المسلمين ،أن تأخذ صبغة دينية تحاول بها النفاذ إلى مشاعر الناس ، والتأثير عليها .

واستجاب الشعر لهوى الأحزاب ، فراح يستمد من الدين كثيرا من أفكاره ومعانيه « وأقبل بعض الشعراء على القرآن الكريم ، يستلهمونه الحجة والدليل « ويستوحونه المعنى والأسلوب .

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام ١٦٨

وهذه الصبغة الدينية قد رأيناها فى شعر الأحزاب جميعا ــ وإن تضاءلت فى شعر الزبيريين ــ تخف ألوانها حينا كما رأينا فى الشعر الأموى ، وتزهو أحيانا ، كما فى شعر الشيعة والخوارج ، وهى عند الشيعة ــ والخوارج على قلة ــ تأخذ طابعا مذهبيا ، يجعل كثيرا من شعرهم مذهبيا خالصا ؛ بحيث يعد إضافة جديدة ، لم يعرفها الشعر العربى من قبل ، وقد دللنا على جِدَّته فيما سلف [١] ؛ إذ تتردد فيه المصطلحات المذهبية ، وتتضح فيه أساليب الجدل والبرهنة ، المتأثرة بمناهج المفكرين والمتكلمين والفقهاء فى هذا العصر ، وبخاصة فى أواخره ، وعلى يد الكميت ابن زيد ، صاحب الهاشميات ، التى يقول عنها الدكتور شوقى ضيف : إنها « تعد لونا أدبيا جديدا فى تاريخ الشعر العربى ، فمن قبل الكميت لم يتخذ شاعر شعره لإثبات مقالة مذهبية ، أما الكميت فإنه عمد عمدا إلى صياغة مقالة الزيدية فى الشعر ، مستعينا بكل ماثقفه العقل العربى فى العراق لهذا العصر ، من صور حجاج وجدال واستدلال » [٢]وقد تكون قيمة هذا الشعر الفكرية أكثر من قيمته الفنية ؛ لأنه يعنى بالناحية الموضوعية ، أكثر من عنايته برقة التعبير وجمال الأساليب ورونق الألفاظ ، ومع هذا ، فهو يعد اتجاها جديدا حقا فى الشعر العربى [٣] ، غرسته وأنمته وغذته الخصومات السياسية فى العصر الأموى .

(٥) وهناك تأثير آخر واضح وهام للسياسة فى شعر هذه الفترة ، وهو أثر أيضا لما ذكرنا من حرص الأحزاب على صبغ دعاواها بالصبغة الدينية ، فليس من شك فى أن المعانى الإسلامية المحضة الغزيرة التى غزت الشعر العربى فى عصر بنى أمية ، كانت أول تطور موضوعى لِفَنَّىْ المديح والهجاء ، فقد بدأ كل منهما يهتم بالفضائل المعنوية الدينية ــ إيجابا أو سلبا ــ أكثر من اهتمامه بالفضائل الحسية ، كبهاء الطلعة وبسطة الجسم ، ومإلى ذلك فى المديح ، وقبح الوجه وزراية الهيئة وغيرهما فى الهجاء .

---

(١) راجع ص ١١٩ ــ ١٢١ من هذه الدراسة .

(٢) التطور والتجديد : (شوقى) ص ٣١٧

(٣) انظر : اتجاهات الشعر العربى : (هدارة) ص ٣٥٣

ومع أننا لاننفى أن كلا من هذين الفنين كان يتضمن بعض الأوصاف الحسية ، فإن هذه الأوصاف لم تكن مقصودة لذاتها ، بل كانت تقترن ـــ غالبا ـــ بمعان دينية ترمى إليها ، فبهاء الطلعة ، وإشراق الوجه ، يُعِرْبان عن التقوى والوَرَع ، ونقاء السريرة (١) ، وقوة أسر العينين دليل الذكاء والفطنة ، والبسطة فى الجسم مظهر من مظاهر الهيبة ، وعكس ذلك فى مقام الهجاء .

من هذا يتضح أن الشعر فى عصر بنى أمية تطور تحت تأثير السياسة ، ولابد لنا من الرجوع إلى نماذج الشعر التى سقناها آنفا لدى الأحزاب المختلفة ، لنربط بين هذه النماذج ونواحى التطور المذكورة هنا ، وبخاصة الثلاث الأخيرة منها .

---

(١) من ذلك قول ابن قيس الرقيات فى الإشادة بمصعب بن الزبير :

إنما مصعب شهـــاب من اللّـــــه تجلت عن وجهه الظلمـــاء

* * *

الفصل الثالث

شعر الخصومة القَبَليّة

— ١ —

نقصد بالشعر القبلى هنا ، ذلك اللون من الشعر ، الذى ارتبط بصحوة العصبيات القبيلة فى العصر الأموى ، وعبر عنها ، وسار فى ركابها ، تلهمه مادته ، وتمنحه القوة والذيوع والازدهار ، وينفخ هو فى نارها ، فيلهِّبُها ، ويزيدها اشتعالا .

وإذا كانت بعض دواعى السياسة والاجتماع [١] ، قد شجعت على إحياء العصبيات القبيلة ، وأمدتها بمقومات نهوضها وتطورها وحدتها ، فإن الشعر الناتج عن هذه الخصومات القبيلية ، يختلف أساسا عن الشعر الذى كان وليد الخصومات السياسية بين الأحزاب ، من حيث الباعث ، ومن حيث الغاية ، فى كل منهما .

فالشاعر فى الخصومات القبلية ، يحركه ، أولا وقبل كل شيء ، الولاء للقبيلة التى ينافح عنها ، ويتعصب لها ، وهى فى الأعم الأغلب قبيلته ، وغايته تمجيد هذه القبيلة ، والإشادة بمآثرها ، وانتصاراتها ، وإذاعة مفاخر ماضيها وحاضرها ، والتنديد بأعدائها ، وإبراز مثالبهم .

ومعنى هذا أن شخصية الشاعر ، وآراءه ، ومعتقداته الشخصية ، تتوارى فى هذا الشعر ، لتخلى مكانها لشخصية القبيلة ، فهو لايفتخر ببطولته ، وبلائه ، وصبره على القتال ، وإنما يفتخر ببلاء قبيلته وشجاعتها ، وصبرها فى مواطن النزال ، كما يزهو بأبنائها الكرام ، الذين جاءوا من آباء كرام ، وبمكانتها بين القبائل الأخرى ، وينوه بمحاسنها وفضائلها التى تعتز بها ، فالقبيلة إذن هى محور شعره وباعثه ، وخدمتها قصده وغايته .

وليس كذلك الشعر السياسى ، الذى يحل الحزب فيه محل القبيلة فى ولاء الشاعر له ، ودفاعه عنه ، وإشادته به ، كما أنه يفسح المجال للشاعر ليعبر عن آرائه ومعتقداته ، ومشاعره نحو الحزب الذى ينتمى إليه .

هذا فضلا عما بين شعر الخصومات السياسية ، والشعر القبلى من فروق فنية ، تتناول الشكل والمضمون معا .

---

(١) راجع ماذكرناه عن إحياء العصبيات القبلية فى العصر الأموى ، فى مقدمة هذه الدراسة ص ٥٢ — ٥٦ وأيام العرب فى الإسلام ٣٥١ — ٣٧٨ .

ويكفى هنا أن نشير إلى واحد من هذه الفروق الفنية بين هذين اللونين ، تتعلق بفن الهجاء فى كل منهما ، ففى الشعر القبلى نقف على غير قليل من المعانى والعبارات ، التى تخدش الحياء ، وتنافى الفضيلة ، وقيم الأخلاق والدين ، فيها إفحاش وغلو فى هتك الحرمات ونهش الأعراض ، والتصريح بالمخازى ، مما يضطر الباحث إلى إمساك لسانه عن روايته ، وترديد نصوصه ، أما الهجاء السياسى فلم ينزلق إلى هذه الحمأة ، ونصوصه التى درسناها شاهد صدق على براءته ونقائه من البذاءة والفحش .

وستتضح الفروق الفنية بين الشعر القبلى والشعر السياسى ، من خلال دراستنا لنصوص من شعر الخصومات القبيلية ، مقارنة بما سبقت دراسته من نصوص الشعر السياسى .

— ٢ —

كانت العصبية القبيلية من أهم عناصر الحياة العربية فى العصر الجاهلى ؛ إذ كانت ضرورة من ضرورات حياة الجاهليين ، لتكوين وحدات اجتماعية قائمة على أساس قبلى ، تتكفل بالعدالة الداخلية ، والأمن الخارجى لأفرادها وأسرها ، ولتحقيق السيادة فى المواطن ، للإبقاء على الحياة ، والحفاظ على الشرف ، وبسط الحماية على القريب والجار ، « مادامت الحياة البدوية مضطربة ، لاتنتظمها وحدة شعبية شاملة ، ولاترأسها حكومة عامة تفرض النظام ،وتقرر الأمن ، وتنفذ القانون ، وتنتصف للمظلوم » (١).

وكان هذا يفرض على البدوى الاحتماء بقبيلته ، فهى ملجؤه وملاذه ، من عزها وسطوتها يستمد عزته وسطوته ، فى تلك البيئة الصحراوية التى تتهدده ، فى كل وقت ، بالمخاطر والمحن ، مما يجعله فى أمسِّ الحاجة إلى ملاذ يلوذ به وقت الشدة ، ونجدة تسعفه ، حين يحزُبُه الضر ، ويتراءى له شبح الخطر .

من أجل هذا كان تعصب البدوى لقبيلته شديداً ، واعتزازه بالانتساب إليها لاحدَّله ، فهو يحميها لتحميه ، ويدافع عنها ؛ لتنصره .

وكان لهذه العصبية القبيلية أثر كبير فى الشعر الجاهلى ، فكثيرا مادفعت الشعراء

---

(١) تاريخ النقائض (الشايب) ١٦٩

إلى العزف على قيثارتها بأعذب ألحان التمجيد والتعظيم ، والإشادة بأمجاد قبيلتهم ، وأيامهاومآثرها ، وأشد وأقسى القوافى فى ذم أعدائها ، ووصمهم بالعار والخزى [١].

ثم جاء الإسلام ، فأعلنها حربا شعواء على العصبية القبلية ، ودعا إلى التآخى العام بين الناس جميعا ، لافرق بين الأجناس والقبائل ، فالمؤمنون فى ظل الإسلام إخوة .

وأخذ الرسول (ﷺ) مدة حياته ينكر حمية الجاهلية ، ويقاومها فى العرب بحزم ، وتبعه خلفاؤه الراشدون على ذلك ، فتوارت العصبية القبلية ، وخمدت نارها حينا ، ولو طال العهد بالرسول (ﷺ) ، وأبى بكر وعمر بخاصة ، لاستطاعوا أن يكسروا حدة هذه العصبية ، إن لم يقضوا عليها قضاء تاماً .

ولكن العصبية كانت أصيلة فى دم العرب ، متمكنة فى نفوسهم ، لايسهل استئصالها ، فبقيت حية عند كثرة العرب ، تشوه حياتهم الإسلامية ، وتصدع وحدتهم السياسية والاجتماعية ، على الرغم من حزم الرسول (ﷺ) وصرامة أبى بكر وعمر ، وجدهم فى مناهضتها ، والقضاء عليها .

وهل أدل على قوة سلطان العصبية القبيلية على مشاعر العرب ، وبقائها حية كامنة فى نفوسهم ، مما يروى فى أخبار غزوة بنى المصطلق ، من أن رجلا من المهاجرين كسع [٢] رجلا من الأنصار ، فاشتبكا فى قتال ، تداعت على إثره عشائرهما بدعوة العصبية القبلية ، فأنكر الرسول (ﷺ) هذه الدعوة الجاهلية ، وأراد عبد الله بن أبى بن سلول المنافق أن يشعلها نارا ، فقال ماحكاه عنه القرآن : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل [٣] » ؟!

لم تلبث العصبية القبيلية أن وجدت لها متنفسا بعد مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان ، ثم أسفرت عن وجهها القبيح فى الصراع الذى قام بين علىٍّ ومعاوية ، حيث انضمت اليمنية بالشام إلى معاوية ، لما كان له ولعثمان بن عفان ، من قبله ، من صهر فيهم ، إذ تزوج عثمان من نائلة بنت الفرافصة من قبيلة كلب اليمنية الحميرية ، واقتدى به

---

(١) لمزيد تفصيل راجع كتاب المؤلف : الشمّاخ بن ضرار الذبيانى ٢٨

(٢) يقال : كسع الرجل الرجل إذا ضربه على دبره بيده أو بصدر قدمه .

(٣) سورة المنافقون ٦٣ / ٨ وانظر فى خبر هذه الحادثة : تفسير الطبرى ٢٨ / ٧٣

معاوية فتزوج من ميسون بنت بحدل الكلبية أيضا ، وبذا ظفر معاوية بنصرة أصهاره وأخوال ابنه يزيد ، وفتح بذلك باب العصبية اليمنية ، وولج منه ، احتسابا لعصبية العدنانية ، التى رآها تسير فى ركب السياسة الحجازية والعراقية ، بينما انحاز أكثر عرب القيسية إلى جانب علىٍّ .

وفى موقعة صفين أخذت القبائل العربية يحارب بعضها بعضا ، وتقطع شواجر أرماحها شواجر أرحامها ، مما قوى فيها الإحساس القبلى ، وأذكى فى نفوس أهلها ما كان الإسلام قد أخمده من حياة جاهلية ، فيها غلبت الروح القبلية على كل شيء ، حتى أصبحت العصبيات كل حياة القوم الاجتماعية .

كانت ميادين صفين هى التى رددت النغمات الأولى — تقريبا — المنبعثة من قيثارة العصبية القبلية القديمة ، ومن الجلى أن هذا إنما يرجع إلى أن صفين كانت حربا أهلية بين القبائل العربية ، أكثر منها حرباً سياسية ، أعادت إلى الأذهان أيام الجاهلية القديمة ، نضيف إلى ذلك أن عليا ومعاوية كانا يحشدان كتائبهما حشدا قبليا [١] ، مما جعل جيوشهما يواجه بعضها بعضا فى ميدان المنافسة ، فيدفعها هذا إلى التفاخر بالأنساب والأحساب والأيام ، على نحو ما فعل راجز بنى تميم ، مفتخرا بقبيلته يومذاك :

قد ضاربتْ فى حربها تميمُ
إن تميماً خطبها عظيمُ
لها حديثٌ ولها قديمُ
إن الكريمَ نسلُه كريمُ

وما فعل راجز بنو أسد ، مرتجزا أمام كتائب قومه فى صفين :

قد حافظتْ فى حربها بنو أسدْ
ما مثلُها تحت العَجاج من أحدْ
أقربُ من يُمْنٍ وأنْأى من نَكَدْ
كأننا رُكْنَا ثبير أو أُحُدْ
لسنا بأوْباشٍ ولا بِيْض البلَدْ

---

(١) انظر : وقعة صفين ، لابن مزاحم ٢٢٦ — ٢٢٨ ، ٣٠٨ — ٣١١

لكننا المُحَّة من وُلْد مَعَدْ (١)

وكما عبر الرجز عن هذه الروح القبلية يوم صفين ، كذلك نهض القصيد ليسهم فى هذه المعزوفة القبلية ، فالشعراء يتغنون بقبائلهم ، ويفتخرون بانتصاراتهم ، ويمدحون رؤساءهم وقادتهم ، فى أنغام تشيع فيها العصبية القبلية . ويسيطر عليها الإحساس بالقبيلة . فهذا شاعر كنانى من المقاتلة مع علىّ ، يعدد أسماء القبائل المتآزرة فى مواجهة القبائل الشامية ، ويشيد بفعالهم ونكايتهم فى أعدائهم (٢) :

حامتْ كِنانــة فى حربها ... وحامتْ تَمِيمٌ وحامتْ أسدْ

وحامت هوازن يوم اللِّقا ... إلى حضرموتٍ وأهل الجَنَد

فلمـا تنـادوْا بآبائهـم ... دعْونا مَعَدّاً ونعم المَعَـدْ

فظلْنا نُفلِّـق هاماتِهـم ... ولم نكُ فيها ببيض البلـدْ

ونعْـم الفـوارس يوم اللِّقَـا ... فقلْ فى عَدِيدٍ وقُلْ فى عُدَدْ

وقلْ فى طعانٍ كفُرغ الدِّلا ... وضربٍ عظيم كنار الوقَـدْ

طحنَّا الفوارسَ وسْط العَجاج ... وسقْنا الزعانف سْوق النّقدْ

وواضح أن الشاعر يتحدث عن العصبية المعدية المضرية ، فى مواجهة العصبية اليمنية . كما يبدو فى البيت الثانى والثالث .

فهو يفخر بمضر ويعدد قبائلها ، ويثنى عليها ، ولكنه لاينسى أن يبدأ بقبيلته كنانة . ولاننسى كذلك أن هذا الشاعر المضرى إنما جمع بين القبائل المضرية ، لتنافس القبائل الربَعيّة . التى كانت تقاتل فى صفوف علىّ أيضا ، قتالاً أثنى عليه علىٌّ ، مما أثار حسد المضرية ، فطلبت أن تفرد لها أيام تقابل فيها وحدها ، حتى يرى علىّ صدق قتالها . وبالفعل استجاب علىّ لهذا المطلب . غير أن تفشى العصبية بين قبائل مضر ، لم يمكنها من الاجتماع جميعا فى يوم واحد للقتال ، فحدد لكل قبيلة منها يوماً تقاتل فيه (٣) .

---

(١) انظر فى هذه الأخبار المصدر السابق ، وأيام العرب فى الإسلام ٣٥١ ــ ٣٧٨ . بيض البلد : مثل يضرب فى الذلة ، يقال : أذل من بيضة البلد ، وهى بيضة النعامة التى تتركها (القاموس المحيط ٢ / ٣٢٥) . المُخُّ : خالص كل شيء .

(٢) وقعة صفين ٣١٢

(٣) راجع تفصيل هذه الأخبار فى : وقعة صفين ٣٠٨ ــ ٣١٢

هى إذن عصبيات ثلاث ، المضرية ، والربعية ، واليمنية ، اتخذ منها هذا الشاعر مادة لشعره القبلى .

وورث العصر الأموى هذه العداوة القبلية ، وعمل خلفاؤه على استغلالها فى دعم ملكهم وسياستهم ، فما دام الملك وتمكن السلطان هو جل غايتهم ، فلتكن الوسائل إلى هذه الغاية ماتكون ، ولو بالجور على الدين ، وبث الفرقة بين المسلمين ؛ لشغل بعضهم ببعض ، وبهذا توارى الحرج الدينى ، والعدالة المثالية ، والقضاء على الحمية الجاهلية ، وكلها من الركائز التى سارت عليها السياسة فى العصر السابق ، « وعادت الحياة الإسلامية فى ظل الأمويين خاضعة لعوامل فيها عناصر جاهلية ، وأخرى إسلامية ، ولكنها تتسم جميعا بسمة واحدة عامة ، هى ملاءمتها للسياسة القائمة ، وخضوعها لنزعاتها ... فالعصبيات القبيلة تقوى ، وتستأنف نشاطها القديم ، وتبلغ فى آثارها ، درجة جاهلية ، أو تزيد » (١) .

كانت هذه السياسة من بنى أمية إيذانا برفع سوط الإسلام عن العصبية ، وكسر القيود التى فرضت عليها أيام النبوة والراشدين .

ولم يكن الشعراء بدعا بين قومهم ، وإنما كانوا صورة منهم ، بل لعلهم كانوا صورة أكثر بروزا ، فعاشوا ، كما كانت قبائلهم تعيش ، حياة قبلية ، وخضعوا ، كما خضع قومهم ، للعصبيات القبلية ، وتركوها توجه حياتهم وفنهم الوجهة التى ترتاح لها قبائلهم ، واستطاعوا أن يستغلوا هذه الحياة القبلية ، وماتنطوى عليه من عصبيات فى شعرهم ؛ ليكونوا — كما كان آباؤهم وأجدادهم من الشعراء فى العصر الجاهلى — الألسنة الناطقة لقبائلهم ، المعبرة عن حياتها الاجتماعية ، وعن علاقاتها بعضها ببعض .

وهكذا استرد الشعراء حريتهم الكاملة ، فى الضرب على أوتار التعصب القبلى الحساسة ، وعاودهم داءآبائهم ،داء العصبية القبلية اللعين .

فى ظل هذه البحبوحة التى أتاحتها سياسة الأمويين ، أخذت القبائل تتذكر ماكان بينها من خصومات ، أو ثارات فى الجاهلية ، وتحيى ذكر ماكان من أيام وانتصارات ، فتجددت الضغائن والعداوات ، وأدى هذا إلى إعادة إشعال نار الحروب

(١) تاريخ النقائض ١٩٠

القبلية واستئناف الغارات للانتقام حينا ، وللسلب والنهب حينا ، تسيطر عليهم روح البداوة الجاهلية ، والعصبية القبلية ، لايردعهم سلطان ، ولايأبهون لدين ، بل قد يتجاهلون آصرة النسب .

ويصور القطامى [١] التغلبى هذه الردة الجاهلية ، فى حياة القبائل العربية فى العصر الأموى ، فى قوله : [٢] .

فمن تكن الحضارةُ أعجبتْهُ ... فأىَّ أُناس باديةٍ ترانا ؟
ومَنْ رَبَط الجحاشَ فإن فينا ... قَناً سُلُباً وأفراساً حساناً
وكُنَّ إذا أغَرْنَ على جَنابٍ ... وأعوزهنّ نَهْبٌ حيث كانا
أغَرْنَ من الضِّباب على حُلُولٍ ... وضَبَّةَ إنه مَنْ حان حانا
وأحياناً على بكر أخينا ... إذا مالم نجدْ إلا أخانا

فهذا الشاعر يتحدث بلسان قومه ، فيذكر أنهم كانوا يغيرون على الأحياء ، والقبائل النازلة حولهم ، حتى شتتوهم وأفقروهم ، بالنهب مرة بعد مرة ، وأنهم لاعتيادهم الغارة ، لايصبرون عنها ، فإذا لم يجدوا من يغيرون عليه من الأباعد ، أغاروا على الأقارب ، وهذه صورة تعيد إلى الأذهان صورة الحياة القبلية فى العصر الجاهلى .

وقد أشرنا فى مقدمة هذه الدارسة ، إلى أهم الظروف الاجتماعية التى أسهمت فى تشجيع العصبية القبلية ، وكشف النقاب عن وجهها البشع القبيح ، الذى شوه الحياة الإسلامية ، وكان من عوامل تصدع وحدتها فى هذا العصر .

ويطول بنا الحديث ، لو ذهبنا نتتبع الأسباب المباشرة ، وغير المباشرة ، التى أدت إلى خلق — أو بعث — الخصومة بين القبائل ، بعضها مع بعض ، أوبين الفروع المختلفة

---

(١) ابو سعيد عُمير بن شُيَيْم بن عمرو بن عباد من بنى جشم بن بكر ، ثم من تغلب ، شاعر أموى فحل غزل والقطامى (بضم القاف وفتحها) لقب غلب عليه ، وكان نصرانيا ، ثم أسلم ، وهو أول من لقب صريع الغوانى ، وله مديح فى بعض عمال بنى أمية ، وبخاصة فى زفر بن الحارث الكلابى . انظر : الأغانى ٢٠ / ١١٨ والشعر والشعراء ٢٢٧ ومعاهد التنصيص ١ / ٦٤ والتذكرة السعدية ١٤٢ ومراجع ترجمته فى هامشها وطبقات ابن سلام ٥٣٥ (المدنى)

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ١ / ٣٤٧ والكامل للمبرد ١ / ٤٦ . فى البيت الأول يفضل أهل البادية على أهل الحاضرة . الجحاش : جمع جحش ، وهو مهر الفرس ، قناسلباً : يعنى طوالا . جناب : يريد مايجاورهم من القبائل . الضباب : مجموعة من القبائل . حلول : الحلات النازلة حولهم . من حان حان : يعنى من قدر له الهلاك بغزونا فقد هلك .

للقبيلة الواحدة [١] ، ونكتفى بالإشارة إلى أهم العصبيات القبلية الرئيسة فى هذا العصر ، وهى : القيسية ، والتميمية ، والتغلبية ، والبكرية ، واليمنية .

— ٣ —

كانت قيس القاسم المشترك فى الخصومة بين هذه القبائل جميعا ، فقد خاصمت تميما (وهى مضرية مثلها) .

أولا : لاختلاف موقفهما السياسى من الدولة الأموية : حيث ناصرت قيس أعداء الأموية ، ووقفت غالبا فى الصفوف المناهضة للأمويين ، وخاصة أيام ابن الزبير ، الذى انحازت قيس إلى جانبه ، ودعت إلى خلافته ، وحاربت من أجل نصرة دولته ، الأمويين واليمنية فى مرج راهط ، بزعامة الضحاك القيسى ، وزفر بن الحارث الكلابى — كما مر — .

بينما انحازت تميم إلى الأمويين أعداء قيس ، وأسهمت فى الجيوش الأموية التى اشتبكت مع القيسية فى العراق ، وكان لها بلاؤها معهم .

وثانيا : لأحداث وثارات قبلية وقعت بينهما ، أهمها : ماحدث من أن قتيبة بن مسلم الباهلى القيسى قتل جماعة من بنى تميم يعرفون ببنى الأهتم ، فقتله بهم وكيع بن حسان بن قيس بن أبى سُوَد اليربوعى التميمى ، كما قُتِل عبد الله بن خازم السُّلَمى القيسى أيضا ، على يد وكيع بن عُميْرة القُرَيْعى التميمى ، وبذلك استعرت العدواة بينهما .

وكان من نتائج هذه الخصومة ، أيام بين أحياء من القبيلين ، تبعها انتصار شعراء كل قبيل لقبيله ، كالخصومة بين بنى مجاشع التميميين ،وبنى جعفر بن كلاب القيسيين ، وفيها وقف الفرزدق فحل مجاشع يهجو الجعفريين ، بعد أن عرف مثالبهم من عمرو بن لجأ التميمى ، وكان شاعرا عارفا بأيام العرب ومفاخرها ومثالبها ، وقال قصيدته التى مطلعها :

عرفتُ بأعلى رائس الفَأوِ بَعْدَما ... مضَتْ سنةٌ أيامُها وشهورها

ونهض شاعر الجعفريين ذو الأهدام متوكل بن عياض الجعفرى الكلابى يهجو المجاشعيين التميميين [٢] ، فقامت للشعر جولة فى هذا الميدان القبلى .

* * *

---

(١) للموقوف على أهم هذه الأسباب راجع : الأغانى ١١ / ٥٥ ومابعدها ، ١٧ / ١١ ومابعدها ، ٢٠ / ١٢ ومابعدها ، والعقد الفريد ٣ / ٣٠٣ ومابعدها (الجمالية) ، والعمدة ٢ / ١٥٩ ومابعدها ، وأيام العرب فى الإسلام فى مواضع متفرقة .

(٢) انظر نقائض جرير والفرزدق (أبو عبيدة) ٥١٢

وكانت لقيس خصومة مع تغلب أيضا (وهما عدنانيتان) :

أولا: لأسباب اقتصادية ، فقد نزلت قيس قنِّسرين بالجزيرة من العراق ، عقب موقعة مرج راهط ، واعتصم زعيمها زفر بن الحارث الكلابى ــ بعد مقتل الضحاك ــ بقَرْقيسيَاء ، وكانت الجزيرة موطن تغلب ــ حيث كانت منازلها بين الخابور والفرات ودجلة [١]ــ ، فلما جاورتها قيس ، رأت فى هذا الجوار مزاحمة لها فى ديارها ومراعيها ، ومصالحها الاقتصادية ، فغضبت ، وبخاصة بعد أن أساءت قيس جوارها ؛ بإغارة عُميْر ابن الحُباب السُّلَمى ومعه جماعة من بنى حُرَيْش ، على قوم من بنى تغلب ظلما وعدوانا ، فانتقمت تغلب لنفسها بقيادة شُعيْث بن مُليك التغلبى ، بالإغارة على بنى الحُريش القيسيين ، وقومٍ من نُميرْ ، فقتل فيهم التغلبيون ، واستاقوا ذَوْداً لامرأة منهم يقال لها أم الهيثم ، فمانعم القيسيون فلم يقدروا على منعهم ، وفى ذلك يقول الأخطل :

فإن تسألونا بالحريش فإننا ... مُنِينا بِنُوكٍ منهم وفُجُور
غداة تحامتنا الحريش كأنها ... كلاب بدتْ أنيابها لِهرَير
وجاءوا بجمعٍ ناصرى أمَّ هيثم ... فما رجعوا من ذَوْدها ببعير

ولما استحكم الشر بين قيس وتغلب ، وعلى قيس عمير بن الحباب ، وعلى تغلب شعيث ، غزا عمير بنى تغلب وجماعتهم بماكسين من الخابور فاقتتلوا قتالاً شديدا ، وهى أول وقعة لهم ، فقتل من بنى تغلب خمسائة ، وقتل شعيث ، وكانت رجله قطعت ، فقاتل حتى قتل ، وهو يقول :

قد علمت قيس ونحن نعلمُ ... أن الفتى يقتلَ وهو أجْذَمُ [٢]

ثم تبودلت الأيام والغارات بين القبيلينْ [٣] ، واستحكمت الخصومة بينهما .

ثانيا : لدواع سياسية :

فقد انتهزت تغلب فرصة العداوة السياسية بين قيس والأمويين ، فانضمت إلى أعداء قيس ، نكاية فيهم .

---

(١) راجع ابن الأثير ٤ / ٣١٠ (بيروت)

(٢) راجع فى هذه الأخبار ابن الأثير ٤ / ٣١٠

(٣) انظر خبر هذه الأيام والغارات ونتائجها فى الأغانى ٢٠ / ٢١ ومابعدها ، وابن الأثير ٤ / ٣٠٩ ومابعدها (بيروت) .

وكانت هذه العداوة هى التى دفعت الأخطل ــ شاعر تغلب ــ إلى مهاجاة جرير ، الذى كان مواليا لقيس فى شعره ــ مع أنه تميمى ــ حتى عد شاعر قيس المناضل عنها . فكانت المهاجاة بينهما فى كثير من جوانبها تأريخا للعداوة بين قيس وتغلب من ناحية ، والعلاقة بين كل منهما وبين الأمويين من ناحية أخرى ، كما أنها تفسر لنا انتصار الأخطل للفرزدق ضد جرير فى مهاجاتهما ، ودخوله بين هذين الفحلين التميميين ، ولاسيما أن عبد الملك بن مروان كان يقدم الأخطل . ويعده شاعر أمير المؤمنين . لإشادته بفضل الأمويين ، ولموقف قومه تغلب معهم ضد القيسيين ، وإن كانت تغلب نفسها كانت ترى أن حلفها مع الأمويين يعود إلى صالحها ومنفعتها ؛ ولذا لما سعى بشر بن مروان ــ وكانت أمه قيسية ــ إلى إصلاح مابين قيس وبنى أمية ، ونجح فى أن تتصل قيس بأخيه عبد الملك ، غضب الأخطل ، وتوعد الخليفة ، وحذره القيسية . كل ذلك خشية أن تذل تغلب بفقدها حماية الأمويين ، أو تتعرض للإهمال أمام وحدة قيس وأمية (١) .

وهكذا تأرثت العداوة بين قيس وتغلب ، واندلعت نيران الحروب بين قيس بزعامة الجحاف بن حكيم وزفر بن الحارث الكلابى ، وبين تغلب ، وكثرت الأيام الشنيعة بينهما ، وغلت كل منهما فى التنكيل بالأخرى .

* * *

وأما الخصومة بين قيس وكلب واليمنية بعامة ، فترجع فى أصولها إلى أيام أن نزلت قبائل من قيس الشام أثناء الفتوح الإسلامية ، فزاحمت قبيلة كلب وأخواتها من القبائل اليمنية بالشام ، واشتد الصراع بين العصبيتين ، وحرصت كل منهما على أن تكون ذات سلطان نافذ فى هذا الإقليم ، حتى لقد أوشكت كلتاهما أن تظفر بالخلافة (٢) ، لولا تنازل كلب عن سلطانها للأمويين بزعامة مروان بن الحكم ، وتنازل قيس لابن الزبير بزعامةالضحاك بن قيس وزفر بن الحارث ؛ وذلك أيام الجابية ، وبخاصة موقعة مرج راهط

---

(١) انظر نقائض جرير والفرزدق ٤٠١ وديوان الأخطل ١٠ ، ١٠٥

(٢) انظر نقائض جرير والأخطل ١ ، ٧ ، ١٥

التى انتهت بهزيمة قيس وقتل زعيمها الضحاك ، وقتل معه أشراف من قيس [١] ، وفى ذلك يقول عمرو بن مخلاة الكلبى [٢] :

بكى زفر القيسى من هلك قومه   بعبرة عينٍ مايجفُّ سُجومها
يبكىٍّ على قتلى أصيبت براهط   تجاوبُه هامُ القفار وبومُها

ومع أن هذه المعركة كانت تصور صراعا بين سياستين : الأموية ، والزبيرية ، وأنها أدت إلى نتائج سياسة هامة ، ثبتت دعائم الحكم الأموى ،وكانت نصرا سياسيا حَاسِماً للأمويين ، فقد أصلت العداوة بين قيس واليمنية ، وبخاصة كلب بالشام ، واستعر أوارهذه العداوة ، بسبب الثارات التى خلفتها هذه الحرب فى الفريقين [٣] ، ولذا قام خلفاء الضحاك بغارات مفاجئة على قبائل اليمن ، ليثأروا فى حرب قبلية ، لقتلى مرج راهط ، ورد عليهم اليمنيون بغارات لاتقل عنها هولاً وبشاعة ، وظل هذا العداء قويا بين القيسية واليمنية ، حتى بعد هذا العصر ، وانتقل مع فروعهما فى البلدان الإسلامية الأخرى .

كانت هذه العصبيات ، وغيرها من العوامل التى أدت إلى بث الفرقة بين الجماعة الإسلامية ، التى وصل بينها الإسلام ، فشعراء ربيعة يطيرون الأشعار التى تنال من المضرية وتهيج نفوسهم ، وتؤجج الغضب فى قلوبهم ، فيتصدى لهم شعراء مضر ــ وعلى رأسهم جرير التميمى ــ بألحان يفتخرون فيها بقبائلهم ، وشعراء المضرية ينددون باليمنية ، فيندفع شعراء اليمنية ليردوا عليهم ، وليثبتوا لهم ولقبيلهم الفضل والشرف والمجد [٤] .

وقامت للشعر فى هذه الخصومات دولة ، فشعراء القبائل يتهاجون ، ويتفاخرون ، ويحمسون ، وقبائلهم من خلفهم تؤيدهم بانتصاراتها ، أو تمدهم بالاعتذار عن كبواتها ، والأمل فى الانتقام ، والأخذ بثاراتها ...

---

(١) قيل بلغ عدة من قتل مع الضحاك بن قيس الفهرى فى هذا اليوم ثلاثة آلاف . انظر : العبر للذهبى ١ / ٧٠

(٢) الطبرى ٧ / ٤٢

(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية ١ / ١٥٧

(٤) انظر فى نماذج من أشعار هذه العصبيات : وقعة صفين ١٨٠ ــ ١٨١ ، ٣١٠ ــ ٣١٣ ، ٤٥١

وفاز إقليم العراق بأوفر نصيب من شعر الخصومات القبلية وشعرائها ، فقد كان التقسيم القبلى واضحا فى مدينتيه : البصرة والكوفة ـــ كما أسلفنا ـــ وعاشت القبائل فى أقسامهما وخططهما محتفظة بكيانها ، وعصبياتها الجاهلية القديمة ، متخذة من سوق المربد ـــ بالبصرة ـــ والكناسة ـــ بالكوفة ـــ ميدانا للتهاجى والتفاخر .

وبذا جمع العراق بين أكثر نتاج السياسة الشعرى ، وأغلب نتاج العصبية الشعرى أيضا ،يقول الدكتور شوقى ضيف :[1] « فالشعر الذى وجد فى العراق لعصر بنى أمية ، إما شعر سياسى ، وإما شعر قبلى » حتى كاد العراق يستقل بأكثر ماجاءنا من شعر العصر الأموى .

ولنتقدم لدراسة بعض نماذج من الشعر القبلى القائم على هذه العصبيات التى ذكرنا ، وعلى ضوء دراستها وتحليلها ، يمكن أن ندرك قيمة هذا الشعر ، ومكانته من الشعر العربى فى مساره التاريخى من ناحية ، ثم طابعه العام وسماته الفنية التى تحدد حظه من التطور أو الجمود من ناحية أخرى .

ــ ٤ ــ

أ : بين قيس وتميم :

قال الفرزدق (وهو تميمى) بعد مقتل قتيبة بن مسلم الباهلى القيسى ، على يد وكيع بن حسان التميمى ، فى وقعة بينهما ، يفخر بتميم ، ويهجو قيسا ، ويعيرها ، ويسخر منها ؛ لانقياها لقتيبة ، الذى كان شؤما عليها[2] :

---

(١) التطور والتجديد ٤٥

(٢) ديوانه ٨٥٣ . الأهاتم : بنو الأهتم بن سنان بن خالد بن منقر التميميين ، كان قتيبة قد قتل جماعة منهم . أبأنا بهم : قتلنابهم . الحوائم : جمع حائم وهو العطشان . ابن خازم : عبد الله بن خازم السلمى ، قتله وكيع القريعى التميمى سنة ٧٢ هـ . لم تدع لهم أنوفا : كناية عن الذل ، وكذا : عطست بأجدع راغم ، والأجدع : الأنف المقطوع . عضها بالأباهم : كناية عن الندم ، والأباهم : جمع إبهام . يوم الأراقم : هو يوم الحشّاك ـــ سنة ٧٠ هـ ، الذى كان لتغلب على قيس ، يعيرهم الشاعر به ، والأراقم : جماعة هم : جشم ، ومالك ، وعمر بن ثعلبة ، ومعاوية والحارث بنو بكربن حبيب بن غنم بن تغلب وائل . انظر : العمدة ٢ / ١٥٧

أتـانى ورحْلى بالمدينـة وقْعَــةٌ ... لآل تميم أقعــدتْ كلَّ قائم
فدًى لسيوف من تميم وَفَى بها ... ردائى وجَلّتْ عن وجوه الأهاتم
شفينْ حزازاتِ النفوس ولم تدَعْ ... علينـا مقـالاً فى وفـاءٍ للائم
أبْأنا بهم قَتْلَى وماق دمائهم ... وفـاءٌ وهـنَّ الشافيـات الحوائم
كأنَّك لم تسمع تميماً إذا دعتْ ... تميمٌ ولم تسمـع بيـوم الأراقـم
نَبَحْتَ لقيسٍ نبحةً لم تَدعْ لها ... أنوفـاً ومـرتْ طيرُهـا بالأشائم
فإن تكُ قيس فى قُتيبة أُغضبتْ ... فلا عطستْ إلا بأجدع راغم
ومـاكان إلا باهليًّا مجدَّعـــاً ... طغى فسقيناه بكأس ابن خازم
لقد شهدتْ قيسٌ فما كان نَصرُها ... قُتيبـةَ إلا عَضَّهـــا بالأباهـــم
فإنْ تقعدوا تقعدْ لئـامٌ أذلـةٌ ... وإنْ عدتُمُ عُدْنا ببيضٍ صوارم

فالفرزدق يفخر بقومه بنى تميم ؛ لانتصارهم على قيس فى الوقعة التى كانت بينهما ، التى أذهلت الناس لخطرها ، وفيها ثأرت تميم لبنى الأهتم ، فاشتفت نفوسهم ، ومحت عنهم لوم القعود عن الثأر ، ماداموا قد ثأروا لقتلاهم بقتلى من قيس ، وإن كانت دماء قيس لاتشفى الغليل ، ولاتفى بدماء قتلى تميم .

ثم يأخذ الفرزدق فى تعيير قيس بهزائمها على يد تميم وغيرها ، ويذكرها بيوم من الأيام التى ذاقت فيها عار الهزيمة على يد بنى تغلب .

وإذ كان قتيبة بن مسلم الباهلى ، هو الذى جر قيسا قومه إلى هذه الحرب ، التى أذلتهم على يد تميم ، فقد كان بذلك شؤما على قومه ، فقد أثاروا غضب تميم ، التى أذاقتهم مرارة الذل ، وخزى العار ، ولم تكن تميم بذلك معتدية ، لأنها إنما قتلت قتيبة لطغيانه وعدوانه ، فلما انتصرت له قيس ، جرت على نفسها الحسرة والندامة ، وليس لقيس بعد هذه الهزيمة الدامغة إلا أن يتجنبوا القتال ، وهم صاغرون أذلة ، لأنهم إن فكروا فيه ، فسيجدون سيوف تميم البتارة تعمل فى رقابهم .

من هذا التحليل يتبين لنا أن الشاعر يفخر بعزة قومه ومنعتهم وسطوتهم ، وانتصاراتهم فى أيامهم مع قيس ، وأخذهم بثأر قتلاهم ، ويهجو أعداء قومه ، فيعيرهم بالهزيمة ، ويدمغهم باللؤم والذل والعار ، وماباءوا به من الندم .

وهذه المعانى كثيرة الدوران فى الشعر الجاهلى ، وبها وبمثلها كان الشاعر الجاهلى

يفخر بقبيلته ، ويهجوا أعداءها [١] .

وعبارة الشاعر هنا عن معانية شبيهة أيضا بعبارة الشعر الجاهلى ، ففيهما معا القوة والفخامة ، والخلو من التعقيد والتكلف ، ووضوح الطبع ، مع إيثار للفظ الذى يعلو فى سماء الفصاحة درجات .

ونحن حين نقرأ هذه العبارات : « فدى لسيوف من تميم » و « شفين حزازات النفوس » و « أبأنا بهم قتلى » و « مافى دمائهم وفاء » و « كأنك لم تسمع تميما إذا دعت » و « لم تدع لها ألوفا » و « عسطت بأجدع راغم » و « وإن عدتم عدنا ببيض صوارم » ... ننسى أننا نقرأ فى شعر شاعر إسلامى ، ونعيش معها مستشعرين نغمات جاهلية خالصة ، يعزفها شاعر جاهلى الفكر واللغة والإحساس ، لاشاعر إسلامى ، يعيش فى ظل دولة يرفرف عليها علم الإسلام ، وتدين بقيم الإسلام ، التى ترفض هذه النعرة الجاهلية .

وقال الأصمُّ بن الحجاج القيسى فى ضمن أبيات يرثى بها قتيبة بن مسلم [٢] :

ألم يأْن للأحياء أن يعرفوا لنا ... بَلَى نحنُ أولى الناس بالمجد والفخر
نقودُ تميما والموالى ومَذْحجاً ... وأزداً وعبد القيس والحَىَّ من بكر
نُقتِّل مَنْ شئنا بعزةِ مُلْكِنا ... ونجبر مَنْ شئنا على الخَسْفِ والقَسْرِ

فهو يرى قومه القيسية المقدمين فى المجد ، الفاخرين لايفخر عليهم مفاخر ، لأنهم سادة القبائل جميعا من يمنية وربعية وغيرها ، ملكوا أمرها ، وقادوها فانقادت ، يحكمون فى دماء من شاءوا ، ويحملون من شاءوا على الذل والهوان .

وكلها معان تفوح منها العنجهية الجاهلية ، وتصدر عن عصبية قبلية ، لاتليق فى مقام رثاء هذا المجاهد الإسلامى قتيبة بن مسلم ، ولكن ماحيلة الشاعر ، وقد غدت العصبيات فى هذا العصر ، مقدمة فى مجال الفخر ، رائجة فى مقام الهجاء ، فقتيبة فى نظر الشاعر قيسى قبل أن يكون مجاهداً ، وقائدا إسلاميا عظيما .

---

(١) انظر أمثال هذه المعانى فى نماذج من الشعر الجاهلى فى : شعر الحرب (د . على الجندى) ٢٠٣ — ٢٤١

(٢) الطبرى ٨/ ١١٢ ولم نعثر على ترجمة لهذا الشاعر .

ب ــ بين قيس وربيعة : (١ــ قيس وبكر):

كان المُهَيْر بن سلمى الحنفى (من بكر بن وائل) جمع جيشا للإغارة على بنى عقيل ، وبنى كلاب ، وسائر بطون بنى عامر بن صعصعة (من قيس عيلان) فالتقوا عند الفَلَج [١] فهُزم البكريون ، وقال القحيف العُقَيْلى [٢]، يعبر عن بلاء قومه فى هذا اليوم ، ويفتخربهم ، ويصف نكايتهم [٣] :

أتانا بالعقيق صريخُ كعبٍ	فَحَنَّ النَّبع والأَسَلُ النِّهالُ
ثلاثاً ثم وَجَّهْنا إليهم	رَحيً للموت ليس لها ثفال
وحالَفْنا السيوفَ وصافناتٍ	سواءٌ هنَّ فينا والعيالُ
بناتُ بناتِ أعْوجَ طامحاتٍ	مدى الأبصار عِلْيَتُها الفِحالُ
وكَرْدَستِ الحرُيْش فعارضونا	بخيلٍ فى فوارسها اختيالُ
وسالتْ من أباطَحها قُشيرٌ	بمثلِ أَتِيِّ بيشة حين سالوا
نقود الخيلَ كلَّ أَشَقَّ نَهْدٍ	وكلَّ طِمِرّةٍ فيها اعتدال
تكاد الجِنُّ بالغدوات منا	إذا اصطفتْ كتائبنا تُهال
فبتْن على العُسَيْلة مُمسكات	لهنَّ غُدَيّة رهجٌ جُفَال

(١) الفلج : من منازل بنى عقيل ، وانظر خبر هذا اليوم الذى كان لبنى عامر على بنى حنيفة البكريين فى : الأغانى ٨ / ١٨٠ ــ ١٨١ ، ٢٠ / ١٤١ ــ ١٤٢

(٢) القحيف بن خمير بن سُليم النَّدى بن عوف من بنى خفاجة بن عمرو بن عقيل ، ثم من بنى عامر بن صعصعة : ذكره ابن سلام فى الطبقة العاشرة من فحول الشعراء الإسلاميين . وانظر : ابن سلام ٧٧٠ ، ٧٩١ ومعجم الشعراء ٣٣١ وانظر العمدة ٢ / ٣٩ وفيه « النحيف (تحريف) بن سليمان العقيلى .

(٣)ابن سلام ٢ / ٧٩٣ ومابعدها (المدنى) العقيق : وادٍ باليمامة لبنى عقيل . كعب : هو ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة . النبع : شجر تتخذ منه القسى . الأسل النهال : الرماح المتعطشة للدماء . ثلاثا : يعنى أنهم ساروا إلى بنى حنيفة صبح الليلة الثالثة . الثفال: جلد يبسط تحت الرحى ليقى الطحين من التراب ، يريد حربا شديدة . بنات أعوج : أى من نسل أعوج وهو فى أساطير العرب : فرس عتيق منه أنجبت خيول العرب ، يعنى أنها خيل عتاق نجيبات ، متمرسة للحروب ، لايعلوها إلا كل فحل نجيب . كردست : جعلت خيلها كتائب . الحريش وبنو قشير : بطون من بنى عامر . أتىُّ بيشة : سيل ينحدر من وادى بيشة . أشق : طويل . نهد : جسيم . طمر : طويل القوائم خفيف متوثب الرهج : الغبار . جفال : مجتمع كثيف . أبيض ذو حواش :يعنى الفجر . بهن حرارة : بأجواف الخيل حرارة من طول الجرى . وبنا اغتلال : فى صدورنا حقد وعداوة تلتهب . جحدلت : صرعت . حنانهم : أرادرئيسهم الذى يلتفون به . أحالوا : حال عليهم الحول . رعال : جمع رعيل : وهى القطعة المتقدمة من الخيل والجراد وسائر الطير ، يعنى مسرعات متقدمات .

فلما شقّ أبيضُ ذو حواشٍ　　له حالٌ وللظَّلْمـــاء حال
صبحناهـــم نواصيهنّ شُعثــا　　بهنّ حرارة وبنــا اغتـــلال
فلما جُحدلتْ مائتان منهم　　وفرَّ حنانهُـــم عنهم فزالــوا
فصاروا بين مُمتـــنٍّ عليـــه　　ومـــنصوبٍ له جذع طُوال
تكفّنُهـم حنيفـةُ بعـد حولٍ　　وكيف يكفنون وقد أحالـوا؟!
أمنكم ياحنيف !! نعم لعمرى　　لِحىً مخضوبة و دمٌ سجـالُ
كأن الخيــل طالعــةً عليهم　　بفرسان الصباح قطاً رِعالُ

إن الشاعر هنا مشغول بحرب قبلية ، باعثها ومؤججها التعصب للقبيلة ، حيث تستجيب بطونها جميعا لاستغاثة بطن منها ، تماما كما قال الشاعر الجاهلى قُريط بن أُنيْف ، أحد شعراء بلعنبر [١] :

قومٌ إذا الشّر أبدى ناجذيْه لهم　　طاروا إليـه زرافـاتٍ ووحدانـا
لايسألون أخاهم حين يندبهم　　فى النائبات على ماقال برهانا

ومن هنا لم يخرج الشاعر فيما حكاه من خبر هذه الحرب ، وماافتحز به من فَعال قومه ، ونكايتهم فى أعدائهم ، عما كان يتحدث به نظراؤه من شعراء القبائل فى الجاهلية ، فالاستجابة للصريخ سريعة ، وعدة الحرب مكتملة ، وأبطال القبيلة يتحرقون شوقا إلى نزال الأعداء ، مقبلين من كل منازلها ، ثم فخر بالنصر ، وتنكيل بالعدو ، وسخرية لاذعة مما أصابه على أيدى أبناء قبيلة الشاعر الشجعان .

٢ـــ قيس وتغلب :

قال عُمير بن الحباب السُّلَمى القيسى [٢] ،وقد استبطأ القبائل القيسية،حين تكاثرت عليه رجال تغلب،فهزم فى يوم يقال له«يوم الثّرْثار الأول» [٣]،يتحدث عن خذلان

---

(١) شرح الحماسة للمرزوقى ١ / ٢٧ــ ٢٩

(٢) عمير بن الحباب بن جعدة بن إياس ، من بنى بهثة بن سُليم ، قتلته بنو تغلب يوم الحشاك (وهو تل قريب من الشرعبية بالجزيرة) وذلك سنة ٧٠ هـ ، انظر ابن الأثير ٤ / ٣٠٩ ــ ٣١٧ (بيروت) ومعجم الشعراء ٢٤٥ والموشح ١٣٨

(٣) الثرثار : نهر ينبع من شرق سنجار ، ويصب فى دجلة ، وانظر خبر هذا اليوم فى ابن الأثير ٤ / ٣١١ والأغانى ١١ / ٥٩

بعض القبائل القيسية ، ويفتخر بقومه بنى سُلَيم [١] :

أنـــادِيهم وقـــد خذَلتْ كلابٌ   وحَــوْلى من ربيعــة كالجبـــال
أقاتلُهــم بحىٍّ بنــى سُلَيْــم   وأَعْصُرَ كالمصاعــيب النهّـــال
فِدًى لفــوارس الثرثــار قومــى   ومــاجمَّعْتُ من أهلى ومـــالى
فإمَّـا أُمْسِ قد حانت وفـــاتى   فقـــد فارقت أعصُرَ غير قالِ
أَبَعْــدَ فوارس الثرثـــار أرجـــو   ثراءَ المال أو عَدَدَ الرجـــال ؟!

فالشاعر غاضب على من خذله من القبائل القيسية مثل كلاب وأسد وتميم [٢] المضرية ، معتز بقومه بنى سليم ، وبموقفهم الشجاع فى هذه الموقعة ، يفديهم بأهله وماله ، وهو إذ يتنبأ بوفاته ، يعلن أنه يموت قرير العين ، فخورا بفرسان قومه ، الذين ضحوا بأرواحهم ، دفاعا عن شرف قبيلتهم وكرامتها ؛ لأن أمثال هؤلاء لاتحلو الحياة من بعدهم .

والأبيات — كما نرى — تدور حول خذلان الأعوان ، والتضحية فى سبيل شرف القبيلة .

وقد عالج الشعر الجاهلى هذين المعنيين [٣] ، ولو لم نعرف أن هذا الشعر قيل بعد الإسلام ، لما ترددنا فى نسبته إلى العصر الجاهلى ، لأن الشاعر يتناول فيه معانى جاهلية ، بأسلوب جاهلى ، ويترسم خطا الجاهليين من ذكر القبائل والأيام .

ولما قتل عمير بن الحباب يوم الحشاك (سنة ٧٠ هـ) انتقم له زفر بن الحارث الكلابى من بنى تغلب فى يوم يدعى « يوم الكحيل » [٤] حيث هزم جموع تغلب ، وقتل كثيرا منهم ، وغرق آخرون فى دجلة فارين ، وبقر بطون نساء منهم ، وأسر مائتين قتلهم صبراً ، وقال فى ذلك [٥] :

---

(١) الأغانى ١١ / ٥٩ كلاب وسليم وأعصر قبائل قيسية . ربيعة : قبيلة كبرى إليها تنتسب تغلب . مصاعيب:جمع مصعب : وهو الجمل الذى يترك للفِحلة بغير عمل . غير قالٍ : غير مبغض.

(٢) فى خبر هذا اليوم أن عميرا استنجد هذه القبائل فلم تنجده . انظر ابن الأثير ٤ / ٣١١ .

(٣) انظر : شعر الحرب ١٩٨ ، ٢٣٠ .

(٤) الكحيل : من أرض الموصل فى جانب دجلة الغربى ، وفى يومه انظر ابن الأثير ٤ / ٣١٨ .

(٥) ابن الأثير ٤ / ٣١٨ .

ألا يا عين بكّى بانْسكاب　　وبكّى عاصماً وابن الحباب
فإن تكُ تغلبٌ قتلت عُميراً　　ورهْطاً من غَنِىٍّ فى الحراب
فقد أفْنى بنى جشم بن بكر　　ونِمْرهَم فوارس من كلاب
قتلنـا منهمُ مائـتين صبراً　　وماعدلوا عمير بن الحباب

وقال ابن صفّار المحاربى فى اليوم نفسه (١) :

ألم تر حربنا تركت حُبَيْبـاً　　محُالِفَهـا المذلـة والصَّغـارُ
وقد كانوا أُولى عزٍّ فأضْحوْا　　وليس لهم من الذل انتصار

فالشاعر الأول يتعزى عن قتل عُمير بأن قومه الكلابيين القيسيين قد انتقموا له ، وأخذوا بثأره ، بإفناء بنى جشم ، وغيرهم ، وبمن قتل من تغلب صبراً ، مع أن هؤلاء جميعا ليسوا كفْئاً لدم عمير .

والشاعر الآخر يشير إلى جانب آخر من نكاية القيسيين فى تغلب ، فقد دمغوا هذا القبيل منهم (بنو حبيب) بالمذلة والعار ، فلن تقوم لهم قائمة فى ميادين الشرف بعد هذا اليوم .

وواضح أن الشاعرين يتحدثان بمعان قبلية ، وأن شعرهم هذا ، ماهو إلا انتصار للعصبية القبلية ، فدم قتيلهم لايعادله دم من قتل من أعدائهم ، مهما كثروا ، ومهما تنوعت صور قتلهم ، وانتصار قبيلهم ، ترك أعداءهم يتجرعون مذلة الهزيمة وعارها ، وحتى الألفاظ والتراكيب ، مأخوذة من قاموس الشعر القبلى الجاهلى ، لاتخرج عنه ، ولا تضيف جديداً إليه .

والحق أن عصبية القيسية بزعامة عمير السلمى ، كانت شديدة الوطأة على تغلب ، فقد اشتط عمير فى إغارته عليهم ، كما أوغل فى الانتقام منهم ، وبخاصة فى يوم « الثرثار الثانى» أو يوم « الخابور » (٢) ، الذى قتل فيه عدد كبير من رؤساء تغلب وأشرافهم .

---

(١) ابن الأثير ٤ / ٣١٩ حبيب : بطن من تغلب .

(٢) يوم لقيس على تغلب . انظر خبره فى الأغانى ٢٠ / ١٢٧ وابن الأثير ٤ / ٣١٢ ، تحت عنوان « يوم الثرثار الثانى »

وبلغ من شناعة هذا اليوم أن لام بعض القيسيين عميرا ، لوماً شديدا ، فكان ممن لامه زفر بن الحارث الكلابى (من هوازن القيسية) . فقال فى ذلك [١] :

ألا من مبلغ عنــىّ عميراً رسالةَ عاتبٍ وعلـيك زارِى
أتترك حَىَّ ذى كُلَعٍ وكـلبٍ وتجعــلُ حَدَّ نابك فى نزار
كمعتمـد عل إحـدى يديـه فخانتــهْ بِوَهْــي وانــكسار

وكأنه يحثه على الاتجاه إلى حرب اليمنية ، أعداء القيسية التقليديين ، وأن لايجعل همه إذلال تغلب ؛ لأنها نزارية مثل قيس ، وفى إضعافها وإذلالها ، إضعاف للعرب النزارية .

وعن هذا الإدراك أيضا صدر القُطامى الشاعر التغلبى ، فى تحسره على ماكان من حروب قاسية مهلكة منهكة بين قيس وتغلب ؛ إذهما أبناء أب واحد ، فكلتاهما من نزار بن مَعَدِ بن عدنان . يقول القطامى [٢]:

ألم يحزنْك أن حبـــال قيسٍ وتغلبَ قد تباينتا انقطاعـــا
أمــورٌ لو تدبَّرهـــا حليـــمٌ إذًا لنهى وهـيَّب مااستطاعا
ولكـــنَّ الأديم إذا تفَـــرَّى بِلىً وتعيُّناً غلب الصَّناعـــا
ومعصيةُ الشفيـق عليك مما يزيـــدك مرةً منـــه استماعـــا
وخيرُ الرأى مااستقبلت منه ولـــيس بأن تتبعـــه اتِّباعـــا

فالقطامى حزين على تقطع حبال القرابة والمودة بين قومه التغلبيين ، وأبناء العمومة القيسيين ؛ ولذا فهو يدعو القوم جميعا إلى الهوادة فيما بينهما ، والتدبر لعواقبه ، كما تدبر هو فحذر وخوف من سوء العاقبة ، ثم يدركه التشاؤم ، فيسلمه إلى اليأس من صلاح مابين القوم ؛ وكأنه يرى أن الخرق قد اتسع على الراقع ، ومع ذلك فهو يسترسل فى النصح ، لأن الناصح الشفيق إن عُصى مرة ، وقع لمن ينصحهم من السوء مايجعلهم أكثر حرصا على استماع نصْحه والعمل به مرة أخرى . ثم إن العاقل هو الذى يستقبل الأمر بالتدبر والنظر ، فيقف على عواقبه . وشر الرأى انتظار الأمر حتى يقع ، ثم ينظر فى أدباره وأواخره .

---

(١) الأغانى ٢٠ / ١٢٨ وابن الأثير ٤ / ٣١٢

(٢) ابن سلام ٥٣٨ (المدنى) . تفرى : تشقق وتقطع . تعينت القربة : صارفيها دوائر رقيقة توشك أن تنتهك . الصناع : الحاذق بالعمل .

حـ : بين قيس واليمنية :

ــ أغار عُمير بن الحباب على كلب واليمنية فنهب وقتل ، فعبأ ابن بَحْدَل الكلبي قومه وهزم عمير ، في بني نُمَيْرٍ وغيرهم من القيسية ، وتعرف هذه الموقعة بـ « يوم دُهْمان » ، وقال في ذلك الشاعر اليمني مُنْذِرُ بن حسّان [١] :

وباديةُ الجَوَاعِر من نُمَيْرٍ ... تُنادِي وهْيَ سافرةُ النِّقَابِ
تُنادِي بالجزيرة يَالَقَيْسٍ ... وقَيْسٌ بئس فتيانُ الضِّرَابِ
قتلْنا منهمُ مائتين صَبْراً ... وألفاً بالتلاع وبالرَّوابى
وأَفْلَتَنَا هجينُ بني سُلَيم ... يُفَدِّى المُهْرَ من حب الإيابِ
فلولا اللهُ والمهرُ المُفَدَّى ... لَغُودِرَ وهْوَ غِرْبَالُ الإهابِ

يهجو الشاعر قيسا بالجبن والقعود عن نجدة بني قومهم ، ويفخر بما أصابه قومُه من أعدائهم ، ويسجل على قائد القيسية عمير عار الفرار من المعركة ، وأنه ماكان ينجو لولا فراره .

وهذه الأبيات كسابقتها ، تتحدث عن معان جاهلية بأسلوب جاهلي ، ولن نخدع بذكر الله في البيت الأخير ؛ فطالما تردد لفظ الجلالة في أشعار الجاهليين ، من ذلك قول عبدِ يَغُوث بن الحارث في يوم الكُلابَ الثاني ، وهو من أيام العرب في الجاهلية [٢] :

جزى اللهُ قومي بالكُلاب ملامةً ... صَرِيحَهُمُ والآخرين المَوَالِيَا

ــ كان حُمَيْد بن الحُرَيْث بن بَحْدَل الكلبي قد أوقع بفزارة القيسية ، وقتل منهم مائة ونيفا ، فقال سِنان بن جابر الجُهَنِيّ يفخر بما فعلت كلب بفزارة [٣] :

ياأخت قيسٍ سَلِى عنا عَلانيةً ... كى تُخْبَرى من بيان العلم تِبْيانَا
أنَّا ذوو حسبٍ ومال ومكرمة ... يوم الفَخَارِ وخيرُ الناس فِرسانا
منا ابنُ مُرَّة عمرو قد سمعتِ به ... غيث الأرامل لا يُرْدَيْنَ ماكانا

---

(١) الأغانى ٢٠ / ١٢٣ . بادية الجواعر : يعنى منازل نمير . هجين بنى سليم : يعنى عمير بن الحباب السلمى . غربال الإهاب كناية عن قتله وتمزيق بدنه ، ومنذر بن حسان بن مالك بن بحدل الكلبى ، وأبوه خال يزيد بن معاوية وقد مرّ ذكره .

(٢) العقد الفريد ٣ / ٣٥٧ (الجمالية)

(٣) الأغانى ١٧ / ١١٤ ، جزر السباع : اللحم الذى تأكله .

والبَحْدَلِيُّ الذى أَرْدَتْ فوارسُه قيساً غداةَ اللّوى من رَمْلِ عَدْنانا
كائنْ تركنا غداةَ الْفَاهِ من جَزَرٍ للطّيرِ منهم ومن ثكلى وثكلانا
ومن غَوانٍ تُبَكّى لاحيممَ لها بالْفَاهِ تَبْكِي بنى عمٍّ وإخْوانا

فماذا فى الأبيات إلا الفخر بالحسب والشجاعة فى الحرب ، والنكاية فى الأعداء ، والاعتزاز بسادة القبيلة ؟

ونورد هنا أبياتا لعَبيد بن الأبرص فى مثل هذه المعانى ؛ لنرى إلى أى حد ينسج هذا الشعر على منوال الشعر الجاهلى ، قال عَبيد (١) :

ياأيّها السائـلُ عن مجدِنـا إنك عن مَسْعاتنا جاهـلُ
إن كنتَ لم تأتك أيامُنـا فاسأل تُنَبأْ أيُّهـا السائـلُ
قومى بنُو دُودَانَ أهلُ النُّهـى يوماً إذا ألقـحتْ الحائِـلُ
كمْ فيهُـم من سيدٍ أيِّـدٍ ذى نفحات قائلٌ فاعـلُ
لايحرم السائـلَ إن جاءه ولايُعَفـى سيْبَـهُ العـاذل
والطاعـنُ الطعنـة يوم الوغـى يَذْهَـلُ منها البطـلُ البـاسل

إلى آخر أبياته ، التى يتحدث فيها، أيضا عن نكاية قومه فى أعدائهم .

ولما دارت دائرة الحرب على قيس فى يوم المرج ، وقتل الضحاك بن قيس ، وقتل معه أشراف من قيس ـــ كما مر ـــ قال زفر بن الحارث الكلابى ، متحسراً على هذه النتيجة ، متوعداً كلبا بالثأر لقتلى قيس ، معلنا أنه لاهوادة فى الخصومة بعد هذه الموقعة ، بين قيس وكلب اليمنية ، محاولا الاعتذار عن الفرار والهزيمة فى هذا اليوم (٢) :

أتذهبُ كلبٌ لم تنلْها رماحُنا وتترك قَتْلَى راهطٍ هى ماهيا
لعمرى لقد أبقت وقيعة راهط لحسان صَدْعاً بيِّناً متنائيا
فلم تُرَ مِنِّى نبْوَةٌ قبلِ هذه فرارى وتركى صاحبَىَّ ورائيا
فلا صلح حتى تَنْحِطَ الخيلُ بالقنا وتثأر من نسوان كلب نسائيا
ألا ليت شعرى هل تُصيبنَّ غارتى تَنُوخاً وحَيَّىْ طيِّءٍ من شفائيا

---

(١) ديوانه (طبعة لندن) ص ١٢٠ . يعفى : يحبس ويمنع . العاذل هنا : العدو .

(٢) ابن الأثير ٤ / ١٥٢ وأيام العرب فى الإسلام ٤٢٢ ـــ ٤٢٦ والطبرى ٧ / ٤١ . حسان : هو حسان بن مالك بن بحدل الكلبى ، زعيم الكلبية فى هذا اليوم . صاحبى : هما شابان من سليم ، جاءت خيل مروان تطلبهما فخافا وقالا لزفر : انج بنفسك ، أما نحن فمقتولان لامحالة ، فمضى زفر وتركهما .

فأجابه عمرو بن المخْلَاة الكلبى ، قائلا (١) :

بكى زُفَرُ القيسى من هُلْكِ أهله ... بَعبْرةِ عيْنٍ مايجفُّ سجومها
يُبكىِّ على قتْلىَ أصيبت براهطٍ ... تجاوبُه هامُ القفار وبومُها
أبحْنا حِمىً للحىِّ قيس براهطٍ ... وولتْ شلالاً واستبيح حريمُها
فمتْ كمداً أو عشْ ذليلا مُهضَّماً ... بحسرة نَفْسٍ لاتنام همومُهَا
إذا خطرتْ حوْلى قضاعةُ بالقنا ... تخبطّ فِعْل المصعبات قرومها
خبطتُ بهم مَنْ كادنى مِنْ قبيلةٍ ... فَمَنْ ذا إذا عزّ الخطوب يرومها

فكل هم زفر بن الحارث ، ومناط حسرته ، أن قبيلته قد هزمت ، وأن أعداءها نجوا فلم تطلهم رماحها ، وهو باعتباره فارس القبيلة حزين آسف لاضطراره إلى الفرار ، والتخلى عن أصحابه نجاة بنفسه ، وعذره أن قومه تفرقوا من حوله ، والأعداء قد أخذوا عليه كل طريق ، وتركوه يعدو بفرسه فى أعالى الجبال .

هذا هو شغله الشاغل ، أما قضية خلافة ابن الزبير ، وماأصابها من تصدع نتيجة لهذه الهزيمة ، مع أنها الغرض السياسى ، الذى من أجله كانت هذه الوقعة ، فليست ذات صدى فى نفس الشاعر ، ولم تشغل من فكره وهمه ــ بعد الهزيمة كثيرا ولا قليلا .

وهذا مما يؤكد أن هذه الحروب ، وإن قامت ترتدى زى السياسة ، فإنها قبلية فيما يحوطها من مشاعر ، وماتخلفه من مخازٍ أو مفاخر .

ومن هنا كان رد عمرو بن المخلاة قبليا خالصاً فى السخرية والتهكم من أعداء قبيلته ، وفيه الاعتزاز ببطولة قومه ، وشدة نكايتهم فى الأعداء ، وفيه التعصب للقبيلة واستشعار الحماية فى ظلها ، فهى التى تدافع عنه ضد من يكيدون له ، وتحميه إذا دهمته الخطوب ، وماعلى غير هذا قامت العصبية القبلية فى العصر الجاهلى .

ومادامت العصبية القبلية هى المحور ، ونصرتها هى الغاية ، فلن تجد فى هذا الشعر وأمثاله ، إلا الترديد للمعانى الجاهلية ، والتراكيب اللغوية الجاهلية، والصور التى لاكها الجاهليون ، فى أشعارهم المعبرة عن العصبية القبلية .

---

(١) الطبرى ٧ / ٤٢ وابن الأثير ٤ / ١٥٣ (بيروت) .

د : بين بطونٍ من قبيلة واحدة :

ــ لقد هاجت العصبية القبلية ، وتناطحت القبائل ، ووجدت من حياة هذا العصرالأموى السياسية والاجتماعية مايشجعها ، ويصفق لها ، ويعيد لها مكانتها الأولى فى العصر الجاهلى ، التى كانت تناط بها عزة القبائل وأمجادها ، وشرفها .

وأخذت العصبية القبلية فى هذا العصر تضيق وتدنو حتى دخلت بين رجال العشيرة أو القبيلة الواحدة ، حيث تثور الإغارات والحروب بين الأحياء ، ويسقط القتلى ، وتطلب الثارات ، حتى غدت الحياة الأموية حياة جاهلية إلى حد كبير (١) .

ونسوق هنا بعضا من شعر العصبية القبلية ، بين الحيين من القبيلة الواحدة .

ــ هاجت الحرب بين بنى عامر ، وهم من بنى عذرة من قضاعة ، رهط هدبة بن خشرم (٢) ، وبين بنى رقاش ، رهط زيادة بن زيد (٣) ، وهم من بنى عذرة من قضاعة أيضا ، فقال زيادة مفتخراً بقومه (٤) :

أنا ابن رقاشٍ وابن ثعلبة الذى ... بنى هادياً يعلو الهوادى أغْلبَا
بنى العزَّ بنياناً لقومى فَمَاصَعُوا ... بأسيافهم عنه فأصبح مُصعبا
فما إن ترى فى الناس أمًّا كأمِّنا ... ولا كأبينا حين ننسبه أبا
ملكنا الملوك واستبحْنا حِماهمُ ... وكناّ لهم فى الجاهلية موْكبا
نَدَامَى وأرْدافاً فلم تك سُوقةٌ ... توازننا فاسأل إياداً وتغْلِبا

---

(١) تاريخ النقائض (الشايب) ص ١٩٠

(٢) ابو سليمان ، أو أبو عميرة هدبة بن خشرم العذرى القضاعى . شاعر فصيح متقدم ، روى عن الحطيئة ، وروى عنه جميل بن معمر العذرى ، كان يعيش في بادية الحجاز ، ولما قتل زيادة بن زيد العذرى القضاعى قتل به قودا أيام معاوية بن أبى سفيان ، فهو أول من أقيد فى الإسلام . انظر : الأغانى ٢١ / ١٦٩ ومعجم الشعراء ٤٨٣ وخزانة الأدب ٤ / ٨٤ ومجالس العلماء للزجاجى ٢٢٨ وسمط اللآلى ١ / ٢٤٩ ، ٢ / ٦٣٩ وأمالى القالى ٢ / ٢٦ والاشتقاق ٥٤٧ .

(٣) زيادة بن زيد بن مالك بن عامر بن عبد الله العذرى القضاعى ،اصطحب هدبة مقبلين من الشام فى ركب من قومهما ، فكانا يتعاقبان السوق بالإبل ومع هدبة أخته فاطمة ، فارتجز زيادة بفاطمة ، فتخاصما وتهاجيا ، وطلب هدبة غرة من زيادة فلما سنحت قتله ، وكان ذلك أيام عثمان بن عفان ، انظر : الأغانى ٢١ / ١٦٩ والشعر والشعراء ٢٤٩ والتذكرة السعدية ٣١٥ وخزانة الأدب ٤ / ٨٦ .

(٤) شعراء النصرانية ١ / ٩٨ هاديا : يعنى مجدا يعلو الأمجاد . ماصعوا : جالدوا

إن روح الجاهلية تطل من هذه الأبيات قوية واضحة ، فما كان الفخر الجاهلى فى أكثر صوره إلا مؤسسا على الاعتزاز بالحسب ومجد الآباء ، وعلو الشرف والمكانة .

وهذا الشاعر البدوى أسير هذه التقاليد الفنية لشعر الفخر الجاهلى ، سواء فى الشكل أو المضمون .

ـ وهناك أمثلة عديدة أخرى للهجاء والفخر القبليين بين حيين من أب واحد ، كالذى قام بين جرير وهو من بنى يربوع من تميم ، وبين غسان بن ذُهَيْل السَّليطى ، انتصارا لبنى جحيشٍ بن جارية بن سَلِيط ، وكلا الحيين من يربوع ثم من تميم ، وكان بين الحيين نزاع وخصومة .

وهناك رجز لجرير يتناول فيه بنى السليط بالهجاء ، فيرميهم بالذلة ، ويلعن نساءهم ذوات الروائح النتنة ، والبطون العكنة الضخمة ، ويشبههن تشبيها قبيحا [1] :

إن سَلِيطاً فى الخسار إنّـهْ
أولاد قومٍ خُلقـوا أُقِنّـهْ
لاتوعـدونى يابنـى الأصنَّـهْ
إن لهن نُسَيَّـةً لُعنَّـهْ
سُوداً مَغاليـمَ إذا بَطنَّـهْ
يفعلْـن فِعْـل الأُتُن المُسْتَنَّهْ

وهكذا ينزلق الهجاء القبلى إلى الفحش وتناول الأعراض ، وإيراد الصور المخجلة القبيحة ، فيما يشبه السباب الخالص ، وهذه سفاهة وإسفاف ، لانجدلها نظيرا فى الهجاء القبلى الجاهلى .

وقد نضيف إلى هذا الاتجاه ، ظاهرة التتبع والاستقصاء فى الهجاء ، الذى أورث فن الهجاء القبلى فى هذا العصر طول النفس ، واسترسال القصيدة .

رأينا هذا فى قصيدة القُحيف العُقيلى فى هجاء بنى حنيفة البكريين ، ونراه أيضا فى هجاء جريرٍ غسانَ وقومه بنى السليط .

---

(١) ديوانه ٥٩٨ . الأقنة : جمع قن . المصنة : المنتنة الريح . نسيّة : تصغير نساء . بطنة : من البطنة ، وهى الامتلاء .

فحينما أخذ غسان يرد على جرير هجاءه ويفخر بنفسه وبقومه ، ويهجو جريرا وقومه ، ويصمهم بالجبن واللؤم والبخل وحماقة الأصل ، فى أبياته التى يقول فيها : [(١)]

لعمرى لئن كانت بَجِيلةُ زانها جريرٌ لقد أخزى كُليباً جريرُها

عضه جرير بطويلة (٣٦ بيتا) مطلعها [(٢)] :

أَلَا بكرتْ سلمى فجدَّ بُكُورها وشقَّ العصا بعد اجتماعٍ أميرُها

وبعد نسيب قصير ، يقول فى غسان :

ألا ليت شعرى عن سَلِيطِ ألم تَجدْ سليطٌ سوى غَسانَ جاراً يجيرها

لقد ضمَّنوا الأحسابَ صاحبَ سَوْءَةٍ يناجى بها نفساً لئيما ضميرُها

وبعد هجاء قبيح فى غسان ، يتناول قومه ، قائلا :

ألا ساء ماتُبْلِى سليط إذا رَبَتْ جواشنُها وازداد عَرْضاً ظهورُها

بأستاهها ترمى سليط وتَتَّقى ويرمى نضالاً عن كليبٍ جريرها

ولما علاكم صَكُّ بازٍ جنحتُم بأستاه خِربانٍ تَصرُّ صقورها ...

فما فى سليط فارس ذو حفيظةٍ ومَعْقِلها يوم الهياج جُعورها ...

إذا قيل ركبٌ من سليط فقُبِّحتْ ركاباً وركباناً لئيما بشيرها ...

ومابكُمُ صبرٌ على مشرفيَّةٍ تعضُّ فراخ الهَامِ أو تستطيرها

والقصيدة طويلة ، وكلها على هذا النحو من الهجاء ، الذى لايعف عن الفحش . إلى جانب الوصف بالهوان والدناءة ، والجبن والفرار ، وحقارة الشأن ، والتذكير بعار الهزيمة فى أيامٍ كانت عليهم ، علاهم فيها ، قيس عيلان ، وبكر بن وائل ، حتى كأنما يقص فيها تاريخ بنى سليط . ويسجل مخازيهم ، وأيام عارهم ، فى تتبع دقيق ، ونفس طويل .

* * *

(١) يوازن بين جرير الكليبى التميمى ، وجرير بن عبد الله البجلى الصحابى المشهور

(٢) القصيدة بتمامها فى ديوانه ٢٩٣ ـــ ٢٩٦ . الجواشن : الصدور .

والعجب أن تقال هذه الأشعار ، التى تفوح منها ريح العصبية القبلية ، فى بيئة إسلامية ، وعلى مسمع من حكام المسلمين الأمويين وعماهم !!

وقد يزول هذا العجب ، إذا ماتذكرنا أن روح الإسلام لم تكن قد تغلغلت فى قلوب كثير ممن استظلوا بظله ، أو ساروا تحت لوائه ، وانتموا لملته ، وأغلب بنى أمية ــ دون شك ــ من هؤلاء الكثيرين ، فقد عرفنا أنهم كانوا يشجعون هذه النزعات العصبية ، ويقربون شعراءها ، الذين يخدمون سياستهم .

هذا إلى جانب مانعلم من أن أكثر شعراء العصبية القبلية فى العصر الأموى ، كانوا من عرب البوادى ، الذين لم يتعمق الإسلام قلوبهم ، فلم يعرفوا معنى الأخوة الإسلامية ، ولم يتخلقوا بخلق الإسلام .

وحتى فحول شعراء هذا العصر ، وعلى رأسهم جرير والفرزدق والأخطل ، قد ضربوا فى شعر العصبية القبلية بسهم وافر ، مع أنهم تذوقوا نعمة الحضر ،ولا عجب فالأخير منهم لم يزر الإسلام قلبه ، إلا بمقدار مازار قلب عمرو بن كلثوم ، أو طرفة ، وثانيهم ، كاد الإسلام يمس قلبه ، فقيد نفسه فى بيته ، وآلى ألا يفك قيده حتى يجمع القرآن ، فلما جاءته نساء بنى مجاشع ، وقد فحش جرير بهن فى شعره ،وقلن له قبح الله قيدك فقد هتك جرير عورات نسائك ، فَلُحِيتَ شاعر قوم !! فأحفظنه ، وسرعان مافك قيده ، ونزل إلى المعركة ، وشغل بذلك عن القرآن ،وقال (١) :

ألا استهزأت منى هُنَيدةُ أن رأتْ   أسيرا يُدانى خطوه حلقُ الحِجْلِ
لعمرى لئن قيدتُ نفسى لطالما   سعيتُ وأوضعتُ المطية للجهلِ
ثلاثين عاما مأرى من عَمَايةٍ   إذا برقتْ إلا شددتُ لها رحْلى
أتتنى أحاديث البَعِيث ودُونه   زَرودٌ فشامات الشقيق إلى الرَّمْل
فقلت أظَنَّ ابن الخبيثة أننى   شُغلتُ عن الرامى الكنانة بالنَّبل
فإن يكُ قيدى كان نذرا نذرتُه   فما بى عن أحساب قومى من شغل..الخ

---

(١) انظر ابن سلام ١ / ٣٢٧ ، وديوان الفرزدق ٢ / ١٥٢ ــ ١٥٣ (بيروت) البعيث : شاعر من قوم الفرزدق بنى مجاشع ، وأحاديثه : يعنى أخبار هجاء جرير إياه ، وتناول أعراض قومه فى هذا الهجاء . زرود : ماء لبنى مجاشع

على هذا النحو كانت الحياة القبلية ، ومايدور فى فلكها من عصبيات ، طوال العصر الأموى ، لم تهدأ نزعاتها ، ولم تنفصل عن الحياة الاجتماعية ، ولاعن الحياة السياسية .

ولم يقف بمعزل عن هذه الحياة ، فقد تجاوبت فيه أصداؤها ، بل كان وقودا لها يلهِّبها ، ويُضرِّيها ، ويتصل بها اتصالا وثيقا ، ويتبادل وإياها التأثير والتأثر .

وهكذا كانت الحياة القبلية مقوما أساسيا من مقومات الحياة فى العصر الأموى ، كما كانت أصداء هذه الحياة القبلية مقوما أساسيا من مقومات الشعر فى هذا العصر .

* * *

— ٥ —

تعقيب على شعر الخصومة القبلية فى العصر الأموى :

يتضح من هذه الدراسة التى تناولت العصبيات القبلية فى العصر الأموى ، وماكان لها من تأثير فى توجيه قدر كبير من شعر العصر نحو التعبير عنها ، وإحياء فنى الفخر والهجاء القبليين ، ومدهما بالقوة والذيوع ، نقول : يتضح من هذا كله ومن دراسة نماذج من الشعر الذى تخلف عنها ، أن الشعر القبلى فى العصر الأموى كان يحتذى نظيره فى الشعر الجاهلى ، يحتذى تقاليده التى أرساها شعراء القبائل ، خلال تجاربهم الطويلة .

ومعنى هذا أن الطابع العام ، الذى يبرز فى الشعر القبلى فى عصر بنى أمية ، هو الطابع الجاهلى ، وهو بهذا يعد امتدادا للتقاليد الأدبية الموروثة فى شعر العصبيات القبلية الجاهلية ، فشعراؤه يتخذون من هذا الشعر الجاهلى نموذجا يحتذونه ، يمدون أبصارهم إليه ، ويسيرون على ضوئه وهداه ، فى أغراضه ومعانيه ، ولغته أيضا .

أما الأغراض : فقد وضح الأمر فيها على ضوء تحليلنا السابق لنصوص من الشعر القبلى الأموى ، حيث رأينا كيف كان شعراء القبائل مشغولين بمناقب قبائلهم ، ومثالب أعدائها ، لايتحدثون عن أنفسهم بقدر مايعبرون عن قضايا قومهم فى صراعهم مع منافسيهم ، وهى تتلخص فى الهزائم والانتصارات ، والأيام ، والأحساب والأنساب ، وكل ماكان عنوانا للشرف والمجد القبليين فى العصرين الجاهلى والأموى ، إيجابا فى الفخر ، وسلبا فى الهجاء .

وفى باب المعانى ، لم يخرج الشعر القبلى فى معانيه عن نطاق المعانى التى طرقها نظيره فى العصر الجاهلى ، وقد وضح هذا من المقارنات التى قدمناها بين نماذج من الشعر القبلى فى العصرين (١)، فعلى ضوئها يبدو جليا أن المعانى الجاهلية ، والهجاء الجاهلى ، والحمية الجاهلية واضحة أجلى وضوح فى هذا الشعر القبلى الأموى (٢) .

وإن كان هناك من فارق فى مجال المعانى ، فيمكن حصر أهم مظاهره فيما أشرنا إليه من ميل الشعر القبلى الأموى إلى تتبع المعانى ، واستقصائها ، ولعل هذا الاستقصاء مع طول القصائد فى هذا العصر ، هو الذى أدى إلى تكرار المعانى ، فقصائد الهجاء والفخر طالت ، وكثرت ، والشاعر يستنفد المعانى ، بحيث تستغرقها قصيدة أو أبيات من قصيدة ، وبعدها تفرغ جعبته من المعانى ، فينثنى يكرر ماسبق عن أن عبر عنه ، من أيام ومفاخر ومثالب ، فى عبارات مختلفة ، ليس تحتها من جديد ، وليس فيها إلا المهارة اللغوية ، والقدرة على اصطياد التراكيب وتأليفها ، والأمثلة على هذا كثيرة ، وبخاصة فى شعر فحول شعراء القبائل فى هذا العصر .

ولنأخذ مثلا قول الفرزدق مفتخراً بقومه :

وماأحدٌ إذا الأقوام عَدُّوا ... عروق الأكرمين إلى التراب

بمحتفظين إن فضلتمونا ... عليهم فى القديم ولاغضاب

ولو رفع السحاب إليه قوماً ... علونا فى السماء إلى السحاب

يفخر بآبائه وأجداده الكرام ، وبقديم قومه فى المجد ،وعلو منزلتهم فوق الناس جميعا .

ويكرر هذه المعانى فى عبارات أخرى مخاطبا جريراً :(٤)

بأى أبٍ ياابن المراغة تبتغى ... رهانى إلى غايات عَمىٍّ وخاليا

هلم أباً كابنىْ عِقالٍ تعده ... ووادِيهما ياابن المراغة واديا

---

(١) انظر ص ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ من هذه الدراسة

(٢) انظر : فجر الإسلام ١ / ٩٩

(٣) ديوانه ٩٨

(٤) ديوانه ٣٦١

تجد فرعه عند السماء ودارمٌ من المجد منه أترعتْ لي الجوابيا
بنى لى به الشيخان من آل دارمٍ بناءً يرى عند المجرة عاليا

وفى هجاء جريرٍ الأخطل ، يكرر معانى انتسابهم إلى الصليب ، ويناديهم بخنازير تغلب ، وأنهم شراب خمر ، كما يعيرهم بإذلال قيس إياهم فى أكثر من قصيدة (١) ....

فإذا أضفنا إلى هذا كثرة المعانى القبيحة المسفة ، كانت هذه النواحى معبرة عن تطور ــ قليل الخطر ــ أصابه الشعر القبلى ، وافترق فيه عن نظيره الجاهلى .

وأما لغة هذا الشعر القبلى فى العصر الأموى ،فهى تلك اللغة الرصينة ، التى تتأرجح بين صلابة العبارة أحيانا ، والاحتفاظ بالمستوى الواضح الرصين أحيانا أخرى ، موصوفة بالجزالة غالبا ، شأنها فى ذلك شأن لغة الشعر القبلى فى العصر الجاهلى .

ويمكن ملاحظة هذه الجزالة ، إذا قرأنا فى شعر السياسة فى هذا العصر ،حيث نجد العبارة تتسم بالسهولة والوضوح ، وتقل فيها الجزالة التى نلاحظها فى الشعر القبلى ، بل إننا نلاحظ اختلاف مستوى الجزالة فى شعر الشاعر الواحد بين هذين الفنين ، فشعر الطرماح فى السياسة ، أقل جزالة من شعره القبلى ، يقف على هذا كل من قرأ فى ديوانه ، وأنعم النظر فى لغة شعره فى كل منهما ، وقل مثل ذلك فى شعر الأخطل وجرير والفرزدق .

ولنقرأ مثلا قول الفرزدق : (٢)

حُلَلُ الملوك لباسنا فى أهلنا والسابغاتُ إلى الوغى نتسربلُ
أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جنا إذا مانجهل
فادفعْ بكفك إن أردتَ بناءنا ثَهْلانَ ذا الهضباتِ هل يتحلحلُ؟!

وقول جرير (٣) :

وقد عِلم الأقوامُ أنّ سيوفنا عَجَمْنَ حَديدَ البِيض حتى تصدّعا
ألارُبَّ جبّارٍ عليه مهابةٌ سقيناه كَأسَ الموتِ حتى تَضَلَّعا
نقودُ جياداً لم تقدها مجاشعٌ تكون من الأعداء مرأى ومَسْمَعا..

(١) انظر ديوانه ٥٣ ، ٥٩ ، ١١١ ، ٢٦٢ ، ٤١٤ ومواضع أخرى عديدة .
(٢) ديوانه ١٥٧
(٣) ديوانه ٣٣٩

وهذه اللغة الرصينة أيضا هى الطابع العام لشعر الأخطل القبلى ، نأخذ مثلا قوله فى هجاء قبائل قيس [(١)] :

وقد سرَّنى من قيس عَيْلانَ أننى رأيتُ بنى العَجْلان سادوا بنى بَدْرِ
وقد غبر العجلانُ حينا إذا بكى على الزاد ألقتْه الوليدةُ فى الكِسْرِ
فيصبحُ كالخفاش يدلك عينه فقبِّح من وجهٍ لئيم ومن حَجْرِ

وقوله [(٢)] :

إن السيوفَ غُدوُّها ورواحها تركت هوازنَ مثلَ قرن الأعضب

وقوله :

إذا ماقلتُ قد صالحتُ بكراً أَبَى البغضاءُ لاالنسب البعيدُ
وأيامٌ لنا ولهم طوالٌ يعضُّ الهامَ فيهنّ الحديد
هما أخوان يصطليان ناراً رداءُ الموت بينهما جديدُ

وغير ذلك كثير ، فى شعره وشعر فحول عصره القبلى .

هذا ، ولئن كانت التقليدية قد غلبت على الشعر القبلى فى العصر الأموى ، فإننا لانستطيع أن نتجاهل ماكان لهذا الشعر من فضل الحفاظ على كثير من فصاحة اللغة ، وتراكيبها القوية الجزلة ، التى تحاكى عصر العربية فى عنفوان فصاحتها ، كما تتمثل فى الشعر الجاهلى ، فضلا عما كان له من أثر فعال فى إثراء الشعر ، وكثرة الشعراء فى العصر الأموى .

* * *

---

(١) ابن سلام ١ / ٥١٣ (المدنى)
(٢) المصدر السابق ٤٧٧

الفصل الرابع

شِعر الخُصومةِ الفَرْدِيّة

أو

النّقائضُ الأدَبِيّة

— ١ —

نعنى بالخصومة الفردية ، نوعا من المنافسة الفنية ، تمخضت عنه الخصومات السياسية والقبلية فيما تمخضت عنه ، أغرى بعض الشعراء به ، ودفعهم إليه ، إقبال الجماهير المتحمسة للخصومة المتعددة الألوان فى العصر الأموى ، عصر الصراعات السياسية ، والقبلية ، على ضروب الشعر ، الذى يتخذ من هذه الخصومة ، أو تلك موضوعا له ، حيث كانت الحلقات تعقد فى كل من البصرة والكوفة بالعراق ، وفى مجالس الخلفاء بدمشق ، وتروى فيها هذه الأشعار ، فتتنازع الأهواء الجمهور المستمع ، كما تنازعت من قبلهم قائليها من الشعراء ، والناس مابين متحمس لهذا أو ذاك ، ساخط على مايسمع من شعر أو راض ، والشعراء من خلال هذه كله ، تذيع أشعارهم ، وتتناقلها الرواة ، وتستقر فى الذواكر ، وتلمع أسماء عديدة من الشعراء فى سماء الشهرة ، فيسمع بهم القاصى والدّانى ، ومع الذيوع والشهرة ، تنشط القرائح وتبدع وتؤتى ثمارها كل حين ، منوعة الألوان والطعوم .

بيد أن الشعراء الذين قدر لهم ولشعرهم فى الخصومات السياسية والقبلية وغيرها ، التفوق والنبوغ ، سرعان ماوجدوا أنفسهم يدورون فى دائرة ، فسيحة ولكنها مغلقة ، من صور الهجاء والفخر والحماسة القبلية ، ومن صور المديح والتأييد والمعارضة السياسية .

وكأنما خشوا أن تستهلكهم هذه الصورة ، وتستفرغ عبقريتهم ،وتسلمهم إلى تكرار القوالب والمعانى والصور ، فتتعطل مواهبهم ، ويتحول فنهم من جانب الإبداع ، إلى جانب المهارة فى الصناعة والصياغة ، فيفقد بريقه ولمعانه وجاذ بيته ، ويفقد معها جماهيره المعجبة ، وطلاب فنّه المتحمسين .

كان هذا وغيره مما أغرى طائفة من شعراء هذا العصر ــ وبخاصة الفحول منهم ــ إلى التعريج بشعرهم على ميدان آخر للتنافس ، فى فنىَّ الهجاء والفخر ، لايشغل الشاعر فيه شعره بالحزب ، ولابالقبيلة ، بقدر مايشحذ فنه ، ويستلهم شياطين شعره ، ومواهب عبقريته للتفوق على منافسه ، أو منافسيه ، فى مجال الإبداع الشعرى ، والامتياز الفنى .

وهنا برز نوع من الخصومة بين طائفة من شعراء العصر ، لاهى بالخصومة السياسية ، ذات المقومات الحزبية التى عرفناها ، ولاهى بالخصومة القبلية الخالصة ، القائمة على مقتضيات العصبية القبلية ، وبواعثها وأهدافها المعروفة ، وإنما هى خصومة يتوارى فيها طابع العداوة الحادة ، والصراخ المحموم المتشنج ، والهوى المتعصب المندفع ، وغيرها من العواطف العنيفة التى تلاحظ فى الشعر السياسى والقبلى ، بكل مايعبر عنه من عنف السياسة والتعصب فى هذا العصر .

هى إذن منافسة أكثر منها خصومة ،ومنافسة فى جودة الفن ، لافى هوى السياسة ، أو علو المجد ، وشرف الانتماء القبلى ، وهى منافسة تقوم بين أفراد من الشعراء بحكم طبيعتها وهدفها ؛ ولذا أسميناها خصومة فردية .

ومن أشهر ثمار هذه المنافسة الفردية الفنية الأدبية ، ماعرف فى تاريخ الشعر العربى بنقائض جرير والفرزدق ،ونقائض جرير والأخطل ، وهذه النقائض هى عماد دراستنا لما أسميناه هنا بشعر الخصومات الفردية أو الأدبية .

— ٢ —

مالنقائض ؟

النقائض : جمع نقيضة ، وهى فى معجمات اللغة ، مأخوذة من النَّقْض فى البناء ، وهو الهدم ، وفى الحبل ، بمعنى حلُّه ، وفى العهد ، بمعنى عدم إبرامه ، وقيل : النقض : ضد الإبرام ، ويكون فى البناء والحبل والعهد ، قالوا : والمناقضة فى القول : أن يتكلم بما يتناقض معناه ، أى يتخالف ، وناقضه فى الشىء مناقضة ونقاضا : خالفه [١] .

والنقيضة فى باب الشعر ، بمعناها الذى استقرت عليه ، وانتهت إليه ، تعنى أن يقول شاعر قصيدة يهجو فيها شاعراً آخر ، طاعنا فيه وفى قومه ، ويفخر فيها بنفسه وبقومه ، فيجيبه الشاعر الآخر بقصيدة ، ناقضا ماجاء به الأول ــ أو كثيرا مما جاء به ــ

---

(١) انظر : القاموس المحيط (نقض) ٢ / ٣٤٧

من معان وصور » مضيفا إليها من جانبه مزيداً من الفخر والهجاء ، كل ذلك بقصد « أن يفسد على الأول معانيه ، فيردها عليه ، إن كانت هجاء ،ويزيد عليها مما يعرفه أو يخترعه ، وإن كانت فخراً كذبه فيها ، أو فسرها لصالحه هو ، أو وضع إزاءها مفاخر لنفسه وقومه » (١) .

وقد يتجاوز الشاعر الآخر الرد على أقوال الأول معنى معنى ، إلى الهجاء العام ، والفخر العام ، فيقوم النقض حينئذ على أساس المقابلة بين هجاء وهجاء ، وفخر وفخر .

وفى كل حال لاتكتسب قصيدة الشاعر الآخر اسم النقيضة إلا إذا التزم فى رده ، بالموضوع الذى عالجه الشاعر الأول ، وبالوزن الذى اختاره ، وبالقافية التى بنى عليها قصيدته ، وحينئذ تسمى قصيدته نقيضة بمعنى ، ناقضة ، وتسمى قصيدة الأول نقيضة ، بمعنى منقوضة « أى أن الأولى — فى ترتيب القول — فعيله بمعنى مفعولة ، والأخرى فعيلة ، بمعنى فاعلة .

وهنا نلاحظ اختلاف الموقف الإبداعى بين الشاعرين ، من حيث حرية اختيار الموضوع والوزن والقافية والمعانى ، والاحتشاد الانفعالى ، إذ يتوفر هذا كله للشاعر الأول ، بينما يجد الشاعر الآخر نفسه مضطرا إلى تقييد مواهبه بحدود الموضوع الذى فرض عليه ، وقدراته الفنية واللغوية ، بحدود الوزن والقافية ، اللذين عليه الالتزام بهما ، ولهذا كثيرا مانجد الأول أطول نَفَساً ، وأجود معنى وأقوى أسلوباً ، بحكم ماحظى به من حرية الاختيار ، وماأكره عليه الآخر من قيود ، جعلته أمام أمر واقع ، عليه أن يخوضه مكرها أو محرجا ، ومن ثم يقصر عن صاحبه .

ولاينبغى أن يفهم مما ذكرناه تفسيراً لمعنى النقيضة فى الشعر ، أن المناقضة تقتصر دائما على شاعرين ، بمعنى أن طرفيها لابد أن يكونا شاعرين فقط ، فقد يشترك فى الموقف الواحد للمناقضة أكثر من شاعرين ، فيرد على قصيدة الأول أكثر من شاعر ، أويرد على الراد رادّ آخر ، نرى هذا — مثلا — فى نقائض جرير مع غيره من الشعراء (٢) ، ونقائض حسان بن ثابت مع شعراء المشركين فى العهد النبوى (٣) .

---

(١) تاريخ النقائض (الشايب) ص ٣

(٢) قيل : بلغ عدد من ناقض جريراً من الشعراء وناقضهم ستة عشر شاعرا . انظر : تاريخ النقائض ٢٠٩ — ٢١٠ وانظر : الفهرست لابن النديم ٢٢٥

(٣) انظر : تاريخ النقائض ١٦ — ١٧

نخلص من تحديد معنى النقيضة الشعرية ، ومايتصل بهذا المعنى ، إلى أن الأصول الفنية التى يقوم عليها فن النقائض الشعرى أربعة :

١ ــ نقض المعانى ، وهو مناط النقائض ، ومحورها الذى عليه تدور ، والأصل العام الذى يقوم عليه نقض المعانى هو ، أن يعنى الشاعر الآخر بإفساد مايقرره الشاعر الأول ، فيكذِّب مايدعى ، أو يضع إزاءه مايقابله ، أو يقلل من شأنه وأهميته . وهذا الأصل جامع لطرق المناقضة ، التى اعتمدها شعراء النقائض . وهى : المخالفة فى التفسير ، كأن يتناول الشاعران حادثا أو موقفا واحداً ، كل يفسره بما يؤيد موقفه فى الفخر أو الهجاء .

فجرير يفخر بقيس عيلان ، ويراها جديرة بالثناء ، فعليها المعول فى النصرة ، والدفاع عن الحوزة ، والحفاظ على الأمجاد ، كما يفخر بقومه بنى يربوع ، ويراهم حماة تميم ، فى قوله [١] :

وإنىِّ من القوم الذين تعدُّهم   تميمٌ حُمـاةَ المأزق المتلاحـــم

وقوله :

وقيسٌ هم الفضلُ الذى نستعِدُّه   لفضل المساعى وابْتِناء المكارم
إذا حَدَبَتْ قيسٌ علىَّ وخِنْدِفٌ   بنوْا لى عادياً رفيـع الدعـائم
وقيس هم الكهف الذى نستعِدُّه   لدفع الأعادى أو لحمْل العظائم

فيتصدى له الفرزدق مفسراً موقفه من قيس بأنه موقف الدعىّ المرتزق ، الذى يتنكر لقومه ، فى سبيل نهزة يصيبها . أو كسبٍ تافه يلقى إليه به ، فيفقد بذلك انتماءه لقومه ، ولايلحق انتماءً بالآخرين [٢]:

فما أنت من قيسٍ فتنبح دُونها   ولا من تميمٍ فى الرءوسِ الأَعاظم
وإنكَ إذْ تهجو تميما وترتشى   تَبَابِينَ قيسٍ أو سُحُوقَ العمائم

---

(١) ديوانه ٥٥٥ ، ٥٦٢

(٢) ديوانه ٢ / ٣١٣ ــ ٣١٤ (بيروت) . التبابين : سراويل قصيرة يلبسها النوتية ، واحدها : تبان . السُّحوق : البالية ، مفردها : سحق ، وكذا الدرسان

كمُهْرِيق ماءٍ بالفلاة وغرَّه سَرابٌ أثارْته رياحُ السمائم
أنا ابن تميم والمحامى وراءها إذا أسْلَمَ الجانى ذِمارَ المحارم
أدِرْسَانَ قيسٍ لأبالك تشترى بأعراض قومٍ هم بناةُ المكارم

ومن طرق مناقضة المعانى إظهار الادعاء والكذب فيها ، كالذى فعله العباس بن يزيد الكندى (١) ، حينما هجا جرير الراعىَ النميرىَّ ، فى قصيدته التى مطلعها (٢) :

أقلِّى اللومَ عاذل والعِتابا وقُولى إنْ أصبتُ لقد أصابا

والتى يقول فيها :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبتَ الناس كلُّهمُ غِضَابا

فقد رد عليه العباس ، مكذبا هذا المعنى ، قائلا (٣) :

لقد رغمتْ أنوفُ بنى تميمٍ فسُاة التمر أن كانوا غضابا
لقد غضبتْ عليك بنو تميم فما نَكأتْ بغضبتها ذُبابا

ومن هذه الطرق أيضا مقابلة المعنى بنظيره ، كأن يفخر الشاعر الأول بموقف مشرف له أو لقومه ، فيأتى الآخر بموقف له أو لقومه يقابله فى المجد والشرف ، وكثيرا مايلجأ شعراء النقائض إلى هذا الأسلوب فى المناقضة ، فى مواطن الفخر أو الهجاء بالأيام ، فيورد الأول يوما لقومه علوْا فيه أعداءهم ، فيرد الآخر بيوم لقومه مماثل فى المجد والشرف ، أو العكس فى مقام الهجاء (٤) .

وقد يعمد الشاعر الناقض إلى قلب معانى صاحبه ، ويردها عليه ، بأن يقلب فخر خصمه هجاء ، وينسب الفخر لنفسه وقبيله ، فحين قتل وكيعُ بن حسان التميمى ، قتيبة بن مسلم الباهلى القيسى ، قال الفرزدق ، مفتخرا (٥) :

فِدًى لسيوفٍ من تميم وَفَى بها رِدَائى وجلَّت عن وجوه الأهاتم
شَفَيْنَ حزازاتِ النُّفوس ولم تدَعْ علينا مقالا فى وفاءٍ لِلائم
أبَانَا بِهم قتلى ومافى دمائهم وفاءٌ وهُنَّ الشافيات الحوائم

---

(١) شاعر كندى هاجى جريرا منتصرا لبنى نمير ، فشكاه جرير إلى قومه وأعذر ، فلم ينته ، حتى بحث جرير عن مثالبه فهجاه بها فأسكته . انظر : ديوان جرير ٦٠

(٢) ديوانه ٦٤ — ٨٠

(٣) الأغانى ٢٠ / ١٧٢ — ١٧٣

(٤) انظر أمثلة لهذا الأسلوب فى : تاريخ النقائض ٢٤ — ٢٥

(٥) ديوانه ٢ / ٣١٠ (بيروت) وانظر ص ٢٠٠ من هذه الدراسة .

تصدى جرير لهذا الفخر ، فجرد الفرزدق من حق الافتخار بهذا المعنى ، لأن وكيعاً ليس من بنى مجاشع ، قال : [١]

فغيْرك أدَّى للخليفة عهدَهُ   وغيرُكَ جلَّى عن وجوه الأهاتم
فإنَّ وكيعاً حين خارتْ مُجاشِعٌ   كفى شَعْبَ صَدْعِ الفتنةِ المتفاقِم
لقد كنتَ فيها يافرزدقُ تابعاً   وَرِيُش الذُّنابَى تابعٌ للقوادم

٢ــ وحدة الموضوع : فعلى الشاعر الناقض أن يعالج فى نقيضته الموضوع نفسه ، الذى عالجه خصمه ، بحيث يتفقان ، فخرا ، أو هجاء ، أوهما معا ، أو سياسة ، أو نسيبا ، أو رثاء [٢] ، إذ كان الموضوع هو مجال المناقشة ، ومادة النقائض .

٣ــ وحدة الوزن الموسيقى (البحر العروضى) ؛ إذ هو الشكل الموسيقى ، الذى يجمع بين النقيضتين ، ويجذب إليه الشاعر الناقض ، بعد أن يختاره الشاعر الأول ، ثم هو إطار فنى ، ومظهر من مظاهر القدرة الشعرية ، على الشاعر الناقض ، أن يقبل المنافسة فيه أيضا ، والناقض الفحل هو الذى يبدع من خلال هذا الإطار ، ويتفوق على صاحبه ، على الرغم من أن الشكل الموسيقى مفروض عليه ، ليس مختارا فيه .

٤ــ وحدة القافية : باعتبارها من اللوازم الموسيقية المتكررة التى ارتضاها الشاعر الأول ، واختارها نغمة موسيقية تظهر جانبا من براعته ، وقدرته الفنية ، فدخلت بذلك مجال المنافسة بين الشاعرين ، كتتمة للتنسيق الوزنى ، وجزء من النظام الموسيقى العام للمناقضة .

هذه القواعد الفنية للمناقضة التزم بها جميعا شعراء النقائض فى العصر الأموى ، عن إدراك تام منهم لهذا الفن وقواعده ، يدل على هذا قول عقال بن هاشم ، مناقضا ابن مَيَّادة ، فيما كان بين اليمن ومضر من ملاحاة ، أيام الوليد بن يزيد ، إذ قال ابن ميّادة الرَّماح بن أَبْرَد [٣] :

---

(١) ديوانه ٥٦١
(٢) راجع فى نماذج من نقائض هذه الفنون : تاريخ النقائض ١٢ ــ ١٥
(٣) الأغانى ٢ / ٨٦ والرماح من بنى ذبيان ، قيسى مضرىّ انظر ترجمته ص ٢٨٢ هامش (٨) من هذه الدراسة ، بينما صاحبه من اليمنية .

فَجَرْنا ينابيعَ الكلام وَبَحْرهُ فأصبح فيه ذو الروِيَّة يَسْبَحُ
وما الشعرُ إلا شعر قيسٍ وخِنْدِفٍ وقولُ سواهم كُلفَةٌ وتمَلُّح

فرد عليه عقال قائلا :

أَلَا أَبْلغ الرَّماحَ نَقْضَ مقالةٍ بها خَطَل الرِّماح أو كان يَمْزَحُ
لئن كان فى قَيْسٍ وخِنِدفَ أَلْسُنٌ طِوالٌ وشعرٌ سائر ليس يُقْدَحُ
لقد خَرَّق الحىُّ اليمانون قبلهم بحورَ الكلام تُستَقى وهى تطفَحُ

فقوله : « نقض مقالة » دليل وعى بهذا الفن وأصوله .

— ٣ —

متى نشأ هذا الفن وتطور ؟

النقائض بالمعنى الذى ذكرناه ، لاترجع فى نشأتها وتطورها إلى العصر الأموى وحده ، فقد كانت فنا شعريا معروفا — إلى حد ما — فى العصر الجاهلى .

فقد اقتضى الخلاف بين القبائل فى الجاهلية ، أن يتعصب الشعراء لقبائلهم ، وكثيرا مانجد شاعراً ينتصر لقومه ، أو أحلافهم ، فيرد عليه شاعر من القبيلة المعادية ، وينقض معانيه ، معتمديْن على الفخر أو الهجاء ، أو عليه معا .

ولم تكن هذه الأشعار فى أول أمرها تأخذ صورة النقائض بكل أصولها وعناصرها ، وشرائطها الفنية ، فذلك ماتأباه سنة النشوء والتطور ، بل نجد منها مايأخذ صورة الرد ، الذى لايتقيد بأصول المناقضة . كقول امرىء القيس متوعدا بنى أسد ؛ لقتلهم أباه حُجْراً (١) :

والله لايذهب شيخى باطلا حتى أُبير مالكاً وكاهِلَا
القاتلين الملك الحُلاحِلا خيرُ مَعَدٍّ حسباً ونائلا
ياهفَ هندٍ إذْ خطِئْن كاهلا نحن جلبنا القُرَّح القوافلا
يَحْملننا والأَسَلَ النّواهلا مستفْرِمات بالحصى جوافلا
تستثفِرُ الأواخرُ الأوائلا فصرتُ فيهم غانماً وقاتلا

(١) ديوانه ١٣٤ — ١٣٥

فرد عليه عبيد بن الأبرص شاعر بنى أسد : [١]

يَاذَا المخوِّفنا بقتـ ـلِ أبيه إذْلالاً وَحيْنَا
أزعمت أنك قدقتلْـ ـتَ سَراتنا كذِباً ومَيْناَ
لَوْمَا على حُجْرِ بن أُمِّ قطام تبكى لا علينا

فهذا رد ساذج ، ليس فيه من أصول فن المناقضة إلا إبطال بعض معانى الشاعر الأول .

ثم يتطور هذا الفن قليلا ، فتحقق فيه بعض قواعد المناقضة دون بعض : من ذلك ماكان بين عامر بن الطُّفيل ، وزيد الخيل ، فقد خرج رجل من طيىء (قوم زيد) اسمه دؤاب إلى صهرٍ له فى هوازن ، فأصيب ، فأغار زيد على بنى عامر ، ثم رجع إلى قومه ، ولم يشتف ، فقالوا : ماصنعت ؟ فقال : ماأصبتُ بثأر دؤاب ، ولاينوء به إلا عامر ابن مالك ملاعب الأسنة ، فأما ابن الطفيل فلا يبوء به ، وأنشأ يقول [٢] :

لاأرى أنّ بالقتيل قتيلاً عامريًّا يفى بقتْل دُؤاب
عامرٌ ليس عامرَ بن طُفيل لكن العُمْرَ رأس حَىٍّ كلاب
ذاك إن ألقه أنال به الوِتْـ ـرَ وقرّتْ به عيون الصِّحاب

فرد عليه عامر بقوله :

قلْ لزيدٍ قد كنتَ تؤثر بالحِلْـ ـمِ إذا سُفِّهت حلوم الرجال
ليس هذا القتيل من سلف الحَىِّ كُلاعٍ ويَحْصُبٍ وكُلال
أو بنى آكلُ المرار ولاصيـ ـدِ بنى جفنة الملوك الطوال
إن فى قتل عامر بن طفيل لبواءٌ لطيِّىء الأجيال

فقد نقض عامر معانى زيد ، بالحط من شأن القتيل ، وعظم نفسه ، بأن وضعها بإزاء طيىء كلها ، والتزم وحدة الموضوع ، ووحدة الوزن (بحر الخفيف) وأهمل وحدة القافية .

---

(١) ديوانه ١٣٦ (الحلبى)
(٢) الأغانى ١٦ / ٥٢

ولاينقضى العصر الجاهلى حتى تصل النقائض إلى صورتها الكاملة ، وتستوفى كل القواعد والأصول الفنية اللازمة لفن المناقضة .

ونضرب مثلا لهذه الصورة المتطورة ، ماكان بين طريف بن تميم العنبرى ، وبنى ربيعة بن ذهل بن شيبان البكريين :

فيروى أن طريفا قتل أحد بنى ربيعة هؤلاء ، وكان الفرسان إذا كانت أيام عكاظ فى الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضا تقنعوا كى لايعرفوا ، أما طريف فكان لايتقنع ، فمر به أحد بنى ربيعة فى سوق عكاظ وأخذ يتفرسه ، ففطن له طريف ، وقال [(١)] :

أَوَ كُلَّماَ وردتْ عكاظ قبيلةٌ   بعثوا إلىّ عريفهَم يتــوسَّمُ
فتوسمونى إننـى أنـا ذلكـــم   شاكي سلاحى فى الحوادث مُعْلَم
تحتى الأغرَ وفوق جلدى نثرةٌ   زغفٌ ترد السيف وهو مُثلَّم
حولى أسيـدٌ والهُجيـمْ ومـازن   وإذا حللتُ فحول بيتى خضّم

ثم التقى الفريقان فى يوم مبايض ، وكان للبكريين على التميمين ، وفيه قتل طريف قتله حمصيصة الشيبانى ، ورد قوله السابق قائلا :

ولقد دعوتَ طريفَ دعوةَ جاهلٍ   سَفَهاً وأنت بمُعلَمٍ قد تعلم
وأتيت حيّا فى الحروب محلهم   والجيش باسم أبيهم يستقـدم
فوجدتَ قوما يمنعون ذمارهـم   بُسْلاً إذا هاب الفوارس أقدموا
وإذا دعَوت بنى ربيعـة شمروا   بكتائب دون السمـاء تَلملـمُ
حشدوا عليك وعجّلوا بقراهم   وحموْا ذمارَ أبيهمُ أنْ يُشتَمـوا

فقد سخر من تحدى طريف الأبطال ، ورد عل فخره بقومه ، بفخر مقابل ببنى ربيعة ، وراعى فى هذا الرد كل الأصول الفنية للمناقضة ، من وحدة الموضوع (الفخر) ونقض المعانى ، ووحدة الوزن (بحر الكامل) ووحدة القافية .

وعلى ضوء هذه النماذج ،وغيرها ، مما هو مبثوث فى ثنايا المصادر ، التى تتحدث عن أيام العرب فى الجاهلية ، وأخبارها وأشعارها ، نستطيع أن نقف عى الملامح الفنية لمرحلة نشأة النقائض الشعرية ، وتطورها فى العصر الجاهلى :

---

(١) العقد الفريد ٣ / ٣٤٤ ــ ٣٤٥ .

١ــ قامت أولا على نقض المعانى ، دون وحدة الوزن والقافية ، ثم تطورت فقامت على الاتحاد الموضوعى والمعنوى والموسيقى ، فتمت بذلك قواعدها المعروفة .

٢ــ أهم فنونها الفخر والهجاء ، ومادتها تدور حول مقومات الحياة الجاهلية ، كالأيام ، والأنساب ، والأحساب ، والاعتراف بالظلم والعدوان ، والفضائل الاجتماعية ، التى أقرتها هذه الحياة ، كالفخر بالكرم ، والشجاعة ، والنجدة ، وكثرة العدد ، والسيادة ، والمروءة ، والهجاء بضد ذلك ، كل ذلك فى إطار العصبية القبيلية ، وفى سبيل القبيلة ؛ ولذا لم تختلف فنيا عن غيرها من الشعر القبلى ، إلا من حيث أخذها بالأصول المقررة لفن المناقضات .

٣ــ بعدها عن الإسفاف والفحش ، وتناول الأعراض فى الهجاء ، فهى تقف ، غالبا ، عند صفات الجبن ، والبخل ، والفرار ، وتعف عن ذكر العورات ، والكلمات النابية المكشوفة .

٤ــ لم يشغل الجاهليون كثيرا بهذا اللون من الشكل الشعرى ، ولم يلتزموه فى منازعاتهم الشعرية القبلية ، بل كانوا يقبلون عليه من حين إلى آخر ، وفى الفترة بعد الفترة ، فلم يكن التباعد بين القبائل والشعراء ليتيح الفرصة لانتظام هذا الفن بين شعرائهم .

ومن هنا لانعثر بهذا اللون من الشعر إلا قليلا ، وعقب الأيام والحروب ، فوراء كل يوم ، وكل حرب ، نجد قطعا متبادلة (قصيرة غالبا) بين الفئتين المتقاتلتين ، ثم تزم الألسنة ، كما تزم السيوف ، وكأن شيئا لم يحدث [١] » .

وجاء الإسلام ، فوجد هذا الفن كامل الاداة ، فاعتمد عليه شعراؤه ، وبخاصة فيما حدث من نزاع بين شعراء المدينة ، وشعر مكة ، أو شعراء المعسكرين الدينيين فى عهد النبى ﷺ .

وعلى الرغم من أن النقائض أيام الرسول تعد امتداد للنقائض الجاهلية [٢] ، فإن تغيرا غير يسير قد أصابها فى عهد النبوة ، على ألسنة شعراء المسلمين ، بخاصة من حيث الغاية والأسلوب ، وبعض المعانى والألفاظ أيضا .

---

(١) التطور والتجديد ١٧٨ .

(٢) انظر تعليل ذلك فى كتابنا : الأدب فى عصر النبوة والراشدين ٢٧٤

فمن حيث الغاية : كانت النقائض الإسلامية ، من جانب شعراء المسلمين ، دفاعاً عن عقيدة عامة ، ومبادىء إنسانية ونهضة شاملة ، بعد أن كانت تعبيرا عن أغراض قبلية ، ضيقة الأفق فى الشعر الجاهلى .

ومن حيث المعنى والعبارة عنه ، تسربت بعض المعانى والألفاظ الإسلامية إلى نماذج منها ، تدور حول الكفر والإسلام ، والهدى والضلال ، والبعث ، والثواب ، والجنة والنار ... وغيرها ، وأكثر مانقف على هذه المعانى والألفاظ فى نقائض عبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك (١) ، أما شعراء المشركين فنقائضهم لاتفترق عن النقائض الجاهلية فى معانيها ولغتها ، وإن اختلفت عنها فى الغاية ، من حيث أنها كانت دفاعا عن نظام حياة عامة ، لاعن قبيلة بعينها ، كما خلت نقائض الفريقين ــ تقريبا ــ من الفحش والإسفاف .

ومن حيث الأسلوب : لم تكن النقائض الإسلامية على مستوى واحد من الجودة فى الأساليب ، فمنها مايتمتع بأسلوب قوى جزل ، يحكى أسلوب الشعر الجاهلى فى اللفظ والعبارة والتركيب ، ومنها مايتسم أسلوبه بالضعف والاضطراب ؛ إذ كانت الشاعرية القرشية حديثة (٢) ، كما أن شعراء الفريقين كانوا يقتحمون ميدانا جديدا من القول ، بالانتصار لدعوة جديدة ، أو مناهضتها ، مما يحوجهم إلى دربة ومران طويلين (٣) .

ونكتفى هنا بنموذج من النقائض الإسلامية ، ليكون بمثابة شاهد بمدى التقارب بينها وبين النقائض الجاهلية ، موضوعا ومعنى من جهة ، وتأثر بعضها بعناصر إسلامية من جهة أخرى .

قال عبد الله بن الزِّبَعْرَى يثنى على قريش وأحلافها يوم الخندق (٤) :

---

(١) انظر : المصدر السابق ٢٨١ ، ٢٨٥

(٢) انظر فى أسباب ذلك المصدر السابق ٢٣٨ ، ٢٥٠ ــ ٢٥١

(٣) انظر دراسة مفصله للنقائض الإسلامية فى المصدر السابق ٢٧٤ ومابعدها

(٤) السيرة النبوية (سيرة ابن هشام) ٢ / ٢٥٧ وانظر تعليقنا على قول ابن الزبعرى فى : الأدب فى عهد النبوة ٢٨٩ ــ ٢٩٠

حىٍّ الديار مَحَا معارفَ رسمها　　طولُ البلى وتراوحُ الأحقاب
فكأنّما كتب اليهودُ رسومها　　إلا الكنيفَ ومَعْقد الأطْناب
قفراً كأنك لم تكن تلهو بها　　فى نعمة بأوانس أتراب
فاترك تذكر مامضى من عيشةٍ　　ومَحِلةٍ خَلَقِ المُقام يَبابِ
واذكر بلاءَ معاشرٍ واشكرهم　　ساروا بأجمعهم من الأنصاب
أنصاب مكةَ عامدين ليثرب　　فى ذى غياطل جحفلٍ جبجاب ...
حتى إذا وردوا المدينة وارتَدوا　　للموت كل مجرَّب قضّاب
شهر وشهراً قاهرين محمداً　　وصحابُه فى الحرب خيرُ صَحَابِ
نادوا برحلتهم صبيحة قلتم　　كدنا نكون بها مع الخُيّاّب
لولا الخنادق غادروا من جمعهم　　قتلى لطيرٍ سُغَّبٍ وذئاب

فابن الزبعرى يقص خروج قريش وأحلافها من مكة ، فى جيش كثيف على رأسه قائدان عظيمان : عيينة بن حصن الفزارى على الأحلاف ، وأبو سفيان بن حرب القائد الأعلى للأحزاب ، وكيف حاصرت الأحزاب المدينة أربعين يوما ، وأنزلت الرعب فى قلوب أهلها ، وأنه لولا الخندق لألحقوا الهزيمة النكراء بالمسلمين .

ونهض حسان بن ثابت للرد عليه بقصيدة ، منها قوله : (١)

هلْ رسم دارسة المُقام يَبابِ　　متكلم لمُحاورٍ بجواب
قفر عفارِهَمُ السحاب رسومه　　وهبوبُ كل مُطِلَّةٍ مِرْباب
ولقد رأيت بها الحُلولَ يزينهم　　بيض الوجوه ثواقَب الأحساب
فدع الديارَ وذكر كل خَرِيدةٍ　　بيضاءَ آنِسَةِ الحديث كَعَابِ
واشْكُ الهموم إلى الإله وماترى　　من معشرٍ ظلموا الرسول غِضاب
ساروا بأجمعهم إليه وألَّبُوا　　أهلَ القُرى وبوادىَ الأعراب
جيشٌ عُيَيْنَة وابن حربٍ فيهم　　مُتخمطين بحلية الأحزاب

---

(١) ديوانه ١١ والسيرة ٢ / ٢٥٨

حتى إذا وردوا المدينة وارتجوا قتل النبى ومَغنم الأسلاب
وغَدَوا علينا قادرين بأيدهم رُدّوا بغيظهُم على الأعقاب
فكفى الإلهُ المؤمنين قتالَهم وأثابهم فى الأجْر خيرَ ثواب

وحسّان ينظر فى البيتين الأخيرين إلى بعض آى القرآن الكريم ، ومنها قوله تعالى فى سورة الأحزاب [1] : « وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال » ، ومع ذلك فهو جاهلى المطلع ، كما هو واضح .

ثم يأتى العصر الأموى ، فيصيب فن النقائض الشعرية حظا وافراً من التطور والازدهار والذيوع ، يصل به إلى قمة النضج ، فقد وفرت له ظروف العصر السياسية والاجتماعية بيئة مهيأة لتقبله ، والإقبال عليه ، والإكثار منه ، والفنون ، بعامة ، إنما تجود وتنضج وتزدهر إذا وفرت لها البيئة دواعيها ، واقتضتها ظروفها وتقبلتها أذواقها ، وقد تهيأ هذا كله لفن النقائض الشعرية فى العصر الأموى .

فلقد ظلل الصراع السياسى سماء هذا العصر ، وتضاربت أهواء الأحزاب السياسية ، واتخذت من الشعر لسان دعاية ، فتوزع الشعراء على الأحزاب ، وتنافسوا فى خدمتها ، والتعبير عن أغراضها ، مخلصين حينا ، أو طامعين أحيانا ، وقد رأينا كيف كان شعراء بنى أمية خاصة ، يتنافسون فى اكتساب الحظوة عند حكامهم ، وينتهزون الفرصة فى التقرب إليهم ، طامعين فى عطاياهم ، متحاسدين على هباتهم .

كما تجاورت القبائل وشعراؤها فى المدن الإسلامية ، وبخاصة فى البصرة والكوفة بالعراق ، واصطف شعراء القبائل متواجهين ، يتبارون فى الزود عن عصبياتهم القبلية ، وألهب تقارب الشعراء ، أو مواجهة بعضهم بعضا ، حماسهم ، وحماس الجماهير المؤيدة لهم ، فانطلق الشعر من عقاله ، وعاود الشعراء شياطينهم ، فكثر الشعر ، وتشعبت ميادينه .

هذا فضلا عما كان يتمتع به الشعراء فى هذا العصر ، من حرية مطلقة فى التعبير عن العصبية القبلية ، التى عملت سياسة بنى أمية ، إزاء القبائل ، على إحيائها ، وإذكاء نارها .

---

(١) ٣٣ / ٢٥

كان لذلك ولغيره ، مما سبقت الإشارة إليه فى مقدمة هذه الدراسة [١] ، أكبر الفضل فى إغراء كثير من شعراء هذا العصر بالانغماس فى معارضة بعضهم بعضا ، فى فنّى الهجاء والفخر .

وكان للنجاح الذى أحرزه كل من جرير والفرزدق والأخطل ، والشهرة التى نالوها ، بفضل فنهم فى النقائض ، وتطلع جماهير العصر إلى المزيد من هذا الفن ، كان له أثره فى محاكاة غيرهم من الشعراء لأسلوبهم الشعرى القائم على المناقضة ، ففشا الصراع الأدبى ، أو المنافسة الفنية ، بين الشعراء ، على نحو لم يكن مألوفاً من قبل .

ولن نتعرض هنا لما كان من النقائض دائراً فى فلك السياسة الخالصة ، أو راتعا بين أحضان العصبية القبلية ، منبعثا عنهما ، خادما لأغراضهما ، قاصراً جهوده عليهما .

ذلك أن الخصومة فى النقائض الأولى سياسية ، مدارها الحزب ، وفى الأخرى قبلية محورها القبيلة ، والشاعر فيهما مشغول عن نفسه بالحزب أو القبيلة ، فهما من قبيل مامر من الشعر السياسى والقبلى ، لاتفترق عنه إلا فى التزامها بأصول فن المناقضة ، وهذا الالتزام لايمنحها تمايزا يذكر عن خصائص الشعر السياسى ، أو القبلى .

إنما نهتم هنا بذلك النوع من النقائض ، الذى يلتفت الشاعر فيه — أولا وقبل كل اعتبار آخر — إلى نفسه ، ويهتم بفنه ، وفن منافسه من الشعراء ، وقد يأتى فيه ذكر القبيلة ، بمثابة تأكيد لفخر الشاعر بنفسه ، أو للإمعان فى الحط من قدر منافسه ، لأن هذا هو الفن الذى اشتهر فى العصر الأموى ، وتعاوره كثير من شعرائه ، وكانت قمة اكتماله ونضجه على يد فحول هذا العصر ، وفى مقدمتهم الثلاثة الفحول : جرير والفرزدق والأخطل .

— ٤ —

ماموقف شعراء العصر من هذا الأسلوب الشعر ؟

قلنا إن الحياة فى العصر الأموى ساعدت على تهيئة كثير من بواعث شعر الخصومات المتعددة ، وإن الكثرة الغالبة من شعراء هذا العصر كانت لهم مشاركات فى

---

(١) راجع ص ٥٢ — ٥٦

ميادين هذا الصراع ، فقلما نجد شاعراً عاش فى العصر الأموى ، ولم يسهم بشعره ـــ إن قليلا أو كثيرا ـــ فى جبهة أو أكثر من جبهات الخصومة ، فشبت حرب كلامية ، بين الشعراء لاتقل حماسا واندفاعا عن الحروب الدموية بين الأبطال والفرسان والأعوان فى ميادين القتال ، تطايرت فيها سهام الشعر من كل جانب ، وشغل الناس بهذه الحرب الكلامية ، كما شغلوا بالحرب القتالية ، وشجعوا الشعراء فى ميدان القريض ، كما شجعوا الأبطال والفرسان فى ميادين القتال ، وبذا كثر الشعر ، وغزرت مادته ، وتنوعت .

وآثرت طائفة من الشعراء أن تصب نشاطها الشعرى ، فى مختلف هذه الاتجاهات فى قوالب خاصة ، هى التى عرفت بالنقائض الشعرية .

غير أن شعراء هذا العصر لم يكونوا سواء فى إقبالهم على هذا الأسلوب الشعرى ، إذ لايعنى كثرة نماذجه ، وكثرة الشعراء الذين اصطنعوه ، أن كل شاعر عبر فيه قد أكثر منه ، أو التزمه فى أكثر شعره ، أو فى كثير منه ، وإنما يرجع كثرة ماخلفه شعراء العصر من هذا الأسلوب الشعرى ، إلى كثرة الشعراء ، لا إلى إكثار كل هؤلاء الشعراء من النظم فيه .

ويمكن القول بأن شعراء العصر الأموى بالنسبة لإقبالهم على فن النقائض فريقان :

(١) فريق انخرط فى مناقضات ارتبطت بمناسبات قليلة مرت بحياتهم ، متناثرة بين أحداث هذه الحياة ، ولكنهم لم يقفوا عندها طويلا ، ولم يلتزموا أسلوبها كثيرا ، ومن ثم لم يشتهروا بهذا الأسلوب ، ولم يفرغوا أكثر شعرهم فيه ، وإنما جرت المناقضة على ألسنتهم من حين لآخر ، دون أن يتخذوها قالبا شعريا غالبا لشعرهم ، ومناقضات هذا الصنف من شعراء العصر الأموى ، هى التى يمكن أن نطلق عليها المناقضات العامة ، التى لم يشتهر بها شاعر دون آخر .

وهناك أسماء عديدة لشعراء هذا النوع من النقائض ، بحيث يتعذر حصرهم ، لصعوبة تتبع نتاجهم فى هذا المجال ، وتناثره بين طيات المصادر العربية القديمة ، وندرة من عرف له ديوان شعر منهم .

من هؤلاء : هدبة بن خشرم العذرى القضاعى ، مع زيادة بن زيد الرَّقاشى العذرى

القضاعى (١) ،وحارثه بن بدر اليربوعى ، مع أنس بن زُنيم الليثى (٢) ، والمغيرة بن حبناء مع أخيه صخر (٣) ، وهما تميميان ـــ ، وأرطاة بن سهية المرى الغطفانى (٤) مع زُمَّيْل بن أُبير (٥) الفزارى ، وسَلْمان العْجِلى ، مع الأُبيرد الرياحى اليربوعى (٦) ، وخالد بن علقمة الدارمى ، مع سويد بن كراع العُكْلى (٧) ... وغيرهم .

ونكتفى ببعض نماذج من نقائض هذا الفريق من الشعراء :

هاج الشرّ بين ابن ميادة المرى (٨) ، والحكم بن معمر (٩) الخضرى (١٠) ، وكان

---

(١) قتل هدبة زيادة بن زيد فحبسه الخليفة عثمان ، حتى أدرك المسور بن زيادة ، وأصر على القود من هدبة ، فقتله المسور صبراً أيام الخليفة معاوية . انظر : سمط اللآلى ١ / ٢٤٩ ، ٢ / ٦٣٩ ، وفى المناقضة بينهما انظر : الأغانى ٢١ / ١٧١ ـــ ١٧٢

(٢) انظر الأغانى ٢١ / ١٥ ـــ ١٦

(٣) الأغانى ١١ / ١٦٢

(٤) أبو الوليد أرطاة بن سهية ، نسب لأمه ، وهو شاعر إسلامى عاش فى صدر الإسلام ، وأدرك خلافة عبد الملك بن مروان ، وقال له عبد الملك : هل تقول اليوم شعرا ؟ فقال : كيف أقول وأنا لاأشرب ولاأطرب ولاأغضب ، وإنما يكون الشعر بواحدة من هذه ، وكان شريفا فى قومه جوادا . انظر : الأغانى ١١ / ١٣٤ والشعر والشعراء ٢٠٥ وألقاب الشعراء ٣٠٨ والأشتقاق ٢٩٠

(٥) هو من بنى مازن بن فزارة ، شاعر من مخضرمى الجاهلية والإسلام ، قتل سالم بن دارة فى خلافة عثمان ، وأخباره وأشعاره قليلة . انظر : خزانة الأدب ١ / ٢٩٣ وسمط اللآلى ٢ / ٦٨٨ ، ٧٨٩ ، وأسماء المغتالين ، لابن حبيب ١٥٦ ـــ ١٥٧ ، والمناقضة بينهما فى الأغانى ١١ / ١٣٧

(٦) الأُبيرد الرياحى اليربوعى التميمى ، شاعر بدوى فصيح مقل من مخضرمى الجاهلية والإسلام ، قيل : عاش مائة وعشرين سنة . انظر : المعمرُون ٧٥ والأغانى ١٢ / ٩ والاشتقاق ٢٢١ والمناقضة فى والأغانى ١٢ / ١٠

(٧) شاعر جاهلى إسلامى ، كان هجا قومه فاستعدوا عليه الخليفة عثمان فتوعده إن عاد . انظر الأغانى ١١ / ١٢١ والشعر والشعراء ٢٤١

(٨) أبو حرملة الرماح بن أبرد من بنى مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان ، وميادة أمه ، شاعر محسن متأخر من مخضرمى الدولتين انظر : الأغانى ٢ / ٨٥ وسمط للآلى ١ / ٦ ٣٠ والشعر والشعراء ٢٩٨ ومعجم الشعراء ٣١٩ وله شعر فى التذكرة السعدية ٢٦

(٩) الحكم بن معمر الخضرى ،خضر محارب ـــ بن قنبر . قال الأصمعى : ختم الشعر بابن ميادة وحكم الخضرى وابن هرمة ، وطفيل الكنانى ومكين العذرى ، انظر ترجمته وأخباره فى : الأغانى ٢ / ٨٧ وسمط اللآلى ٢ / ١٦ ومعجم الأدباء ٤ / ١٢٨ وله شعر فى التذكرة السعدية ٤٦١

(١٠) بنو الخضر من محارب ، سموا بذلك لسوادهم ، وكانوا يفخرون به ، والسود عند العرب الخضْر (رسائل الجاحظ ١ / ٢٠٧)

سبب ذلك أن الحكم وقف ينشد بمصلى المدينة (موضع فى عقيق المدينة) قصيدته فى وصف الغيث ، فمر به ابن ميادة ، فوقف عليه يسمع ، حتى انتهى إلى قوله :

ياصاحبىّ ألم تشيما عارِضاً نُصِح الصُّرادُ به فهضْبُ المنخَرِ
ركب البلاد وظل ينهض مصعَداً نهضَ المقيَّد فى الدَّهاس الموقر

فحسده ابن ميادة فقال : أدهشت وأوقرت ، لاأم لك ، فمن أنت ؟ قال : أنا الحكم الخضرى قال : والله مأأنت فى بيت نسبٍ ولا أرومة شعر ، قال الحكم : قد قلت ماقلت ، فمن أنت ؟ قال ابن ميادة ، قال قبح الله والدين خيرهما ميادة ، لوكان فى أبيك خير ماانتسبت إلى أمك ... فتهاجيا على إثر ذلك [١] .

ومن أهاجيهما ، قول الحكم يسخر من ابن ميادة وقومه بنى مرة بن عوف : [٢]

فيامُرَّ قد أخزاكِ فى كل موطنٍ من اللُّؤم خَلَّاتٌ يزدْنَ على عَشْر
فمنهن أن العبد حامى ذِمارِكم وبئس المحامى العبد عن حوزة الثغر
ومنهنَّ انْ لم تمسحوا وجه سابقٍ جوادٍ ولم تأتوا حَصَاناً على طُهرْ
ومنهنّ أن الميْتَ يدُفن منكم فيفْسُوا على دَفاّنه وهْو فى القبرَ
ومنهنّ أن الجار يسكنُ وسْطكم بريئا فيُلقىَ بالخيانة والغدر
ومنهنّ أن الشيخ يوجَد منكم يدِبُّ إلى الجارات محدودبَ الظهر

فناقضه ابن ميادة ، رادًّا على ماسبه وسب قومه به ، مقابلا ماذكر من خصال السوء لبنى مرة ، بخصال سوء تناظرها لبنى محارب ، قال :

لقد سبقت بالمخزيات محاربٌ وفازتْ بِخَلّاتٍ على قومها عَشْرِ
فمنهنّ أنْ لَمْ تَعْقِروا ذات ذِروةٍ لحق إذا مااحْتيجَ يوماً إلى العَقْرِ
ومنهنّ أنْ كانت شيوخ محاربٍ كما قد علمتم لاتَرِيشُ ولاتَبْرِى
ومنهنّ أنَّ الضأْن كانت نساؤكم [٣] إذا اخضرّ أطرافُ الثُّمام من القَطْرِ
ومنهنّ أن لو كان فى البحر بعضُكمُ لخبَّثَ ضاحى جلده حومةَ البَحْرِ

---

(١) الموشح ١ / ٢٢ . نصح : يقال : نصح المطرُ البلد : سقاه .الصراد : موضع
(٢) الأغانى ٢ / ١٠٠
(٣) ذكر الجاحظ أن بنى كليب قوم جرير كانوا يرمون بإتيان الضأن ، وأن بنى الأعرج ، وسُليم ، وأشجع ، ترمى بإتيان المَعْز (انظر : رسائل الجاحظ ١ / ١٨٩) .

فالهجاء هنا قائم على سلب بعض الفضائل التى يعتزبها العربى ، كالكرم ، والمروءة ، وحماية الذمار ، والشجاعة ، والوفاء ، والعفة ... وغيرها ، وهو من هذه الناحية كالهجاء الجاهلى ، غير أن كلا من الشاعرين لم يقف عند هذا الحد من الهجاء ، بل انزلق إلى الفحش والتعريض بالأعراض ، والاعتماد فى ذلك على العبارات المسفة البذيئة ، والمعانى المكشوفة ، التى يُستَحى من ذكرها ، وقد أعرضنا عن بعضها فلم نورده .

وهذا النموذج يعكس لونين من تطور النقائض ، لم يعرفهما فن الهجاء النقائضى قبل هذا العصر .

أحدهما : هذا الإفحاش فى الهجاء ، والإسفاف فيه ، والبذاءة فى العبارة .

والآخر: طابع السخرية والتهكم الذى يثير الضحك ، وهو ظاهر فيما قصد إليه كل من الشاعرين ، من رسم صور هزلية (كاريكاتورية) ، نعتقد أنه ماقصد بها إلا إلى إثارة ضحك الجماهير المستمعة ، وإعجابهم ، كهذا الميت الذى يفسو على دفانه فى القبر ، والشيخ العجوز الفانى الذى يدب إلى الجارات ، وهذا النتن الذى لو لامس ظاهر جلده ماء البحر ، لصار البحر كله نتنا ، خبيث الرائحة .

وكان الأُبَيْرد الرياحى اليربوعى التميمى قد أفسد أمرأة من بنى عجل على زوجها ، وكان بنو عجل قد أصابتهم السنة ، فنزلوا فى جوار بنى يربوع ، فلامه قومه لأنه أساء الجوار ، ولكنه لم ينته ، فهجاه شاعر من عجل يقال له سلمان ، وعرض بقومه ، قائلا [(١)] :

لعمرك إننى وبنى رياحٍ ... لكالعادى فصادف سهم رامِ
يسوقون ابنَ وجرةَ مزْبئرا ... ليحميهم وليس لهم بِحَامِ
وكم من شاعر لبنى تميم ... قصير الباع من بَقرٍ نيام
وإن يُذكر طعامُهمُ بشَرٍّ ... فإنّ طعامهـمْ شرّ الطعام
وسوداءُ المغابن من رياحٍ ... على الكُرْدوس كالفأس الكهام

---

(١) الأغانى ١٤ / ٩ . مزبئر : يقال : ازبأر الرجل للشر : تهيأ . المغابن جمع مَغْبِن ،وهو الإبط والرفغ . الكُردوس : كل عظمين التقيا فى مفصل ، وكل عظم عظمت نحضته . الكهام هنا : الضعيفة الكليلة . الآطال : جمع إطْل : الخاصرة . قطرته : صرعته .

ومدار الهجاء فى هذا الشعر على ضعف الحماية ،ولؤم شعراء بنى رياح وخستهم ، وفقر الرياحيين وبخلهم ، وقذارة نسائهم ، وهزالهن .

وهب الأبيرد للمناقضة ، فقابل هجاء العجلى بهجاء مثله ، وزاد فافتخر بنفسه وقومه ، قائلا :

عَوَى سَلْمانُ من جَوٍّ فَلَاقى ... أخو أهل اليمامة سهمَ رامِ
بنو عجلٍ أذلُّ من المطايا ... ومن لحم الجزور على الثُّمامِ
إذا عجليةٌ ولدت غلاما ... إلى عجْلٍ فقبِّح من غلامِ
خبيث الريح يُنشأُ بالمخازى ... لئيمٌ بين أبناءٍ لئام
أنا ابن الأكرمين بنو تميم ... ذوى الآطال والهمم العظام
وكائنْ من رئيسٍ قطَّرته ... عواملُنا ومَن مَلِك همام ...

هجا بنى عجل بالذل ، ولؤم الأصل ودناءته ، والنتن والقذارة ، وافتخر بكرم قومه ، ومجدهم ، وشجاعتهم .

وهذه المعانى كثيرة الدوران فى الهجاء والفخر الجاهليين ، غير أن الشاعر العجلى جنح فى هجائه إلى التعرض لنساء بنى رياح ، ووصفهم بالنتن والقذارة ، فكان هجاؤه أقرب من هجاء صاحبه إلى طابع الهجاء فى النقائض الأموية .

وهناك مناقضة قصيرة جرت بين حكيم بن عَيَّاش الكلبى ، والكُميت بن زيد الأسدى ، تعكس لنا لمحة من تطور فن النقائض فى العصر الأموى ، سنراها أسلوبا قويا بارزا فى نقائض الفحول ، وبخاصة نقائض جرير والفرزدق ، نعنى بها النقض القائم على المنطقية الفكرية ، والذى هو أثر من آثار الجدل والمناظرة ، اللذين شاعا فى مجالس المتكلمين فى هذا العصر ، ويقدم لنا هذه اللمحة الكميت الفقيه المعلم المتكلم ، كما عرفناه من قبل .

قال حكيم [١] :

---

(١) الأغانى ١٥ / ١٢٣

ماسَرَّنى أن أُمىِّ من بنى أسدٍ   وأن ربِّىَ نَجاّنى من النّارِ
وأنهم زوجــونى من بناتهُــم   وأن لى كلَّ يومٍ ألفَ دينَار

وردَّ عليه الكميت قائلا :

ياكلبُ مالك أمٌّ من بنى أسدٍ   معروفةٌ فاحترق ياكلبُ بالنار
لكن أملك من قومٍ شَنِئْتَ بهم   قد قنّعوك قناع الخزى والعار

فابن عياش يرفض أن يكون من أهل الجنة ، إذا كان هذا يقتضى أن تكون أمه من بنى أسد ، قوم الكميت ، ويأبى أن يتقاضى ألف دينار يوميا ، على شريطة أن يتزوج أسدية .

فينبرى له الكميت ناقضا معناه منطقيا ؛ حيث يقرر أن أمه ليست من بنى أسد ، ويرتب على ذلك النتيجة المنطقية التى فضلها الشاعر الأول ، وهى أن لاينجيه الله من النار ، فليحترق إذن بنار جهنم التى يفضلها ، ثم يعود فيقابل هجاء نساء بنى أسد بهجاء أم حكيم ، التى تنتمى إلى قوم ذوى ضعة ، مما أكسب ابنها الخزى والعار ؛ لكون أمه من قوم هذه صفتهم .

(٢) هذه النقائض وأمثالها مما جرى على ألسنة كثير من شعراء عصر بنى أميه ، الحين بعد الحين ، لم تبلغ من الجودة ، وطول النفس ، ودقة التربص ، ونضج الفن وذيوع الشهرة ، مابلغته نقائض أمراء هذا الفن فى العصر الأموى ، ونعنى بهم أولئك الفحول ، الذين شغلوا بالنقائض ، وشغلوا بها جمهور عصرهم ، وحكامه ، وشعراءه ، ونقاده ، وعلماءه ، وعلى رأسهم ، جرير والفرزدق والأخطل ، ثم الراعى النميرى ، والبعيث المجاشعى .

— ٥ —

نقائض جرير والفرزدق :

من المسلم به أن المناقضة بين هؤلاء الفحول ، لم تنشأ عن باعث المنافسة الأدبية ، وإثبات التفوق الفنى فى عبقرية الشعر ، إذ من المعروف أنها تدين فى أصل نشأتها لعوامل سياسية ، أو قبلية ، أو بواعث هى مزيج من النعرات السياسية والقبلية معا .

وهذا أمر طبيعي مادام هؤلاء الفحول لم يكونوا بمنأى عن ميادين الصراع السياسى والقبلى فى عصرهم ، فقد انغمسوا فى هذه الميادين ، حتى عدوا فى مقدمة شعراء العصر السياسيين والقبليين .

على ضوء هذا نستطيع أن نلتمس جذور المناقضة التى شبت بين جرير والفرزدق .

نعرف من تسلسل نسب الشاعرين أن كلا منهما يعلو نسبه حتى يتصل بقبيلة تميم ، ولكن مسار النسب إليها يختلف بينهما ، فالفرزدق من بنى مجاشع ، وجرير من بنى كليب بن يربوع ، ولم تكن بين الحيين (مجاشع ويربوع) عصبية تقتضى المواجهة بين فحلىْ تميم ، إلى أن حدث نزاع بين رهطين من بنى يربوع [١] ، هما بنو الخطفى رهط جرير ، وبنو جحيش بن سيف بن جارية بن سليط ، فكان بنو الخطفى يهجونهم ، ولم يكن فى بنى جحيش شعر ، فلاذوا بغسّان بن ذُهيل بن البراء بن سليط ، فهجابنى الخطفى دفاعا عن أبناء عمومته بنى سيف ، ووقف جرير على هذا الهجاء ،فركب إلى بنى سليط وهجاهم فى رجز قبيح أوردناه فى الشعر القبلى [٢] . ثم لجّ بينهما الهجاء ، واتخذ أسلوب المناقضة ، فقال غسان أبياته التى يقول فيها [٣] :

لعمرى لئن كانتْ بَجِيلةُ زانها ... جريرٌ لقد أخزى كليباً جريرها

وناقضه جرير بقصيدته التى مطلعها :

ألا بكرت سَلْمى فجَدَّ بُكورها ... وشقَّ العصا بعد اجتماعٍ أميرها

فأوجعه وأخزاه ،وأخزى قومه [٤] .

ثم ورد البعيث المجاشعى [٥] على بنى ذُهيل (قوم غسان) ، وكانت بينهما قرابةٌ من

---

(١) هو نزاع اقتصادى تحول إلى قبلى انظر فيه : تاريخ النقائض ١٧٨ــ ٢١٣

(٢) راجع ص ٢٥٨ من هذه الدراسة

(٣) النقائض لأبى عبيدة ص ٦

(٤) سبقت دراسة هذه المهاجاة . راجع ص ٢٥٩ من هذه الدراسة

(٥) أبو يزيد خداش بن بشر بن خالد ، من بنى مجاشع بن دارم من تميم . والبعيث لقب له ، بدأ جريرا بالهجاء فغلبه جرير . قال ابن رشيق : وكان مغلّبا فى الشعر غلابا فى الخطب ــ(العمدة ١ / ٦٨) ومع ذلك نال من جرير أحيانا ، قيل لبنى كليب : ماأشد ماهجيتم به ؟ قالوا : قول البعيث :

ألست كليبيا إذا سيم خطة ... أقر كإقرار الحليلة للبعل

وكل كليبى صحيفة وجهه ... أذل لأقدام الرجال من النعل

(العمدة ٢ / ١٤٢) وتوفى البعيث سنة ١٣٤ هـ ، انظر : الأغانى ٧ / ٤١ وسمط اللآلى ١ / ٢٩٦ والتذكرة السعدية ٥١٧

جهة امرأة تدعى النّوار من بنى مجاشع ، كانت فى بنى ذهيل ، فشكوا إليه قهر جرير غسَّاناً ، فقال البعيث [١] :

كُليب لئامُ النَّاس قد يعلمونه   وأنت إذا عُدَّت كليبٌ لئيمها
أترجو كليبٌ أن يجيءَ حديثُها   بخير وقد أعيا كليباً قديمها ...

فناقضه جرير وأفحش ،فى قوله من [٢] طويلة :

فما ناصفَتْنا فى الحفاظ مجاشعٌ   ولا قايستْ بالمجد إلا نَضيمُها

ثم يفخر بانتصارات يربوع وأمجاد تميم ، ويقصد إلى البعيث ، فيهجوه ، ويتناول أمه بحديث غاية فى الفحش والإسفاف ، أهونه قوله :

له أم سوءٍ ساء ماقدّمتْ له   إذا فارطُ الأحساب عُدّ قديمها
بنى مالك إن البغال مجاشعاً   مباحٌ بحمراء العِجان حريمُها

ثم يسخر من بنى مجاشع لاعتمادهم على البعيث فى الدفاع عنهم :

لئن راهنت عَذْواً عليك مجاشعٌ   لقد لقيت نقصاً وطاشت حلومُها
فأبقوا عليكم واتقوا نابَ حيَّةٍ   أصاب ابن حمراء العجان شكيمها...
أتشتُم يربوعاً لأشتم مالكاً   وغيرُك مولى مالكٍ وصميمها

ومعلوم أن مالكا الأب الأكبر لمجاشع ودارم ، وهو يشير بهذا إلى أن الفرزدق أحق من البعيث بالذود عن بنى مالك ، والتحدث باسمهم .

وبالفعل استغاث البعيث بفحل مجاشع الفرزدق ، ووجه إليه الدعوة للدخول فى المعركة بينه وبين جرير ، وكان الفرزدق بعيداً عن الميدان بالبصرة ، مقيدا نفسه ، عاكفا على قراءة القرآن أو حفظه ، حالفا أن يهجر الشعر [٣] ، قائلا للفرزدق [٤] :

لعمرى لئن ألْهَى الفرزدق قيدُه   ودُرْجُ نَوَارٍ ذو الدِّهان وذو الغِسْل
ليبتعثنْ مِنِّى عُداةُ مجاشعٍ   بَديهة لاوَانِى الجِراءِ ولاوَغْل

---

(١) ابن سلام ٣٢٧ ، ٣٨٦ (المدنى)

(٢) ديوانه ٥٤٧ ــ ٥٥٠ ابن حمراء العجان : سبّ كان يجرى على ألسنتهم ، والعجان : مابين القبل والدبر بين الرجلين ، يعنى أنها أمة مستخدمة ممتهنة فى العمل ، فيعرق ذلك المكان منها ، فيتسلخ ويحمر .

(٣) انظر : ابن سلام ٣٨٦ ومعاهد التنصيص ١ / ١٧ والأغانى ١٩ / ٦

(٤) ابن سلام ٣٨٧ (المدنى) .

وسرعان مافك الفرزدق وثاقه ، وزحف إلى المعركة ، ملبيا دعوة البعيث بقوله [١] :

دعانى ابنُ حمراء العجان ولم يجدْ   له إذ دعا مستأخراً عن دُعائيا
فنفست عن أنفيْه حتى تنفسًا   وقلتُ له لاتخْشَ شيئاً ورائيا

ولم يكن البعيث هو المستغيث وحده ، وإنما نساء بنى مجاشع أيضا ، فقد جئن إلى الفرزدق ، ولمنه على ترك جرير يهتك عوراتهن ، ويأكل البعيث [٢] .

والذى يبدو أن الفرزدق لم يكن راغبا فى هذه الملاحاة مع قرنه فحل يربوع ، وأنه اضطر إليها اضطرارا ، مما أحنقه على البعيث ، الذى جره إلى أمر لايروقه ، يدل على هذا قوله [٣] :

فإن يدعُنى باسمى البعيثُ فلم يجدْ   لئيماً كفي فى الحرب ماكان جانيا
وماأنت مِنَّا غير أنك تدَّعى   إلى آل قُرطٍ بعد ماشبتَ عانيا
تكونُ مع الأدْنى إذا كنتَ آمنا   وأُدْعَى إلى غَمِّ الغُثاء التراقيا

على أية حال نهض الفرزدق إلى مناقضة جرير ، دفاعا عن أحساب قومه :

فقلت أظن ابن الخبيثة أننى   شغلت عن الرامى الكنانة بالنبل
فإن يك قيدى كان نَذْراً نذرته   فما بِىَ عن أحساب قومِىَ من شغل...

ثم تناول جريرا وقومه ،وعلا عليه وعليهم ، وسقط البعيث بين الفحلين منذ أن التحما ، وانصرفا عنه ، وانعدم أو ندر التحامه بأحدهما « ولاسيما أنه قد ، شاخ فصار ذكره فى النقائض ذِكْرَى ، أو مثلاً للعدو المهزوم » [٤] .

هذه الوقائع ناطقة بأن النقائض بين جرير والفرزدق نشأت نشأة قبلية خالصة ، ومدفوعة بعصبية كل منهما لقومه ، يجمع بينهما الفخر بتميم ، قبيلتهما الكبرى ، وتفرقهما العصبية الخاصة ، عصبية الفرزدق لبنى مجاشع ، وعصبية جرير لبنى يربوع .

---

(١) ابن سلام ٣٨٨ وليسا فى ديوانه . نفست عن أنفيه : كناية عن التفريج عنه بالتصدى لجرير .
(٢) انظر ديوانه ٢ / ١٥٢ (بيروت) والنقائض ١٦٦
(٣) ديوانه ٢ / ٣٦١ (بيروت) .
(٤) تاريخ النقائض ٢٨٠

ومع ذلك نجد من الباحثين المحدثين من يذهب إلى القول بأن الخصومة السياسية بين قيس الزبيرية الهوى ، المعادية لبنى أميه ، وتميم الموالية للأمويين ، وأن اختلاف هذا المنزع السياسى كان«من الأسباب الكبرى التى حركت نيران التهاجى بين الشاعرين »[١] .

ويستند هذا الرأى على أن الفرزدق كان لسان تميم المحامى عنها ، فهو فى مواقفه السياسية محكوم بسياسة قبيلته ومصالحها [٢] ، وأن جريرا كان محكوما هو الآخر بسياسة قومه بنى يربوع الذين شاءت الظروف أن يقفوا موقف قيس من الأمويين [٣] ، حين سارعت إلى الانضمام إلى جبهة ابن الزبير ، مخالفة بذلك موقف القبيلة الكبرى ، فوجد جرير نفسه مدفوعا إلى مناصرة قيس والوقوف فى صفها ، حتى عد لسان قيس المحامى عنها .

وفى الحق أننا نجد صدى هذين الموقفين بارزا فيما كان بين الشاعرين من مناقضة ، فالفرزدق يهجو جريرا ويهجوا القيسيين معه ، وجرير يرد عليه معتزا بولائه للقيسية [٤] .

والذى نراه أن عامل السياسة لم يكن له هذه الأهمية فى بدء المناقضة بين جرير والفرزدق :

أولا : لأن بدء المهاجاة بينهما يحدد تايخياً بسنة ٦٧ هـ ، تقريبا [٥] ، أى بعد قيام دولة ابن الزبير بسنوات (أعلن ابن الزبير خليفة ٦٣ هـ) فلماذا لم يصطدم الشاعران خلال دولة ابن الزبير حتى هذا التاريخ ؟ مع أن الخلاف فى النزعة السياسية بين تميم وقيس كان عنيفا وواضحا حتى قبل أيام ابن الزبير ، وأن العداء القبلى بينهما قديم يضرب بجذوره إلى العصر الجاهلى [٦] .

---

(١) الشعر الأموى (د . فتوح أحمد) ١٣٤

(٢) المصدر السابق ١٤١

(٣) المصدر السابق ١٤٧

(٤) انظر ديوان الفرزدق ١٦١ـــ ١٦٨ ، ٢٩١ ، ٣١٠ ـــ ٣١٧ (بيروت) وديوان جرير ٢٦٧ ، ٥٥٥ ، ٥٦٢ ومواضع أخرى .

(٥) انظر تاريخ النقائض ٢٨٢

(٦) راجع فى الأيام التى كانت بين قيس وتميم فى الجاهلية : العقد الفريد ٣ / ٦ ٣٠ ، ٣٠٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠

وثانيا : لو كان الأمر أمر ولاء سياسى ، لارتبط الفرزدق بالأمويين ، تبعا لارتباط ولاء قبيلته بهم ، ولرأينا للفرزدق من الحظوة عند بنى أمية ، ماكان للأخطل التغلبى فى بلاطهم ، حتى عدوه شاعرهم ؛ إذ كان مرتبطا بسياسة قومه الموالية لبنى أمية ، ولظهر هوى الفرزدق السياسى فى بنى أمية مقترنا بهوى قومه فيهم .

والذى نعلمه أن العلاقة بين الفرزدق والأمويين لم تكن على المستوى الوثيق الذى كان بين تميم وبنى أميه ، فقد ظل بعيدا عن بلاط الأميين سنوات عديدة حتى أيام سليمان بن عبد الملك (ولى الخلافة سنة ٩٦ هـ) ، بل كانت له مواقف عدائية مع بعض الأمويين ، منها موقفه من معاوية حين ظلم أحد بنى مجاشع فرد ميراثه إلى بيت المال ، إذ قال فيه [١] مفاخرا مهددا :

أتأكل ميراث الحُتاتِ ظلامةً ... وميراث حربٍ جامد لك ذائبه
أبوك وعمى يامعاوى أورثا ... تُراثاً فيحتازُ التراثَ أقاربه
وكم من أبٍ لى يامعاوى لم يكن ... أبوك الذى من عبد شمس يقاربُه
ولو كان هذا الأمر فى غير ملككم ... لأدَّيتَه أو غَصَّ بالماء شاربُه
ولو كان إذكُنّا وللكفِّ بَسْطةٌ ... لصممَّ عَضْبٌ فيك ماضٍ مضاربُه

كما طارده زياد بن أبيه وشرده ، حتى قصد سعيد بن العاص والى المدينة واستجاره ، وقال فى ذلك : [٢]

ألا من مبلغ عنِّى زيادا ... بأنى قد لجأتُ إلى سعيد
وأنى قد فررت إليه منكم ... إلى ذى المجد والحسب التليد
فراراً من شتيم الوجه وَرْدٍ ... يُفِزُّ الأسدَ حوفاً بالوعيد

بل إن له شعرا فى الديوان يصف فيه بنى أمية بالجور ، ويهددهم بقطع مابين قومه وبينهم [٣] :

إنْ تنصفونا ياآلَ مروان نقتربْ ... إليكم وإلاّ فأْذنوا ببعادِ

---

(١) ديوانه ١ / ٤٥ ، ٥٣

(٢) ديوانه ١ / ١٤٦(بيروت)

(٣) المصدر نفسه ١ / ١٦٠

فإن لنا عنكم مراحاً ومذهباً بعيسٍ إلى ريح الفلاة صَوَادى
وفى الأرض عن ذى الجوْر منأى ومذهبٌ وكل بلاد أوطنتكَ بلادى
وماذا عسى الحجاج يبلغ جَهدُه إذا نحن خلَّفنا حفير زياد

بل إنه هجا هشام بن عبد الملك ، لما حفر خالد بن عبد الله القسرى واليه على العراق النهر ، الذى سماه المبارك ، وذلك بقوله : (١) :

أهلكتَ مالَ الله فى غير حقّه على نهرك المشئوم غير المبارك
إإنفاق مال الله فى غير كنهه ومنعاً لحق المُرملاِت الضرائك

فأرسل خالد إلى مالك بن المنذر بن الجارود ، أمير شرطة البصرة ، أن احبس الفرزدق فإنه هجا أمير المؤمنين ، فحبسه ، فشفع له جرير عند هشام حتى أطلقه .

وهل أدل على عزوف الفرزدق عن الأمويين ، وإيثاره تجنب بلاطهم ، من قوله لسليمان بن عبد الملك (٢):

فلو كان لى بالشام مثلُ الذى جَبَتْ ثقيفٌ بأمصار العراق وأكثرا
فقيل ائته لمْ آته الدهر مادعا حمامٌ على ساقٍ هَديلا فقرْقَرا
تركتُ بنى حربٍ وكانوا أئمةً ومروانَ لاآتيه والمتخيَّرا
أباك وقد كانَ الوليد أرادنى ليفعلَ خيراً أو ليؤمن أوجرا
فما كنت عن نفسى لأرحل طائعاً إلى الشام حتى كنت أنت المؤمَّرا

معنى هذا كله أن الفرزدق غلبت عليه القبلية وحركته ، حتى خاصم فى سبيلها الخلفاء والولاه كلما تعرضوا لمصالح تميم ، ونفى جريرا عن تميم لدفاعه عن القيسيين أعدائها ، وساعد الأخطل على هجاء يربوع ، رهط جرير ، لما فضل الأخطل دارِماً على بنى كليب بن يربوع ، وتميما على قيس .

وأغلب الظن أن مافى نقائضه من مادة ذات صبغة سياسية ، إنما كان أكثره من قبيل إغاظه جرير من ناحية ، والانتصار لعصبيته القبلية من ناحية أخرى .

---

(١) ديوانه ٢ / ٥٩ (بيروت) وابن سلام ٣٤٧ (المدنى)
(٢) ديوانه ١ / ١٩٧ . الأوجر : الخائف

فلنطمئن إذن إلى أن المناقضة بين شاعرى تميم قامت أساساً انتصاراً ، للعصبية القبلية .

ثم لما اتصلت بينهما الأهاجى والنقائض ، نسى كل منهما ، أو تناسى ، باعثها الأصلى ، وتحولت على أيديهما إلى مايشبه أن يكون مهنة أو حرفة ، تأخذ شكل مساجلات أدبية .

و لعل هذا هو الذى دفع جريرا إلى أن يترك ديار قومه باليمامة ، ويأتى إلى البصرة مقيما ؛ ليكون فى مواجهة الفرزدق ، وليكون لنفسه جمهورا بالمربد ، الذى أخذ يختلف إليه ليلقى قصائده فيه على مرأى ومسمع من الجماهير المحتشدة ، المتعطشة لسماع هذا الفن ، ونعتقد أنه لو ظلت النقائض بينهما قبلية الباعث ، لبقى جرير باليمامة يراسل الفرزدق بالهجاء من هناك ، كما ظل بها وهو يهاجى البعيث ، ويظهر هذا من قول الفرزدق (١):

أتانى أحاديث البعيث ودونـه زرود فشامات الشقيق إلى الرمل

أى أتته شكوى البعيث من هجاء جرير فيه وفى قومه بنى مجاشع ، والفرزدق بالبصرة وقومه بهذه الأماكن التى أشار إليها .

وربما استشعر البعيث هذا التحول إلى المجد الأدبى بين الشاعرين ، فأكلته الحسرة على حظه منه الذى ضاع بتدخل الفرزدق ، مع أنه هو الذى استغاث به ، وقد عبر عن هذه الحسرة فى قوله للفرزدق (٢) :

أشاركتنى فى ثعلبٍ قد أكلته فلم يبق إلا رأسُه وأكارعُه ...

عاش الشاعران بالبصرة ، فكانا يقصدان المربد ، وينشدان الناس أهاجيهما ، ويستثيران أثناء ذلك حماس الجماهير ، وكل منهما يبذل غاية جهده فى إلهاب حماس الناس لفنه ، وفى التفوق على صاحبه .

لهذا نرى أن فن النقائض بين جرير والفرزدق تحول بعد نشأته القبلية إلى خصومة

---

(١) ديوانه ٢ / ١٥٣ (بيروت)

(٢) ابن سلام ٣٨٩

أدبية ، ترمى إلى الاستئثار بإعجاب الجماهير ، التى تتحلق حول كل منهما فى مربد البصرة ، ولم يعد كل هم جرير أو الفرزدق أن يرضى قبيلته ، بل لعله لم يعد يفكر فيها إلا باعتبارها مصدر فخار لنفسه ، وجزءا من الجماهير المحيطة به ، المعجبة بفنه .

ولسنا ننكر أن جانبا كبيرا من مادة هذه النقائض يتحدث عن القبيلة ، ومفاخرها ، وأمجادها ، وأحسابها ، ومثالب أعدائها ، ولكننا نرى أن هذه المادة القبلية ، لم تكن غاية أى منهما من الهجاء والفخر ، إنما كانت الغاية الفوز برضا الجمهور المعجب بهذا الفن ، وإثبات التفوق الفنى على الخصم ، وأنه أرسخ منه قدما فى هذا الفن ، ومن ثم حرص كل منهما « على إبراز مهارته الفنية وبراعته فى إفحام خصمه ، برد معانيه وصوره ، وقوافيه وأوزانه ... [وإظهار] مقدرته على السخرية من صاحبه وتحقيره ، بتصويره فى صورة (كاريكاتورية) تبالغ فى تجسيم العيوب الحسية والنفسية ، فيستثير بذلك منابع التفكه فى وجدان الجماهير ، ويشركهم معه فى الهزؤ بصاحبه والتهكم به أو بآبائه » (١) .

ومن دلائل هذا إلحاح الفرزدق على ذم عطية الخطَفى والد جرير ، والإكثار من تقديمه فى صور ساخرة تثير الضحك ، من مثل قوله فيه : (٢)

إنّا لنضرب رأس كل قبيلة وأبوك خلف أتانه يتقَمَّلُ

وقوله (٣) :

هُمُ أيَّهُوا بى إذ عطية قائم لينهق خلف الجامحات الصلادم

فعطية هكذا دائما يجرى وراء الحمير ، أو يرعى الغنم ، ويقيم هو وزوجه لها الخظائر : (٤)

قال ابن صانعة الذروب لقومه لاأستطيع رواسى الأعلام
قالت تجاوبه المراغة أمه قد رمتَ ويل أبيك كل مَرام
فاسكت فإنك قد غُلبتَ فلم تجد للقاصعاء مآثر الأيام

---

(١) الشعر الأموى (فتوح) ١٣٢
(٢) ديوانه ٢ / ١٥٨ (بيروت) يتقمل : ينزع القمل من جسمه .
(٣) المصدر السابق ٢ / ٢٤٤ أيهوا بى : نادونى
(٤) المصدر السابق ٢ / ٣٠٥

وفى عطية أيضا يقول [١] :

وترى عطية ضارباً بفنائه ... ربقين بين حظائرِ الأغنام
متقلدًا لأبيه كانت عنده ... أرباق صاحب ثلَّةٍ وبِهَام
مامَسَّ مُذْ وَلَدتْ عطية أُمُّه ... كَفًّا عطيةَ من عِنَان لجامَ

وهذه الصورة التى تصرع الخلىَّ من الضحك [٢] :

تركنا جريرا وهْو فى السوق حابسٌ ... عطيةَ هل يَلْقى به مَنْ يبادله
فقالوا له رُدَّ الحمار فإنه ... أبوك لئيم رأسُه وجحافله

كما يكثر جرير من تصوير الفرزدق بأنه قيْنٌ وابن قين ؛ لأن جده صعصعه كان يقتنى بعض القيون فى الجاهلية ، ويلح جرير على هذه الصورة ، حتى لكأنما لم يعد للفرزدق من سمة غيرها ، فيهيج بذلك سخريه الجماهير به .

وهذا الطابع الشخصى فى الهجاء ــ ومثله فى الفخر كما سنرى ــ إلى جانب الميل إلى السخرية ، هو الذى أضفى على نقائض جرير والفرزدق ــ بعد فترة النشأة القبلية ــ نزعة الخصومة الفردية ، أو ما أسميناه بالمنافسة الأدبية .

وقد نرانا بحاجة إلى مايؤكد تحول الخصومة بين الشاعرين من النزعة القبلية ، إلى تنافس أدبى ، يتغيّا التفوق فى مضمارىْ الفخر والهجاء .

حكى أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى أن جريرا والفرزدق خرجا إلى الرصافة مرتدفين على ناقة ، قاصدين هشام بن عبد الملك ، وفى الطريق نزل جرير لقضاء حاجته ، فضجرت الناقة وأخذت تلوى عنقها يمينا وشمالا ، فضربها الفرزدق ، وقال [٣] :

إلامَ تلفَّتين وأنت تحتى ... وخير النّاس كلهم أمامى
متى تَرِدى الرصافة تستريحى ... من التهجير والدَّبر الدَّوامى

وقال فى نفسه ، الآن يجىء جرير فأنشده البيتين ، فيقول :

---

(١) نفسه ٢ / ٣٠٦

(٢) ديوانه ٢ / ١٧٣

(٣) وفيات الأعيان ١ / ١٢٨ وديوانه ٢ / ٢٩٢ (بيروت) والأمالى للقالى ٢ / ٢٣٩ وانظر بدائع البدائة ١ / ٢١

تلفَّتُ إنها تحت ابن قَيْنٍ   إلى الكيرين والفأس الكهام
متى ترد الرصافة تَخْزَ فيها   كخزيك فى المواسم كل عام

فجاء جرير ورأى الفرزدق يضحك ، فقال : مايضحكك ياأبا فراس ؟ فأنشده بيتيه الأولين ، فرد جرير بالبيتين الآخرين ، فقال الفرزدق : والله قد قلت هذا ، فقال جرير : « أما علمت أن شيطاننا واحد » .

فهذا الخبر وسياقه يدلان دلالة قاطعة على انتفاء أية عداوة حقيقية بين الشاعرين .

ويروى ابن سلام (١) أن الفرزدق لقى عمرو بن عطية أخا جرير — وجرير حينئذ يهاجي عمرو بن لَجَأ — فقال له : ويلك ، قل لأخيك — ثكلتك أمك — إيتِ التيمى من عَلُ كما أصنع بك أنا ، وكان الفرزدق قد حمي وأنف لجرير أن يتعلق به التيميّ.

وهل كان الفرزدق يحمى ويأنف لجرير لو كانا عدويين ، متباغضين حقا ؟!

وقد رأينا منذ قليل كيف دافع جرير عن الفرزدق عند هشام بن عبد الملك ، لما حبسه خالد بن عبد الله القسرى ، وشفع له حتى أطلقه .

لقد آل الأمر بين جرير والفرزدق إلى نوع من التعاطف ، والبراءة من الضغائن والتحاسد ، والأحقاد ، فأصبحت المناقضة بينهما « ضربا من الحوار النظمى ،وميدانا للمباراة الأدبية ، مع احترام كل صاحبه ، وعرفانه قدره وبراعته فى باب النقائض ، وتفردهما فيه بالمكانة الممتازة » (٢).

وهذا التعاطف هو الذى جعل جريرا يحزن أشد الحزن لوفاة الفرزدق ، ويبكيه قائلا : أما والله إنى لأعلم أنى قليل البقاء بعده ، ثم يرثيه رثاء حارا صادقا ، بقوله من قصيدة « ناسبا إليه فيها كل ماينسب إلى السيد العربى الجليل ، واصفا خسارة قبيلتيهما بفقد هذا الشاعر الفذ (٣) :

---

(١) طبقاته ٤٣٣
(٢) تاريخ النقائض ١٨٠
(٣) ديوانه ٤٠٧

لعمرى لقد أشجى تميماً وهدّها على نكبات الدهر موتُ الفرزدق
لقد غادروا فى اللحد مَنْ كان ينتمى إلى كل نجم فى السماء محلّق
لتبكِ عليه الإنس والجن إذْ ثوى فتى مُضرٍ فى كل غرب ومشرق ...

كما يبكى فيه رجلا لن تأتى النساء بمثله ، حاميا للذمار ، مصلحا لما فسد من أمر قومه ، ساعيا لهم بالخير عند الحكام (١) :

فلا ولدتْ بعد الفرزدق حاملٌ ولا ذاتُ حملٍ من نِفاسٍ تعلت
هو الوافد المأمونُ والرَّاتق الثَّأى إذا النعلُ يوماً بالعشيرة زَلَّتِ

وعن هذه الروح صدر جرير فى قوله لابنه عكرمة ، وقد سأله عن أشعر الناس فى الإسلام : « الفرزدق نبعة الشعر فى يده » (٢) .

فالصلة بين الشاعرين لم تكن منبتة ، بل كانت صلة مودة ، فلا ينبغى أن نخدع بما فى تهاجيهما من عنف وتجريح ، وسخرية لاذعة ، فما كان هذا عن بغض وتحاسد وعداوة ، وإنما هى المنافسة الأدبية ، التى التقت فيها روح الشاعرين ، وتشابه فيها شيطاناهما ، ولم يجدا لهما نِدًّا يقف مواقفهما ، فكانت مناقضاتهما مظاهر امتيازهما ، (٣) .

نعم ، كانا يقومان بهذه المناقضة بقصد المنافسة الأدبية ، لابقصد التخاصم ، وكان مَنْ حولهما يعرفون ذلك ، ففى حديث لجرير مع أبى جندل الراعى النميرى مايدل على أنه وصاحبه الفرزدق ، كانا يرميان إلى غاية فنية ، فهو يعتب على الراعى تفضيله الفرزدق عليه ، ويقول له : كان يكفيك ، إذا ذكرنا ، أن تقول كلاهما شاعر كريم ، ولاتحتمل منى ولامنه لائمة (٤) ، فمناط العتاب ، كما نرى ، هو حرص جرير على أن لا يفضَّل عليه الفرزدق فى الشاعرية ، لافى العصبية القبلية ، ولافى الانتماء السياسى .

---

(١) دوانه ٨٨ وابن سلام ٤١٧ (المدنى) والأغانى ٧ / ٧٢ ، ١٩ / ٤٥ ومعاهد التنصيص ١ / ١٩ ، ٢٣١ .
تعلت : سلمت وصحت . الثأى : الفساد .

(٢) العمدة ١ / ٦١ وفى أمالى القالى ٢ / ١٨١ أن الذى سأل جريرا بعض خلفاء بنى أمية ، فقال : « بيده نبعة الشعر قابضا عليها » .

(٣) تاريخ النقائض ١٧٩

(٤) معاهد التنصيص ١ / ٢٢٩ وانظر : الأغانى ٧ / ٤٣ ، ٤٦

حتى ولاة العراق كانوا على إدراك لهذه الحقيقة فى العلاقة بين الشاعرين ، دليل ذلك أن الحجاج بن يوسف الثقفى ، والى العراق ، يطلب إليهما أن يمثلا بين يديه تمثيلية الهجاء والفخر (المناقضة) على أن يلبس كل منهما ملابس آبائه فى الجاهلية ، فيأتى الفرزدق ، وقد لبس الديباج والخز ، وقعد فى قبة ، وشاور جرير دهاة بنى يربوع ، فقالوا له : مالباس آبائنا إلا الحديد ، فلبس جرير درعا ، وتقلد سيفا ، وأخذ رمحاً ، وركب فرسا ، وأقبل فى أربعين فارساً من بنى يربوع ، وجاء الفرزدق فى هيئته التى ذكرنا ، وبدأ الفرزدق هذه الملهاة بقوله (١) :

وإن كُليباً إذْ أتتنى بعبْدِها ... كمن غَرَّهُ حتى رأى الموتَ باطلُه

رَجَوْا أن يردّوا عن جرير بدرعه ... نوافذ ماأرْمى وما أنا قائلُهْ

عجبتُ لراعى الضّأن فى حُطَمِيَّةٍ ... وفى الدرع عبدٌ قد أُصيبت مقاتله

وهل تلبس الحبْلى السلاحَ وبطنها ... إذا انتطقتْ عبءٌ عليها تعادله ؟!

فأجابه جرير بنفس الروح الساخرة ، قائلا (٢) :

لبستُ أداتى والفرزدق لعبةٌ ... عليه وشاحا كُرَّجٍ وجلاجلُه

أَعِدُّوا مع الحَلْيِ المَلَابَ فإنما ... جريرٌ لكم بَعْلٌ وأنتم حلائلُه

وأَعْطُوا كما أَعطتْ عَوَانٌ حليلها ... أقرَّتْ لبعلٍ بعد بعْلٍ تراسلُه

أَمِنْ سَفهِ الأحلام جاءوا بقردهم ... إلىَّ وما قردٌ لِقَرْمٍ يُصاوله ؟!

ففى هذه المناقضة هجاء وفخر هزلىّ مضحك ، وفيما تركنا من قصيدتى الشاعرين فحش وإسفاف وسباب ، وتصريح بما يقبح ذكره ، ومع ذلك فالموقف أشبه بتمثيلية هزلية — كما نرى .

وعلى هذا النحو طلب منهما بشر بن مروان أن يتفاخرا فى مجلسه ، بما لم يسبق

---

(١) ديوانه ٢ / ١٧٣ (بيروت) الدرع الحطمية : المنسوبة إلى حطمة بن محارب بن عمر بن وديعة بن بكير بن عبد القيس بن أفصَى ، وقال ابن الكلبى : هى منسوبة إلى حطم ، وهو أحد بنى عمرو بن مرثد من بنى قيس بن ثعلبة ، وقال الأصمعى : لاأعلم ماتنسب إليه . العمدة ٢ / ١٨٠

(٢) ديوانه ٤٨٢ والأغانى ٧ / ٦٧ ومسالك الأبصار ١ / ٢٤٨ وبدائع البداءة ٢ /٦٧

لهما أن تفاخرا به ، ففعلا ، فحكم بشر لجرير ، بالغلبة ، وأحسن جائزتهما [١] .

ونورد نموذجا للمناقضة بين الفحلين ؛ لنكون على بينة من عناصر هذا الفن ، وكيف تطورت على يديهما .

للفرزدق طويلة (٩٢ بيتا) يفخر فيها على جرير بالانتماء إلى أكرم قبيلة (تميم) ، ويفضل قومه بنى مجاشع على بنى كليب قوم جرير ، ويهجو جريرا وقومه هجاء قبيحا [٢] ...

ويمكن تقسيم هذه النقيضة إلى العناصر التالية :

(١) ــ الفخر بتميم وذكر مآثرها .

(٢) ــ فخر قبلى بقومه بنى مجاشع ودارم .

(٣) ــ هجاء قبلى (٤) فخر شخصى (٥) هجاء شخصى

يبدأ الفرزدق بالفخر بقبيلته الكبرى تميم ، وكأنه لايرى صاحبه جديراً بالانتساب إليها ، ومن ثم يتجاهل نسب جرير فى تميم ، فهو وحده الأحق بشرف الانتساب إلى هذه القبيلة الماجدة ، بحماية حماها ، وشجاعة أبنائها ، ورعايتهم لحق الجار :

لاقومَ أكرمُ من تميم إذ غدتْ عوذُ النساء يُسقْنَ كالآجال

الضاربون إذا القبيلة أحجمتْ والنازلــــون غداةَ كلِّ نزالِ

والضَّامنون على المنيَّةِ جارَهـم والمُطعِمون غداةَ كلِّ شَمالِ

ولانجد فى رد جرير على هذه النقيضة [٣] (عدته ٧٣ بيتا) مايقابل هذا الفخر ، وهذا طبيعى ، فهو من تميم ، مهما تجاهل الفرزدق هذا النسب ، أو دفعه ، وكل فخر بتميم فخر لجرير ، ولذا فهو يسلم له به .

ويطيل الفرزدق مادة الفخر بقومه بنى مجاشع وبنى دارم ، ويشغل به مايقرب من نصف القصيدة (٤١ بيتا) .

---

(١) بدائع البدائة ١ / ١٥

(٢) القصيدة فى ديوانه ٢ / ١٦١ ــ ١٦٨ (بيروت)

(٣) قصيدة جرير فى ديوانه ٤٦٥ ــ ٤٧٢

وينوع فى هذا الفخر ، فتارة يدفع أن يوازن بنو كليب بني مجاشع فى المجد :

أبنو كُليب مثل آل مجاشع   أم هل أبوك مُدَعدِعاً كعِقَالِ ؟!

وتارة يمجد فعالهم ، فينسب إليهم من الخصال كل ماكان يتصف به السادة الأشراف ذوى المروءة ، من الإسراع فى فك الأسرى ، وعلو الشرف وعظيم المنزلة عند الملوك ، ويتطاول مغاليا فى هذا الفخر فيقول :

إن السماء لنا عليك نجومُها   والشمسُ مشرقــةٌ وكل هِلالِ

ولقومه رجاحة العقول فى مواقف الرضا ، وبطشهم شديد عند الغضب ، ويتحدى بهم قوم جرير ، داعيا إياهم إلى المنافرة فى سوق عكاظ ، وسؤال الحجيج عن مجدهم ، فكلهم يعرفه ، وكلهم يشهد لدارم بكثرة العدد ، ووفرة المكارم .

ويذكر جرير بفضل مجاشع على كليب يوم أن دافعوا عنهم ، وخلصوا نساءهم من السبى ، وهو يوم كان بنو يربوع قد هزموا فيه على يد البكريين ، ثم انتصر لهم بنو مالك التميميين ، أصل دارم ومجاشع ، وهو المعروف بيوم الغبيط [١] :

لو تعلمون غداةَ يُطرد سبيُكمُ   بالسفح بين مليمـة وَطِحـالِ

والحوفــزان[٢] مسوِّمٌ أفــراسه   والمحصنات يُجلْنَ كل مجال

حتـى تداركهـا فوارس مالك   ركضا بكـل طويلةٍ وطُــوال

ثم يتحدث عن شجاعة فرسان بنى مالك ، إلى أن يقول :

بأولاك تَمْنَعُ أنْ تُنفِّق بعد ما   قَصَّعْتَ بين حُزُونـة ورمــالِ

كما يفاخر بيوم آخر من أيام قومه المجيدة ، وهو يوم الكلاب [٣] ، ويصف فروسيتهم وأفراسهم الأصيلة ، المدربة على الحروب .

ويأتى جرير فيقابل هذا الفخر القبلى بمجاشع ودارم ، بفخر بقومه بنى كليب . فهم المسارعون للحرب إذا ماقعد بنو القيون يصطلون إلى جوار الكير ، وينوه بفرسان قومه ، ولايرى لهم مثيلا فى مجاشع ، إذ يحمون نساءهم من امتهان السبى ، وأحسابهم

---

(١) انظر فيه : العقد الفريد ٣ / ٣٣٨

(٢) هو الحارث بن شريك من بنى شيبان ثم من بكر .

(٣) انظر خبره فى العقد الفريد ٣ / ٣٥٣

تفوق أحساب الفرزدق وهم بهذه البطولة والأحساب يحمون حماهم ، ويذودون عن ديارهم [١] :

نحن الولاةُ لكل حربٍ تُتَّقى إذ أنت محتضِرٍ لكيرك صالى
من مثل فارس ذى الخمار وقعنبٍ والحَنتَفين لليلة البَلْبالِ
الذائدون إذا النساء تُبُذِّلتْ شهباءَ ذاتَ قوانسٍ ورعال
قوم هُمُ غموا أباك وفيهم حسبٌ يفوتُ بنى قُفيرة عالى
تمضى أسنتنا وتعلم مالك أن قد منعتُ حزونتى ورمالى

ويقابل فخر الفرزدق بأيام قومه ، بمثله :

فاسأل بذى نَجبٍ فوارس عامرٍ واسأل عُيينة يوم جزع طِلال

وهو يوم لتميم على عامر [٢] ، ويتحدث عن أيام الوقيظ [٣] والغبيط [٤] ، ويوم جزع طلال [٥]إلى أن يقول :

تلك المكارم يافرزدق فاعترف لاسوقُ بكرِك يوم جَوْف أُبالِ

فيعيره بهذا اليوم الذى كان لبكر على بنى دارم .

أبنى قُفَيْرَةَ [٦] من يُوَرِّع وِرْدنا أم يقود لشدة الأحمال

والمادة القبلية تكاد تتعادل فى النقيضتين ، أيام مقابل أيام ، وخصال حميدة ، يقابلها مثلها ، وتعيير بالهزيمة ، يقابله تعيير بمثلها ...

ويتخلل هذا الفخر القبلى ، فخر كل من الشاعرين بنفسه ، والفرزدق يستند فيه إلى مجد بنى مجاشع ، فهم بيت عزيز ، مفاخره كثيرة ، ولذا كانت مادة الفخر وفيرة لدى الفرزدق ، فهو يمتاح من معين ثر ، بخلاف جرير الذى كان ينتمى إلى بيت واهى

---

(١) فارس ذى الخمار : مالك بن نويرة ، والحنتفان : ابنا أوس .
(٢) انظره فى النقائض ٣٠٢ والعمدة ٢ / ١٦٦
(٣) انظره فى : العمدة ٢ / ١٦٧
(٤) المصدر نفسه ٢ / ١٦٦
(٥) المصدر نفسه ٢ / ١٦٧
(٦) قفيرة : هى أم صعصعة بن ناجية بن عقال جد الفرزدق ، وهى بذلك جدة قوم الفرزدق .

البنيان . ولعل هذا هو الذى جعل الفرزدق يفوق جريرا فى الفخر ، كما لاحظ قدامى النقاد [١] .

يقول الفرزدق :

إنى بنـــى لِىَ دارمٌ عاديـــةً   فى المجد ليس أرومُهـــا بمزالِ
وأبى الذى وَرَدَ الكُلابَ مُسَوَّماً   والخيلُ تحت عجاجها المُنجال

أما جرير فيضع بإزاء هذا الفخر ، فخراً بشاعريته القوية ، وشعره الذى يطير على ألسنة الرواة :

رُفِع المطىُّ بما وسمتُ مُجاشعاً   والزَّنْبَرِىُّ يعوم ذو الأجلال
فى ليلتين إذا حدوتُ قصيدةً   بلغتْ عُمَانَ وطيىءَ الأجبال

ويقابل فخر الفرزدق بأعمامه وأخواله ضبة فى ميادين البطولة والمجد ، بفخر بأخواله من بنى الأشد وبنى النزال ، ويتحداه جرير أن يذكر أخوالا كأخواله :

مالسِّيدُ حين ندبت خالك منهمُ   كبنى الأشدِّ ولا بنى النـزَّال
خالى الذى اعتسر الهذيْل وخيلُه   فى ضيـق معتـرَكٍ لها ومجال
جئنى بخالك يافرزدق واعلَمنْ   أن ليس خالُك بالغاً أخوالى

وهكذا نرى الشاعرين يكثران من الاعتماد على المادة القبلية فى الفخر ؛ ليعلو بها كل على صاحبه .

ويعرج الفرزدق فى هذه النقيضة على الهجاء القبلى ، ويرى بنى كليب لئاماً ، يكسبون أبناء بناتهم اللؤم ، ويجردونهم مما يعتز به :

إن ابن أخت بنى كليب خالُه   يوم التفـاضل الْأَمُ الأخـــوال
بعل الغريبة من كليب ممسكٌ   منها بلا حسـبٍ ولا بجمـال

ويعيرهم بالفقر . وأنهم أصحاب حمير ، لاخبرة لهم بالأفراس ، حتى فى مجال السباق . يتراهنون على سباق الحمير ، ويرسم لهم صورة ساخرة فى هذا السباق ، فيقول:

---

(١) انظر: العمدة ١ / ٦١

يتبْعنهم سلفاً على حُمُراتهم أعداء بطنِ شُعيْبةِ الأوشال
ويظل من وهج الهجيرة عائذاً بالظل حيث يزول كل مَزالِ

ويمعن فى هجاء بنى كليب ، فيراهم أضعف من أن يمنعوا نساءهم ، من كل من ينهتك أعراضهن :

لايمنعون لهم حرام حليلـة بمهابـة منهم ولابقتـال
إن الحجارة لو تكلّمُ خَبَّرتْ عنكم بألأم دقـة وسِفَـال

ويرميهم بالمذلة والهوان ، والجبن ، وعدم الفناء فى الحروب .

ويلوذ جرير فى هجاء قوم الفرزدق بهذه الصورة التى يرددها كثيرا فى نقائضه مع الفرزدق ،وهى أنهم قيون أبناء قيون ، محاولا الحط من شأنهم ، وإثارة السخرية بهم ، ولجرير العذر ، فبنو مجاشع بيت رفيع العماد ، قليل المثالب ، يُعنىً من يحاول هجاءه ، بالبحث عن ثغرة ينفذ منها إليهم .

ولعل هذا هو مادفع جريرا إلى أن يلجأ إلى السباب والشتم ، والإمعان فى الفحش ، والحديث عن الأمهات والزوجات فى أهاجيه مع الفرزدق ، ولعل هذا أيضا ماقدمه على صاحبه فى مجال الهجاء ـــ كما قدمنا .

يقول جرير :

.... صار القيونُ كساقةِ الأقْيال
.... واللـؤوم مُعتقـلٌ قيـونَ عِقـال

ومن تناوله نساء بنى مجاشع قوله :

قبح الإله بنى خضافٍ ونسوةً بات الخزيـر لهنَّ كالأحقـال
من كل آلفة المَوَاخِر تتَّقـى ....
ودت سكينة أن مسجد قومها كانت سواريـــه ......

وهذا الإسفاف والبذاءة فى الهجاء ، ليس نادرا ولا قليلا فى أهاجى جرير ، وأكثره مما يستحى من روايته .

وطابع النقائض الفردية ، يظهر أيضا فى مجال الهجاء الشخصى ، حيث يجهد كل من الشاعرين نفسه فى اصطياد الصور المخزية ، أو الساخرة المضحكة ؛ ليجعلها إطارا

لشخصية صاحبه ، ويتفوق جرير فى هذا المجال من الهجاء أيضا ، بما يقدمه من صور فاحشة للفرزدق وأمه ، وأخته جعثن ، أما الفرزدق فعماد مادته هنا عطية والد جرير ، وصورته القميئة مع حميره ، وجماعات غنمه ، ومنظره الزرى ، فإذا ماتجاوز عطيه ، تناول أم جرير فى صور تبديها أقرب إلى البلاهة ، وتضعها فى إطار مضحك ، مثير للاشمئزاز والسخرية :

وحسبت حربى وهى تخطر بالقنا حلب الحمارة ياابن أُمِّ رِغَال
تبكى المراغةُ بالرّغام على ابنها والناهقاتُ يُنُحْنَ بالإعوال

أما أبو جرير عطية ، فقد مرت بنا صور من هجاء الفرزدق إياه ، ونضيف هنا قوله :

وترى عطية والأتانُ أمامه عجلًا يمرُّ على الأمثال
ويظل يتبعهنّ وهو مقرمِدٌ منَ خلفهن كأنه بِشِكَالِ
وترى على كتفىْ عطيةَ مائلًا أرْباقُه عُدَلتْ له بسِخَالِ
تبع الحمارَ مُكلَّمًا فأصابه بنهيقه من خلفه بنكِال ...

ونحن إذا تخيلنا صورة عطية هذه ، لانستطيع أن نمسك أنفسنا عن الضحك من هذا الرجل الملازم لخلفية حميره يحجل وراءها ، وهى ترفسه فتترك كلوما بجسمه ، وعلى أكتافه حبال لقيد هذه الأتن أو لسوقها ، يلاحقه نهيق حميره فى غدوه ورواحه ، وكأنه وحميره جوقة من الأصوات الناشذة .

ويرد جرير بتجريح عرض الفرزدق ، ووصف زوجه بالفجور ، فى معان مكشوفة قبيحة ، وعبارة بذيئة يندى لها وجه الفضيلة :

وتقول جِعْثِنُ إذْ رأتْك مُنقبًا قبحتَ من أسدٍ أبى أشبال
وتقول جعثن وابن مُرة جانحٌ ....

....

مابال أمِّك إذْ تسربلُ دِرعَها ومن الحديد مفاضةٌ سِرْبالى
حَمَّمْتَ وجهك فوق كيرك قائما وسقيت أمك فضلةَ الجريال
شابت قُفيْرة وهى فائرةُ النَّسَا فى الشَّوْل بَوَّ أُصِرَّة وفصالِ

بكـــرتْ معجِّلـــةً ...... قتب ألَـــحّ أزبّ ثَقَـــالِ

ويعود إلى تعييره بأنه حداد ليس له من الآثار إلا آلات الحداد :

فانفـخ بكيرك يافـرزدق وانتظـــر في كرنبـــاء هديَـــة القُفَّـــال
فضح الكتيبـة يوم يضرطُ قائمـا سَلْحُ النعامـة شَبَّةُ بنُ عِقـال

هذه الصورة من الهجاء عند كل من الشاعرين لاتعكس موقفا جادا ، أو خصومة حقيقية ، وإنما هي صور وظفت في هذا الفن ، لاستثارة الناس ، وإمتاعهم واستخفافهم ؛ ليغلبوا أحد الشاعرين على صاحبه ، ومن هنا قلنا : إن النقائض انحرفت على أيديهما ، بعد نشأتها القبلية ، إلى مضمار المنافسة الأدبية .

من دراسة هاتين النقيضتين يمكن الوقوف عل بعض الملاحظات الفنية التى تعد من سمات تطور فن المناقضة في العصر الأموى .

أولا : طول النقيضة : فقصيدة الفرزدق بلغت اثنين وتسعين بيتا ، ونقيضة جرير عدتها ثلاثة وسبعون بيتا ، ولكل منهما فى المناقضة مايربو على ماله هنا ، وإطالة قصائد الفخر والهجاء إلى هذا القدر ، لانجد له نظيرا فى نماذج النقائض فى العصرين السابقين ، العصر الجاهلى ، وعصر صدر الإسلام ، إذ كان طول النفس جانب من جوانب المفاضلة بين النقيضتين عند نقدة الشعر وقضاته فى هذا العصر ، وبخاصة إذا جمعت مع ذلك جودة المضمون والأداء .

ولعلنا قد لاحظنا كذلك أن نقيضة جرير أقصر من نقيضة صاحبه ، وهذا يصدق ماسبق أن أشرنا إليه ، من أن الناقض لايتمتع بالفرص المتاحة للبادىء ؛إذلا يختار موضوع المناقضة ولاقالبها الموسيقى ، مما قد يؤدى إلى إجادة البادىء وطول نفسه فيما اختار أكثر من الناقض .

ثانيا :غلبة المادة القبلية : فالمعانى القبلية التى افتخر بها الشاعران ، أو تهاجيا تسلخ من قصيدة كل منهما أكثر من نصف أبياتها .

لايعنى هذا أن تعد النقيضتان من الشعر القبلى ، لما سبق أن ذكرنا من أن المادة القبلية فى النقائض وسيلة لاغاية ، إذ الغاية هو الفوز بالسبق الفنى ، وفى مثل هذه البيئة

العربية التى كانت تغمض عينها عن المقاييس التى جاء بها الإسلام فى المفاضلة بين المسلمين ، وترتد بمقاييسها فى المفاضلة إلى العصر الجاهلى ، حيث يشتد التصاق العربى بقبيلته ، فترتبط بها شخصيته ، ولامناص من أن يستمد مقومات شخصية ومايزينها ، أو يشينها من قبيلته ، فإذا أدركنا هذا ، استطعنا أن نفهم سرّ هذا الإلحاح على أمجاد القبيلة ومفاخرها ، أو مثالبها ونقائصها ، فى فنى الهجاء والفخر ، سواء صيغا فى قالب المناقضة أو فى غيره ، وأغلب ظننا أن جمهورا كبيرا من أبناء هذا العصر لم يكن يستطيع أن يتصور سمو شخص ، أو انحطاطه إلا فى ظل تاريخ قبيلته الماضى والحاضر .

فالمادة القبلية كانت مفروضة على الشاعرين ، ولانقصد أن قبيلتهما كانت تلزمهما بهذه المعانى القبلية ، وإنما نعنى الفرض الفنى ، فلن يكون فنهما مقبولا فى ظل الوضع الاجتماعى الذى ذكرنا ، إلا إذا كان كل منهما متكئا على قبيلته ، وقبيلة خصمه فى حاضرهما وماضيهما .

هذه المناقضة إذن فردية على الرغم من غلبة المادة القبلية عليها ، نفهم هذا من حرص كل من الشاعرين على ربط المعانى القبلية بشخصة إيحاء بامتيازه ، وعلو شأنه ، على صاحبه .

فجرير بعد أن يسرد مفاخر قومه ، يحرص على ربطها بشخصه ، فيقول مخاطبا الفرزدق :

إنى ندبت فوارسى وفَعالهم ونَدبتَ شرَّ فوارسٍ وفَعال

وحتى يوم انتصار القبيلة يجعل منه يوم مجدله ، ويوم خذلان قبيلة صاحبه منقصة لخصمه ، يقول جرير :

أحسبت يومك بالوقيط كيومنا يوم الغبيط بقلة الأدحال

ويشيد بأخواله ، ثم يقول للفرزدق :

جئنى بخالك يافرزدق واعلمنْ أنْ ليس خالك بالغا أخوالى

وبالمثل يعدد الفرزدق أمجاد مجاشع ودارم ، وأيامهما الغراء فى تاريخ المفاخر ، ويجعل من ذلك بناء له ، ومجداله ، ومفخرة يعلو بها على صاحبه ، ويمتاز:

أنى بنى لى دارمٌ عاديةً فى المجد ليس أرومُها بمُزال

ثالثا: اعتماد السخرية أسلوبا فى الهجاء ، سواء فى المعانى أو الصور ، وفى نقائض كل من جرير والفرزدق أمثلة عديدة لهذا الأسلوب ، وعلى الأخص حينما يعرج جرير ، على صورة القيون ، التى ألح عليها فى هجاء الفرزدق ، أو يلح الفرزدق على صورة عطية والد جرير ، وهو خلف أتنه ، وفى بصحبتها . وفى تحليل النقيضتين السابقتين من هاتين الصورتين مايؤيد هذا الاتجاه . وفى مهاجاتهما بين يدى الحجاج مايؤيده أيضا .

رابعا: بالنقيضتين ، معان فاحشة . تتناول أعراض النساء ، بعبارة تؤثر التصريح على التلميح ، والمباشرة على الكناية . فجعثن وقفيرة وسكنية وغيرهن من الزوجات والأخوات والأمهات عرضهنّ مضغة فى فم جرير ، يصورهن فى أقبح الصور ، وأبعدها عن الحياء والذوق ، وأم جرير كلأمباح للفرزدق يصورها كما يشاء له ذوقه النابى ، وخلقه الذى لايعف عن المحارم ، والفراغ الذى تركناه فى ثنايا الأبيات خير شاهد على مدى إسفاف الشاعرين فى تناول الأعراض ، وإن فاق جرير صاحبه فى هذه الرذيلة .

وهذه البذاءة لم تقتصر على تناول النساء ، فلكل منهما صور فى صاحبه لاتقل سفاهة وعدوانا على الفضيلة من صور النساء [١] .

ويحسن أن نورد نموذجا ثالثا للمناقضة بين هذين الشاعرين الكبيرين ، يضيف إلى ماتقدم من ملامح تطور فن النقائض على أيديهما فى النموذجين السابقين ، ملمحا آخر يكشف عن تأثير ثقافة العصر فى هذا الفن ، بحيث أوشك أن يكون صورة للمناظرات والحوار المعقد ، الذى يتتبع فيه الخصم دعاوى خصمه ، ويعمل فيها نقضا وهدما ، فى جهد عقلى غير قليل ؛ ولذا يرى بعض الباحثين أن جريرا والفرزدق والأخطل كانوا متأثرين فى نقائضهم ، وأسلوبها . وطرائقها ، بأسلوب وطرائق علماء عصرهم ، فى مناظراتهم ومناقشاتهم ومحاوراتهم ، الدينية والعقلية والفقهيه ، أى أن نقائضهم كانت صدى لهذه المناظرات ، التى مست كل شيء فى الحياة العقلية والدينية [٢] .

للفرزدق منقوضة طويلة (١٤٩ بيتا) أنشدها وهو بالمدينة المنورة ، يذكر فيها قتل

---

(١) انظر ــ مثلا ــ ديوان الفرزدق ٢ / ١٦١ (بيروت) وديوان جرير ٤٤٥ ، ٥٦٠

(٢) التطور والتجديد ١٨٦

قتيبة بن مسلم على يد وكيع بن حسان التميمى ، ويمدح الخليفة سليمان بن عبد الملك ، ويهجو جريرا والقيسيين ، يقول فيها : (١)

تحنُّ بزوْراء المدينـــة ناقتـــى حنين عَجُـولٍ تبتغى البَوّ رائِـمِ
ويالـيت زوراء المدينـة أصبـحتْ بأحفار فَلْجٍ أو بسيف الكواظـم
وكم نام عنّىٍّ بالمدينـة لم يُبَـلْ إلىّ اطّلاعَ النفس دون الحيـازم
إذا جشأت نفسى أقول لها ارجعى وراءك واستحيى بياضَ اللهــازم
فإن التى ضَرّتْكَ لو ذُقتَ طعمَها عليك من الأعبـاء يوم التخـاصم
ولستَ بمأخــوذ بلغْــو تقولــه إذا لم تعمَّدْ عاقِــدات العــزائم
ولما أبــوْا إلا الرحيــل وأعْلَقُــوا عُرًى فى بُرًى مخشوشة بالخزائم
وراحــوا بجثمانى وأمسكَ قلبَــــهُ حشاشتُه بين المُصلَّى وواقــم

وهنا يمسك جرير بتلابيبه ، يناقشه ، ويبطل ماادعاه لنفسه ، ويكشف عن كذبه ، فى قصيدته التى مطلعها :

ألا حىِّ ربـع المنــزل المتقــادم وماحـــلَّ مذ حلَّتْ به أمُّ سالم

فقد لاحظ أن الفرزدق يصطنع فى البيتين الرابع والخامس التقوى والوقار ، فأنكر عليه التقوى المزعومة ، والوقار المصطنع ، وكذبه وفضحه ، بقوله : (٢)

لقـد ولـدتْ أمُّ الفـرزدق فاجـراً وجـــاءتْ بِوَزْوازٍ قصير القـــوائم

فأفسد على الفرزدق معناه ، من ادعاء الرزانة والوقار والتقوى ، وجعله فاجرا طائشا .

وشبيه بهذا المعنى فى نقض دعوى التقوى ، قول جرير من قصيدة أخرى ، يسخر

---

(١) القصيدة فى ديوانه ٢ / ٣٠٧ ــ ٣١٧ (بيروت) أحفار فلج وسيف الكواظم : من ديار قومه . المصلى : موضع فى عقيق المدينة . اللهازم : أصول اللحيين ــ جشأت : ارتفعت وتطلعت . واقم : يريد حَرَّة واقم بالمدينة المنورة ، يوم التخاصم : يوم القيامة .

(٢) قصيدة جرير التى نختار منها هنا ، فى ديوانه ٥٥٩ ــ ٥٦٥ وعدتها أربعة وثمانون بيتا . الوزواز : الطائش الكثير الحركة . ليأمن قردا : يرميه بالزنا والفجور ، والعرب تقول : « أزنى من قرد » .

من تقواه المدعاة : [١]

إن الفرزدق إذْ تحنَّفَ كارهـاً أضْحىَ لتغلب والصليب خدينا

فالفرزدق حين يدعى التقوى والتدين ، يأخذ تدينه شكلا وسلوكا غير إسلاميين .

ولما زعم الفرزدق أن الشيب ينهاه عن ارتكاب المحرمات ، والتطلع إلى مالا يحل ، وقف له جرير بالمرصاد ، ونقض عليه هذا المعني فى قوله :

وماكان جارٌ للفرزدق مسلـمٌ لِيَأْمَـنَ قِرْداً ليلـه غيـرُ نائم

يوصِّلُ حَبليْـه إذا جنَّ ليلُـه ليرقى إلى جاراتـــه بالسَّلالم

أتيْت حدود الله مُذْ أنت يافِعٌ وشبتَ فما ينهاكَ شيبُ اللهازم

وهذه سخرية مرة ، من دعوى الفرزدق ؛ فقد شب على الفسق ، ومن شب على شيءٍ شاب عليه ، وهذه قاعدة معروفة للعرب استغلها جرير فى نقض معنى صاحبه ، فمن قبل قال زهير بن أبى سلمى [٢] :

وإن سِفاه الشيخ لاحلمَ بعده وإن الفتى بعد السَّفاهة يَحْلُمِ

ومن بعد قال صالح بن عبد القدوس [٣] :

والشيـــخ لايتــرك أخلاقَـــه حتـــى يُوارى فى ثرى رَمْسِهِ

ولما قال الفرزدق بيته السابق:

نواهضٍ يحملْن الهموم التى جفتْ بنا عن حشايا المحصنات الكرائم

يتحدث عن رحلته من المدينة على النوق ، مدعيا أنه مشغول بعظائم الأمور ، ومن ثم فهو يعفّ حتى عما أُحِلَّ له من النساء المحصنات الكرائم ، نقض جرير عليه دعوى العفة هذه ، مستغلا اعترافا سابقاً من الفرزدق بالزنا وانتهاك المحارم ، فى إحدى قصائده ،

---

(١) ليس البيت فى ديوانه ، ولجرير قصيدة على هذا الوزن والقافية فى هجاء الأخطل بديوانه ٥٧٧ ، والبيت فى الكامل للمبرد ٢ / ٨٩ (الأزهرية)

(٢) من أبيات له فى الحكمة ختمت بها معلقته ، والبيت فى ضمن ثلاثة أبيات ملحقة بالمعلقة فى بعض نسخ الديوان ، انظر : ديوان زهير ٣٢ وشعراء النصرانية ٥٢٤

(٣) سمط اللآلى ١ / ١٠٥ وانظر ترجمة صالح بن عبد القدوس فى هامشة .

إذ يتحدث عن قصر لامرأة ناعسة الطرف ، منعمة ، ذات زوج شيخ يرعاها ، ويغدق عليها ، احتال الفرزدق حتى صعد إليها مستعينا بحبال نصبتها إليه فى آخر الليل ، واجتمع بها ، فنقع غليل النفس إليها ، كما يقول ، ولما أوشك الصباح اشتركت هى وامرأة أخرى فى مساعدته على النزول ، قال [١] :

فجاءتْ بأسبابٍ طِوالٍ وأشرفتْ قسيمةُ ذى زَوْرٍ مخوفٍ تَراتُره
أخذتُ بأطراف الحبال وإنما على الله من عَوْض الأمور مَياسِرُهْ

(يسأل الله التيسير لما هو فيه !!)

فقلت اقعدا إن القيامَ مَزَلَّةٌ وشُدَّا معاً بالحبل إنِّى مخاطرُه
فلما استوتْ رِجْلَاىَ فى الأرض نادتا أحَىٌّ يُرَجَّى أم قتيل نُحاذِره ؟
فقلت ارْفعا الأسبابَ لايشعروا بنا ووليت فى أعجازِ ليلٍ أبادرُه
هُما دَلَّتانى من ثمانين قامةً كما انقضَّ بازٍ أقتمُ الرِّيش كاسِرُه

ويقول عن زوجها :

ويحسبُها باتت حَصَاناً وقد جَرَتْ لنا بُرَتاها بالذى أنا شاكره

فهذا اعتراف صريح جرى عن لسان الفرزدق باتباع الغواية ، وارتكاب المحرم ، والفسق ، وقد لامته سكينة بنت الحسين بن على حين قدم المدينة مرة أخرى ، بعد أن أنشدته هذه الأبيات : قائلة : مادعاك إلى إفشاء سرِّك ، أفلا سترتَ على نفسك وعليها؟! [٢] .

وسجل جرير على الفرزدق هذا الاعتراف ، ناقضابه ماادعاه فى بيته السابق من صلاح وعفة ، نرى هذا فى قوله :

تَتَبَّعُ فى الماخور كلَّ مُريبةٍ ولست بأهل المحصنات الكرائم
تدلَّيْت تَزْنِي من ثمانين قامةً وقصَّرْت عن باع العُلَا والمكارم

ويلاحظ أن جريرا ينقض معنى الفرزدق بألفاظه . كقوله : « فما ينهاك شيب

---

(١) ديوانه ١ / ٢١٢ (بيروت) القسيمة : أرادبها ضرتها . الزور : الزيارة . التراتر : الشدائد . الأسباب : الحبال .

(٢) الموشح ١٦٧ ومصارع العشاق ٢٣٧ وابن خلكان ٢ / ٢٦٢

اللهازم » وقوله : « ولست بأهل المحصنات الكرائم » .

ولما ادعى الفرزدق فى أبياته السابقة ، أن خروجه من المدينة كان بقصد الرحلة ، التى ترك لها قلبه وهواه ، أى أنه آثر الرحلة من تلقاء نفسه ، طارده جرير فى هذا المعنى أيضا ، وأفسده عليه ، بأن جعل خروجه من المدينة قهراً ، وأنه طرد منها طرداً [١] ، تطهيراً للمدينة من رجسه ، وذلك قول جرير :

هو الرِّجْسُ ياأهل المدينة فاحذروا مُداخِلَ رِجْسٍ بالخبيثـات عالم
لقد كان إخراجُ الفرزدق عنكمُ طهـورا لما بين المُصَلَّى وَوَاقِـم

هذه الدقة فى التتبع والتربص ،ومايتطلبان من جهد وإعمال عقل ، إنما هى لمحة تطور لفن النقائض على يد هذين الشاعرين الفحلين ، استفاداها من ثقافة العصر ، كما ذكرنا من قبل .

بقى أن نتلمس العناصر الدينية فى المناقضة ، لافى نقائض جرير والفرزدق فقط ، وإنما فيها ، وفى نقائض جرير والأخطل أيضا ؛ لنرى إلى أى حد أثرت الثقافة الدينية الإسلامية فى نقائض هذا العصر .

يتضح للقارىء فى نقائض العصر الأموى بعامة ، ونقائض الفحول بخاصة ، أن المادة الإسلامية ظاهرة فى بعض الألفاظ والمعانى التى تترد فى نماذج من نقائض الفحول ، وإن كانت هذه المادة ، مع ذلك ، أقل بكثير مما فى نقائض شعراء الخوارج والشيعة السياسية ؛ إذ من المعروف أن جريرا والفرزدق كانا يعيشان عيشة بدوية ، تقرب من الحياة الجاهلية ، فيها شراب ، وتعصب قبلى ، وتفاخر بالأنساب ، وإن كانا قد اختلطا بالحياة الدينية والعقلية فى البصرة [٢] .

وكان الأخطل نصرانيا فلم تكن العناصر الإسلامية مهيأة له ؛ ولذا كان

---

(١) يقال : إن الفرزدق كان قد راود امرأة من أهل المدينة عن نفسها فأبت ، وبلغ الخبر عمر بن عبد العزيز ، وكان واليا على المدينة من قبل الوليد بن عبد الملك (تولى عمر المدينة ٨٧ هـ) فأمر بإخراجه منها . انظر : معاهد التنصيص ١ / ١٧ ، وقيل إن الذى نفاه من المدينة مروان بن الحكم فى عهد يزيد بن معاوية : انظر : المصدر السابق والأغانى ١٩ / ٢١ وفى شعر جرير أن عمر بن عبد العزيز هو الذى نفاه ، انظر : ديوانه ١٢٨

(٢) انظر : العقد الفريد ٣ / ١٦٩ (بولاق)

جرير يحاول أن يتصدى له من هذه الناحية كثيرا ، ناحية اعتقاده بالمسيحية ، ويشد على خناقه منها ، وقد اعترف جرير باستغلال هذا الجانب فى نقائضه مع الأخطل .

قالوا : سأل نوح بن جرير أباه : أيما أشعر ، أنت أم الأخطل ؟ فقال : إنى أعنت عليه بتولية سنه ، وكفر من دينه [١] .

ومن قوله فى ذلك للأخطل [٢] :

ولقد جزِعت إلى النصارى بعدما لقِىَ الصليب من العذاب مهينا
هل تشهدون من المشاعر مشعراً أو تسمعون من الأذان أذِيناَ؟!

وقد يشتد عليه جرير فى ذلك ، ويحرجه أشد الإحراج ، حين يتعرض لعقيدته ، يسخر منها ، ويلعن رهبانها ، ويسفه طقوسها ، ومع ذلك لايستطيع الأخطل أن يرد بتهجم مقابل لدين جرير ، لأن مغبة الرد حينئذ وخيمة ، لأن دين جرير دين الدولة ، ودين خلفائها الذين يقربونه فى بلاطهم .

من ذلك قول جرير [٣] :

لعنِ الإلـهُ من الصّليب إلهه والّـلابسين برانس الرهبان
والذَّابحين إذا تقاربَ فُصْحهُم شهبَ الجلود خسيسة الأثمان
من كل ساجى الطَّرْفِ أعْصَلَ نابُه فى كل قائمةٍ له ظَلْفَان
تغشى الملائكة الكرام وفاتَنا والتغلبىُّ جَنازةُ الشيطان
يُعطى كتابَ حسابه بشماله وكتابُنا بأكفنا الأيمان
أتصدقونَ بمارِسَرْجِسَ وابنه وتكذبون محمدَ الفرقانَ ؟!
مافى ديار مُقَامِ تغلب مسجدٌ وترى مكاسِرَ حنْتَمٍ ودِنان

وواضح أن جريرا ينظر فى البيت الخامس إلى قوله تعالى [٤] : « فأما من أوتى كتابه بيمينه ، فيقول هاؤُم اقرءوا كتابيه ، إنى ظننت أنى مُلاقٍ حسابيه ، فهو فى عيشةٍ

---

(١) الأغانى ٧ / ١٦٣ ، ١٦٩ وابن سلام ٤٨٧ (المدنى) والموشح ١٣٠
(٢) البيت الثانى مع خلاف يسير فى الرواية فى ديوانه ٥٧٩ والبيتان معا فى الكامل للمبرد ٢ / ٨٩ (الأزهرية)
(٣) ديوانه ٥٧٦ شهب الجلود ... الخ يعنى الخنازير .
(٤) سورة الحاقة ٦٩ / ١٩ — ٢٥

راضية .... وأما من أوتى كتابه بشماله ، فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه ...» .

ومن هذا القبيل أيضا قوله [١] :

قبحَ الإلهُ وجوهَ تغلبَ إنها هانتْ عليَّ مراسِناً وسِبَالَا

قبح الإله وجوه تغلبَ كلما شَبَحَ الحجيجُ وكبَّروا إهلالا

عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد وبجبرئيل وكذبوا ميكالا

ولاتكاد تخلو نقيضة لجرير فى الأخطل من بعض هذه المعانى .

ولجرير أيضا بعض المعانى الإسلامية فى نقائضه مع الفرزدق ، تدل على ثقافة إسلامية ، وبصر ببعض المعانى القرآنية .

من ذلك قوله فى الفرزدق [٢] :

وشبهت نفسك أشْقَى ثَمودَ فقالوا ضَلِلْتَ ولم تهتدِ

فهو يشير إلى قول الله تعالى [٣] : « كذبت ثمود بطغواها ، إذا انبعث أشقاها ، فقال لهم رسول الله ناقةَ الله وسقياها ، فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها » .

ومنه قوله [٤] :

ألا قبح الله الفرزدق كلما أهل مُصلٌّ للصلاة وكبرا

فلا يَقْربنَّ المروتَيْن ولا الصَّفَا ولامسجدَ الله الحرامَ المُطهَّرا

فإنك لوتعطى الفرزدق درهماً على دين نصرانية لتنصرًّا

فهذا اتهام صريح برقة الدِّين ، وإهمال الطاعات ، والفرائض الدينية .

والمادة الإسلامية قليلة فى نقائض الفرزدق ، وهى على قلتها ذات دلالة على وعيه بالثقافة الإسلامية ، وبآراء الفقهاء ، وقد أشرنا فى مقدمة هذه الدراسة إلى بعض دلائل هذا الوعى [٥] فى شعر الفرزدق بعامة ، ونورد هنا نماذج منه فى نقائضه مع جرير بخاصة .

---

(١) ديوان جرير ٤٥٠ المراسن : الأنوف . السبال : اللحى . شبح الحجيج : رفعوا أيديهم فى الدعاء . الإهلال : رفع الصوت بالتلبية فى الحج .

(٢) ديوانه ١٢٨

(٣) سورة الشمس ٩١/ ١١ — ١٤

(٤) دوانه ٢٤٨

(٥) راجع ص ٧٦ من هذه الدراسة .

من ذلك قوله السابق فى نقيضته التى قالها وهو بالمدينة:

فلستَ بمأخوذٍ بلغْوٍ تقوله ... إذا لم تَعمَّد عاقداتُ العزائم

فهذا المعنى مستمد من قول الله تعالى [١] : « لايؤاخذكم اللهُ باللَّغْوِ فى أَيْمانكم ، ولكن يُؤاخذكم بما عقَّد تُّم الأَيْمان » .

وقوله فى القصيدة نفسها [٢] :

كما بعثَ اللهُ النبىَّ محمداً ... على فترةٍ والناسُ مثلُ البهائم

ينظر فيه إلى قوله الله تعالى [٣] : « ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولُنا يبيِّن لكم على فترةٍ من الرسل » .

وله مخاطباً جرير : [٤]

فإنك من هجاء بنى نُميْرٍ ... كأهل النأر إذْ وجدوا العذابا

رَجَوْا من حَرِّها أن يستريحوا ... وقد كان الصديد لهم شرابا

وفى جزاء الظالمين ،يقول الحق تبارك وتعالى [٥] : « إنا اعتدنا للظالمين ناراً ، أحاط بهم سُرادقها ، وإن يستغيثوا يغاثوا بماءٍ كالمُهْل » ، فهذا أصل معنى الفرزدق ، فالثقافة القرآنية واضحة فى هذه المعانى ، وأمثالها فى نقائض كل من جرير والفرزدق ، ولانشك فى أنهما كانا يستمدان من القرآن ، فالفرزدق يصرح بما يدل على هذا الاستمداد ؛ فى لاميته الشهيرة ، التى مطلعها [٦] :

إن الذى سَمَكَ السماءَ بنى لنا ... بيتاً دعائمه أعَزُّ وأَطْوَلُ

حيث يقارن بين عِزِّ بيته ، وهوان بيت جرير وضعفه ، ويشبه فى هذا المقام بيت جرير ببيت العنكبوت ، الذى تحدث عنه القرآن ، فى قوله تعالى [٧] : « وإنَّ أَوْهَنَ البُيوت لبيت العنكبوت ، لو كانوا يعلمون » .

---

(١) سورة المائدة ٥ / ٨٩

(٢) ديوانه ٢ / ٣٠٩ والناس مثل البهائم : أى فى ضلال وضعف عقل .

(٣) سورة المائدة ٥ / ١٩

(٤) ديوانه ١ / ١٠٢

(٥) سورة الكهف ١٨ / ٢٩ ومن معانى المهل : القيح وصديد الميت . انظر القاموس الميحط (مهل) ٤ / ٥٣

(٦) ديوانه ٢ / ١٥٥

(٧) سورة العنكبوت ٢٩ / ٤١

قال جرير :

ضربَتْ عليكَ العنكبوتُ بنَسْجها وقَضَى عليك به الكتابُ المنْزَلُ

يضاف إلى هذه المصطلحات الإسلامية الكثيرة ، الواردة فى النقائض ، وبخاصة نقائض جرير ، الذى كان أكثر تأثرا بروح الإسلام فى سلوكه وشعره ، من الفرزدق . قال ابو عبيدة معمر بن المثنى : كان جرير ديِّنا عفيفا ، وكان الفرزدق يقول : ماأحوج جرير مع عفافه إلى صلابة شعرى ، وأحوجنى مع شهواتى إلى رقة شعره ، والتقيا يوما فى موسم الحج بمنىً ، فقال الفرزدق لجرير :

فإنك لاقٍ بالمنازل من منـىً فخاراً فخبرِّنى بِمَنْ أنتَ فاخِرُ

فقال جرير : لبيك اللهم لبيك [١] .

ويكفى ماأوردنا دليلا على أن الثقافة الدينية الإسلامية ، لم تغب — تماما — عن مادة فن المناقضة بين جرير والفرزدق من جهة ، ونقائض جرير مع الأخطل من جهة أخرى .

ولقد امتدت نقائض جرير والفرزدق فترة طويلة من الزمن بلغت نيفا وأربعين سنة ، ويحددها بعض الباحثين بثلاث وأربعين سنة [٢] ، لم يغلب واحد منهما على صاحبه ، ولم يتهاج شاعران فى الجاهلية ، ولافى الإسلام بمثل ماتهاجيا به [٣] ، وأتاح لها هذا الدهر الطويل أن تكون أكثر عدداً [٤] ، وأكمل فنا وأتم صنعاً ، من نقائض جرير والأخطل ، التى شغلت فترة أقصر ، قيل : ثلاث وعشرين سنة [٥] تقريبا .

— ٦ —

نقائض جرير والأخطل :

إذا كانت المناقضة بين جرير والفرزدق قد بدأت بداية قبلية ، ودانت فى نشأتها

---

(١) معاهد التنصيص ١ / ٢٣٠ والأغانى ٧ / ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٨ وديوانه ١ / ٣٥١

(٢) هو الأستاذ الشايب فى كتابه : تاريخ النقائض ٢٨٢ وقيل ٤٥ سنة انظره ٣٥٢

(٣) ابن سلام ٣٢٩ (دار المعارف ١٩٥٢ م)

(٤) مجموع نقائض جرير والفرزدق مائة نقيضة ، لجرير منها ثنتان وستون وللفرزدق ثمانية وثلاثون انظر : تاريخ النقائض ٢٧٠ ومجموع نقائض جرير والأخطل عشرون نقيضة . انظر المصدر نفسه ٣١٥

(٥) المصدر نفسه ٣٥٢

للتعصب القبلي » ثم أعانتها ، وساعدت على حدتها ظروف السياسة ، التى اقتضت أن يكون جرير لسان قيس المعادية للسياسة الأموية ، وأن يقف هو وقومه بنو يربوع فى اتجاه سياسى مضاد للولاء السياسى لقبيلته الكبرى تميم الأموية الهوى ، إذا كان الأمر كذلك بالنسبة لنشأة المناقضة بين جرير والفرزدق ، فإن ظروف التحزب السياسى كانت من وراءالمناقضة لتى استطارت بين جرير والأخطل ؛ إذ من المعلوم أن تغلب كانت فى تناقض سياسى مستمر مع قيس ، وانعكس هذا التناقض على الشاعرين » فجرير يتحدث باسم قيس ، وهو لسانها المدافع عنها فى المربد ، وشاعرها ، الذى تلتف حوله ، وتناصره لينصرها ، ولذا ماإن أخذ الحجاج بن يوسف جريراً » وأراد قتله ــ لموقفه مع قيس ضد الأمويين ــ حتى مشت إليه قيس ، وكلموه فيه قائلين : أصلح الله الأمير هو لسان مضر وشاعرها ، هبه لنا ، فوهبه لهم ، وأطلقه [١] .

كان هذا موقف جرير السياسى ، أما الأخطل فكان لسان تغلب ، وشاعرها فى بلاط الأمويين ، كما كان لسان السياسة الحزبية الأموية ، وشاعر الخلافة الأموية ، كما صرح بذلك عبد الملك بن مروان [٢] ؛ لإشادته بفضل بيته الأموى ، ولموقف قومه تغلب المؤيد للأمويين ضد القيسية ؛ إذ كانت تغلب قد بقيت على نصرانيتها ، وكان تحاول أن تحافظ على كيانها المادى والأدبى بين عواصف السياسة الإسلامة فى هذا العصر ، ووجدت أن الضمان الوحيد لذلك هو موالاة السياسة الحاكمة ، ونهض شاعرها الأخطل سفيرا لها فى قصور الخلافة الأموية ، وحرص السفير التغلبى على أن تظل الهوة واسعة بين السياسة الأموية ، والأهواء القيسية ؛ ولذا نراه غاضبا أشد الغضب لما اتصلت القيسية بعبد الملك ابن مروان ، وأخرجه غضبه عن طوره ، فتجاوز حده مع عبد الملك » وتوعده بغضب تغلب ، وحذره من القيسية « كل ذلك خشية أن تذل تغلب بفقدها حماية القصر ، أو أمام وحدة قيس وأمية » [٣] .

فصلة الأخطل بالأمويين صلة سياسية فى المقام الأول ، وإذ كان جرير هو المعبر

---

(١) مروج الذهب ٢ / ١٤٩ (البهية) .
(٢) راجع ص ٢٤٤ من هذه الدراسة .
(٣) انظر : ديوان الأخطل ٣٦٢ والأغانى ٧ / ١٧٥ .

عن السياسة المعادية لهم ، فقد رأى الأخطل أن من واجبه ، الذى يفرضه ولاؤه السياسى ، أن يتصدى لجرير .

وهكذا قامت النزعات السياسية بدورها فى تأريث الخصومة بين جرير والأخطل ، ولا أدل على ذلك مما حكاه ابن سلام [(١)] من أنه لما بلغ الأخطل تهاجى جرير والفرزدق ، قال لابنه مالك : انحدر إلى العراق حتى تسمع منهما ، وتأتينى بخبرهما ، فلقيهما ثم استمع ، فأتى أباه فقال : جرير يغرف من بحر ، والفرزدق ينحت من صخر ، فقال الأخطل : فجرير أشعرهما ، ثم قال :

إنى قَضيت قضاءً غير ذى جَنَفٍ لما سمعتُ ولما جاءنى الخبرُ
أن الفرزدق قد شالت نعامته وعضّهُ حيةٌ من قومه ذَكَرُ

ومعنى هذا أن الأخطل فضل جريرا على الفرزدق من خلال نظرة فنية خالصة ، وعلى ضوء ملاحظة فنية خالصة أبداها ابنه ، بعد أن استمع إلى الشاعرين فى العراق ، وعاد ليحدث أباه بما سمع .

ولكن السياسة الأموية ماكان ليرضيها هذا الحكم الفنى ، فكان لابد للأخطل من أن يتحول موقفه لصالح هذه السياسة ، فما قرَّبَه الأمويون لينصر شاعر أعدائهم ، على الفرزدق شاعر تميم الموالية لهم .

ويتولى بشر بن مروان مهمة هذا التحول ، كما تولى من قبل استمالة الراعى النميرى القيسى ليناصر الفرزدق ضد جرير ، فأجابه الراعى إلى ذلك ، وهجا جريرا، مع أن جريراطلب إلى الراعى أن ينضم إليه ، لأنه ينافح عن قومه القيسيين [(٢)] فحين قدم الأخطل الكوفة عليه ، أوعز إلى شبة بن عقال المجاشعى أن يصل الأخطل ، طالبا منه أن يفضل شاعر مجاشع الفرزدق على جرير ، وأن يسبه ، وسرعان ماتحول الأخطل عن حكمه السابق ، ليمالىء السياسة الأموية ، قائلا [(٢)] :

---

(١) طبقاته ٤٥١ ـــ ٤٥٣ ، ٤٧٥ .

(٢) النقائض ٤٢٨ حصرم : جبيل فى ديار بنى أسد أبان : جبل ضخم . عفواته : صفو وأكثؤه الأعطان : مبارك الإبل يعنى ينالون خير الماء وخير المبارك .

اخسأ كُليبُ إلْيك : إن مجاشعا — وأبا الفوراس نهشلا أخوان
قوم إذا خطرت إليك قرومهم — جعلوك بين كلاكلٍ وجران
وإذا وضعتَ أباك فى ميزانهم — رجحوا وشال أبوك فى الميزان
ولقد تقايستم إلى أحسابكم — وجعلتمُ حكماً من الصلتان [١]
فإذا كليبٌ لايساوى دارماً — حتى يُساوى حَضْرَمٌ بأبَانِ
وإذا وردت الماء كان لدارمٍ — عِفَوَاتُه وسهولةُ الأعطان

فالأخطل والصلتان العبدى اجتمعا على تفضيل جرير فى فن الشعر ، وتأخيره فى النسب ، وثبت الصلتان على موقفه ، فلم يغيره ، أما الأخطل فعدل عن حكمه ، ولم يثبت على تأييد الشاعر الذى أعجبه فنه ، فما الذى دعاه إلى هذا ؟ إنها السياسة ودواعيها؟!.

كان من الطبيعى ، وقد حول الأخطل موقفه إلى جانب الفرزدق أن يغضب جرير ، وأن يتهجم على الأخطل ، والأخطل تغلبى ، فليهج معه قومه تغلب ، ولذا رد حكم الأخطل هذا بقوله [٢] :

ياذا العَبَاءَةِ إن بِشْراً قد قضى — أنْ لاتجوزَ حكومةُ النشوان
فدعو الحكومة لستُمُ من أهلها — إن الحكومة فى بنى شيْبان

---

(١) هو قثم بن حبية من بنى محارب بن عمرو ثم من عبد القيس ، والصلتان لقب له ، وهو الذى حكم بين جرير والفرزدق — قبل حكومة الأخطل هذه — فقال فى قصيدة له :

أنا الصلتانىّ الذى قد علمتمُ — متى مايُحَكَّم فهو بالحق صادع
أرى الخطفى بذ الفرزدق شعره — ولكن خيرا من كليب مجاشع
فيا شاعراً لاشاعر اليوم مثله — جرير ولكن فى كليب تواضع
ألا إنما تحظى كليب بشعرها — وبالمجد تحظى نهشل والأقارع

انظر : أمالى القالى ٢ / ١٤٣ ومعاهد التنصيص ١ / ٢٨ وسمط الآلى ١ / ٥٣١ ، ٢ / ٧٦٦ والمؤتلف ١٤٥ ، ومعجم الشعراء ٢٢٩ والتذكرة السعدية ١٩٧ ومراجع ترجمته فى هامشها .

(٢) ابن سلام ٤٧٤ وديوانه ٥٧٣ . ياذا العباءة ، عيره بأنه وقع أسيرا وعليه عباءة دنسه ، فلم يعرف وظنوه عبدا من العبيد ، فهو يهجوه بذلك ، ويسخر منه ، وانظر : الأغانى ١٠ / ٣ (وفيه : ياذا الغباوة) وأيضا ٧ / ٤١ ، ١٧٦ .
الخزر :ضيق فى العين ، وهو مذموم عند العرب ؛ لأنه صفة العجم ، فكأنه نسبهم إليهم وأخرجهم عن العرب وهذا من الهجاء المقذع فى عرف العربى (انظر ابن خلكان ١ / ١٢٩) . الهجان : الكريم الأبيض ، والعرب تجعل البياض كرما وسيادة .

قتلوا كُلَيْبكُمُ بلقحةِ جارهم ... ياخُزَرَ تغلبَ لستُم بهجَانِ
كذب الأخيطلُ إن قوميَ فيهمُ ... تاجُ الملوك وراية النُّعْمَانَ

وجلى أن جريرا يفخر هنا بتميم قبيلته الكبرى ، فى مقابل هجاء تغلب قبيلة الأخطل ، ممايؤذن بانبعاث العصبية القبلية عنصرا مساعداً لهذه الخصومة السياسية .

ثم استطار الهجاء بين الشاعرين ، فرد الأخطل هاجيا جريرا وبنى كليب بن يربوع قومه ، وقيس عيلان أعداء تغلب سياسيا وقبليا ، وبذا تعقدت هذه الخصومه ، ونهضت نقائض جرير والأخطل سجلا لكل عناصر الخصومة بينهما ، من سياسية وقبلية .

ومن الطريف أن ابن سلام يورد رواية [١] يفهم منها أن الشاعرين تهاجيا بهذا الشعر وكل منهما لم ير الآخر بعد ، فيذكر أن جريرا خرج إلى الشام ، فنزل منزلا لبنى تغلب ، فخرج متلثما عليه ثياب سفر ، فلقيه رجل لايعرفه ، فقال لجرير ، ممن الرجل ؟ قال : من بنى تميم ، قال : أما سمعتَ ماقلتُ لغاوى بنى تميم ؟ وأنشده هجاءه فيه ، فقال جرير : أما سمعت ماقال لك غاوى بنى تميم ؟ وأنشده ، ثم عاد الأخطل وعاد جرير فى نقضه ، حتى كثر ذلك بينهما ، فقال الأخطل : من أنت ؟ لاحياك الله ، والله لكأنك جرير ، قال : فأنا جرير ، قال : وأنا الأخطل .

وسواء تهاجى الشاعران عن بعد ، أم تواجها فى مجلس بشر بن مراوان ، الذى أغرى الأخطل بجرير ، وألح عليه أن يحكم بينه وبين الفرزدق فى الحكومة السابقة ـــ كما يذكر ابن سلام فى رواية أخرى [٢] ، نقول : سواء أصح هذا أو ذاك ، فإنه لايقدح فى منشأ الخصومة بينهما ، وأنها بدأت لدواع سياسية ، ثم تدخلت فيها أسباب العصبية القبلية بين قيس وتغلب [٣] .

الذى يهمنا هنا أن هذه الخصومة السياسية القبلية لم تنفرد غرضا للنقائض بين الشاعرين طوال أعوامها التى أربت على العشرين ، بل زحزحتها وتقدمت عليها ـــ بعد فترة النشأة ـــ خصومة أخرى ملاحظ فيها جانب الفن الشعرى ، والقصد إلى التفوق فيه ،

---

(١) طبقاته ٤٨٨

(٢) طبقاته ٤٧٤

(٣) فصلنا أسباب هذه الخصومة ص ٢٥٠ ـــ ٢٥٣ من هذه الدراسة .

فخلال الفترة مابين سنة ٧٢ هـ ، وهى السنة التى بدأت فيها المهاجاه بين جرير والأخطل [١] ، وسنة ٩٥ هـ ، وهى تاريخ وفاة الأخطل ، كان يتبارى فى ميدان المناقضة الفحول الثلاثة ، جرير والفرزدق والأخطل ، يتعاون الأخيران ضد الأول منهما .

ونحسب أن أيام عبد الملك بن مروان (٦٥ ـــ ٨٦ هـ) كانت ذروة هذه المناطحة الفنية ، وخاصة فيما يتصل بموضوعنا هنا ، وهو المناقضة بين جرير والفرزدق والأخطل ، ففى هذه الأيام اشتد لهيب الصراع السياسى ، واحتدم تنافس العصبيات ، والأهم من ذلك أن الأدب صار مشغلة الناس فى مجالسهم العامة والخاصة ، وفى مجالس الخليفة الأديب الناقد عبد الملك ، فحمى وطيس النقائض ، وشغل نقاد العصر بتداولها ، والنظر فيها ، ودراستها ، والحكم عن مبدعيها ، بل شغل الفحول أنفسهم بآراء هؤلاء النقاد فيهم ، واهتموا بهذه الآراء ، ولانبعد إذا قلنا : إن حركة النقد حول النقائض كانت من العوامل المقدمة فى إلهاب هذا الصراع الفنى بين الفحول .

فالفرزدق يعتز بشعره ، ويعلو بشاعريته على صاحبه ، ويجعل الفخر بهذه الشاعرية عنصرا بارزا فى مناقضته مع جرير ، ويستفرغ فى ذلك إحدى عشر بيتا [٢] من نقيضته التى مطلعها :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعزو وأطولُ

يعدد فيها فحول الشعراء الجاهليين الذين ورث عنهم الشعر .

ويتحدى جريرا أن يأتى بمثل أبيات له فى نقائضه معه ، لقبها بألقاب مأخوذة من بعض معانيها ، فيقول [٣] :

غلبتك بالمُفَقِّيء والمُعَنِّى وبيت المُحتَبِى والخافقات

ولجرير مثل هذا الاعتزاز بشعره ، ومثل هذا الاهتمام برأى النقاد فيه ، وقد مر بنا قوله [٤] :

---

(١) انظر : تاريخ النقائض ٣٥٢

(٢) انظرها فى ديوانه ٢ / ١٥٩ ـــ ١٦٠

(٣) ديوانه ١ / ١١٠

(٤) راجع ٣٠٢ من هذه الدراسة

فى ليلتين إذا حدوتُ قصيــــدة بلغت عمـان وطيىء الأجبـــال

ومثل هذه الدعوى ادعاها الفرزدق لشعره أيضا (١) .

وينظر جرير إلى شعره وشعر صاحبيه ، ويهتم بالحكم الفنى على هذا الشعر ، ويفضل نفسه ، قائلا : نبعة الشعر الفرزدق ، والأخطل يجيد صفة الملوك ، ويصيب نعت الخمر ، وأنا نحرت الشعر نحرا (٢) . ويرد جرير على سائل سأله : هل تعلم اليوم أحداً يرمى معك ؟ قائلا : لا ،والله ماأعرف نابحا إلا وقد استكان ، ولاناهشا إلا وقد انجحر ، إلا جريرا (٣) .

وقال جرير لرجل من طُهيَّة : أيما أشعر ، أنا أم الفرزدق ؟ فقال له : أنت عند العامة ، والفرزدق عند العلماء ، فصاح جرير : أنا أبو حزرة !! غلبته ورب الكعبة ، والله ما فى كل مائة رجل عالم واحد .

هذه الروايات ناطقة بمدى حرص هؤلاء الفحول على رواج شعرهم عند جمهور الناس ، وإلا ماصاح جرير هذه الصيحة الجزلة ، عندما أخبره هذا الطهوىّ بأن شعره مقدم على شعر صاحبه عند العامة .

وهاهو ذا الأخطل جذلان فرحا حين فتح جرير له باب القول ، أملا فى الغلبة ، وأن يحكم له بأنه تفوق على صاحبه جرير .

يروى أن جريرا لما قال للأخطل (٤) :

إذا أخذتْ قيس عليكَ وخندفٌ بأقطارها لم تدْر من أين تَسْرَحُ ؟

---

(١) انظر ديوانه ١ / ١١٠

(٢) الأغانى ٧ / ١٦٤ والعمدة ١ / ٦١ وابن سلام ٦٥ (المدنى)

(٣) الأغانى ٧ / ١٦٥

(٤) ابن سلام ٤٨٦ ــ ٤٨٧ (المدنى)

فلما أُنشده الأخطلُ قال : لامن أيْنَ !! سَدّ والله عليَّ الدنيا !! حتى أُنْشد قولُه:

فمـالَكَ فى نجدٍ حَصَاةٌ تعدهـــا   ومـالَكَ فى غوْرىْ تهامـة أَبْطَـــحُ

فقال الأخطل : لاأبالى والله أن لايكون ، فُتِح ، والصَّليب ، لِيَ القولُ ، ثم قال :

ولكـــن لنـــا برُّ العـــراق وبحرُه   وحيث يُرى القُرْقور فى الماء يسبَحُ

وجرير جذلان أيضا بتفوقه على الأخطل ، لأنه ناقضه ، وقد كبرت سنة ، أو على حد قوله : « أدركته وله ناب واحد ، ولو أدركت له نابين لأكلنى » (١) .

والروايات عديدة فى الدلالة على إدراك هؤلاء الفحول مكانتهم الفنية ، وحرصهم ، فيما بينهم ، على المناقضة ، وعلى المنافسة فيها ، وسعادة كل منهم حين يذكر متفوقا فى معنى ، أو فى صورة أو فى مناحي الكلام على صاحبه ، وهذا مايؤكد فردية هذه الخصومة ، وأنها كانت فى أوج احتدامها منافسة أدبية ، قبل أن تكون خصومة سياسية ، أو قبلية .

وأول مايلاحظ على نقائض جرير والأخطل طولها ، وهى فى هذا تتفق مع نقائض جرير والفرزدق .

ويمثل طول النقائض على أيدى هؤلاء الفحول تطورا جديداً لفنَّى الفخر والهجاء فى العصر الأموى ؛ إذ كان الغالب عليهما قبل هذا العصر ، وعند كثيرين من شعرائه ، أن يكونا مقطَّعَات ، أو قصائد قصيرة .

كما أن هذين الفنين لم يعودا يتسمان بالعجلة والعفوية والبساطة ، بل صارا فنين معقدين يقومان على البحث والدرس ، وبخاصة فى تاريخ القبائل وأنسابها وأيامها .

وملحظ آخر يقف عليه من يقرأ فى نقائض جرير والأخطل ، يتمثل فى غلبة المادة القبلية على ماعداها من العناصر السياسية ، أو الشخصية ، وبخاصة فى نقائض جرير ، التى كان يجمع فيها بين بنى كليب ، وقيس ، وتميم فى مقام الفخر ، ولكل هؤلاء أيام وأنساب ، وأمجاد ، وبين بنى تغلب وبنى مجاشع فى مقام الهجاء ، إذ كان كثيرا مايتصدى فى نقائضه مع الأخطل إلى الفرزدق أيضا ، باعتبارهما ، حليفين ضده .

---

(١) الأغانى ٧ / ١٦٤

والذى قلناه فى تفسير هذه المادة القبلية فى نقائض جرير والفرزدق ، وأنها لاتقدح فى فردية هذه النقائض ، وهدفها الأدبى ، يمكن أن نقوله هنا فى الغرض نفسه (١) .

ونلاحظ أيضا على نقائض جرير والأخطل ، قرب الشبه بينهما وبين نقائض جرير والفرزدق ، من حيث الطابع الأسلوبى لكل منهما .

فظاهرة التتبع لمعانى الشاعر الأول ، والنظر فيها ، ومحاولة هدمها ، والدقة فى هذا التتبع ، نلمحها أيضا فى نقائض جرير والأخطل ، حتى فى الأمور الشخصية الدقيقة ، وسنلاحظ هذا فيما سنقدمه من دراسة لفنهما فى النقض على ضوء نماذج من نقائضهما ، ونسوق هنا مثلا لدقة هذا التتبع ، وحرص كل منهما على الوقوف على دقائق حياة صاحبه ، ليستعين بها فى موقفه منه .

لما أغار الجَحَّافُ بن حكيم السُّلَمى القيسى على البِشْر ، وهى منازل تغلب ، وأسرف فى القتل فيهم ، استخذى الأخطل وقال (٢) :

لقد أوقع الجحَّاف بالبِشْرِ وقعةً ... إلى الله منها المُشْتَكَى والمعوَّلُ

فوثب عليه جرير ، ونقض ماقال ، وكان من قوله فى هذا :

بكى دَوْبَلٌ لايرقِىءُ اللهُ دمعَه ... ألا إنما يبكى من الذلِّ دَوْبَلُ

فلما سمع الأخطل هذا البيت قال : « والله ماسمتنى أمى دَوْبلاً إلا يوما واحدا ، فمن أين سقط إلىَ الخبيث !! (٣) » .

والميل إلى الإقذاع والفحش والإسفاف فى الهجاء ، ومحاولة السخرية ، اتجاه يجمع بين نقائض الفحول جميعا ، الغرض منه ، إرضاء هوى الجماهير إلى السخرية والضحك ، وإسقاط قدر الخصم وقبيله عندها ، بما يلبسهما كل منهم من الخزى والعار .

ولكننا نبادر إلى القول بأن الأخطل كان أقل إفحاشا فى هجائه من زميليه ، ومن جرير خاصة ، ذلك أن الأخطل ضمَّن بعض نقائضه مع جرير مديحاً لبعض خلفاء بنى

---

(١) راجع ص ٣٠٥ ـــ ٣٦١ من هذه الدراسة .

(٢) ابن سلام ٤٧٩ ـــ ٤٨١ (المدنى)

(٣) المصدر السابق ٤٨١

أمية ، ولم يكن من اللائق به ــ وهو شاعر البلاط الأموى ــ أن يخلط ذلك بكثير من المعانى الفاحشة . ثم إن الأخطل نصرانى ، وهو لنصرانيته لايجد الحرية فى تناول أعراض المسلمات فى هجائه ، وإلا أحرج الخلفاء أمام الرعية المسلمة ، وقد نستطيع أن نضيف إلى ذلك عاملا يرجع إلى شخصية الأخطل . فقد كان معروفا بالوقار والتعقل ــ ولعل ذلك لكبر سنه ــ فلم يكن له فى باب البذاءة باع طويل .

ومع ذلك فإن الأخطل لم يبتعد كثيرا عن نزعة السخرية والتهكم بجرير وأمه وأبيه . رداً على تناول جرير لأم الأخطل ونساء قومه بفاحش القول ، كلما هيئت له الفرصة لذلك ؛ حتى لايخلى المجال لجرير فى هذا الميدان ــ على الأقل .

ولكل منهما من الصور الساخرة بصاحبه وقومه ، ماطار شهرته فى العالم العربى قديما وحديثا .

من ذلك قول الأخطل فى هجاء بنى كليب بن يربوع قوم جرير [١] :

قوم إذا استَنْبَحَ الأضيافُ كلبَهم قالوا لأُمِّهِـمُ بولى على النـار

فتمسكُ البولَ بُخلاً لاتجود به ولاتبولُ لهم إلا بمقـدار ....

ولعل من أقوى ماعلق به على هذا البيت وأجمعه وأدقه ، قول ابن رشيق : [٢] قد جمع ضروبا من الهجاء ، فنسبهم إلى البخل بوقود النار ؛ لئلا يهتدى بها الضيفان ، ثم البخل بإيقادها إلى السائرين والسابلة ، ورماهم بالبخل بالحطب ، وأخبر عن قلة النار وأن بولة تطفئها . وجعلها بولة عجوز ، وهى أقل من بولة الشابة ، ووصفهم بامتهان أمهم ، وابتذالُها فى هذا الحال يدل على العقوق والاستخفاف ، وعلى أنه لاخادم لهم ، وأخبر فى أضعاف ذلك ببخلهم بالماء .

ولم يكتف الأخطل بهذه الصورة الموغلة فى السخرية ، بل سب هذه الأم سباً قبيحا فى بيت بعد هذين البيتين .

ورد جرير بنقيض هذا المعنى ، فافتخر بقومه ، وبنيرانهم ، وسب أم الأخطل ،

---

(١) ديوانه ٢٢٥ والعمدة ١٤٢/٢ وانظر : ديوان المعانى ١٧٥/١ وبعد هذين البيتين بيت يتضمن صورة غاية فى الفحش .

(٢) العمدة ١٤٢/٢ .

وسخر منها سخرية مرة : [١] :

قومي تميمٌ هم القوم الذين همُ ينفون تغْلبَ عن بُحْبُوحة الدار
والحيُّ قيس بأعلى المجد منزلة فاستكرَمُوا من فروع زَندُها وارى
قومي فأصلهم أصلى وفرعهُم فرعى وعَقْدهمُ عَقدى وإمرارى
ما أوقد الناسُ من نيران مكرمة إلا اصْطَلْينا وكُنا موقدى النار

فالنقض فى الأبيات الثلاثة الأولى مبنى على اختلاف التفسير لمعنًى القوم ، فالأخطل قصد بقوله : « قوم » بنى كليب بن يربوع رهط جرير خاصة ، فجاء جرير ، وأبان أن قومه تميم وقيس ، ومثلهما لايرمى بالبخل بالنار ، والخوف من طوارق الضيفان ، أما فى البيت الأخير فالنقض بضد المعنى .

وكان جرير يحرص من جانبه على أن يصب على الأخطل وقومه أقذع الهجاء ، وأشده لذعا وتهكما ، فقد تعمد — غالبا — أن يتناول نساء تغلب ، والغا فى أعراضهن ، بنسبتهن إلى أنواع الفحش ، فإذا عدل عن ذلك فإلى دين الأخطل وقومه ، وإلى أخلاقهم وخصائصهم ، ومن ذلك صورته المشهورة فى بنى تغلب [٢] :

لاتطلبن خُئُولةً فى تغلبٍ فالزَّنْج أكرم منهمُ أخوالا
والتغلبى إذا تنحنح للقِرى حَكَّ استَه وتَمَثَّل الأمثالا

قالوا : لم يبق سقّاءٌ ولا أَمةٌ إلا رواه ، شهد بهذا الأخطل نفسه ، قال [٣] : قلت بيتا ماأعلم أحداً قال أهجى منه ، وهو : قوم إذا استنبح ... (البيت) فلم يروه إلا حكماء أهل الشعر ، وقال جرير : والتغلبى إذا تنحنح ... (البيت) فلم يبق سفلة ولا أمثالها إلا رووه .

وكان جرير فخورا بهذه الصورة التى وسم بها بنى تغلب ؛ إذ قال بعد أن أنشد البيت الثانى : « لو أن الأفاعى نهشت أستاههم ماحكُّوها » [٤] . وقال : « قد قلت بيتا

---

(١) المصدر السابق ٤٨١ .

(٢) ديوانه ٢٢٥ والعمدة ٢/١٤٢ وانظر : ديوان المعانى ١/١٧٥ وبعد هذين البيتين بيت يتضمن صورة غاية فى الفحش .

(٣) العمدة ٢ / ١٤٢ .

(٤) ديوانه ٣١١ — ٣١٣ .

فيهم لو طُعن أحد — منهم — فى استه لم يحكَّها [١] » .

وحق لجرير أن يهتز طرباً ، إذ الصورة قبيحة ، لاتقل قبحا عن صورة الأُخطل فى بيته السابق ، ولكنها مع ذلك مضحكة ، تحمل كل ماأراد جرير بصاحبه وبقبيلته ، وهذه الصورة وأمثالها إنما كان يراد بها اجتذاب الجماهير ، وتهليلها للشاعر .

ومن طريف مايروى فى التعليق على قول جرير هذا فى تغلب ، أن شاعراً زنجيا يدعى رياح بن سُنيح — وكان فصيحا — سمع ماذكره جرير ، فى مقام السخرية ، عن الزنج ، فغضب ، وأخذ يعدد أكثر من ولدته الزنج من أشراف العرب فى قصيدة ، يقول فيها مخاطبا جريرا [٢] :

والزَّنْجُ لو لاقيتهم فى صفَّهم لاقيتَ ثَمَّ جَحَاجِحاً أبطالا
مابال كلبِ بنى كليْبٍ سبَّهم أن لم يوازن حاجباً وعِقالا
إن أمراءًا جعل المراغة وابنها مثل الفرزدق حائرٌ قد فالا

وكما قابل جرير سخرية الأخطل بمثلها ، قابل معانيه الفاحشة ، بمعانٍ أفحش منها ، وأوغل فى الإسفاف والبذاءة .

وله فى أم الأخطل ونساء تغلب صور ، بعضها لايروى ، فمما قال فى أمه ، وهو أهون ماقال فيها [٣] :

أيفخرُ عبدٌ أمُّة تغلبيةٌ قد اخضر من أكل الخنانيص نابُها
غليظة جلد المنخرين مُصِنَّةٌ على أنف خنزيرٍ يُشدُّ نقابُها

وله فى نساء بنى تغلب : [٤]

---

(١) ديوان المعانى ١ / ١٧١

(٢) الكامل للمبرد ٢ / ٢٢٦ (الأزهرية) وانظر : نقائض جرير والأخطل ٨٨ وسائل الجاحظ ١ / ١٩٠ وفيه أن الشعر لسنيح بن رياح . وقوله « حاجبا وعقالا » يريد : حاجب بن زرارة من بنى عبد الله بن دارم ، وعقال جد الفرزدق ، واسمه همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال ، من بنى مجاشع بن دارم ، الجحاجح : جمع جحجاح وهو : السيد السريع إلى المكارم ، المراغة : أنثى الحمار : وكان مناقضو جرير يطلقون هذا الوصف على أم جرير وأكثر منه الفرزدق فى نقائضه معه . فال : أخطأ وضعف رأيه

(٣) ديوانه ٥٣ الخنانيص : جمع خِنَّوْص : ولد الخنزير

(٤) ديوانه ١٥٧

ألم تر أن التغلبيـــــة لم تبتْ خَصَاناً ولا جذلان من يستفيدها

وقوله (١) :

والتغلبيـــة فى ثُنْيـــىْ عبــــاءتها ... وفى باع ابنها قصر

من كل مخضرة الأنيـاب قعْرهــا لحم الخنازير يجرى فوقـه السَّكَرُ

ويرمى بنى تغلب بأنهم إذا سكروا نزوا على بناتهم (٢) ، ولا نستقصى هنا ، فلقد يخيل إلينا أن جريرا استوفى هذا الباب من السفاهة فى معانيه وصوره ، التى اسبغها على نساء تغلب (٣)

وماكان للأخطل أن يبارى جريرا فى مضمار السفاهة ، فهو المجلى فيه ـــ على حسن إسلامه ـــ فقد هاجاه من الشعراء أكثر مما اجتمع على غيره منهم ، من قبله ، وفى زمانه ، ومن بعده ، ونالوا منه ، وعيروه بفقره ، وهوان حسبه ، وضعة والده ، وقلة جوده ، مما ضرَّاه بالهجاء ، ودفعه إلى الإكثار منه ، والافتنان فيه ، فثارت نفسه ، وأخذ ينشر مخازى خصومه ، فإن لم يجد اختلقها اختلاقا ، فى صور ساخرة ، أوبذيئة ، انتقاما لنفسه ، وتنفيساً عن كوامن غيظه ، واستجابة لمركب النقص الذى أصابه ، فالفحش فى هجائه مسألة فنية اضطر إليها دون أن يكون فى سلوكه فاجرا أو متفحشا أو فاسقا وغلب عليه هذا اللون ، وبه اشتهر ، فلم ينافسه فيه منافس .

وكان جرير بلاء على من صُبَّ عليه ، كما يقول الأخطل (٤) ،ولذا كان الفرزدق يتضور ويجزع إذا أُنشد لجرير ، خوفا من هجائه (٥) .

أما الفرزدق فقد ذهب بالفخر ، لماهيىء له من طبع قوى ، وحسب ضخم ، يشتق منه المعانى ، وغنى عريض ، ومفاخر شتى ، استمد منها عتادا مكينا وأسلوبا جزلا ، كان سمته فى النقائض ، نقرأ فى فخره ـــ مثلا مخاطبا جريرا ، مالئا فمه بالفخر (٦) :

---

(١) ديوان ٢٦٢ قعرها : عظم جوفها . السكر : يريد الخمر .

(٢) ديوانه ٤٥٠

(٣) راجع مثلا ديوانه ٥٧٧ ، ٥٧٨

(٤) ابن سلام ٣٧٥ (المدنى)

(٥) المصدر السابق ٣٧٧

(٦) ديوانه ٢ / ٣٠٥ ـــ ٦ ، ٣ القمقام : البحر العظيم .

وحسبت بحر بنى كليبٍ مُصدِرا فغرقت حين وقعتَ فى القَمْقام
فى حوْمةٍ غمرت أباك بحورها فى الجاهليـــة كان والإسلام
فاسأل بنا وبكـم إذا لاقيتـمُ جُشَمَ الأراقم أو بنـى همّـام
منا الذى جمع الملوك وبـينهم حربٌ يُشَبّ سعيرهـا بضرام
وأبى ابن صَعْصَعَةَ بن لَيْلى غالبٌ غَلبَ المولك ورهطه أعمامى ...

ولهذا قال مروان بن أبى حفصه [١] ، موازنا بين الفرزدق وجرير [٢] :

ذهب الفرزدق بالفخـار وإنما حُلـو الكـلام ومرّه لجريـــر
ولقد هجا فأمض أخطلُ تغلب وحَوَى اللُّهى بمديحه المشهـور

وأما الأخطل ، فلم يكن مثلهما لا فى هجاء ، ولا فى فخر [٣] وإنما كان يجيد نعت الملوك ، ويصيب صفة الخمر [٤] ، أما الأولى فلكونه شاعر البلاط الأموى ، وأما الأخرى فلأن الخمر كانت شرابه ، وشراب قومه النصارى .

أضف إلى ذلك أن الأخطل كان مضيقا عليه فى هجاء جرير ، فجرير شاعر مضرى ومضر أصل قريش ، قبيلة النبوة ، ومنها بيت الخلافة ، الذى يحمى الأخطل وقومه ، فلم يستطع الأخطل أن يهجو جريرا من هذين الجانبين ، فى حين فخر عليه جرير بمضريته ، وبالنبوة ، والخلافة ، وهجاه بنصرانيته ، وحرمان قومه مكارم السلطان والإسلام .

فإذا تركنا باب السفاهة فى نقائض جرير والأخطل جانبا ، وانتقلنا إلى الهجاء الجاد ، الذى يدور حول سلب المكارم ، والفضائل ، وجدنا المعانى تتشابه عند كل من الشاعرين ، نأخذ مثلا قول الأخطل فى بنى كليب [٥] :

---

(١) شاعر عباس من الموالى ، كان مروان بن الحكم والى المدينة قدا اعتق أباه فصار مولى له ، وهو محافظ المذهب ، تعصب للعباسية ضد العلوية ، كما تعصب الكميت للهاشمية ضد الأموية . انظر ترجمته فى : الأغانى ٩ / ٣٤ والشعر والشعراء ٢٩٥

(٢) ابن سلام ٣٧٨ (المدنى)

(٣) المصدر السابق ٤٥٦

(٤) المصدر نفسه ٤٨٨ والعمدة ١ / ٦١

(٥) نقائض جرير والأخطل ١٤٨

أما كليبُ بن يربوعٍ فليس لهم　　عند التفارط إيراد ولا صدر
مُخلَّفون ويقضى الناس أمرهم　　وهم بغيبٍ وفى عمياءَ ماشعروا
مُلطَّمون بأعقار الحياض فما　　ينفكُّ من دارمىٍّ فيهم أثَرُ
على العِيَاراتِ هدَّاجون قد بلغت　　نجرانَ أو بلغت سوءاتُهم هَجَرُ
الآكلون خبيث الزاد وحدهم　　والسائلون بظهر الغيب ما الخبر ؟

إنها صورة لقوم بلغوا من المذلة ، وهوان الشأن ، بحيث يتولى الناس عنهم تدبير أمورهم ، لايشاركون فى شيء ، ولاينتدبون لشيء ، فتخطاهم بذلك مقياس الشرف ، فى العرف العربى القديم ، المعبر عنه فى قول شاعرهم :

إذا أنت لم تنفعْ فضُرّ فإنّما　　يُرجىَّ الفتى كيما يضرُّ وينفعُ

فهم صاغرون لذل بنى دارم ، أخساء يدبون بالليل على ظهور الحمير للسرقة ، أو لانتهاك الأعراض ، عرفوا بذلك فى كل الآفاق ، طعامهم خبيث ، وكلهم بخيل ، لاذكرلهم ، ولا حضور فى مجالس القوم ونواديهم .

وهذا الهجاء مؤلم موجع ، فما كان عربى ، أو قوم من العرب ، ليطيقوا أن يكونوا على هذه الصورة .

وجاء جرير فقلب معانى الأخطل هجاء عليه وعلى قومه ، وقابل الهجاء بهجاء ، حتى ليأخذ ألفاظ الأخطل كما هى ، ويغير فقط جهة الهجاء ، فإذا قال الأخطل : « والسائلون بظهر الغيب ما الخبر » ، قال جرير فى بنى تغلب [(١)] :

الظاعنون على العمياء إن ظعنوا　　والسائلون بظهر الغيب ما الخبر

كما يأخذ بيت الأخطل الأخير بنصه ويحور فيه ليرده عليه ، فيقول :

والآكلون خبيث الزاد وحدهم　　والنازلون إذا واراهم الخمر

ثم يمسك بخناق الأخطل من جهة دينه ــ وقلما خلت نقيضه له فى الأخطل من هذا ــ فهو وقومه أهل رجس ، صلاتهم بقرع النواقيس لا بالآذان ، ولا يعرفون شيئا عن القرآن :

---

(١) قصيدته التى نورد منها هنا فى ديوانه ٢٥٧ ــ ٢٦٣

رجس يكون إذا صلوا أذانهم   قرعُ النواقيس لايدرون ماالسّور

ويقابل هجاءه بالأيام بهجاء بأيام كانت على تغلب ، وبخاصة لقيس وتميم ، ونقائضهما من هذه الجهة أيضا تشبه نقائض جرير والفرزدق .

وقل مثل هذا فى باب الفخر ، وإن ضيق على الأخطل فيه ، بينما كان جرير يتحرك فى ساحة واسعه ، سعة أمجاد قيس وتميم .

وربما كان الجديد فى نقائض جرير والأخطل هو عنصر الهجاء بالدين من جانب جرير ، وهو عنصر أكثر منه جرير وألح عليه فى نقائضه معه ، وفيه تتردد معانى الكفر بالإسلام ، وتكذيب النبى ، وعبادة الصليب ، وأكل الخنزير ،وقرع النواقيس ، وشرب الخمر ، ودفع الجزية ، وقد قدمنا له أبياتا تتضمن بعض هذه المعانى ، والتى منها :

عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد   وبجبرئيـــل وكذبـــوا ميكـــالا

ونضيف هنا قوله [١] :

تَلْقَى الأُخَيْطل فى ركبٍ مطارفُهم   بُرْق العباء ماحَجُّوا وما اعتمروا
الضاحكين إلى الخنزير شهوتَه   ياقُبحت تلك أفواها إذا اكتشروا
والمُقْرِعين على الخنزير ميسرَهم   بئس الجزور وبئس القوم إذْ يَسَرُوا
ماكان يُرضى رسول الله دينهم   والطيِّبان أبو بكر ولاعُمر
جاء الرسول بدين الحق فانتكثوا   وهل يضير رسولَ الله أن كفروا ؟!

وناحية الدين هذه فى هجاء الأخطل وبنى تغلب ، كانت توقع الأخطل فى الحرج ، فلجرير أن يقول فى دينه ماشاء ، أما هو فلابد أن يقف مكتوف الأيدى ، عاجزا عن دفع مايقول جرير ، محظورا عليه أن يقابل قول خصمه فى دينه ، بقول فى دين خصمه ، لأنه إن فعل جرّ على نفسه وعلى قومه النصارى مالا يحمدون له عقبى .

---

(١) ديوانه ٢٦٢ ــ ٢٦٣

— ٧ —

تعقيب

أ : ملامح التجديد فى النقائض الأموية .

ب : أهميتها التاريخية واللغوية والأدبية .

— أ —

تبرز الدراسة السابقة لفن المناقضة بين شعراء العصر الأموى ، تتقدمهم العبقريات الثلاث : جرير والفرزدق والأخطل ، ألوانا من التطور والتجديد ، حظى بها هذا الفن على أيديهم :

١ــ فقد طولت قصائده ــ وبخاصة فى نقائض الفحول ــ بعد أن كانت مقطّعات ، أو قصائد قصيرة غالبا ، وأصبحت تلقى على مسامع الجماهير ، بصفة دائمة ، وعلى أسلوب منظم ، فيقف الشاعر فى المربد ليلقى قصيدته ، أو يرسلها إليها ؛ لتنشد فيه ، والناس من حوله ، أو من حول المنشد ، يهللون ويصفقون ، ثم يتحركون إلى الآخر .

وهكذا يشتد التنافس ، ومع التنافس ينضج الفن ويُجَوَّد ، فلأول مرة ، ، فى هذا العصر ، يتخذ الهجاء والفخر وسيلتين للتسلية ، وإمتاع عامة الناس وخاصتهم ، ولم يكن الحال كذلك قبل العصر الأموى .

فالشاعر الجاهلى لم يكن يهجو أو يفخر ليضحك جمهورا ، أو ليقطع له وقت فراغة بمتعة فنية ، ولم يكن يفعل ذلك أمام خصمه مباشرة ، أو على مقربة من سامعه ، كما أن هذا الفن لم يتخذ حرفة ، أو كالحرفة ، يوما على هذا النحو الذى ظهر فى هذا العصر .

٢ــ كان هذا الفن بريئا ــ غالبا ــ من الفحش والسباب والبذاءة ، وانتهاك الأعراض على ألسنة الجاهليين ، وشعراء المناقضة فى صدر الإسلام ، بينما خاض فى ذلك كله بألسنة الأمويين بعامة ، وجرير والفرزدق بخاصة [١] .

---

(١) قالوا : كان الأخطل خبيث الهجاء ، ولكنه كان يعف عن الفحش ، وكان يقول : ماهجوت أحدا قط بما تستحى العذراء أن تنشده أباها (الأغانى ٧ / ١٧٠) وقد بان لنا ــ مما مر ــ أن هذا القول ليس على إطلاقه .

وقد يبدو لنا جرير أو الفرزدق أحيانا ، وقد استحال شخصا من سفلة الناس ، وقف على قارعة الطريق ، وأطلق لسانه بالسباب ، دون أن يستشعر حرجا ، أو يراعى ذوقا !!

وهل نجد فى الهجاء الجاهلى مثل قول الفرزدق ــ مثلا ــ لجرير ، على مابينهما من تعاطف :

تصاغرت باابن الكلب لما رأيتنى   مع الشمس فى صعْبٍ عزيزٍ معاقلُه (١)

أو هذا القول المزدحم بنباح الكلاب (٢) :

فإنك كلب من كليْبٍ لكلبةٍ   غذتْك كُليب فى خبيث المطاعم

أو نظيره الذى يصور صاحبه حمارا من سلالة الحمير (٣) :

ياابـن الحمـارة للحمـار وإنما   تلـد الحمارة والحمـارُ حمارا

ويتجاوز الأمر السباب إلى بذىء اللفظ ، وفاحش المعنى ، لايستحى الشاعر فيه من التصريح بما يخدش الحياء ، ويهتك الذوق العام ، على عكس النقائض الجاهلية ، التى لم تكن الحرة العفيفة لتخجل من روايتها ، أو الاشتراك فيها (٤) ، والتى كانت ترى الإقذاع فى الهجاء لايعنى أكثر من تفضيل شخص على آخر ، أو قبيل على قبيل .

بذلك كانت السفاهة فى النقائض الأموية أوغل فى الإسفاف ، وأجرأ على الغلو فى هتك الأعراض (٥) ، والتشنيع بالمخازى ، حقا ، أو تخييلاً ، أو اختراعا ، حتى لتعد النقائض من هذه الوجهة خطوة جريئة ، وأمراً غريبا ، فى ظل الإسلام ، لم تر الجاهلية مثله .

وقد يقال : كيف تسامح الخلق العربى المعروف بالغيرة الشديدة على العرض ، فى

---

(١) ديوانه ٢ / ١٧٢

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٣٢١

(٣) ديوان الفرزق ١ / ٣٥٢

(٤) انظر : تارخ النقائض ١١٢

(٥) لجرير صورة فى أخت الفرزدق جعثن ليس فوقها فوق فى انحطاط الهجاء ، واطراح الحياء فى ديوانه ٨٥ ــ ٨٦ ، وأخرى فى البعيث مع أمه ، ألفاظها فى غاية البذاءة ٢٨٢ ومثلها فى الفرزدق مع أمه ٣٠٧

مثل هذه الصور من الهجاء التى تنتهك عليه حَرَم محافظته ، دون أن يثور عليها ، ويعمل السيوف فى رقاب مدعيها ؟

الإجابة عند أهل العصر أنفسهم ، الذين أدركوا تمام الإدراك أن الأمر أمر منافسة أدبية ، لاتأخذ هذه المعانى مأخذ الجد ، وفهموا كما فهم المتناقضون أنفسهم أن الأعراض بريئة من هذه الدعاوى المتخيلة ، وإلالكان أقل القليل من ذلك كافيا لإراقة الدماء ، وفى مقدمتها دماء هؤلاء الشعراء .

وفى هذا يقول الناقد المعاصر الدكتور عبد القادر القط [١] : « كان الأمر يبدو كأنه مباراة شعبية فى الفكاهة والسخرية ، على الطريقة التى كنا نشهدها منذ سنين ، بين بعض من عرفوا بالقدرة على ابتكار الدعابة ، وصياغتها ، معتمدين فى ذلك على بعض معان أساسية ، تتصل بالجنس فى كثير من الأحيان ، دون أن يحس أحد منهم بأدنى حرج أو إهانة ، أو يكون لذلك أدنى أثر فى علاقة المتبارِيَيْن ، وماقد يكون بينهما من صداقة » ، واستدل على صواب رأيه هذا بما سبق أن ذكرناه من علاقة التعاطف بين جرير والفرزدق [٢] ، الذى ظهر فى رثاء جرير إياه ، بقوله :

لعمرى لقد أشجى تميما وهدَّها ... على نكبات الدهر موت الفرزدق

ولعل هذا الميل إلى السخرية والإفحاش فى النقائض الأموية ، هو الذى وجه شعراء هذا الفن إلى اصطناع المبالغة أسلوبا فى النقض ، وهذا الأسلوب حرك خيال الشاعر منهم لابتكار الصور ، واختراع المعانى ، والوقائع ، والحوادث ، دون أن يأبه بما يرتكبه فى سبيل ذلك من كذب وبهتان .

٣ ــ وتمتاز نقائض الفحول الأمويين ــ بخاصة ــ بالتأثر بأسلوب المناظرة والملاحاة فى المعانى ، والعناية بالاحتجاج لتأييد وجهة النظر ، وقلب فخر الخصم هجاء ، ولاشك أن هذا راجع لاختلاط شعرائها ، بأوساط العلماء والمتكلمين فى العراق ، وفى مجالس الخلفاء بالشام ، وفى دراستنا السابقة لنماذج من نقائضهم مايبرز هذه الظاهرة ويؤكدها .

---

(١) فى الشعر الإسلامى والأموى ٣٥٢ .

(٢) راجع ص ٢٩٦ ــ ٢٩٧ من هذه الدراسة .

ومع أن النقائض الجاهلية ، والإسلامية الأولى ، لم تخل من الملاحاة والجدل ؛ إذ كان هذا أصلا من أصول المناقضة ، كما عرفنا فى تفسير معنى المناقضة ، فإنه لم يبلغ فيها من الدقة والتتبع والتربص مبلغه فى هذه النقائض الأموية ، للرقى العقلى والتأثر الثقافى ، ولعنف التنافس ، وعناية النقاد ، والعلماء بالشعر ، وجمهور الناس بهذا الفن ، وارتقابهم الفائز فيه ، فقد كان هؤلاء الفحول يشغلون الحياة الأموية ، بما يطيرون من مفاخر وأهاج ، والعالم من حولهم يستمع إليهم مابين معجب مصفق مشجع ، وساخط ناقم مزور ، وراض بمتعة هذا الفن ، متأمل عبقرية الشعر فيه ، والأمر كله متأثر بهذه النزعات ، والقبائل محتفية بما يضفى عليها فن هؤلاء من بعد الصيت ، أو ناقمة لما ألصقه بها من ضعة وهوان شأن ، والنقائض فى خضم هذا كله مدرسة للنقد ، وصحف للعصر ، تدفعها الحياة الأدبية ، وتياراتها النقدية ، ومقاييسها الفنية ، إلى التجويد والافتنان ، واستغلال كل معطيات الثقافة العصرية المتاحة ، للبلوغ إلى مالم تصل إليه نظائرهم فى العصرين السابقين .

— ب —

وقبل أن نختتم دراسة فن المناقضة فى العصر الأموى ، يحسن أن ننبه إلى قيمة النقائض التى خلفها شعراؤه ، من النواحى التاريخية ، واللغوية ، والأدبية .

الدلالة التاريخية :

لايسعنا أن ندعى أن كل ماتضمنته مادة النقائض الأموية ، من أحداث تاريخية ووقائع وأيام ، وإشارات لعصبيات ، ومواقف للرجال ... وغيرها ، صالح لأن يعد واقعا تاريخيا دقيقا يعتمد عليه المؤرخ المعاصر للحياة السياسية والقبلية ، والعلاقات الاجتماعية بين القبائل ، فى العصر الأموى ، وماقبله ؛ لأن هذا كله إنما خضع على يد شعراء المناقضة إلى أهوائهم ، ورؤيا كل منهم للحدث من زاوية موقفه السياسى ، أو القبلى ، أو منظوره الفنى .

ولسنا بهذا ننكر على النقائض قيمتها التاريخية ، ونزيحها تماما من مجال البحث العلمى المؤرخ لهذا العصر .

فهناك مادة تاريخية ضخمة مبثوثة فى ثنايا نقائض العصر الأموى ، وبخاصة نقائض الفحول ، لايتطرق إليها الشك ، ولامجال لتدخل الأهواء والمنازع ووجهات النظر فى تزييفها ، أو التلاعب بها ، وطمس الحقائق التى تسجلها .

فإذا نحيناجا نبا الأحداث المختلقة للتشنيع ، أو للمفاخرة ، كحادث جعثن أخت الفرزدق الذى انطلق من شائعة ، ضخمها جرير ، وأضاف إليها من عنده ، ليصورها عرضا منتهكا ، يخزى به الفرزدق وقومه ، وكذلك تفسير الشعراء للأيام التى كانت لقبائلهم مع خصومها على نحو يجعلها إضافة للمجد ، أو شامة للعار ، نقول : إذا استبعدنا أمثال هذه الأحداث من دائرة الاهتمام التاريخى ، ونظرنا فى النقائض ، خرجنا بثقافة تاريخية واسعة ، تؤكدها مصادر التاريخ المروى عن ثقات المؤرخين القدامى لعصر بنى أمية .

وبين أيدينا كتب أيام العرب فى الجاهلية والإسلام ، وفيها أخبار يوم الحَشَّاك الذى كان لتغلب على قيس ، وقد روينا خبره ومادار حوله من العصبية بين قيس وتغلب ، وماتضمنه من مقتل عمير بن الحباب السلمى ، وقد تحدث عنه الأخطل فى إحدى نقائضه مع جرير ، وافتخر به فقال :

وقد نصرت أمير المؤمنين بنا ... لما أتاك ببطن الغوطة الخبر

يعرفونك رأس ابن الحباب وقد ... أضحى وللسيف فى خيشومه أثر

أمست على جانب الحشّاك جيفته ... ورأسه دونَه اليحمومُ والصَّوَر

ومايخبر به الأخطل هنا هو مانقرؤه فى المصادر التاريخية الموثوق بها [1] ، والدلالة التاريخية هنا أن تغلبا كانت تخاصم قيسا ، وأنهما التحما فى هذا اليوم ، وأن النصر كان لتغلب على قيس ، التى قتل قائدها عُمير بن الحباب ، وهذه الدلالة لايمارى فيها أحد .

وماسقنا هذا اليوم إلا مثلا لأيام عديدة سجلها شعراء النقائض ، وتحدثوا عن أطرافها ونتائجها ، ثم جاءت المصادر التاريخية مصداقا لما قالوا .

ونورد هنا شعرا للفرزدق فى إحدى نقائضه مع جرير ، يعيره فى مقام الهجاء بأيام كانت لتغلب على بنى يربوع قوم جرير .

---

(١) انظر مثلا : ابن الأثير ٤ / ٣١٥ — ٣١٧

ياابن المراغة إن تغلبَ وائـلٍ	رفعوا عنـانى فوق كل عِنـان
كان الهذيل يقود كل طِمرَّةٍ	دهماءَ مُقْرَبَــةٍ وكل حَصان
وكأن رايات الهُذَيْل إذا بدت	فوق الخميس كواسر العِقبان
وردوا أراب بجحفلٍ من وائلٍ	لجِبِ العشىِّ ضُبـارك الأركان
لولا أناتُهـم وفضلُ حلومِهـم	باعُـو أبــاك بأوكسِ الأثمانِ
واسْأل بتغلب كيْف كان قديمُها	وقديـمُ قومِك أولَ الأزمْــان
قوم همُ قتلوا ابن هِنْدٍ عنوةً	عَمْراً وهم قَسَطوا على النعمان
لولا فوارس تغلبَ ابنـة وائـل	نزل العدو عليك كل مكان
حبسوا ابن قيصر وابتنوا برماحهم	يوم الكـلاب كأكـرم البنيـان
إن الأراقم لن ينـال قديمَهـا	كلبٌ عَوَى مُتهتِّمُ الأسنان ...

فخبر يوم أراب حقيقة تاريخية ، سجلها ــ كما هنا ــ مؤرخو أيام العرب القدامى ، وهو فيما سجلوا يوم لتغلب على بنى يربوع قوم جرير [١]، والحديث عن الهذيل بن حسان التغلبى مروى أيضا فى خبر هذا اليوم على النحو الذى ذكره الفرزدق ، إذا استثنينا هذا التصوير البطولى المبالغ فيه ، والذى عبر عنه الفرزدق فى أبيات تركناها .

والإشارة التاريخية إلى مقتل عمرو بن هند (٤٥٥ ــ ٤٧٩ م) على يد عمرو بن كلثوم واقع تارخى معروف .

ويوم الكلاب الأول الذى يشير إليه الفرزدق ، وهو يوم من أيام العرب فى الجاهلية ، كان لتغلب وأحلافها على يربوع وأحلافهم من بكر ، وبهذا تحدث كتب الأيام [٢] .

ويشير جرير إلى مجموعة القبائل التى تعرف بالأراقم ــ وقد تحدثنا عنهم من قبل ــ وفى النقائض أمثال لهذه الطوائف من القبائل ، الملقبة بألقاب خاصة ، كالبراجم فى قول الفرزدق :[٣]

وإذا البراجم بالقـروم تخاطـروا	حولى بأغــلبَ عِزُّه لاينــزل

(١) انظر : العقد الفريد ٣ / ٣٦٢

(٢) انظر : العقد الفريد ٣ / ٣٥٣ والعمدة ٢ / ١٦٣

(٣) ديوانه ٢ / ١٥٦ . والبراجم منهم غالب بن صعصعة ، قوم الفرزدق . انظر : تاريخ النقائض ٤٠٢

والربائع ، وهم ثلاثة : ربيعة الكبرى ، والوسطى ، والصغرى ، ذكرهم الفرزدق فى قوله [١] :

وإذا الربائع جاءنى دُفّاعها   موجـاً كأنهم الجراد المرسَلُ

والأحمال ، وهم من بنى يربوع ، ذكرهم جرير ، مفتخراً على الفرزدق ، فى قوله : [٢]

أبنى قُفَيْرة مَنْ يروِّع وِردنا   أم مَنْ يقوم لشدة الأحمال

ثم هناك أنساب القبائل ، وأسماء بيوت العرب ، وحشد من الأعلام من عظماء العرب وسادتهم ، وقوادهم ، وكلها أنساب ، وبيوت وأسماء تاريخية ، لاخرافية ، ولا وهمية ، وفى نقائض العصر شىء كثير من هذا ، لاتكاد تخلو منه نقيضة بين جرير والفرزدق ، أو بين جرير والأخطل .

وتشير النقائض إلى أحداث سياسية هامة ، تسجلها كما حدثت ، فى صدق تاريخى لامجال للشك فيه .

فالتاريخ الإسلامى يحكى مقتل الزُّبير بن العوام ، عقب انصرافه من موقعة الجمل ، غدراً على يد عمرو بن جُرموز المجاشعى ، بعد أن استجار الزبير بأحد بنى مجاشع ، وخذله الأحنف بن قيس زعيم تميم فلم ينهض لحمايته [٣] .

وقد استغل جرير هذا الحادث ، وعير به كثيرا الفرزدق وقومه ، ورماهم بالغدر ، وشهر بهم ، ولم يستطع الفرزدق أن يحير جوابا ، لأن ماقاله جرير حقيقة تاريخية لايمارى فيها .

ومن قول جرير فى هذا [٤] :

---

(١) المصدر نفسه

(٢) ديوانه ٤٦٨ والأحمال هم : سليط وصُبير وثعلبة وعمرو ، وكلهم من يربوع .

(٣) انظر هذا الخبر فى : مروج الذهب ٢ / ١٠ (البهية)

(٤) ديوانه ١٣١ جيشان : وادى السباع الذى قتل الزبير فيه . وانظر نماذج أخرى فى ديوانه ١٩٨ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٤٤ ، ٥٦١ ، ٥٧١

فإنـــا أنـــاسٌ نحب الوفـــاءَ جِذارَ الأحـاديث فى المشهـد
ولانحتبى عنـد عقـد الجوار بغير السيـوف ولا نَرْتَـدِى
شددتُـم حُبـــاكمْ على غَدْرةٍ بجَيْشَان والسيف لم يُغْمـد
فبُعداً لِقوم أجاروا الـــزبير وأمـــا الـــزبير فلا يَبْعَـــدِ

والمادة التاريخية فى مقتل قتيبة بن مسلم الباهلى فى نقائض جرير والفرزدق على يد بنى تميم ــ كما سبق فى الشعر القبلى ــ كثيرة ، وعلى الرغم من اختلاف الشاعرين فى استغلالها وتفسيرها كل لصالح قومه ، وموقفه من صاحبه ، فى مقام الفخر من جانب الفرزدق ، ومقام الهجاء من جانب جرير ،فإن حقائق هذا الحادث ، لم تغير فى نقائضها . ولانطيل بذكر أشعارهما حول هذا الحادث .

وناهيك بالعصبيات القبلية التى تتحدث عنها النقائض ، والتى تكشف جانبا هاما ، من جوانب العلاقات القبلية فى العصر الأموى ، وهى التى كانت موضوع دراستنا فى الشعر القبلى .

فقد عرفنا أن الهجاء القبلى والفخر القبلى ، كان لهما نصيب وافر من مادة نقائض الفحول ، وقد أخذ كل منهم يتتبع تاريخ القبائل التى يعاديها ، أو ينتصر لها ، ويبحث وينقب فى تاريخ العصبيات القبلية ؛ ليستمد منه المفاخر أو المثالب ، وليحدد موقفه من خصمه ، أو موقف خصمه منه ، كل ذلك بغية العلو على صاحبه ، أو الحط من شأنه ، بالنيل من قومه . وقد تحدثنا عن هذه الناحية خلال دراستنا للنقائض بين جرير والفرزدق [١]، فلا داعى لإعادة هذا الحديث هنا .

آية هذا كله أن النقائض غنية بالدلالات التاريخية ، التى تجعل منها أحد المصادر الهامة ، فى كل ماذكرنا ، وما تركنا مادتها ذات القيمة فى تاريخ الحياة العربية فى العصر الأموى .

الدلالة اللغوية :

للنقائض الأموية أهمية بالغة من الناحية اللغوية ، يعرفها كل متصل بعلم العربية ، مهتم بتتبع تاريخ صيغها وتراكيبها ، ومراحل تطورها ، ومناحى فصاحتها .

---

(١) راجع ص ٣٠٦ من هذه الدراسة

ويكفى أن نتصفح أمهات المعاجم العربية الكبرى ، لنقف على مدى أهمية شعر النقائض فى الحفاظ على سلامة اللغة ، وصيانتها من الهجنة ، والحفاظ على تراكيبها من الرخاوة ، فالاستشهاد بشعر الفحول فى نقائضهم على فصاحة اللغة مستفيض فى هذه المعاجم .

والحق أن شعراء النقائض حفظوا اللغة العربية صافية ، كما كانت فى الجاهلية ، حفظوا العدد الأوفر من ألفاظها ، حتى قيل : « لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب» (١) .

وإذا كان هذا شأن شعر الفرزدق ، فلا شك أن شعر جرير والأخطل قد أسهم فى الحفاظ على ثروة أخرى من لغة العرب .

وجاءت التراكيب فى هذه النقائض قوية محكمة ، لتعيد إلى الأذهان تراكيب العربية المتينة ، وألفاظها الجزلة .

يضاف إلى هذا حرص الفحول على استعمال اللغة فى معانيها التى استعملها فيها العرب الجاهليون ؛ ولذا كثر فيها الغريب ، واهتم بها طلابه ورواته .

حوت النقائض إذن ثروة لغوية هائلة ، تمثلت فى قوافيها الغزيرة المنوعة ، وألفاظها الجزلة الفخمة فى مقام الفخر والمديح ، الصاخبة الهادرة فى باب الهجاء ، وفى هذا تمثل جلال العربية الفصحى ، وثراؤها ، فكانت النقائض روافد ثرة لمعاجم اللغة ، كما كانت مقصدا المؤرخى الأنساب والقبائل .

الدلالة الأدبية :

أشرنا إلى نواح فنية فى أساليب المناقضة ، هى التى تمثلت فيها مظاهر تطور هذا الفن الأدبى ، وماحظى به من تجديد ، وكان نصيب فنى الفخر والهجاء من النقائض أوفى نصيب ، وتنافس فيهما الشعراء ، فأدت المنافسة إلى التجويد فى المعانى والتراكيب والألفاظ ، والصور ، والأساليب ، ولأول مرة نرى هذين الفنين يسلخان من القصائد الطويلة أكثر أبياتها ، أوينفردان بقصائد ، لايشاركهما فيهاموضوع آخر .

وكانت تقاليد الشعر الجاهلى مازالت هى التراث المرموق ، الذى يغرى بالمتابعة ،

---

(١) الأغانى ١٩ / ٤٨

ويناسب الحياة الاجتماعية القبلية ، التى كان يعيشها شعراء النقائض ، وما قامت عليه من اعتزاز بالعصبية القبلية ، ومادار حولها من فخر وهجاء .

والشعر الجاهلى قد عبد الطريق لهذين الفنين ، وكثرت تجارب شعرائه فيهما ، وتأصلت تقاليد تعبيرية وفنية ومعنوية فى شعرهما .

من أجل هذا أقبل فحول المناقضة على الشعر الجاهلى ، الذى كان تراثا متاحا حاضرا بين أيديهم ، أقبلوا عليه يحتذونه فى بناء القصيدة ، وصورها ، وكثير من معجم لغته ، وهل أدل على احتذاء هؤلاء الشعراء لغة الشعر الجاهلى ، من أن الرواة والدارسين المعاصرين لهم ، أو الذين جاءوا بعدهم قريبا من عصرهم ، شغلوا بشرح مافى نقائضهم من غريب اللغة ، وكأنهم يفسرون لغة شعراء قدامى ، لايعيشون معهم ، ولايشاركونهم معجمهم اللغوى .

ولننظر فى قول الفرزدق من نقيضة له : (١)

ترى جارنا فينا يجير وإن جنى ... فلا هو مما ينطفُ الجارَ يُنْطفُ
ويَمنعُ مولانا وإن كان نائيا ... بنا جاره مما يَخافُ ويأنفُ
وقد علم الجيرانُ أن قدورنا ... ضوامنُ للأرزاق والريح زفزفُ
نعجِّلُ للضيفان فى المَحْلِ بالقرى ... قدوراً بمعبوطٍ تُمَدُّ وتُغْرَفُ
تفرَّغُ فى شيزى كأن جفانها ... حياضُ جِبىً منها مِلاءٌ ونصَّفُ
ترى حولهنَّ المعتفين كأنهم ... على صنمٍ فى الجاهلية عكَّفُ
قعوداً وخلف القاعدين سطورُهم ... جنُوح وأيديهم جُموسٌ ونُطَّفُ
وماقام منا قائم فى نَدِيِّنا ... فينطق إلا بالتى هى أعرف ....

هل هناك فرق بين هذا الفخر فى موضوعه ، ومعانيه وألفاظه ، وأمثال له فى الشعر الجاهلى ؟ هل فيه من هذا كله مايشير أدنى إشارة إلى أن قائله المفتخر شاعر إسلامى يعيش فى حضر البصرة فى العصر الأموى ؟

الذى نتصوره أن الفرزدق وصاحبيه كانوا ينثرون بين أيديهم خزانة الشعر الجاهلى فى الفخر والهجاء ، ويروحون يتأملونه ويستوعبون صوره ، ويتحفظون معانيه وأساليبه ، ثم ينقلبون ينظمون على غراره.

---

(١) ديوانه ٢ / ٢٨ ــ ٢٩

ولِمَ نذهب إلى التصور ، والفرزدق نفسه يدلنا على مصادر شعره من التراث الجاهلى ؟! فهو يحدد لنا معالم هذا التراث ، بتحديد الشعراء الجاهليين الذين ورث عنهم الشعر ، ووضعوه بين يديه ، تركة موصى بها إليه ، وذلك فى قوله [١] :

وهب القصائدلى النوابغ إذْ مضوْا ... وأبو يزيد وذو القروح وجَرْول
والفحل علقمةُ الذى كانت له ... حُلل الملوك كلامه لاينحل
وأخو بنى قيس وهنَّ قتلنه ... ومهلهلُ الشعراءِ ذاك الأول
والأعشيان كلاهما ومُرَقِّشٌ ... وأخو قضاعة قولُه يُتَمثَّل
وأخو بنى أسدٍ عبيدٌ إذ مضى ... وأبو دؤادٍ قوله يُتَنَحَّلُ
وابنا أبى سلمى زهيرٌ وابنه ... وابن الفُرَيْعَةَ حين جد المِقْوَلُ

ويضيف إلى هؤلاء لبيد بن ربيعة ، وبشر بن أبى خازم ، وأوس بن حجر، والنجاشي ثم يقول :

دفعوا إلى كتابَهنَّ وصيةً ... فورثتهنّ كأنهنّ الجندل

وليس الفرزدق وحده ، الذى كان يضع خطوه فى نقائضه على خطو الجاهليين ، يترسمه ، ويتجه حيث اتجه ، ويسير حيث سار ، فالأخطل يدلنا هو الآخر على معاقد القدوة والمثل فى شعره من الشعراء الجاهليين ، وبخاصة نابغة بنى ذبيان ، وحتى لانلقى الكلام على عواهنه ، نورد هنا أبياتا للأخطل فى غير الهجاء والفخر ، ولكنها ذات دلالة واضحة على أنه كان ينظر هو الآخر إلى الشعر الجاهلى ، ويختار من بين شعرائه من يتخذه هاديا ونبراسا فى أسلوب شعره ، يقول الأخطل [٢] :

لقد نزلتُ بعبد الله منزلةً ... فيها عن الفقر منجاة ومُنْتَفَدُ
كأنه مزبدٌ ريّانُ منتجع ... يعلو الجزائر فى حافاته الزَّبَد
حتى ترى كلَّ مُزْورٍ أضرَّبه ... كأنما الشجر البالى به بُجُد
تظل فيه بناتُ الماء أَنْجِيةً ... وفى جوانبه الينبوت والخَضَدُ
سهلُ الشّرائع تَرْوَى الحائمات به ... إذا العِطَاشُ رأوا أوْضَاحه وردوا

---

(١) ديوانه ٢ / ١٥٩ ــ ١٦٠
(٢) ديوانه ٢١٧

ونضع بإزاء شعر الأخطل هذا شعرا للنابغة الذبيانى ، يعالج الموضوع نفسه — وهو المدح — يقول فيه [(١)] :

وما الفراتُ إذا هبّ الرياح له ... ترمى أواذيّه العبرين بالزَّبِدِ
يمدُّه كلُّ واد مُترَعٍ لَجِبٍ ... فيه ركام من الينبوت والخَضَدِ
يظل من خوفه المَلّاحُ معتصِماً ... بالخيزرانة بعد الأيْن والنَّجَدِ
يوماً بأجودَ منه سَيْبَ نافلة ... ولايحول عطاء اليوم دون غَدِ

فالمحاكاة — ولانقول السرق — واضحة فى الموضوع والمعانى ، والصيغ والأسلوب ، حتى الوزن والقافية استعارهما الأخطل من أبيات النابغة ، وتوظيف صورة النهر فى إبراز ، المدح بالكرم ، حذا فيه حذوه .

وأسلوب جرير فى المدح المستعطِف ، القائم على المبالغة والضراعة ، وإعلاء مقام الممدوح على أنقاض كرامة المادح ، يعكس هو الآخر ملامح أسلوب الأعشى فى هذه المناحى .

نخلص من هذا إلى أن شعراء النقائض ، بالتصاقهم بتقاليد الشعر الجاهلى ، وحرصهم على ترسمها ، حكوا لنا أساليب هذا الشعر الجاهلى ، ممثلا فى فحوله ، الذين أعجبوا بهم ، واتخذوهم أئمة وهداة ، يحتذون أشعارهم ، ويحاكون خصائصهم ، ولقد لفتت هذه المحاكاة نظر النقدة القدامى ، يقول أبو عبيدة معمر بن المثنى [(٢)] : « كان أبو عمرو الشيبانى يشبه جريرا بالأعشى ، والفرزدق بزهير ، والأخطل بالنابغة » .

من أجل هذا كانت النقائض الأموية مدرسة للشعر المحافظ القوى ، رسخت تقاليده ، وأحيت قيمه ، وأقامت عمده ، وغدا أسلوبها الشعرى ، بما عرف به من رصانة ، وجزالة ، ونبرة عالية ، وعراقة فى التقاليد ، نمطا للفحول المحافظين من شعراء العربية فى العصور التالية .

* * *

---

(١) ديوانه ٣٦

(٢) الأغانى ٧ / ٣٦ وانظر : ابن سلام ٦٦ (المدنى)

الفصل الخامس

الغزل في حضر الحجاز

— ١ —

نعنى بحضر الحجاز مدنه الكبرى فى العصر الأموى ،وهى : مكة والمدينة والطائف . وقد درج الباحثون — عادة — على أن يميزوا الغزل ، الذى عرف فى بيئة حضر الحجاز ، فى عهد بنى أمية ، بطابع حسى فى التعبير عن عواطف الحب ، تفرقه بينه وبين ضرب آخر من الغزل فى هذا العصر ، شاع فى البادية أكثر ماشاع ، وهو الغزل العذرى .

وبعض هؤلاء يطلق عليه « الغزل الحسى » واصلا بينه وبين نظير له فى العصر الجاهلى [١] .

ويفسر الدكتور طه حسين هذه التسمية ، ويعللها بقوله ، فى معرض الحديث عن غزل عمر بن أبى ربيعة : [٢] « وقد رأينا أن عمر لم يكن عذريا ، ولم يكن يريد أن يذهب مذهب العذريين ، وإنما كان عمليا محققا ، يلتمس الحب فى الأرض ،لا فى السماء » .

فهذا الغزل عنده محققٌ ، وشعراؤه محقِّقُون ؛ لأنهم يسلكون سلوكا عمليا إيجابيا فى تحقيق الوصل مع المرأة التى يعشقونها ، ويشدهم إليها جمالها الجسدى ، ورغبتهم العارمة فى الاستمتاع بهذا الجمال الجسدى .

وينحو هذا المنحى الدكتور شكرى فيصل ، ويرى أن هذا الغزل حسى ، يعبر عن حب ذى ميول حسية ، تتعلق بمظاهر الفتنة والجمال الشكلى فى المرأة ، ولانصيب لغزل عمر وأصحابه من شعراء الغزل فى حضر الحجاز الأموى ، من الصفاء النفسى ، أو التسامى العاطفى ، ويقول [٣] : « إنه هذا الحب الحسى ، الذى تكون المرأة ، من حيث هى خَلْق ، مبدأه ، وتكون كذلك غايته ، أماما وراء ذلك مما يحققه الحب من معنى التصفية النفسية ، ويقود إليه من التجرد عن المادة ، وأما الآفاق البعيدة التى تطلقها هذه الهزة الداخلية ، فشىء لم يشأ عمر أن يقف عنده ، إن اللبانة والحاجة ، وماإلى ذلك ، مما يتصل بالشهوة ، هى أكثر الكلمات دورانا فى هذا الشعر ، وأبرزها فيه » .

---

(١) الشعر بين الجمود والتطور (د . الكفراوى) ٥٦ — ٥٨

(٢) حديث الأربعاء ١ / ٣٠٨ وانظره أيضا فى ١ / ٣٢٤

(٣) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ٣٣٧

وجلى أنه يرى أن هذا الغزل الحجازى يفسر الحب ، أو فلنقل : يترجم الحب ترجمة مادية ،وأن شعراءه إنما تحركهم غرائزهم الشهوانية ، فهو حب مادى خالص ، دوافعه مادية خالصة .

وأغلب الظن أن هؤلاء الباحثين وغيرهم ، ممن وسموا غزل حضر الحجاز فى العصر الأموى بالحسية الخالصة ، إنما كانوا حريصين على التفرقة بينه وبين الغزل العذرى من ناحية ، وعلى أن يستحضروا ، وهم يحكمون على هذا الغزل ، صور الحياة ، التى تروى عن سلوك شعرائه فى حياتهم العاطفية ، من جرى وراء النساء ، وتنقل بهواهم ، أولهوهم ، من امرأة إلى غيرها ، من ناحية أخرى ، ثم مزجوا بين سلوكهم وأشعارهم الغزلة ، فرأوا هذا الغزل تفسيرا واقعيا ، أو حكاية فعلية لواقع حياتهم وسلوكهم ، واستقر عندهم هذا المزج بين السلوك والفن ، والحياة الواقعية والشعر ، واطمأنوا إلى مارتأوا حينما لاحظوا اتجاها إلى وصف مفاتن المرأة الجسدية فى بعض نماذج من شعر عمر بن أبى ربيعة وأصحابه ، وتصويرا لبعض المغامرات الجرئية ، التى يدعون أنهم قاموا بها لإرضاء نزعاتهم الحسية فى الحب ، ولم يجد هؤلاء الباحثون لدى العذريين نظيرا لهذا الاتجاه ، ولا لهذا التصوير ، ومن ثم صح عندهم أن هذين اللونين من الغزل على طرفىْ نقيض ، فقابلوا بينهما ، وتمخضت المقابلة عن تجريد الغزل الحضرى من كل ملمح من ملامح المعاناة العاطفية ، والإحساس بالصفاء والطهارة فى الحب ، ومن هنا ارتضوا تسميته بالغزل الحسى .

أما نحن فنميل إلى أن نطلق على الغزل الذى عرف وشاع فى بيئة حضر الحجاز ، فى العصر الأموى تسمية ، الغزل الحسى المتطوِّر اللاهى ، ونرى هذه التسمية أدق من تسميته بالغزل الحسى فقط ؛ لأن هذا الأخير — كما استقر فى الأذهان — تغلب عليه النزعة المادية ، التى تمزج بين عواطف الحب ، والميول الشهوانية ، والاستمتاع بالمرأة استمتاعا جسديا حيوانيا ، ولم تكن المادية ، والاستمتاع الجسدى ، من الخصائص البارزة فى شعر شعراء الغزل ، الذى عرف فى حضر الحجاز فى هذا العصر ؛ إذ كان حظه من الجانب النفسى التحليلى المعنوى أكثر من الغزل الحسى الجاهلى [١] ؛ لعناية الشاعر

(١) لأستاذنا الدكتور أحمد الحوفى فصل واف ممتع فى الغزل الحسى (أو المكشوف) عند الجاهليين فى كتابه : الغزل فى العصر الجاهلى ٢١٨ ومابعدها ، فليراجعه من شاء .

فيه بحكاية خواطره ومشاعره ، وخواطر المرأة التى يتعشقها ومشاعرها ، أكثر من عنايته بوصف هذه المعشوقة وصفا جسديا [١] كما سنرى .

فعمر بن أبى ربيعة ورفاقة فى هذا الغزل ، لم يكونوا مجرد طالبى متعة حسية ، يترجمون مغامراتهم إلى شعر « بل كانوا رجالا يريدون أن يحيوا حياة عاطفية ، لاهى خيالية مجردة ، كما يعيشها العذريون ، ولاهى حسية مغرقة فى المادية ، كما يراها كثير من الدارسين » [٢] ، وإنما حياة ترتقى وتتطور ، فتتمايز عن هذا وذاك .

ولسنا بهذا نتغاضى عن نصيب هذا الغزل من المادية فى الحب ونوازعه ، وإنما نرى أن تجارب شعرائه التى تصور هذه المادية ـــ على قلتها ـــ لاتصور نزعة شهوانية حقيقية عندهم ، بقدر ماتعبر عن اتجاه فنى عام ، حتى عند العذريين حين يبدو لهم أن يصفوا مظاهر الحسن والجمال فيمن يحبون ـــ كما سنرى ـــ كما أن هذه التجارب ، على أكثر التقدير ، لاتعدو التعبير عن الإعجاب الناشىء عن استعمال الحواس المختلفة ، ثم التحدث عما التقطته هذه الحواس من صفات المرأة الجسدية ، كسواد عينيها ، ودقة خصرها ، وليونه عودها ، وغزارة شعرها ... وما إلى ذلك ، مما كانوا يعجبون به من جمال المرأة ؛ وملاحظة لهذه التجارب ، لذا أسمينا هذا الغزل حسيًّا أيضا .

ـــ ٢ ـــ

إن القضية الكبرى التى يهتم بها عادة مؤرخ الغزل الحجازى المتطور ، تدور حول التساؤل التالى :

هل فى هذا الغزل مايعد إضافة جديدة لفن الغزل ، الذى جرى على ألسنة الجاهليين ، وصوروا فيه تجاربهم الحسية فى الحب ، أو فى علاقتهم العاطفية بالمرأة ؟؟

لعله مما يزيد من صعوبة الإجابة عن هذا التساؤل ، مايلاحظ من اختلاف مؤرخى الأدب المحدثين ، حول قضية الجمود والتطور ، أو التقليد والتجديد ، فى هذا الغزل الأموى بالحجاز .

---

(٢) ذهب إلى هذا الرأى الدكتور محمد هدارة فى كتابه : اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى ٥٠٠

(١) فى الشعر الإسلامى والأموى ١٨٥

فقد ذهب بعضهم إلى تجريده من كل مظهر من مظاهر التطور والتجديد ، مدعيا أنه صورة من الغزل الحسى الجاهلى بكل اهتماماته ، ونوازعه ، وأهداف تجاربه [١] .

ومال آخرون إلى أنه غزل عربى خالص لم يوجد إلا فى عصر بنى أمية ، ولم يكن له وجود مستقل بارز قبل هذا العصر ، وأن ماكان من غزل الجاهليين ، إنما هو وسيلة إلى ماكانوا يذهبون فيه من مذاهبهم الشعرية المختلفة ، من مدح ، وهجاء ، وفخر ، وحماسة ، ووصف ... وغيرها [٢] .

على أن منهم من اعتدل قليلا ، فذهب إلى أن هذا الغزل يجرى على عرف الجاهليين الحسيين فى غزلهم ، غاية الأمر أن غزل حضر الحجاز فصّل مالم يفصلوا ، وضخم مالم يضخموا [٣] ، أى أن مظهر التطور الوحيد الذى يعكسه هذا الغزل ، هو تفصيل التجارب الغزلة وتضخيمها ، ليس إلا .

ونحن نؤثر أن نحتكم إلى شعر مشاهير الشعراء الغزلين فى حضر الحجاز ، فنتقدم إلى دراسة طائفة من نماذج تجاربه ، ونحللّها ، ونستنطقها ، وبعد هذا الدرس ، لاقبله ، نستطيع أن نقف إلى جانب رأى من هذه الآراء ،أو نخالفها جميعا ، أو نتفق معها فى وجوه ، ونفارقها فى أخرى .

ويحسن ، قبل معالجة هذه النماذج ، أن نمهد لها بحديث موجز عن بيئة هذا الغزل يذكرنا بما سبق أن أوردناه ، عن الحياة فى حضر الحجاز فى العصر الأموى [٤] ، ويضيف إليه مايلقى الضوء على بعض جوانب هذه الدراسة .

— ٣ —

كان حضر الحجاز فى العصر الأموى يتطور ويتحضر ، تحت تأثير بعض العوامل ، التى أخذت تشكل حياته اجتماعيا وحضاريا .

---

(١) انظر مثلا : الشعر العربى بين الجمود والتطور ٥٦ ومابعدها .

(٢) انظر : مقالا للدكتور طه حسين بجريدة السياسة بتاريخ ١٠ ديسمبر ١٩٢٤ العدد (١٧) والتطور والتجديد ٢٤٦ — ٢٦٤ وتاريخ الشعر العربى (د . البهبتى) ١٤٣ — ١٦٠ واتجاهات الشعر العربى (د.هدارة) ٥٠٠ — ٥٠ .

(٣) انظر : الغزل فى العصر الجاهلى (د . الحوفى) ٢٥٣

(٤) راجع ص ٥٧ — ٦٢ من هذه الدراسة .

ويأتى فى مقدمة هذه العوامل ، كثرة العناصر البشرية الأجنبية ، التى تدفقت على حضر الحجاز ، خلال الفتوح الإسلامية ، ومن بعدها فى عصر بنى أمية ، بحيث امتلأت منازل أهله ــ وبخاصة منازل الأشراف والسادة وذوى الثراء منهم ــ بالجوارى الروميات والفارسيات ، وكثرة استيلاد هؤلاء الإماء ، مما نتج عنه اختلاط الدماء فى البيت العربى غالبا ،بحيث لم يعد هذا البيت عربيا خالصا ، كما كان ، بل غدا بيتا مختلطا ، ورب البيت هو العربى الخالص ، وربما كان هو الآخر من أبناء المولّدات .

ولانشك فى أن هؤلاء الإماء المولدات غرسن فى أولادهن ، عادات وأساليب سلوك ، ومظاهر حياة ، أكثر حضارة ، جئن بها من حضارة أجناسهن ، الفارسية ، أو الرومية ، أو السورية ، أو المصرية ، وهى حضارات متفوقة على الحضارة العربية [١] .

وكان من بين هؤلاء الإماء عدد غير قليل من ذوات الجمال الفاتن ، الذى يشد إليه العيون التى تتذوق الجمال ، من شباب حضر الحجاز الفارغين المترفين ، والأمة ــ كما هو معروف ــ لاتتحرى الصون والعفة والاحتشام ــ غالبا ــ وإنما هى ، كما يقول الجاحظ [٢] : « لاتكاد تخالص فى عشقها ،ولا تناصح فى وُدِّها ؛ لأنها مكتسبة ومجبولة على نصب الحبالة والشَّرَك ..... فإذا شاهدها المشاهد ، رامته باللحظ ، وداعبته بالتبسم ، وغازلته فى أشعار الغناء ، ولهجت باقتراحاته ، ونشطت للشرب عند شربه ، وأظهرت الشوق إلى طول مكثه ، والصبابة لسرعة عودته » .

كما أن الأمة ، بحكم تبذلها ،وقيامها على أمر سادتها ، وتخلف مكانتها الاجتماعية ، عرضة لما يفتنها عن نفسها ، ويخدعها فى شرفها ، فتنقلب مع طول التجارب ، مفتونة فاتنة ، مخدوعة خادعة ، فاسدة العفة ، مفسدة للأخلاق ، وفى هذا يقول الجاحظ [٣] : « وكيف تسلم القينة من الفتنة ، أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وإنما تُكْتَسَبُ الأهواءُ ، وتُتَعلَمَّ الألسنُ والأخلاق بالمنشأ ، وهى تنشأ .. [على ما] يصد عن ذكر الله ، من لهو الحديث ،وصنوف اللعب والأخانيث ، وبين الخلعاء ، والمجان ، ومن لايُسمَع منه كلمة جِدّ ، ولا يُرجع منه إلى ثقة ولادين ، ولاصيانة مُرُوَّة » .

---

(١) للاستزادة . انظر: فجر الإسلام ١ / ١٠٨ ومابعدها

(٢) رسائل الجاحظ ٢ / ١٧١

(٣) المصدر السابق ٢ / ١٧٦

وإلى جانب ماكان يتمتع به هؤلاء الإماء فى حضر الحجاز من فتنة الجمال ، كان من بين هؤلاء الجميلات ، من هنَّ على دراية واسعة بفنَّىْ الغناء والموسيقى ، مما أهلهن للأخذ بيد هذين الفنين فى هذه البيئة ،وإشاعة لون من المرح واللهو فيها .

حقا كان فى مكة والمدينة ، قيان وغناء وموسيقى منذ العصر الجاهلى [١]، ولكن هذا الفن كان مايزال يحبو فى صورة عربية ساذجة ، وحتى حينما عُرِفَ الغناء الفارسى والرومى فى البيئة العربية فى العصر الجاهلى ، كانت هذه المعرفة سحطية محدودة الأثر [٢] ؛ إذ كان القيان الأجنبيات يغنين بلغتهن غالبا ، ويطرب الناس بالنغم والألحان ، مما لايتيح لهن التأثير الواضح فى الغناء العربى ، ولذا ظل هذا الغناء ساذجا ،يذكر أبو الفرج الأصفهانى [٣] : أن الغناء العربى لم يكن معروفا فى زمان عمر بن الخطاب ، إلا ماكانت العرب تستعمله من النَّصَب (وهو ضرب من الحداء) والحداء ، وذلك جارٍ مجرى الإنشاد ، إلا أنه يقع بتطريب وترجيع ، ورفع للصوت ، كما أنه يذهب إلى أن أول من نقل الغناء الفارسى إلى غناء العرب ، سعيد بن مِسْجَح ، أو ابن مُحرز ، أو سائب خاثر ، أو نُشيْط ، أوطُويس [٤] ، وكلهم من موالى العصر الأموى .

وأبو الفرج لايجهل وجود قيان فارسيات وروميات فى البيئة العربية فى العصر الجاهلى ؛ ولذا نرجح أنه إنما أراد أن هؤلاء الذين ذكرهم كان لهم فضل ربط الغناء الأجنبى بالغناء العربى ، وتعريبه على نطاق أوسع وأشمل ، مما كان عليه الحال فى العصر الجاهلى .

ولم تكن العناصر البشرية الأجنبية التى تدفقت على إقليم الحجاز قاصرة على الإماء الجميلات والمغنيات والموسيقيات ، فإلى جانب هؤلاء وفد كثير من الموالى المغنين والموسيقيين على هذه البيئة ، وكان لهذا أثره القوى فى إشاعة الاهتمام بهذين الفنين ، اللذين صارا من أهم وسائل اللهو والمتعة حينئذ ، وأقبلت عليهما الجماعة الثرية المترفة من أبناء حضر الحجاز ؛ لتقطع أوقات فراغها بشىء تجد فيه لهوها ومتعتها ، بعد أن نفضت أيديها من شئون السياسة ، التى حال بينهم وبينها بنو أمية ، وأرادوا لهم أن يشغلوا عنها ، بما توفر

(١) انظر فى هذا : تيارات ثقافية بين العرب والفرس ٦٤ـــ ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ١٢٠

(٢) المصدر السابق ١٢٠

(٣) الأغانى ٨ / ١٤٤

(٤) المصدر السابق ٣ / ٨١ ، ١ / ١٤٦ وانظر : تيارات ثقافية ٧٥

لهم من وسائل اللهو ، ومازادوهم به منها ، حتى يأمنوا جانبهم ،فقد كان الأمويون « يخشون من أبناء الرؤساء فى الحجاز ، أن ينصرفوا عن حياة الفراغ » إلى حياة الجد والطموح ، فليس فى جدهم وطموحهم أمان للدولة ... وإنما الأمان لها كل الأمان أن يلعبوا ويرتعوا ، ويجتمعوا على اللغو والفضول ، وإيثار الدعة والرخاء » فاستأنفت الحواضر الحجازية تاريخا قديما طويلا فى اللهو والمجون [١] » .

وماالذى يحول بين الراغبين منهم فى التسلى باللهو ، وبين هذه الحياة ؟ فالمال ينساب فى حجورهم انسيابا » وشئون حياتهم وعيشهم مكفية بمن يقوم على خدمتهم من العبيد والجوارى .

واستتبع هذا شيوع نوع من الحرية فى حياه الرجل الحضرى ، والمرأة الحضرية ؛ لتعلقهما بسماع الغناء والموسيقى ، والجلوس إلى المغنين والمغنيات » وكان هؤلاء يملكون » فكانوا يغنون دائما » حسب إرادة سادتهم وسيداتهم ؛ إذ كانوا رهن إشارتهم .

بذلك تحولت مدن الحجاز « إلى مايشبه المسرح الكبير ، فالمغنون والمغنيات » مايزالون يضربون فى الصباح والمساء على أوتارهم ، وهذا الشباب المتعطل من حولهم ، فتيات وفتيانا » يجتمع بهم ، ويستمع إليهم ، يستمع فى بعض المنازل حينا ، ويستمع فى بعض المتنزهات بالضواحى [٢] »، فقد علمهم هذا الرقيق الفارسى ـــ فيما علمهم ـــ صورة مجالس الغناء ، والاجتماع لسماعه [٣] .

وبذا تخلصت مدن الحجاز من الطابع البدوى » إلى حد كبير، وغدت تتمتع بطابع حضارى بارز ، من أوضح مظاهرة ، الانغماس فى مباهج الحياة ومتارفها .

فلأول مرة نجد من بين أثرياء مكة ، من يبتنى قاعة فسيحة ، ويخصها للهو وللقراءة معا، يجد فيها الرواد الشطرنج وغيره ، من ألعاب الرُّقع ، كما يجدون الكتب للقراءة سواء بسواء [٤] .

---

(١) جميل بثنية (العقاد) ص ١١
(٢) التطور والتجديد ٢٤١
(٣) فجر الإسلام ١ / ١٤٤
(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية (بروكلمان) ١ / ١٤٠

وينبغى أن ننبه هنا إلى أن هذا المجتمع الذى تحضر ، لم يكن ماجنا منحلا ، إلى الحد الذى يصوره بعض الرواة ، حينما قرءوا مثل قول العرجى [١] ، عن بعض ما كان يقابلهن فى موسم الحج [٢] :

أماطتْ رداءَ الخزّ عن حُرّ وجهها وأدنت على الخديْن بُردا مهلهلا
من اللاءِ لم يَحْجُجْنَ يبغين حِسْبَةً ولكنْ ليقتلن البرىء المغفّلا

ففرق بين أن يكون المجتمع حرا ، وأن يكون منحلّا ماجنا .

نعم ، نالت المرأة الحجازية الحضرية قسطا غير هيِّن من الحرية فى العصر الأموى ، لم تحظ بمثله جدتها أو أمها ، وكان لمنافسة الجوارى لها فى رجلها من الأثر ماجعلها تتخلص من بعض حجابها القديم ، إن كان قد وجد أصلا ، فعند الجاحظ أن نساء العرب لم يكن يحتجبن عن الرجال ، ولاكنّ يرضين مع سقوط الحجاب الفلته ، ولا لحظة الخُلْسَة [٣] .

كما أنها لم تجد بأسا من مجالسة الرجل ومحادثته ، والتسامح فى الحديث معه ، فتطريه ، أو يطريها ، أو ترغب فى غزله ؛ إذ كان يسرها أن يشبب بها شاعر — سيما إذا كان مشهورا — « وإن كانت لاترجو التزوج به ، ولكن يسرها مافى التشبيب من الإعجاب ... بجمالها ،سواء فى ذلك الأميرة والحقيرة [٤] » .

روى أن أم محمد بنت مروان بن الحكم قدمت على عمر بن أبى ربيعة فى الموسم ، وطلبت إليه أن يشهرها بشعره ، وبعثت إليه بألف دينار ، فأبى أن يأخذ على التشبيب أجرا ، واشترى بالجائزة حللا وطيبا ، وأهداه إليها [٥] .

فهل كان من المعقول أن يخرج عمر بن أبى ربيعة فى هذا التشبيب عن العفه

---

(١) أبو عمر عبد الله بن عمر بن عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان ، لقب بالعرجى ، لأنه كان يسكن عرج الطائف ، أو لأنه ولد به ، أو كان له مال فيه ، فكان يكثر الاختلاف إليه ، فشهر به ، وهو شاعر قرشى مليح الشعر ، وقف شعره على الغزل ، ونحا فيه منحى عمر بن أبى ربيعة فأجاد ، حبسه محمد به هشام بن اسماعيل المخزومى ، لأنه شبب بأمه نكاية فيه ، وضربه حتى مات فى السجن . وأخباره طويلة . انظرها فى : الأغانى ١ /١٤٧ وسمط اللاتى ١ / ٤٢٢ ومعجم البلدان (عرج) ومعاهد التنصيص ٢ / ٥٥ والشعر والشعراء ٢٢٤

(٢) ديوانه ٧٤ والتذكرة السعدية ٥٣٦

(٣) رسائل الجاحظ ٢ / ١٤٨ ، وانظره أيضا ٢ / ٤٩

(٤) تاريخ آداب اللغة (زيدان) ١ / ٢٢٧

(٥)الأغانى ١ / ٦٨

والاعتدال مع هذه الشريفة ، وغيرها من شريفات قريش اللائى لم يدع منهن واحدة إلا شبب بها ؟ كما يقول الدكتور طه حسين [١] .

ويذكر أبو الفرج أن سكينة بنت الحسين ، ومعها نساء من شريفات المدينة أرسلن إلى عمر بن ربيعة ، وقد تشوقن إلى لقائه ، بعد أن تذاكرن حلاوة شعره ، وحسن ظرفه ، أن يوافيهن فى مكان وموعد محددين . فقضى بينهن وقتا طويلا من الليل ، ينشدهن ، ويحادثهن ، ثم عاد إلى مكة ، وقال [٢] :

قالت سكينة والدموع ذوارفٌ ... منها على الخدَّين والجلباب
ليت المغيرى الذى لم يجزه ... فيما أطال تصيُّدى وطلابى
كانت تردّ لنا المنى أيامه ... إذْ لانلام على هوىً وتصابى ....

وهذا الذى حكاه عمر فى هذا الشعر ، ضرب من التخيل الفنى ، الذى كان يرضى زهو عمر بنفسه ، كما سنبيّن فيما بعد ، وهو مع ذلك لم يغضب سكينة حين رُوِىَ لها هذا الشعر ؛ لأنها وغيرها من الشريفات اللائى شبب بهن عمر ، وغير عمر من شعراء حضر الحجاز الغزلين ، كن يفهمن مثل هذا الشعر على أنه زاد فنى ، يجدن فيه متعة بريئة ، كما يجد فيه أهل بيئتهن الحجازية الحضرية، من أصحاب المقامات والمنزلة مثل هذه المتعة .

ونحن نعرف أن سكينة وأمثالها من شريفات النساء ، وذوات العراقة فى الحسب والنسب ، والبصر بالشعر وثقافته ، كن يفسحن فى مجالسهن للشعراء وأهل الغناء ، ويستمتعن بسماع الشعر والغناء ، ويشاركن فى نقده والتعليق عليه ، مما يدل على ما كن يتمتعن به من ذوق حضرى ، ومزاج فنى رفيع .

الأمر إذن ليس تحلّلا ولا خلاعة ، ولا استهتارا بقيم الصون والعفاف ،فهؤلاء الشريفات وغيرهن لايُسمح لهن ، ولايسمحن لأنفسهن بشىء من هذا . وإنما رغبت تلك الطائفة من النساء ، ذوات المكانة والذوق والثقافة فى أن يحققن لأنفسهن شيئا من

---

(١) حديث الأربعاء ١ / ٣١٤
(٢) الأغانى ١ / ١٢٠ والشعر والشعراء ٢١٦

الشهرة الاجتماعية ، فى نطاق مايسمح به مجتمعهن ، ولم يكن هناك ماهو أفعل فى تحقيق هذه الغاية من أن يربطن أسبابهن بأسباب شعراء البيئة الغزلين المشهورين ، الذين يلهج الناس بأشعارهم ، ويتغنى بها المغنون .

دلالة هذا كله أن المرأة الحجازية فيما كانت تتمتع به من حرية فى لقاء الرجل ، لم تنزلق فى مهاوى المجون والانحلال الخلقى ، كما تصور بعض الرواة (١) ، ومن جاراهم ، وخدع برواياتهم من الباحثين .

ونحن نلتمس صورة المرأة التى تحدث عنها هؤلاء الرواة عند الشعراء الغزلين فى حضر الحجاز ، فلا نجد مصداقا لما ذهبوا إليه ، وإنما نجد امرأة أترف ذوقها ، فتطلعت إلى المشاركة فى تذوق الحياة الفنية المتاحة فى عصرها ، امرأة تنفق حياتها فى الدعة والنعمة ، وتقيم صلتها بالرجل على نوع من الحرية ، يحوطه سياج من العفة والطهر ، الذى يليق بنبالتها ، وعريق أصلها ، ومكين شرفها ، ولايخلو مع ذلك من اللهو البرىء ، والدعابة الطريفة ، والظرف المحبب (٢) .

وإنما أوقع هؤلاء الرواة فى هذا الوهم ، أنهم تصوروا شعر الشعراء الغزلين بالحجاز يحكى كله واقعا ، عبر عنه الشعراء ، وفهموا أن كل ماقالوه إنما هو انعكاس حقيقى لسلوك فى حياتهم ، ولم يفطنوا إلى أن الشعراء كانوا يستوحون الخيال ، ويعبرون عن تجارب متخيلة ، أكثر مما يعبرون عن تجارب واقعة .

يشهد لهذا قول نصيب بن رباح الشاعر : « جميل أصدقنا شعرا ، وكثيرٌ أبكانا على الظعن ، وابن ربيعة أكذبنا ... »

فهذا الشاعر يعرف أن تجارب عمر بن ربيعة التى عبر عنها ، لم تكن كلها مستمدة من واقع حياته وسلوكه .

ولأدل على هذا من خبر عمر مع عائشة بنت طلحة بن الزبير ، فقد أقبل عليها وهى

---

(١) انظر مثلا : الأغانى ١ / ٣٥ ومابعدها

(٢) ذهب إلى هذا الدكتور طه حسين فى مقاله بجريدة السياسة عدد ١٠ ديسمبر ١٩٢٤ م

جالسة بفناء الكعبة ، فقال لها [١] : ألا أنشدك ماقلت فى موسمنا هذا (موسم الحج) ، قالت : بلى ، فأنشدها :

يارَبّة البغلة الشّهباء هلْ لك فى ... أن تنشُرى عمراً لا ترهقى حرجا
قالت بدائك مت أوعِشْ تعالجه ... فما نرى لك فيما عندنا فرجا
قد كنت حمّلتنا ثِقْلاً نعالجه ... فإن تُقِدْنا فقد عنيّتنا حِجَجا

فقالت عائشة : لاورب هذه البنْية ياأبا الخطاب ماعنيتنا قط طرفة عين .

فى مثل هذا المجتمع المتحضر المترف ، تشيع أحاديث الصبابة والغزل ، حتى ليخيل لمن يقرأ فى غزل هذه الفترة ، أن حضر الحجاز غدا أشبه بدوحة وارفة الظلال ، باسقة الأغصان ، وعلى كل غصن ، وتحت كل ورقة منها ، وقف عصفوران يتناجيان ، أو بلبل يغرد ، أو كروان يشدو ، وفى جوانب من هذه الدوحة وقف عمر بن أبى ربيعة ، والعرجى ، وابن قيس الرقيات ، والحارث بن خالد المخزومى [٢]، وأبـو دَهْبَل الجُمحى [٣] ، والأحوص بن محمد ، وعبد الرحمن بن حسان ، ينشدون أناشيد الهوى ، ووقف وراءهم المغنون والمغنيات ، والملحنون معازفهم على صدورهم ، يحيلون تلك الأشعار إلى أغان عذبة ، وألحان شجية ، وجمهور أهل الحضر من حولهم سعيد مفتون بنتاج هؤلاء وأولئك ، مشغول بمغامراتهم ، متتبع أخبارهم .

وليس من المبالغة فى شيء أن نقول : إن جمهور أهل الحضر فى الحجاز ،

---

(١) أمالى القالى ٢ / ٣١٨ والشعر دون الخبر فى رسائل الجاحظ ٢ / ٣٦١ وانظر أمثلة أخرى فى أمالى الزجاجى ١٠٦ ، ١٢٢ ــ ١٢٣

(٢) فى سمط اللآلى ٢ / ٦٤٥ والموشح ٢٠٩ الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومى ، وهو أحد شعراء قريش المعدودين ، وكان ذا قدر فيهم ، قيل : كانت العرب تفضل قريشا فى كل شيء إلا فى الشعر ، حتى كان فيهم عمر والحارث والعرجى وأبو دهبل وابن قيس الرقيات ، فأقر العرب لها بالشعر أيضا ، وقد سار الحارث على مذهب عمر المخزومى أيضا فى الغزل ولم يتجاوزه إلى مديح أو هجاء ، وتولى الحارث إمارة مكة لعبد الملك بن مروان . وانظر : الأغانى ٣ / ٩٧ ، ٨ / ١٣٢ وخزانة الأدب ١ / ٢١٧ وشرح الحماسة للمرزوقى ٣ / ١٢٨٢ .

(٣) وهب بن زمعة بن أسيد بن أحيحة من أشراف بنى جمح من قريش ، نبغ فى الشعر فى أواخر عهد الراشدين ، وله مدائح فى ابن الزبير ، الذى ولاه بعض أعمال اليمن ، ولكنه كان مشتغلا بالغزل عن الالتفات إلى عمله ، وقد شبب بعاتكة بنت معاوية بن أبى سفيان فى خبر مروى . انظر : الأغانى ٦ / ١٤٩ والشعر والشعراء ٢٣٥ والاشتقاق ١٢٩ ومصارع العشاق ٨٧ .

كانوا يشاركون هؤلاء الشعراء عواطفهم وأحاسيسهم ، ويتعشقون الجمال ، كما تعشقوه ، ويطربون لأحاديثه ، كما طربوا ، ومن حرم منهم موهبة الشعر قنع بالتصفيق للشعراء ، وترديد أناشيدهم ، حتى الزهاد والعلماء والعباد من أهل الحضر ، اقتحم هذا التيار الغزل ، على كثير منهم مساجدهم ، وحلقات دروسهم ، وخلواتهم .

فهذا عُروة بن أذينة [(١)] ، الفقيه المدنى ، والناسك المحدِّث ، أسره سلطان الحب ، فانطلق لسانه بأناشيد الهوى والغرام [(٢)] ، وهو القائل [(٣)]:

إذا وجدتُ أُوار الحبِّ فى كبدى ... أقبلتُ نحو سِقَاءِ القوم أبتردُ

وناسك فقيه آخر ، هو عبَيْد الله بن عبد الله التابعى ، أحد الفقهاء السبعة ، الذين انتهى إليهم العلم بالمدينة المنورة ، جرى الشعر على لسانه ليعبر عن رقة قلبه للغزل ، وهو القائل:[(٤)]

كتمتَ الهوى حتى أضرَّ بك الكتمُ ... ولامك أقوام ولومهمُ ظُلْمُ

وعبد الرحمن بن عمارّ الجشمى الملقب بالقَسّ ــ على تقواه وورعه ــ أحب

---

(١) أبو عامر مالك بن الحارث ، فقيه ناسك محدث ثقه ، روى عن مالك وعبد الله بن عمر وغيرهما ، وكان أيضا شاعرا غزلا من مقد مى شعراء الغزل بالمدينة ، ومع تغزله كان يوصف بالعفة ، توفى سنة ١٣٠ هـ .
انظر : الشعر والشعراء ٢٢٥ والأغانى ٢١ / ١٠٥ والمؤتلف ٥٤ وحماسة الظرفاء ١ / ٢٠٨ وفوات الوفيات ٢ / ٣٥ وله شعر كثير انظر منه فى أمالى القالى ٢ / ١١٢ ، ١٧٤ والذيل ١٢٦ وأمالى المرتضى ١ / ٤١٣ ، ٤١٤ .

(٢) الأغانى ٢١ / ١٠٧

(٣) سمط اللآلى ١ / ١٣٦

(٤) هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، وعتبة هو أخو عبد الله بن مسعود الصحابى المعروف ، هذلى الأب والأم (سمط اللآلى ٢ / ٧٨١) قال البكرى : وهو أشعر الفقهاء ، وكان سعيد بن المسيب إذا لقيه قال له : أنت الفقيه الشاعر ؟ فيقول : لابد للمصدور أن ينفث ، وهو أستاذ محمد بن شهاب الزهرى ، وعمر بن عبد العزيز الأموى (سمط اللآلى ٢ / ٦٥٥) توفى سنة ٩٨ هـ ، قيل : إن ابن شهاب الزهرى سمع شعرا له فقال : مثلك يرحمك اللهمع نسكك وفضلك وفهمك يقول الشعر !! فقال : إن المصدور إذا نفث برىء (أمالى المرتضى ١ / ٣٩٩) وانظر: الإمتاع والمؤانسة ١ / ٢٦ ، والفقهاء السبعة هم : أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ، وعروة بن الزبير بن العوام ، وسعيد بن المسيب ، وسليمان بن يسار ، وخارجة بن زيد بن ثابت ، وعبيد الله هذا ، قال ابن رشيق ، وهم فقهاء المدينة ، وأصحاب الرأى ، الذين هم عليهم المدار ، (العمدة ١ / ١٨) . وانظر فى أخباره أيضا : التذكرة السعدية ومراجعها فى الهامش ٤٦٨ ، وله أشعار مروية انظرها فى : أمالى القالى ٢ / ٢٦١ والنوادر للقالى ٢٢٣ ومصارع العشاق ٢١١ والعقد الفريد ٣ / ٣٩١

سَلّامة المغنية ، وبكى بين يديها ، ومن شعره فيها قوله ، يرد على من لامه فى هواها : [١] :

وإنى إذا ما الموتُ حلَّ بنفسها يُزالُ بنفسى قبل ذاك فأُقْبَرُ
أرى هجرها والقتْل مثلَيْن فاقْصِروُا ملامَكمُ فالقتل أعفى وأَيْسَرُ

قال ابن سيرين : وهؤلاء العلماء كانوا يعشقون بلا ريبة [٢] .

وفيما يروى أن عبد الله بن عباس ، الفقيه ، المفسّر ، المحدث ، الورع ، استقبل عمر بن أبى ربيعة [٣] فى المسجد ، وعنده جماعة من أهل العراق ،يسألونه فى أمور الدين ، فيهم نافع بن الأزرق ، واستنشده بعض شعره فى الغزل ، الذى يروى مغامرات الحب [٤] ، فأنشده رائيته التى مطلعها :

أمِنْ آل نُعْمٍ أنت غادٍ فمُبْكِرُ غداة غدٍ أم رائح فمهجِّرُ

حتى أتمها ثمانين بيتا ، فقال له ابن الأزرق : لله أنت ياابن عباس ، أنضرب إليك أكباد الإبل ، نسألك عن الدين فتعرض ، ويأتيك غلام من قريش ، فينشدك سفهاً فتسمعه !! فقال ابن عباس : تالله ماسمعت سفهاً ، فقال ابن الأزرق : أما أنشدك :

رأيتُ رجلا أمّا إذا الشمسُ عارضتْ فيخزَى وأما بالعشى فيخْسَرُ ؟

فقال ابن عباس : ماهكذا قال ، إنما قال : « فيضحى وأما بالعشىِّ فيخْصَرُ »

---

(١) الموشح ٢٢٥

(٢) تزيين الأسواق ص ٧

(٣) أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة وكان أبوه عبد الله يدعى بحيرا فسماه الرسول (ص) عبد الله واستعمله عمر بن الخطاب على الجَنَد باليمن واستمر واليا إلى أن جاء لنصرة عثمان فمات قرب مكة ، وعمر أمير الغزل فى العصر الأموى ، ولد فى الليلة التى مات فيها عمر بن الخطاب سنة ٢٣ هـ ، ونفاه عمر بن عبد العزيز إلى دَهْلَك ، من قرى اليمن على ساحل البحر ، لما شاع غزله ، وتعرضه للنساء ، ومنهن سكينة بنت الحسين ، وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان وعائشة بنت طلحة وغيرهن ، ثم غزا فى البحر ، فأحرقت السفينة التى كان بها فاحترق سنة ٩٣ هـ .وأخباره مستفيضة . انظر : الأغانى ١ / ٢٨ ، ١٦ / ٢ والشعر والشعراء ٢١٦ والحماسة لأبى تمام (طبعة الرياض) ٢ / ٢٤ وآداب الشافعى ومناقبه ٢٦٣

(٤) الأغانى ١ / ٣٢ ــ ٣٣ وانظر : ذيل أمالى القالى ١٤٣ وتزيين الأسواق ٣٥

قال : أو تحفظ ماقال ؟ قال :والله ماسمعتها إلا ساعتى هذه ، ولو شئت أن أردها لرددتها ، قال : فارددها ، فأنشده إياها [١] .

ولعلنا بعد ذلك الذى ذكرناه عن طبيعة هذا الغزل الحضرى الحجازى ، وتجارب شعرائه لانغضب لابن عباس ، كما غضب منه ابن الأزرق ، فما رأى هذا الشريف الورع العالم فى شعر عمر بن أبى ربيعة إلا مارأته الشريفة النسيبة سكينة بنت الحسين ، وفاطمة بنت عبد الملك ، وعائشة بنت طلحة ، وجماعة العلماء والزهاد ، الذى تحدثنا عن بعضهم ، وكلهم ـــ ومعهم ابن عباس ـــ ينظرون إلى هذا الشعر على أنه زادفنى ، وخيال شعرى ، ولهوبرىء ، فهذا الخبر لايسىء لابن عباس ، ولايمس مكانته الدينية ، ولانزاهة نفسه ، عند من لا يعميهم التعصب ، ولاتقعد بهم مشاعرهم الغليظة عن تذوق الفن البرىء .

وهناك وفرة من الروايات ، التى تدل على تذوق أهل حضرا الحجاز لهذا النوع من الغزل ، وقصة الحب التى يعبر عنها ، والأغانى التى تتخذه مادة لها [٢] ، نقرأ فيها كيف كان شباب الحجاز ، وكثير من أهل المكانة والكرامة والعلم والحسب فيه ، يطّرحون الوقار عند سماع أشعار الغزلين ، وغناء المغنين فيها ، أو تستروح عيونهم لمجالى الجمال ، أو يُسْفرون بين الشاعر وصاحبته ، أو تتسع صدورهم لسماع الشعر والغناء .

وكأنما كان العلماء وأهل الورع من الحجازيين يرون فى إدراك الجمال على هذا النحو ، معنى من إدراك جمال الله ـــ عز وجل ـــ والتفات إلى تأمل إتقان صنعه ، فى بدائع صنعته ، وأن هذا لايتعارض مع الدين أى تعارض ، كما يرون فى الاستماع إلى شعر الغزل والجمال استرواحا للنفس « فكلام العشاق ومنادمتهم تزيد فى العقول ، وتحرك النفوس ، وتطرب الأرواح ، وتجلب الأفراح » ، كما يقول ابن أبى حجلة المغربى [٣] .

---

(١) الكامل للمبرد ٣ / ١٣٥ والأغانى ١ / ٣٢ . عارضت : قابلت ، يعنى ارتفعت فى السماء . يضحى : يظهر للشمس . يخصر : يبرد ، والسفه الذى يعنيه نافع ابن الأزرق هو الترف ، حيث يصف رجلا مترفا لينا ، ليس بشديد ولا جَلْد ، والجَلْد يصف نفسه بالضحاء والبروز للشمس ، وقلة الاستظلال (سمط اللآلى ٢ / ٦٧٣) .

(٢) انظر مثلا : الأغانى ١ / ٨٥ ، ٤ / [illegible] ، ١٥٢ ، ٦ / ٨٨ وانظر كذلك : تاريخ الشعر العربى (البهبيتى) ١٢١ ـــ ١٢٣ ، ١٢٧ ـــ ١٢٨

(٣) ديوان الصبابة (على هامش تزيين الأسواق) ٢٣

فى ظل هذا الخصب النفسى فى تذوق الحياة ، والمرح ، والفن ، ومايصاحب ذلك من خفة الروح والظرف المعروف عن أهل الحجاز [١] ، نما الغزل الحجازى فى الحضر وازدهر نتاجا لكل العوامل التى ذكرنا .

وإذْ فرغنا من هذا التمهيد ، الذى لم يكن منه بدّ ، لتصور الجو العام ، الذى كان يتحرك فيه الشعراء الغزلون ، وينشدون أشعارهم ، فقد آن لنا أن نأخذ فى دراسة طائفة من ألوان هذا الشعر وصوره ؛ لنخلص إلى تحديد موقفنا من القضية الكبرى ، التى تشغل المؤرخ لهذا الفن ، والتى أشرنا إليها فى صدر هذا الفصل .

— ٤ —

أولا : صورة المرأة فى الغزل الحجازى :

أبرز ملامح هذه الصورة :

١ — الترف والتنعم والتحضر ، من صفات المرأة الموصوفة فى غزل الحجاز الحضرى ، وشعراؤه يلحون على هذا الجانب من صورتها ، ويبرزونه فى مظاهر مختلفة .

منها : نعومة البشرة ، من أثر الترف والنعمة ، يقول عمر بن أبى ربيعة فى صاحبته [٢] :

لو دَبَّ ذَرٌّ رُوَيْداً فوق قَرْقَرِها ... لأثر الذر فوق الثوب فى البشر

فهذه المرأة قد بلغت من رقة البشرة وحساسيتها ، من أثر النعيم والترف ، أن لو مشى صغار النمل ، مشيا وئيداً فوق ثوبها ، دون أن يلامس بشرتها لترك أثرا واضحا على ظاهر جلدها !!

---

(١) حكى المرزبانى قال : سئل أبو نوفل : هل سلم أحد من العشق ؟ فقال : نعم ، الجلف الجافى الذى ليس له فضل ، ولاعنده فهم ، فأما من فى طبعه أدنى ظرف ، أو معه دماثة أهل الحجاز ، فلا يسلم منه . (ديوان الصبابة ٢٣) وانظر فيما عرف به أهل الحجاز من ظرف ودماثة وتسامح فى اللهو والغناء : فجر الإسلام ١ / ٢٠٩

(٢) ديوانه ١١٧ الذر : صغار النمل .القرقر : ثياب المرأة . البشر : الجلد .

ويبالغ عمر فى هذا المعنى ، فيترك الذر ليلامس البشرة فى مشيه الوئيد ، فإذا بجلد هذه المرأة المترفة المنعمة قد ظهرت عليه آثار هذا السير ، جروحا ملتهبة [(١)] :

لو دبّ ذرٌّ فوق ضاحى جلدها　　لأبان من آثارهن حُدور

أرأينا ، كيف بلغ من حساسية بشرة صاحبته ، أن لو اتصل النمل الصغير بظاهر جسمها ، لترك فيه من آثار سيره كلوما وأوراما !!

ومنها : لين الحياة وترفها وتحضرها ، وبهذا يصور الأحوص [(٢)]صاحبته [(٣)] :

ولها مَرْبَعٌ بِبُرْقة خَاخٍ　　ومصيفٌ بالقصر قصر قُباء

فهذه ليست صورة امرأة بدوية ، تعيش عيشا خشناً ، بل صورة امرأة متحضرة مترفة ، تقضى الربيع بين الخضرة والأزاهير ، وتصطاف فى قصر لها ، بضواحى مدينتها ، فما أشبهها بغانية أيامنا هذه !!

ومنها : ألوان الزينة والطيب ، وفى غزلهم شعر كثير يصف ملابس المرأة التى تحضرت ، وماكانت تغرق نفسها فيه من صنوف الحلى ، وأنواع الطيب .

نأخذ ــ مثلا ــ قول الأحوص [(٤)] :

يَزِين لَبَّتها دُرّ تَكنَّفَه　　نُظّامُه فأجادوا السَّرْد إذ سَرَدُوا

دُرّ وشَذْرٌ وياقوت يفصِّله　　كأنه إذْ بدا جمرُ الغضا يَقِدُ

إنها تتزين بعقد ثمين ، متقن الصنعة ، نظمته يدُ صناع ماهرة ، وجمعت فيه ألوانا من المعدن والأحجار الكريمة ، ففيه الدر ، وقطع الذهب الصغيرة ، والياقوت ، نظمت

---

(١) ديوانه ١٢٥ الحدور : الأورام

(٢) أبو عاصم عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم (حَمِىّ الدَّبْر) الأوسى ، شاعر إسلامى أموى من شعراء المدينة ، مقدم فى النسيب والفخر والمدح ، نفاه عمر بن عبد العزيز إلى دهلك ، كابن أبى ربيعة ، وللأسباب نفسها تقريبا ، ورده يزيد بن عبد الملك ، وقدم دمشق فمات بها ١٠٥ هـ ولقب بالأحوص لضيق فى مُؤْخر عينيه . انظر : الأغانى ٤ / ٤٠ ، ٧ / ٣٩ ومعاهد التنصيص ١ / ٢٢٩ والموشح ١٨٨ والشعر والشعراء ٢٠٤ وابن سلام ٦٥٥ (المدنى) وسمط اللآلى ١ /٧٣ ، ٢ / ٧٨٦ وخزانة الأدب ١ / ٢٣٢ والعمدة ١ / ٤٢ والتذكرة السعدية ٩٤ ومراجعها فى الهامش .

(٣) ديوانه ٧٢ برقة خاخ : موضع بين مكة والمدينة به روضة . قباء : محلة قرب المدينة .

(٤) ديوانه ٩٣ اللبة :موضع القلادة من الصدر . تكنفه : عكف عليه . الشذر : قطع صغيرة من الذهب . الغضا: شجر خشبه من أجود الوقود .

كلها فى شكل منسق جميل ، فهى إذن امرأة ثرية ، تتمتع بذوق رفيع فى اختيار زينتها .

وصاحبة عمر بن أبى ربيعة هى الأخرى ثرية مترفة منعمة ، تتضمَّخ بصنوف من الطيب ، يفوح شذاها من ثنايا ثوبها وأكمامها (١) :

ــ يفوحُ القَرَنْفُل من جَيْبها وريــحُ اليَلَنْجُــوج والعَــنْبر

ومرة أخرى هى (٢) :

خَوْدٌ يفـــوح المسك من أَرْدَانها والعـــــــــنبر

أما صاحبة عبيد الله بن قيس الرقيات ، فهى من ربات القصور ، مصونة مترفة تتخذ الستائر على النوافذ لتقيها وهج الشمس (٣) :

تتَّقى بالحرير من وهج الشمـ ـس وخَزٌ العراق والأستـــار

وهل تتحلى بكل هذه الصنوف من الحَلْى ، وتتعطر بكل هذه الأنواع من الطيب ، وتلبس الحرير ، والخز الفاخر ، وتحجبها الأستار من وهج الشمس ،إلا امرأة متحضرة ، مبالغة فى تحضرها ، منعمة ، موفورة النعمة ، مترفة ، لاتقوم على خدمة نفسها،أوْ ذويها ؟؟

ومنها : الصون وعدم الابتذال فى العمل والخدمة ، وهل أدل على هذا من هذه الصورة التى نرى فيها صاحبة الشاعر ، تحف بها الجوارى ، يسلينها ، ويقطعن لها وقت فراغها ، ويقمن على خدمتها ، ويهيئن لها من فنون اللهو واللعب ، مايدخل السرور على قلبها ، ومع ذلك فهى ملولة مدلَّلة ، يقول عمر (٤) :

ولقـــد قالت لأتْـــرابٍ لها كالمهـا يلْعبْنَ فى حجــرتها

خُذْن عنىٌ الظلَّ لايتبعُنى ومضتْ تسعـــى إلى قُبَّتها

إنه دلال مابعده دلال ، وترف مافوقه ترف ، أن تطلب هذه الشابة من جواريها أن يأخذن عنها ظلها بعيدا فقد ملَّت ملازمته إياها !!

---

(١) ديوانه ١٧٣

(٢) ديوانه ١٧١ خود : ناعمة شابة بضة . الأردان : جمع ردن (بضم الراء) : الكم أو أصله .

(٣) ديوانه ٢٣

(٤) ديوانه ٤٨٧ .

وبمثل هذا يصور العرجي صاحبته (١) :

وعلى الباب ذى الشفيقة سُعْدَى ... لا أرى مثلهـا من الخُـدَّام
كلمـا صفّـقتْ وثَبْـن إليها ... كقيام الشُّرْطِى عنـد الإمـام

فهى محوطة بالخادمات ، وهن رهن إشارتها ، كلما طلبتهن ، أسرعن إليها ملبيات .

والآن ، ما الجديد فى هذه الصورة ؟

يلاحظ القارىء فى الشعر الجاهلى ، أن بعض مظاهر هذه الصورة ، هى من الصفات التى خلعها غير واحد من الشعراء الجاهليين ، على المرأة المتغزل فيها .

فنعومة جسم المرأة ، وملاسة بشرتها ، وتزينها بمختلف صنوف الحلى ، وتضمخها بألوان من العطر ، كلها من المعانى ، التى طرقها الشعراء قبل العصر الأموى .

فنحوا من هذا وصف امرؤ القيس بعض من تغزل بهن ، فهو يقول مثلا — فى صاحبته نُعْم (٢) :

منعمـــــة فَضلتْ صورةً ... من الحىِّ فى مَنْصِب قد كمَل

ويقول فى أخرى ، واصفا إياها بالتنعُّم (٣):

من القاصرات الطرْف لودب مُحْوِلٌ ... من الذر فوق الإتْب منها لَأثرا

ويقول حسّان بن ثابت فى صاحبته (٤) :

لو يدبُّ الحولىّ من ولد الذرِّ ... عليها لأندبتْهـا الكلـوم
همُّها العطر والفـراشُ ويعلـو ... ها لُجَيْـنٌ ولؤلـؤٌ منظـوم

فصورة الذر الذى يؤثر فى البشرة ، ويترك بها جراحا عند امرىء القيس وحسان

---

(١) ديوانه ١٣٢ الشفيقة : الخادمة .

(٢) ديوانه ٢٩٧ . المنصب : النسب الشريف .

(٣) ديوانه ١٠٥ والموشح ٦٣

(٤) ديوانه ٩٩ الحولى هنا : صغار النمل ، قال الجاحظ فى الحيوان (؟ / ٥) : هو كما قال الشاعر :

تلقط حولىّ الحصا فى منازل ... من الحىّ أمست بالحبيبين بلقعا

قال : وحولى الحصا : صغارها ، فشبهه بالحولى من ذوات الأربع .

هى الصورة نفسها التى رأيناها عند عمر بن أبى ربيعة ، وألوان الزينة والعطر متقاربة هنا وهناك .

ويقول طرفه بن العبد ، عن صاحبته المترفة ، الممتلئة صحة ونضارة [١]:

لاتلمنـــــــى إنها من نِسْوةٍ رُقَّـد الصيـف مقالـيت نُزُرْ

وهذه المعانى من جملة ماعبر عنه عمر بن أبى ربيعة ومعاصروه ، فى تصوير ترف الحبيبة وتنعمها .

وإذا كان الجاهليون قد تحدثوا عن ترف الحبيبة ، فقد تحدثوا عنها أيضا واصفين زينتها ، وماتتحلى به من كريم الجواهر .

يقول لبيد بن ربيعة العامرى [٢] :

وعالَيْـن مضعوفاً وفـرداً سمُوطــه جمانٌ ومرجــانٌ يشدُّ المفـــاصلا

فالعقود التى تتحلى بها هؤلاء النسوة منوعة ، منها المضاعف ، ومنها المفرد ، وفى كل منها أحجار كريمة من الجمان والمرجان .

وللمثقبّ العبدى فى مثل هؤلاء الحسان [٣] :

أرَيْــن محاسنــاً وكنَــنَّ أخــرى من الأجْيَــاد والــبشَرَ المصونِ

ومــن ذهب يلــوح على تريبٍ كلون العـاج ليس بذى غضون

أما صواحب المرقش الأصغر ، فقد أثقلن بصنوف من الجواهر [٤]:

تحمَّلْــن ياقوتــاً وشذْرا وصيغــةً وجزْعــاً ظِفاريّــا ودُرًّا توائمـــا

أى لبسن الحَلْىَ المكون من ياقوت ، وقطع من اللؤلؤ ، أو من الذهـب الصغار ، وماصيغ من الحلى ، والخرز اليمانى النفيس ، ودر نظم اثنين اثنين .

وهناك مظهر آخر من مظاهر الترف والنعمة ، تحدث عنه الجاهليون ، فقد صوروا الحسان يتعطرن بألوانٍ شتى من العطور :

---

(١) ديوانه ٧٣ رقد الصيف : ينمن وقت القيلولة ،يعنى أنها لاتعمل فى الخدمة . مقاليت : جمع مقلاة ، وهى التى لاتلد ، فإن ولدت لايعيش ولدها ، وهذا أكمل لجسمها ، وأحفظ لصحتها .

(٢) ديوانه ٢٢ . مضعوفا : عقدا مزدوج السمط .

(٣) المفضليات ٢ / ٨٩

(٤) المصدر السابق ٢ / ٤٥

فها هو ذا امرؤ القيس يتحدث عن صاحبتين له ، تضمختا بالمسك ، حتى تركتا أثر هذا الطيب فى الفراش ،يقول (١) :

إذا قامتا تضوَّع المسك منهما نسيم الصَّبا جاءت بِرَيَّا القَرَنْفُل
وتضُحْي فَتِيت المسك فوق فراشها نئوم الضحى لم تنتطق عن تفضُّل

وهن مع هذا فارغات ، يُخدمْن ،ولا يَخْدُ مْن.

ويقول حسّان بن ثابت ، جامعا لصاحبته ، ألوانا من العطر والزينة :

همُّها العطر والفراش ويعلو هالُجيَنْ ولؤلؤ منظوم

ويقول قيس بن الخطيم (٢) :

كأن القرنفل والزنجبيل وذاكى العبير بجلبابها ...

وهكذا عبر الجاهليون عن ترف المرأة المعشوقة ، وزينتها ، وعطرها ، كما عبر شعراء الغزل الأُميون ، وغاية مابينهما من فرق ، إنما هو فى التعبير عن هذه الصورة المترفة ؛ حيث مال الأسلوب عند شعراء الحجاز إلى السهولة والرقة ، مع إضافات ، تضفى على هذه الصورة لونا أكثر تحضرا ، وترفا ونعمة .

٢ــ ومن الملامح الهامة فى صورة المرأة الحجازية فى غزل الحضر ، صلة المرأة المحبوبة ، بالرجل الذى يتعشقها ، وهى صلة رأيناها تقوم على نوع من الجرأة المهذبة ، فى الإقبال على الرجل ، ومجالسته ، والاستمتاع بحديثه ، فى غير تكلف ، أو تصنع للحشمة ، وفى غير تبذل ، واستهتار أيضا .

وفى مجتمع أخذ طريقه إلى التحضر والتطور كحضر الحجاز فى العصر الأموى ، ينشأ عادة طبقة من الرجال والنساء على مستوى من التهذب الحضرى ، والثقافة الحضرية ، والمكانة الاجتماعية ، والثروة .

ومثل هذه الطبقة يكون من اهتماماتها التطلع إلى أن تحيا حياتها ، كما ينبغى أن يعيش المرء فى مجتمع متحضر .

---

(١) ديوانه ١٣
(٢) ديوانه ٢٣

وقد هيأت الحياة فى حضر الحجاز وسائل التمتع بمثل هذه الحياة ، بحيث يستطيع الرجل أن يجدّ ، وأن يلهو ، وأن يزاوج بين الدين والدنيا ، وأن لا يجد حرجا فى هذه المزاوجة ؛ لأن هذا هو النمط الطبيعى للحياة المتحضرة .

أما المرأة فقد كانت تخطو خطواتها الأولى فى مضمار السعى إلى حياة التطور والتحضر ، والمألوف حينئذ أن لاتتخلى المرأة مرة واحدة ، أو بسرعة عن رواسب تقاليد المجتمعات الشديدة المحافظة ، كالمجتمعات البدوية ، وأن تحرص مع هذا على تثبيت خطواتها فى دنيا الحضارة الجديدة ، وبالنسبة للمرأة الحجازية ، فإنها أقبلت على حياتها الجديدة برصيد طيب من الصون والعفة ، ورعاية القيم الاجتماعية والدينية ، وأخذت مع ذلك بالمتاح من مظاهر التحضر فى مجتمعها ، ورأت أنها يمكن أن تحقق وجودها الاجتماعى ، ورضاها العاطفى ، عن طريق الاتصال بالحياة الثقافية والفنية فى مجتمعها ، وبعض هذه الحياة تتمثل فى النشاط الشعرى ، الذى كان رائجا حينئذ ، والذى استطاع أن يجتذب إليه قطاعا عريضا من أهل الحضر ، فلا بأس إذن من أن تخرج المرأة الحضرية الحجازية للقاء الشعراء ، والجلوس إليهم ، وتناشد الأشعار معهم .

وطبيعى وقد سقطت الحواجز بين الشعراء والنساء ، على هذه الصورة المهذبة ، أن يتخذ الشعراء من هؤلاء النسوة المتحضرات ، المثقفات ، ذوات المكانة العالية فى المجتمع الحضرى موضوعا للغزل ، وأن يسبح خيال الشعراء ، فلا يقف عند حد هذه الصلة المحددة ، فيروح الشاعر منهم يخترع المواقف ، ويتصور التجارب ، لامن فراغ تام ، وتخيل خالص ،بل على أساس مما يرى ويسمع ،ويشعر ، خلال لقائه بهؤلاء النسوة ، وهو أساس لايتصادم مع قواعد الفضيلة ، والعفة ، والمحافظة ، ولكن على خيال الشاعر ، وفنه أن يتولى هذا الأساس ، فيرفعه وينميه ، ويضيف إليه اللمسات ، التى تصنع منه التجارب ، التى دار حولها الشعر الغزل فى حضر الحجاز .

واستوى فى هذه الصلة بين الشعراء والمرأة ، والإقبال عليها ، والرغبة فيها ، جميلات الحجاز الشريفات ، وغيرهن من جميلات وشريفات البيئات الأخرى المتحضرة فى العراق والشام ، حتى جميلات البيت الأموى الحاكم ، شاركن نظائرهن من الحجازيات القرشيات ، وغير القرشيات ، فى الإقبال على شعراء الحجاز ، والإيعاز إليهم أن

يذكروهن فى شعرهم الغزل بأسمائهن أحيانا ، أو بالكناية عنهن أحيانا أخرى .

ولعل مما يصور مدى حرص هؤلاء النسوة على الاتصال بعالم الشعر الغزل فى الحجاز ، وربط أسبابهن بأسباب شعرائه ، مايروى من أن الخلفاء الأمويين كانوا يتوعدون الشعراء إن أقدموا على التشبيب ببنات البيت الأموى ، وأن شيئا من هذا حدث مع عمر بن أبى ربيعة ، فلما قدمت فاطمة بنت عبد الملك مكة ، أخذ عمر يحوم حولها ، ويشبب بها دون أن يصرح باسمها خوفا من وعيد بنى أمية (١) ، ولكن فاطمة احتالت على لقاء عمر فى قصة طريفة مروية ، (٢) حتى ظفرت بلقائه ، ومحادثته ، وتناشد الأشعار معه ، والاستماع إلى أشعاره فى الغزل ، ولعلها سمحت له أن يشبب بها ، ولعلها إحدى النسوة اللائى شبب بهن تحت أسماء مستعارة .

ويعكس شعر عمربن أبى ربيعة هذه الصلة التى قامت بين الرجل والمرأة فى المجتمع الحجازى الحضرى فى صور عديدة ، تعبر عن لقاءات بين الشاعر وصاحبته منفردين ، أو مع جماعة ، نرى من خلالها مصداق ماذكرنا :

من ذلك قوله ، يتحدث عن لقائه بصاحبة له ، دعاها زينب ، على انفراد ، فى ليلة مقمرة(٣) :

فلستُ بناسٍ ليلة الدَّار مجلساً ... لزينب حتى يعلوَ الرأسَ رامُس
خلاءً بدتْ قمْـــراؤه وتمخضت ... دُجُنّتُه وغاب مَنْ هو حارس
فما نلتُ منها مَحْرَماً غير أننا ... كلانا من الثوب المورَّد لابسُ
نجيين نقضى اللهو فى غير مأثمٍ ... ولو رغمتْ مِلْكَا شحين المعاطسُ

فعمر ينفرد بصاحبته فى هذا الجو الشاعرى ، يتبادلان حديث الهوى فى صوت خافت ، وحسبهما هذا الحديث ، ومايتخلله من لمسات برئية لاهية ، لاتغريهما صورة هذا اللقاء ، ولا غياب الحارس ، والبعد عن الرقباء ، بارتكاب الإثم .

---

(١) انظر : الأغانى ١ / ١٤٢

(٢) راجع المصدر نفسه ١ / ١٣٨

(٣) ديوانه ٣٩٥ والأغانى ١ / ٤٣ تمخضت دجنته : انكشف ظلامه الشديد . الرامس : الدفان ، والمراد حتى الموت .

ومما يدل على حظ مثل هذا الشعر من التهذب ، وبراءة القصد ، ويؤكد ماسبق أن ذكرناه منذ قليل عن طابع التجارب فى هذا الغزل ، مايروى من أن ابن أبى عتيق[١] سمع وهو بالمدينة قول عمر :

فما نلت منها محرما غير أننا ... كلانا من الثوب المورد لابس

فقال : أبنا يلعب ابن أبى ربيعة ، فأى محرم بغى ؟! ثم ركب بغلته متوجها إلى مكة ، وتعجل فلم يطف طواف القدوم ، حتى أقبل على عمر ، فقال : أما زعمت أنك لم ترتكب حراماً قط ؟ قال : بلى ، قال : فما قولك : « كلانا من الثوب المورد لابس » ؟ فقال عمر : إذن أخبرك ، خرجت بعلة المسجد (أى بدعوى الذهاب إليه) فصرنا إلى بعض الشعاب ، فأخذتنا السماء ، فأمرتُ بِمَطْرِفى ، فسترنا الغلمان به ، لئلا يروا بها بِلّة ، فيقولوا : هلا استترت بسقائف المسجد ؟ فقال له ابن أبى عتيق : ياعاهر !! هذا البيت يحتاج إلى حاضنة !![٢].

فهل كان ابن أبى عتيق ينزعج إلى هذا الحد ، الذى يهمل معه واجب تحية بيت الله ، لو كان يعرف كما يعرف غيره أن مثل هذه المعانى إنما هى ترجمة واقعية لسلوك هذا الشاعر وأصحابه من شعراء بيئته الغزلين ؟

إنما أزعج هذا الناسك مايوحى به ظاهر التعبير فى البيت من معنى فاضح ، مع علمه وعلم غيره من أبناء مجتمعه ، أن هؤلاء الشعراء يقولون مالا يفعلون ، فخشى أن يكون هذا تطورا وانحرافا فى سلوك عمر ، مع علمه بطهارته ، وإلا لاكتفى باستمطار اللعنات على الشاعر الفاسق ، دون أن يكلف نفسه عناء الرحلة من المدينة إلى مكة ، ومواجهة الشاعر ، والاستفسار منه عما عنى .

وهذا الإقبال الذى يتميز باللهو البرىء ، قد يأخذ صورة حضرية جذابة ، حيث تصطحب الحبيبة أترابها ، إلى روضة مزهرة خارج المدينة ، ويجتمعن بالشاعر

---

(١) هو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ، قرشى ناسك ، من ظرفاء قريش ، كان صديقا لعمر بن أبى ربيعة ، وكثيرا ماسفر بينه وبين صواحبه . انظر : سمط اللآلى ٢ / ٦٤٤ والموشح ٢٠٩ وشاعر الغزل للعقاد ٢٠

(٢) الكامل للمبرد ١ / ٣٧٩ والأغانى ١ / ٤٣

وصحبته ، ويقطعن الوقت فى لهو معهم ، وتناشد الأشعار ، وتبادل عبارات الهوى .

فى مثل هذا اللقاء يقول عمر بن أبى ربيعة[١] :

وقد أرى سِرْباً به حسناً	مثل الجآذر أثياباً وأبكارا
فيهن هند وهندٌ لاشبيه لها	ممّن أقام من الجيران أو سارا
يَمَّمْنَ مورقة الأفنان دانية	وفى الخلاء فما يؤنسنْ ديّارا
قالت : لَوَانّ أبا الخطاب وافقنا	فنلهُوا اليوم أو نُنْشَدَ اشْعَارا
فلم يَرُعْهنَّ إلا العيسُ طالعة	يحملن بالنَّعْفِ ركاباً وأكوارا
قلن : انزلوا نعمت داربقربكمُ	أهلا وسهلاً بكم من زائر زارا
فقلت : من ذا المُحيىٌ وانتبهتُ له	أم مَنْ محدِّثنا هذا الذى زارا؟
قالت : محبٌّ رماه الحب آونة	وهيجتْه دواعى الحب إذْ حارا

فمثل هذه اللقاءات لا تزيد على كونها لهواً اجتماعيا ، تريد به هؤلاء النسوة أن يلقين هذا الشاعر المشهور ، الذى يتحدث عنه الناس فى مجتمعهن ، وأن يخلقن صلة بينهن وبينه ؛ ليتحدث عنهن فى أشعاره ، فهن سعيدات بهذا اللقاء ، والشاعر سعيد أيضا به ، يتحدث عنه فى شعره ، مُدِلاً على أقرانه من الشباب ، الذين لايتاح لهم ماأتيح له .

وقد تمضى التجربة على هذا النحو ، منتهية بهذه النهاية ، إذ ينفض المجلس ، ويعود عمر وصحبته من طريق ، وتعود هند وأترابها من طريق ، ويخرجن من هذا اللقاء بمتعة اللقاء ، وبأمل فى مثله ، قد يتحقق أولا يتحقق ، ويخرج الشاعر منه بهذه التجربة الفنية ، يرضى بها هوى الفن ، ويرضى عنها أهل بيئته حين يسمعونها إنشادا ، أو يستمعون إليها غناء .

وقد يضفى الشاعر على تجربته بعداً آخر ، واقعا أو متخيلا ، نرى من خلاله أتراب صاحبته ، وقد استشعرن رغبة الحبيبين فى لقاء منفرد ، لفترة موجزة ، ولكن على مقربة منهن ، رعاية لحق الهوى من ناحية ، ومراعاة لقيم المجتمع المتحضر المحافظ معا ، من ناحية أخرى ، فيدعين حاجتهن إلى التجول فى السهل القريب ، وتظهر صاحبتهن تمنعها على هذا الاحتيال الذى دبرته فى مكر ظريف ، إرضاء للشاعر المحب [٢] :

---

(١) ديوانه ١٢٠ سرب به : أى بالربع ، والسرب الجماعة : ، يقال سرب من قطا ، وسرب من نساء ، وسرب من ظباء ، (الموشح ٣٢٩) . ديار : أحد . أبو الخطاب : كنية عمر .

(٢) ديوان عمر ٢٩٤ ذى التبل هنا : سقيم الفؤاد .

فسلمتُ واستأنستُ خيفة أن يَرَى عدوٌّ مكانى أو يَرى كاشحٌ فِعْلى
فقالت وأرخت جانب الستر إنما معى فتحدث غير ذى رقبة أهلى
فقلت لها : مابى لهم من ترقبٍ ولكن سرِّى ليس يحمله مثلى
فلما اقتصرنا دونهن حديثنا وهن طبيبات بحاجة ذى التَّبْل
عرفن الذى تهوَى فَقُلْنَ لها : ائذنى نَطُفْ ساعةً فى طيب ليل وفى سهل
فقالت : فلا تلبثْن ، قلن : تحدثى أتيناك ، وانسبْن انسياب مَهَا الرّمل
فقمْنَ وقد أفهمْن ذا اللب إنما فعلْنَ الذى يفعلن من ذاك ، من أجلى

وهكذا كان المجتمع النسائى يطل على مجتمع الرجال فى هذه البيئة التى تحضرت ، من خلال هذا الشاعر وأمثاله ، وكان النساء يلقينه مجتمعات أحيانا ، ليسمرن معا ، أو محتفيات به أحيانا أخرى ، ثم يخلين بينه وبين صاحبته بعد حين ، وهما على مرأى منهن ، دفعا للريبة ، وتقديرا للعواقب .

ودفعا لمظنة انفراد عمر بهذه التجارب من دون شعراء عصره وبيئته ، وأن ذلك كان اتجاها فنيا خاصاً به وحده ، نلتفت إلى شاعر آخر من أصحاب عمر ، وممن عبروا عن هذا الغزل الحضرى ، كما عبر عمر ، وتخيلوا تجاربه ، أو حققوها ، كما تخيلها عمر أو حققها ، إنه العرجى الشاب المكى القرشى الوسيم ، يجتمع فى هذا مع عمر ، كما يتفق معه فى الفراغ والثراء ، وعراقة النسب .

نقف على صورة غزلة من صور العرجى ، فنراها تحكى لنا نفس الملامح التى حكاها عمر للمجتمع الحجازى المتحضر ، وتبرز نفس الصلة ، التى كانت بين الرجل والمرأة فى هذا المجتمع .

هى صورة لقاء له مع صاحبته ، دبرته مع صديقاتها ، وأرسلن إليه أن يوافيهن ليلا ، وليحذر العيون المراقبة ، ويقبل الشاعر متلصصا ، ويدنو منهن حذرا ، ويقضى الليل فى سمر معهن ، مكاشفاً ، صاحبته بهواه ، وتقبل منه هذه المكاشفة ، ثم يمضى عنها وعنهن ، فيودعنه والدموع تتحير فى أعينهن : (١)

---

(١) ديوانه ١١٩

حورٌ بعثـن رسولا فى ملاطفـة	ثَقِفـاً إذا عَقَـل النسّاءة الوَهِـمُ
إلىّ أن ائتنـا هدْءاً إذا غفـلت	أحراسنا وافتضحنا إن همُ علمـوا
فجئت أمشى على هول أُجشمّـه	تجشمُ المرءِ هولا فى الهوى كرمُ
أمشى كما حركتْ ريحٌ يمانيـة	غصنا من البان رطباً طلّه الدّيَمُ
وهـنّ فى مجلسٍ خالٍ وليس له	عين عليهن أخشاهـا ولا ندم
حتى جلستُ إزاء البـاب مكتتما	وطالبُ الحاج تحت الليلِ مكتتمُ
أبدَيْن لى أعينـا نجلا كما نظـرت	أدْمٌ هجـان أتاهـا مصعبٌ قَطِـمُ
قالت كلابةُ : مَنْ هذا ؟ فقلت لها:	أنا الذى أنت من أعدائه زعموا
أنا أمـرؤ جدّبى حب فأحرضنـى	حتى بليتُ وحتى شفنى السقـم
لاتكلينـى إلى قوم لَوَانّهـمُ	من بغضنا أطعموا لحمى إذن طعموا
وأنْعِمِى نعمـة تُجـزى بأحسنها	فطـالما مسّنـى من أهـلك النعـم
هذى يمينـى رهـن بالوفـاء لكـم	فارضَىْ بها ولأنف الكاشح الرغَـم
قالت : رضيتُ ولكن جئت فى قمر	هلا تلبثت حتـى تدخـل الظُّلَـمُ
فبتُّ أُسقـى بأكـواس أُعَـلُّ بها	من بارد طاب منها الطعم والنسم...

هذه الصورة تشبه كثيرا صورة عمر فى اللقاء مع النساء ، فكلاهما يشترك فيه أكثر من امرأة ، وكلاهما يأخذ صورة السمر مع الفتى الشاعر الوسيم المعروف ، يسمعن منه ، ويتوقعن أن يعلو شأنهن إذا ذكرهن فى بعض شعره ، ثم ينتهى اللقاء وليس فيه من المتع الحسية شىء ، أو شىء يسير ، يؤدى به واجب التقليد الفنى فى وصف الجمال ، وفى لقاء عمر نجد نفس اللوعة المشتركة بين الشاعر وصاحباته للفراق .

وهذا التشابه فى التجارب الغزلة بين شعراء البيئة الواحدة ، له دلالته على تشابه أنماط الحياة الاجتماعية وظروفها ، التى كان يتحرك فى إطارها هؤلاء الشعراء .

وعند عمر بن أبى ربيعة كالذى عند غيره من شعراء الحضر الغزلين ، من صورة تبادل الشوق بين المحب والمحبوب .

فقد يستبدبه الشوق ، فيذهب إلى صاحبته ، ويناديها فى غير حرج ، فتلبى النداء ، وتوافيه مع جماعة (أيضا) من أترابها ، يزدهيها الجمال ، ويحرسها الخفر

والصون ، يعبر عن ذلك عمر قائلا [١] :

مَنْ رسولى إلى الثريا بأنِّى ضقت ذَرعاً بهجرها والكتاب
سلبتنى مُجاجة المسك عقلى فسلوها بما تُحل اغتصابى
أرهقتْ أمّ نَوْفل إذ دعتها مهجتى مالقاتلى من متاب
حين قالت لها : أجيبى ، فقالت: من دعانى ؟ قالت أبو الخطاب
فاستجابت عند الدعاء كما لبَّى رجال يرجون حسن الثواب
أبرزوها مثل المهاة تَهادَى بين خمسٍ كواعب أتراب
وهى مكنونة تحيَّر منها فى أديم الخدَّين ماءُ الشباب
ثم قالوا : تحبها ؟ قلت : بَهْراً عدد النجم والحصى والتراب

وقد تشتاق هى إلى لقاء الشاعر ، ومحادثته ، والاستماع إليه ، وقد تغيَّب عنها فترة ، فلا تجد بأسا من إرسال رسول إليه ، تستحثه على القدوم ، متوددة عاتبة ، ذلك قول عمر [٢] :

إنّ هنداً قَدَ ارْسلتْ وأخو الشوق مرسَلُ
أرسلت تستحثنى وتُفَدِّى وتعذُلُ

وهذه ظاهرة حضارية ، أو فلنقل تطور حضارى للمحة ، أخذت شكل الظاهرة فى هذا الغزل ، فأغلب الظن أن أمّ هذه الفتاه ، أو جدتها ، ماكانت تجرؤ مثلها على

---

(١) الكامل للمبرد ٢ / ١٨٥ وأمالى المرتضى ١ / ٣٤٦ وانظر : ديوان المعانى ١ / ٢٣٢ فى التعليق على البيت السابع حيث يعده أبو هلال من أحسن ماقيل فى اللون . المجاجة : الريق ترميه من فيك ، شبهه بالمسك لأنه ريق الحبيب ،وقوله : « بَهْراً » قال فيه الأصمعى : أى تعسا ، دعاعليهم ، إذ جهلوا من حبه لها مالا يجهل مثله ، وقال ثعلب قال ابن الأعرابى : أى بهركم الله ، أتظنون أنى ليس كذا ، وقال غيره : عجبا لكم كيف تظنون غير هذا . وقيل معناها : نعم ، حبا بهرنى بهرا ، قال أبو عمرو بن العلاء : ويكون بهرا بمعنى حبا ظاهرا من قولهم : قمر باهر . انظر:الموشح ٢٠١ ــ ٢٠٢ وأمالى المرتضى ١ / ٣٤٥ ــ ٣٤٦ . والثريا هى ابنة على بن عبد الله من بنى أمية الأصغر بن عبد شمس ، وكانت ذات جمال وكمال ، ويقال : إن ابن أبى عتيق لما سمع قول عمر « من رسولى إلى الثريا » قال : إياى أراد ، وبى نوّه ، لاجرم !! والله لاأذوق أكلا حتى أشخص إليه ؛ لأُصلح بينهما ، فخرج من المدنية إلى مكة ، لهذا الغرض ، فى خبر طويل ، يراجعه من شاء فى : أمالى المرتضى ١ / ٣٤٧ . تحير ماء الشباب : تم .

(٢) الأغانى ١ / ٧٣

إرسال الرسل إلى صاحبها ، خاطبة وده ، طالبة لقاءه ، ولكنها روح العصر ، وسمة البيئة المتحضرة .

وقد تأخذ المراسلة صورة أخرى ، نرى فيها الفتاة راغبة فى لقاء صاحبها ، ولكنها مشفقة أن يلحق به أذى من قومها المتربصين به ، ويغلب الشوق فتبعث إليه أن لا يجبن عن لقائها ، ولكن عليه بالحذر ، داعية له بالسلامة (١) :

دسّتْ إلى رسولا لاتكنْ فَرِقـاً ... واحذرَ وُقيتَ ــ وأمر الحازم الحذر
إنى سمعت رجالا من ذوى رحمى ... همُ العدو بظهر الغيب قد نذروا
أن يقتلوك ــ وقاك القتل قادره ــ ... والله جارُك مما أجمع النَّفَـرُ

أو تلومه لأنه لم يرسل إليها رسولا ، قبل الزيارة ، يعلمها بموعد اللقاء ، وأنه تعجل فزارها قبل أن يغيب القمر ، يحكى هذا عمر على لسانها (٢) .

هلّا دسست رسولا منك يعلمنى ... ولم تعجل إلى أن يسقط القمر

تماما كما عاتبت العرجى صاحبته ، على مثل هذا .

وعمر ــ كالعرجى وغيره ــ تياه بهذه المراسلة يحكيها ، ويرددها فى شعره ، ويمعن فى تيهه ، فيذكر أن ثلاثة من الكواعب الحسان أرسلن إليه ، ومعهن صاحبته ، التى تفوقهن حسنا ،يضربن له موعد لقاء ، وأنه حين ألقى عليهن السلام ، أسفرن عن وجوه باهرة الجمال ، ثم تدللن عليه ، ولم يلبثن حتى مددن إليه أسباب الهوى ، فتلقفها ، كلما تحركن نحوه بعواطفن إصبعا ، وثبت عواطفه نحوهن ذراعا ، وإذن فتيه عمر هنا ، ليس إعجابا بنفسه ، فهن وإن سبقنه فى إبداء شعورهن نحوه ، ورغبتهن فى لقائه ، فإنه صرح بأن استجابته كانت أقوى ، وشوقه كان أكثر : (٣)

أتانـا رسول من ثلاث كواعب ... ورائقة تستجمع الحسن أجمعـا
فلمـا تواقفنـا وسلـمت أقبـلت ... وجـوه زهاهـا الحسن أن تتقنَّعـاَ

---

(١) ديوانه ١١٣
(٢) ديوانه ١١٥
(٣) ديوانه ٢٢٨ باغ : يبغى إبلا ضالة فهو يتعب بعيو بالسير السريع ليدركها . وانظر فيما دار حول هذه الأبيات : أمالى القالى ٢ / ٥٢ ــ ٥٣ وتزيين الأسواق ٣٣ وديوان المعانى ١ / ٢٣٠

تبالَهْــنَ بالعرفـــان لما عرفنـنـــى — وقلْن : امرؤ باغ أكـلَّ وأوضعـا
وقربـــــن أسبـــــاب الهوى لمتيم — يقيس ذراعاً كلمـا قِسْنَ إصبعـا
فلما تنازعنـا الأُحـاديث قلـن لى — أخفت علينا أن نُغَـر ونخدُعـا ؟
فبـالأمس أرسلنــا بذلك خالـــدا — إلـيك وبينـــا له الشأن أجمعـــا
فمـا جئنـا إلا على وَفْـق موعـدٍ — على ملأٍ منـا خرجنـا له معـــا
رأينـا خلاءً من عيـــون ومجلسا — دميثَ الرُّبَى سهل المَحِلَّة مُمْرِعا
وقلنـــــا: كريمٌ نال وصل كرائم — فَحُـقّ له فى اليـوم أن يتمتعـــاَ

ويجب أن نلاحظ ناحيتين معا ، إحداهما : هى الرغبة الواضحة ، بل السعى الحثيث من النساء إلى اللقاء ، والأخرى : هذا المعنى المتكرر فى نماذج الغزل ، والذى يشير دائما إلى الحذر من الرقباء ، فالناحية الأولى تعبر عن النزعة الحضارية ، التى تحدثنا عنها فى وصف خطوات المرأة الحجازية إلى الفوز بنصيب من الحياة الاجتماعية المتحضرة ، أما الأخرى ــ مع كون اللقاء يتم غالبا فى جماعة ــ هى التى أشرنا إليها على أنها من رواسب المجتمع البدوى المحافظ ، ومن هنا تأخذ هذه اللقاءات صورة مغامرة اجتماعية حضرية لطيفة ، لتؤكد بعد هذا المجتمع الذى تحضر عن الانحلال والمجون ، والاستهتار بالقيم الأخلاقية ، إذ يلاحظ فى شعر عمر وفى شعر زملائه الغزليين أن المرأة موضوع الغزل لاتنفرد ــ غالبا ــ بالرجل ، بل تسهم فى الإعداد للقائه مع غيرها ، أو تشارك فى مجلسه حين يتم اللقاء ، نساء أخريات من صديقات تلك التى جاء الشاعر لزيارتها ، أو دعته هى إليها .

ونحن لانجهل أن هناك نصوصا من الشعر الجاهلى ، تدل على أن من النساء الجاهليات مَنْ كن يراسلن الرجال ، طلبا للقاء ، حين يستبد الشوق ببعضهن (١) ، غير أن هذا كان قليلا ، إن لم يكن فى حكم النادر ، فى ظل التقاليد البدوية الحادة الصارمة ، الغالبة على الحياة الجاهلية ، وإنما كان المحبون هم الذين يحتالون بالمراسلة ، إذا لم يجدوا من وسيلة سواها .

---

(١) انظر فى ذلك : أخبار النساء ٨٥

٣ ــ وهذا ملمح آخر هام من صورة المرأة فى الغزل الحجازى ، يتصل بالعناية بمشاعر المرأة وعواطفها ، ونزعاتها النفسيه ، والميل إلى تصوير عالمها الشعورى حين تحب .

فمن قبل هذا العصر كانت الحواجز الحاسمة تفصل بين المرأة والرجل الذى يهواها ، فاللقاء نادر ، والوصل ضنين ، وحتى لو سعدا باللقاء ، فإنما يكون نُهْزَة ، قصير الأجل ، فلم يكن بد من أن يكتفيا بالنظرة العجلى ، أو بالمشاهدة بين ربوع الحى،وبين الأهل ، ومن هنا ماكان الشاعر ليعرف عن صاحبته ــ غالبا ــ إلا ماشد عينيه إليها من ملامح الجمال ، وخصائص الحسن ، فيظل مستحضرا هذا المظهر الشكلى للجمال أمام عينيه ، يتأمله ، ويطيل تأمله ، ثم ينقلب فينحت له بخياله صورا ونماذج تجسمه ، وتبرز مثاليته ، كما يتصورها ، ومن هنا أيضا غلبت النزعة الحسية للجمال الجسدى فى الشعر الجاهلى ، ولم يتجه شعراؤه إلى غير هذا من المرأة ، أما مشاعرها ، وخلجات نفسها ، ونبضات قلبها ، فكل ذلك عالم مغلق ، لم تتح الفرصة الكافية لكى يدلف إليه الشاعر الجاهلى ، ويتحسسه ، ويكتسب الخبرة به .

وفى العصر الأموى حيث نالت المرأة قسطا من الحرية فى لقاء الرجل ، وإسماعه ، والاستماع منه ، وحيث فرص اللقاء فى مجالس الغناء ، وفى غيرها مهيأة لكل منهما ، فإن عالم المرأة المحبة ، لم يعد سرًّا مغلقا ــ إلى حد ما ــ أمام إدراك الرجل ، وبخاصة إذا كان شاعرا ، وعلى الأخص إذا كان هذا الشاعر عمر بن أبى ربيعة ، بكل ماأمدته به بيئته العامة والخاصة من خبرة بالنساء وأحوالهن ، ونوازعهن إذا أحببن .

هذه النزعة التحليلية لمشاعر الحب عند المرأة ، يمتاز بها الغزل الحضرى الحجازى ، فيما يمتاز به ، ويزيد من قيمتها وجاذ بيتها ماتصطنعه كثيرا من أسلوب يأخذ طابع القص والحوار .

وقد مرت بنا لمحة منه فى الحوار القصير الذى دار بين العرجي وصاحبته :

قالت كلابة : مَنْ هذا ، فقلت لها: أنا الذى أنت من أعدائه زعموا...
قالت : رضيت ولكن جئت فى قمر هلا تلبثت حتى تدخل الظلم

ونستطيع أن نلتقط مثل هذه اللمحة فى غزل الأحوص ، وابن قيس الرقيات ، وغيرهما من الغزلين فى حضر الحجاز .

غير أن هذا الأسلوب يبرز حقا ، وتتلاحم فيه عناصر القص والمحاورة والحكاية وتتآزر ، لتحقيق الكل الفنى وإحكام وحدته ، فى غزل عمر بن أبى ربيعة ، أستاذ هذا الفن ، ففى شعره تكثر الجمل الحوارية ، التى يستقل كل منها ببيت أحيانا ، أو التى تقصر وتتوالى فى البيت الواحد ، وفى كل حال ، تؤدى وظيفتها الفنية ، فى نقل القارىء أو السامع إلى جو الحكاية ، فيعاين أطرافها ، وكأنه أمام مشهد واقعى فى الحياة .

وأسلوب القص والحوار فى شعر عمر بن أبى ربيعة ، ليس مجرد حلية كلامية ، أو فلتة أسلوبية ، أو وسيلة من وسائل تزيين العبارة ، وإنما هو أداة للتعبير مقصودة ، ومحسوبة بدقة ، وموظفة بعناية لخدمة التجربة ، وإبراز الموقف العاطفى . كما سنرى .

فى هذا الأسلوب فاق عمر سابقيه ومعاصريه من الشعراء الغزلين ، فهو الذى استطاع بحق أن ينفذ من خلال هذا الأسلوب إلى تصوير عواطف المرأة التى تحضرت فى عصره ، حين تحب ، ومايكون بينها وبين أخواتها ، أو جواريها ، من أحاديث عن حبها ، وعن معاناتها من هذا الحب ، وعن صاحبها ، وكلفه بغيرها ، وكلفها به ، ولانجد من بين شعراء الغزل من وفق توفيق عمر بن أبى ربيعة ، فى رسم نفسية المرأة من خلال أسلوب القص والحوار ، إذ كان هذا الأسلوب يلوح فى الشعر الجاهلى — وبخاصة فى شعرا مرىء القيس — عرضا ، أو على ندرة ، وجاء عمر فافتن فيه وتوسع ، بحيث أصبح ظاهرة متميزة فى شعره ، بل من أهم الظواهر المميزة لهذا الشعر .

وأهمية هذا الأسلوب ندركها أيضا ، إذا تأملنا تجارب عمر الغزلية ، التى اعتمدها طريقة للأداء ، فقد خلص هذه التجارب من البث المباشر ، الذى يعتمد على طرح المشاعر بطريقة تقريرية صريحة ، أو فى صور جزئية مجسمة ، كما هو الحال عند سابقيه من شعراء الغزل ، وتحول بها إلى موقف فيه أحداث وشخصيات ، وحوار، وذروة تنفرج عنها هذه الأحداث ، أو تكون نهاية لها .

بهذا أمدنا عمر بصور حية لإحساسات النساء والفتيات ، ومشاعرهن فى عصره ، وماقد يعتريهن من هواجس ووساوس ، وما يداعب خيالهن من أفكار ، أو أوهام .

وليس من شك فى أن خيال عمر الخصب ، قد قام بدور هام فى هذا التحليل

النفسى ، تعينه خبرة بأحوال النساء ، ومايدور فى مجالسهن وأحاديثهن ، وهى خبرةاكتسبها من نشأته فى حجر أمه ، أصغر ولديها ، يتيما ، منعما ، مدللا ، لايكاد يفارق أمه فى مجالسها مع النساء ، يراهن ، ويقف على أحوالهن ، ويراقب انفعالاتهن ، ويسمع مايدور ــ عادة ــ فى مجتمع النساء الخاص ، حينما ينطلقن على سجيتهن ، فى ذكر أحوالهن والكشف عن عواطفهن ، أو محاولة مداراتها ، واختزن عمر هذا كله فى ذاكرته ووعاه ، ثم انقلب ، فيما بعد ، يتخيل ثم يقص ماتخيل ، متدسسا فى نفسية المرأة ، لامساً مشاعرها .

وهاهى ذى إحدى تجاربه ، فى تصوير جانب من جوانب عالم المرأة النفسى ، وقد نبض قلبها بالحب [1] :

قالت على رِقْبَةٍ يوماً لجارتها   :ماتأمرين ؟ فإن القلب قد شغلا
وهلْ لى اليَومَ من أختٍ مؤاخية   منكنّ أشكو إليها بعض مافعلا ؟
فراجعتها حَصَانٌ غير فاحشةٍ   برجع قولٍ وأمر لم يكن خَطِلا
اقْنَىْ حياءَكِ فى سِتْرٍ وفى كرمٍ   فلستِ أول أنثى عُلِّقت رجلا
لاتظهرى حبَّة حتى أراجعه   إنى سأُكفيكه إن لم أمتْ عَجَلا
صدَّتْ بعاداً وقالت للتى معها: بالله لوميه فى بعض الذى فعلا
وحدثيه بما حُدِّثت واستمعى   ماذا يقول ولاتَعْنَىْ به جَدَلا
حتى يرى أن ماقال الوُشاة له   فينا لديه إلينا كلُّه نَقَلا
وعَرِّ فيه بهم كالهزل واحتفظى   فى غير مَعْتَبةٍ أن تغضبى الرجلا
فإن عهدى به ــ والله يحفظه ــ   وإن أتى الذنب يكره العَذَلا

فعمر يأخذنا إلى عالم امرأة مهمومة ، مشغولة القلب ، لجفوة صاحبها إياها ، وهى تشكو إلى صاحباتها ، وتلتمس منهن المشورة ؛ لأنها تحبه ، ولاتطيق فراقة ، فتنصحها إحداهن بإخفاء عواطفها ، وتتطوع بأن تكون رسولها إليه ؛ لتقف على حقيقة مشاعره نحوها .

---

(١) ديوانه ٢٥٨ والأغانى ١ / ٥٩ حصان : عفيفة . خطل : خاطىء . اقنى حياءك : الزميه . علقت : أحبت .

وهنا تنبرى المحبة الوالهة ، تسألها أن تلومه على الهجر ، وتخبره بما حدث الوشاة عنه ، وليكن لومها رقيقا حتى لاتغضبه ؛ لأنها لاتحب له أن يغضب ،ولا تلح عليه فى العتاب ؛ لأنها خبيرة بطبعه ، فهو يكره العتاب ، حتى وإن كان مخطئا .

من خلال هذا الحوار الجذاب ، يصور عمر مشاعر هذه المرأة ، فى قلقها ، وحيرتها ، وحنينها إلى صاحبها ، ولهفتها عليه ، ورغبتها فى إرضائه ، وخشيتها من غضبه ... الى آخر ماصور عمر فأبدع .

والصورة كلها ،بعد هذا ، صورة موقف ، لم يسرده عمر سردا ، ولكنه أداره حوارا ، ربط به بين أطراف الصورة ، بين شخصياتها وعواطفها ، فأبرز الوحدة الفنية فى الموقف ، فكل شخصية ، وكل عاطفة ، وكل جملة حوارية ، تؤدى وظيفتها فى بناء هذه الوحدة الفنية .

ويقدم لنا عمر بن أبى ربيعة أيضا صورة دقيقة واقعية ، لعواطف المرأة ، وأحوالها النفسية ، فى موقف آخر ، موقف الغيرة تأكل قلبها ، وهى تعلم أن صاحبها قد سلاها ، وتزوج بغيرها ، فتتظاهر بعدم المبالاة ، وتكظم غيظها ،مخفية مابها عمن تخاف منهن الشماتة بها ، كاشفة حقيقة حالها ، لمن تثق فى صدق ودهنّ ، ولا تخفى دونهن سرا من صديقاتها .

والواقعية هنا ، ليس بالضرورة واقعية ترتبط بحياة الشاعر وسلوكه ، بمعنى أنه ليس من الضرورى أن يكون عمر هو بطل الموقف ، فقد تكون واقعية متصورة ، مستمدة من تجارب الآخرين وواقع حياتهم ، ودور عمر فيها هو دور الوسيط الفنان ، الذى ينقل خبرته بهذا الواقع إلى الناس ، فى صورة تعكس صدقه وواقعيته .

يحكى عمر : (١)

خَبَّروهــا بأننــى قد تزوجْـــ	ـتُ فَظلت تُكتمُ الغيـظ سِرًّا
ثم قالت لأختها ولأخـــرى	جَزَعـــاً ليتـــه تزوج عَشْرا
وأشارت إلى نساء لديها	ماتـــرى دونهن للسرِّ سَتْـــرا
ما لقلبـى كأنـه ليس منـىّ	وعظامــى أخــالُ فيهن فَتْـــرا
من حديث نُمِى إلــىّ فظيـع	خِلتُ فى القلب من تلظيِّه جَمْرا

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ، / ١٨٤٤ وسمط اللآلى ٢ / ٨٠١ وأمالى القالى ٢ / ١٨٥ .فترا : ليونة وضعف .

لعمرى !! إن هذه حال لا يقف عليها ، ولا يصور واقعيتها النفسية على هذا النحو الدقيق ، إلا خبير بعواطف المرأة ، عليم بدفائن قلبها .

وإذا كان شوقى فى عصرنا الحديث ، قد عبر عن جانب من طبيعته الأنثى بعامة ، والفتاة الشابة بخاصة ، هو حبها للثناء على جمالها ، وانتشائها بالحديث عنه ، وعلى الأخص من الرجل ، الذى ربما يخدعها عن نفسها بهذا الحديث ، فى قوله (١) :

خدعوها بقولهم حسناءُ والغوانى يغرهنّ الثناءُ
فاتقوا الله فى قلوب العذارى فالعذارى قلوبهنّ هواء

فإن عمر بن أبى ربيعة يطلعنا على صورة أخرى للأنثى الحذرة ، التى لاتنخدع بمعسول الحديث ، لخبرتها بأسلوب بعض الرجال فى خداع النساء ، فهى ترفض أن تنيل من كان هذا شأنه مراده ؛ لأنها ليست ساذجة يستهويها حلو القول ، وتستميلها الملاطفة ، ولأنها تخشى أن يهجرها بعد أن ينال منها وطرا : (٢)

بعثْتُ وليدتى سَحَرًا وقلت لها : حذى حَذَرَكْ
وقولى فى ملاطفةٍ لزينبَ نَولِّي عُمَرَكْ
فإن داويت ذا سقم فأخزى الله مَنْ كفرَكْ
فهزت رأسها عجباً وقالت : مَنْ بذا أُمَركْ
أهذا سحرك ؟! النِّسْوَا نُ قد خبَّرْننى خبركْ
وقلن : إذا قضى وطراً وأدرك حاجةً هجركْ

والحديث عن فن عمر بن أبى ربيعة فى هذا الجانب من صورة المرأة يطول ، ونكتفى بما قدمنا ، وبنموذج آخر يصور لونا من أحاديث النساء ، فى مجالسهن الخاصة ، فيه التيه والدلال ، والزهو بالجمال ، وبتقدير المحب له ، وإشادته به ، وفيه أيضا الغَيْرة تنهش قلوب النساء ، حين يتعرض الرجل لأنثى يصف جمالها ويطريه ، ويصل حديثه إلى مسامع صديقاتها أو أترابها ، فيزرع بذلك الحقد والغيرة فى قلوبهن ، ويَنْفَسْنَ عليها ماتوصف به من حسن وفتنة وجمال :

يصور هذا قول عمر (٣):

(١) الشوقيات ٢ / ١١٢ .

(٢) الأغانى ١ / ٦٠ وسمط اللآلى ٢ / ٦٩٢ وأمالى القالى ٢ / ٣١٤ .

(٣) ديوانه ٣٢٠ والتذكرة السعدية ٥١٣ وديوان المعانى ١ / ٢٢٨ وفيه « وتعرت يوم حرّ » .

ليت هندا أنجزتنا ماتَعِدْ ... وشفت أنفسنا مما تَجِدْ
واستبدت مرة واحدةً ... إنما العاجز مَنْ لا يستبد
زعموها سألت جاراتها ... وتعرَّتْ ذات يومٍ تبترد
أكما ينعتني تبصرنني ... عَمْرَكُنَّ الله أم لايقتصد ؟
فتضاحكن وقد قلن لها ... حسنٌ فى كل عين مَنْ تود
حسدٌ حُمِّلنه من حسنها ... وقديما كان فى الناس الحسد

ولبراعة عمر فى هذا الضرب من الغزل ، عُدّ من الشعراء الذين طوّروا الشعر العربى [١] .

٤ ـ هناك اتجاه آخر يعكس صورة للمرأة ، ينفرد بها الغزل فى العصر الأموى ، وفى بيئة الحضر الحجازى خاصة ، بل ينفرد بها غزل ابن أبى ربيعة على الأخص ،وهى صورة تبدو غريبة ، تنقض تقاليد الغزل المعروفة قبل عصره ، وعند غيره من معاصريه .

ففى غزل عمر تطالعنا نماذج عديدة ، يتحدث فيها الشاعر عن نفسه مزهوا بأنه متعلَّق أنظار النساء ، وهو يتحدث بهذا حديثا مباشرا حينا ، كما يبدو فى قوله :

وكنَّ إذا أبصرنني ... سعين فرقَّعْنَ الكُوىَ بالمحاجر

أو على لسان النساء حينا آخر ، وفى هذا الحديث أو ذاك لايعبر عن حبه ، بل عن حب الجميلات إياه ، ولهفتهن عليه ، واعتراضهن سبيله ، طالبات وُده ، ولايصف وقع حب صاحبته فى نفسه ، وإنما يصف وقع حبه فى قلب صاحبته ، ومن خلال ذلك نستطيع أن ندرك إحساس عمر بالزهو والفخر ، « ولعل من مظاهر هذا الفخر أن ينطق به صواحبه فى أقوالهن ، وأن يعبر عنه بذلك فى أفعالهن ، فهن اللواتى يرسلن إليه الرسل ، وهن اللواتى يخرجن إليه ويغامرن من أجله ، ويستعطفه ، ويدعونه باكيات بين يديه ، ويدعون على أنفسهن من أجله ، ويدعون له بأن يحفظه الله ، وأن يجيره حاضرا ومسافرا ، وأن يرده إليهن ، وماأكثر ماأشدن بجماله ، وأعجبن بشبابه ، وتمنين موافقته فى ساعة صفاء [٢] » .

وهذا الحديث عن النفس قد لفت نظر الباحثين فى شعر عمر ، لعدم إلفه فى تقاليد الغزل ، ولما قد يوحى به من شذوذ فى تكوين عمر النفسى ، يدفعه إلى أن ينزع فى

---

(١) انظر : مقدمة ديوان بشار بن برد للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ٣٧ ، وانظر أيضا : تاريخ الشعر العربى (د. البهبيتى) ٣٥٠ ومقدمة ديوان عمر بن أبى ربيعة ٦٨ وفى الشعر الإسلامى والأموى (د . القط) ٢٧١

(٢) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ٣٨٩

غزله هذا المنزع الغريب ، الذى يجعل منه موضوعا للغزل ، ويجعل من المرأة الطرف المتغَزِّل ، فيتبادل وإياها الموقف الغزلى ، فى وضع معكوس ، وعاطفة معكوسة .

هكذا لاحظ الدكتور شكرى فيصل فى النص الذى نقلناه عنه قبل هذه الأسطر ، وهكذا لاحظ الدكتور طه حسين من قبله، معللا هذا الاتجاه فى غزل ابن أبى ربيعة بما يشبه أن يكون إعجابا بالنفس ، أو افتتانا بالذات (نرجسية) فيقول (١) :

« وقد فتن عمر النساء وتيمهن ، فأخذن يطربنه ، ويتهالكن عليه ، حتى فتن بنفسه ، فلم يتغن بحبه إياهن ، كما تغنى بحبهن إياه » .

ورأى الأستاذ العقاد رأيا آخر فى تفسير هذا الجانب من صورة المرأة فى غزل ابن أبى ربيعة ، حيث أرجعه إلى « جانب أنثوى فى طبعه ، يظهر للقارىء من أبياته الكثيرة ، التى تنم عن ولع بكلمات النساء ، واستمتاع بروايتها ، والإبداء والإعادة فيها ، مما لايستمرئه الرجل الصارم الرجولة ، ولأدل من ولعه بكلمات النساء على الجانب الأنثوى فى طبعه ، أنه كان يُشْبِهُهنّ فى تدليل نفسه ، وإظهار التمنع لطالباته ..... ولعل جانب الأنوثة فيه لايظهر من شيء كما يظهر فى تدليل اسمه ، بين تلقيب ، وكناية ، وتسمية ، كما يعهد فى أحاديث النساء ، فهو تارة أبو الخطاب ، وتارة المغيرىّ ، وتارة عمر الذى لايخفى كما لا يخفى القمر ، وأشباه هذه الأنثويات التى يقارب بها المرأة فى المزاج ،ويسايرها فى الحديث ، ومن قبيل هذه الأنثويات ، أنه كان يقول :

لقد كنت وأنا شاب أُعشق ولاأعشق ... وهذا حديث من هو عاشق لنفسه ، قبل أن يكون معشوقا لغيره ، ففية خليقة المرأة ، أن تشعر بجنسها مطلوبة ، ولا تشعر بجنسها طالبة .... » (٢) .

وإلى قريب مما ذهب إليه الدكتور طه حسين من الافتتان بالنفس ، والإعجاب بالذات ، ذهب الدكتور شوقى ضيف (٣) ، مع رعاية منه لأثر بيئة ابن أبى ربيعة العامة والخاصة فى هذا الاتجاه الغَزلى .

فهو يقرر هذه الظاهرة كما تبدو من واقع شعر عمر ، بقوله : « عمر فى ديوانه

---

(١) حديث الأربعاء ١ / ٣١٤ .

(٢) شاعر الغزل ٤٠ — ٤٢ .

(٣) التطور والتجديد ٢٥٠ .

وغزله قد حول الغزل من الرجل إلى المرأة ، فالصورة العامة فى غزله أنه معشوق لاعاشق ، وعمر فى ذلك يعبر عن تطور جديد فى الحياة العربية ، فقبله لم نكن نعرف شاعرا يصبح شخصه موضوع الغزل فى غزله ، إنما شخص المرأة هو الموضوع المعروف للغزل ، وبعبارة أخرى ، كانت المرأة قبل غزل ابن أبى ربيعة هى المعشوقة ، أما فى غزله ، فقد تحولت إلى عاشقة ، كما تحول عمر نفسه من عاشق إلى معشوق » .

وفى رأى الدكتور شوقى ضيف أن عمر بذلك يعد شخصية فريدة فى عالم شعراء الغزل ، لأن عمر نفسه ليس من السهل أن يوجد مرارا ، إذ لابد للشاعر أن يكون له ثراء عمر ، وأن تكون له أمُّه ، التى عاشت له ، وعاشت تعشقه ، وأيضا لابد أن يوجد مجتمع مكة ، ومافيه من نساء أصبن شيئا من الحرية فكثر الاختلاط بينهن وبين الرجال ، على نحو ماكثر بين نساء مكة وابن أبى ربيعة » ثم ينتهى إلى القول بأن العاطفة قد انعكست عند عمر ، وشذت هذا الشذوذ الذى حوله من عاشق إلى معشوق .

ولانرانا نخالف هؤلاء الباحثين فيما وصفوا به هذا الاتجاه فى غزل ابن أبى ربيعة ، الذى جعل منه معشوقا للنساء ، لأننا لانملك هذه المخالفة ، إزاء نصوص شعره ، التى تصور النساء يطاردنه ، ويتمنين لقاءه ، ويتصدين له ، ويتوددن إليه بالنظرة وبالحركة ...

من مثل قوله : (١)

فعرفْــن الشوق فى مقــلتها ... وحَبَابُ الشوق يبديــه النظــر
قلْــن يستــرضينها : مُنْيَتنــا ... لو أتانـا اليــوم فى سرٍّ عمــر
بينما يذكرننــى أبصرننــى ... دون قَيْدُ المِيل يعدو بى الأغَرّ
قالت الكبرى : أتعرفْـن الفتــى ... قالت الوسطى : نعم ، هذا عمر
قالت الصغرى ــ وقد تيَّمْتُها ... قد عرفناه ، وهل يخفى القمر ؟!
ذا حبـيب لم يعــرِّج دوننــا ... ساقـه الحين إلينـا والقــدر
فأتانـا حين ألقــى بَرْكَــهُ ... جَمَلُ الليــل عليـه واسْبَطَــرّ
ورضاب المسك من أثوابــه ... مَرْمَــرَ الماءُ عليــه فنضر

---

(١) ديوانه ١٥١ والأغانى ١ / ٥١ والعمدة ٢ / ٩٩ . حباب الشوق : أقصاه . دون قيد الميل : يعنى على مسافة أقل من الميل . الأغر : فرس عمر

فهذه المرأة تشتاق رؤية عمر ، حتى ليبدو شوقها فى عينيها ، فيفضح سرها عند صاحباتها ، وماإن يطل عمر على جماعة النسوة حتى تتيم به أخرى هى صغراهن ، وتبوح بحبه ، وتعجب به الوسطى ، وكانت الكبرى تعرفه من قبل ، أى أنهن جميعا أظهرن تأثيره فيهن ، وعبرن عنه ، وهل يكون الغزل شيئا غير هذا ؟!

ويكفى فى التعليق على هذه الأبيات قول رفيق عمر وصاحبه ابن أبى عتيق ـ وكان ذا بصر بالشعر ـ : « أنت لم تنسب بها ، وإنما نسبت بنفسك ، كان ينبغى أن تقول : قلت لها ، فقالت لى ، فوضعت خدى ، فوطئت عليه » (١) .

وهذه النظرة النقدية من ابن أبى عتيق ، تنبى عن خروج عمر عن المألوف فى الغزل ، وتنبهه إلى القاعدة ، التى سار عليها الشعراء من قبله ، والتى جعلها ابن رشيق من مقاصد القول ، وعبر عنها بقوله « فإن نسب ذل وخضع » (٢) .

وهذه أخرى تتمنى أن لايفارقها عمر ، وتدعو له أن يحفظه الله بعنايته فى حله وترحاله (٣) :

وقــولها لفتـــاة غير فاحشةٍ   أرائحٌ ممسياً أم باكرٌ عمر ؟
الله جار له إمـا أقـام بنـــا   وفى الرحيل إذا ماضمّه السَّفَر

وأخرى تشكو صدوده ، وتحار فى تعليله ، وأخشى ماتخشاه أن يكون قد علّق أخرى (٤) :

فلست بناسٍ يوم قالت لأربع   نواعـم غُرٍّ كلهـن لها تِرْبُ
ألا ليت شعرى فيم كان صدوده   أعلّق أخرى أم علىّ به عُتْب

وأعجب من هذا قوله (٥) :

أبصرتُهـــا ليلـــةً ونسوتُهـــا   يمشين بين المقـــام والحجـــر

---

(١) الأغانى ١ / ٥١ والموشح ٢٠٤ والعمدة ٢ / ٩٩
(٢) العمدة ١ / ١٣٣
(٣) ديوانه ١١٤
(٤) أمالى القالى ٢ / ٤٢
(٥) ديوانه ١٤٥ والأغانى ١ / ٦٩ والموشح ١٦٣

قالت لتـرب لها ملاطفـةً: لنُفسدَنَّ الطـواف فى عمـر
قومـى تصدىْ له ليعرفنـا ثم اغمزيـه ياأخت فى خفـر
قالت لها : قد غمزتـه فأبى ثم اسبطرت تشتد فى أثرى

ولهذه الصورة دلالة خاصة ، لأنها لاتعبر ــ كسابقاتها ــ عن هيام هذه المرأة بحب عمر ، بقدر ماتدل على معابثة النساء له ، ورغبتهن فى لفت نظره إليهن ، ليعرفهن ، والمأمول بعد ذلك أن يتحدث عنهن فى غزله ، وهذا مايرضيهن منه ، حتى لو أدت هذه المعابثة إلى إفساد طوافهن .

وملحظ آخر ، هو أن هذه المعابثة كانت من جماعة ، لامن واحدة منفردة ، وهى كذلك غالبا فى غزله ، مما يؤيد ماسبق أن قلناه ، من أن الأمر فى غزل عمر ليس أمر حب وعشق ، بقدر ماهو تعبير عن رغبة المرأة الحضرية فى الأخذ بنصيبها من النقلة الحضارية الجديدة ، وممارسة الحرية التى أتيحت لها فى الاتصال بعالم الرجال ، عن طريق الحياة الفنية فى هذا العصر ، مع الاحتفاظ كذلك بتقاليدها فى الصون والعفة والمحافظة .

وكان ابن أبى ربيعة أسبق من بعض معاصريه فى فهم هذه الروح الجديدة عند نساء الطبقة الممتازة ، اللائى يدور غزله حولهن ، لايتجاوزهن ، وهى طبقة جمعت من عراقة الأصل ، وثراء المال ، ورقة الذوق ، وترف الحياة ، مثل ماجمع عمر ، من أمثال سُكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة ، والثريا بنت عبد الله من بنى أمية الأصغر ، وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وزينت بنت موسى الجمحية ، وهند بنت الحارث المُريَّة ، وابنة لمروان بن الحكم ... وغيرهن من المنتسبات إلى كبار البيوتات ، اللآتى تطلعن إلى إبراز مكانتهن فى مجتمعهن بالاتصال بالحركة الفنية فيه ، عن طريق أعلامها من الشعراء والمغنين والموسيقيين ، دون خوف من اتهامهن بريبة ، وهن ينتمين إلى هذه البيوتات ، ويعطين حق العفة والدين ، ويعطين مع ذلك حق النعمة والحضارة والجمال .

لم يفهم بعض معاصرى عمر هذا ، فأخذوا عليه انحراف غزله ، عن مألوف الغزل كذا فعل ابن أبى عتيق ، فى تعليقه على الصورة التى يقول فيها عمر :

قالت الصغرى وقد تيمتها قد عرفناه وهل يخفى القمر ...

وكذا فعل كثيرٌ عزة الشاعر حين وقف على الصورة الغزلية التى نتحدث عنها ،

فقد قال لعمر فى مجلس ضمهما : ياأخا قريش ، والله لقد قلت فأحسنت فى كثير من شعرك ،ولكنك تخطىء الطريق ، تشبب بالمرأة ، ثم تدعها ، وتشبب بنفسك ، والله لو وصفت بهذا هرة أهلك ، كنت قد أسأت صفتها ، أهكذا يقال للمرأة ؟! إنما توصف بالخفر ، وأنها مطلوبة ممَنَّعة [١] .

فكثيرٌ يرى فى قول عمر هذا خروجا على طريقة العرب فى النسيب ، « والعادة عند العرب أن الشاعر هو المتغزِّل المتماوت ، وعادة العجم أن يجعلوا المرأة هى الطالبة ، والراغِبة المخاطِبة » [٢] ، فهذا أنسب لما هو معروف عند العرب من استقامة الطبع ، وغيرتهم على الحرم ، أما هذا الذى يفعله عمر فى غزله ، فليس على سنن العرب ، بل أشبه بفعل العجم مع نسائهم .

وهذه صورة أخرى فيها لون آخر من كلف النساء بعمر ، فيها الإعراب عن الود الخالص ، وفيها التصدى بالإشارة ، والسلام ، وفيها مافى سابقتها من الدلالة على الرغبة فى إثارة انتباهه ، ولفت نظره ، نراها فى قوله [٣] :

تصابَى القلبُ وادَّكرا ... صباه ولم يكن ظَهَرا
لزينب إذ تُجِدُّ لنا ... صفاءً لم يكن كَدَرا
أليستْ بالتى قالت ... لمولاةٍ لها ظُهُرا
أشيرى بالسلام له ... إذا هو نحونا نظرا

وهاهى ذى صاحبة أخرى تقسم ليلة الرحيل ، وتردد القسم ، على أنها تحبه أكثر مما يحبها ، وأنها لو خُيِّرت مااختارت دونه أحدا من الناس خلا وحبيبا ، يحكى هذا عمر فى قوله [٤] :

:أَلِمْمْ بزينب إن البينْ قد أَفِدَا ... قَلَّ الثواء لئن كان الرحيل غدا
قد حَلَّفتْ ليلة الصورَيْن جاهدة ... وما على المرء إلا الحلف مجتهدا

---

(١) الموشح ١٦٣ وانظر العمدة ٢ / ١٠٠
(٢) العمدة ٢ / ١٠٠
(٣) ديوانه ٤٩٢
(٤) ديوانه ١ / ٤٥

لأختها ولأخرى من مناصفها لقد وجدْت به فوق الذى وَجدا
لو جمع الناس ثم اختير صَفْوُهمُ شخصاً من الناس لم أعدل به أحدا

فأين عمر فى كل هذه الصور ؟ ومامشاعره نحو هؤلاء النسوة ، اللائى يهمن به وجدا ، مابين باكية ، وشاكية ، ومشتاقة ، وعاتبة ، ومراسلة ، وغامزة ، ومسلمة ؟

لايعنيه فى كل ذلك أن نعرف عواطفه نحوهن ، بل ربما كان يعنيه أن يوحى بأنه لايالى بهن ، وحسبه أن يؤدى ، من خلال هذه الصور جميعا أن النساء كن به كلفات ، متيمات ، قد أقرح الحب قلوبهن ، يتابعنه بالسلام والغمز والإشارات ، وهو يدل عليهن .

وهذا ممالفت أنظار النقاد فى عصره ، ومن بعد عصره ، فاختلفوا فيه ، مابين معجب برقة نسيبه ،وحلاوة كلامه كجميل بثينه ، الذى يقول عن قول عمر :

فلما تلاقينا عرفتُ الذى بها كمثل الذى بى حذوك النَّعْل بالنَّعل
فقالت وأرخت جانب الستر إنما معى فتكلم غير ذى رقبة أهلى
فقلت لها مابى لهم من ترقب ولكن سرِّى ليس يحمله مثلى

« هذا والله الذى أرادته الشعراء فأخطأته ، وتعللت بوصف الديار [(١)] » .

وعاتب زار عليه ، لانحرافه بالغزل عن أصوله وقواعده عند العرب ، فكان المفضل الضبى يعيب شعره من أجل هذا ، ويقول : « إنه لم يرق كما رق الشعراء ، لأنه ماشكا قط من حبيب هجراً ، ولا تألم لصد ، وأكثر أوصافه لنفسه ، وتشبيبه بها ، وأن أحبابه يجدون به ، أكثر مما يجدبهم ، ويتحسرون عليه ، أكثر مما يتحسر عليهم » .

اتضح هذا الاتجاه إذن فى غزل ابن أبى ربيعة ، وبدا فيه عمر — كما يقول الدكتور شوقى ضيف [(٢)] — هو المتبوع لا التابع ، وهو المطلوب لا الطالب ، وهو المعشوق لا العاشق ، فالنساء يفتن به ، ويتصدين له ، وينتهزن كل فرصة للقائه ، ويشرن له باليد حينا ، وبالعين حينا ، وهو فى كل ذلك لايعنى ، ولايلتفت ، دَلالاً وتيهاً ، وإعجاباً بنفسه وجماله ... » .

---

(١) الشعر والشعراء ٢١٧
(٢) التطور والتجديد ٢٥٠

وكل هذه حقائق فى شعر عمر لاسبيل إلى إنكارها ، يؤيدها ما قدمناه من شعره ، وكثير غيره يضمه ديوانه .

وأما أن عمر كان معجبا بنفسه ، فنعم .

ولم لا يعجب بنفسه ، وهو الشاب الوسيم ، الموصوف بين شباب بنى مخزوم بأنه أفرعهم طولا ، وأجهرهم جمالا ، وأبهرهم شارة ، وعارضة ، وبيانا ، وآنقهم زيا ومظهرا ؟ كان إذا فرغ من المناسك فى موسم الحج يخرج من إحرامه ، فيلبس الحلل ، ويركب النجائب ، المخضوبة بالحنّاء ، عليها الطنافس والديباج، ويسبل لمته ، ثم يخرج ، عارضا وسامته وأبهته على النساء من حجازيات وغير حجازيات .

وهو فوق ذلك وافر الثراء ، يعينه يساره على التفرغ للهو ، والتصدى للحسان ، وملاحقتهن ، والتشبيب بهن ، بينما كان الشعراء الغزليين من طبقته ، لهم مايشغلهم عن التفرغ للغزل ، فقد كان الحارث بن خالد واليا لمكة ، وكان العرجى يخرج للجهاد فى أرض الروم ، وابن قيس الرقيات ، مهتما بالسياسة .

وفوق هذا وذاك ، هو الشاعر المرموق ، الذائع الصيت ، يجرى شعره على كل لسان ، وفى كل مجلس ، حتى ليقتحم على الزهاد والعلماء مساجدهم ، وحلقات دروسهم — كما رأينا — ويتهافت المغنون والمغنيات على طلب شعره ، ليحيلوه إلى ألحان ، يرددونها صباح مساء .

بهذا وغيره غدا عمر بن أبى ربيعة نجما متألقا فى سماء مجتمعه ، وطارت شهرته إلى أقاليم الدولة الإسلامية ، فى العراق والشام وغيرها ، وعرف عنه فى كل هذه البيئات ، أنه شاعر « يلهو مايلهو ، ويتغزل مايتغزل ، ثم لاينسى أن يعلن مع هذا جاهدا أنه لايستبيح محرما ، ولايأتى بريبة ، ولايزال على سنة الشعراء الذين يقولون مالا يفعلون » (١).

وكان طبيعيا أن تقبل عليه ظريفات المجالس ، اللائى يدور الحديث عليهن ومنهن فى عصره ، وكلهن من بنات الطبقة الاجتماعية المنعمة اللاهية بمجالس السمر ، ومساجلات الغزل ، وكلهن من الراغبات فى إظهار الفخر بجمالهن ، وأن يعرف الناس

---

(١) شاعر الغزل (العقاد) ٣٥

أنهنّ جميلات ، شأن النساء عادة ، وعمر وشعر عمر أقرب وسائلهن المتاحة للإعلان عن هذا الجمال والفوز بالشهرة فى دنيا الملاحة ، ثم إنها وسيلة مأمونة العاقبة ، فعمر شاعر يقول ولايحقق ، ويعرف لبنات طبقته حقهن من الصون ، وعدم التعرض لألسنة السوء .

كثرت النساء حول عمر ، وكل منهن حريصة على التودد إليه ، واحتلال مكان بارز من شعره الغزل ، ويخيل إلينا أن كثيرا من هؤلاء كن يتصدين له عن عمد ، ويشجعنه على التغزل بهن ، إرضاءً لغرورهن ، وتنويها بجمالهن ، وحبا للتحدث بأخبارهن ، فمما يذكر أن عمر لما شبب بفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، فى قوله [1] :

افعلى بالأسير إحدى ثلاثٍ وافهــــميهنّ ثم رُدِّى جوابى
اقتليــه قتـــلا سريحا مريحا لاتكونى عليه سوط عذاب
أو أقيدى فإنما النفس بالنفـ ـس قضاء مفصَّلا فى الكتاب
أوصليه وصلاً تقرُّ به العيـ ـن وشر الوصال وصل الكِذَاب

أعطت الذى جاءها بالأبيات لكل بيت عشرة دنانير .

ولم يقتصر الأمر على حسناوات الحجاز ، بل كان من بين القادمات فى موسم الحج من خارج الحجاز ، من يفعلن هذا أيضا ، إذ كان يرضيهن أن يرجعن إلى بلادهن ، بأبيات يرويها الركبان ، ويفهم منها الأتراب المنافسات أنهن ذهبن إلى الحجاز ، فخلبن ألباب رجاله ، وأطلقن ألسنة شعرائه ، وصرفنهم عن الغزل بحسانه ، وقل فى الحسان من ليست تغتر بمثل هذا الغرور فى زمان عمر ، وفى كل زمان [2] .

حق لعمر إذن أن يعجب بنفسه ، ولكنه ليس الإعجاب الشاذ ، المنبى عن اختلال فى تكوينه النفسى ، أو المؤدى إلى التركيز على الذات ، والهيام بها (النرجسية) ، فما عرف عنه هذا الشذوذ فى سلوكه ، ولاتحدث أحد من معاصريه ، ممن أعجب بغزله وشخصيته ، أو ممن ازور به وبها بما يفيد اختلالا فى تكوينه النفسى ، ولاينهض شعره أيضا ليدل على شىء من هذا ، فكل شاعر يُتاح له ماأتيح لعمر من شهرة ، وحظ فى عالم

---

(١) الشعر والشعراء ٢١٧

(٢) شاعر الغزل (العقاد) ٥٠

النساء ، لن يجد بأسا من أن يتحدث عن نفسه ، ويزهو بكثرة علاقاته ، وبحظوته عندالمرأة ، كما تحدث عمر ، وقد يصطنع المبالغة والتهويل والاختراع فى كل هذا ، كما اصطنع عمر ، ولايتهم مع ذلك بالشذوذ النفسى أو العاطفى ، وهل كانت مشيخة قريش تعجب بشعره ، ولاتعدل به شعرا قط ، وهى تعرف أن هذا الشعر ثمرة شذوذ واختلال ؟

وشاعر هذا شأنه من الطبيعى أن يكون من بين النساء المزدحمات حوله من تحبه حقا ، فالمرأة لاتختلف عن الرجل فى الميول ، وبخاصة فى شئون الحب ، وقد تكون البادئة فيه ، وإن تلكأت أحيانا فى إظهاره ، ومن هنا ، فكما كان عمر ينشد الجمال ويسعى إلى المرأة ، كانت هناك — ولاشك — نساء يحببنه قبل أن يعرف بأمرهن ، بل كان منهن من تسعى إلى الاتصال به ، وتظهر الرغبة فى التحدث إليه ، والتمتع بمجلسه ، فكن بهذا أسبق منه فى الشعور بهذه العاطفة ، وأحيانا فى إظهارها ، وكان هذا من أسباب حديثه عن نفسه ، والتغزل بها ، ولكنه صرح من ناحية أخرى حين سمع أن بعضهن يتشوقن للقائه ، ويرغبن فى التحدث إليه ، أنه كان أكثر منهن شوقا ورغبة فقال بيته السابق :

وقربْــن أسبــاب الهوى لمتيَّــمٍ   يقيس ذراعاً كلمـا قِسْنَ إصبعـا

من هذا نستطيع أن نفهم أن عمر لم يكن شاذا فى هذه الصورة التى قدمها للمرأة عاشقة كما ظن بعض الباحثين ، الذين نتفق معهم فى وصف هذه الصورة فى شعره ، ونخالفهم فى تعليلها ، فقد كان من بين نساء عصره مَنْ أحببنه حقا ، ومن أعجبن به حقا ومن توددن إليه كثيرا .

على أن صورة المرأة العاشقة فى غزل عمر ، لم تكن دائما خالية من المشاركة العاطفية بينه وبين المرأة التى تهواه ، فما هذه الصورة — مهما كثرت نماذجها — إلا جانب من جوانب شعره الغزل ، وفى بعض نماذجه الأخرى مايدل على أنه كان يتشوق للمرأة ويتودد إليها ، ويشكو أحيانا من صدها ، وسنعالج هذا الشعر عند دراسة صورة الرجل فى غزل حضر الحجاز .

كما أن فى بعض نماذجه ، التى يتحدث فيها عن فتنة النساء به ، مايدل على أن الحب عنده عاطفة مشتركة ، وإعجاب متبادل ، فكلما أفصحت له صاحبته عن حبها ، أفصح هو عن حب لايقل حرارة وإخلاصا .

من ذلك قوله [١] :

بنفسى من اشتكى حبَّـه ... ومَنْ إن شَكَا الحبَّ لم يكذب
ومَـنْ إن تسخَّـط أعتبتـه ... وإن يرنى ساخطـا يُعـتب
ومَـنْ لا أبـالى رضا غيره ... إذا هو سُرَّ ولم يغضَب
ومَنْ لايطيـع بنـا أهلـه ... ومَنْ قد عصيت له أقْربِي ...

وقوله : [٢] :

بنفسى من شفنـى حبـه ... ومن حبه باطـن ظاهـر
ومن لست أصبر عن ذكره ... ولاهـو عن ذكرنـا صابـر
ومن إذْ ذُكرنا جرى دمعه ... ودمعى لذكـرى له مائـر
ومن أعرفُ الوُدَّ فى وجهه ... ويعـرف وُدى له الناظِـرُ

حتى فى موقف العتاب ، الذى يتحدث فيه عن نفسه ، على لسان المرأة العاتبة ، سرعان مايكشف عن وجده بها ، كما تجد به [٣] :

أرسلت هنـد إلينـا رسولا ... عاتبا أنْ مالنا لانـراكا ؟
فيم قد أجمعت عنا صدودا ... أأردت الصرم أم ماعداكا ؟
إن تكن حاولت غيظى بهجرى ... فلقـد أدركت ماقـد كفاكا
قلت : مهما تجدى بى فإنى ... أظهـر الوُدّ لكـم فوق ذاكا

وهكذا نرى عمر مثالا لغيره من الشباب الذين هيىء لهم ماهيىء له ، والذين يحبون حبا صادقا أحيانا ، ويلهون بالحب ، لهوا بريئا أحيانا أخرى ، ثم يتحدثون عن ذلك كله فيما بينهم ، أو يصورونه شعرا إذا كانوا شعراء كعمر ، ممثلين بهذا طبيعة الحياة فى مجتمع حضرى .

بقيت تهمة الأنثوية التى فسر بها الأستاذ العقاد صورة المرأة العاشقة فى غزل

---

(١) ديوانه ٦٢ . أعتبه : أزال سبب عتابه ، وكذ يُعتب .
(٢) ديوانه ١٣٨ . مائر : غزير جار .
(٣) ديوانه ٢٨٣

عمر ؛ لأنه حكى لغة الأنثى فى هذه الصورة ، وذهب مذهب النساء فى معانيه وأسلوبه .

والحق أن عمر برىء من هذه الوصمة ، براءته من دعوى الشذوذ النفسى والعاطفى ، فليس به أنوثة ولاخنوثة ، ولكنه شاعر فنان ، يرعى حق الفن فيما يختار من أساليب الأداء ، ومادام قد أجرى الشعر على لسان النساء ، وأعارهن موهبته فى التعبير الفنى عن المشاعر ، ليكشفن عن مكنون صدورهن . فمقتضى الإخلاص الفنى أن تكون لغة هذا الشعر لغة أنثوية ، لينة رقيقة ، تمتاح من القاموس اللغوى لمجتمع النساء، وإنه ليعاب لوأنطق النساء بلغة الرجال الصارمة ، التى يلاحظ الأستاذ العقاد خلو هذا الشعرمنها .

آية هذا كله أننا ينبغى أن لانتهم عمر فى صحته النفسية ، ومزاجه العاطفى ، واستواء رجولته ، إذا مادعته دواعى الفن ، ووجهته خبرته الشخصية ، إلى تصوير بعض نساء عصره عاشقات ، هو موضوع عشقهن ، وإلا لاتهمنا تلميذه العرجى بمثل ذلك ، وهو الرجل الذى أسهم بجهاده فى الدفاع عن ثغور الدولة الإسلامية .

ففى بعض شعره مايشبه هذا الاتجاه عند أستاذه ، حيث يصوره عاشقا معشوقا ، من خلال الأسلوب الذى استخدمه عمر ، أسلوب الحوار .

من ذلك قوله [١] :

ومـاأنس مِلأَشياءِ لاأَنْسَ موقفـاً ... لنـاولها بالسفْـحِ دون ثَبير

ولاقولها ـ وَهْناً ـ وقد بلَّ جيبَها ... سوابـقُ دمـعٍ لايجف غزيـر

أأنت الذى خبرتَ أنك باكـرٌ ... غداة غدٍ أو راحـلٌ بهجير

فقلت : يسيرٌ بعض شهر أغيبه ... ومابـعض يومٍ غبتـه بيسير

وبعد ، فمن أجل هذا الغزل الرقيق الحضرى فى شعر عمر بن أبى ربيعة ، كان أكثر القدماء ، من الشعراء والنقاد والعلماء بالشعر مجمعين ، أو كالمجمعين ، على إكبار عمر

---

(١) دوانه ١٥

بن أبى ربيعة ، وتقديمه [١] يقول ابن أبى عتيق : « فلشعر عمر لوْطَةٌ فى القلب ، وعلقٌ بالنفس ، ودَرَكٌ للحاجة ماليس لشعر غيره [٢] » .

٥ ــ ولايهمل الغزل الحضرى الحجازى الجانب الحسى من صورة المرأة ، ولا نعنى بالحسية هنا ماهو مقابل للعواطف المجردة ، والتوحيد ــ نعنى الاقتصار على امرأة واحدة فى غزل الشاعر ــ عند العذريين ، وإلا كان غزل حضر الحجاز فى العصر الأموى حسيا خالصا كله ، إذ ليس فيه هذا التجريد فى العاطفة والتسامى بها ، ولا اقتصار الشاعر على حب امرأة واحدة والتغزل فيها .

وإنما نعنى بالحسية ، الوصف المفصل للجمال الجسدى للمرأة ، مقترنا بإظهار الرغبة ــ أو الإيحاء بها ــ فى الاستمتاع به .

والصورة الحسية بهذا المعنى هينة الخطر فى غزل حضر الحجاز ؛ إذ لم يتجاوز الشعراء فيها ــ على قلة عنايتهم به ــ الصفات الجسدية لنموذج الجمال المثالى لمفاتن جسد المرأة ، التى خلعها الشعراء الجاهليون من قبلهم على المرأة التى تغزلوا بها .

ولذا نجد هذه الصورة تكاد تتحد فى وصف النساء جميعا عند هؤلاء الشعراء ، فمقاييس جمال الفم ، وريقه ، والشعر ولونه وبريقه ، والقدّ وليونته واعتداله ، والخصر وضموره ، والردفين وامتلائهما واستدارتهما ، والعيون واتساعها وفتورها .... إلى غير ذلك من مكونات الجمال فى المرأة ، كلها واحدة ، أو متشابهة ، مما يخيل إلينا أن الشعراء ، كانوا يستعيرون عيون آبائهم وأجدادهم من الشعراء الجاهليين ، ولاينظر الواحد منهم بعينه إلى صاحبة بعينها ، ليدرك ملامح جمالها المتفرد ، ويرسم له التشابيه والصور المناسبة له .

فكل أمرأة فى هذا الغزل تسفر عن وجه كالقمر ، أو الشمس ، أو الصبح ، وتطل بعينى المها أو الجؤذر ، وكل فم حلو الرضاب كالشهد المذاب ، وكل عجيزة كالكثيب المهيل ، وكل قدٍّ كالغض ... إلى آخر هذه التشبيهات المعهودة فى غزل سابقيهم .

---

(١) جريدة السياسة العدد (١٧) ديسمبر سنة ١٩٢٤ م (مقال الدكتور طه حسين)

(٢) الموشح ٢١٠

وكأنما كان هذا الوصف تقليدا فنيا ، على الشاعر ألا يهمله ، أو جزءا متمما لبناء القصيدة الفنى .

فلننظر – مثلا – فى قول العرجى يصف جمال عينى صاحبته ، ووجهها ، وساقيها ، ولون بشرتها ، ولين جسمها ، واعتدال عودها ، وطراوته وتثنيه : (١)

فيهن حوراءُ لها صورة كالبدر قد قارن بالأسْعُد
ممكورة الساقين رعبوبة كالغصن قد مال ولم يُخضَدِ

فعيناها واسعتان سوداوان ، ووجهها مستدير ، استدارة البدر يوم تمامه ، وساقاها ممتلئتان ، وبشرتها بيضاء ، وعودها طرى طراوة الغصن المعتدل الغض ، الذى إذا انثنى لاينكسر لليونته .

ولانجدنا بحاجة إلى وضع نماذج من غزل الجاهليين ، بإزاء هذا النموذج للمقارنة ، ولإثبات أن الآخر يتعقب الأول فى هذه الأوصاف ، حذوك النعل بالنعل ، كما يقولون .

وأبو دهبل الجمحى يذهب هذا المذهب التقليدى أيضا فى وصف بعض مظاهر الجمال الجسدى لصاحبته ، فيقول : (٢)

وهى زهراء مثل لؤلؤة الغوّاص مِيزَتْ من جوهرٍ مسنون
تجعل المسك واليلنجوج والندَّ صِلاءً على الكانون

فتشبيه بياض البشره بلون اللؤلؤ المستخرج حديثا من صدفه ، ووصف ماتتطيب به من أنواع الطيب ، منقول نقلا من الشعر الجاهلى .

وحتى عمر الشاعر المستحدِث ، حينما التفت – وقلما فعل – إلى جمال جسد صاحبته ، أراح ملكته ، فلم يمتح من بئر عبقريته ، وإنما اغترف من بحر الشعر الجاهلى .

ونكتفى من هذا بقوله : (٣)

---

(١) ديوانه ١٢ . الأسعد : اليمن . ممكورة : ممتلئة . رعبوبة : بيضاء . يخضد : يكسر
(٢) الأغانى ٦ / ١٥٧
(٣) ديوانه ١٢٨ . الوحف : الشعر الأسود الغزير . الوذيلة : المرآة .

قطـوف ألـوفٌ غريـرة وثيرة ماتحت اعتقاد المُؤزر
سبته بوَحْفٍ فى العقاص مرجَّلٍ أثيث كقنوالنخلة المتكـوِّر
وخد أسيل كالوذيلة ناعم متى يره راءٍ يُهلّ ويسخر
وعينىْ مهاة فى الخميلة مطفل مكحلة تبغى مَراداً لجؤذر
وتبسم عن غُرٍّ شتيت بنانه له أشَرٌ كالأقحوان المنوّر ...الخ

وأغلب الظن أن عمر فى هذا الوصف قد وضع ديوان امرىء القيس بين يديه ، ينظر فى غزله الوصفى وينظم ، ولو روينا من غزل امرىء القيس مايؤيد هذا لأطلنا ، وأمللنا ، وفى الإحالة مغنى (١) .

ويطول بنا القول لو استرسلنا فى الاستشهاد لهذه الصورة الحسية فى غزل شعراء حضر الحجاز فى العصر الأموى ، وماتعكسه من وصف تقليدى لمحاسن المرأة ، ويكفى أن نعلم أنهم فى هذه الصورة كانوا عالة على الشعر الجاهلى من ناحية ، مستوفين لتقليد فنى من ناحية أخرى .

— ٥ —

ثانيا : صورة الرجل فى الغزل الحجازى :

الطابع الغالب على هذه الصورة ، أن يأخذ الشاعر فى تصوير عواطفه نحو المرأة ، التى يعشقها ، أو يلهو بها ، محلِّلاً من خلال ذلك هذه العواطف ، إذ لم يعد الوصف الحسى لمفاتن المرأة ، على النحو الذى كان مألوفا عند الشاعر الجاهلى ، هو مايشغل كثيرا المحب الغزل فى حضر الحجاز ، فقد أخذ يتجه إلى داخله — إن صح هذا التعبير — متحدثا عن مشاعر الحب والصبابة ، مصورا معاناته فى حبه وصبابته .

ولايقدح فى هذا الحب ، وتلك الصبابة مانلاحظه من عدم اقتصار الشاعر على نموذج نسائى واحد فى كل غزله ، حيث نراه موزع النفس بين عدد من النساء ، لايكاد يستقر قلبه على إحداهن ، إلا ريثما تزاحمها فيه من هى أجمل منها ، أو أكثر ظرفا ، أو أملح دلالا ، أو أطيب حديثا ، أو أرق أحساسا ، فيقضى عمره متنقلا بهواه بين الحسان ،

---

(١) نحيل على كتابنا : أمراء الشعر فى العصر الجاهلى ١٥٤ — ١٦١

كالفراشة الهائمة بين أزاهير الرياض ، أو كالنحلة المنتقلة بين المروج ، ترتشف من هذه الزهرة وتلك ، باحثا عن ألوان الجمال ، متذوقا صنوفه ، يتصدى لكل ذات حسن وملاحة ؛ ليمتع حاسة الجمال فيه ، إن وجد عندها ماليس عند غيرها ، أو ليعرف قدر الجمال فى صاحبته ، التى ارتضاها قلبه ، أكثر من غيرها وراقت فى عينه ، لامتيازها على سواها ، تماما كما فعل عمر بن أبى ربيعة ، وحكاه فى قوله : [١] :

خرجتُ غداة النَّحرْ أعترض الدُّمَى ... فلم أرأحلى منك فى العين والقلب

فو الله ماأدرى أحُسنـــاً رُزِقتِـــه ... أم الحب أعمى مثل ماقيل فى الحب

وينبغى أن نتأمل قول عمر « أعترض الدمى » لندرك أن الشاعر إنما يعشق الجمال ، فالنساء عنده ماهن إلا معارض لهذا الجمال ، وحب الجمال لايمكن أن يقف عند تجربة واحدة ، لأن هذا من سمة المحب ، الذى يسعى إلى تحقيق ذاته مع من يحب ، فلا يبقى له بعد هذا مطلب أو هدف ، وماهكذا عاشق الجمال ، الباحث دائما عن زاد متجدد لتجاربه الفنية فى دنيا الجمال ، لايكاد يسكن إلى واحدة إلا ريثما يقع على غيرها ، ومايمنعه مادامت الفرص متاحة ، وظروف البيئة مساعدة ، ومواسم الحج تأتى إلى مدن الحجاز بالمليحات من كل حدب وصوب فيهن حسان الشام ، وجميلات العراق ، من ذوات البيوتات والشرف ، والصيت الذائع فى عالم الملاحة ، ومجالس الغناء ، ومجالى اللهو ، تجتذب النساء كما تجتذب الرجال ، وتفسح لهن مكانا ، كما تفسح للرجال آخر ، والكل آمن فى الأخذ بهذه المتع الفنية المباحة ، ومن ثم لم تعد للعلاقات العاطفية هذه الهالة الرومانسية القديمة ، وانفسح الطريق أمام الصلات العابرة ، والمغامرات الطارئة ، التى لاتدوم إلا ريثما يستنفد الشاعر تجارب عمله الفنى [٢] » .

والشاعر المغرم بالجمال يستطيع أن يرضى حسه به ، دون أن يتقيد بأخلاق الوفاء وآداب الحب ، وخصال التضحية والصبر ، والتعذيب النفسى الذى لامعنى له ، عند من يجلس اليوم إلى المرأة ، أو نساء كثيرات مجتمعات ، ويجلس غدا إلى أخرى ، أو إلى كثيرات أخريات .

---

(١) ديوان المعانى ١ / ٢٢٨ والتذكرة السعدية ٥١٤

(٢) الشعر الأموى (د. فتوح) ١٩٢

ولم تكن تجارب شعراء الغزل فى حضر الحجاز على ذلك كاذبة دائما ، أو متكلفة ، يعوزها الصدق الفنى ، لأننا قد نتشكك فى صدق هذه التجارب من الناحية الأخلاقية ، أى من حيث ارتباطها بواقع أخلاقى ، أو عدم ارتباطها ، وقد نرتاب فى صدقها التاريخى ، ونعنى به وقوع الأخبار والأحداث التى تحدث بها الشعراء فى تجاربهم ، غير أن هذا الشك يغدو فضولا لا موجب له ، إذا كنا نبحث فى تجارب هؤلاء الشعراء ، عن صدق الشعور الذى يعبرون عنه ، وصدور ذلك الشعور عن مزاج أصيل ، لاتكلف فيه ، ولااختلاق ؛ لأن الصدق الشعورى ثابت لهم من ثبوت مزاجهم وفطرتهم ، التى جبلوا عليها ، وهى الفطرة التى جعلتهم يغرمون بالنساء ، والتحدث إليهن ، والتحدث عنهن ، وتمثيل ذلك فى تجاربهم الفنية .

وشىء آخر يمكن أن نعلل به الصدق فى تجارب الغزل عند شاعر الحجاز الحضرى ، هو أنه لم يكن يحب بعقله أو بقلبه فقط ، وإنما كان يحب بحسه أيضا ، فما إن يرتوى حسه من لون من ألوان الجمال فى المرأة ، حتى يتعلق بغيره ، أو كما يقول الدكتور طه حسين : « لم يكن حسه يطيع قلبه ، فيرى الجمال فى عشيقته ، ويميل إليها ، وإنما كان قلبه طوع حسه » (١) ، أو هو كما يقول عمر بن أبى ربيعة (٢) :

إنى امرؤ مولعٌ بالحسن أتبعُـــه   لاحظَّ لى فيه إلا لذة النظــر

فليس حبه بالحب العذرى ، الذى يفرض على صاحبه التعلق بواحدة لايعدوها إلى غيرها .

أهم ملامح هذه الصورة :

١ــ بث الأشواق وشكوى الهجر :

كثيرا مايتجه الشاعر الغزل فى حضر الحجاز إلى إبداء عواطفه نحو صاحبته ، محلِّلا هذه العواطف فى بث يكاد يقرب من تجارب العذريين فى شكوى الحرمان ، والمعاناة من الوجد ، فتشيع نغمة حزينة بين ثنايا نماذجهم فى هذا الضرب من الغزل ، تكاد

---

(١) جريدة السياسة . العدد (١٧) . ديسمبر ١٩٢٤ م (مقال الدكتور طه حسين) .
(٢) الأغانى ١ / ٦٣

تخدعنا عن طبيعة هذه التجارب ، وتوهمنا أنها لشاعر لاينشد من وراء تجربة الحب ، إلا الشعور بلذة أنه يحب ، وأنه مقيم على هذه العواطف والأحاسيس لايتغير ، ولايتحول .

ولنقرأ قول الأحوص فيمن دعاها عبلة [١] :

ألا ياعبل قد طال اشتياقى إليك وشفّنى خوف الفراق
وبت مخامرا أشكو بلائى لما قد غالنى ولما ألاقى
كأنى من هواك أخو فراش تَجَلْجَلُ نفسه بين التراق
حلفت لك الغداة فصدقينى برب البيت والسبع الطباق
لأنت إلى الفؤاد أشدحُبّا من الصادى إلى الكأس الدهاق

إن الأحوص هنا يرتدى ثوب المحب المخلص ، وإخلاصه ووفاؤه لصاحبته ، يدفعانه إلى تحمل معاناة هذا الشوق الطويل ،والقلق الممض من خوف الرحيل ، الذى أسقم نفسه وجسمه ، فغدا كالعليل لسكرات الموت ، وهو يتوسل إليها أن تثق بحبه ، وبإخلاصه ووفائه فيه . فهل هو حقا كما يقول ؟

نقرأ قوله فى الوجد بأخرى دعاها أم جعفر لنرى : [٢]

وإنى ليدعونى هوى أم جعفر وجاراتها من ساعة فأجيب
هبينى امرءا إما بريئاً ظلمته وإما مسيئاً مذنبا فيتوبُ
فلا تتركى نفسى شعاعا فإنها من الحزن قد كادت إليك تذوب
لك الله إنى واصل ماوصلتنى ومُثْنٍ بما أوليتنى ومثيب

هنا يكشف الأحوص عن طبيعة تجربته العاطفية ، وغايتها ، إنها تجربة حسية لاهية فى فلسفتها ، وفى غايتها ، فالهوى ليس وقفا على أم جعفر ، وإنما هو لها ولجاراتها ، والعاطفة تجول فى ميدان الأخذ والعطاء ، إن وصلته صاحبته وصلها وأثنى على هذا الوصال ، وإن أعرضت أعرض ، فهذا هو الاحتمال المقابل وإن لم يذكره ، من باب حذف مايعلم ، فلا نخدع إذن بهذا الاستعطاف الحار فى البيت الثانى ، ولا بهذا الذوبان

---

(١) الموشح ٢٣١ .
(٢) ديوانه ٧٨ .

من الشوق فى البيت الثالث . بل هما موحيان بالغاية منهما ، وهى تجديد الوصل ، وبه يكون النوال والاستمتاع . الذى يحرص الشاعر على الإشارة إليه فى قوله بعد هذه الأبيات :

وآخذ ماأعطيت عفواً ... .

وفى أم جعفر هذه يقول الأحوص أيضا (١) :

لقد منعت معروفها أمُّ جعفر وإنى لمعروفها لفقير
وقد أنكروا عند اعتراف زيارتى وقد وَغَرتْ فيها علىّ صدور
أزور ولولا أن أرى أم جعفر بأبياتكم مادرت حيث أدور
أزور على أن ليس ينفكّ كلما أتيت عدوٌّ بالبنان يشير
وماكنتُ زوّاراً ولكن ذا الهوى إذا لم يزر لابد أن سيزرو

إنه يقرب من سمات العذريين فى البيت الثالث . الذى يوهم بأنه مكتف بمجرد رؤيا صاحبته ، ولو عن بعد . بل قد تكفية رؤيا ديارها ، ولذا فهو يدور حولها . لأنها ديارها . ولأنه قد تسنح له فرصة رؤياها . والأمر كله أنه محتاجٌ لمعروف أم جعفر ، هذه هى الغاية ، التى من أجلها يدور حول الديار ، مغامراً مهددا من الأعداء الذى يشيرون إليه كلما زار ديارها . فالمغامرة هنا محسوبة بحيث تفضى إلى إدراك الغاية منها . وهى تحصيل مطمع ، أو إشباع رغبة ، وإلا فهى مغامرة خاسرة ، قد يعدل عنها الشاعر . الذى لايصبر على هذا الأسلوب ، ولايكتفى به ، فهو ليس من غواة الزيارة ، والدوران حول الديار ، ولكنه ذو هوى ومأرب يدفعه إلى الزيارة غدا إن لم يزر اليوم ، كما يصرح فى البيت الأخير .

أما إن استيأس من بلوغ مأربه ، فإنه لن يصبر على الحرمان . وفى التحول إلى غيرها مستراح ومغنم .

بهذا يهدد الأحوص فى قوله : (٢)

---

(١) الموشح ١٦٣ .
(٢) المصدر نفسه .

فإنْ تصلى أصلك وإن تبينى ⠀⠀ بصُرْمك قبل وصلك لاأبالى
وإنى للمودة ذو حفاظٍ ⠀⠀ أواصل مَنْ يَهَشُّ إلى وصالى
وأقطع حبل كل ذى ملق كذوب ⠀⠀ سريع فى الخطوب إلى انتقال

أردنا بهذا الإبانة عن أن ذهاب الشاعر الحضرى الحجازى إلى بث العواطف ، وتحليل المشاعر ، وإكسابها سمة المعاناة من الحرمان ، والشكوى من الهجر ، لايسلك تجاربه الغزلة فى نظام التجارب العذرية ، كما ارتأى بعض الباحثين المحدثين (١) .

وهذا رأى استقيناه من تجاربه التى قدمناها ، وغيرها مما يضمه شعره ، غير متأثرين بسيرة الأحوص ، وماقيل فيها من نسبته إلى الفجور ، والتهالك على اللذات ، والاستهتار بقيم الدين والمروءة (٢) ، فنحن لاننظر فى تجاربه بمقياس أخلاق ، ولا نستنطقها للاستدلال على خلقه ودينه ، فهذا الصدق الأخلاق لايشغلنا هنا ، وإنما مجال الدراسة ومقامها الصدق الفنى ، وقد أثبتاه للأحوص وأصحابه الغزلين الحضريين الحجازيين فى صدر هذا البحث .

وماقلناه عن تجارب الأحوص ، المصورة لجانب من صورة الرجل العاشق فى هذا الغزل ، من حيث إبرازه شاكيا ، ملتاعا ، يعانى من الهجر ، ويتوسل فى طلب الوصل ، ومن حيث ميل هذه الصورة إلى تحليل العواطف ، وصبغ قصة الحب بطابع غير سعيد ، كل هذا نراه فى نماذج من غزل زملائه ، شعراء حضر الحجاز .

فعمر بن أبى ربيعة الذى رأيناه مزهوا بحظوته لدى النساء ، مصورا نفسه فى صورة المعشوق ، نراه هنا عاشقا ، يشكو حرقة الجوى ، ولوعة الفراق ، وجراح القلب ، يفرح باللقاء ، ويشقى بالهجر ، لايفتأ متوسلا إلى صاحبته أن تجود عليه بالوصال ، بحيث تأخذ تجاربه طابعا من البث العاطفى الحار ، يقربها هى الأخرى من تجارب العذريين ، وتكاد تختلط بها .

من ذلك قوله : (٣)

---

(١) هو الدكتور عبد القادر القط فى كتابة : فى الشعر الإسلامى والأموى ٢٠٦ ـــ ٢١١

(٢) راجع تفصيل هذه السيرة فى : حديث الأربعاء ١ / ٢٦٦ ـــ ٢٧٠

(٣) ديوانه ١٥٨

ألا ياهند قد زودت قلبى جَوَى حزنٍ تضمنه الضمير
إذا ماغبت كاد إليك قلبى فدتك النفس من شوق يطير
يطول اليوم فيه لاأراكم ويومى عند رؤيتكم قصيرُ
وقد أقرحت بالهجران قلبى وهجرُك فاعلمى أمرٌ كبير
فديتك أطلقى حبلى وجودى فإن الله ذو عفوٍ غفور

هذه الآلام التى يكتمها عمر من هجر هند ، وقلبه الذى يكاد يطير شوقا إليها ، أو الذى أثخن بجراح هجرها ، وهذا التوسل الحار ، والاستعطاف الذليل ، هو من سمات المحب العذرى ، الذى يقصر عواطفه على واحدة ، لايرى للأيام ، ولا للحياة معنى إلا فى قربها .

وقد عرفنا من قبل أن عمر وزملاءه كانوا يتطلعون إلى حياة عاطفية ، لاتتجرد فيها عواطفهم تجرد العذريين ، ولاتلتصق بالمادية الحسية ، التصادق الحسيين من شعراء الغزل الجاهليين ، وأنهم يلهون بالحب أحيانا ، ولكنهم قد يكتوون بناره أحيانا أخرى ، إذ لايجب أن ننسى أنهم كانوا يعيشون فى بيئة تحرص على تقاليد الصون من ناحية ، وتأخذ بالمباح من متع الحضارة من ناحية أخرى ، وفى مثل هذه البيئة الوسط ، قد توجد صور من الانفصالية بين مجتمع المرأة ، ومجتمع الرجل ، وقد يعلق قلب الشاعر بواحدة ممن لاتزال هذه الانفصالية متحكمة فى تقاليد أسرتها ، فيعانى مثل هذه المعاناه التى تصورها التجارب السابقة ، ويكون الفارق بين شعراء الغزل الحجازى ، والعذريين ، مرجعه قدرة الأولين على التحول بعواطفهم من امرأة صعبة المنال ، إلى أخرى وصلها أيسر وأهون ، وهنا تقدم لهم البيئة العديد من نماذج هذه المرأة .

هذا التفسير يصلح أن يكون أحد وسائلنا فى تفسير مانجد من صورة العاشق الحضرى الحجازى ، التى تقرب من صورة العاشق العذرى .

نستطيع أن نفسر مانجده فيها من وجد يباعد مابين جفنيه ، فيقضى الليالى فى سهد مهموم ، وبكاء موصول ، فالحبيب هاجر ، والقلب عالق ، والعذل لايفيد ، وما من سبيل له إلى التسلى إلا أن يبكى ، ويستبكى .

وهذه حال من أحوال عمر بن ربيعة ، يبثها فى قوله [1] :

---

(١) الكامل للمبرد ٢ / ١٨٠ . التعريس : نزول المسافرين فى آخر الليل للراحة . استقلوا : ارتحلوا . عتيق : هو بن أبى عتيق صديقه .

ليت شعرى هل أقولنّ لركب بفـلاةٍ هم لديها هجـوع
طالما عَرَّسْتُمُ فاستقلـوا حان من نجمْ الثريا طلوع
إن هميٍّ قد نفي النوم عنيٍّ وحديث النـفس شيءٌ وَلُوع
قال فيها عتيـقٌ مقـالا فجرتْ مما يقول الدمـوع
قال لى : ودِّع سليمى ودعْها فأجاب القـلب لاأستطيـع
لاتلمنـى فى اشتيـاق إليها وابك لى مما تجن الضلـوع

فتمرد القلب على السلوى ، هو من أخص خصائص المحب العذرى ، والقطعة كلها كما نرى ، صورة من الهوى العذرى ، ومن التصريح بالعجز واليأس المعروفين فى غزل العذريين ، غير أننا على يقين من أن عمر قد تسلى عن هذه اللوعة ، حينما تحول بهواه إلى أخرى غير سُلَيمى هذه .

ونستكمل هذه الصورة الملتاعة فى شعر عمر ، بهذا النموذج الأخير ، الذى يمكن أن نعده أقرب نماذجه فى الباب اقترابا من روح العذريين (١) :

أعبدةُ ماينسى مودتك القلب ولاهو يسليه رخـاء ولا كرب
ولاقولُ واش كاشح ذى عداوة ولابعدُ دارٍ إن نأيت ولاقـرب
وماذاك من نُعْمَى لديك أصابها ولكـنّ حبـاً مايقاربـه حُبّ
فإن تقبلى ياعبْدَ توبـة تائب يتبْ ثم لايوجد له أبدا ذنبْ
أذلُّ لكم ياعبـد فيمـا هويتم وإنى إذا مارامنى غيركم صعبُ
وأعذلُ نفسى فى الهوى فتعقُّنى ويأصرنى قلب بكم كلف صَبُّ
وفى الصبر عمن لايواتيك راحة ولكنه لاصبر عندى ولا لُبُّ

إن عمر فى هذه الأبيات يفوق بعض العذريين فى إظهار الوجد ، ولذعة الجوى ، والعجز اليائس عن الصبر ، فهل معنى هذا أن عمر كان عذرىّ الهوى ؟ ماإلى هذاقصدنا ، ولا على هذا نستدل بهذه الصورة من شعره ، وإلا تناقضنا مع أنفسنا بين ماهنا ، ومارأيناه من غزله المعبر عن ميله إلى التنقل بهواه ، وكل ماعنيناه أن عمر شاعر فنان مخلص لفنه ، ولذا فهو يعكس فى شعره هنا وهناك صورة متكاملة لمجتمعه ، الذى كان يعيش نقلة حضارية خطيرة ، تجمع بين صرامة البداوة ، وتسامح الحضارة ، وهى نقلة

---

(١) ديوانه ٦٤ . يأصرنى : يعطفنى .

أحدثت نوعا من التذبذب والحيرة بين مقتضيات الماضى ، ونوازع الحاضر .

ومن أبرز مايعكس هذا الجانب الصارم من وجه الحياة الحجازية فى حضر الحجاز الأموى ، نموذج للأحوص ،يصور تجربة تحكمت فيها التقاليد الحادة للحياة العربية فى طورها آنذاك .

فهو يهوىَ أختًا لزوجه ،ولكنه مضطر إلى أن يكتم هذا الهوى ، ويحذر الحذر كله من أن يبدو مايكشف سره ، فلا هو بمستطيع أن يكاشفها بما يجد من هذا الحب ، ولاهو بمستطيع صبرا على هذه الحال .

ولكنه شاعر والشاعر يجد فى القريض متنفسا لهواه ، فلينسب بها ، دون تصريح باسمها ، وليكنَّ عنه بما شاء من الأسماء ، وحدث أن تزوجت حبيبته الغافلة ، فصدع زواجها قلبه ، وتخلى عن حذره ، وكاد يدفعه اليأس من وصالها إلى الجنون ، فبكى الحرمان والهجر ، وتغنى بلذعة الشوق ، وصرعة الذكرى ، ثم أعلنها ثورة ناقمة حاقدة على الزوج المحظوظ ،وعلى الأهل الذين سمحوا بزواجها منه ،داعيا عليه وعليهم ، صارخا ببطلان هذا الزواج ، مهددا الزوج بالويل والثبور إن لم يطلق حبيبته : (١)

أأن نادى هَدِيلًا ذات فَلْجٍ ... مع الإشراق فى فَنَنٍ حمامُ
ظلِلْتَ كأن دمعك دُرّ سِلْكٍ ... هوى نَسَقاً وأسلمه النظام
تموتُ من تذكر أم حفصٍ ... وحبل وصالها خَلَقٌ رِمَامُ
صريعُ مُدامة غلبتْ عليه ... تموت لها المفاصل والعظام
وأنَّى من ديارك أم حفصٍ ... سقى بلدا تحل به الغمام
أحلُّ النَّعْفَ من أُحدٍ وأدنى ... مساكنها الشبيكة أو سنام

---

(١) ابن سلام ٦٦٦ ــ ٦٦٨ وتزيين الأسواق . ٣٠ وأمالى الزجاجى ٨٠ . الهديل : تزعم العرب أنه فرخ كان على عهد نوح عليه السلام فمات ضيعة وعطشا ، فما من حمامة إلا وهى تبكى عليه وتناديه . مستهام : استهلكه الهيام ، فذهب على وجهه عشقا ووجداً . خلق : بال . رمام : متقطع ، جمع رمة ، وأصلها مابقى من الحبل بعد تقطعه . النعف : ماارتفع عن مجرى السيل فى الوادى . الشبيكة : من منازل حاج البصرة . سنام : جبل بين البصرة واليمامة . مطر : اسم زوج حبيبة الشاعر .

سلام الله يامطـــــــرٌ عليها ... وليس عليك يامطرُ السلام
ولاغفــر الإلـــه لمنكــحيها ... ذنوبَهـم وإن صلـوا وصامـوا
فإن يكن النكاح أحـلَّ شئ ... فإن نكاحهـا مطــرٌ حرام
فطلِّقْهـا فلست لها بكـفـءٍ ... وإلاشق مَفْـــــرِقَك الحسام

هذه النغمة الحزينة الشاكية ، نجدها أيضا فى شعر عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، الذى يكاد قلبه يذوب وجدا وصبابة ، ويضطرب اضطرابا شديدا ، كلما تذكر صاحبته التى فارقته ، ويملك الهم عليه أقطار نفسه ، يضيق بالدنيا ، وتضيق الدنيا فى وجهه [(١)] :

كأن فؤادى فى مخالب طائر ... إذا ذكرتك النفسُ شدَّ بها قبْضا
كأن فجاجَ الأرض حلْقة خاتَمٍ ... علىّ فما تزداد طولا ولا عَرْضا

ويطول الليل على أبى دَهْبَل الجمحى ، ويجا فيه الكرى ، ففى قلبه نار مضطرمة ، تحرمه الرقاد ، وقد سعى الوشاة بينه وبين صاحبته (عَمْرة) حتى أغضبوها عليه ، مع أنهم كانوا ممن يخلص لهم الود ، ويأتمنهم على السرِّ ، ولكنهم لم يرعوا للسر حرمة ، ولم يستشعروا حرجا فى إذاعته ، ومن ثم فهو يقطع الليل فى هم وقلق ، تنتابه الوساس ، متقلبا بين اليأس والرجاء ، فإذا مااستبدبه اليأس انخرط فى بكاء حار ، يقطع نياطَ القلب [(٢)] :

تطـاول هـذا الليـل مايتبلَّـج ... وأعيت غواشى عَبْرَتى ماتَفرَّجُ
وبت كئيبـــاً مأأنـــام كأنما ... خلالَ ضلوعى جمرةٌ تتوهـجُ
فطورا أمنىِّ النفسى من عمرة المنى ... وطورا إذا مالجّ بى الحزن أنشَجُ
لقد قطع الواشون ماكان بيننا ... ونحن إلى أن يوصل الحبل أحوج
رأوا عَورة فاستقبلوهـا بألبهم ... فراحوا على مالا نحبّ وأدلجوا
وكانوا أناساً كنت آمن غيبهم ... فلم ينههم حِلْمٌ ولم يتحرجـوا

---

(١) ديوانه ٢٩

(٢)الأغانى ٦ / ٥١ وعيون الأخبار ٢ / ٢٢ وأمالى المرتضى ١ / ١١٩ أعيت : استعصت . ماتفرج : لاتنكشف . أنشج : أبكى بصوت مرتفع . بألبهم : بجمعهم . تخلج (بكسر اللام وضمها) : تضطرب ، يعنى ماتذكره العامة (عينى بترف) . المفلج : الذليل ، الذاهب القلب خوفا . الصرم : الهجر .

هُمُ منعونا مانحب وأوقدوا — علينا وشبوا نار صَرْم تأجج
ولو تركونا – لاهدى الله سعيهم – — ولم يلحموا قولاً من الشرِّ يُنسجُ
لأوشك صرف الدهر يَفْرُق بيننا — وهل يستقيم الدهر والدهر أعوج!!
وقلت لعبادٍ وجاء كتابها — لهذا وربِّى كانت العين تخلُج
وخططت فى ظهر الحصيركأننى — أسيرٌ يخاف القتل ولهان مُلْفجُ
فلما التقينا لجلجتْ فى حديثها — ومن آية الصَّرم الحديثُ المُلَجلَج
وإنى لمحجوبٌ عشية زرتها — وكنت إذا ماجئتها لأأعرَّج
وأعيا علىّ القول والقولُ واسعٌ — وفى القول مُسْتَنٌّ كثير ومَخْرَج

هذه الأبيات من رائع ماقيل فى تصوير العاشق المضطرب القلب ، القلق النفس ، فى موقف الصد والهجران ، لأنها عامرة بحرارة العاطفة ، دقيقة فى تصوير الحيرة والقلق ، والحزن المذهل (وخططت فى ظهر الحصير) والأمل الخائب ....

وأبو دهبل قد أجاد تحليل كل هذه العواطف ، حتى لنستطيع أن نعايشه فيها ، فقد ظل فى حيرة من الهجر المفاجىء ، يقلب الأمر ، فلا يدرك للهجر علة ، ولايجد له عند عمرة جرما ، وبينما هو على هذه الحال ، بين هم وقلق ، وأرق ودموع ، جاءه رسولها عبّاد بكتاب منها ، تعتب عليه كشف سرهما ، وتنذره القطيعة ، فيذهل الشاعر ، ويطير قلبه شعاعا ، ويثقل عليه ماقابلته به من إعراض وصدود ، ويحاول أن يعتذر إليها ، فيقف لسانه فى حلقه لايريم ، دهشة وهلعا وألما .

٢ــ صور من الضراعة والتوسُّل :

وهى صنو الصور السابقة ، ومن بابها ، وإنما أفردناها تحت هذا العنوان ، لأنها لاتنزع منزع سابقاتها – غالبا – فى الجنوح إلى التحليل العاطفى ، والعناية بالبث المتنوع الأحاسيس ، وإنما تغلب عليها أساليب المبالغة فى التوسل والضراعة ، وتقرير العاطفة أكثر من تحليلها ، وهى على أية حال أقل دورانا فى أشعار الغزلين الحجازيين ، من الصور السابقة .

من ذلك قول الحارث بن خالد المخزومى ، معبرا عن حب مكين لصاحبته فى قلبه ، يهديه إلى ديارها ؛ مهما ضاعت معالمها : [١]

إنى وما نحروا غداةَ مِنىً ... عند الجمار تؤودها العُقْل

لو بُدِّلَتْ أعلا منازلها ... سُفْلاً وأصبح سُفْلُها يعلو

فيكاد يعرفها الخبير بها ... فيردّه الإقواءُ والمَحْلُ

لعرفتُ مغناها بما ضَمِنَتْ ... منى الضلوع لأهلها قبلُ

فقد أوقعته المبالغة فى تصوير مدى حبه لصاحبته ، فيما يشبه أن يكون دعاء على ديارها بالخراب ، أو على الأقل ، فيما يتشاءم به من ردىء الصور ، وقد عبر عن سوء هذا المعنى ، وقبح المبالغة فيه ، ابن أبى عتيق بقوله [٢] : « أما تطيّر عليها حين قلب رَبْعَها ، فجعل عاليه سافله ؟! مابقى إلا أن يسأل الله حجارة من سجيل !! » .

أما العرجى فيكتفى بالتوسل والضراعة إلى صاحبته ، أن تكون أكثر جودا بالوصل ، وأن تلبى نداء قلبه ، فتعرج عليه فى طريقها من مِنىً ، بعد أداء نسك المبيت بها ثلاث ليال ، فهذه هى الفرصة الوحيدة السانحة للقاء ، حيث يفترقان إلى الحول [٣] :

عُوجى علىّ وسلِّمى جَبْرُ ... فيم الصدود وأنتمُ سَفْرُ

مانلتقى إلا ثلاث مِنىً ... حتى يفرق بيننا النَّفْرُ

فالشهر ثم الحولُ يتبعه ... ماالدهرُ إلا الحول والشهر

ويرينا ابن قيس الرقيات ، كيف يكون التهالك والخضوع أمام المرأة المعشوقة ، ويظهرنا على أساليب من الاستعطاف ، وألوان من معانى التوسل إلى صاحبته رقية ، وكأنما أغلق قلبه على حبها ، فلم يعد ينبض بحب سواها ، أو يستطيع التحول إلى غيرها [٤] .

---

(١) الموشح ٢١٠ ومصارع العشاق ٧٧ وأمالى القالى ٢ / ١٧ . العقل : شد وظيف الذبيحة إلى ذراعها توطئه لذبحها .

(٢) المصادر السابقة

(٣) الموشح ٢١٢

(٤) ديوانه ١٣٧ . امطلينا : من المطل وهو عدم انجاز الوعد مرة بعد أخرى .

رُقَــىَّ بِعَمْــرِكِمُ لاتهجرينــا ومنِّينــا المنـــى ثم امْطُلينــا
عِدينــا فى غدٍ ماشئت إنّــا نحب ولــو مطــلتِ الواعدينــا
أغــرَّكِ أننــى لاصبر عنــدى على هجــرٍ وأنك تصبرينَــا
فإمّــا تنجــزى عِدَتى وإمّــا نعيشٍ بما نؤمِّــل منك حينــا
تَقِــنّ الله فِىَّ رقــىّ واخشَىْ عقوبــةَ أمرنــا لاتقتلينــا

إنه يرضى من صاحبته بمجرد التلويح بالأمل فى الوصل ، من حين لآخر ، لأنه يعيش على هذا الأمل ، وكل مايتمناه أن لاتقطع أمله بالإصرار على الهجر ، فإن ذلك يودى بنفسه ، ويسلبه روحه ، وإذن فلتتق الله فيه ، ولاتحرمه من أمل الوصال .

وأخيرا يعطينا الحارث بن خالد المخزومى صورة للعاشق حين يفقد الأمل فى الوصل ، فيستسلم استسلام المغلوب على أمره ، ولكنه يقرب فيما يعبر عنه ، من طبيعة التجربة الغالبة فى غزل الحضريين ، حين يلملم جراح قلبه ، ويزجره عن هذا العشق ، الذى لايكون من مثله .

نرى هذا فى قوله ، وقد تزوج مصعب بن الزبير بعائشة بنت طلحة ، ورحل بها إلى العراق ، وكان الشاعر يهواها [1] :

ظعــنَ الأميــرُ بأحسن الخلــق وغــدا بلــبِّكَ مطلــع الشرق
فظلِــلْتُ كالمقهــور مُهجتُــــه هذا الجنــون ولــيس بالــعشق

* * *

على أن غزل شعراء حضر الحجاز ، لايأخذ دائما هذا الطابع التحليلى لمشاعر المحب ، والذى تغلب عليه سمة الإخفاق فى العشق ، والشكوى والأنين من الهجر والاستعطاف والتوسل واليأس والخضوع ؛ لأن هذا يعكس سلبية تشبه سلوك المحب العذرى ــ كما رأينا ــ ولاتلائم كثيرا طابع الغزل الحسى اللاهى ، الذى يصدِق عليه القول المأثور « لذة الهوى فى التنقل » .

---

(١) الأغانى ٣ / ١٠٠

ولاينبغى أن نطمئن كثيرا إلى هذه التجارب الشاكية الباكية ، فى غزل هؤلاء الشعراء ، فنعتقد أنهم عفوا فى حبهم ، وتساموا به ، مكتفين من لذة الحب بالنجوى والشكوى وبث الأشواق ، والتعبير عن الحنين إلى المرأة .. وما إلى ذلك من النوازع التى يصدر عنها العذريون فى غزلهم ؛ لأنهم كانوا فى غنى عن هذا كله ، لما أتاحته لهم ، ظروف بيئتهم وحياتهم من فرص الوصل ، التى حكيناها .

ومن ناحية أخرى فإن هذه التجارب ، وإن كثرت نماذجها ، تعد قليلة بالنسبة لما خلفوه من تجارب تعبر عن الاتجاه الغالب ، نعنى الاتجاه الحسى اللاهى المتطور ، أى أنها لاتعد ظاهرة ، أو مذهبا غلابا فى غزلهم ، فضلا عن أن بعضها وليد ظروف خاصة ، لاتتكرر كثيرا فى حياتهم ، كظروف العلاقة بين الحارث بن خالد وعائشة بنت طلحة ، التى تزوجها مصعب بن الزبير ، ورحلَ بها إلى العراق ، بعيدا عن الشاعر ، مع مالها من مكانة توجب على الشاعر مراعاة الاعتدال ، والتعفف فى التشبيب بها ، أو التغزل فيها ، وكذلك العلاقة بين الأحوص وأخت زوجه ، فطبيعة هذه العلاقة تحرم الوصل ، وتوجب عدم التلهى بها ، أو البوح بسرها ، ولذا جاء غزله فيها ، تعبيرا عن برحاء الكتمان ، مع أن شعاره ، الذى صرح به شعر له ، التهالك على اللذة ، واقتناص الفرصة للفوز بالمتعة ، فهو القائل [(١)] :

ألا لاتلمه اليوم أن يتبلدا   فقد غلب المحزون أن يتجلّدا
إذا كنتَ عزهاة عن اللهو والصبا   فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا
وما العيش إلا ماتلذ وتشتهى   وإن لام فيه ذو الشنّان وفنّدا

وكثرة مادة الغزل فى شعر هؤلاء الحضريين ، تدور حول الصورة التالية :

٣ــ صورة العاشق المغامر :

الظاهرة الشائعة فى غزل حضر الحجاز ، هى التى نرى فيها صورة المحب ، تتخذ طابعا إيجابيا عمليا ، فى السلوك الذى ينهجه هذا المحب للفوز بالوصال ، والاستمتاع بهوى الحبيب .

---

(١) أمالى الزجاجى ٧٥ والتذكرة السعدية ٥٤٢ ومروج الذهب ٢ / ١٧٥ (البهية) ومصارع العشاق ٧٥ العزهاة : الذى لايحب لغلظ فى طبعه . الشنآن : العداوة .

هنا نجد الشعراء يتحدثون عن مغامراتهم العاطفية ، وزوراتهم الليلية ، حين يدبون إلى لقاء صواحبهم ، بالدار حينا ، وخارج الدار حينا آخر ، منتهزين غفلة الحراس ، أو متغفلين أعين الرقباء ، يتسترون بثياب الظلام ، ويتقافزون خلف السواتر ، فيقضى كل منهم حاجات الهوى ، ونزوات الشباب ، فى خلوات سعيدة يقبل فيها على صاحبته ، وتقبل عليه ، ويحادثها وتحادثه ، ويعاتبها وتعاتبه ، ثم ينتهون إلى صفاء ، وقد يتعابثون فى لهو برىء أو غير برىء ، ثم ينقلب الشاعر فيحكى ذلك كله فى أسلوب من القص طريف ، مستعينا بمخيلة القصاص ، فى استعادة الذكريات العذبة ، والإضافة إليها [1] ، مفصلا حينا ، وموجزا حينا آخر .

فهذه زورة ليلية يحدثنا عنها عمر بن أبى ربيعة ، قصد فيها إلى صاحبته وفاجأها بها مفاجأة أذهلتها ، فلطمت خديها جزعا من أن يفتضح الأمر ، وأيقظت رفيقة كانت تشاطرها المنام ، وعاتبت صاحبها على جرأته ، ولكنه يعتذر إليها ، بأن قلبه لايطاوعه على البعد عنها ، لشدة شوقه إليها .

ثم لاتلبث أن يغلبها الهوى ، فتستجيب لنزوته ، وتمضى الليل معه فى قبل وعناق ، حتى إذا انبثق نور الفجر نبهته بصوت جميل ، إلى أنه قد آن له أن يرحل عنها ، وودعته سائرة بجانبه ، نشوى بخمر الوصال ، حريصة على أن تسحب هى وصاحبتها ذيول الثياب على أثره ، كى لايعرف الرقباء أنه زارها : [2]

فجئت أمشى ولم يغفُ الأولى سَمَرُوا ... وصاحبى هُنْدُوانِّى به أَثَر
فلم يَرُعْها وقد نضّتْ مَجَاسدها ... إلا سوادٌ وراء البيت يستتر
فلطَّمتْ وجهها واستنبهت معها ... بيضاءَ آنسةً من شأنها الخفر
مابالُه حين يأتى ـ أُخْتُ ـ منزلنا ... وقد رأى كثرة الأعداء إذ حضروا
قالت: أردتَ بذا عمداً فضيحتنا ... وصَرْم حبلى وتحقيق الذى ذكروا ؟!
هلا دسست رسولا منك يعلمنى ... ولم تعجَّل إلى أن يسقط القمر

---

(١) راجع ٣٥٤ ، ٣٧٦ من هذه الدراسة .

(٢) ديوانه ١١٥ أثر السيف : بريقه . مجاسدها : جمع مجسد ، وهو القميص . الخفر : شدة البرد . زمرا : يعنى بصوت حسن .

فقلت : داعٍ دعا قلبى فأرقه ولا يتابعنى فيكم فينزجر
فبت ألثمها طوراً ويمنعى ـ إذا تمايلُ ـ عنه البرد والخصر
حتى إذا الليل ولىّ قالتا زَمَراً قوما بعيشكما قد نورّ السحر
فقمتُ أمشى وقامت وهى فاترة كشارب الخمر بطىًّ مشيه السَّكَرُ
يسحبنْ خلفى ذيول الخَزِّ آونة وناعم العصب كيلا يُعرف الأثر

ولعلنا لاحظنا أن عمر يسترسل فى قص أحداث هذه المغامرة ، ووصف الحركة المادية والنفسية للزائر العاشق ، والمزورة المضطربة بين الحب والارتياع ، أكثر مما يتحدث عن ثمرة هذه المغامرة ، التى يوجزها فى بيت واحد ، وفى إشارة سريعة ، لا تتكافأ مع مابذل من جهد واحتيال لتحقيق هذا اللقاء .

وفى رائيته المشهورة :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غدٍ أم رائح فمهجر

يقص أحداث مغامرة له فى أربعة وثلاثين بيتا ، واصفا ماتجشمه فى سبيل الوصول إلى صاحبته ، وكيف قابلته ، وماذا قالا ، ويكتفى فى ذكر ماأسفرت عنه هذه الزيارة بإشارة فى بيت واحد ، يقول فيه :

فبت قرير العين أعطيت حاجتى أقبل فاها فى الخلاء فأكثر

وهذه المتعة الحسية لاتتناسب مع ماتكبده الشاعر من جهد قبل اللقاء ، ومن أجله ، وكأنما كان هدفه تصوير هذا الجهد ، وذلك الاحتيال بكل مايحملانه من لحظات نفسية ، فإذا انتهى إلى اللقاء ، فحسبه من الحديث عن نتيجته مجرد الإشارة أو الرمز .

من أجل هذا قلنا فى صدر هذا الفصل : إن حظ هذا الغزل من الجانب النفسى المعنوى ، أكثر من المتعة الحسية ، [1] ومن أجل هذا أيضا فرقنا بينه وبين الغزل الحسى الجاهلى فى التسمية ، فأطلقنا عليه « الغزل الحسى اللاهى المتطور » .

ولسنا هنا فى مقام مناقشة هذه المتعة الموجزة من الناحية الأخلاقية ، من حيث منافاتها للفضيلة والخلق ، وإنما نريد أن نبرز أن هذا الغزل لم يكن متردیا فى حمأة الحسية ،

---

(١) راجع ٣٤٦ من هذه الدراسة .

التى تعنى بتصوير المتع والشهوات تصويرا فيه كثير من العناية بالتجسيم والتفصيل والاسترسال .

ولانجد عمر فى كل شعره الذى يحكى مثل هذه المغامرات ، يتجاوز هذا المنهج فى الإشارة إلى المتع الحسية ، إشارة موجزة خاطفة .

ولنأخذ أيضا قوله ، بعد حديث طويل فى التمهيد للقاء ، فى حكاية زورة قام بها [1] :

فتجهـمت لما رأتنـى داخـلا	بتلهـــــف من قولها وتهدد
ثم ارعوت شيئا وخَفَّض جأشَها	بعد الطموح تهجُّدى وتوددى
فى ذاك ماقد قلت : إنى ماكثٌ	عشرا فقالت : مابدا لك فاقعد
حتى إذا ماالعشْرُ جنَّ ظلامها	قالت :ألاحان التفرق فاعهـد
واذكر لنا ماشئت مما تشتهى	والله لانعصيك أخرى المسند

فيكتفى باللمح والإشارة إلى المتعة الحسية فى هذا اللقاء .

والعرجى تلميذ عمر بن أبى ربيعة ، أقرب شعراء الغزل الحضرى إلى منهج عمر ، وطبيعة تجربته فى تصوير العاشق المغامر ، غير أنه أكثر احتفالا بالأسلوب وصقله وتماسكه من أستاذه ، وأقل جنوحا إلى محاكاة الحوار النسائى ، الذى يمتاز به الأسلوب العمرىّ ، ولايضحى باستيفاء الصورة الشعرية ـــ كما يفعل أستاذه ـــ من أجل إجراء هذا الحوار ، بل يؤثر استقصاء الصورة والعناية بها ، وإن ضحى فى سبيل ذلك بجاذبية الحوار.

ومع ذلك فتجربة المغامرة فى غزل العرجى لاتخرج فى إطارها العام عن تجارب عمر فى هذا الضرب من الغزل .

فهو مثله يقوم بزوراته لصاحباته ليلا ، مدفوعا بشوق ملح ، أو مستجيبا لرسالة منها ، وهو مثله يصور مشاعر الحذر والخوف ، ويتحدث عن وسائل الاحتيال للوصول بالزورة إلى غايتها ، وهو مثله فى التعبير عما ينتاب صاحبته من روع من هول المفاجأة

---

(١)ديوانه ١٠٦ أخرى المسند : آخر الدهر ، يعنى لانعصى لك حاجة أبداً .

بالزيارة ، وعما ينتهى إليه الأمر من بث الطمأنينة فى نفسها واقتلاع الروع من قلبها ، حتى تسمح وتلين وتفرح باللقاء ، الذى ينتهى بوداع مشابه للوداع فى مغامرات عمر .

وربما اختلف منهج العرجى عن أستاذه ، بالإضافة إلى ماسبق ، من الإقلال من الحوار ، والاهتمام بالصورة — فى ميله إلى الاقتصاد فى القص ، والتركيز فى الوقائع والأحداث .

يظهر هذا فى إحدى مغامراته للقاء صاحبة له ، يذكر فيها أنها تأوى إلى قصر عالٍ ، قد أسدلت الستور على نوافذه ، وقام الحراس على أبوابه ؛ لتمنع العيون المتلصصة ، والزيارات المحرمة .

غير أن الشاعر يحتال للوصول إليها ، فيغافل الحارس ، وينصب الحبال ، ثم يتسلقها ، وتكلل جهوده بالنجح ، فيسعد باللقاء ، وتثيبه صاحبته على ماتجشم فى سبيل وصلها ثوابا حسنا ، إذ تبادله عناقا بعناق ، فى خوف وحذر ، خشية مداهمة الرقباء [١] :

لم أُحُلْ عنك ماحييت بوُدى	أبداً أو يحول لون الغراب
دونها الحارس الشفيق عليها	قد تولى مفاتِحَ الأبواب
بِمُنيفٍ كأنه ركنُ طَوْدٍ	ذى أَوَاسٍ مُطمَرَّ المحراب
وترقَّيْتُ بالحبال إليها	بعد هَدْءٍ وغفلة البواب
فجزتنى بما عملت ثواباً	حسنا كنتُ أهلَ ذاك الثواب
اعتناقا على مخافة عينٍ	قد رُمِقْنا بها وقومٍ غضاب

والمتعة الحسية هنا أيضا لاتحظى من هذه الصورة إلا بلمحة سريعة فى البيت قبل الأخير ، وعبارة صريحة فى جزء من البيت الأخير .

وقد تكون هذه المغامرة ، أو الزيارة ، استجابة لرسالة من صاحبة الشاعر ، تضرب له موعداً بعد هدأة من الليل ، وتوصى بالحذر ، وتحذر من أعين الحراس والرقباء ، فيخف الشاعر للقيام بهذه الزورة ، مسترشدا بما نصحت ، مجتهدا فى البعد عن

---

(١) ديوانه ١١٦ . المنيف : القصر المرتفع . مطمر : مرض الستور . المحراب هنا : صدر البيت .

المخاوف ، ويسترسل فى قص هذا كله فى شيء من التفصيل ، مشيرا فى النهاية إلى متعة هينة أصابها ، موجزا فى التعبير عنها .

ومن التجارب التى تصور هذا فى تركيز وإحكام تعبير وتصوير ، لايتوفر فى تجارب ابن أبى ربيعة ، قول العرجى : (١)

حورٌ بعثن رسولا فى ملاطفةٍ	ثَقِفاً إذا عقل النسّاءة الوَهِمُ
إلىّ أنِ ائتنا هَدْءاً إذا غفلت	أحراسُنا وافتُضِحْنا إن همُ علموا
فجئت أمشى على هولٍ أجشمّه	تجشّمُ المرء هولا فى الهوى كرمُ
إذا تخوفتُ من شيءٍ أقـــول له	قد جف ـــ فامض ـــ بشيء قُدِّر القلم
أمشى كما حركت ريح يمانيه	غصناً من البان رطْبا طَلَّه الدِّيمُ
فى حُلةٍ من طراز السوس مشربة	تعفـو بهُـدَّابها ماأثّــرتْ قدمُ
وهن فى مجلسٍ خالٍ وليس له	عين عَليهن أخشاهـا ولانــدم
حتى جلستُ إزاء الباب مكتتماً	وطالبُ الحاج تحت الليل مكتتمُ
أبدين لى أعينا نُجْلاً كما نظرتْ	أُدمٌ هجان أتاها مصعب قَطم
قالت كُلابةُ : مَنْ هذا ؟ فقلت لها	أنا الذى أنت من أعدائه زعموا
أنا امرؤ جَدّ بى حب فأحرضنى	حتى بليت وحتى شفّنى السقم
لاتكلينــــى إلى قوم لَوَ انَّهـــــمُ	من بغضنا أطعموا لحمى إذن طعموا
وأنعمى نعمة تُجزىْ بأحسنها	فطالما مسَّنى من أهلك النِّعَمُ
هذا يمينىَ رهن بالوفاء لكـم	فارضَىْ بها ولِأُنفُ الكاشحِ الرَّغَمُ
قالت: رضيت ولكن جئت فى قمرٍ	هلا تلبَّثْتَ حتى تدخل الظُّلَمُ !!
فبتُّ أسقى بأكواسٍ أُعَلُّ بها	من باردٍ طاب منها الطعم والنَّسَمُ
حتى بدا ساطع للفجر نحسبه	سنا حريق بليل حين يضطـرم
ودَّعْتهن ولاشيء يراجعنــــــى	إلا البنان وإلا الأعين السُّجُم
إذا أردن كلامى عنده اعترضتْ	من دونه عبرات فانثنى الظلـم
تكاد إذْ رُمْن نَهْضاً للقيام معى	أعجازهن من الأنصاف تنقسِمُ

---

(١) ديوانه ١١٩

ونلتفت هنا إلى ماسبق أن التفتنا إليه فى النماذج السابقة ، من حرص الشاعر أولا وقبل كل شيء على تصوير الأحاسيس التى تغلف محاولة الوصول إلى صاحبته ، وعلى ماينتهى إليه اللقاء من سمر ، أكثر من حرصه على التعبير عن اللذة الحسية ، فليس فى هذه الصورة — المطولة نوعا — إلا إشارات قليلة إلى الرغبة والاشتهاء ، كالتى عبر فيها عن العيون النجل : « أبدين لى أعينا نجلا » وعن الفم العذب المذاق ، الطيب الرائحة : « من بارد طاب منها الطعم والنسم » وعن الأرداف الثقيلة والخصور النحيلة : « أعجازهن من الأنصاف تنفسم » ، ومع ذلك ، فهى إشارات باهتة ، تكاد تختفى وسط هذا الحشد من الوصف النفسى ، مما يضعف حظ الحسية من صورة العاشق المغامر .

— ٦ —

أهم الملامح الفنية فى الغزل الحضرى الحجازى :

بعد هذه الدراسة التى حاولت أن تبرز الملامح الهامة لهذا الفن الغزلى ، الذى لهجت به البيئة الحضرية الحجازية ، فى العصر الأموى ، نعتقد أنه قد اتضحت لنا بعض السمات ، التى يمكن أن تعد ملامح أصالة ، أو تطور ، يمتاز بها هذا الغزل .

١ — يكاد يخلو الغزل الحجازى اللاهى من المجاهرة بالفحش ، والإلحاح على المعانى المكشوفة ، والانحراف إلى العبارات الفاضحة ، وماكان لشعرائه أن يجرءوا على هذه المجاهدة أو الكشف ، فإقليمهم منبع الدعوة الإسلامية ، وموطنها الأول ، الذى حملها على اكتاف رجاله ، إلى أنحاء الجزيرة العربية ، ومنها إلى سائر أقطار الأرض ، وفى مدنه — وبخاصة مكة والمدينة — قامت حلقات الدروس الدينية ، تبصر الناس بأمور دينهم ، وتشرح لهم كتابه العظيم ، وتروى أحاديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وتستنبط منها ومن القرآن أحكام الشريعة ، وترشد المسلمين إلى خيرىْ الدنيا والآخرة .

وفى الحجاز عاشت طائفة كبيرة من بقايا الصحابة ، وكبار التابعين من أبناء المهاجرين والأنصار ، تُضرب إليهم أكباد الإبل لمعرفة الحلال والحرام .

فإذا أضفنا إلى هذا ماأشرنا إليه مرارا من حرص أهل الحجاز ، وبخاصة الأشراف والسادة — وماأكثرهم فى مدن الحجاز — على قيم الفضيلة ، وأخلاق الدين ، أدركنامدى مافرضته بيئة حضر الحجاز على شعرائها الغزلين من رعاية حق الفضيلة

والدين ، وإن تسامحت معهم فى بعض مايعد من ظرف الكلام ، وتهاويل الشعراء ، وأخذت بعضهم أحيانا بالشدة ، لمّا رأت فى غزله مايعد خروجا واضحا على تقاليد الصون والحفاظ على الأعراض والأخلاق من هجر الكلام .

بهذه الظاهره امتاز غزل الحجاز الحضرى على الغزل الحسى الجاهلى ، الذى يكثر أن يصرح فيه الشاعر بما لاينبغى الجهر به فى عرف الأخلاق ، من صلة بين الرجل والمرأة ، وقد مرت بنا نماذج كثيرة ، تكشف عن طابع هذه الصلة فى الغزل الحجازى ، ليس من بينها مايشبه قول امرىء القيس مثلا فى معلقته المشهورة (١) :

فمثلك حبلى قد طرقتُ ومرضعٍ فألهيتها عن ذى تمائم مُحْـــول

وقوله المغرق فى الحسية المادية ، الموغل فى النزعة الجسدية الشهوانية (٢) :

ومثلك بيضاء العوارض طَفْلـــةٌ لعوب تنسِّنى إذا ماقمت سربالى
إذا ماالضجيع ابتزها من ثيابها تميل عليه هَوْنةً غير مِجْبَـــال
فلما تنازعنـــا الحديث وأسمحت هصرت بغصنٍ ذى شماريخ ميال
وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ورضتُ فذلت صعبةً أىّ إذلال
فأصبحت معشوقا وأصبح بَعْلُها عليه القتَامُ سيىءَ الظنِّ والبال

فأين من هذا الفحش الصريح ، والجسدية العارية ، ماسقناه من مغامرات عمر ابن أبى ربيعة ، والعرجى ، وغيرهما من شعراء حضر الحجاز ؟!

ويكفى أن نلتفت فقط إلى قول امرىء القيس « فلما تنازعنا الحديث » ، فهو مشغول بالمتع الحسية ، وبشبوبية الشهوة عن حكاية هذا الحديث الذى تنازعاه ، أما عمر وزملاء مدرسته ، فإن هذه الأحاديث ، ومايغلفها من مشاعر وأحاسيس همهم الأكبر وشغلهم الشاغل.

إن كل بيت ، وكل عبارة فى تجربة امرىء القيس تنضح بالتهتك ، وتفوح برائحة الجنس ، وليس من هذا شيء يذكر فى تجارب الغزلين الحسيين فى حضر الحجاز .

---

(١) ديوانه ٥٨

(٢) ديوانه ٣٠ ــ ٣٢ وانظر كتابنا : أمراء الشعر فى العصر الجاهلى ١٥٤ ــ ١٧٢

ولم يقتصر الميل إلى الحسية والكشف على امرىء القيس ، وتجاربه الغزلة ، فها هو ذا عبد بنى الحسحاس [١] ، يتلذذ برسم صورة فاضحة ، لمغامرة جنسية مع صاحبته التى انقادت معه إلى الفحش [٢] :

وبتنا وسَادَانا إلى عَلَجانـةٍ   وحِقْـفٍ تهاداه الريـاح تهاديـا

توسِّدُنى كَفًّا وتثنـى بمعصمٍ   عَلَىّ وتحوى رجلها من ورائيـا

وهبتْ شمال آخـر الليـل قَرَّةٌ   ولاثـوبَ إلا درعُهـا وردائيـا

فمازال بردى طيِّباً من ثيابها   إلى الحول حتى أنهجَ الثوبُ باليا

وبمثل هذه المعانى الفاحشة توحى تجربه المنخَّل اليشكرى [٣] ، المعبر عنها فى أبياته المشهورة [٤] :

ولقد دخلتُ على الفتا   ةِ الخِدْر فى اليوم المطيرِ

الكاعب الحسناء تَرْ   فُلُ فى الدِّمَقْس وفى الحريرِ

فدفعتها فتدافعتْ   مَشْىَ القطاة إلى الغديرِ

ولثمتها فتنفَّسَت   كتنفُّس الظَّبْى البَهِيرِ

فدنت وقالت يامُنخَّلُ   مابجسمك من حَرُورِ

ماشفَّ جسمى غير حُبّك   فاهدئى عنى وسيرى

وأحبها وتحبنى   ويحبُّ ناقتها بعيرِى

---

(١) هو سُحَيْم أو حية ، كان مولى الجندل بن معبد ، من بنى الحسحاس ، ثم من بنى مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد ، وهو حبشى أعجم اللسان ، ينشد الشعر ثم يقول : أَهْسَنْتُ ؟ يريد : أحسنت ؟! وكان عبد الله بن أبى ربيعة والد عمر اشتراه ، وكتب إلى عثمان بن عفان (قبل خلافته) : إنى قد ابتعت لك غلاما جبشيا شاعرا ، فكتب إليه عثمان : لاحاجة لى به ، فإنما قصارى أهل العبد إن شبع أن يشبب بنسائهم ،وإن جاع أن يهجوهم ، فرده عبد الله فاشتراه معبد ، فكان كما قال عثمان يشبب ببنته عميرة ، وفحش فشهرها . قال ابن سلام : وهو حلو الشعر رقيق حواشى الكلام ، وعده فى الطبقة التاسعة من فحول الجاهليين . انظر : ابن سلام ١٧١ ـــ ١٨٧ وسمط اللآلى ٢ / ٧٢١ .

(٢) ديوانه ١٩ وابن سلام ١٨٧ (المدنى) وتزيين الأسواق ١٤١ وسمط اللآلى ٢ / ٧٢١ . علجانة : نوع من الشجر . الحقف : الكثيب من الرمل . تهاداه الرياح : تنقله من مكان إلى آخر ، أنهج الثوب : بلى وخلق .

(٣) شاعر جاهلى قديم كان يشبب بهند أم عمرو بن هند أحد ملوك اللخميين ، كما اتهم بالمتجردة زوج النعمان بن المنذر ، وعاصر النابغة فى بلاط هذا الملك . انظر : الشعروالشعراء ١٥٠ والأغانى ١٨ / ١٥٢

(٤) الأغانى ١٨ / ١٥٥ وشرح الحماسة للمرزوقى ٢ / ٥٢٧ ـــ ٥٢٩ . البهير : العالى النفس من التعب .

وقد لانعدم بعض هذه الميول فى الغزل اللاهى الحجازى ، كقول عمر بن أبى ربيعة :

فلثمت فاهـا آخـذاً بقـرونها   شرب النزيـف ببرد ماء الحشرج

فهذه صورة حسية شهوانية خالصة ، تمثل الشاعر مستغرقا فى التقبيل ، حتى يمتزج الريقان ، وكأنه محموم من شدة العطش ، قد جف لسانه ، فأقبل على الماء البارد ، من كوز رقيق صنع بالحيرة ، فى نهم شديد .

وكقول عبد الرحمن بن حسان بن ثابت : (١)

وإن مال الضجيـع بها فدِعصٌ   من الكثبـان ملتبـد مهيـلُ

غير أن أمثال هذه المعانى فى غزل حضر الحجاز قليلة ، تأخذ كثيرا طابع الإشارة السريعة ، ولايتولاها الشاعر بالتفصيل ، على خلاف مارأينا فى الشعر الجاهلى ، من إغراق فى الجسدية ، وانغماس فى الغزائر الحيوانية ، وتصوير لأخطر هذه الغرائز .

٢ـ العناية بالتحليل النفسى ، وتصوير الأشواق ، إذ لم تكن الصلة بين الشاعر وصاحبته ، فى هذا الغزل قائمة أساسا على الناحية الجنسية المادية ، بقدر ماهى ممثلة فى تبادل العواطف والأحاسيس ، والتغنى بمكانة المرأة فى قلب الرجل ، وتأثيرها فى حياته العاطفية ، على نحو مارأينا فى صور كل من الرجل والمرأة فى هذا الغزل ، وبخاصة فى غزل عمر بن أبى ربيعة ، الذى يمثل غزله بكل سماته الفنية ، مجمل خصائص الاتجاه الغزل فى حضر الحجاز كله ، وأثر التقليد أو التطور ، أو الأصالة فيه ، والذى لولاه لحرم الغزل الحجازى من كثير من ملامح التطور والتجديد .

وليس كذلك الغزل الحسى الجاهلى فى أكثر تجاربه وصوره ، إذ كان فيها منبعثا عن شهوة جسدية ، قلما يفيق منها العاشق ، إلى تحليل العواطف والمشاعر ، وتصوير لذعة الشوق ، أو حرقة الفراق والهجر (٢) .

---

(١) ديوانه ٨٣ .

(٢) انظر فى هذه النزعة الجسدية فى الشعر الجاهلى ، وتعليلها : الغزل فى العصر الجاهلى (د. الحوف) ٢٤٨ ومابعدها وراجع ماكتبناه فى تعليلها ٣٠١ ــ ٣٠٢ من هذه الدراسة .

وفيما قدمناه من نماذج صورة المرأة والرجل فى الغزل الحجازى مايغنى عن الإطالة بإعادتها هنا .

٣ــ اعتماد الغزل الحجازى بعامة ، على المكابدة للحب ، والإحساس الصادق بالجمال ، لاعلى التقليد والمحاكاة ــ اللهم إلا إذا جنح شعراؤه إلى وصف مظاهر الجمال فى المرأة ، كما مربنا ــ على عكس مايلاحظ فى كثير من نماذج الغزل الجاهلى ، وبخاصة تلك التى تصدر بها القصائد ، فى الأغراض المختلفة ؛ إذ يغلب عليها تكلف العاطفة ، وافتعال المواقف .

وليس معنى ذلك أن الشاعر الجاهلى لم يعرف الحب ، أو أنه لم يتذوقه ، ويعايشه ، فلا جدال فى أنه قد مر فى الجاهلية ، فى كل أزمنتها من الشعراء من قال فى الغزل استجابة لعاطفة أخذت بنفسه ، ولكن الشعر الجاهلى لم يصل إلينا كله ، وإنما جاءنا أقله ، وهذا الذى جاءنا من غزله فى مقدمات القصائد بخاصة ، يغلب عليه التقليد الصرف ، ويكفى أن نتأمل تلك المقدمات الطللية فى قصائد النابغة الذبيانى وذى الإصبع العدوانى ، وبعض نماذجها فى قصائد زهير بن أبى سلمى ، وغيرهم من الشعراء الحكماء ، أو المشغولين بالتكسب وشئون القبيلة كالنابغة ، لنرى مصداق ماذكرنا .

أما شعراء الغزل الحجازى الحضرى ، فيشهد شعرهم الذى قدمناه ، أو كثير منه ، بأنهم عرفوا الحب ، وأدركوا سر الجمال فى عالم المرأة ، إدراك المنفعل ، لاإدراك المقلد المحاكى ، فهم يصفون حركاتها ، ومجالسها وأحاديثها ، مع رفيقاتها ، أو مع جواريها ، كما يصفون نزعاتها ، التى تضطرب فى نفسها ، وتدفعها إلى فعل ماتفعل ، أو قول ماتقول ، وبذا جاءت صورتها حية أمام مدارك القارىء لغزلهم ، وأحاسيسه .

٤ــ ظهور أسلوب القص والحوار ، وبروزه فى كثير من نماذج هذا الغزل ، وبلوغه صورة من النضج ، جعلت منه ظاهرة أسلوبية فى غزل ابن أبى ربيعة خاصة ، حيث يأخذ الشاعر فى استحضار مادار بينه وبين صاحبته ، وحكاية ماقال وماقالت ، ومافعل ومافعلت ، فى أسلوب طريف جذاب ، تطل منه روح المرأة المتحضرة ، الآخذة بقسط من الحرية الاجتماعية فى علاقتها بالرجل ، ومن ثم ، فهى لاتجد حرجا فى إجراء حوار عاطفى مع صاحبها ، فى خلوة ، أو أمام أترابها وصاحباتها ، بل كثيرا ماتجرى هذا الحوار

بينها وبينهن فى مجالسهن ، تودع فيه ذَوْبَ نفسها ، وتكشفُ عن مكنون قلبها ، وهن متجاوبات معها ، أو غيارى منها .

وقد استطاع هذا الأسلوب أن يؤدى وظيفته فى بناء العمل الشعرى ، وربط أحداثه وأشخاصه ، وأداء الدفعات الشعورية بين طرفيه أو أطرافه ، وتحليل الموقف الغزلى ، وإنماء عناصره .

ونستطيع أن نذكر هذا الأسلوب فى النواحى السابقة على ضوء قول عمر بن أبى ربيعة ، أستاذ هذا الأسلوب :

قلت : من أنت ؟ فقالت : أنا مَنْ ... شفَّه الوجد وأبلاه الكمدْ
نحن أهل الخِيف من أهل مِنىً ... مالمقتول قتلناه قَوَدْ
قلت : أهلاً ، أنتمُ بغيتنا ... فتسَمَّيْن ، فقالت : أنا هند

حوار جذاب بسيط ، أدى موقفا متكاملا ، جعل منه وحدة فنية متماسكة العناصر ، بحيث لو أسقطنا جملة حوارية واحدة لاختل الموقف الغزلى ، وانهار الموقف كله ، أو تصدعت أركانه .

ونحن لاننكر أن أسلوب الحوار والقص ، ممثل فى نماذج من الشعر الجاهلى ، وبخاصة فى غزل امرىء القيس ، أمير هذا الفن فى العصر الجاهلى :

من ذلك قوله : (١)

فقالت : سباك اللهُ ، إنّك فاضحي ... ألستَ ترى السُّمَّار والناس أحوالى ؟!
فقلت : يُمين الله أبرحُ قاعداً ... ولوقطعوا رأسى لديك وأوصالى

فامرؤ القيس يبرز قطاعا واحدا من الموقف الغزلى ، هو قطاع التنازع والمعارضة والمساومة ، ليوحى بأن صاحبته كانت متمنعة ، ولكنه سهلها ، وأسلس قيادها ، وليؤكد بطولته فى ميدان الإغواء .

ومع ذلك فهذه اللمحة الحوارية ، وأمثالها فى شعر امرىء ، القيس وفى شعر غيره من

---

(١) ديوانه ٣٢

أبناء عصره [١] ، لاتعكس ظاهرة أسلوبية ، أو عنصرا أساسيا من عناصر الأداء فى التجربة الغزلية الجاهلية ، كما أنه لم يبلغ عند الجاهليين من الكثرة والافتنان ، مابلغه على أيدى شعراء الغزل الحجازى الحضرى ، وعلى الأخص ابن أبى ربيعة ، الذى غلافيه بعض الباحثين المحدثين فعده مبتكرا له [٢] ، واعتدل آخرون فعدوه صاحب طريقته [٣] .

أما طابع القصّ ، فيكاد ينفرد به ابن أبى ربيعة بين الشعراء الغزلين من أبناء بيئته ، حيث ضمن وفرة من قصائده الغزلة ، مايقرُب مما نعرفه الآن بالقصة القصيرة ، بما وفره لها من إطار نفسى وأحداث مادية ، وشخصيات أساسية ، وحوار بين الشخصيات ، وصراع بين العواطف .

ونحن لاندعى أن هذا كله قد اكتمل فى كل قصائده التى اعتمد فيها أسلوب القص ، وتعد قصيدته الرائية المشهورة « أمن آل نعم » نموذجا بارزا فى هذا الأسلوب ، فالشاعر يحدث نفسه ويناجيها ، أين خباء صاحبته ؟ وكيف يتعرفه فى ظلمة الليل ؟ فيدله قلبه عليه ، ويقوده هواه ، ولكنه ينتظر متحينا الفرصة ، منتظراً خلود القوم إلى النوم ، وانقطاع الأصوات ، وغياب القمر ... ثم يقص كيف احتال للوصول إلى غايته تتصارع فى نفسه الرغبة والرهبة ... وكيف روع صاحبته برؤيته المفاجئة فى فراشها ، وكيف هدأ من روعها ، حتى اطمأنت إليه ، وفرحت به ، وبادلته حوارا عاطفيا ، أسعده ، وكيف قضيا معا وقتا طيبا استغرق مابقى من الليل ، حتى إذا آذن الليل بمغيب ، وآذنت ساعة الرحيل ، قامت تودعه ، وتُعَفِّى بأذيال ثوبها على آثار أقدامه فى الرمال .

فهذه القصيدة يتحقق فيها كثير من عناصر القصة القصيرة ، وبهذا تعد هذه القصيدة وقصيدته الرائية الأخرى :

راح صحبى ولم أُحَــىِّ النَّــوارا   وقليــل لو عرجــوا أن تُزارا

وعينية له مطلعها :

ألم تسأل الأطــلال والمتربَّعــا   ببطـن حُلَيــاّت دوارس بلقعــا

---

(١) راجع بعض نماذج من أسلوب الحوار الجاهلى فى : الغزل فى العصر الجاهلى (د . الحوفى) ٢٤٥ ومابعدها .

(٢) انظر : مقدمة ديوان بشار للشيخ الطاهر بن عاشور ٣٧

(٣) انظر : تاريخ الشعر العربى (البهبيتى) ٣٥٠

إضافة جديده لبناء القصيدة فى العصر الأموى .

وفوق هذا فقد اقتضى هذا الطابع القصصى فى غزل ابن أبى ربيعة ، إضافات تجديدية أسلوبية أخرى ، كتطويع الألفاظ ووسائل الأداء الأخرى ، للأسلوب القصصى ، لكى تلائم سرد الأحداث ، وإدارة الحوار ، والتعبير عن لمسات أنثوية تقتضى الاقتراب من لغة الأداء فى الحياة .

وكان عمر بارعا فى هذا التطويع ، الذى مكنه من المزاوجة بين اللحظات النفسية والمادية ، وإبراز الصراع النفسى ، وإدارة حوار طويل ، وخلق حركة درامية ، على نحو يمكن أن يعد إضافة جديدة أخرى للقصيدة العربية .

٥ـــ استقلال التجارب الغزلية بالبناء الفنى للعمل الشعرى (القصيدة أو المقطعة) ، وظهور التخصص فى هذه التجارب ، بينما لم يكن لفن الغزل وجود مستقل قبل هذا العصر فى الأعم الأغلب ، فبالنسبة لماوصل إلينا من غزل الجاهليين ، لم نقف إلا على عدد قليل جدا من القصائد ، التى أفردت للغزل ، ولم يعالج قائلوها فيها إلا الغزل وحده [١] ، وحتى هذه القصائد الغزلية المستقلة فى الشعر الجاهلى ، لا تضاهى فى طول النفس مانراه فى بعض قصائد الغزل الحجازى فى العصر الأموى .

كما أننا لانعرف شاعرا جاهليا ، قصر حياته الفنية ، ونتاجه الشعرى على الغزل وحده ، ولم يطرق فى شعره غرضا آخر من أغراض الشعر ، أما فى العصر الأموى فنحن نعرف غير واحد من شعراء حضر الحجاز الغزلين ، قصروا فنهم الشعرى كله ـــ تقريبا ـــ على الغزل .

وبين أيدينا ديوان ضخم لعمر بن أبى ربيعة ، وديوان العرجى ، وشعر الحارث بن خالد المخزومى ، وليس فى هذا كله إلا الغزل غالبا ، فكان عمر أول شاعر عربى يخصص ديوانه لهذا الفن ، ويتفرغ للقول فيه حياته ، قال يونس بن حبيب [٢] : « وكان عمر

---

(١) راجع مقال الدكتور طه حسين فى جريدة السياسة . العدد ١٧ بتاريخ ١٠ ديسمبر ١٩٢٤ م .

(٢) ابن سلام ٦٤٨

يصرح بالغزل ولا يهجو ولا يمدح » ، وتابعه فى هذا تلميذه العرجى ، ومعاصره الحارث المخزومى .

٦ــ دقة الحس اللغوى فى اختيار اللفظ والعبارة ، وتحرى سهولتهما ، فهذا الشعر يجمع بين البصر الدقيق بالعربية ، والذوق الرقيق فى الاختيار والاستعمال ، وطبيعى أن يكون هذا الشعر الذى قيل ليغنى فيه ، متأثرا بما يقتضيه فن الغناء ، من سهولة اللغة ، وجاذبية الأساليب وبساطتها ، ولنتذكر ــ مثلا ــ قول عمر السابق :

ليت هندا أنجزتنا ماتعد وشفت أنفسنا مما تجد

واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لايستبد

زعموها قالت لجارت لها وتعرت يوم حَرٍّ تبترد

أكما ينعتنى تبصرننى عمركن الله أم لا يقتصد

فتضاحكن وقد قلن لها: حسنٌ فى كل عين من تود

فهذه القطعة مثال فى اللفظ السهل الرشيق ،والتركيب البسيط اليسر ، الملائم للتعبير عن هذه المعانى الرقيقة المنتزعة من الحياة ، حياة المرأة ، وميولها العاطفية الناعمة ، ويظهر الحس اللغوى الدقيق أيضا فى هذه السخرية الواضحة فى البيت الأخير ، حيث نم عنها الشاعر من خلال كلمات اختيرت بعناية من قاموس الحياة .

وننظر فى قوله السابق أيضا:

قلت : من أنت ؟ فقالت : أنا مَنْ شفَّه الوجد وأبلاه الكمدْ

نحن أهل الخيف من أهل مِني مالمقتول قتلناه قودْ

قلت : أهلا ، أنتمُ بغيتنا فتسمينْ ، فقالت : أنا هندْ

إن هذه اللغة من السهولة بحيث تقرب من لغة الحياة العادية فى موقف التعارف بين شخصين (من أنت ؟ أنا هند: ممن؟ من أهل الخيف من منى ، أهلا بك ..)

بذا راج هذا الشعر بين أهل العصر ، وأقبل عليه الملحنون والمغنون ، وتهافتوا عليه ، وأحالوه إلى أغان عذبة ، شدت بها القيان فى مجالس الغناء ، ورددتها الألسن بعد ذلك ، لا فى بيئة الحجاز وحدها ، بل عبرتها إلى بيئات الغناء فى العراق والشام أيضا.

والأخبار مروية فى إلحاح الملحنين على شعراء الغزل بالحجاز ليمدوهم بشعرهم

ليغنى فيه ، ومن الشعراء من كان يبذل للملحنين والمغنين جوائزسنية ، ليحولوا شعره إلى ألحان ، ترددها المغنيات [١] .

ولعل فى هذا مايفسر ميل الشعر الغزل فى حضر الحجاز إلى الإكثار من المُقطَّعات ، لمّا كان هذا القالب القصير أنسب للتلحين والغناء ، وأسهل على الملحنين والمغنين والمغنيات من القصائد الطوال .

ونحب أن نختتم هذه الدارسة للغزل الحضرى الحجازى ، بقول جرير الشاعر الغزل ، وقد قال له رجل من أهل المدينة : ياأبا حرزة ، إن شعرك (يعنى فى الغزل) رفع إلى المدينة ، وأنا أحب أن تسمعنى منه شيئا ، فأجابه جرير : « إنكم ياأهل المدينة يعجبكم النسيب ، وإن أنسب الناس المخزومى » [٢] .

فقد تحرج جرير ، وهو من هو مكانة فى الغزل ، أن ينشد غزلا فى عقر بيئة أمير هذا الفن عمر بن أبى ربيعة .

وبعد : فنحن لانستطيع ، بعد هذه الدراسة ، أن نطمئن إلى القول بأن غزل الحجاز الحضرى كان صورة من غزل الجاهليين الحسى ، ولانرتضى أن نذهب فيه ، إلى حد القول بأنه فى كل خصائصه كان فنا جديدا كل الجدة فى العصر الأموى ، كما أننا لانراه جاريا على عرف الجاهليين ، وغاية مابينه وبين الغزل الجاهلى من فرق ، أنه فصل مالم يفصله الجاهليون ، وضخم مالم يضخموه .

ومعنى هذا ، أننا لانتفق مع هذه الآراء ، التى أشرنا إلى أصحابها فى مقدمة هذا الفصل .

وإنما نرى أن فن الغزل فى بيئة الحجاز الحضرية ، قد أصاب ألوانا من التطور ، واستحدث بعض الملامح التى لم يعرفها شعر الغزل من قبل ، هى التى أبرزناها فى دراسة نصوصه ، وفى جوانب من الحديث عن خصائصه .

* * *

(١) انظر فى هذا : التطور والتجديد ٢٦٠ وتاريخ الشعر العربى (البهبيتى) ١٤٥ — ١٤٧ .
(٢) الأغانى ١ / ٧٢

الفصل السادس

الغَزَلُ العُذرِيّ فى بَادِية الحِجَاز

— ١ —

تقديم :

الغزل العذرى ضرب من الغزل مشبوب العاطفة ، لاينبعث عن مجرد الشعور بالتعاطف والحب بين رجل وامرأة ، وإنما يقوم أساسا على نوع من العشق [١] عفيف .

والعشق كما يقولون : ملك قاهر ، مسالكه لطيفة ، ومذاهبه غامضة ، وأحكامه جائرة ، ملك الأبدان وأرواحها ، والقلوب وخواطرها ، والعيون ونواظرها ، والعقول وآراؤها ، وأُعطى عنان طاعتها ، وقوى تصرفها [٢] .

وهو بهذا أشبه بقوى خفية ، لايوقف على كنهه ، ويدق على العقول إدراكه ، هو كما يقول الشاعر [٣] :

ونار الهوى تخفى وفى القلب فعلها ... كفعل الذى جادت به كف قادح

وإنما يعرف العشق بآثاره ، حيث يعظم سلطانه على القلب ، ثم يتغشى على سائر الأعضاء ، فيبدى الرعدة فى الأطراف ، والصفرة فى الأبدان ، واللجلجة فى الكلام ، والضعف فى الرأى .

والعفيف منه ينحل الجسم ، ويسقم النفس ، وقد يفضى إلى ذهاب العقل ، يجدِّده مرور الزمن ، ولاتفسده ولاتغيره إساءة المحبوب على الدوام .

وفى آثار هذا الضرب من العشق ، يقول قيس بن ذريْح [٤] :

وللحب آيات تبينُ للفتى ... شحوب وتُبرى من يديه الأشاجعُ

ويقول مجنون ليلى [٥] :

إنى جننت فهاتوا من جننت به ... إن كان ينفى جنونى لاتلومونى

---

(١) قيل : الحب أول الألفة ، والعشق : إفراط فى الحب ، عن عفة أو دعارة ، أخذ من العشقة : وهى شجرة تعلق ، وتلصق بما يليها ، وهى شجرة اللبلاب . انظر : أساس البلاغة (عشق) وتزيين الأسواق ١٥ وللاستزادة انظر : رسائل الجاحظ ٢ / ١٦٦

(٢) ديوان الصبابة (على هامش تزيين الأسواق) ١٢

(٣) أمالى القالى ٢ / ١٢٧ ومصارع العشاق ٣

(٤) تزيين الأسواق ٥١ وأمالى القالى ٢ / ٣٢١

(٥) ديوان الصبابة ١٢

والعشق بعامة يختلف باختلاف الأمزجة ، وتباين الطباع ، منه ماهو سريع التعلق والزوال ، ومنه بطيء التعلق والزوال ، ومنه سريع التعلق بطيء الزوال ، ومنه ماهو على العكس ، وهو على كل حال ليس موكولا إلى رأى فيملكه ، ولا إلى عقل فيدركه ، على حدِّ قول عُليَّة بنت المهدى [١] :

ليس خطب الهوى بخطبٍ يسير   لاينبئنَّك عنه مثل خبير
ليس أمر الهوى يُدبَّر بالرأ   ى ولا بالقياس والتفكير
إنما الأمر فى الهوى خطرات   مُحدِثات الأمور بعد الأمور

فالعاشق مغلوب على أمره ، مسلوب الإرادة فى هواه وفعله ، وكم من العاشقين حاولوا أن يصرفوا قلوبهم عن عشقها ، وحملها على السلوان ؛ ليتخلصوا من عذابات الوجد ، ومرارة الحرمان ، ولكن هيهات !! فقد فقدوا سيطرة عقولهم وإرادتهم على قلوبهم .

حاول هذا مجنون ليلى فأخفق ، قيل : اجتمع إليه نساء أشفقن عليه مما به ، وقلن له : أما آن لك أن تصرف عنك هوى ليلى ؛ ليُرَدَّ إليك عقلك ؟ فإنها أمرأة من النساء ،وفينا عنها كفاية ،فاختر إحدانا،فقال:لو ملكت لفعلت،ولكنى مغلوب[٢] .

والعشق العفيف ــ وهو أصل الغزل العذرى وباعثه ــ تشتغل ناره ، ويرتفع أواره ويتمكن أشد التمكن ، مع الفراغ ، وكثرة محاولات التردد إلى المعشوق ، والعجز عن الوصول إليه .

وأكثر مايتوفر هذا لأهل البادية ؛ ولذا شاع فيهم هذا النوع من العشق ، واشتهروا به ، وكثر موتاهم منه ، يقول عروة بن حزام [٣] :

وماعجبى موت المحبين فى الهوى   ولكن بقاء العاشقين عجيب

من أجل هذا طار غزلهم المعبر عن هذا العشق ، موسوما بالغزل العفيف تارة ، وبالغزل العذرى تارة أخرى .

---

(١) تزيين الأسواق ١١
(٢) تزيين الأسواق ٦١
(٣) المصدر السابق ٧٠

والذى يعنينا هنا ، ليس كل شعر عبر فيه قائله عن عاطفة حب عفيف ، أيا كانت دوافعه ، وأيا كان موطنه . فدرا ستنا تنصب أساسا على الاتجاه الغزل المعبر عنه بالحركة العذرية ، التى تتمثل فى شعر طائفة من الشعراء . عاشوا جميعا فى عصر واحد هو العصر الأموى وزمن واحد . وتنقلوا فى بيئات واحدة ، أو متقاربة ، فى وديان البادية الخصبة بالحجاز . أو المتداخلة مع بوادى نجد القريبة منها ، وهم الذين سنتحدث عنهم بعد .

هؤلاء الشعراء عرف بعضهم بعضا . وتناشد بعضهم أشعار بعض . وانصرفوا انصرافا يكاد يكون تاما عما كان المجتمع العربى يضطرب به من أحداث كبرى ، وصراعات عنيفة فى ميدان السياسة ، أو غير ميدان السياسة ، كما انصرفوا ـــ غالبا ـــ عما اعتاد غيرهم من الشعراء أن يلتفتوا إليه من تجارب فى الوصف ، أو الرحلة ، أو المدح . أو الرثاء ، وداروا جميعا فى فلك تجارب واحدة تقريبا ، هى تجارب العشق المقترن باللوعة والإخفاق والحرمان ، فتشابهت تجاربهم فى إطارها العام ، مع بعض الاختلاف اليسير فى التفاصيل والبدايات والنهايات .

فقصة العشق فى هذا الغزل نمط مألوف فى حياة هؤلاء العشاق العذريين ، فالشاعر يعشق صاحبته ، وقد تكون ابنة عم له ، أو من ذى قرابته ، أو من فتيات الحى ، أو بعض الأحياء المجاروة ، وهذا العشق يضرب بجذوره ـــ غالبا ـــ إلى أيام الصبا ، ويحاول الشاعر تحقيق الوصل باللقاء ، أو بالزواج . فيعرف أمره ، ويحال بينه وبين بغيته ، فالبيئة ترى فى علائق العشق عارا ، وفى الشعر المعبر عن هذه العلائق عارا أكبر ، يحرم على الشاعر الزواج بمن تعشقها وتغزل فيها . وحينئذ ليس للشاعر من حيلة إلا أن يتحول بطاقته العاطفية إلى الشعر ، يبث فيه لواعج الشوق . ولذعات الحرمان ، متأرجحاً بين الرضا والسخط ، واليأس والأمل ، محاولا من حين إلى آخر أن يرى صاحبته لحظات عابرة ، فى غفلة من الأهل ، وبعيدا عن عيون الرقباء والواشين ، تكون مددا جديدا لموهبته . ومعينا لمزيد من الصور والمعانى والأحاسيس ،وقد تتزوج صاحبته من غيره . فتزداد لوعته اتقادا ، ويزداد الفراق حدة ، ويصبح العشق مجرد شعور مطلق يلف كيانه ، وذكرى مجردة يترجمها إلى صور فنية ونفسية فى شعره [١] .

---

(١) انظر : فى الشعر الإسلامى والأموى ٧٤

هذا الإطار العام لقصة العشق فى حياة الشعراء العذريين ، الذين نهتم بهم هنا ، هو الذى فصل تجاربهم الشعرية ، وميزها ، عن تجارب الشعراء الغزلين من غيرهم ،الذين يصدرون فى غزلهم ، عن بواعث غير بواعثهم ، ويسيرون فى درب غير دربهم ، وينقادون لتقاليد فى التعبير والتصوير ألفها الشعر الغزل من قبلهم فى الجاهلية ، غير تقاليد العذريين الجديدة فى التعبير ، وفى اللغة ، ورسم الصورة الشعرية .

وبالجملة ، فإن مؤرخى الأدب يفرقون عادة بين هذا الاتجاه من الغزل ، والاتجاه السابق ، الذى أسميناه بالحسى اللاهى ، بأن الغزل العذرى ضرب من الشعر يتحدث فيه الشاعر عن مشاعر العشق العفيفة ، التى تنشأ بين رجل وامرأة ، وتطغى فيه نوازع الروح على نوازع الجوع الجسدى فتطمسه [1] ؛ لتعلقه أساسا بالروح ؛ إذ كانت ألطف من البدن ، فهذا العشق يشاكلها [2] .

وينسب الغزل العذرى إلى بنى عُذْرة ، وهى إحدى القبائل اليمنية ، التى هاجرت قديما إلى شمال الجزيرة العربية ، واشتهرت بالعشق العذرى ، والغزل المنبعث عنه ، فنسبا إليها ، حتى قالوا : « ليس حىٌّ أصدق فى الحب من بنى عذرة ، ولا تضرب الأمثال فيه إلا بهم [3] » .

ومن بنى عذرة زعيم العذريين ، وأمير شعرائهم جميل بن معمر [4] ، وصاحبته

---

(١) لمزيد من التفصيل راجع : الغزل فى العصر الجاهلى (د . الجوفى) ١٤٥ وتاريخ الشعر العربى (البهبيتى) ١٦٦

(٢) تزيين اسواق ١٢

(٣) المصدر السابق ٨ وانظر : ديوان الصبابة ١٩٢ والنوادر للقالى ٢١٣

(٤) جميل بن معمر ، وقيل : بن عبد الله بن معمر ، من بنى عذرة ، يتصل نسبه بقضاعة ، شاعر فصيح صادق الصبابة عفيف ، نشأ فى قومه بنى ربيعة العذريين بوادى القرى بين المدينة ومكة ، علق بثينة بنت يحيى بن ثعلب ، من قومه ، صغيرين ، فلما شبا خطبها فرد ؛ لأن العرب كانت تستهجن أن تزوج من جرى بينهما عشق ، فكان يأتيها سرا فيتحادثان ، ويقال فى سبب العشق بينهما : أنه سرح إبله يوما بوادى البغيض وانسطح ، فأتت بثينة مع جوار يملأن الماء ، فعبثت بفيصل له ، فتسابا ، وإلى هذا يشير جميل :

وأول ماقـــاد المودة بيننـــا ... بوادى بغيض يابثين سبـــاب

وقـلت لها قولا فجـاءت بمثله ... لكـــل كلام يابـــثين جواب

(تزيين الأسواق ٣٢) .

ويقال : دخلت بثينة على عبد الملك بن مروان ، فرآها امرأة أدماء طويلة ، يُعلم أنها كانت جميلة ، فقال لها عبد الملك : ويحك !! مارجا منك جميل ؟! قالت : الذى رجت منك الأمة حين ولتك أمرها (الإمتاع والموانسة ٣ / ١٦٨ وتزيين الأسواق ٣٣ وديوان الصبابة ١٩٢ ومابعدها) وتوفى جميل سنة ٨٢ هـ بمصر قبل بثينة . انظر : مصارع العشاق ٢٥٧ والأغانى ٧ / ٧٢ ومابعدها وابن سلام ٦٤٨ ، ٦٦٩ ومابعدها (المدنى).

بثنية ، ويروى الرواة أخبار طريفة حول شهرة هذه القبيلة بهذا اللون من العشق والغزل ، منها : مايحكى عن عروة بن الزبير بن العوام ــ أحد فقهاء المدينة السبعة [١]ــ أنه قال لعذرىّ : إنكم أرق الناس قلوبا (يريد أصباهم إلى العشق) ؟! فقال : والله ، لقد تركت ثلاثين شابا خامرهم السل (يعنى مهزولين) ومابهم داء إلا الحب [٢] .

ومنها : أنه قيل لأعرابى من العذريين : « مابال قلوبكم كأنها قلوب طير تنماث ، كما ينماث الملح فى الماء ؟! أما تجلَّدون ؟ فقال : إننا ننظر إلى محاجر أعين لاتنظرون إليها » [٣] .

ومنها : أن سعيد بن عقبة الهمذانى سأل أعرابيا : مِمّن الرجل ؟ فقال : من قوم إذا عشقوا ماتوا ، فقال سعيد : عُذرىٌّ ورب الكعبة ، ثم سأله عن علة ذلك ، فقال : لأن فى نسائنا صباحة ،وفى فتياننا عفة [٤].

وقد فات هذا الأعرابى أن يذكر أن فى نسائهم عفة أيضا ، فها هو ذا جميل يختلى ببثينة ، فيقول لها ، بعد أن شكا شغفه بها : هل لك فى طفء مابى بما يفعل المتحابان ؟ فقالت : قد كنت عندى بعيداً من هذا ، ولو عدت إليه لن ترى وجهى أبدا ، فضحك جميل ، ثم قال : والله ماقلته إلا اختبارا ، ولو أجبت إليه لضربتك بسيفى هذا ، إن استطعت ، وإلا هجرتك [٥] .

ولعل هذا ، نعنى العفة، كان خلقا متوارثا فيهم ، رجالا ونساء، يتواصون به ، ويحرصون عليه ، وثبته ظروف بيئتهم البدوية فى أخلاقهم ، كما سيأتى .

ويفهم من الروايات السابقة ، أن التسمية بالعذرية فى العشق والغزل قد عرفت فى العصر الأموى ، وأيضا يدل على هذا ماصرح به جميل ، فى خبر له مع رجل استضافه

---

(١) راجع هامش ص ٣٥٦

(٢) ديوان الصبابة ١٩٣ وتزيين الأسواق ٨ ومصارع العشاق ٢٠

(٣) عيون الأخبار ٢ / ١٣١

(٤) تزيين الأسواق ٨ وديوان الصبابة ١٩٣ وقيل : إن جارية هى التى قالت : عذرى ورب الكعبة ، حينما سمعت هذا الأعرابى يقول ماقال (عيون الأخبار ٢ / ١٣١) .

(٥) تزيين الأسواق ٣٢ وانظر : رسائل الجاحظ ٢ / ١٤٨

يدعى جعفرا ، صنع له خبزة ، فجعل الرجل يأكل ، ويحدث جميلا عن بنت عم له يحبها ، حتى أتى على الخبزة ، فقال جميل [(١)] :

وقد رابنى من جعفر أن جعفرا ... أَلَحَّ على قُرصى ويبكى على جُمْل

فلو كنتَ عذرىَّ العلاقة لم تكن ... بطيناً ونساك الهوى كثرة الأُكل

وهذه العلاقة العذرية ، أو الهوى العذرى ، هو مانطلق على نتاجه الشعرى ، الغزل العذرى .

— ٢ —

حول نشأة الغزل العفيف :

يميل الدكتور طه حسين إلى أن الغزل العفيف — المسمى فى العصر الأموى بالغزل العذرى — أموى النشأة ، لم يألفه الجاهليون ، أو على الأقل ، لم يحسنوا فهمه ، ولا العناية به [(٢)] .

ويذهب الدكتور شكرى فيصل إلى أبعد من هذا ، فيرى أنه لم يكن من الممكن أن يظهر هذا الغزل ، بقد سيته وطهارته ، قبل عصر بنى أمية [(٣)] .

ومحور هذه الدعوى أن الغزل العذرى كان ثمرة للقيم الأخلاقية والروحية ، التى بثها الإسلام فى البادية العربية ، والتى صفَّتْ نفوس الشعراء العذريين ، وأحالت العشق فيها إلى البراءة والطهر والعفة ، وفى هذا يقول الدكتور شكرى فيصل ، مؤيدا مذهبه الذى ذكرنا :

«... فالغزل العذرى تعبير عن وضع طائفة من المسلمين ، كانت تتحرج ، وتذهب مذهب التقى ، وتؤثر السلامة والعافية على المغامرة والمخاطرة ، وترى أن النفس أمارة بالسوء ... وأن النار قد حفت بالشهوات ، على حد تعبير الحديث الشريف ، وأنه

---

(١) ديوانه ١٨٢ وتزيين الأسواق ٣٤ والنوادر للقالى ٢١٣

(٢) حديث الأربعاء ١ / ١٨٥ ، ٢ / ١٥ — ١٨

(٣) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ٢٣٤

من الخير لها أن تصبر(مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، يريدون وجهه ، ولاتعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ، وكان أمره فُرُطًا) [١]، وأن تلتزم مايأمر الله به أن يُلتزم (وليستعفف الذين لايجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله) [٢] ، ولذلك آثرت هذه الطائفة أن تعدل عن شهواتها ، فكانت مثلا واضحا للتربية الإسلامية ، فى سموها وتعاليها ... ومن العفة التى كان يواكبها الدين ، ومن الحب الذى كانت تواكبه الغريزة ، من هذا كله كان هذا الحب العذرى ...» [٣] .

ولسنا نذهب هذا المذهب ، بمعنى أننا لانرى أن العامل الدينى ، ومايترتب عليه من عفة وتقى ، هو الباعث الأساسى والوحيد للغزل العذرى العفيف ، لأمور أهمها :
أولا: لاتستطيع أية دراسة علمية للغزل العفيف فى الأدب العربى القديم أن تنكر أن الغزل الجاهلى عرف العفة فى كثير من نماذجه ، التى عبر شعراؤها عن أشواق الروح ، أكثر مما عبروا عن الرغبة فى المتعة الجسدية ، فما الذى صَفَّى نفوس هؤلاء الشعراء الجاهليين ، ووجه عواطفهم إلى التسامى ، وغرس فيها الاتجاه بها إلى العفة والطهر ، ولم يكن الإسلام قد أشرقت شمسه على الجزيرة العربية بعد ؟

وبين أيدينا دراسة علمية محققَّة لهذا الاتجاه فى غزل الجاهليين ، من نتائجها أن غزل الجاهليين والإسلاميين العذرى ، لايكاد يختلف ، من حيث أنه غزل روحى ، لاأثر للنزوع الجسدى فيه ، غالبا [٤] .

ولو كان عامل التدين والتقى ، هو العامل الوحيد فى نشأة الغزل العذرى ، لكان النزوع إلى الجسدية فى غزل الإسلاميين ، أكثر ندرة منه عند العذريين الجاهليين ، وهذا غير صحيح على إطلاقه [٥] ، كما سنرى .

ثانيا : أن من أبرز سمات الغزل العذرى القصد إلى وصف العواطف الحارة

---

(١) مابين القوسين اقتباس من سورة الكهف الآية ٢٨

(٢) اقتباس آخر من سورة النور آية ٣٣

(٣) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ــ٢٣٢

(٤) انظر : الغزل فى العصر الجاهلى (د . الحوفى) ١٩٠ ومابعدها .

(٥) انظر تفصيل ذلك ونماذج على صوابه فى المصدر السابق ١٩٩ ومابعدها .

الصادقة ، التى تعذب صاحبها وتعنيه ، دون أن تتيح له لذة مادية ، وإنما اللذة الوحيدة التى يجدها هى لذة الألم بأنه يحب ، ويحب من لاسبيل إلى وصله ؛ ومن ثم فهو يسمو بعواطفه فوق نوازع الجسد ــ غالبا ــ

وهذه النزعة بعينها ، لم يخل منها الغزل فى الجاهلية ، وصدر الإسلام . فنحن واجدون لها نماذج فى شعر عنترة ، وعبد الله بن عجلان النهدى ، والمرقشان ، الأكبر والأصغر ، وكلهم جاهليون ، وفى شعر عروة بن حزام ، وعبد الله بن علقمة العامرى ، وهما من المخضرمين .

ويكفى أن نسوق نماذج قليلة من غزل هؤلاء الشعراء ، تفيض بالوجد ، وتعمر بالأحاسيس ، وتفصح عن الآلام ، وتعرب عن الوفاء ، والمعاناة الشديدة للحب ، والعفة فيه .

يقول المرقش الأكبر [١] :

أغالبك القلب اللجوج صبابةً ... وشوقاً إلى أسماء أم أنت غالبُه

يهيمُ ولا يعيا بأسماء قلبــهُ ... كذاك الهوى إمراره وعواقبه

أيُلْحَى امرؤٌ فى حبِّ أسماء قدنأى ... بغمٌّ من الواشين وازورّ جانبه

وأسماء همُّ النفس إن كنت عالما ... وبادى أحاديث الفؤاد وغائبه

إذا ذكرتُها النفس ظَلْتُ كأننى ... يُزَعزعنى قَفْقَافُ وِرْدٍ وصالبهُ

فالمرقش حيران فى أمره بين قلبه ، ونزوع نفسه ، أيتغلب قلبه فيظل على عشقه ، أم يتغلب نزوعه فينسى ؟ ولكنه يائس من ردع قلبه ، لأنه هائم بأسماء ، فلا محل للوم اللائم ؛ إذ لاجدوى من لومه ، لأنه مصر على عشقه ، معلق القلب بمعشوقته ، على الرغم

---

(١) الأغانى ٥ / ١٨٣ قفقاف : ارتعاد . ورد : اسم للحمى . صالب : حمى فيها رعدة . والرمقش الأكبر يسمى عمر أو عوف بن سعد بن مالك ، يتصل نسبه ببكر بن وائل . شاعر جاهلى قديم ، عاصر المهلهل بن ربيعة ، وشهد حرب البسوس بين بكر وتغلب ، وهو أحد عشاق العرب المشهورين ، كان يهوى ابنة عمه أسماء بنت عوف ابن مالك . انظر : الأغانى ٥ / ١٧٩ والشعر والشعراء ٥٤ والمؤتلف ١٨٤ ومعجم الشعراء ٢٠١ ومعاهد التنصيص ١ / ١٦٣ وتزيين الأسواق ٨٤ والمرقش الأصغر ابن أخيه ويدعى عمرو بن حرملة ، أو ربيعة بن سفيان ، وصاحبته فاطمة بنت المنذر ، وأخباره فى الشعر والشعراء ٥٦ ، ومصارع العشاق ١٤٧ فى ضمن أخبار عمه .

مما أصابه من غمٍّ لسعى الوشاة بينه وبينها ، وكيف يستمع لمن يلومه ، وهذا العشق هو طَلِبَةُ نفسه ، التى رضخت لأوامر قلبه ،بل هو حديث هذا القلب ، ماظهر منه وماأستتر ، ولايكاد ذكرها يخطر فى نفسه حتى يهتز كيانه كله ، وكأنما قد أصابته حمى .

فالحديث عن الوشاة ، وفقد السيطرة على القلب ، واعتلال النفس والبدن ، كلها من ملامح الغزل العفيف ، الناشىء عن العشق العفيف ، كما عرفناها فى مقدمة هذا الفصل ، والتى سنراها أيضا عند العذريين الأمويين .

ويقول عبد الله بن العجلان [١] :

فارقت هنــــداً طائعـــا فنـدمت عنـد فراقهـــا
فالــعين تذرى دمعــة كالــدرِّ من آماقهـــا
متحلِّبـــاً فوق الـــرِّدا ء يجول من رقراقهــــا
خودٌ رداحٌ طَفْلـــــةٌ ماالفُحش من أخلاقها ...

فهو يبكى ندما على فراق هند ، التى كانت زوجه ، فأرغمه أبوه على تطليقها ، والرواية تحكى أنه ظل يشبب بها حتى مات كمداً ، وهذا يشهد له بالوفاء فى العشق ، والإخلاص لصاحبته ، وهذه بعض سمات الغزل العفيف .

وهل أدل على عفته من شهادة الشاعر نفسه ، بأن هندا لم تكن تعرف الفحش ، وإنما كان يلذ له حديثها وعناقها قبل أن يطلقها ، ومن كانت كذلك لن يكون التغزل فيها إلا عَفاًّ، بريئا من الفحش .

وعبد الله بن علقمة العامرى [٢]، عشق هو الآخر فعف ، وقتل على يد خالد بن

---

(١) هو أبو عمرة عبد الله بن العجلان النهدى القضاعى ، شاعر جاهلى مفلق ، أقل العشاق أياما ، عاش يكابد العشق ثلاثين سنة ، فهو أحد المتيمين من الشعراء ، ومَنْ قتله العشق منهم ، وضرب به المثل فى العشق كما ضرب المثل بعروة بن حزام ، قال قيس بن ذريح فيهما :

وفى عروة العذرى إن مت أسوة وعمرو بن عجلان الذى قتلت هند

(تزين الأسواق ٤٩) وهند هذه كانت امرأة ابن العجلان ثم طلقها فندم ، ومات أسفا عليها ، قيل : قبل عام الفيل بأربعة أعوام . انظر : الأغانى ١٩ / ١٠٢ وشرح الحماسة للمرزوقى ٣ / ١٢٥٩ وتزيين الأسواق ٧٥ ، ٧٧ وسمط اللآلى ٢ / ٦٥٤

(٢) أحد بنى عامر بن عبد مناة بن كنانة ، أدرك الإسلام ، ولم يسلم ، وقتله خالد بن الوليد ، وكان على رأس سرية وجهها الرسول ﷺ يوم فتح مكة ، إلى بنى عامر ، وصاحبته حُبيشة بنت حُبيش عامرية أيضا .وقصتها مروية فى : الأغانى ٧ / ٢٣ ومابعدها وتزيين الأسواق ٨١ ــ ٨٢ ومصارع العشاق ٢٠٧

الوليد فى الإسلام ، فلما قدم للقتل قال [١] :

فإن يقتلونى ياحُبيش فلم يدع ... هواك لهم منى سوى غلة الصدر
وأنتِ التى أخليت لحمىَ من دمى ... وعظمى وأسبلت الدموع على نحرى

فردت عليه حبيشة : [٢]

ونحن بكينـــا من فراقك مرة ... وأخرى وآسيناك فى العسر واليسر
وأنت فلا تبعد فنعم فتى الهوى ... جميل العفاف فى المودة والستر

ففضلا عما فى غزله من ملامح غزل العذريين الأمويين ، من دلائل حرقة الهوى ، وأثر العشق فى اصفرار البشرة ، واعتلال الجسم ونحوله ، فهناك شهادة صاحبته الصريحة بأنه عف الهوى ، جميل العفاف .

ثم يأتى عروة بن حزام [٣] ، فيلم فى شعره الذى يحكى قصته مع ابنة عمه عفراء ، بأكثر ملامح شعر العذريين الأمويين ، فشعره يتميز بكل السمات الاجتماعية والنفسية والخلقية والفنية التى نجدها من بعده فى شعر سائر العذريين ، كما أن قصة عشقة تعكس الإطار العام ، الذى دارت فيه قصص العذريين الأمويين ، فقد أحب عفراء منذ كانا صغيرين ، وخطبها من عمه فلم يجبه لفقره ، فرحل إلى ابن عم آخر له موسر ليعينه على صداق عفراء ، وعاد بمائة من الإبل : ولكن عمه كان قد طمع فزوجها من رجل ثرى ، رحل بها إلى موطنه فى الشام ، ويدعى العم لعروة حين عاد أن عفراء ماتت ، ولكنه يكتشف الحقيقة بعد فترة ، فيأخذ فى الهيام المعروف عند العذريين ، ويفجر الفقد ينابيع الشعر فيه ، فتفيض بشعر حافل بالآلام والأنات ، والذكريات ، واللوعة ، ثم لايلبث أن ينال العشق من روحه وبدنه فيفارق الحياة ، وشفتاه تردد بعض شعره فى عفراء .

---

(١) تزيين الأسواق ٨١ ومصارع العشاق ٢٠٨ والأغانى ٧ / ٢٥ .

(٢) الأغانى ٧ / ٢٦ ومصارع العشاق ٢٠٨ .

(٣) من بنى ضبة العذريين ، شاعر مخضرم ــ عاش أيام عثمان ــ فتمكن فى العشق ، وهو أول عاشق فى الإسلام مات عشقا ، ولايعرف له شعر إلا فى ابنة عمه عفراء ، وهى بنت هصر أخى حزام ، كلاهما ابنا مالك ، بطن من بنى عذرة ، ولشدة معاناته فى العشق ضرب به المثل بين العرب والمولدين توفى سنة ٣٠ وقيل : ٢٨ هـ . انظر : الأغانى ٢٠ / ١٥٢ ومصارع العشاق ٢٠٩ وفوات الوفيات لابن شاكر ٢ / ٣٣ وتزيين الأسواق ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ .

ومن شعره الذى يعكس الملامح العذرية [١] :

تحملت من عفراء ماليس لى به ... ولا للجبال الراسيات يدان

فيارب أنت المستعان على الذى ... تحملت من عفراء منذ زمان

كأن قطاة علقت بجناحها ... على كبدى من شدة الخفقان

جعلت لعراف اليمامة حكمه ... وعراف نجد إن هما شفيانى

فما تركا من رقية يعلمانها ... ولا سلوة إلا وقد سقيانى

فقالا: شفاك الله ، والله مالنا ... بما حملت منك الضلوع يدان

فهذا شعر يعبر عن عاطفة حارة صادقة ملتاعة ، وعن معاناة فى الحب يغذيها الحرمان ، وفيه هذا الأسلوب الذى طالما ردده الشعراء العذريون الأمويون ، أسلوب النداء (فيارب) .

وفى شعره أيضا تلك الرعدة التى تصيب العاشقين ، وحبسة اللسان عند لقاء الصاحبة ، وتمرد القلب على السلوى ... الى آخر ماعرفنا من صفات العشق العذرى فى التقديم .

من ذلك قوله المشهور [٢] :

وإنى لتعرونى لذكراك هزَّة ... لها بين جلدى والعظام دبيبُ

وماهو إلا أن أراها فُجاءةً ... فأُبْهَتُ حتى ماأكاد أجيب

وأصدف عن رأيى الذى كنت أرتئى ... وأنسى الذى أزْمعتُ حين تغيبُ

ويظهر قلبى عذرها ويعينها ... علىّ فمالى فى الفؤاد نصيب ...

وسنرى الشعراء العذريين الأمويين يكثرون من وصف نحول أجسامهم من ضنى العشق ، وها هو ذا عروة يبتكر صورة شخصية أصيلة ؛ لتصوير هذا النحول ، فيقول مخاطبا واشيين لايكفان عن تعقبه [٣] :

أغركما منىّ قميص لبسته ... جديد وبُرْدًا يمنةٍ زَهيان

---

(١) الأغانى ٢٠/١٥٥ ومصارع العشاق ١٣ ، ٢١٠ والنوادر للقالى ١٥٩ عراف اليمامة : كاهن يقال له : رياح ابن راشد ، وكنيته أبو كحلاء ، مولى لبنى يشكر ، ويقال : كان له قرين من الجن .

(٢) الأغانى ٢٠ / ١٥٥ وأمالى المرتضى ١ / ٤٥٩ والشعر والشعراء ٢٣٨

(٣) الأغانى ٢٠ / ١٥٤

متى ترفعا عنى القميص تبيَّنا بِىَ الضُّر من عفـراء يافتيـان
وتعترفا لحمـاً قليـلا وأعظمـا رقاقـاً وقلبـا دائم الخفقـان
على كبدى من حب عفراء قرحة وعينـاى من وَجْدٍ بها تكِفَـانِ

وروعة هذه الصورة فى أنها لاتتحدث عن هزا له كأنه حقيقة ملموسة ، يراها الناس ، بل ترسم مفارقة بين ماقد يظنه الناس فيه من عافية ، إذ ينظرون إليه فى قميصه الجديد ، وبرديه اليمنيين المشرقين ، وماينطوى عليه من ضنى تجاوز الجسد إلى صميم الوجدان .

وقد قصدنا بالإكثار من إيراد هذه النماذج من أشعار الجاهليين والمخضرمين العفةِ ، أن نبرز مافيها من ملامح سنراها من الملامح الأساسية فى غزل العذريين الأمويين ، من حرقة الهوى ، ولذعات الشوق ، ومرارة الحرمان ،وندرة القرب ، وصعوبة الوصل ، وليس من بينهم إلا شاعر واحد اعتنق الإسلام ، ومع ذلك فلا نراه إلا كزملائه أسير تقاليد البيئة البدوية الاجتماعية القاسية ، التى تجعل من اتصال الرجل بالمرأة ، اتصال حب وهوى وصمة عار ، تحرم على الشاعر الزواج بمن تحدث عن هواها فى شعره ، أو عرف بحبها .

إنه مجتمع شديد المحافظة ، تجرى فيه حياة العاشقين وفق تقاليد مرعية ، فما ينبغى لمن يعشق أن يذيع أمره بين الناس ، ولا أن يقول شعرا فى صاحبته يشيع بينهم ، وإلا كان قد ألحق العار بصاحبته وأهلها وقبيلتها جميعا ، وحق عليه أن يحرم منها إلى الأبد ، وأن يستباح دمه إذا هو تعرض لها بعد معرفة أهلها علاقته بها .

فالقيم الأخلاقية التى يمثلها الغزل العذرى هى بنت البادية ، التى عاش فيها العذريون فى الجاهلية والإسلام ، وإلى هذا يشير الأستاذ العقاد ، فى قوله (١) : « البادية تتقيد ببعض القيود ، التى تستدعيها معيشة البدو ، ولاتستدعيها معيشة الحضريين ؛ لأن المنعة ضرورة من ضرورات الحياة بين أهل البادية ، ولامناص من الاشتهار بمناعة الحوزة بين الأعداء والنظراء ، وإلا طمع فيهم كل طامع .... وأول حوزة يحميها الرجل هى المرأة ،فمن شرف البدوى أن تكون فتاته منيعة الحمى ، يتقاصر عنها لسان المتغزل ، كما يتقاصر عنها سيف المغير » .

---

(١) جميل بثينة (العقاد) ١٩

وإذن : فالمنعة أوجدت الحرمان ، والحرمان اقتضى هذا الحب العفيف ، والغزل العفيف ، يقول أبو عبيدة البكرى : « الظفر بالمعشوقة يسقط شطر عشقيْها (الحب) وأن النكاح يسقط الحب » [١] .

يعنى حرارة العاطفة وعفتها ، كذلك يرى الجاحظ أن الوصل يضعف العشق [٢] .

ثالثا : لو أن العامل الدينى هو العامل الأساسى الوحيد فى نشأة الغزل العفيف ، لما انحرف الشعراء العذريون الأمويون عن العفة والتقوى ، باحتيالهم على دخول بيوت لأزواج صاحباتهم ، والانفراد بهن ساعة من ليل أو نهار ، أو مراسلتهن ، وقد يضيق الزوج ، أو الأهل ذرعا بالعاشق الذى لايجدى معه تهديد ، ولاتثنية قوة ، فلا يجدون مناصا من الشكوى إلى السلطان ، فيهدر السلطان دمه ، إن هو جاء بعد ذلك إلى ديار الأهل أو الزوج ، حدث هذا من جميل [٣] ، كما حدث مع توبة [٤] ، ومع مجنون ليلى ، الذى يعبر عن هذا فى قوله [٥] :

ألا حُجبت ليلى وآلى أميرُها ... علىّ يميناً جاهداً لا أزورها
وأوعدنى فيها رجال أبُرُّهم ... أبى وأبوها خُشّنتْ لى صدورها

كذلك أهدر معاويةُ دم قيس بن ذُرَيْح ، لكثرة تردده على ديار لبنى بعد أن طلقها ، وشكوى أهلها من ذلك [٦].

وليس لهذا معنى إلا أن هؤلاء العذريين ، لم يكونوا أعفة ولاتقاة بالمعنى الكامل ، حقيقة أنهم كانوا يعفون ، وهذه العفة هى التى تفسر مافى شعرهم من الزهد البالغ ، والرضا ممن يعشقون بأقل القليل ، بل بمجرد التلويح بالأمل الذى لايتحقق . كقول جميل ، مثلا :

---

(١) سمط اللآلى ٢ / ٦٩٣
(٢) رسائل الجاحظ ٢ / ١٨٧
(٣) الأغانى ٧ / ٨٠ ، ٨١
(٤) المصدر نفسه ١٠ / ٦٣
(٥) ديوانه ١٤٦
(٦) الأغانى ٨ / ١١٧

وإنى لأرضى من بثنية بالذى لَوَابْصره الواشى لقرت بَلَابلُه
بلا وبأ لاأستطيع وبالمنى وبالأمل المرجوّ قد خاب آمله

ولكن هذه العفة لاتكفى وحدها دليلا على التقوى ، مع مافى سلوكهم من صور لاتتفق كثيرا مع الالتزام الذى يعرف به المتقون ، كما أنها لاتكفى وحدها فى تعليل نشأة الغزل العذرى ، ونسبة هذه النشأة إلى العصر الأموى .

لابد إذن من هذا العامل الاجتماعى الذى أرجعناه إلى تقاليد البيئة البدوية ، وهو الحرمان ، فبه يستقيم فهم ماعرفوا به من عفة من ناحية ، وماعرف عن سلوكهم الخاص من ناحية أخرى .

كما أنه يفسر وجود هذا الضرب من الغزل العفيف فى الشعر الجاهلى ، ويدل على أن نشأته لم تكن أموية خالصة ، كما ذكر الدكتور طه حسين ومن جاراه من الباحثين .

ومع ذلك فلا يسعنا إلا أن نؤكد أن الحياة الإسلامية كانت مشجعة على عفة العشق وعذرية الغزل ، حتى فى البادية ، فقد سئل أعرابى ماذا كان يصنع لو ظفر بصاحبته ، ولا يراهما غير الله ؟ فقال :إذن لاأجعله أهون الناظريْن ، ولكنى أفعل بها ماأفعله بحضرة أهلها ، شكوى ، وحديث عذب ، وإعراض عما يسخط الرب ، ويقطع الحب (١).

وقيل لأعرابى آخر ليلة تزويج صاحبته : أيسرك أن تظفر بها ؟ قال : نعم ، قيل : فما كنت تصنع بها ؟ قال : أطيع الحب فى لثمها ، وأعصى الشيطان فى إثمها (٢) .

وروى الأصمعى : قيل لأعرابى : ماتصنع إن ظفرت بمحبوبتك ؟ قال : أمتع عينى من وجهها ،وسمعى من حديثها ، وأستر منها مايحرم كشفه ، إلا عند حله (٣) .

ذلك أن الإسلام خلق مجتمعا يخضع لقوانين وشرائع واضحة محددة ، تقوم على تنفيذها حكومة منظمة ، وتتطلب من الفرد التنازل عن كثير من حريته الفردية السابقة

---

(١) سمط اللآلى ٢ / ٦٩٣ وديوان الصبابة ١٩٣
(٢) تزيين الأسواق ٨ وديوان الصبابة ١٩٤
(٣) تزيين الأسواق ٨

على الإسلام ، كما أنه نظم علاقة الرجل والمرأة على أساس من الرباط المقدس ، رباط الزواج ، وحظر الاندفاع وراء الغريزة الجنسية ، إلا من طريق هذا الرباط ، كما حرم البغاء ، وقذف الأعراض ، فسما بالأخلاق إلى أجواز الفضيلة والطهر .

غير أن هذه القواعد الإسلامية ، لم تكن قاصرة على البادية دون الحضر ، بل إن المعروف عن البدو أنهم أقل تأثرا بالحياة الدينية من أهل الحضر ، والقرآن الكريم يشهد بذلك فى قوله تعالى (١) : « الأعراب أشد كفرا ونفاقا ، وأجدر أن لايعلموا حدود ماأنزل الله على رسوله » .

ولهذا كان العامل الدينى وحده ، نعنى التأثر بالإسلام ، ومايطالب به المؤمن من تقوى الله ، هو الباعث الوحيد لمن عف فى عشقه من أهل الحضر ، وبخاصة من العلماء المؤمنين ، المشهورين بزهدهم وتقواهم ، من مثل : عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة بالمدينة فى العصر الأموى ، الذى يصرح فى غزله بأنه تجنب إتيان الحبيب تأثما (٢) .

كذلك كانت التقوى وراء عفة عروة بن أذينة ، أحد فقهاء المدينة وعبادها فى شعره الغزل (٣) ، وكانوا يردون على من يلومهم فى الحديث عن الهوى العفيف فى شعرهم ، بأنه لابد لهم من أن ينفثوا مافى صدورهم .

وعبد الرحمن بن عمار الجشمى الملقب بالقَسّ لشدة تقواه وورعه ، لما شغف بسلامة الجارية المغنية ، عبر عن شغفه فى شعر غزل عفيف ، وماكانت عفته إلا بنت تقواه ، لابنت الحرمان ، أو حيلولة التقاليد الاجتماعية بينه وبين وصلها ، وقضاء حق الهوى معها ، ولاأدل على ذلك مما يرويه صاحب الأغانى ، من أن سلّامة قالت له يوما : أنا والله أحبك !! فقال : وأنا والله أحبك !! قالت : وأحب أن أضع فمى على فمك ، قال : وأنا والله أحب ذاك ، قالت : فما يمنعك ؟ فو الله إن الموضع لخالٍ ، قال : أنى سمعت الله عز وجل

---

(١) سورة التوبة ٩ / ٧٩

(٢) انظر هذا الغزل فى : العقد الفريد ٣ / ٣٩١

(٣) المصدر السابق

يقول : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » وأنا أكره أن تكون خلة مابينى وبينك تؤول إلى عداوة ، ثم قام وانصرف ، وعاد إلى ماكان عليه من نسك [١] .

ولاينبغى أن يفهم مما ذكرنا أننا ننكر تأثير الإسلام فى نفوس الشعراء البدو العذريين فى العصرالأموى وأشعارهم ، فما إلى هذا قصدنا ، وإنما غرضنا أن نرد على من ذهبوا إلى أن العامل الدينى كان سببا فى نشأة فن جديد من الغزل فى البادية فى العصر الأموى ، هو هذا الغزل العذرى .

على أن تأثير الإسلام فى نفوس العذريين قضية لايعلم إلا الله مدى حظهم منها ، ولانملك إلا أن نتلمس مظاهر هذا التأثير فى سلوكهم وأشعارهم ، أما سلوكهم فقد تحدثنا عن طرف منه رأيناه لايلائم التقوى الكاملة ، وأما أشعارهم فإن تأثير الإسلام فيها يعرب عن نفسه من حين لآخر ، فى بعض الصور والأفكار والمعانى ، والأساليب الجزئية وفى بعض الألفاظ أيضا ، تكثر هذه الملامح فى شعر بعض شعرائهم ، وتختفى أو تكاد عند آخرين ، وهذا أمر طبيعى ، فالنفوس تختلف فى استشعارها لروحانية الدين ، وفى مدى تقبلها للمواءمة بين اعتقادها وسلوكها ، كما تختلف فى مدى صفائها الروحى ، وحساسيتها للتأثر ، وفطنتها لما ينفعها فى حياتها الأولى والآخرة ، وقد يتفق كل هذا لبدوى ، ولايتفق لحضرى ، وقد يرزق به من يستجيب لفطرته السليمة ، أكثر ممن يفقه الدين بعقله وعلمه ، والله يهدى من يشاء .

وفى شعر مجنون ليلى نلمح بعض مظاهر التأثر الدينى ، فى قوله [٢] :

أما والذى يَبْلُو السرائر كلها ... ويعلم ماتبدى به وتغيب
لقد كنتِ مما تصطفى النفس خِلَّةً ... لها دون خِلَّان الصفاء حجُوب

فالشاعر متأثر ببعض المعانى والألفاظ المستمدة من القرآن العظيم، فقوله : « يبلو السرائر » مستمد من قوله تعالى : « يوم تُبْلَى السرائر [٣] » وقوله : « ويعلم ماتبدى به وتغيب » مستمد من قوله تعالى : « والله يعلم ماتبدون وماتكتمون » [٤]

(١) الأغانى ٨ / ٦
(٢) ديوانه ٥١
(٣) الطارق ٨٦ / ٩
(٤) النور ٢٤ / ٢٩

وفى قوله (١) :

وتزعم ليْلى أننى لاأحبُّها   بلى والليالى العشر والشَّفْع والوَتر

وواضح أن الشطر الثانى من البيت يستمد معناه ونص عبارته تقريبا ، من قوله تعالى : « والفجر ، وليالٍ عشْر ، والشفع والوَتر » (٢) .

وفى قوله (٣) :

أحبُّكِ حتى يبعث اللهُ خلقه   ولى منك فى يوم الحساب حسيب

فالبعث والحساب معان إسلامية .

ويقول أبو صخر الهذلى (٤) :

أما والذى أبكى وأضحك والذى   أمات وأحيا والذى أمره الأمر

وهذا قسم بمعان إسلامية قرآنية ، تتردد فى القرآن العظيم .

ويقول كثير عزة (٥) :

خليلى هذا ربْع عزة فاعْقِلا   قَلُوصيكُما ثم ابكيا حيث حلَّتِ

ولا تيأسا أن يمحو الله عنكما   ذنوباً إذا صلّيتما حيث صلَّتِ

فالله هو الذى يمحو الذنوب ، وهو معنى قرآنى ، ولفظ الصلاة هنا ومعناها مأخوذ من معنى الصلاة الإصلاحى الشرعى .

هذا فضلا عن أساليب الدعاء ، والتضرع إلى الله ، والتوجه بالشكوى إليه ....

وغير ذلك مما يصدر عن النفوس المسلمة المعتقدة ، ويظهر فى شعر العذريين الأمويين ، الذى سنعالجه بالدراسة فيما سيأتى .

ومع ذلك فإن هذه النماذج وأشباهها ، إن دلت على تأثر الغزل العذرى ، بوصفه فنّا شعريا ، بالدين والقرآن ، فإنها لاتدل بالضرورة على تأثر عاطفة العشق نفسها بالدين والقرآن .

* * *

(١) ديوانه ١٦٣

(٢) الفجر ٨٩ / ١ — ٣

(٣) ديوانه ■■

(٤) عيون الأخبار ٤ / ١٣٨

(٥) ديوانه ٩٥

نخلص من هذه الدراسة إلى نتيجتين هامتين :

أولاهما: أن الغزل العفيف ليس فنا إسلاميا جديدا ، أضافه الشعراء العذريون الأمويون إلى فنون الشعر العربى ، ولم يكن معروفا لسابقيهم من الشعراء ، فقد عرفه طائفة من الشعراء الجاهليين والمخضرمين ، وقالوا فيه نماذج من أشعارهم ، كما كان فى جملة تجاربهم الشعرية ، التى حددت لهذا الفن إطاره العام ، وكثيرا من خصائصه النفسية ، ومعالمه الفنية ، على النحو الذى رأيناه ، على ضوء دراستنا لبعض نماذجهم فى الغزل العفيف .

كذلك لم يكن فن الغزل العفيف مزدهرا فى العصر الأموى ، ذاويا ، قليل الشأن فى الجاهلية وصدر الإسلام ، وإنما كان ريَّانا مثمرا فى هذه العصور جميعا ، حتى هذا القصص العذرى ، الذى اشتهر فى العصر الأموى ، نجد له شبيها فى العصر الجاهلى ، ففى التراث الشعبى قصة عربية جاهلية ، تعبر عن العشق العفيف فى أروع مظاهره ، ولاتقل فى عناصرها ، وحياة أبطالها ، والإطار العام لأحداثها ،عن قصص العشق العذرى فى عصر بنى أمية .

نعرف منها قصة قديمة ، ضاربة فى القدم ، هى قصة مُضَاض بن عمرو الجرهُمىّ [١] مع ابنة عمه « مَىّ » بنت مُهَلِيل بن عامر [٢] ، فهى شبيهة بقصة مجنون ليلى فى العصر الأموى ، ففيهما معا يعشق الشاعر ابنة عمه ، ويحرم منها ، ويموت لفراقها ، وكل من الشاعرين ضرب مثلا فى زمانه للإخلاص فى العشق ، وإتلاف نفسه فى سبيله .

ومما قيل فى مضاض الجرهمى ، قول رجل من أهل الطائف [٣] :

أموت إذا جدّ الفـــراق بيثربٍ ... كما مات من حَرِّ الفراق مُضاضُ

غاية الأمر أن العذريين الأمويين كانوا أنضج تجاربا ، وأرق أسلوبا ، وأكثر شفافية فى غزلهم العذرى ، فقاموسهم اللغوى يحوى من الألفاظ والعبارات والأساليب ، مايتميزون به عن سابقيهم ، كما تميزوا بمعان وألفاظ إسلامية ، لم يعرفها سابقوهم كما سنرى .

---

(١) مضاض بن عمرو بن الحارث الجرهمى ، عاشق جاهلى قديم ، يقال : إن ابنة جَدِّه (رعلة) تزوجت نبى الله إسماعيل ، عليه السلام ، انظر : الأغانى ١٣ / ١٠٣

(٢) انظر تفصيل هذه القصة فى : كتاب التيجان فى ملوك حمير (أبو محمد بن هشام) ١١٨

(٣) المصدر السابق .

أما من حيث الكم الشعرى ، فلا نستطيع أن نتخذ منه دليلا على قلة اهتمام الجاهليين بهذا الفن ، أو قلة عنايتهم به ، على حد تعبير الدكتور طه حسين ، فربما كان عند الجاهليين من شعراء الغزل العفيف قصص كثير ، وشعر عفيف كثير ، ضل طريقه إلينا ، فى جملة ماضاع من أشعار الجاهليين فى أغراضهم المختلفة ، يقول أبو عمرو بن العلاء : « ماانتهى إليكم مما قالت العرب (يعنى فى الجاهلية) إلا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير » (١) ، وفى رواية لابن سيرين عن عمر بن الخطاب (ض) أن ماحفظ من الشعر الجاهلى هو أقله ، وماضاع أكثره ، ويعلل هذا بتعليل حسن معقول (٢) .

أما قصص العشق العذرى ، ومادار حولها من غزل عذرى فى العصر الأموى ، فقد وصل إلينا أكثر ذلك ، لما عرف فى هذا العصر ، من الاهتمام بالرواية الأدبية ، والاتجاه إلى التدوين .

أما النتيجة الأخرى : فهى أن أثر الإسلام فى الغزل العذرى الأموى لايتعدى ـــ فيما نرى ـــ أمرين :

١ــ زيادة فرص الحرمان ، الذى كان السبب الرئيسى فى نشأة العشق والغزل العذريين فى البادية العربية ، بما جاء به الإسلام من قواعد صارمة فى تحديد فرص الاتصال بين الرجل والمرأة ، وتنظيم العلاقة الحسية بينهما ، على أساس من الطهر ، فى ظل رباط مقدس ، ومع ازدياد فرص الحرمان ، يكثر التسامى بعاطفة العشق ، والعفة فيه .

ولايعنى هذا أن الحرمان وحده هو باعث هذا الغزل ومؤججه ، فى نفوس الغزلين العذريين فى العصر الأموى ، فقد نفذ الإسلام إلى قلوب هؤلاء الشعراء العذريين ، ووجداناتهم ـــ أو بعضهم على الأقل ـــ ونَمَّتْ عن هذه الروح الدينية التقية بعض أشعارهم الغزلة ، فمما يسلم به أن الإسلام كان له أثر بعيد فى سيطرة هذا الجيل من الشعراء على غرائزه ، وتساميه بها ، واستمساكه ، قدر الطاقة ، بالعفة والتقوى ، وخبر جميل مع بثنية ، وماتضمنه من امتناعها عما دعاها إليه ـــ مختبِراً ـــ من قضاء حق

---

(١) ابن سلام ٢٥ (المدنى) .

(٢) المصدر السابق ٢٤ ـــ ٢٥

الهوى ، مروى فيما مر بنا ، وهو شاهد صدق على مانذكر هنا .

واحترام العلاقه الزوجية ، ورعاية حقها ، الذى أكده الإسلام ، وأحاطه بسياج من الحقوق والواجبات ، من دوافع ليلى الأخيلية فى ردها على صاحبها توبة بن الحُمير ، وكان قد عرّض لها بحق الهوى : [١]

وذى حاجةٍ قُلنا له لاتَبُحْ بها ... فليس إليها ماحييتَ سبيلُ
لنا صاحبٌ لاينبغى أن نخونه ... وأنت لأخرى صاحبٌ وحَليلُ

٢ــ التأثر الفنى ببعض الصور والأفكار ، والمعانى والألفاظ ، المستمدة من آداب الإسلام وقيمه وتعاليمه بعامة ، ومن ألفاظ القرآن ومعانيه بخاصة .

ــ ٣ ــ

أشهر الشعراء العذريين الأمويين :

هذا ، وشعراء الغزل العذرى ، فى بادية الحجاز ، فى العصر الأموى كثيرون ، منهم من اقترن اسمه باسم صاحبته ، فاشتهر بذلك ، فيقال : مجنون ليلى ، وكثيرٌ عَزّة [٢] ، وقَيس لُبْنَى ، وجميل بثينة ، وهو أنسب الأربعة [٣] .

ومنهم من اشتهر باسمه مجردا من الارتباط باسم صاحبته ، من هؤلاء : توبة بن الحُمَيرِّ ــ وصاحبته هى ليلى الأخيلية ــ ونصيْب بن رباح ــ تعلق بامرأة تدعى أم بكر [٤] ــ وأبو صخر الهذلى ــ تعشق امرأة من قضاعة تدعى أم حكيم ــ والصمة بن عبد الله القشيرى ــ وصاحبته تدعى ريًّا ... وغيرهم .

---

(١) ديوانها ٩٥ وأمالى القالى ١ / ٨٩ ، وانظر تفسير الحاجة فى البيت الأول ، فى ديوانها ، فى الموضع المذكور .

(٢) هى عزة ابنة أبى بصرة الغفارى حميد بن وقاص المحدث ، من بنى ضمرة بن بكر بن عبد مناف (وفى تزيين الأسواق ٣٩ عزة بنت جميل بن حفص بن إياس بن عبد العزى من بنى ضمرة) ، يقال : كانت حلوة حميراء ، نظيفة ، بارعة الحديث ، دخلت على عبد الملك بن مروان ، فقال لها : أنت عزة كثير ؟ فقالت : أنا عزة بنت حميد (وفى أمالى القالى ٢ / ١٠٩ : « أنا أم بكر الضمرية ») قال : فما الذى أعجب كثير منك ــ وكانت إذ ذاك مسنة ــ قالت : كلا ياأمير المؤمنين ، فو الله لقد كنت فى عهده أحسن من النار فى الليلة القرّة ، وكانت بالمدينة ، ثم نزلت مصر ، فقصدها كثير ، فوافاها توفيت والناس منصرفون عن جنازتها ، فوقف على قبرها وقال :

أقول ونضوى واقف عند قبرها ... عليك سلام الله والعين تسفح
وقد كنت أبكى من فراقك حية ... فأنت لعمرى الآن أنأى وأنزح

انظر : أمالى القالى ٢ / ١٠٩ والأغانى ٨ / ٢٦ ومعاهد التنصيص ١ / ١٨٣ وعيون الأخبار ١ / ١٤٧

(٣) تزيين الأسواق ٣١

(٤) كذا قيل فى أمالى الزجاجى ٢٠ وذكرها فى بعض شعره .

هؤلاء هم المشهورون فى تاريخ الحركة العذرية الأدبية ، فى العصر الأموى ، ونتاجهم الشعرى هو أكثر ماوصل إلينا ، من الغزل العذرى ، فى هذا العصر .

ويعد جميل بن معمر أمير هؤلاء العذريين جميعا ، وإمامهم فى هذا الضرب من الغزل ، بهذا شهد النقاد ، والعلماء بالشعر ، من القدماء والمحدثين ، وأقوالهم فى هذا كثيرة .

من ذلك ، ماذكره أبو الفرج الأصفهانى ، رواية عن ابن سلام من أن جميلا مقدم على أصحاب النسيب [١] ، فى الإسلام ، ومن القدماء من قدمه على العذريين فى الجاهلية والإسلام ، وقال : « والله مالأحد منهم مثل هجائه ولا نسيبه » [٢] .

وكان كثيرٌ يقدمه على نفسه ، ويتخذه إماماً فى هذا الفن ، ويقول ، إذا سئل عنه : « وهل ــ علم الله عز وجل ــ ماتسمعون إلا منه » [٣] ، ويقول : « هل وطَّأ لنا النسيب إلا جميل » [٤] .

كذلك كان نُصيب يشهد لجميل بالتفوق فى النسيب ، ويصرح بالأخذ عنه ، « قائلا : ذاك إمام المحبين ، وهل هدى الله ــ عز وجل ــ لما ترى إلا بجميل [٥] » .

ولايشكك فى صدق شهادة هذين الشاعرين كونهما تلميذين لجميل ؛ ذلك أن جميلا كان ينتمى إلى مدرسة شعرية عرفت بجودة الفن ، وعلو الكعب فيه ، فقد كان راوية هُدْبة بن خشرم العذرى ، وهُدبة كان رواية الحطيئة ، والحطيئة راوية زهير بن أبى سُلمى وابنه كعب [٦] ، وزهير أحد ثلاثة هم أشعر أهل الجاهلية .

وبمثل هذا قال المحدثون عن جميل ، حيث عدوه أستاذاً للمدرسة العذرية كلها فى الإسلام [٧] .

---

(١) ابن سلام ٥٤٥ (المدنى) والأغانى ٧ / ٧٥

(٢) الأغانى ٧ / ٧٥

(٣) المصدر السابق ٧ / ٧٣

(٤) نفسه ٧ / ٧٦

(٥) نفسه ٧ / ٧٦

(٦) نفسه ٨ / ٧٣

(٧) انظر : تاريخ آداب اللغة (زيدان) ١/٢٢٥ ، ٢٢٧ ، وتاريخ الشعر العربى (البهبيتى) ١٦٥

ـ ٤ ـ

أهم اتجاهات الغزل العذرى فى العصر الأموى :

أبرز مايعالجه الغزل العذرى فى العصر الأموى ، ويعبر عنه مايلى :

١ـ شكوى الحرمان مع غلبة الهوى :

ليس من شك فى أن كل شاعر من هؤلاء العذريين كان يطمح أن تبلغ علاقته بصاحبته غايتها المشروعة التى يقرها الدين والمجتمع ، غير أنه لسبب أو لآخر يقف المجتمع فى وجه هذه العلاقة ، فيفرش طريقها بالشوك ، ويقيم فيه الحواجز والسدود ، ويغدو الشاعر العاشق طريد الأهل أو الزوج ، مهددا منهم ، أو من السلطة الحاكمة معهم ، محجوزا عن رؤية صاحبته ، متربِّصاً به إن حاول .

ولم يكن الشاعر ـ عادة ـ ليرزدجر بالتهديد ، أو يعترف بما أقامه المجتمع فى طريقه من موانع وعقبات اجتماعية شديدة الصرامة ؛ ذلك أنه ليس عاشقا فقط ، ولكنه شاعر أيضا ،يرى فى علاقته الغرامية مصدر وحى وإلهام لشاعريته ، فلا يقعد عن محاولة الاتصال بملهمته ، وكلما أخفق أمده الحرمان بوقود متجدد لعواطفه ، فتلتهب وتتلظى ، ومن هنا تقوم بين العاشق والمجتمع خصومة ، تدور على المواجهة والتحدى ، يسلك فيها المجتمع سبيل التهديد بالقوة ، أو بالسلطة ، أو بهما معا، ويحتمى فيها الشاعر بالشعر ، يبث فيه حرقة الوجد ، وشقاء الحرمان ، وشبوبية الهوى .

وقد يتجه الشاعر بشكواه إلى صاحبته ، فيضع بين يديها أمر سعادته وشقائه ، ويشكو إليها بثه وحزنه ، علها تعينه على مابتلى به من عشق ، فتجود بالوصل .

كذا فعل جميل ، ولكن بثينة ضنينة بوصالها ، مما أسقم جسمه ، وأثار شفقة العدو والصديق عليه ، حين يراه على هذه الحال ، بل إنه ليثير شفقة الحمام فيبكى لبكائه ، ومع ذلك لايزيده الحرمان من وصلها ، والبعد عنها إلا وجدا بها ، وشوقا إلى رؤيتها ، وهو يتحسر على أيام عمره التى تمضى ، وقد تفاجئه المنية ، قبل أن ينعم بقربها (١) :

---

(١) ديوانه ٢٢٠ والأغانى ٧ / ٩ وتنسب للمجنون فى ديوانه ٢٩٥ وتزيين الأسواق ٦٩

وأنت التى إن شئتِ كدَّرت عيشتى ... وإن شئت بعد الله أنعمتِ باليا
وأنت التى مامن صديق ولا عِداً ... يرى نِضْو ماأبقيت إلا رثى ليا
ومازلتمُ يابَثْنُ حتى لَوَ انَّنى ... من الشوق أستبكى الحمام بكى ليا
ومازادنى النأْى المفرِّق بعدكم ... سُلُوًّا ولاطولُ التلاقى تقاليا
ألم تعلمى ياعذبة الريق أننى ... أظلُّ إذا لم ألق وجهك صاديا
وقد خفتُ أن ألقى المنيةَ بغتةً ... وفى النفس حاجات إليك كما هى

ونلاحظ هذه الإشارات السريعة ، التى تجعل من عفة هذا الغزل موضع نظر ، لما شابها جميل من رغبة تنم عنها هذه الإشارات : « ياعذبة الريق » و « فى النفس حاجات » .

كما نلاحظ المعنى الدينى فى البيت الأول « إن شئت بعد الله » ،وهذا التكرار الذى يؤكد إحساس الشاعر بالوفاء والدوام على العشق ، والذى يعتمد على تكرار ضمير المخاطبة (أنت) فى بداية البيتين الأولين .

وقد يبلغ ضيق العاشق بوطأة الحرمان الناشىء عن صرامة المواجهة الاجتماعية ، أن يتمنى أمنيات هى — على قسوتها وشذوذ بعضها — نوع من الهروب بالوهم من قسوة الواقع المحروم ، الذى يصعب احتماله .

من هذا قول جميل [١] :

ألا ليتنى أعمى أصم تقودنى ... بثينة لايخفى علىّ كلامُها

فهو يتمنى من فَرْط الإحساس بالحرمان ، لو كانت به هاتان العاهتان ، على أن تقوده بثينة ، اكتفاء بلذة الصحبة ، والشعور بأنها تحادثه ، وإن لم يسمع حديثها .

وهذا المعنى من عجيب ماعبر عنه فى مقام الدلالة على قسوة الحرمان ، واليأس من النوال ، ولعل هذا ماجعل سكينة بنت الحسين تقول لجميل : أفرضيت من نعيم الدنيا وزهرتها ، أن تكون أعمى أصم ، إلا أنه لايخفى عليك كلام بثينة ؟!

والرضا من المعشوقة بالقليل ، بل بأقل القليل ، ظاهرة واضحة فى أشعار العذريين

---

(١) الموشح ١٦٩ ، ٢٠٠ .

ففى ظل الحرمان يقنع جميل بكل ماتجود به بثينة ، مهما كان هينا ، مثيرا لشماته الوشاة ، فهو يقنع منها بالرفض الصريح للوصال ، وبالرفض المقنع ، وبالوعد الكاذب ، وبالنظرة الخاطفة ، وبالعام ينقضى لايرى فيه وجهها ، هو قانع بعشقها على كل حال ، وحسبه لذة الألم فى هذا العشق ، فهى التى تستمد منها موهبته الفنية زادها : [١] :

وإنى لأرضى من بثينة بالذى ... لَوَ ابْصره الواشى لقرّت بَلابلُه
بلا ، وبأن لاأستطيع ، وبالمنى ... وبالأمل المرجوّ قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى ... أواخره لانلتقى وأوائله

بل هو قانع بما هو دون ذلك بكثير ، أن يلتقى طرْفه وطرْ فها فى نظرة إلى السماء [٢] :

أقلب طرْفى فى السماء لعلها ... يوافق طرْفى طرْفَها حين تنظرُ

بمثل هذه المعانى استقر فى نفوس الناس الإحساس بعفة هذا الغزل ، بالمعنى المحدود للعفة ودلالتها على تجنب ماحرمه الدين فى العشق ، كما أن لها دلالة أخرى على ماهو من خصائص هذا الغزل العفيف ، وهى أن هذا العشق لايفسده ولايغيره الحرمان الدائم .

هكذا فعل الحرمان بجميل ، فلننظر ماذا فعل بإخوانه العاشقين العذريين ؟

أما كثيرٌ فإن الحرمان يقنعه بأدنى صور الوصل ، بمجرد أن تمر به عزة من بعيد ، دون أن تحادثه ، أو ترد على حديثه ، وهو مكتف بهذا ، قرير العين به ، فالذى يرضيها من هذا الوصل البخيل يرضيه ، إبقاء على مودتها ، وخوفا من أن تقطع مابينهما بالهجر التام : [٣]

يقرّ بعينى مايقرّ بعينها ... وأحسن شىءٍ مابه العين قرَّتِ
كأنى أنادى صخرة حين أعرضتْ ... من الصمّ لو تمشى بها العُصْمُ زلَّتِ
صفوحاً فما تلقاك إلا بخيلة ... فَمَنْ مَلَّ منها ذلك الوصل مَلّتِ

---

(١) ديوانه ٦٨ والتذكرة السعدية ٥٤٨ . البلابل : الهواجس والوساوس .
(٢) ديوان المعانى ١ / ٢٦٧
(٣) الموشح ١٥٩ وخزانة الأدب ٢ / ٣٨٢ (بولاق) .

وتوبة بن الحميِّر [١] كسابقيْه ، لاينال الحرمان من تمسكه بعشق ليلى الأخيلية ، على الرغم مما أثاره هذا العشق من عداء قومها ، وكثرة الوشاة بينهما ، بل على الرغم من أنه حرم حتى من مجرد الاستماع إلى حديثها العذب ، فهو قانع بلذة المعاناة التى تثير بكاءه وشعره [٢] :

تَمَسَّكْ بحبل الأخيلية واطّرح عدا الناس فيها والوُشاة الأدانيا
فإن تمنعوا ليلى وحسنَ حديثها فلن تمنعوا منى البُكا والقوافيا

ويلاحظ أن توبة هنا يتحدث عن الوشاة ، كما تحدث جميل عنهم من قبل (لو ابصره الواشى) والحديث عن الوشاة والرقباء مستفيض فى غزل العذريين ، والشكوى من تعقبهم للعشاق فى كل مكان ، إنما هى صورة من موقف المجتمع الصارم من علاقتهم غير المشروعة بصاحباتهم .

والمعاناة من هذا الحرمان ، عنصر من عناصر التجربة العذرية فى الغزل ، يحاول العذريون مداراتها عن الناس حينا ، ويبثونها فى أشعارهم حينا آخر .

فهذا توبة بن الحمير يغلبه الوجد ، ويبرح به الألم ، حتى تظهر دلائل السقم على وجهه فى ذبول عينيه ، واعتلال بدنه ، ولكنه مع ذلك يحاول جاهداً أن يخفى مابه ، إذا ماسأله سائل عن حاله ، بإظهار طيب الحياة ؛ ذلك أنه محسود على مجرد صلته بليلاه ، وإن جهل الناس أنه لم يفز يوما بوصلها ، ومع ذلك فهو راض قانع بمجرد أن يُذكر بها [٣] :

إذا الناس قالوا : كيف أنت وقد بدا ضمير الذى بى قلت : صالِحُ
وأُغبَطُ من ليلى بما لا أناله ألا كل ماقرّتْ به العين طائح

---

(١) هو من بنى خفاجة ، وهم بطن من بنى عُقيل بن كعب ، ثم من بنى عامر بن صعصعة ، كان شريرا كثير الغارة ، وزعموا أنه كان لصا ، ونفت عنه ليلى صاحبته هذه التهمة فى شعر لها بديوانها (ص ٩٧) ، وشهر بحب ليلى الأخيلية ، وشهرت به ، عاش أيام الراشدين ، لكنه لم يعرف بالغزل إلا فى العصر الأموى ، وقتل فى صراع قبلى ، فى خلافة معاوية ، على يد بنى عوف بن عامر بن عقيل سنة ٧٠ أو ٧١ هـ ، وماتت ليلاه سنة ١٠١ هـ فى طريقها إلى قتيبة ابن مسلم الباهلى ودفنت بقومس ، وقيل بحلوان . انظر : الأمالى ١ / ٩٠ وأمالى الزجاجى ٥٠ والشعر والشعراء ١٦٩ والأغانى ١٠ / ٦٣ وسمط اللآلى ١ / ١٢٠ ، ٢ / ٢٥٧ وتزيين الأسواق ٩٦ والاشتقاق ٢٩٩

(٢) ديوانه ٥١

(٣) ديوانه ٤٩ وتزيين الأسواق ٩٨ ومصارع العشاق ١٨٦

ومن هذا الباب قوله [١] :

وبى من هوى ليلى هَوًى لو أَبثُّه ... ولو كان أَعْدَى الناس لى كان ينصحُ
هوًى لم تغيره الحروب ولم يزلْ ... على عهد ليلى أو يزيد فَيَربَحُ

إنه مقيم على عهدها ، شديدة المعاناة من وجده بها ، بحيث لو بث هذا الوجد إلى عدوّ لرق لحاله ، ونصح له بمحاولة السلوان ، ولكن هيهات !! فالحروب الكثيرة التى خاض غمارها ، لم تستطع ـــ على أهوالها ـــ أن تنقص من هذا الوجد ، وإنما هو يزداد مع الأيام رسوخا ، وهكذا العشق ، كما حددناه من قبل ، يزداد حِدَّةً بمرور الزمن ، وتوالى الحرمان .

ألم يقل أبو صخر الهذلى هو الآخر : [٢] :

فلم أر مثلى أَيْأَسَتْ بعد علمها ... بودى ولامثلى على اليأس يطلبُ

ويستبد إحساس أبى صخر بالحرمان ، الذى طال ، وقسوة الهجر ، وقد بلغ المدى ، حينما يرى أليفين من الوحش مصطحبان لايفترقان ، فهما يمرحان آمنين ، وهو مع هذا الإحساس ، وعلى الرغم من هذه المعاناة ، التى أسلمته إلى اليأس من الوصل ، لايريد لعشق ليلى (وهى بنت سعد وتكنى أم حكيم) أن يخبو شعاعه ، فليزدد هذا العشق فى قلبه يوما بعد يوم ، وليلة إثر أخرى ، حتى يلقاها يوم الحشر على عشقه المكين [٣]:

أما والذى أبكى وأضحك والذى ... أمات وأحيا والذى أمرُه الأمر
لقد تركتنى أحسد الوحش أن أرى ... أليفين منها لايروعهما الذعر
فياهجر ليلى قد بلغت بِىَ المدى ... وزدت على مالم يكن بلغ الهجرُ
ويا حبها زدنى جوىً كل ليلة ... ويا سَلْوة الأيام موعدك الحشر

ولاتحسب أبا صخر ، وهو يحسد الوحش ، إلا متمنيا أن لو كان مثله ، ليهرب بصاحبته من الواقع الأليم ، وهى أمنية ، تواكب أمنية جميل السابقة أن يكون أعمى أصم تقوده بثينه ، وللسبب نفسه الذى ذكرناه هناك .

(١) ديوانه ٥٦
(٢) الأغانى ٢١ / ٩٧
(٣) عيون الأخبار ٤ / ١٣٨ وأمالى المرتضى ١ / ١٤٩ والتذكرة السعدية ٤٣٨

وأسلوب النداء المتكرر هنا ، كأسلوب تكرار الضمير (أنتِ) فى شعر جميل السابق ، من حيث دلالتهما على الإحساس العميق بالمعاناة ، مع الإصرار على الوفاء ، ودوام العشق .

وإذا كانت هذه الرغبة فى الهروب من مواجهة المجتمع ومعاناة الحرمان ، مقبولة ــ على قسوتها ــ إلى حد ما ــ فإن أمنية كثيرٍ أبعد قسوة ، وأشد شذوذا ، وأمعن فى الدلالة على المعاناة :

ألا ليتنا ياعزُّ كنا لِذِى غِنىً   بعيريْن نرعى فى الخلاء ونعزُبُ
كلانا به عُرٌّ فمن يرنا يقل: على حسنها جَرْبَاءُ تُعدى وأجرب
إذا ماوردنا مَنْهلاً صاح أهله   علينا فما ننفك نُرمى ونُضربُ

وهل أدل على وطأة الحرمان ، وشدة الإحساس به ، وبالضيق من عالم الرقباء والوشاة ، وترصد الأهل ، من هذه الصورة ، التى يرفض فيها الشاعر كل صورة من صور الحياة فى المجتمع الإنسانى ، ويفضل أن يكون بعيرا أجرب ، وصاحبته ناقة جرباء ، يفر الناس منهما ، ويزجرانهما بعيدا عنهم ، فيظل وإياها منفردين فى عالم الحيوان ، آنسين به ، بعيدا عن عالم الإنسان !!

وعند قيس بن ذُرَيْح [١] ماعند أصحابه السابقين ، فهو يعانى معاناتهم من الحرمان ، وهو راض بهذه المعاناة ، قانع بالحِرمان ، وإذا كان جميل يكفيه أن تصادف

---

(١) قيس بن ذُريح الكنانى ، من بنى ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، أخو الحسين بن على (ض) من الرضاع ، أرضعت أمه الحسين ، وكانت منازل قومه بظاهر المدينة ، وبها توفى سنة ٨٦ ، ولبنى صاحبته بنت الحباب ، من بنى كعب بن خزاعة ، وكانت تحته ثم طلقها بأمر أبيه ، أو أمه ، ثم ندم ، وقال :

وفارقت لبنى ضلة فكأننى   قُرِنت إلى العيوق ثم هَوِيتُ
فياليت أنى مت قبل فراقها   وهل يُرجِعنْ قولَ المفرِّط ليتُ ...

واختلف فى آخر أمرهما ، فقيل ــ وهو الأكثر ــ ماتا على افتراقهما ، وقد سبقته إلى الموت ، فبكاها على قبرها فى شعرله ، ثم أغمى عليه ، فمات بعد ثلاث ، ودفن إلى جنبها ، وقيل : إن ابن أبى عتيق توسط عند زوجها فطلقها ، وتزوجها قيس . فذلك قوله :

جزى الرحمن أفضل مايجازى   على الإحسان خيرا من صديق
فقد جربت إخوانى جميعا   فما ألفيت كابن أبى عتيق
سعى فى جمع شملى بعد صدع   ورأى جُرتُ فيه عن طريق ...

فقال له ابن أبى عتيق : أمسك عن هذا ، فما يسمعه أحد إلا ظننى قواداً !!

انظر : تزيين الأسواق ٤٩ وسمط اللآلى ٢ / ٧١١ ، ١ / ٣٧٩ والأغانى ٨ / ١٠٧ ومجالس ثعلب ٢٨٥ والشعر والشعراء ٢٣٩ والمؤتلف ١٢٠

نظرته إلى السماء نظرة بثنية إليها ، فيلتقى طَرْفاهما فى الكون الفسيح ، بعيدا عن الأعين ، فإن قيس بن ذريح ، يرضيه ماأرضى جميل ، بل أقل مما أرضى جميل ، أن يضمه ولبنى الكون الفسيح ، ليلا ونهارا ، فهما يستظلان بسماء واحدة ، ويلفهما ليل واحد ، ويرقبان معا ضوء فجر واحد ، ويتنسمان معا هواء واحداً ، ويشاهدان شمسا واحدة ساعة الغروب ، وهكذا تتسع تجربة الشاعر ، وترحب مشاعره ، وينفسح خياله ، اتساع الكون كله ورحابته وانفساحه ، بأرضه وسمائه : (١)

أليستْ لُبينى تحت سقفٍ يُكنّها ... وإياى ، هذا إن نأتْ لى نافع

ويَلبسنا الليل البهيم إذا دجا ... ونبصر ضوء الفجر والفجر ساطع

تطأ تحت رجيلها بساطا وبعضه ... أَطَأْه برجلى ليس يطويه مانع

ويقول: (٢)

وإن تكُ لُبنى قد أتى دون قربها ... حجابٌ منيع ماإليه سبيلُ

فإنّ نسيمَ الجوّ يجمع بيننا ... ونبصرُ قرْن الشمس حين تزول

وتجمعنا الأرض القرار وفوقنا ... سماء نرى فيها النجوم تجول

ويأتى نُصيب بن رباح ، فيضيف إلى تجربة الحرمان بعداً آخر يؤكد به ، ثبات هؤلاء العذريين على عشقهم ، وإخلاصهم فيه ، حتى وإن أساءت المعشوقة ، وملت ، وهجرت ، وتعللت باختلاق الذنب ، وبالغت فى كل ذلك ، حتى كأنما صارت حربا على صاحبها (٣):

بزينب أَلمِمْ قبل أن يرحل الركبُ ... وقل إن تملّينا فما مَلّك القلب

وقل إن قربَ الدار يطلبه العِدَى ... قديما ونأى الدار يطلبه القربُ

وقل إن أنل بالحب منك مودةً ... فما فوق مالاقيت من حبكم حُبّ

وقل فى تجنيها لكَ الذَّنب إنما ... عتابُكِ من عاتبتِ فيما له ذنب

وقل لها ياأمّ عثمان خُلتّى ... أَسِلْمٌ لنا فى حبنا أنتِ أم حرب؟!

* * *

(١) سمط اللآلى ١ / ٦١٨ وأمالى القالى ٢ / ٣١٩ بساطاً : عنى به الأرض .

(٢) تزيين الأسواق ٤٧

(٣) الموشح ١٦٤ وأمالى القالى ٢ / ١٩٩

وهكذا تتشابه تجارب الحرمان فى شعر هؤلاء العذريين جميعا ، فكلهم مكتوٍ بناره ، وكلهم راض من صاحبته بأقل القليل ، أو بلاشىء ، وكلهم ثابت على عشقه لايهدد بمقابلة الهجر بمثله ، كما رأينا فى بعض شعر الحسيين.

كما تتشابه أساليبهم المعبرة عن هذا كله حتى فى ظاهرة التكرار لبعض الكلمات فى أوائل الأبيات ، كتكرار فعل الأمر (قل) فى شعر نُصَيْب السابق ، وتكرار ضمير المخاطب (أنتِ) عند جميل وأداة النداء (يا) عند أبى صخر الهذلى ، وهذا مما جعل الرواة يخلطون فى نسبة أشعار بعضهم إلى بعض فينسب شعر جميل للمجنون ، أو شعر المجنون لجميل ويروى فى ديوانيهما ، وكذا يخلطون بين شعر المجنون وشعر قيس بن ذريح ، وأمثال هذا كثير فى المصادر التى روت أشعار هؤلاء العذريين .

٢ـ تمرُّد القلب على محاولة السُّلْوى :

من الطبيعى أن تحدث الشاعر العذرى نفسه بمحاولة الخلاص من ألم العشق المحروم ، العنيف ، الحار ، الذى لايبرده وصل أو أمل فى وصل وربما نزعت إرادته العاقلة إلى الرغبة فى السلُوّ ؛ إراحة لقلبه المعذب ، وتخلصا من لذعة الحرمان ، ولكنه ماإن يشاور قلبه حتى يتمرد هذا القلب عليه ، ويخرج عن طوع عقله وإرادته ، ويحيل أملهما فى النسيان والسلوى إلى سراب ، فإذا بالشاعر قد فقد سلطانه على قلبه وإذا بهذا القلب يندفع فى تيار العشق غير مستجيب لنزوع إرادة ، أو منطق عقل .

شاع هذا فى دنيا العشاق ، وغدا معلما من معالم العشق فى غزلهم العفيف ، وفى هذا يقول الخليفة هارون الرشيد :[1] « قلب العاشق عليه مع معشوقه » ، ويقول عروة بن حزام [2] :

ويُضمر قلبى عُذْرَها ويُعينها　　علىّ فمالى فى الفؤاد نصيب

ويقدم جميل صورة من نزوع نفسه إلى التعزى ، وقد يئس من تحسس الطريق إلى قلب بثنية ، أو فلنقل : أمضه الحرمان ، فتطلعت نفسه إلى السلوى ، والتفت إلى قلبه فى مناجاة متوسلة ، ومناقشة يستعين فيها بالعقل والمنطق ، محاولا صرفه عن عشق صاحبته

---

(١) ديوان المعانى ١ / ٢٨١

(٢) أمالى المرتضى ١ / ٤٥٩

ولكن يبدو أن التفاهم بين عقله وقلبه كان معدوما ، وسلطان فكره على وجدانه كان مفقودا ، فلم يُجْده منطق ، ولم ينفعه تعقلّ [١] :

ألا مَنْ لقـلبٍ لايملُّ فيذْهَـل أفـق فالتعزِّى عن بثينـة أجمل

سلا كلُّ ذى وُدٍّ علمتُ مكانَه وأنت بها حتى الممات مُوكَّـل

فيا قلب دعْ ذكرى بثينة إنها وإن كنتَ تهواها تضنُّ وتبخل

وقد أيأستْ من نَيْلها وتجهّمت ولليأسُ إن لم يُقدَرَ النَّيل أمثل

وكيف ترجِّى وصلها بعد بُعدها وقد جُذَّ حبلُ الوصل ممن تؤمل

وإن التى أحببت قد حيل دونها فكن حازماً والحازم المتحوِّل

هبينى بريئا نلِتِه بُظلامةٍ عفاها لكم أو مُذْنباً يتنصَّلُ

وهكذا يمضى جميل فى معالجة قلبه ؛ ليبرأ من هذا العشق اليائس ، ولكنه لايجد فى النهاية أية استجابة من قلبه ، لما يريد حمله عليه ، فهو لايطاوعه ، ولاينقاد لإرادته ، فليس له ، والحال هذه ، من سبيل إلا العودة إلى ثبينة يستعطفها ، ويتوسل إليها ، علَّها ترحم هذا القلب المعذب ، والنفس المغلوبة على أمرها .

ولقد يهم جميل بالسلوى ، ويعقد العزم على النسيان ، ويحشد إرادته للمضى فى هذه السبيل ، فما إن يضع قدمه على الطريق حتى يرده قلبه ، ويثنيه عن عزمه ، ويوهى عزيمته [٢] :

أهُمّ بسلوى عنك ثم تردُّنى وتُثنينى عليك العواطفُ

ويصرخ قيس بن ذُرَيْح على قلبه : ويحك !! تماسك ، واصطبر ، فقد رحلت لُبْنى ، ومامن سبيل إلى وصلها ، مهما علا وجيبك ، وطالما عشت بالقرب منها ، لكن لم يكن من الفراق بدّ ، فهذه سنة الحياة ، لاتجمع إلا لتفرق ، وكم فرقت بين قلوب قبلنا [٣] :

كأنِّىَ والـهٌ بفراق لُبنى تهيم بفقْد واحِدها ثكُولُ

ألا ياقلبُ ويحك كنْ جليداً فقد رحلت وفات بها الذَّميلُ

---

(١) ديوانه ١٥٩

(٢) ديوانه ١٣٢

(٣) الأغانى ٨ / ١١١ . الذميل : السير الليّن .

فإنك لاتطيق رجوعَ لبنى إذا رحلت وإن كثُر العويل
وكمْ قد عشتَ كمْ بالقربْ منها ولكنّ الفراق هو السبيل
فصبراً كلُّ مؤْتلفيْن يوماً من الأيام عيشهما يزول

وله فى ذلك [١] :

إذا أمرتْنى العاذلات بهجرها أبت كبد من قولهنّ صديع
وكيف أطيع العاذلات وحبّها يؤرقنى والعاذلات هجوع

لقد تشابه قلب قيس وقلب جميل فى التمرد على إرادة التسلى ،والتحول عن عشقهما المؤرق ، فتشابهت معانيهما ، فى المناجاة ، ومحاولة إقناع القلب بالانقياد لنزوع النفس والإرادة ، كما تشابه أسلوبهما فى التعبير والأداء ، من حيث الاعتماد على أساليب : النداء (فيا قلب ــ ياقلب) والاستفهام : (ألا من لقلب ــ وكيف ترجى ــ وكيف أطيع ــ وكم قد عشت) والأمر : (أفق ــ دع ــ كن حازما ــ كن جليدا ــ فصبراً) .

ولكثيرٍ مثل هذه التجارب مع قلبه ، الذى لم يكن أقل تمردا على السلوان من قلب جميل أو قلب قيس بن ذريح ، فقدنا زعته نفسه مثلهما إلى السلوى ، ووقف قلبه عقبة فى سبيلها ؛ لأن عشق عزّة قد تمكن فى قلبه ، وعلق به ، وقاد زمامه ، فوقع فى أسره ،وهيهات الفكاك ، والنتيجة : الحرمان من نعمة الصبر والسلوان [٢] :

ولقد أردتُ الصبرَ عنْك فعاقنى عَلَقٌ بقلبى من هواك قديمُ

وهو كزميليه السابقين طالما حاول حمل قلبه على هجر عزة ؛ لأنها لم توف له يوما بوعد ، ولم تجد أبدا بوصل ، فيأبى عليه قلبه ، ويرى الموت دون هذا الهجر : [٣]

قضى كلُّ ذى دَيْنٍ فوفَّى غريمَه وعزةُ ممطولٌ مُعَنًّى غريمُها
إذا سمتُ نفسى هجرها واجتنابها رأتْ غمراتِ الموتِ فيما أسومُها

ولانرى كثيرًا يختلف عن إخوانه العاشقين العذريين ، فيما عبر عنه ، فى المبحث

---

(١) سمط اللآلى ١ / ١٣٣ وديوان المعانى ١ / ٢٧٤

(٢) ديوانه ٢٠٦ وديوان الصبابة ١٧

(٣) ديوانه ١٤٣ وانظر : التذكرة السعدية ٥٣٦ . ممطول : يقابل بالتسويف . معنى : معذب . غمرات الموت : شدته .

السابق ، من لواعج الشوق ، وعذاب الحرمان ، والصبر عليه ، وتمنى الهروب بعزة من وجه المجتمع ، الذى يتحدى علاقتهما ، ويحاربها ، فالمعانى متشابهة ، وأسلوب المعالجة متشابه ، وكذا نراه هنا ، وفى كل باب طرقه معبرا عن قصتة مع صاحبته ، لايكاد يختلف فى كل ذلك ، ولايخرج بتجاربه عن أطر تجاربهم .

ومع هذا يشكك القدماء فى صدق تجارب كثير ، ويرمونه بالافتعال ، وقد ينسبون إليه شعرا يؤيدون به ذلك الشك ، وهذا الافتعال ، فيرون له : [١]

هل وصل عزّة إلا وصل غانيـةٍ ... فى وصل غانيةٍ من وصلها خلفُ

ويشفعون هذا بروايات تتهمه بالكذب والإدعاء فى العشق ، فيذكرون أن عبد الملك بن مروان قال له : احلف لتصدقنى فيما أسألك عنه ، ففعل ، فقال : اخْتَرْ بين أن أزوجك عزة ، أو أعطيك ألف دينار ، قال كثير : بل الألف دينار [٢].

ويبدو أن هذا الطعن على صدق صبابة كثير قد ذاع ،وتأثر به الرواة والنقاد بعد عصره ، فأقروا سابقيهم على ماارتأوا فيه ، فأبو هلال العسكرى يقرر « كان جميل يصدق فى حبه ، وكثير يكذب [٣] » .

ومن قبله عقد أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه الأغانى فصلا عنوانه : « من ذكر أن كثيرا كان يكذب فى عشقه [٤] » ، جمع فيه ماقاله سابقوه ، وما رووه فى الحكم على التجربة الغزلية عند كثير ، فليراجعه من شاء .

ونحن لانملك إلا أن نتوقف أمام هذه الروايات والأخبار ، التى روى بعضها عن معاصرين لكثير ، ولكننا نشير إلى روايات أخرى ، قد تلقى بعض الضوء على مدى صواب هذه الأخبار والروايات الطاعنة على كثير .

من ذلك مايرويه أبو الفرج نفسه وابن سلام أن أهل الحجاز يقدمونه [٥] ،

---

(١) عيون الأخبار ٢ / ٢٩ ومصارع العشاق ٥٤

(٢) سمط اللآلى ١ / ١٣٧ ومصارع العشاق ٥٤

(٣) دويوان المعانى ١ / ٢٦٨

(٤) ٨ / ٣٨ وانظر ابن سلام ٥٤٥ (المدنى)

(٥) الأغانى ٨ / ٣٨ وابن سلام ٥٣٤ ، ٥٤٠

ومايذكره ابن سلام من أنه شاعر فحل ، ولكنه منقوصٌ حظُّه بالعراق [١] ، والملاحظ أن أكثر الروايات والأخبار التى تقول بكذبه فى العشق عراقية !!

وروى يونس بن حبيب عن ابن أبى اسحاق قوله : « كان كثيرٌ أشعر أهل الإسلام » [٢] .

وقد نضيف إلى ذلك ، أن كثيرا كان على مذهب الشيعة الكيسانية ، الذين يغلون فى محمد بن الحنفية — كما مر — فربما كان لمذهبه أثر فى طعن من طعن فى صدق نسيبه .

فإذا احتكمنا إلى تجاربه الغزلية ، التى بين أيدينا ، فكما قلنا ، لانجد فيها بعامة ، مايجعلنا ننساق لهذه الأخبار والروايات ، فهى ، من الناحية الفنية ، تدور فى فلك تجارب غيره ، من شعراء الغزل العذرى ، فى بيئة وعصره ، وتعبر عن معان هى من جملة معانيهم غالبا ، وتصطنع أساليب فى الأداء ، لاتختلف كثيرا عن أساليبهم المتشابهة فى أشعارهم .

ولمجنون ليلى [٣]عتاب على قلبه ، يدعوه إلى ترك الهيام بليلى ، والاعتصام بالإفاقة واليأس ، ففى اليأس راحة ، وإلا فلن يجد هذا القلب من يواسيه ؛ حيث قد سلا العشاق ، وقَدْ آن له بعد هذا الأمد الطويل من عذاب العشق أن يتسلَى ،ويسلو [٤] :

ألا أيها القلب الذى لج هائماً ... بليلى وليدا لم تُقطّع تمائمه
أفق، قد أفاق العاشقون ، وقد أبى ... لما بك أن تلقى طبيبا تلائمه
فما لك مسلوب العزاء كأنما ... ترى نأْى ليلى مَغْرَماً أنت غارمه

---

(١) ابن سلام ٥٤٠ (المدنى) .

(٢) المصدر السابق

(٣) اختلف فى اسمه واسم أبيه على أقوال كثيرة ، قيل : والصواب أنه عامر بن الملوح (معاذ) بن مزاحم من كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، فهو عامرى النسب ؛ ولذا عرف بمجنون بنى عامر ، شاعر متيم ، سقط شهيد العشق ، بعد أن أصيب بالهزال ، وتغير اللون والجنون ، قال أبو عبيدة : تزايد الأمر به حتى فقد عقله ، وكان لايقر فى موضع ، ولا يأنس برجل ، ولايعلوه ثوب إلا مزقه ، وصار لايفهم شيئا مما يكلم به ، إلا أن تذكر له ليلى ، فإذا ذكرت أتى بالبدائه ، ورجع عقله (مصارع العشاق ٢٣٧) ، ووجد بين أحجار بالبادية ميتا . وصاحبته ليلى بنت مهدى بن سعد ، يتصل نسبهما فى كعب بن ربيعة ، فهى عامرية أيضا ، وكنيتها أم مالك ، قيل توفيت قبله . وحياته وقصة حبه وشعره موضع خلاف كثير ، قيل : توفى سنة ٧٠ هـ ، انظر : الأغانى ١ / ١٦١ ، ٢ / ٢ ، وسمط اللآلى ١ / ٣٥٠ ، وتزيين الأسواق ٥٢ ومصارع العشاق ٢٣٦ ، ٢٥٩ .

(٤) تزيين الأسواق ٥٧

أجَدِّك لاينسيك ليلى مُلمَّةٌ تُلِمُّ ،ولاينسيك عهداً تقادُمه ؟!

ونلتفت إلى قوله : « ألا أيها القلب » وقوله : « أفق » والاستفهام فى البيت الأخير ، لندرك المشابهة بينه وبين زملائه العذريين فى هذه الأساليب ، التى أبرزناها عند غيره ، أما معانيه ، فهى تدور حول النزوع إلى السلوان ، والعجز عنه ، لأن العشق مكين ، والقلب متمرد ، لايستجيب لعقل أو إرادة ، وهى المعانى التى رأيناها عند سابقيه ، ونراها عند الآخرين .

ومادام قلب المجنون لم يطاوعه ، فقد غدا على يقين من أمر هذا القلب ، ولم يعد يحاول حتى مجرد التفكير فى صرفه عن ليلاه ، لعقم هذه المحاولة ، مادام عشقها ناشبا فى قلبه ، شديد التمكن منه، مهما زجر عنه ، فلن ينزجر [(١)] :

وقالوا : لوتشاء سلوتَ عنها فقلت لهم : فإنى لاأشاء
وكيف وحبها عَلِقٌ بقلبى كما علقت بأرشيةٍ دلاءُ
لها حبٌّ تنشَّأَ فى فؤادى فليس له ـ وإن زجر ـ انتهاءُ
وعاذلة تقطعنى ملاماً وفى زجر العواذل لى بلاءُ

فقد اجتمع عليه بلاء العشق ، وبلاء العذل ، والشكوى من العذال والوشاة والرقباء ، من الظواهر المميزة فى غزل العذريين ، وقد لاحظناها فى نماذج سابقة لغير المجنون .

وتوْبة بن الحميّر يصرح كذلك بأن قلبه عصاه حين أراد صرفه عن حب ليلى الأخيلية ، ويتمنى لوكان أطاعه ، إذن لاستراح من عذاب الهوى ، ولوم اللائمين [(٢)] :

يلومُكَ فيها اللائمون نصاحةً فليت الهوى باللائمين مكانيا
لَوَ انَّ الهوى عن حب ليلى أطاعنى أطعتُ ولكن الهوى قد عصانيا

ويشارك أبو صخر الهذلى فى هذا الاتجاه الغزل فى شعر العذريين ، فمن تجاربه أنه كثيرا ماحاول أن يفك أسار قلبه من ربقة الهوى ، فيمضى إلى صاحبته ليعلنها بأنه اعتزم

---

(١) ديوانه ٤٢ . الأرْشية : جمع رشاء ، وهو الحبل .

(٢) ديوانه ٥٣

هجرها ، وسلّ هواها من بين أضلعه ، فما إن يراها حتى يخر قلبه صريع العشق ، وتنتابه أعراضه ، فيهتز كيانه كله بجذبة الوجد ، ويبهت ، فينسى ماكان قد اعتزم من الصرم ، ولا يباديها بلوم ، أو عتاب ، خشية أن تحرمه رؤياها ، وتقطع واهى حبل وصالها ، ولئن فعلت ، فيالسوء العاقبة : [١]

لقد كنتُ آتيها وفى النفس هجرُها — بتاتاً لأُخرى الدهر ماطلع الفجر
فما هو إلا أن أراها فجاءة — فأبهت لاعُرْفٌ لدى ولا نُكْر
وأنسى الذى قد كنت فيه هجرتها — كما قد تُنَسِّى لُبَّ شاربها الخمرُ
ويمنعنى من بعض إنكار ظلمها — إذا ظلمت يوماً وإن كان لى عُذْر
مخافةَ أنى قد علمت لئن بدا — لِيَ الهجر فيها ماعلى هجرها صبر
وإنِّىَ لاأدرى إذا النفس أشرفت — على هجرها مايبلغنَّ بىَ الهجر

هذا هو النمط العام فى تجارب هؤلاء الشعراء العذريين ، يبدأ باتجاه إرادة الشاعر ، ونزوع نفسه إلى السلوى ، أملا فى الخلاص من بلاء الحرمان ، وينتهى بتأبى قلبه ، وانسياقه فى هواه ، وبين البداية والنهاية ، تتلون معانى هؤلاء الشعراء ، وتختلف بعض صورها ، ولكنها تظل — عادة — دائرة فى فلك هذا الإطار ، لاتكاد تتجاوزه .

غير أن قيس بن ذريح يحاول الخروج من رتابة التجربة ، بإحداث بعض التحوير فى إطارها العام ، فقلبه هو الذى يبدى الصبر والتجلد ، موهما صاحبه بالقدرة على السلوان ، حتى إذا ماانقادت نفسه لهذا الوهم ، بان له أن هذا القلب قد خدعه وغواه وعاد فانهار لوعة وصبابة ، يذيق قيسا مرارة الوجد والحرمان ، فينحو عليه الشاعر باللائمة ، وينذره بالموت كمداً ، أو العيش مُعَنىً ، لأنه لن يطيق وطأة الحرمان [٢]:

أحدثتنى ياقلب أنك صابر — على الهجر من لبنى فسوفَ تذوق ؟!
أطعتَ وشاةً لم يكن لك فيهمُ — خليلٌ ولا دان عليك شفيق
فمت كمداً أو عِشْ مُعَنًّى فإنما — تحملنى مالا أراك تطيق

---

(١) أمالى القالى ١ / ١٤٩ وانظر : تزيين الأسواق ٩

(٢) التذكرة السعدية ٥٢٤ والبيت الأول والثالث مرويان لمضرِّس بن الحارث المزنى فى ضمن قصيدة طويلة ، فى أمالى القالى ٢ / ٦٣

ومع ذلك فقلب الشاعر فى النهاية هو المتمرد على السلوى ، والشاعر يلقى عليه مسئولية هذا التمرد ، فعاد الشاعر بذلك ليشارك إخوانه العذريين فى هذا الاتجاه .

٣ـ صدق الصبابة فى العشق :

لايفتأ الشعراء العذريون يرددون التعبير عن صبابتهم ووجدهم بمن يتعشقونهم ، يقلبون فيه المعانى ، ويفتنون فى الصور ، ثم يتعاورونها ، فتصير حقلا مشاعا بينهم ، تعينهم على ذلك المعاصرة ، أو قرب الزمن ، كما يساعدهم عليه ماعرف من رواية بعضهم لبعض ، أو تناشدهم أشعارهم فيما بينهم .

وهذا يفسر مانجده أحيانا ، من تكرار المعنى الواحد بعبارته تقريبا ، فى شعر الشاعر الواحد أو فى أشعار غير واحد منهم ، التى تصور صبابتهم ووجدهم فى العشق ، كالذى نراه فى قولهم :

ـ فإن يمنعُوا عينىّ منها فمنْ لهم   بقلبٍ له بين الضّلوع وَجيب !!
ـ فلن يمنعوا عينىَّ من دائم البُكا   ولن يخرجوا ماقد أجـنَّ ضميرى
ـ فإن تمنعوا ليْلى وحسن حديثها   فلن تمنعوا عنىِّ البُكـا والقوافيـا
ـ فما هو إلّا أن أراها فُجاءةً   فأُبهتُ حتـــى ماأكاد أُجـيـب
ـ فما هو إلا أن أراها فُجاءة   فأبهت لاعـرفٌ لدىّ ولا نُكْـرُ
ـ وإنى لتعـرونى لذكـراك هزة   لها بين جسمى والعظام دبـيـب
ـ وإنى لتعـرونى لذكـراك هزة   كما انتفض العصفور بللّه القطر

.....وغير ذلك كثير فى تجارب صباتهم .

وهذا التعاور للمعانى كان من العوامل التى جعلت أشعارهم تتشابه ، ويتداخل بعضها فى بعض ، حتى ليصعب أحيانا تحقيق نسبة بعض الأشعار إلى من قالها منهم ، هذا فضلا عن تشابه تجاربهم ، وأساليب التعبير عنها ، على النحو الذى ذكرناه من قبل .

ويشعر القارىء لصور تجارب العذريين فى الصبابة أنه بإزاء شعر تشيع فيه حرارة العاطفة ، وتشع منه الأشواق ، وتتجلى فيه خلجات النفس ، من فرحة باللقاء ، إلى ألم للفراق ، ومن أمل فى الوصل ، إلى يأس من النوال ، ومن إظهار التجلد والصبر ، إلى الخضوع التام ، والتسليم الحزين ... وهكذا .

ومن هنا طبعت أشعارهم بطابع حزين ، فهم لايتحدثون عن تجارب سعيدة فى العشق ، كما كان يفعل شعراء الغزل الحسى غالبا ، بل يتحدثون عما يحرق قلوبهم من لواعج الشوق ، وماقدر عليهم من حرمان ، ومايبعثه الحرمان من آلام وأحزان ، والحرمان يرسب العواطف ، ويمكن جذورها من النفس ، فتصدر هذه العواطف أكثر عمقا ، وأعنف انفعالا .

فلنقف مع جميل فى تجربة من تجاربه فى الصبابة (١) :

وماذكرتْك النفسُ يابَثْنُ مرةً ... من الدهر إلا كادت النفسُ تَتْلَفُ
وإلاّ عَرَتْني عبرةٌ واستكانةٌ ... وفاض لها جارٍ من الدمع يَذرِف
ومااستطرفت نفسى حديثا لخلةٍ ... أُسَرُّ به إلا حديثك أطرفُ
لعَمْرُكِ لاينفكّ حبُّك فاعلمى ... جَوًى لازمى مادامت العين تَطرِفُ

فالقراءة المتذوقة لهذا الشعر تهدى إلى مافيه من عمق العاطفة ، وصدق الصبابة ، إن مجرد ذكر بثنية يستدر دمع جميل ، بل يكاد يخنقه بهذا الدمع ، ولننظر كيف تستكين نفسه ، وتستسلم للبكاء كلما ذكرها ؟! وكيف تُجِّمل العاطفة الصادقة كل مايتصل بالحبيب ؟! فحديث بثينة عند جميل أشهى من كل حديث ، أما وفاؤه لها وهيامه فى عشقها فلن يتخلى عنهما إلا بالموت .

ودلائل هذا الإخلاص والوفاء والهيام كثيرة عند جميل ، منها مايقسم عليه ، من أن جلده لم يمس غير جلدها دون حائل !! ولاصافحت بشرته بشرة لغيرها ، ويدعو على نفسه بالعمى إن كان كاذبا ــ كما تمنى العمى والصمم من قبل ــ وكيف يكذب ، وهو الذى إن مات ورُقِىَ بكلامها لدبت فيه الحياة (٢) :

حلفتُ يمينا يابثينة صادقاً ... فإن كنت فيها كاذباً فعميتُ
إذا كان جلدٌ غير جلدك مسَّنى ... وباشرنى دون الشِّعار شريتُ
ولو أن راقى الموت يرقى جنازتى ... بمنطقها فى الناطقين حييتُ

وهو القائل (٣) :

---

(١) ديوانه ١٣٢ . الخلة : الصداقة .
(٢) الموشح ١٥٩ والتذكرة السعدية ٥٠٣
(٣) المصدران السابقان

خليليّ هل فيما عشتُما هل رأيتُما قتيلاً بكى من حب قاتله قبلى ؟!
وإن قربتْ لاينفع القرب عندها وإن بعُدتْ زادتك خَبْلاً على خَبْلِ

وتتوافر دلائل الصبابة عند جميل فى تجارب عديدة من أشعاره .

وإذا كنا قد رأينا جميلا يهيجه ذكر بثينة ، فإن أبا صخر الهذلى يحرك ذكر صاحبته أيضا كوامن العشق والصبابة فى قلبه ، ولكنه لاتعتريه الاستكانة التى تعترى جميل ، بل ينتفض جسمه كله وجدا وصبابة ، كانتفاض العصفور إذا بلّله القَطر : (١)

وإنى لتعـروني لذكـراك هزة كما انتفض العصفور بلّله القَطْرُ
صدقت ، أنا الصبُّ المصاب الذى به تباريح حب خامر القلب أو سِحْر
هل الوجد إلا أن قلبى لودنا من الجمر قيد الرمح لاحترق الجمر؟!

وهنا يستبطن أبو صخر إحساسه بالعشق ، ويقترب من حقيقته ، التى عناها المفسرون لفلسفة العشق وكنهه ، بقولهم : إنه أشبه بقوى خفية ، فيراها أبو صخر فى صورة من صور القوى الخفية ، صورة السحر .

ويحتاج أسلوب الاستفهام عند أبى صخر (هل الوجد ...) وعند جميل (هل فيما عشتما هل رأيتما) وفى صور تجارب غيرهما ، إلى وقفة تفسر سرّ هذا الأسلوب المتكرر فى أشعار العذريين .

والذى نراه ، أن التجربة العاطفية عند الشعراء العذريين ، لما كانت تجربة استبطانية داخلية فى المقام الأول ، وكان التجاوب بينهم وبين عالم الناس من حولهم يكاد يكون معدوما ، فإنهم يلجأون إلى التساؤل ،الذى قد يوجهه الشاعر منهم لنفسه أحيانا ، أو إلى من يتخيله ــ تجريدا ــ من الصحاب أو إلى صاحبته ، أحيانا أخرى ، دون أن ينتظر منهم جوابا ، وإنما يُتبع الشاعر سؤاله بجواب من عنده ، أو تقرير ، يمثل الحركة النفسية الداخلية المنطوية على الحيرة والدهشة والقلق (٢) .

وإذا كان جميل أيضا قد رأى فى بعض صوره أن الموت وحده هو الذى ينهى هيامه ببثينة ، فإن الأمر ليس كذلك عند توبة بن الحمير ، الذى يصرح بأن الموت لن

---

(١) الأغانى ٢١ / ٩٧ وعيون الأخبار ٤ / ١٣٩ وأمالى القالى ١ / ١٥٠

(٢) فى الشعر الإسلامى والأموى ١٦٢

ينسيه كلفه وهيامه بليلى . دليل هذا أنها لوخاطبت جسده المسجى فى القبر بعد الموت . لدبت فيه الحياة ، وأسرع يلبى النداء ، ويرد التحية . على الرغم مما يحول بينه وبينها من حجارة القبر ، وصخوره العريضة : [(١)]

ولو أن ليلى الأخيلية سلّمت علىَّ ودونى جَنْدلٌ وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أوْ زَقَا إليها صدى من جانب القبر صائح

وهذا المعنى ، على مافيه من مبالغة ، مصيب فى إيحائه بعمق المشاعر التى يكنها الشاعر لليلاه ، كما أنه يشعرنا بمدى الحرمان . الذى كان يعانيه توبة وأصحابه العذريون ، ذلك الحرمان . الذى جعل من مجرد سماع صوت الحبيبة أمنية لها تأثير بالغ فى قلوبهم .

ولعل هذا هو سر تردد هذا المعنى فى أشعارهم ، نجده هنا عند توبة ، ورأيناه من قبل عند جميل :

ولو أن راقى الموت يرقى جنازتى بمنطقها فى الناطقين حييت

ونرى قريبا منه عند أبى صخر الهذلى فى قوله : [(٢)]

ولو تلتقى أصداؤنا بعد موتنا ومِنْ دون رَمْسيْنا من الأرض سَبْسَبُ
لظل صدى رَمْسى ولوكنتُ رِمَّةً لصوت صدى ليلى يَهَشُّ ويطرب

وهذا الذى يذكره أبو صخر (أو المجنون إذ تنسب الأبيات إليه فى بعض المصادر) أقوى مما ذهب إليه توبة ؛ لأن تلاقى رُوحىْ ميّتين أعظم فى جانب المبالغة من تلاقى حى وميت ، وهذا مايختاره الحكماء أيضا ، فهم يقولون : إن استلذاذ الأرواح وإدراكها ، بعد مفارقة الهياكل الجسمية ، أشد وأقوى [(٣)] .

ونجده عند قيس بن ذريح أيضا ، غير أن قيساً . يضيف إلى المعنى مايجعله أدخل فى باب التصور ، منه فى باب الافتراض ، كما يفهم من لفظة (لو) فى شعر جميل وشعر أبى صخر .

---

(١) ديوانه ٤٨ . زقا : صاح .
(٢) الأغانى ٢١ / ٩٧ وتزيين الأسواق ٦٥ وينسب أيضا لمجنون ليلى ، فكل منهما تدعى صاحبته ليلى .
(٣) تزيين الأسواق ٦٥

فروح قيس ولبنى قد تآلفتا فى عالم الأرواح قبل أن يولدا ، ثم وهما بعد نطفة ، ثم فى مهد الطفولة ، ونما هذا التآلف بنموهما ، ومن ثم ، فلن يضيع بموتهما ، بل سيتآلفان أيضا بعد الموت : (١)

تَعلَّق روحى روحَها قبل خَلْقنا ومن بعد ماكنّا نطافاً وفى المَهْد
فزاد كما زدْنا فأصبح نامياً فليس وإن مِتْنا بمنفصم العهد
ولكنّه باقٍ على كل حادثٍ وزائرُنا فى ظلمة القبر واللَّحْدِ

وإذا كان هذا هو إحساس قيس بن ذريح بالصبابة ، ومدى وثاقة علاقته بلبناه ، فلا يمكن إلا أن يكون صادقا وهو يحكى تجاربه فى الوجد والصبابة بصاحبته .

فهو يسقط صريع هوى لبنى ، وتعوده العائدات ، يسألْنَه مابه ؟ وليس به من داء إلا عشقها ،والعشق داء شديد عند أمثاله ، ولادواء له إلا وصل المعشوق ، ويظل قيس مترقبا رؤيا لبنى بين العائدات ، ففى رؤياها شفاؤه ، وإنه ليتمنى أن تحقّق هذه الأمنية ، ثم يموت ، ولكنها لاترق لحاله ، فيا ويْح عقله ، لقد خُبل، ووارحمتاه لقلبه ، الذى هدّه العشق (٢) :

عِيدَ قيسٌ من حبِّ لبنى ، ولبنى داءُ قيس والحب داءٌ شديد
وإذا عادنى العوائدُ يوماً قالت العين لاأرى مَنْ أُريد
ليت لبنى تعودنى ثم أقضى إنها لاتعود فيمن يَعودُ
ويْح قيسٍ لقد تضمَّن منها داءَ خَبْلٍ فالقلب منها عميد

وهو الذى أغلق عينيه عن كل مَرْأى سواها ، وقلبَه دون كل عشق عدا عشقها ، وأذنه عن كل صوت إلا حديثها : (٣)

كأنى أرى الناس المحبين بعدها عصارةَ ماءِ الحنظل المتفلِّق
فتنكر عينى بعدها كل منظرٍ ويكره سمعى بعدها كل منطق

---

(١) عيون الأخبار ٢ / ١٤٥ وتزيين الأسواق ٤٦

(٢) الأغانى ٨ / ١١٥ وتزيين الأسواق ٤٦ . عيد قيس : مرض فعادته العائدات ، أى الزائرات . داء خبل : أى اضطراب فى العقل . عميد : يعنى هدّه العشق .

(٣) الأغانى ٨ / ١١٠ وتزيين الأسواق ٤٥

وليس هذا بغريب مادامت روحه فد تآلفت مع روح لبنى ، منذ أن كانتا فى عالم الأرواح ، كما حكى من قبل .

ونصيبُ بن رباح له تجاربه أيضا فى الصبابة والوجد بأم بكر [١] ، كابد من العشق مثل مالقى فيه إخوانه السابقون ، وشقى به مثل شقائهم ، وعف كما عفوا :

وبى كرمٌ عن الفحشاء ناءٍ كبعد الأرض عن جوِّ السماء

وبث القريض أشجانه كما بثوا [٢] :

أرق المُحبُّ وعاده سُهدُهْ لطوارق الهمِّ التى تَرِدُه

وذكرت من رقّتْ له كبدى وَأَبَى فليس ترقّ لى كبدُهْ

ووجدتُ وجداً لم يكن أحدٌ من أجله بصبابةٍ يجدُهْ

إلاّ ابن عَجْلانَ الذى تَبِلَتْ هندٌ ففاتَ بنفسه كمدُهْ

فمجرد الذكر يهيج عليه الصبابة ، ويحرك الأشجان ، فيجأر بالشكوى مما يجد ، تماما كما رأينا عند جميل وأبى صخر الهذلى ، ومن قبلهما عروة بن حزام ، فى قوله :

وإنّى لتعرونى لذكْراك هزةٌ لها بين جسمى والعظام دبيبُ

وينمى المجنون تجربة الصبابة والوجد ، فيشرك فيها عناصر الطبيعة ، ويتخذ منها مثيرا لبث مايلقى من شقاء العشق .

فهو يرى فى الظباء شبها بليلى ، ولذا سرعان مايفيض عليها من حبه وحنانه ، حتى ليرى صيدها حراما : [٣]

راحوا يصيدون الظباء وإننى لأرى تصيُّدَها علىَّ حراما

ويناجيها ، ويبثها أشواقه إلى شبيهها : [٤]

أيا شبه ليْلى لاتُراعى فإنّنى لك اليومَ من بين الوحوش صديقُ

---

(١) تدعى زينب بنت صفوان بن غازى من بنى كنانة ، وكان نصيب يلهج بعشقها ، ويبكى من حرقه الوجد بها ، إذ لا سبيل إلى وصلها لضعة نسبه عند العرب وقيل : بل تزوجها : فماتت عنده . انظر : الأغانى ١ / ١٢٥ وسمط اللآلى ١ / ٢٩١

(٢) الأغانى ١ / ١٣٨

(٣) تزيين الأسواق ٤٠

(٤) سمط اللآلى ١ / ٣٨٠

وياشبه ليلى لو تُقيمِنَّ ساعةً　　لعل فؤادى من جَوَاه يُفيقُ
فديتُك من أسْرٍ دهاك لحبها　　فأنت لليلى ماحييتُ طليق

وقد تستجيب لمشاعره عناصر الطبيعة ، فتشاركه إياها ، وتناجيه كما يناجيها ، ويسألها فترد الجواب ، وترق له ، كما رق لها : (١)

وأجهشتُ للتَّوْبَادِ حين رأيتُه　　وكبرّ للرحمان حين رآنى
وأذريْتُ دمع العيْن لما عرفته　　ونادى بأعلى صوته فدعانى
فقلت له : قد كان حولك جيرةٌ　　وعهدى بذاك الصُّرْم منذ زمان
وقلت له: أين الذين عهدتهُم　　بقربك فى حفظٍ وطيب أمان ؟
فقال: مضوْا واستودعونى ديارهم　　ومَنْ ذا الذى يبقى على الحدثان ؟

وماأكثر تجارب المجنون فى الصبابة ، وكلها حار ملتهب بالشوق ، مفعم بالإخلاص والوفاء ، شديد الإيحاء بهما وبالحزن الصادق ، تتعانق فيها المعانى والألفاظ والصور لتحكى صدق المعاناة :

فالويل له كل الويل إذا ماجنه الليل ، حيث ينفرد بنفسه ، بعد أن ولّى النهار ، وولت معه الأمانى ، وماكان يسلّى به نفسه ، من الحديث مع الصِّحاب ، وأصبح هو والهمّ حليفين ، وليت النوم يوافيه ، ولكن هيهات أن يهنأ له المضجع ، والحنين إلى ليلى يؤرقه ، وهو حنين دائم ، يؤججه عشق راسخ فى القلب ، لاينفصم عنه : (٢)

نهارى نهارُ الناس حتى إذا بدا　　لِىَ الليل هزّتْنى إليك المضاجع
أقضِّى نهارى بالحديث وبالمُنَى　　ويجمعنى والهمَّ بالليل جامع
لقد ثبتتْ فى القلب منك مودةٌ　　كما ثبتتْ فى الراحتيْن الأصابعُ

والملاحظ أن شعراء الغزل العذرى ، لايكادون يلتفتون إلى الطبيعة ، باعتبارها خلفية للتجربة العاطفية ، أو كإطار للصورة الشعرية ، هم حقا يشركون عناصر من

---

(١) أمالى المرتضى ٢ / ٣١٠ وتزيين الأسواق ٥٩ . التوباد : جبل بموطن المجنون كان يرعى الغنم مع ليلى عنده صغيرين .

(٢) ديوانه ١٨٥ والبيتان الأولان لقيس بن ذريح فى تزيين الأسواق ٥١ ، قيل : كان المجنون يتمثل بهما (انظر : تزيين الأسواق ٥٣) وهما للمجنون فى مصارع العشاق ٤٢٠ والثلاثة لقيس بن ذريح فى أمالى القالى ٢ / ٣٢٠

الطبيعة فى بعض صور تجاربهم ، كجبل التوباد فى شعر المجنون ، والظباء عنده أيضا ، والليل أو الشمس ، أو القمر ، أو الأماكن . عنده وعند غيره ، ولكنهم يربطون هذه العناصر ربطا سريعا بالتجربة العاطفية ، دون أية محاولة للتفنُّن فى استقصاء الصورة الفنية للطبيعة ، فهى عندهم مجرد مثيرات تفجر عواطفهم . فالليل هنا عند المجنون ـــ مثلا ـــ مجرد مثير لكوامن الأشجان ، التى غطى عليها سعى الشاعر بين الناس نهارا ، واشتغاله معهم بالحديث . أو بما يشغلون به أنفسهم ، من شواغل حياتهم ، كما أن القمر والنجوم والرياح مجرد رموز سريعة للجمال ، أو الهم الطويل ، أو الشوق المبرح ، ولانكاد نستثنى من تلك العجلة فى الإلمام بمظاهر الطبيعة إلا حديثهم عن الوُرْق والحمائم ، ومايثيره بكاؤها فى نفوسهم من أشواق وأشجان [١] .

ثم هل عرفت أيها القارىء صنوف العشق ؟ بل هل علمت للعشق صنوفا ؟ لقد كابد قيس بن ذريح من عشق لبنى أصنافا ، لايعرفها غيره من الناس ، راح يعددّ طائفة منها ، ويعرفنا بها تعريف خبير بها ، عانى من آثارها ، واكتوى بلظاها: [٢]

أحبُّكِ أصنافا من الحب لم أجِدْ ... لها مثلا فى سائر الناس يوصفُ

فمنهن حبٌّ للحبيب ورحمةٌ ... ومعرفةُ مِنى بما يَتَكَلَّفُ

ومنهنَّ أن لايعرضَ الدهرَ ذكرُها ... على القلب إلا كادت النفس تَتْلفُ

وحبٌّ بدا بالجسم واللونِ ظاهرٌ ... وحبٌّ لَدى نفسى من الروح ألطفُ

وحبٌّ هو الداء العياء بعينه ... له ذِكرٌ تغدو علىّ فأدنَفُ

فلا أنا منه مستريحٌ فميّتٌ ... ولا هو منىّ ماحييت مخفِّف

فقلبه يجمع لِلُبْنَى كل هذه الألوان من الحب . منها : حب الرحمة ، وحب الشوق والحنين ، وحب النفس والروح ، وحب الضنى والسقم ، وأخيرا هذا الحب ، الذى هو الداء العياء ؟!

ـ أثر الحب فى اعتلال الجسد :

تحدثنا فى صدر هذا الفصل عن العشق وسلطانه على القلب ، وهيمنته على سائر

---

(١) للاستزادة انظر : فى الشعر الإسلامى والأموى ١٣٤

(٢) التذكرة السعدية ٥٥٧ وانظر : ديوانه ١٢٤ والأغانى ٨ / ١٢٧ وانظر فى التعليق عليها: القيم الروحية فى الشعر العربى ٩٥

الأعضاء ، وآثاره فيها ، من رِعْدَة فى الأطراف ، وصفرة فى الأبدان ، والجلجة فى اللسان ، وضعف فى الرأى .

وقلنا أيضا: أن العفيف منه ينحل البدن ، ويسقم النفس ، وقد يفضى إلى خبل فى العقل [١] .

ومرت بنا روايات مأثورة فيما أصاب العشاق الأعفة من علل فى الجسم والعقل ، أودت بأرواح بعضهم ، نذكر منها ماتَحدَّث به سعيد بن عقبة الهمذانى ، من أنه سأل أعرابيا من بنى عذرة : ممن الرجل ؟ فقال : من قوم إذا عشقوا ماتوا ، فقال سعيد : عذرىّ ورب الكعبة !!

وماحَدَّث به عروة بن الزبير ، من قوله لعذرى : إنكم أرق الناس قلوبا ؟! فقال : والله ، لقد تركت ثلاثين شابا خامرهم السل ، ومابهم داء إلا الحب [٢] .

وأياما كان نصيب هاتين الروايتين وأمثالهما من الصحة والواقعية ، فإن شعر العذريين نفسه خير شاهد على ماتشير إليه ، من كون العاشق العذرى مبتلىً فى صحته ، مصاباً فى بدنه ، مسقَّما فى نَفسه .

وهذا أمر طبيعى تقرره قواعد الصحة النفسية والبدنية ، فالهمّ ، وشدة الوجد ، والقلق ، والتأرجح بين اليأس والرجاء ، والاضطراب والحيرة والتردد فيما ينبغى أن يفعلوا ، وما لاينبغى ، خشية فقد رضا الصواحب ، على النحو الذى نراه فى قول أحدهم [٣] :

شكوتُ ، فقالت : كل هذا تبرُّم ... بحبىِّ أراح الله قلبك من حبىِّ
فلما كتمت الحب ، قالت : لَشدَّ ما ... صبرت ، وماهذا بفعل شَجِى القلب
وأدنو فتعصينى فأبعد طالباً ... رضاها فتعتد التباعد من ذنبى
فشكواى تؤذيها وصبرى يسوءها ... وتجزع من بُعدى وتنفر من قربى
فيا قوم ،هل من حيلة تعرفونها ... أشيروا بها واستوجبوا الشكر من رَبىِّ

ويصور جانبا من هذا الهم والقلق ، والاضطراب قول نصيب [٤] :

---

(١) راجع ص ٤٢٥ من هذه الدراسة

(٢) راجع ص ٤٢٩ من هذه الدراسة

(٣) ديوان الصبابة ١٤٣

(٤) تزيين الأسواق ٨٤ وانظر شرح الحماسة للمرزوق ٣ / ١٣٣٩

وماف الأرض أشقى من محب وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكيـــا أبـــداً حزينـــاً مخافـــةَ فرقـــة أو لاشتيـــاق
فيبكـى إن نأوا شوقاً إليهم ويبكى إن دنوْا خوفَ الفراق
فتسخـن عينُـه عنـد التنّـائى وتسخـن عينُـه عنـد التـلاقى

فما ظننا بمثل هذا الباكى على الدوام ؟! وعلى أى حال تكون صحة نفسه وبدنه ؟! وليست هذه حال خاصة بنصيب ، فالصمَّة القُشَيْرىّ (١) ، يصور حاله مع ريّا صاحبته قائلا :(٢)

إذا نأتْ لم تفارقنـــى علاقتها وإن دنَتْ فصدود العاتب الزارى
فحال عيْنىَ من يوميْك واحدةٌ تبكى لفَرْط صدودٍ أو نَوَى دَارِ

هذه الأشعار لانتشكك فى صواب ماتنقله وتصوره ــ إن تشككنا فى الروايات المأثورة ــ مما يبتلى به العشاق من قلق وحيرة واضطراب وهم دائم ، وبكاء متواصل ، وكل هذا وغيره يشكل صدمات عاطفية ، وآلام نفسية ، هى معاول هدْمٍ ، تعمل فى النفس والجسم معا .

ليس غريبا ، إذن ، أن يكثر المجانين بين العذريين ، وأن يكثروا أيضا من شكوى العلل الجسمية ، والأسقام النفسية ، التى لابرء منها .

وقد مر بنا قول جميل :

وأنتِ التى مامن صديق ولاعِدًى رأى نِضْو مابى إلا رثى ليـا

---

(١) الصمّة بن عبد الله بن الطفيل بن قرة بن هبيرة ــ وقرة هذا وفد على النبى ﷺ وأسلم ــ من بنى قشير ، ثم من بنى عامر بن صعصعة ، شاعر بدوى غزل عفيف مقل ، من شعراء الدولة الأموية عالم بأيام العرب ووقائعها ومواضعها ، وكثيرا مايسند إليه الرواية الأصمعى وابن دريد ، وهو أحد من قتلهم العشق ، خرج إلى الشام ، فالتحق بالفرسان ، ثم خرج فى غزوة إلى بلد الديلم، فمات بطبرستان سنة ٩٥ هـ ، تقريبا ، وصاحبته : ريّا بنت غُطيْف بن حبيب بن قرة بن هبيرة العامرية ، خطبها الصمة فاشتط عليه أبوها فى المهر ، ولم يعاونه أبوه ، فخرج إلى الشام غاضبا ، وقالت ريّا عندئذ : تالله مارأيت كاليوم رجلا باعته عشيرته بأبعرة وطال مقامه بعيدا عن صاحبته فاشتاقها ، وندم على تسرعه فى البعد عنها . انظر : الأغانى ٥ / ١٢٤ وشرح الحماسة للمرزوق ٣ / ١٢١٥ ، والمؤتلف ١٤٤ ومعاهد التنصيص ٢ / ٨٧ وتزيين الأسواق ٨٧ ، والتذكرة السعدية ٣١٤ .

(٢) الأغانى ٥ / ١٢٦

فلم يُبق منه العشق إلا جسداً نحيلا مهزولا .

وقوله لضيفه الذى ادّعى الهوى العذرى :

فلو كنت عُذرىّ العلاقة لم تكن ... بطينا ونَسَّاكَ الهوى كثرةَ الأكل

هذا حق ، فالأكل شهوة يصد عنها الهم والقلق ، واضطراب النفس ، ولاشك فى أن الإنسان الذى لايقبل على الطعام عن رغبة فيه ، يقل زاده ، ويهزل جسمه .

ومر بنا أيضا قول عروة بن حزام — قبل جميل وعصره :

متى ترفعا عنِّى القميص تبيَّنا ... بِىَ الضُّر من عفراء يافتيان

وتَعْتَرفا لحماً قليلا وأعظُماً ... رِقاقاً وقلباً دائم الخفقان

على كبدى من حب عفراء قُرحةٌ ... وعيْناى من وجْدٍ بها تَكِفان

أما مجنون ليلى فيفعل العشق فعله فى بدنه ، فإذا هو نحيل أشد النحول ، بارز الضلوع ، يكاد يظهر ماتحت أضلاعه للعيان ، وكأنه زجاجة تشف عما بداخلها :[1]

وأنتِ التى صَيَّرتِ جسمى زُجاجةً ... تَنِمُّ على ماتحتويه الأضالع

ولم يبق العشق منه إلا جلدا على عظام ، ولو استمر حاله على ماهو عليه ، سوف ينسحق جلده وعظمه ، كما يقول ، وليس لهذا صورة إلا بالموت[2]:

ولم يبق إلا الجلد والعظم عارياً ... ولاعظم لى إن دام مابى ولا جلْد

ويقلِّب صورة القارورة ، فيخليها من محتواها ، ويصور بها عظامه التى أتَى الهم على مُخِّها فأخلاها منه[3] :

سلبت عظامى لَحْمَها فتركتها ... معرَّقةً تضحى إليك وتَخْصَرُ

وأخليْتِها من مُخِّها فكأنها ... قوارير فى أجوافها الريح تصفِرُ

والجنون آفة من الآفات التى يرزأبها العذريون ، وجنونهم أشد وأنكى من جنون مرضى العقول ، فهؤلاء إنما تعاودهم نوبات الجنون بين الحين والحين ، أما مجانين العشق ،

---

(١) ديوانه ١٨٥

(٢) تزيين الأسواق ٦٠

(٣) أمالى القالى ١ / ١٦٣ ومصارع العشاق ١٥٣

فعقولهم ذاهبة فى كل حال ، هذه رؤيا مجنون بنى عامر : [١]

قالت: جُننتَ على (أَيْشٍ) فقلت لها ... الحب أعظم مما بالمجانين
الحب ليس يفيق الدهرَ صاحبُه ... وإنما يُصرع المجنونُ فى الحين
إنى جننتُ فهاتوا من جننتُ به ... إن كان ينفى جنونى ، لاتلومونى

ومن إفراطه فى تصوير سقم بدنه ، وشدة نحوله ، من معاناة العشق ، قوله : [٢]

ألا إنما غادرتِ ياأمَّ مالكٍ ... صَدًى أينما تذهبْ به الريح يذهبِ

وقوله [٣] :

فلو أنّ ماأبقيت منى معلَّقٌ ... بعُود ثُمامٍ ماتأوَّدَ عودُها

أما قيس بن ذُريح ، فقد أصاب العشق والهجر عقله وقلبه وجسمه جميعا . أما عقله فهو مدخول مختل فاسد ، وأما قلبه فقد أصابته تباريح الهوى بالداء . وأما جسمه فمنهوك القوى ، ضعيف هزيل ، كالمصاب بداء السُّل : [٤]

بانت لُبيْنَى فأنت اليوم متبولُ ... وإنك اليومَ بعد الحزم مخبولُ
فصرتُ من حب لُبنى حين أذكرها ... القلبُ مُرْتَهَنٌ والعقلُ مدخولُ
والجسم مِنِّىَ منهوكٌ لفُرقتها ... يبريه طول سَقَامٍ فَهْو منحولُ
كأننى يومَ ولَّتْ ماتكلمنى ... أخو هُيامٍ مصابُ القلب مَسْلُوُلُ

ومنذ صادت لبنى قلب قيس بن ذريح بسهام لحظها ، لم يبرأ من السقم والسهد ؛ لأنه لم يسلها أبدا ، حتى غدا طريح الفراش ، كومةٌ من جلد وعظم ، ليس فيه من مظاهر الحياة إلا نَفَسٌ يتردد ، تظنه بعض العائدات ميتا ، وبعضهن رهين موت [٥] :

---

(١) بسْط المسامر فى أخبار مجنون بنى عامر للدمشقى ١ / ٢٦ وديوان الصبابة ١٢ وفيه « قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم » .
وفى تزيين الأسواق ٥٨ ومصارع العشقا ٧٩ « قالت جننت على رأسى » ولعله تحريف (أيش) .

(٢) الكامل للمبرد ١ / ٢٦ وسمط اللآلى ١ / ١٨١

(٣) الكامل للمبرد ١ / ٢٠٧ وينسب لابن الدمينة فى سمط اللآلى ١ / ١٨١ وليس فى ديوانه . الثمام : نبت ضعيف . تأود : اهتز وتمايل .

(٤) ديوانه ١٣٨ والأغانى ٨ / ١١٣ . متبول : ذاهب . مدخول : معيب . أخو هيام : المعنى مجنون من العشق .

(٥) الأغانى ٨ / ١٢٤ . يميد : يتحرك ، يريد : أن به دوارا كدوار السكران . الحشاشة : بقية الشىء، يريد : بقية من حياة ضعيفة .

رمتنى لُبينَى فى الفؤاد بسهمها   وسهمُ لُبينَى للفـؤاد صيـودُ
كأنِّىَ من لبنى سليمٌ مسهَّدٌ   يظل على أيدى الرجال يَميد
وقائلةٍ : قد مات ، أو هو ميِّتٌ   ولِلنفس منِّى أن تفيض رصيد
أعالج من نفسى بقايا حُشاشةٍ   على رَمَـقٍ والعائـدات تعـودُ

وسقم العشق ليس له دواء ، إلا الموت ، بهذا يحدث قيس أيضا فيقول [(١)] :

تُبَاكِـرُ أم تروح غداً رواحـا   ولـن يَسْطِيـعَ مُرتهنٌ براحـا
سقيم لايُصاب له دواءٌ   أصاب الحبُّ مقتلـه فباحـا
وعذبـه الهوى حتـى براه   كَبَرْيِ القَيْن بالسَّفَنِ القداحا
وكان يذيقـه جُرَعَ المنايـا   ولـو سقَّـاه ذلك لاستراحـا

وهاهو ذا أحد العذريين يدخل على معاوية بن أبى سفيان ، ويشكو مابه من وجد بابنة عم له ، فيجمع صنوفا من العلل والآلام ، تعاور العشاق العذريين [(٢)]:

فى القـلب منِّـىَ نارُ   والنـار فيها شنـار
وفى فؤادىَ جمرٌ   والجمـر فيـه شَرَارُ
والجسم منـى نحيـلٌ   واللـون فيـه اصفـرار
والعين تبكـي بشجْوٍ   فدمعهـا مدرارُ
والحبّ داءٌ عسير   فيـه الطّبـيب يَحَـارُ
فلـيس لَيْلِـىَ ليْـلاً   ولا نهارى نهارُ

وهذه صورة من الصور ، التى تجمع كثيرا مما تفرق فى أشعار العذريين الآخرين ، مما يصور آثار العشق المدمرة فى صحتهم النفسية والبدنية .

٥ــ الشَّكْوَى منْ صَدِّ الحَبِيبة :

أكثر العذريون من شكوى صدّ الحبيبة وإعراضها ، أو ندرة استجابتها للهوى ، وعدم إنصافها فى المودة .

---

(١) أمالى القالى ١ / ١٦٤

(٢) مصارع العشاق ٢٢٤ .

والحق أنهم يتجنّون عليها بهذه الدعاوى ، ويتغافلون عما هى مكبلةٌ به ، من قيود التقاليد الصارمة فى البادية ، فما كانت هذه البدوية ممتعة بما تمتعت به أختها الحضرية ، من حرية أتاحت لها الاتصال بالعاشق ومجالسته ومحادثته ، فضلا عن التعرض له ـــ أحيانا ـــ ومغازلته ، على نحو مارأينا فى الغزل الحضرى .

يضاف إلى هذا أن كثيرات من صواحب العذريين قد تزوجن بغير من تعشقهن ، والزواج قيد آخر ، فوق قيود المنعة البدوية ، التى أشرنا إليها فى صدر هذا الفصل (١) .

ويأتى عامل الدين ، الذى فرضَ على المسلمة واجبات تقتضيها مبادىء الفضيلة ، وسلامة المجتمع الإسلامى من مباءات الفساد ، وغوايات الإغراء ، كما يتطلبها صون أعراض المسلمين ، وإحاطتها بسياج من الطهر والنقاء ، بغية تحقيق النموذج الصالح للمرأة ، لتنهض برسالتها أمّاً وزوجة ، نقول : يأتى عامل الدين ليدعم قيود العفة البدوية ، ويضيف إليها قيودا أُخر .

وقيود المنعة والعفة ، ورعاية الحقوق والواجبات هذه ، هى التى تعبر عنها ليلى الأخيلية ، حينما عرَّض لها توبة صاحبها باقتضاء مارآه حقا للهوى ، بقولها ، السابق :

وذى حاجة قلنا له: لاتُبُح بها ... فليس إليها ماحييتَ سبيلُ
لنا صاحب لاينبغى أن نخونه ... وأنت لأخرى صاحب وحليل
تخالك تهوىَ غيرها فكــأنها ... لها من تظنِّيها عليك دليـل

ومادامت ليلى الأخيلية قد نبهت توبة إلى هذا الحق والواجب ، وارتضى توبه منها مايفرضانه من حرمان ، فليس من بأس عليها ـــ فى رأيها ـــ أن تبدى له من عواطفها مايعزيه عن حاجته ، التى عرّض بها ، ويرضى بعض هوى نفسه ، بعيدا عن هذه الحاجة ، التى لاسبيل إليها .

ويتولى توبة التعبير عما باحت به إليه ، فيقول (٢) :

قالت مخافة بَيْنِنــا وبـــكتْ له ... فالبيْـن مبعــوثٌ على المتخـوِّف

---

(١) راجع ماكتبناه عنها ص ٤٣٦ من هذه الدراسة .

(٢) أمالى القالى ١ / ١٦٨

لو مات شيءٌ من مخافة فرقـةٍ لأماتنـي للـبين طولُ تخوُّفِ
ملأ الهوى قلبي فضقتُ بحمله حتى نطقتُ به بغير تكلـف

ومع أن ظروف حياة المرأة البدوية ، لم تكن مجهولة للعاشقين ، فإن كثيرا منهم لم يقدروا هذه الظروف ، ولم يلتفتوا إليها بدافع من شبوبية عواطفهم ، التى دفعت بهم إلى الدخول فى صراع مع المجتمع ، الذى يأخذهم بصرامة قيمه وتقاليده ، ويتمادى بعضهم فى تغافله وتحديه ، حينما يتجه إلى صاحبته باللوم ؛ لأنها لاتظهر له حالها ، كما يظهر حاله ، ولاتبثه عواطفها ، كما يبدى عواطفه لها ، فيطالبها بما لا تستطيعه من البوح ، حتى لو أرادته .

وأمعن من هذا فى التغافل أن يتخذ الواحد منهم التزام صاحبته بقواعد الصون فى مجتمعها دليلا على انعدام الإخلاص والوفاء له .

وأعجب من هذا وذاك أن يأخذ العاشق مايبدو على صاحبته من صحة فى البدن ، واتزان فى الرأى والسلوك شاهدا على خلو بالها ، وبراءتها من العشق .

كذا فعل كثير ، فهو يعتب على عزة أن قلبها لايكن له من الود والإخلاص ، مثل مايعمر به قلبه من عشقها والوفاء لها ، وآية هذا — فى نظره — أنها صحيحة البدن ، بينما سكن الداء جسمه من الوجد بها ، ولاينسى أن يرميها بعدم الإنصاف فى الوُدّ ، ويمتن عليها بأنه يقابل كل هذا منها بالحلم والصفح.

وكأنما كان يريد منها أن تتحدى كل القيم مثله ، وأن تنادى بأعلى صوتها مجاهرة بعشقه ، أو تقول فيه شعرا ، كما يقول فيها !!

ولو أنصف لما انتظر من عزة أن تفعل شيئا من هذا أو أقل منه ، وكيف لها أن تبدى صفحتها ، وهى البدوية المتزوجة من غيره ، الحريصة على سمعتها ، وحقوق زوجها عليها ، يقول كثير : [(١)]

أفى الدِّيـن هذا؟ إن قلـبكِ سالمٌ صحيـح وقلبـى من هواك سقيم

---

(١) ديوانه ١٢٩

وإن بجوفى منك داءً مُخامِراً وجوفك مما بى علىك سليم
لعمرك ماأنصفتِنى فى مودّتى ولكننى ياعزُّ عنك حليم

ثم يتجنى عليها مرة أخرى ، ويمتن بوفائه وإخلاصه ، والامتناع على غيرها من أجلها ، فيقول [١]:

ويعذبُ لى من غيرها فأعافها مشاربُ فيها مَقْنَعٌ لو أريدها
وأمنحها أقصى هواى وإننى على ثقة من أن حظىٌّ صدودها

وربما كانت نغمة الامتنان هذه فى شعر كثير ، هى التى التفت إليها بعض قدامى النقاد والشعراء ، وعنوْها عندما اتهموا كثيرا بالكذب فى العشق [٢] .

ويتشكك الصمة القشيرى فى صدق عواطف ريًّا صاحبته ، كما تشكك كُثيِّر فى إخلاص عزة ، إذ يرى أنها لاتحن إليه ، بقدر مايحن إليها ، وإلا كان حالها كحاله ، ولو فعلت ماكفكف دمعه ، وجْداً دائماً بها [٣]:

أما وجلال الله لو تذكريننى كذكريك ماكفكفت للعين مَدْمَعا
فقالت : بلى والله ذكراً لَوَانَّهُ يُصَبُّ على صُمِّ الصَّفا لتصدعا

ويعلق الصمّة على ماأجابت به ، قائلا : « لا والله ماصدقت فيما قالت » .

أما المجنون فهو عنيف بطبعه ، حتى فى عتابه ليلاه ، فهو يلومها لوماً شديدا ؛ لأنها لم تف بوعودها له ، حتى شمت به من كانوا يلومونه فى عشقها ، وهى بذلك قد جعلته عُرضة للناس ، يسخرون منه ، ويهزءون بجنونه ، بينما نجت هى من كل لوم [٤]:

وأنت التى أخلفتِنى ماوعْدتِنى وأشْمَتٌّ بى مَنْ كان فيك يلومُ
وأبرزْتِنى للناس ثم تركتنى لهم غرضاً أُرْمَى وأنتِ سليمُ

وماكان أغناه عن هذه الآلام ، لو كان يملك أمر قلبه ، ولكن أنّى له ذلك ، فهو مغلوب على أمره ، كما ذكرنا من قبل .

---

(١) سمط اللآلى ١ / ١٤٠
(٢) راجع أقوالهم فى هذا ص ٤٥٦ من هذه الدراسة .
(٣) الأغانى ٥ / ١٢٦ وتزيين الأسواق ٨٨
(٤) ديوانه ٢٤٧

ويقسو أيضا جميل على بثينه فى عتابه ولومه ، فيقابل بين حاله فى الإخلاص لها والاستمساك بحبلها ، وحالها فى صدها وهجرها ، وكأنما لاتبالى إن قتله الهجر [(١)] :

أَلَا قمْ فانظرنَّ أخاك رهْناً لبثنة فى حبائلها الصحاح
أريد صلاحها وتريد قتلى فشتى بين قتلى والصلاح

أما قيس بن ذريْح فيستسلم لإعراض لبنى عنه ، عندما تعرض لها فى موسم الحج ، ويرى فى الاستسلام واليأس راحة ؛ إذ لاسبيل إلى نيل المرام [(٢)] :

ويوم مِنىً أعرضت عنىٍّ فلم أقلْ بحاجة نفسى عند لبنى مقالها
وفى اليأس للنفَّس المريضة راحةٌ إذا النَّفْس رامتْ خُطّةً لاتنالُها

وفى ظننا أن قيس بن ذريح ماكان ليستسلم وييأس ، لولا أن الموقف لايسمح بمجرد عرض حاجته عليها فى موسم أداء شعائر الحج ، فالاستسلام هنا موقفى لاأكثر ، وإلا لشكى هو الآخر ، وأرسل القريض لائما ، أو عاتبا على الأقل ، فالبخل بالوصل ، والمجابهة بالصد كثيرا ماأثارا أعصاب العاشقين العذريين ، فانهالوا ، يلومون ويعتبون ، فى لين حينا ، وفى عنف حينا آخر ، كما عَنُف المجنون فى لوم ليلاه ، وقسا جميل فى عتاب بثينه ، وقد يضرع بعضهم إلى الله طالبا القصاص ممن صدته وهجرته ، وينسبها إلى طبع بخيل شحيح فيها .

من ذلك قول قيس بن ذريح [(٣)] :

أيا باعثَ الموتى أَقِدْنى من التى بها نهلتْ نفسى سَقاماً وعلَّتِ
لقد بخِلتْ لَوَانَّىٍّ سألتُها قذى العين من سَافِى التراب لضَنَّتِ
فإن منعتْ فالبخل منها سجية وإنْ بذلت أعطتْ قليلا ومَنَّتِ

ومع هذا فلم تكن الحبيبة دائما كما صورها هؤلاء العذريون ، صادة ، معرضة ، سلبية تماما إزاء عواطف صاحبها ، والذى يبدو أن بعضهم كان لايكفيه ، ولايرضيه ،

---

(١) أمالى القالى ١ / ٢٢٠ وسمط اللآلى ١ / ١٣٨

(٢) ديوانه ١٤١

(٣) الأغانى ٨ / ١١٥

ماطالب به الصمَّة القشيرى رَيَّا صاحبته من مجرد أن تذكره كما يذكرها:

أما وجـــلال الله لو تذكريننـــى　　كذكريك ماكفكفتُ للعين مدمعا

وإنما كان يطلب منها أكثر مما تستطيع أن تمنحه ، فترفض ، فيتهمها بالصد والبخل ، ويصب عليها لومه وتأنيبه .

وهاهى ذى بثينة تصرح لجميل بأنها تهواه كما يهواها ، بل أكثر مما يهواها ، ومع ذلك لايقنع ، ويطالبها بحق الهوى ، الذى تكابد منه مثل مايكابد ، وحينئذ تنكر عليه مايطلب ، وتصده ؛ إذ لاتملك إلا الصدود ، فينصرف عنها غير راض : [١]

إذا قلتُ: مابى يابثينــــــة قاتلى　　من الحبِّ قالت : ثابت ويزيـدُ

وإن قلت: رُدِّى بعض عقلى أعشْ به　　مع الناس قالت: ذاك منك بعيدُ

إذا فكّرتْ قالت: قد أدركتُ وُدَّه　　ومـاضرّنى بخلى فكيـف أجـود ؟

نعم ، كيف تجود ؟! وتقاليد الصون والمنعة فى البادية كالسيف المُصْلَت ، دون جودها بالوصل ، وجود أخواتها البدويات .

ولسنا ندرى كيف تصور هؤلاء العذريون الشاكون أن تتجاهل المرأة البدوية تقاليد بيئتها ، وتخرج على عرف العفاف وصيانة العرض ، وحسن السمعة فيها ؟!

أبداً ، ماكان لها أن تفعل هذا ، وإلا كان أهون ماتلاقيه من رد فعل مجتمعها ، أن تلوك الألسنة سمعتها ، فتكون سبة وعارا لأهلها ، فإذا كانت زوجة ــ كما هو حال كثيرات من صواحب العذريين الأمويين ــ كان أمرها فى ضرورة الحفاظ على سمعتها وعرض زوجها آكد ، والتهاون فى شىء من هذا أكثر عارا ، وأسوأ عاقبة ، فللزوجه إطار من الأدب والحشمة وصيانة شرف زوجها بين قومه ، قد حددته الأعراف ، وتشددت فيه التقاليد ، وأذاعه شعراء البدو ، وأشادوا به ، وامتدحوا نساءهم لحرصهم عليه .

كان هذا واضحا محددا فى البيئة البدوية منذ عصورها الجاهلية القديمة ، فالشنفرى [٢] الشاعر الجاهلى القديم ، يثنى على زوجه ، ويعدد الصفات التى ينبغى أن

---

(١) الأغانى ٧ / ٧٩ وأمالى القالى ٢ / ٣٠٣

(٢) شاعر جاهلى قديم من الأوس بن الحجر بن الأزد ، وهو أحد الفتاك ، والصعاليك العدائين المشهورين ، يقال : قتل من بنى سلامان ــ وكان مولى لهم ــ تسعة وتسعين رجلا ، وهو صاحب لامية العرب المشهورة . انظر : أسماء المغتالين ٢٣١ وشرح المفضليات ١٩٥ والأغانى ٢١ / ٨٧

تحرص عليها الزوجة فى بيئته ، فيقول : (١)

لقد أعجبتنى لاسَقُوطا قناعُها	إذا مامشتْ ولا بذات تلفُّتِ
تَحُلُّ بمَنْجاةٍ من اللوم بيتَها	إذا مابيوت بالمذمة حُلَّت
كأن لها فى الأرض نسْياً تقصهّ	على أمِّها وإن تكلمك تَبْلت
أُميْمةُ لايُخزى نثاها حليلَها	إذا ذُكر النِّسْوانُ عفَّتْ وجلَّت
إذا هو أمسى آب قُرةَ عينه	مآب السعيد لم يَسَل أين ظلت

هذا هو نموذج الزوجة البدوية ، التى كانت بيئتها تفخر به ، وتذيعه ، ليكون قدوة ومثلا ، ومنه ندرك ، لماذا كانت صورة المرأة البدوية المعشوقة على هذا النحو الذى صوره الشعراء البدو العذريون .

* * * * *

— ٥ —

تعقيب

لنا بعد هذه الدراسة ملاحظات على هذا الغزل العذرى بعامة ، أكثرها شركة بين الجاهلى منه والإسلامى ، وقليل منها خاص بهذا الغزل العذرى الأموى :

١ — نمو هذا الضرب من الغزل ، وكثرة النتاج الشعرى الذى قيل فيه ، وكثرة الشعراء الذين عالجوه فى البادية فى العصر الأموى ، وهذه الملاحظة قائمة على أساس ماوصل إلينا من نماذجه فى هذا العصر وسابقه ، مع مراعاة ماسبق أن أشرنا إليه فى مقدمة هذا الفصل ، من ضياع كثير من أشعار الجاهليين ، وربما كان فى ضمن مافقد منها قدر من نتاج الغزل العفيف فى العصر الجاهلى .

هذا فضلا عن ازدهار هذا الفن فى بوادى الحجاز وما صاقبها ، أكثر من الحضر ، لأسباب سبق ذكرها ، كما اشتهر عدد من شعرائه ، لفتوا إليهم أنظار التاريخ الأدبى ،

---

(١) شرح المفضليات ١٩٥ — ٢٠٠ . النسى : الشيء المفقود . تقصه : تتبعه وتبحث عنه ، أى أنها تلقى ببصرها إلى الأرض حياء واستقامة . أمها : قصدها الذى تريده . تبلت : توجز فى كلامها . النثا : مايتحدث به عن الإنسان من حسن أو سيىء .

وحظوا باهتمام العلماء بالشعر ونقاده من القدماء والمحدثين ؛ وبذا احتل غزل العذريين الأمويين مكانا بارزا بين فنون الشعر التى راجت فى العصر الأموى

٢ــ قضى كل محب عذرى حياته ، أو أكثر حياته ، وقلبه معلق بحبيبة واحدة لايعدوها ، ولايتسع لغيرها ، ولايرى وجودا لسواها ، أو شبيها لها ينبض بعشقها قلبه ، وتحمل فى هذا العشق آلاما وأهوالا ، أسقمته ، وأذهلته ، أو قتلته .

وذهاب بعض الشعراء ضحية العشق والهوى سمة العذريين فى الجاهلية والإسلام ، فقد قتل العشق عبد الله بن العجلان وهو جاهلى ، كما مات عروة بن حزام عشقا ، وهو من المخضرمين ، الذين لم يدركوا عصر بنى أمية .

وتشير بعض أشعار العذريين الأمويين إلى ظاهرة الاقتصار على عشق امرأة واحدة ، وقصر كل منهم غزله عليها .

وفى هذا يقول قيس بن ذريح :

تعلق روحى روحها قبل خلقنا ... ومن بعد ماكنا نطافا وفى المهد
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا ... فليس وإن متنا بمنفصم العهد
ولكنه باق على كل حادث ... وزائرنا فى ظلمة القبر واللحد

فقد ربط التآلف الروحى بين قيس وصاحبته ، لا فى حياتهما فقط ، وإنما من قبلها ، وسيظل بعد وفاتهما .

ويذكر نصيب بن رباح ، أن عينه لاترى سوى صاحبته ، ونفسه لاتتطلع لغيرها ، ولاتقنع إلا بها [(١)] :

فلا النفس ملَّتْها ولا العين تنتهى ... إليها سوى فى الطرْف عنها فترجع
رأتْها فما ترتد عنها سآمة ... ترى بدلا منها به النفس تقنع

ويقول جميل ، مخاطبا قلبه : [(٢)]

سَلا كلُّ ذى وُدٍّ علمت مكانه ... وأنتَ بها حتى الممات موكَّلُ

---

(١) الأغانى ١ / ١٤٠

(٢) المصدر السابق ٧ / ٩٢

وصاحبة جميل هى بثينة ، وقلبه هائم بها ، لن يتحول إلى سواها حتى آخر عمره .

ومن دلائل هذا الكلف بامرأة واحدة عند العذريين ، ماروى من محاولات الأهل والأصدقاء لصرف قلب الشاعر عن عشق من أشقاه عشقها ، دون جدوى ، كالذى ذكرناه من شأن مجنون ليلى مع النسوة اللائى عرضن عليه أن يختار إحداهن ، ليصرف قلبه إليها بدلا من ليلاه ، ورده عليهن بقوله : « لو ملكت لفعلت ، ولكنى مغلوب » (١) .

ومايروى من أن بعض النسوة حاولن صرف جميل عن بثينة ؛ ليخلو قلبه لهواهن ، ولكنه صدهن ، معلنا أنه قد أحب ، ولن يزول حب من هواها من قلبه ، لأنه وقْفٌ على حبها (٢) .

ومن قوله فى ذلك أيضا : (٣)

ضمنتُ لها أن لاأهيم بغيرها   وقد وثقت منى بغير ضمان

ويقول كثيرٌ مخاطبا عزة (٤) :

وأقسم ماإستبدلت بعدك خُلَّةً   ولالك عندى فى الفؤاد قسيم

فهو يقسم لصاحبته أنه لن يتخذ صاحبة غيرها ، ولن يشاركها فى قلبه أخرى .

٣ ــ من العذريين الأمويين خاصة من قصر كل نتاجه الشعرى ، أو كاد ــ على التغزل فى صاحبته ، يدير حولها هذا الشعر .

منهم جميل ، الذى لانجد له فى ديوانه شعرا فى غير الغزل ، اللهم إلا مُقطَّعات قليلة فى المدح والهجاء والفخر ، وبعضها شديد الاتصال بغزله ، إذ كان هو السبب فيها ، والباعث عليها (٥) .

ومنهم ، قيس بن ذريح ، وبين أيدينا ديوانه المجموع ، وليس فيه بيت واحد فى غير الغزل ، ولم يرو أحد من رواة أخباره أنه قال شعرا فى غرض آخر ، ومعنى هذا ، أنه وقف موهبته على هذا الفن ، فلم يعده .

---

(١) راجع ص ٤٢٦ من هذه لدراسة .

(٢) الأغانى ٧ / ٧٧

(٣) تزيين الأسواق ٣٨

(٤) يقال : إن كثيرا لم يبر بقسمه هذا لعزة ، وإنه هوى بعدها امرأة من قومه ، يقال لها أم الحويرث (عيون الأخبار ١ / ١٤٨) . وانظر ديوانه ١٢٩ .

(٥) انظر : مقدمة ديوانه ١٢

وماقلناه عن ديوان قيس بن ذريح ، ينطبق تماما على ديوان مجنون ليلى ، فشعره المجموع فيه ، يخلو من غير الغزل ومايتصل به .

وهذا التخصص فى الغزل العذرى شبيه بما رأيناه ، من تخصص فى الغزل الحضرى الحسى ، وكلاهما تطور جديد ، يمتاز به الغزل الحجازى فى البادية والحضر ، فى العصر الأموى ؛ إذ لا نعلم شاعراً جاهليا قصر شعره كله ، أو كثرته ، على القول فى الغزل ، وكل مانعلمه أن قلة من الشعراء الجاهليين ، أفردوا قصائد لهذا الفن ، ولم يجمعوا إليه فنا آخر ، فى هذه القصائد [١] .

٤ ـ تشابه أشعار العذريين بعامة ، فقد كان لدوران قصة العشق عندهم داخل إطار محدد ، وعلى نمط مألوف فى حياة هؤلاء العشاق [٢] ، أثره فى تشابه معانيهم ، وعناصر تجاربهم ، مما أدى إلى اختلاط غير قليل من أشعارهم بعضها ببعض ، فنرى أبياتا لشاعر قد أقحمت على قصيدة لشاعر اخر ، ونرى ماينسب إلى احدهم فى مصدر ينسب إلى غيره ، فى مصدر آخر .

من ذلك هذان البيتان :

وأنتِ التى إن شئت كدرت عيشتى ... وإن شئت بعد الله أنعمت باليا
وأنت التى مامن صديق ولا عِداً ... يرى نضو ماأبقيت إلا رثى ليا

إذ ينسبان لجميل فى الأغانى [٣] ، وهما فى ديوانه فى جملة أبيات له ، وينسبان للمجنون ، فى تزيين الأسواق [٤] فى ضمن أبيات له ، وهما أيضا فى ديوانه المجموع .

ومنه أيضا ، هذه الأبيات :

نهارى نهار الناس حتى إذا بدا ... لىَ الليلُ هزتنى إليك المضاجع
أقضى نهارى بالحديث وبالمنى ... ويجمعنى والهم بالليل جامع

---

(١) انظر : الغزل فى العصر الجاهلى (د . الحوف) .
(٢) راجع هذا النمط ٤٢٧ ، ٤٥٩ من هذه الدراسة .
(٣) ٧ / ٩٠
(٤) ٦٩

لقد ثبتت فى القلب منك مودة كما ثبتت فى الراحتين الأصابع

فهى تنسب لمجنون ليلى فى مصارع العشاق [١] ، وهى فى ديوانه ،وينسب الأولان منها لقيس بن ذريح فى تزيين الأسواق [٢] ، والأبيات الثلاثة لقيس بن ذريح فى الأمالى للقالى [٣] .

وفى ديوان قيس بن ذريح ، وكذا فى التذكرة السعدية [٤] ، هذه الأبيات له :

أحدثتنى ياقلب أنك صابر على الهجر من لبنى فسوف تذوق
أطعت وشاة لم يكن لك فيهم خليل ولادانٍ عليك شفيق
فمت كمداً أو عشْ مُعَنًّى فإنما تحملنى مالا أراك تطيق

وينسب البيتان الأول والثالث منها ، لمضرِّس بن الحارث المزنى فى ضمن قصيدة طويلة له ، فى الأمالى للقالى [٥] .

والأمثلة على هذا الخلط بين أشعار العذريين الأمويين كثيرة [٦] ، وفيما ذكرناه مايكفى للتدليل على صواب ذلك .

ولم يقتصر الأمر على هذا ، فقد أدى تشابه تجاربهم ، وكثير من وسائل تعبيرهم عنها [٧] ، وفقر هذه التجارب ، من حيث تنوع المواقف ، التى تتصل بالتجربة ، العاطفية ، كمواقف الوداع ، أو اللقاء ، والأحداث ، أدى هذا كله إلى سهولة الوضع والتزيد فى أشعارهم على مدى العصور ، فالإطار العام لتجاربهم محدود كما ذكرنا ، وروحهم العاطفية ، وأحاسيسهم العذرية ، كالحرمان ، والشكوى ، والوفاء ،وتحدى المجتمع ، والرغبة فى الهروب ... وغير ذلك ، شائع فى تجاربهم ، مشترك بينهم ، كما أن تقاليدهم الفنية فى الأداء متشابهة ، فأساليب النداء ، والندبة ، والاستفهام ، وتكرار ألفاظ بعينها ، أو عبارات بذاتها ، ظاهرة بارزة فى أشعارهم جميعا تقريبا ، مما سهل الوضع

---

(١) ٤٢٠ (٢) ٥١
(٣) ٢ / ٣٢٠ (٤) ٥٢٤
(٥) ٢ / ٦٣
(٦) انظر مثلا : الشعر والشعراء ٢٢٠
(٧) نبهنا كثيرا إلى هذا التشابه خلال دراسة نماذجهم فى الاتجاهات المختلفة . راجع ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٣ ، ٤٥٥ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢

عليهم ، والتزيد فى أشعارهم للرواة ، وجامعى شعرهم ، يقول ابن قتيبة فى مقام الحديث عن مجنون ليلى [١] : « على أنهم قد نحلوه شعرا كثيرا رقيقا يشبه شعره » .

٥ ــ القارىء المتذوق فى أشعار العذريين بعامة يحس أنه بإزاء تجارب تتميز بالمعاناة الصادقة ، حيث تشيع فيها حرارة العاطفة ، وتشع منها الأشواق ، وتتجلى فيها خلجات النفس ، مما طبع هذا الغزل بطابع عاطفى حزين ، إذ كانوا يعبرون فيه ــ غالبا ــ عن حرقة القلوب ، وتباريح آلام الهوى ، ولذعات الحرمان ، ومعلوم أن الأحزان والآلام والحرمان كلها تجارب ، ترسب العواطف ، وتغلغل جذورها فى النفس ، فتصدر هذه العواطف أكثر حرارة ، وأبعد عمقا ، وأعنف انفعالا .

لهذا كان لشعر العذريين علق شديد بالقلوب ، وصدى قوى فى المشاعر ، فهو حديث القلب للقلب ، وقديما قالوا : « أحسن الشعر مادخل القلب بلا إذن [٢] » وهؤلاء مامنهم من أحد إلا عشق ، واصطلى بنار العشق ، واحتمل فى عشقه مبرح الآلام ، وصور بشعره خلجات قلبه ، وماتجيش به أعماق نفسه .

لقد عرف الشعراء العذريون العشق إخلاصا ، وتفانيا ، ومكابدة مهلكة ، تتقرح عيونهم من البكاء الشديد ، وتتفتت أكبادهم من الحزن العميق ، والألم المتواصل والسقم المضنى ، حتى ليخرج الشاعر منهم أحيانا عن طوره ، ويفقد توازن نفسه ، فيجن جنونه ، أو يتمنى الموت ، لأنه أرحم من حياة قاسية ، تحكم بينه وبين الحبيب بالتباعد والشتات .

يقول ابن ذريح : [٣]

لقد عذبتنى ياحب لبنى ... فقَعْ إما بموتٍ أو حياة
فإن الموت أروح من حياة ... تدوم على التباعد والشتات

والعذريون فى هذا وغيره ــ كما رأينا ــ على شاكلة واحدة تقريبا ، فى الوجد والمعاناة ، فالعشق عندهم ، كما تكشف عنه أشعارهم السابقة ، معاناة قاسية ، تؤدى

---

(١) الشعر والشعراء ٢٢٠
(٢) مصارع العشاق ٢٢٢
(٣) الأغانى ٨ / ١٢٢

بصاحبها إلى الهزال ، والاصفرار ، والنحول ، ثم الموت .

والعاشق العذرى رقيق حساس ، صادق فى عشقه حتى الموت ... أما داؤه فهو الحبيب المعبود ، ودون الوصول إليه أهوال .

هكذا كان العذريون جميعا ، وكان شعرهم فى كل هذا معبرا عن ذواتهم تعبيرا صادقا ، مازال يهزنا إلى اليوم ، بمافيه من حرارة العاطفة ، وصدق الشعور ، ولاحتماله لأكثر من مستوى للتلقى والتذوق .

٦ ــ الأصل فى الغزل العذرى أن يكون عفيفا ، بحكم ظروف بيئته ، التى عرفناها وبحكم طبيعة تكوين شعرائه النفسى ، ومارزقوا من ميول طبيعية ، أو تهذيبية ، هيأتهم لتقبل هذا النوع من العشق ، وتحمل تبعاته ، والصبر على مكارهه .

وقد كان غزل العذريين عفيفا غالبا ، فكثيرا ماتحدثوا عن عفتهم فى العشق ، وبراءتهم من الفحش ، كما أشاد بعضهم بعفة صاحبته ، وأثنى على طهارة خلقها وسلوكها .

يقول مضرِّس المزنى : (١)

أذودُ سوامَ الطرْفِ عنك وماله ... إلى أحـدٍ إلاّ إلـيك طريـق
تتوقُ إليك النفس ثم أردّهـا ... حياءً ومـثلى بالحيـاء حقيـق

ويقول جميل : (٢)

وإنى لأُغْضِي الطَّرْفَ عنها تستُّراً ... ولى نَظَرٌ لولا الحيـاءُ شديـدُ

ويقول نصيب بن رباح : (٣)

ولى كرم عن الفحشاء ناءٍ ... كبُعْد الأرض عن جوِّ السماء

فأخلاقه الكريمة تباعد بينه وبين فاحش القول والسلوك ، بعد الأرض عن

---

(١) مضرس بن قرطة بن الحارث ، أحد بنى صبح بن عوف ، من مزينة ، شاعر محسن مقل ، كان يعف فى غزله ، انظر المؤتلف ١٩١ وأمالى القالى ٢ / ٢٦٢ والتذكرة السعدية ٥٤٠ .

(٢) ديوان المعانى ١ / ٢٢٨ .

(٣) الأغانى ١ / ١٣٦ .

السماء ؛ ولذا فإن الحياء يمنعه من رفع بصره طويلا إلى صاحبته ، فما هو إلا أن تقع عينه عليها حتى يرتد طرْفُه سريعا ، حياء وتحشماً ، مع شدة وجده بها : (١)

فلا النفس ملَّتها ولا العين تنتهى إليها سوى فى الطرْف عنها فترجع

ويتحدى توبة بن الحمير زوج ليلى الأخيلية ، أن يرى فى علاقته بها مايشين ، فما تمثلت هذه العلاقة يوما فى غير زيارتها ؛ لإلقاء السلام عليها ، وإنه ليقسم على ذلك : (٢)

علىّ دماءُ البُدْن إن كان زوجها يرى لِىَ ذَنْباً غير أنِّى أزورها
وأنى إذا مازرتها قلت: يَااسْلَمِى فهل كان فى قولى: اسلمى مايضيرها!!

وشهدت ليلى صاحبته له بهذه العفة ، وتمام الحياء (٣) :

فتى كان أحيا من فتاة خريدة ....

وكثيرٌ يحدد علاقته بعزّة بأنها تقوم على المودة الصافية ، والبعد عن الفحش : (٤)

وقال خليلى : مالها إذ لَقيتَها غداةَ السَّنا فيها عليك وجومُ
فقلت له : إن المودة بيننا على غير فُحُشٍ والصفاء قديم

ومع هذه العفة البادية فى أشعار العذريين ، فإن نفوسهم كانت تنازعهم إلى ماكانت تصبو إليه نفوس غيرهم ، ولكنهم ، وقد حيل بينهم وبين مايشتهون ، اكتفوا بتجربة العشق نفسها ، فعف قلبهم ولسانهم ، إلا قليلا .

فقد نجد فى بعض تجاربهم مايدل على أن رغباتهم الحسية لم تُكْبت تماماً ، وأنها كانت تطفو إلى سطح خيالهم ، فتداعبه من حين لآخر .

كانت لتوبة حاجة فى ليلى ، نزعت نفسه إليها ، فأسر بها لصاحبته ، ولكنها سرعان ماردته إلى ماينبغى لمثله من العفة قائلة :

وذى حاجة قلنا له لاتبح بها فليس إليها ماحييت سبيل

---

(١) الأغانى ١ / ١٤٠

(٢) ديوانه ٣٨

(٣) ديوان المعانى ١ / ٤٤ ، وديوانها ٨٠ وفيه : « وتوبة أحيا من فتاة حيِيَّةٍ .. » .

(٤) الأغانى ١١ / ٥١

وتمنى جميل أن يذوق عذوبة ريق بثينة ، وكان يخشى أن تفاجئه المنية ، وفى نفسه حاجات لم يقضها من صاحبته :

ألم تعلمى ياعذبة الريق أننى أظل إذا لم ألق وجهك صاديا
وقد خفتُ أن ألقى المنية بغتةً وفى النفس حاجات إليك كما هيا

فأى حاجات كان جميل يأمل أن ينالها قبل أن يموت ، إن لم تكن شيئا من المتع الحسية ، التى يتطلع إليها الرجال من النساء ؟!

وقد صرح ببعض هذه المتع فى شعر آخر يقول فيه(١) :

فياليت شعرى هل أبيتن ليلةً كليلتنا حتى يُرى ساطِع الفجر
تجود علينا بالحديث وتارة تجود علينا بالرضاب من الثَّغْر
فلا تقتلينى يابثين ولم أُصبْ من الأمر مافيه يحل لكم قتلى

وجميل بهذه المعانى أقرب إلى الحسيين منه إلى العذريين !!
وهو حسىٌّ خالص فى قوله الآخر :

وبيض غريرات تثنى خصورها إذا قمْن ، أعجاز ثقال وأَسْوُق
غرائر لم يعرفن بؤس معيشة يُجَنُّ بهنّ الناظر المتنوِّقُ

ولكن هذا قليل فى شعره ، ولعل مرده إلى نزعة تقليد غزلية ، كانت تراود الغزلين العذريين بصفة عامة ، إذا بداهم أحيانا أن يصفوا محاسن من يتعشقون .

حتى المجنون نازعته نفسه إلى اللهو مع ليلى ، ولو ساعة ، تعدل الدنيا كلها :(٢)

وساعة منك ألهوها ولو قصرت أشهى إلىّ من الدنيا ومافيها

وأراد حملها على أن تبادله القبلات ، فصدته فى غضب وإباء شديدين(٣) :

إذا سمتُها التقبيل صدّتْ وأعرضت صُدودَ شمُوسِ الخيل صَلَّ لجامها

وفى أخباره أنه مرّ يوما بزوج ليلى ، وهو جالس يصطلى ، فى يومٍ شاتٍ ، فوقف عليه ، ثم قال (٤) :

---

(١) ديوانه ١٠٣ وسمط اللآلى ٢ / ٦٦٠
(٢) تزيين الأسواق ٦١
(٣) ديوانه ٢٤٩ . صل : صوت
(٤) بسط المسامر فى أخبار مجنون بنى عامر ٣٦ والأغانى ١ / ١٦٩ وتزيين الأسواق ٦٣

بربِّك هل ضَمَمْتَ إليك ليلى قُبَيل الصبح أو قبَّلت فاها
وهل رفَّتْ عليك قرون ليلى رفيفَ الأُقحُوانِة فى نداها

فقال : اللهم ، إذْ حلَّفْتَنى ، فنعم ، فقبض المجنون بكلتا يديه قبضتين من الجمر ، فما فارقهما حتى خرمغشيا عليه ، فسقط الجمر مع لحم راحتيه .

وقد يكون هذا من الأخبار ، التى وضعت للسمر ، أو لتفسير هذا الشعر ، وأيا ماكان حظ مثل هذا الخبر من الواقع والحقيقة ، فإن واضعه – على فرض وضعه – كان على دارية بوجود مثل هذه النوازع الحسية عند المجنون وغيره من العذريين ، وأن من كان يُسمرلهم به ، كانوا يدركون مايدركه ، وإلا لما قبلوا منه مثل هذا الخبر ، ورووه عنه .

ومما يروى فى هذا الباب ، أن أم البنين زوج الوليد بن عبد الملك – أو سكينة بنت الحسين أو عائشة بنت طلحة – قالت لعزة ، صاحبة كثيّر : أخبرينى عن قول كثير :

قضى كل ذى ديْنٍ فوفّى غريمه وعزّة ممطولٌ معنًّى غريمها

أخبرينى ماذلك الديْن ؟ قالت : وعدته قبلة ، فتحرجت منها[1] .

ثم ألا يدل ماعبروا عنه من أوصاف جسدية لصواحبهم ، على عدم براءة نوازع العشق عندهم من الرغبات الحسية ؟ وإلا فبماذا نفسر قول جميل السابق – وإن كان تقليديا – وقول قيس بن ذريح ، يصف محاسن لُبْنَى[2] :

إذا مامشت شبراً من الأرض أرجفت من البهر حتى ماتزيد على شبر
لها كَفَلٌ يرتجُّ منها إذا مشتْ ومتنٌ كغصن البان منضمر الخصر

وقول المجنون يصف جمال ليْلى[3] :

بيضاء خالصة البياض كأنها قمر توسط جنح ليل مبردِ
موسومة بالحسن ذات حواسد إن الجمال مظنّةٌ للحسَّدِ
وترى مدامعها ترقرق مقلةً سوداء تعرب عن سواد الإثمد

هذه الأشعار وأمثال لها قاطعة الدلالة ، على أن المحب العذرى لم تبرأ دوافعه تمام

---

(١) وفيات الأعيان ١ / ٥٤٨ ومصارع العشاق ٢٧٥ وخزانة الأدب ٢ / ٣٨٢ والشعر والشعراء ٢٠٣
(٢) تزيين الأسواق ٤٦ .
(٣) تزيين الأسواق ٦١

البراءة من الرغبة فى المتعة الجسدية بمن يعشقها ، وإن كانت هذه الرغبات ظلت حبيسة خياله الشعرى ، لم تتجاوزه إلى دنيا الواقع والحقيقة ؛ إذ لم يكن فى استطاعة البدوية المعشوقة أن تمنح صاحبها شيئا من هذه المتعة ، حتى لو أرادت .

٧ ــ قلة اعتماد الغزل العذرى على أسلوب الحوار ، وهذا راجع إلى الصد ، الذى كان يلاقيه العذريون من صواحبهم ، وماترتب عليه من ندرة اللقاء والوصل ، كما أن العذريين فى العصر الأموى كانوا يعيشون فى ظل قيم بيئية تشبه إلى حد كبير – فيما عدا التأثير الدينى – قيم البيئة التى كانت تحكم المجتمع الجاهلى ، والتى أدت بدورها إلى ضعف هذا الأسلوب فى أشعارهم الغزلة ، إذا استثنينا بعض نماذج منه واضحة فى شعر امرىء القيس ؛ إذ كان أميرا وابن ملك ، وأتيح له مالم يتح لغيره من الاتصال ببعض النساء ، فضلا عما عرف به من الجرأة ، والمغامرة ، فكان بذلك فاتح باب الشعر القصصى ، المرتكز على الحوار ، وممهد سبيله لكل من سلكه من بعده ، كعمر بن أبى ربيعة[١] وغيره .

وجميل أكثر زملائه التفاتا لهذا الأسلوب فى أدائه الشعرى ، إذ حاول أن يرسم بعض المواقف الحوارية بينه وبين بثينة ، من مثل قوله السابق :

إذا قلت : مابى يابثينـــة قاتلى ... من الحب قالت : ثابت ويزيد
وإن قلت : ردى بعض عقلى أعشْ به ... مع الناس قالت : ذاك منك بعيد

وأحيانا يمتد الحوار فى بعض تجارب جميل الغزلية ، فيأخذ صورة أقل سذاجة من حواره السابق ، الذى يقوم على القول ورده ، فى سرعة وإيجاز شديدين ، من ذلك قوله[٢] :

معـارف أطـلال لبثـنة أصبـحتْ ... معارفُها قَفْراً من الحىِّ بلقعـــا
معارف للخوْد الذى قلت : أجملى ... إلينا فقـد أصفيت بالـوُدِّ أجمعا
فقالت : أفق ماعندنا لك حاجة ... وقـد كنت عنـا ذا عزاءٍ مشيَّعـا
فقلت لها : لو كنت أعطيت عنكمُ ... عزاءً لأقللتُ الغـــداة التضرَعـــا
فقالت : أكلَّ الناس أَصبحت مانحاً ... لسانك كيمـا أن تغرَّ وتخدعـــا

---

(١) راجع ماكتبناه عن هذا الأسلوب فى غزل امرىء القيس ، فى كتابنا : أمراء الشعر فى العصر الجاهلى ١٦٥ ، ١٧٠ ــ ١٧٢

(٢) ديوانه ١٢٤ . بلقع : خال من الأنيس . اجملى : ابذلى الجميل . مشيع : ذو أنصار .

غير أن هذا الحوار لا يمثل عنصراً فعالاً فى بناء العمل الفنى وإنمائه عند العذريين ؛ لضعف عنصر الحدث ، وقلة الشخصيات فى تجاربهم ، إذ يقتصر الحوار على شخصين ، وغالبا مايكونان الشاعر وصاحبته .

وأين هذا الحوار الساذج ، من أسلوب الحوار القصصى الجذاب ، الذى ينهض بتحليل الموقف الغزلى وإنماء عناصره ، فى غزل الحضريين ، من أمثال عمر بن أبى ربيعة والعرجى ... وغيرهما .

٨ ـــ يقترب الغزل العذرى من الغزل الحضرى الحسى ، من حيث البناء الفنى للعمل الشعرى ، حيث تحققت لكل منهما وَحْدة الموضوع ، التى تفتقدها كثير من القصائد فى الشعر الجاهلى والإسلامى ، عند غير شعراء الغزل الحجازى بنوعيه .

فبالنسبة للغزل العذرى الأموى ، نجد القصيدة العذرية تصور عواطف مجردة فى العشق ، تعبر عن حالات شعورية متجانسة ، أو متقاربة ، من الحرمان ، والشوق ، وتصوير الآلام ، والذكريات الحزينة المحرومة ، وجذبات الوجد .... ونحوها ، مما يضفى على القصيدة أو المقطعة العذرية نوعا من الانسجام الشعورى ، تترابط فيه هذه المشاعر ، وتتعانق ؛ لتحقق لها وحدة فنية واضحة فى جوها العام .

هذه النظرةُ عامةٌ ، لاتستقصى كل نماذج الغزل عند العذريين ، بمعنى أن هذه النماذج قد تتفاوت بالنسبة لحظها من وحدة البناء الفنى ، من حيث ترتيب أجزائها وتماسكها ، فتبرز هذه الوحدة وتتضح فى بعضها ، ويقل حظها من التماسك فى نماذج أخرى ، بل قد تختلف من شعر شاعر إلى آخر ، كما تختلف فى القصائد الطوال عنها فى القصائد الأقل طولا .

وبصفة عامة ، كلما طالت القصيدة العذرية ، قل تماسكها ، واختل ترتيب أجزائها ، وأصبحت كيانا يضم جزئيات شعورية متناثرة ، لايربط بينها إلا طبيعة التجربة العاطفية العامة ، بحيث يمكن المخالفة فى ترتيب عناصرها ، او إسقاط بعضها دون أن يلاحظ هذا النقص فيها .

أما المقطعات العذرية ، فهى أقوى نماذج الغزل العذرى تحقيقا للوحدة الشعورية والفنية وأوفرها حظا منهما ، وأكثرها استقصاء للحظة الشعور ، أو الصورة الشعرية ، لأنها

تعالج فى الغالب خاطرة واحدة ، أو حالة نفسية متميزة إلى حد ما ، حتى ليمكن فى كثير من الأحيان أن نلخصها ، أو نلخص طبيعة تجربتها فى عبارة ، نجعل منها عنوانا لها ، ولعل هذا مايسّر لبعض محققى دواوين العذريين ، أن يقدموا مقطعات غزلهم تحت عناوين ، فى عصرنا هذا ، وليس هذا شيئا جديدا كل الجدة على الشعر العربى القديم ، لكنه لمّا مثل ظاهرة تكاد تطرد فى المقطعات أو القصائد القصيرة العذرية ، عُدَّ مخالفة جديدة ، أو كالجديدة لطبيعة القصيدة العربية القديمة بشكل عام .

ومن نماذج اكتمال الوحدة الموضوعية والفنية فى المقطعات العذرية ، هذه المقطعة أو القصيدة القصيرة لجميل ، التى تعالج معنييْ الشوق الملهوف ، والوفاء الصادق [1] :

ألا هل إلى إلمامةٍ أن أُلِمَّها ... بثينة يوماً فى الحياة سبيل ؟
على حين يسلو الناسُ عن طلب الصِّبا ... وينسى اتِّباع الوصل منك خليل
فإن هى قالت : لاسبيل ، فقل لها: ... عناء على العذرىِّ منك طويل
ألا لاأبالى جفوة الناس إن بدا ... لنا منك رأى يابثين جميل
ومالم تطيعى كاشحاً أو تَبَدَّلى ... بنا بدلاً أو كان منك ذهول
وإن صباباتى بكم لكثيرة ... بثين ، ونسيانيكُمُ لقليل
يقيك جميلٌ كل سوءٍ أَمَالَهُ ... لديك حديث أو إليك رسول ؟
وقد قلت فى حبى لكم وصبابتى ... محاسن شعر ذكرهن يطول
فإن لم يكن قولى رضاك فعلِّمى ... هبوبَ الصَّبا يابَثْنُ - كيف أقول؟
فما غاب عن عينى خيالك لحظة ... ولا زال عنها والخيال يزول

إنها نغمة منسابة تبدأ بالتطلع والمنى ، وتتوسط بالتحنان والتلطف ، وتنتهى بالتسليم والثبات على العشق ، والإعراب عن الإخلاص فيه ، ومن هنا جاءت كلاً متماسك الأجزاء ، أى عبث بجزء منه ، أو الإخلال بوضعه وترتيبه ، يفسده ويقوض أركانه .

وقد تكون مقطعة الصِّمة القشيرى فى الحنين إلى ريَّا وتذكرها ، من النماذج التى تعكس الوحدة الفنية الشعورية المتكاملة ، القائمة على تصوير حركات النفس ، من اللوم

---

(١) ديوانه ٥١

والحزن اليائس ، والحنين الجارف ، والحسرة المحرقه[١] :

أَمِنْ ذِكْرِ دارٍ بالرَّقَاشَيْن أصبحت	بها عاصفات الصيف بدءاً ورُجَّعا
حَنَنْتَ إلى رَيَّاً ونفسك باعدتْ	مزارك من رَيّا وسعيا كما معا
فماحسنٌ أن تأتى الأمرَ طائعاً	وتجزع أن داعى الصبابة أسمعا
كأنك لم تشهد وداع مفارقٍ	ولم تَرَ شعْبى صاحبين تقطعا
بكت عينى اليسرى فلما زجرتها	عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا
تلفتُّ نحو الحىّ حتى وجدتنى	رجعت من الإصغاء ألوى وأجزعا
وأذكر أيام الحِمَى ثم انثنى	على كبدى من خشيةٍ أن تصدَّعا
فليست عشيات الحمى برواجع	عليك ولكن خلِّ عينيك تدمعا

ولما كانت التجربة العذرية قائمة فى الغالب ، على هذا التعبير الشعورى ذى الطابع الحزين ، توافر حظها من الانسجام والترابط بين أجزائها ، بحكم هذا الإطار الشعور الغالب .

٩ - نهض شعر العذريين بعامة ، والأمويين بخاصة ، بتطوير المعجم الشعرى ؛ إذ كانت تجاربهم العاطفية المباشرة تقتضيهم الاعتماد على الألفاظ ذات الدلالات الشعورية القوية ، والطاقة الانفعالية الواضحة ، كما تتطلب منهم الجنوح إلى العبارات البسيطة الجلية ، التى تعكس بساطة تجاربهم ووضوحها .

ومن خلال دراستنا السابقة لأشعار العذريين لاحظنا مرارا ، أن تجاربهم واضحة محدودة المعالم والأبعاد ، لاتكاد تختلف كثيرا من شاعر إلى آخر ، كما أنها وليدة جيشان عاطفى متصل ، يمضى - غالبا - فى تيار واحد ، يخلو من المفارقة والتركيب والتلوين ، مما جعل شعرهم أشبه بالشعر التلقائى ، الذى يعبر فيه الشاعر تعبيرا مباشرا عما يجده ، ويحس به ، لايتكلف أو يتعسف فى المعنى أو اللفظ ، وأنسب لغة لهذا الشعر التلقائى ، هى الألفاظ المألوفة المشتركة بين الناس ، التى اكتسبت من الحياة والممارسة قدرة على التأثير ، والإيحاء فى مجال التعبير العاطفى .

---

(١) شرح الحماسة للمرزوقى ٣ / ١٢١٥ والأغانى ٥ / ١٢٧ وأمالى القالى ١ / ١٩٣

ويصاحب تلك البساطة ، وهذا الوضوح فى اللغة « بساطة ووضوح فى الصورة الشعرية » وما حاجة الشاعر العذرى إلى التركيب والقصد إلى الافتنان فى هذه الصورة ؟ وهو إنما يعتمد فى شعره التلقائى على إيحاء الألفاظ » وحرارة العاطفة ، يقول الدكتور شكرى فيصل ، بعد أن عرض نماذج من شعر جميل [١] : « ونحن لانحس لدن قراءة هذه القطع أننا أمام فنان يعمل عقله فى شعره ، وإنما نحس أننا أمام شاعر يتحدث بنفسه عما يجيش بنفسه ، ومن هنا لم نشهد عند جميل ماكنا شهدناه عند الشعراء الجاهليين من كثرة التشابيه والصور .. تمضى القطعة كلها » وليس فيها أية صورة أو استعارة ، وتنساب على أنها حديث عادى » وحكاية حال يقصها الشاعر ، ولكنما يقصها فى أُسىً وزفرة ، ويعرضها ، ولكنما يعرض معها قلبه وانفعالاته » فإذا هذه الانفعالات » ومايصحبها من مشاهدة الحياة الداخلية وتقلقلها » والتأثرات التى تكسوها ، تعوض عن الصورة التى تعود الشعراء أن ينشروها فى قطعهم بين البيت والبيت ، والشطر والشطر » ومن هنا لم تكن البراعة الفنية عند جميل » وعند أمثاله ، من الشعراء العذريين فى أساليبهم البيانية » وإنما كانت قبل كل شيء ، وأكثر كل شيء ، فى تعرفهم لسرائر النفوس » وفى عرضهم لها عرضا يسيراً » .

ونستطيع أن نضيف إلى ماذكره الدكتور شكرى فيصل ماسبق أن أشرنا إليه ، من اعتماد العذريين على الألفاظ العاطفية ، القوية الإيحاء ، الانفعالية ، الشديدة التأثير ، فقد دفعوا إلى ميدانهم الشعرى بحشد من هذه الألفاظ ، على نحو غير مألوف من قبل ونظموا منها عباراتهم الشعرية » فأكسبت شعرهم مذاقا خاصا ، وأعطته قيمة فنية ولغوية ميزته عن شعر سابقيهم ومعاصريهم .

ولنتأمل هذين البيتين :

ولى كبد مقروحة من يبيعنى   بها كبدا ليست بذات قروح
أئن من الشوق الذى فى جوانبى   أنين غصيص بالشراب جريح

فالكبد المقروحة ، والأنين ، وهذه الصورة البسيطة لجريح يغص بالشراب » تعبير مباشر صريح واضح ، لايتحرج الشاعر فيه من أن يكشف مايعتلج فى داخله من حرقة ، أو يثقلها من ألم ويأس .

---

(١) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ٢٧٢

ويقال مثل هذا ، فيما اختاروا من صيغ ذات دلالة عاطفية مباشرة قوية ، تتردد كثيرا فى تجاربهم الشعرية ، وقد أشرنا إلى بعضها خلال دراستنا لبعض تجاربهم ، ولاحظنا تكرارها فى نماذجهم ، كصيغ الندبة ، والنداء ، والاستفهام ، والأمر ، والتمنى ، وتكرارهم لهذه الصيغ إنما هو محاولة منهم للاستعاضة بها عن الصور التشبيهية والمجازية ، فى إبراز أحاسيسهم ، وتقوية الإحساس بها .

ولا ستفاضة هذا الأسلوب ، أو هذا الاتجاه التعبيرى فى شعر العذريين ، وفيما أوردناه من نماذجه ، نضرب عن التمثيل له هنا ، اكتفاء بما مر ، فقط ، نسوق نموذجا واحدا للتذكير بقيمة هذا الاتجاه ، ويتمثل فى صيغة التمنى ، فى قول جميل السابق :

فياليت شعرى هل أبيتن ليلة كليلتنا حتى نرى ساطع الفجر

فياليت ربى قد قضى ذاك مرة فيعلم ربى عند ذلك ماشكرى !!

* * *

أخيرا ، فإن التلقائية التى امتاز بها الغزل العذرى ، وماصاحبها من وضوح وسهولة فى اللغة ، والعبارة والصورة ، وما واكبها من توافر التنغيم الموسيقى ، تعد ظاهرة أكثر وضوحا وتطورا فى شعر الامويين ، منها فى شعر الجاهليين .

ولسهولة هذا الغزل العذرى الأموى ، ومايتسم به من تلقائية عذبة ، أقبل الملحنون والمغنون عليه ، كما أقبلوا على قسيمه الغزل الحضرى الأموى ، إقبالا ملحوظا ، حتى بلغت الأصوات التى غنيت فى شعر جميل تسعة وعشرين صوتا [١] ، كما أخذ المغنون عدة ألحانٍ من شعر قيس بن ذريح [٢] ، وغيره من العذريين الأمويين .

* * *

والحمد لله أولا وآخرا

---

(١) انظر مقدمة ديوانه ١٧

(٢) انظر مقدمة ديوانه ٥١

فهرس المصادر والمراجع

١ ـــ القرآن الكريم
٢ ـــ آداب الشافعي ومناقبه : أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى ـــ حلب ١٩٥٣ م
٣ ـــ اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى : د . محمد مصطفى هدارة ـــ دار المعارف بمصر ١٩٦٣ م
٤ ـــ أخبار النساء : ابن القيم الجوزية : طبعة التقدم ١٣١٩ هـ
٥ ـــ أدب السياسة فى العصر الأموى : د . أحمد الحوفى ـــ الطبعة الثالثة ١٩٦٩ م
٦ ـــ أدب الخوارج : د . سهير القلماوى : لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥ م
٧ ـــ الأدب فى عصر النبوة والراشدين : د . صلاح الدين الهادى ـــ الطبعة الثانية ١٩٨٠ م
٨ ـــ أساس البلاغة : أبو القاسم الزمخشرى : دار الكتب المصرية ١٩٥٣ م
٩ ـــ أسماء المغتالين والأشراف : محمد بن حبيب (نوادر المخطوطات)
١٠ ـــ الاشتقاق : أبو بكر بن دريد : طبعة الخانجى ١٩٥٨ م
١١ ـــ أصل الشيعة وأصولها : آل كاشف الغطاء الطبعة العاشرة ١٩٥٨ م
١٢ ـــ الأعلام : خير الدين الزركلى : مطبعة كوستا ـــ القاهرة ١٩٥٤ م
١٣ ـــ الأغانى : أبو الفرج الأصبهانى : الساسى ، وطبعة دار الكتب .
١٤ ـــ ألقاب الشعراء : محمد بن حبيب (نوادر المخطوطات) ١٩٥٤ م
١٥ ـــ الأمالى : أبو على القالى ـــ طبعة بولاق ١٣٢٤ هـ
١٦ ـــ أمالى الزجاجى : أبو القاسم الزجّاجى ـــ طبعة السعادة ١٣٢٤ هـ وطبعة المدنى ١٩٦٣ م
١٧ ـــ أمالى المرتضى : الشريف على بن الحسين الموسوى : طبعة الحلبى ١٩٥٤ م
١٨ ـــ الإمتاع والمؤانسة : أبو حيان التوحيدى : طبعة مكتبة الحياة ـــ بيروت
١٩ ـــ أمراء الشعر فى العصر الجاهلى : د . صلاح الدين الهادى ـــ القاهرة ١٩٧٥ م
٢٠ ـــ أنساب الأشراف : البلاذرى (الجزء الرابع) الطبعة الأوربية .
٢١ ـــ أيام العرب فى الإسلام : أبو الفضل إبراهيم وعلى البجاوى ـــ الطبعة الثالثة ـــ الحلبى ١٩٦٨ م
٢٢ ـــ بدائع البدائه : على بن ظافر الأزدى (على هامش معاهد التنصيص) .
٢٣ ـــ البداية والنهاية : ابن كثير ـــ طبعة السعادة ١٩٣٢ م
٢٤ ـــ بسط المسامر فى أخبار مجنون بنى عامر : أبو عبد الله محمد بن على الدمشقى ـــ القاهرة ١٩٦٤ م

٢٥ ـ بلاغات النساء : أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر ـ القاهرة ١٩٠٨ م
٢٦ ـ البيان والتبيين : أبو عثمان الجاحظ ـ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٨ م
٢٧ ـ تاريخ آداب اللغة العربية : جورجى زيدان ـ الطبعة الثالثة ١٩٣٦ م
٢٨ ـ تاريخ الإسلام السياسى : د حسن إبراهيم ـ الطبعة الرابعة ١٩٥٧ م
٢٩ ـ تاريخ الأمم الإسلامية : الشيخ محمد الخضرى ـ الطبعة السادسة ١٣٧٠ هـ
٣٠ ـ تاريخ الشعر السياسى : أحمد الشايب ـ مطبعة النهضة المصرية ١٩٥٣ م
٣١ ـ تاريخ الشعر العربى حتى أواخر القرن الثالث الهجرى : د . محمد نجيب البهبيتى ـ دار الكتب ١٩٥٠ م
٣٢ ـ تاريخ الشعوب الإسلامية : كارل بروكلمان (مترجم) بيروت ١٩٤٨ م
٣٣ ـ تاريخ الطبرى : محمد بن جرير الطبرى ـ طبعة الحسينية . دون تاريخ
٣٤ ـ تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى : د . على حسن الخربوطلى ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٩ م
٣٥ ـ تاريخ الفلسفة فى الإسلام : ت . ج . دى بور (مترجم) القاهرة ١٣٩٨ هـ
٣٦ ـ تاريخ النقائض فى الشعر العربى : أحمد الشايب ـ طبعة الاعتماد ١٩٤٦ م
٣٧ ـ تحفة الأحوزى بشرح جامع الترمذى : الحافظ أبو العلى المباركفورى ـ دار الفكر ١٩٧٩ م
٣٨ ـ التذكرة السعدية فى الأشعار العربية : محمد بن عبد الرحمن العبيدى ـ طبعة النجف ١٩٧٢ م
٣٩ ـ تزيين الأسواق : داود الأنطاكى ـ دار الطباعة ١٢٩١ هـ
٤٠ ـ تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام : د . شكرى فيصل
٤١ ـ التطور والتجديد فى الشعر الأموى : د . شوقى ضيف ـ الطبعة الثانية ١٩٥٩ م
٤٢ ـ تفسير الطبرى (جامع البيان فى تفسير القرآن) : ابن جرير الطبرى ـ طبعة بولاق ١٣٢٥ هـ
٤٣ - تيارات ثقافية بين العرب والفرس : د . أحمد الحوفى ـ الطبعة الثالثة ١٩٧٨ م
٤٤ ـ جريدة السياسة : العدد ١٧ بتاريخ ١٠ ديسمبر ١٩٢٤ م
٤٥ ـ جميل بثينة : عباس محمود العقاد ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٤ م
٤٦ ـ حديث الأربعاء : د . طه حسين ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٩ م

٤٧ ــ حلية الأولياء : أبو نعيم الأصبهانى ١٩٣٥ م
٤٨ ــ الحماسة : أبو تمام ــ بتحقيق الدكتور عبد الله عسيلان ــ الرياض (١٩٨١ م)
٤٩ ــ حماسة الظرفاء : أبو محمد العبدلكانى ــ دار الحرية للطباعة ــ بغداد ١٩٧١ م
٥٠ ــ حياة الشعر فى الكوفة : د . يوسف خليف ــ دار الكاتب العربى ١٩٦٨ م
٥١ ــ الحيوان : أبو عثمان الجاحظ ــ طبعة السعادة ١٣٢٥ هـ
٥٢ ــ خزانة الأدب : عبد القادر البغدادى ــ طبعة بولاق ١٢٩٩ هـ
وطبعة السلفية ١٣٥١ هـ
٥٣ ــ الخوارج والشيعة : يوليوس فلهوزن (مترجم) القاهرة ١٩٥٨ م
٥٤ ــ دراسات فى الشعر الجاهلى : د . محمد أبو الأنوار ــ القاهرة ١٩٧٥ م
٥٥ ــ دولة الأمويين : د . على حببية ــ القاهرة ١٩٧٨ م
٥٦ ــ ديوان الأحوص (شعر الأحوص الأنصارى) بعناية عادل سليمان ــ القاهرة ١٩٧٠ م
٥٧ ــ ديوان الأخطل (شعر الأخطل) طبعة الكاثوليكية ــ بيروت ١٨٩١ م
٥٨ ــ ديوان أبو الأسود الدؤلى : بعناية محمد حسن آل ياسين ــ بيروت ١٩٧٤ م
٥٩ ــ ديوان امرىء القيس ــ طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٥ م
٦٠ ــ ديوان بشار بن برد : بتحقيق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ــ القاهرة ١٩٥٠ - ١٩٥٧ م
٦١ ــ ديوان توبة بن الحُميرِّ ــ مطبعة الإرشاد ــ بغداد ١٩٦٨ م
٦٢ ــ ديوان جرير : نشرة الصاوى .
٦٣ ــ ديوان جميل بثينة : بتحقيق الدكتور حسين نصار ــ الطبعة الثانية ١٩٦٧ م
٦٤ ــ ديوان حسان بن ثابت : بعناية البرقوقى ــ طبعة السعادة ، دون تاريخ
٦٥ ــ ديوان زهير بن أبى سلمى : بعناية الدكتور أحمد طلعت ــ بيروت ١٩٦٨ م
٦٦ ــ ديوان سُحَيْم عبد بنى الحسحاس ــ دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م
٦٧ ــ ديوان سراقة البارق : بعناية الدكتور حسين نصار .

٦٨ – ديوان الشّماخ بن ضرار الذبيانى : بتحقيق الدكتور صلاح الدين الهادى ــ دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م

٦٩ ــ ديوان الصبابة : ابن أبى جحلة المغربى (على هامش تزيين الأسواق) .

٧٠ ــ ديوان طرفة بن العبد : بعناية الدكتور على محمد الجندى ــ القاهرة ١٩٥٨ م

٧١ ــ ديوان الطرماح بن حكيم : بعناية الدكتور عزت حسن ــ وزارة الثقافة بدمشق ١٩٥٦ م

٧٢ ــ ديوان عبد الرحمن بن حسان بن ثابت : طبعة بغداد ١٩٧١ م

٧٣ ــ ديوان عبد الله بن الزّبير الأسدى (شعر عبد الله ...) جمع يحيى الجبوّرى ــ بغداد ١٩٧٤ م

٧٤ ــ ديوان عبيد بن الأبرص : بتحقيق الدكتور حسين نصار ــ القاهرة ١٩٥٧ م

٧٥ ــ ديوان العرجى : بعناية خضر الطائى وآخر ــ بغداد

٧٦ ــ ديوان عمر بن أبى ربيعة : بعناية محمد محيى الدين : طبعة السعادة ١٩٦٠ م

٧٧ ــ ديوان الفرزدق : نشرة الصاوى ١٩٣٦ م ، ونشرة بيروت .

٧٨ ــ ديوان ابن قيس الرقيات ــ بيروت .

٧٩ ــ ديوان قيس بن الخطيم : بعناية الدكتور إبراهيم السامرائى وآخر ــ بغداد ١٩٦٢ م

٨٠ ــ ديوان قيس بن ذُريح : بتحقيق الدكتور حسين نصار ــ القاهرة ١٩٦٠ م

٨١ ــ ديوان كثيّر عزّة : بتحقيق إحسان عباس ــ دار الثقافة ــ بيروت ١٩٧١ م

٨٢ ــ ديوان الكميت بن زيد (هاشميات الكميت) .

٨٣ ــ ديوان لبيد بن ربيعة : بتحقيق إحسان عباس ــ الكويت ١٩٦٢ م

٨٤ ــ ديوان ليلى الأخيلية : طبعة دار الجمهورية ببغداد ١٩٦٧ م

٨٥ ــ ديوان مجنون بنى عامر : بعناية عبد الستار فراج .

٨٦ ــ ديوان المعانى : أبو هلال العسكرى ــ طبعة المقدسى ١٣٥٢ هـ

٨٧ ــ ديوان نابغة بنى شيبان : طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٢ م

٨٨ ــ ديوان النابغة الذبيانى ــ بعناية كرم البستانى ــ بيروت ١٩٦٣ م

٨٩ـ ذيل الأمالى : أبو على القالى (ملحق بالأمالى)
٩٠ـ رسائل الجاحظ : أبو عثمان الجاحظ ـ طبعة الخانجى ١٩٦٤ م
٩١ـ زهر الآداب : أبو إسحاق الحصرى ـ طبعة الرحمانية ١٩٢٥ م
٩٢ـ سمط اللآلىء : أبو عبيدة البكرى ـ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦ م
٩٣ـ سنن أبى داود – طبعة دار إحياء النسة النبوية ـ دون تاريخ .
٩٤ـ سنن ابن ماجه – طبعة الحلبى ١٩٥٤ م .
٩٥ـ السيرة النبوية (سيرة ابن هشام) الطبعة الثانية ـ الحلبى ١٩٥٥ م
٩٦ـ شاعر الغزل : عمر بن أبى ربيعة : عباس محمود العقاد ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٥ م
٩٧ـ شرح ديوان الحماسة للمرزوق ـ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٢ م
٩٨ـ شرح رسالة الحور العين : ابن نشوان الحميرى ـ طبعة السعادة ١٩٤٨ م
٩٩ـ شرح المفضليات : أبو القاسم محمد بن الأنبارى ـ طبعة بيروت ١٩٢٠ م
١٠٠ـ شرح نهج البلاغة : ابن أبى الحديد ـ طبعة الحلبى ١٩٥٩ م
وطبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر ١٣١٩ هـ
١٠١ـ شعراء النصرانية : لويس شيخو ـ بيروت ١٨٩٠ م
١٠٢ـ الشعر الأموى ، دارسة فى التقاليد والأصالة الفنية : د . محمد فتوح ـ القاهرة ١٩٧٧ م
١٠٣ ـ شعر الحرب : د . على محمد الجندى ـ مطبعة الرسالة ١٩٥٨ م
١٠٤ـ شعر الخوارج : جمع إحسان عباس ـ دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٣ م
١٠٥ـ الشعر والشعراء : أبو محمد بن قتيبة ـ الطبعة الثانية ـ المعاهد ١٩٣٤ م
١٠٦ـ الشعر العربى بين الجمود والتطور : د . محمد عبد العزيز الكفراوى ـ القاهرة ١٩٥٨ م .
١٠٧ـ الشمّاخ بن ضرار الذبيانى ، حياته وشعره : د . صلاح الدين الهادى ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م
١٠٨ـ الشوقيات : أحمد شوقى ـ المكتبة التجارية بمصر .

١٠٩ــ الشيعة فى التاريخ : الشيخ محمد حسن الدين ــ الطبعة الثانية ــ بيروت ١٩٧٩ م

١١٠ــ الشيعة فى الميزان : محمد جواد مغنية ــ دار التعارف ببيروت ــ دون تاريخ .

١١١ــ ضحى الإسلام : أحمد أمين ــ الطبعة الثالثة ١٩٤٣ م

١١٢ــ طبقات الشعراء : ابن المعتز ــ طبعة المدنى ١٩٧٤ م

١١٣ــ طبقات فحول الشعراء ــ محمد بن سلام الجمحى ــ دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م

وطبعة المدنى ١٩٧٤

١١٤ــ الطبقات الكبرى : أبو عبد الله محمد بن سعد ــ طبعة بيروت ١٩٥٧ وطبعة ليدن .

١١٥ــ العبر فى خبر من غبر : أبو عبد الله الحافظ الذهبى ــ طبعة الكويت ١٩٦٠ م

١١٦ــ عقائد الإمامية : الشيخ محمد رضا المظفر الطبعة الثامنة ــ القاهرة ١٩٧٣ م

١١٧ــ العقد الفريد : ابن عبد ربه ــ طبعة الجمالية ١٩١٣ م

وطبعة بولاق ١٢٩٣ هـ

١١٨ــ العقيدة والشريعة فى الإسلام : جولد زيهر (مترجم) دار الكاتب المصرى ١٩٤٦ م

١١٩ــ عقيدة الشيعة : دوايت . م . رونلدسن (مترجم) ــ طبعة السعادة ١٩٤٦ م

١٢٠ــ عيون الأخبار : أبو محمد ابن قتيبة ــ دار الكتب المصرية ١٩٢٥ م

١٢١ــ الغزل فى العصر الجاهلى : د . أحمد الحوفى ــ الطبعة الثالثة ١٩٧٣ م

١٢٢ــ فجر الإسلام : أحمد أمين ــ الطبعة الثانية ــ الاعتماد ١٩٣٣ م

١٢٣ــ الفرق بين الفرق : عبد القاهر البغدادى ــ طبعة المعارف ــ دون تاريخ .

١٢٤ــ الفهرست : ابن النديم ــ طبعة الرحمانية ١٣٤٨ هـ

١٢٥ــ فوات الوفيات : ابن شاكر الكتبى ــ طبعة بولاق ١٢٨٣ هـ

١٢٦ــ فى الشعر الإسلامى والأموى : د. عبد القادر القط ــ بيروت ١٩٧٩ م

١٢٧ــ القاموس المحيط : مجد الدين الفيروزبادى ــ الطبعة الثانية ــ الحسينية ١٣٤٤ هـ

١٢٨ـــ قصة الحضارة الفارسية : ول . ديورانت (مترجم) القاهرة ١٩٥٢ م

١٢٩ـــ القيم الروحية فى الشعر العربى : ثريا عبد الفتاح مَلْحَس ـــ بيروت .

١٣٠ـــ الكامل (فى التاريخ) : ابن الأثير ـــ الطبعة الأميرية .

وطبعة بيروت ١٩٦٥ م

١٣١ـــ الكامل (فى اللغة والأدب) : أبو العباس المبرد : المطبعة الأزهرية ١٣٣٩ هـ

وطبعة الاستقامة ١٣٦٤ هـ

١٣٢ـــ كتاب التيجان فى ملوك حمير : أبو محمد عبد الملك بن هشام ـــ طبعة حيدر أباد ١٣٤٧ هـ

١٣٣ـــ كُنى الشعراء : محمد بن حبيب (نوادر المخطوطات) القاهرة ١٩٥٤ م

١٣٤ـــ المؤتلف والمختلف : أبو القاسم الآمدى ـــ طبعة القدسى ١٣٥٤ هـ

١٣٥ـــ مجالس ثعلب : دار المعارف بمصر ١٩٦٠ م

١٣٦ـــ مجالس العلماء : أبو القاسم الزجاجى ـــ طبعة الكويت ١٩٦٢ م

١٣٧ـــ المختصر فى أخبار البشر : أبو الفدا ـــ طبعة الحسينية دون تاريخ

١٣٨ـــ مروج الذهب : أبو الحسن المسعودى ـــ طبعة السعادة ١٩٥٨ م

وطبعة البهية ١٣٤٦ هـ

١٣٩ـــ مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار : ابن فضل الله العمرى ـــ دار الكتب المصرية ١٩٢٤ م .

١٤٠ـــ مصارع العشاق : أبو جعفر السراج ـــ طبعة الجوائب ـــ القسطنطينية ١٣٠١ هـ

١٤١ـــ معاهد التنصيص : عبد الرحيم بن عبد الرحمن العباسى ـــ طبعة البهية ١٣١٦ هـ

١٤٢ـــ معجم الأدباء : ياقوت الحموى ـــ طبعة دار المأمون ١٩٣٦ م

١٤٣ـــ معجم البلدان : ياقوت الحموى ـــ طبعة السعادة ١٩٠٦ م

١٤٤ـــ معجم الشعراء : أبو عبد الله المرزبانى ـــ طبعة القدسى ١٣٥٤ هـ

١٤٥ـــ المعمَّرون والوصايا : أبو حاتم السجستانى ـــ طبعة الحلبى ١٩٦١ م

١٤٦ـــ المفضليات : المفضل بن محمد الضبِّى ـــ دار المعارف بمصر ١٩٦١ م

١٤٧ــ مقاتل الطالبيين : أبو الفرج الأصبهانى ــ طبعة الحلبى ١٩٤٩ م
١٤٨ــ المقاصد النحوية فى شرح شواهد شروح الألفية (الشواهد الكبرى) : بدر الدين العينى ــ على هامش خزانة الأدب طبعة بولاق .
١٤٩ــ مقالات الإسلاميين : الإمام أبو الحسن الأشعرى ــ النهضة المصرية ١٩٥٠ م
١٥٠ــ مقدمة ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون ــ المطبعة الأدبية ــ بيروت ١٩٠٠ م
١٥١ــ الملل والنحل : أبو الفتح الشهرستانى ــ المطبعة الأدبية ١٣١٧ هـ (على هامش كتاب الفصل لابن حزم) .
١٥٢ــ الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء : أبو عبد الله المرزبانى ــ طبعة السلفية ١٣٤٣ هـ
١٥٣ــ النقائض : أبو عبيدة معمر بن المثنى ــ طبعة ليدن ١٩٠٥ م
١٥٤ــ النوادر : أبو على القالى (ملحق بالأمالى) .
١٥٥ــ وفيات الأعيان : ابن خلكان ــ طبعة السعادة ١٩٤٨ م
١٥٦ــ وقعة صفين : نصر بن مزاحم المنقرى ــ طبعة الخانجى ١٩٨١ م

* * *

فهرس الموضوعات

الفصل الأول

الفصل الرابع

شعر الخصومة الفردية الأدبية (النقائض) ٢٦٥ - ٣٤٢

الفصل الخامس

الغزل فى حضر الحجاز ٣٤٣ - ٤٢٢



رقم الإيداع ١٩٨٦/٥٣٦٥ م

الترقيم الدولى ٣ - ٠٢٤ - ٥٠٥ - ٩٧٧



الناشر

مكتبة الخانجي بالقاهرة

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر

٦٨ شارع العباسية – القاهرة ت :